

هربرت فيشر

أصول النازيخ الأوربي^٣ الحديث

من النهضة الأوربية
إلى الثورة الفرنسية

الطبعة الثالثة



دار المعارف بمصر

اهداءات ٢٠٠١

لمستشار/ رابع لطفي جمعة

القاهرة

أصول التاريخ الأوربي الحديث

من النهضة الأوربية إلى الثورة الفرنسية

تأليف

هربرت فيشر

نقله إلى العربية

الدكتور أحمد عبد الرحيم مصطفى

مدرس التاريخ الحديث
بجامعة عين شمس

الدكتورة زينب عصمت راشد

أستاذة التاريخ الحديث المساعدة
بجامعة عين شمس

مراجعة

الدكتور أحمد عزت عبد الكريم

أستاذ التاريخ الحديث
عميد كلية الآداب بجامعة عين شمس

الطبعة الثالثة



دار المعارف بمصر

فهرس

الصفحة

٥	مقدمة
٧	الفصل الأول : أوروبا الجديدة
٢٩	» الثاني : النهضة الإيطالية
٤٧	» الثالث : فرنسا وبرجندية
٥٥	» الرابع : النهضة الألمانية
٦٣	» الخامس : ملكية جديدة في إنجلترا
٧١	» السادس : تنافس فرنسا وإسبانيا على إيطاليا
٨٩	» السابع : خطر الأتراك العثمانيين
٩٥	» الثامن : الإصلاح الديني في ألمانيا
١١١	» التاسع : خروج إنجلترا على كنيسة روما
١٣١	» العاشر : إمبراطورية شارل الخامس
١٤٩	» الحادى عشر : عقيدة كلفن
١٥٧	» الثانى عشر : ألمانيا تتفق على ألا تتفق
١٦٧	» الثالث عشر : الإصلاح الكاثوليكي
١٨٣	» الرابع عشر : الحروب الدينية في فرنسا
١٩٩	» الخامس عشر : قيام الجمهورية الهولندية
٢٢١	» السادس عشر : إنجلترا وإسبانيا
٢٣٥	» السابع عشر : حرب الثلاثين عاماً
٢٥٩	» الثامن عشر : انتصارات مزران

الصفحة

٢٦٩	الفصل التاسع عشر : الثورة العظمى في إنجلترا . . .
٢٩٧	» العثرون : زعامة فرنسا . . .
٣٢١	» الحادى والعثرون : الوراثة الإسبانية . . .
٣٣٩	» الثانى والعثرون : القرن الثامن عشر فى إنجلترا وفرنسا . . .
٣٥٣	» الثالث والعثرون : شهاب من السويد . . .
٣٦٠	» الرابع والعثرون : بطرس قيصر روسيا . . .
٣٧٢	» الخامس والعثرون : الترك والعالم المسيحى . . .
٣٨٤	» السادس والعثرون : السلام وبروسيا . . .
٣٩٥	» السابع والعثرون : الحرب فى أوربا (١٧٤٠ - ١٧٦٣) . . .
٤١٩	» الثامن والعثرون : حرب الاستقلال الأمريكية . . .
٤٢٨	» التاسع والعثرون : إنجلترا مصنع العالم . . .
٤٤١	جدول ترتيب تسلسل الأسر المالكة . . .
٤٥١	الخرايط . . .

الهوامش من وضع المترجمين

مقدمة الترجمة

أخيراً نقدم لقراء العربية ما تبقى من ترجمة كتاب « تاريخ أوربا » لهربرت فيشر. فقد سبق أن ظهرت ترجمة لكل عصر من عصور التاريخ الأوربي العام : عصر التاريخ القديم — وقد قام بترجمته الأستاذان الدكتور إبراهيم نصحي والدكتور محمد عواد حسين ؛ وعصر التاريخ الوسيط — وقد قام بترجمته الأستاذ الدكتور محمد مصطفى زيادة والدكتور السيد الباز العريفي. والدكتور إبراهيم العدوي ؛ والتاريخ الحديث والمعاصر — وقد قام بترجمته الأستاذان أحمد نجيب هاشم ووديع الضبع. أما ترجمتنا هذه فتتناول الفترة الواقعة ما بين نهاية العصور الوسطى والثورة الفرنسية ، وهي الفترة التي يطلق عليها الأستاذ فيشر اسم عصر النهضة والإصلاح الديني والاحتكام إلى العقل^(١). أما نحن فقد شئنا أن نطلق عليها اسم « أصول التاريخ الأوربي الحديث — من النهضة الأوربية إلى الثورة الفرنسية ».

وصاحب فكرة ترجمة هذا الكتاب هو المؤرخ الكبير أستاذنا « محمد شفيق غربال » الذي اطمأن — قبل أن نفتقده — إلى أن المشروع قد اكتمل وأن ترجمة الكتاب كله قد تمت. فإلى روحه نهدي هذا الجهد ؛ وكل منا قد تأثر به وبمنهجه سواء عن طريق التوجيه العلمي المباشر أو خلال تأليفه التي يستشف منها منهج الأستاذ فيشر وأضرابه: النظرة الكلية الشاملة ، والربط والمقارنة والتركيز ، مع سمو في أسلوب العرض من الناحيتين الإنشائية والموضوعية. ومثل هذا المنهج لا يتأتى إلا لمن أوقى عقلية واعية تميز بين الغث والسمين ، وقرأ قراءات واسعة لا ترتبط بزمان أو بمكان أو بالتخصص الأكاديمي الضيق.

ولقد صدرت في العام الماضي في إنجلترا طبعة جديدة لكتاب فيشر في « تاريخ أوربا » رأى بعض النقاد الإنجليز أنها لم تعد تتماشى مع الروح الحديثة أو تفيد القارئ البريطاني. فالكتاب وضع في فترة كانت فيها إنجلترا صاحبة الكلمة العليا في السياسة

العالمية^(١) . والمؤلف ذاته ينتمى إلى ذلك الطراز « الشكتورى » من المفكرين الإنجليز الذين شهدوا أوج الإمبراطورية البريطانية وتحمسوا لها وتأثروا بها والآن ، ونحن نشهد « تصفية » الإمبراطورية ، لم تعد مثل هذه النظرة تتمشى مع الواقع . أما بالنسبة للقارئ العربى فإن كتاب فيشر لا يزال حيث كان ، لم يفقد طلاوته . فهو يمثل نمطاً من العرض التاريخى قد ينال رضى الصفوة المفكرة وإن لم تتفق معه فى كل ما يذهب إليه ؛ وقد يجد عنتاً من أولئك الذين ينظرون إلى التاريخ باعتباره سجلاً لحوادث يتلو بعضها بعضاً . ولكنه لا شك يثير الإعجاب ويدفع القارئ إلى مزيد من التفكير والاطلاع . وترجمتنا هذه تمثل نقلة الأوربى من العصور الوسطى إلى فلسفات ديكارت وكانت وروسو وأضرابهم من رواد التنوير فى القرن الثامن عشر الذين بشروا بالتسامح والعالمية ونافحوا عن حرية الإنسان وحقه فى العدل والكرامة . وعلى الله قصد السبيل .

المترجمون

نوفبر سنة ١٩٦١ .

(١) طبع الكتاب لأول مرة فى عام ١٩٣٦ .

الفصل الأول أوروبا الجديدة

العصور الوسطى والحديثة - اتساع نطاق العالم - القومية - الرأسمالية - المدفعية - الإصلاح البروتستانتي - خصومات الكاثوليك - الانتشار السريع للإصلاح الديني - عصر الحروب الدينية - أثرها في فرنسا مقارناً بأثرها في ألمانيا - الدبلوماسية الفرنسية ، والحركة البروتستانتية في ألمانيا - خلو إنجلترا من الحروب الدينية - زوال الدافع الديني في الشؤون السياسية إبان القرن الثامن عشر .

ليس من السهل على الباحث أن يحدد تاريخاً فاصلاً بذاته بين العصرين الوسيط والحديث ؛ فالانتقال بينهما حدث بالتدريج ولم يسر على وتيرة واحدة ؛ ثم هو في بلد ما أسرع وأكمل منه في بلد آخر ؛ هذا إلى أن التحول لم يعم العالم بأسره بحيث تركه خالياً من رواسب العصور الوسطى ؛ كما أنه في العصور الوسطى نفسها لمعت هنا وهناك ومضات للعقل البشري يبدو أنها لا تمت للعصر الوسيط بصلة ، بل قد تبدو - في غير ما خفاء - إرهاباً لتلك النظرة الواسعة ، والمشاعر المعقدة التي امتاز بها العصر الحديث .

والإنسان على أى حال أبطأ حركة مما يود أن يسلم به دائماً سكان المدن في ديار الغرب ؛ فأساليب الحياة والفكر التي تستمد أصولها من عصور سحيقة لا تزال تفرض سلطانها على بعض البلاد والعقول : ومن ذلك أن الاعتقاد في السحر ومخاطبة الموقى واليازرجة (التنجيم) والشعوذة لا تزال قائمة لم تختلف تماماً ، ولا تزال بعض الخرافات تحيا في أوساط الفلاحين ؛ بينما امتزج بعضها الآخر بالطقوس الدينية ؛ فالأسرار الأولية التي تحيط بالكون : كاختلاف أشكال القمر وسير الكواكب والقوى الغامضة وراء ظاهرة التكاثر والنمو - كل ذلك شكل مثولوجيات الفلاح الأوربي منذ عهد سحيق . وفي الكنائس الكاثوليكية لا تزال المباحر - كما كانت من قديم - تتأرجح يمنة ويسرة ، مطلقة بخورها حول التابوت لتطارده الأرواح الخبيثة التي تعمل على دفع أرواح الموقى إلى جحيم أبدى ؛ ولا تزال المعجزات التي كانت شائعة في العصور الوسطى قائمة تصنع الأعاجيب وتستهوى الناس

ليحجوا إليها كى ينالوا على يديها الشفاء مما ألم بهم من روماتزم أو برص أو ساق مكسورة . وإذا كان العصر الحديث قد أصبحت له مزاراته كما أنه طور وسائل انتقاله ، وحلت لورد Lourdes^(١) محل كهبوستلا Compostella^(٢) وكانتربرى ، وإذا كان الحاج لم يعد يحوس الديار معتمداً على عكازه أو يمتطى صهوة جواده المظهم ، بل أصبح يتنقل فى قطارات السياحة أو السيارات إلى مزاره المقدس ، فإن عقاية المتعبدين ظلت كما هى لم تتغير . وهكذا لم تفعل وسائل النقل الآلى المريحة التى تمخض عنها العلم الحديث شيئاً إلا أن حمات أناساً لا يزالون يعيشون بعقالية العصور الوسطى .

ولا يقل عن ذلك أثراً ما خلفته العصور الوسطى فى مجال الاجتماع والسياسة والاقتصاد . فثلاً قد لا يوجد بلد فى أوربا كان أكثر اطراحاً للعصور الوسطى من بريطانيا ؛ ومع ذلك فقد بقيت نظم العصور الوسطى فى المدن الإنجليزية دون أى تغيير حتى عام ١٨٣٥ بما تحمل من مثالب بهيجة خلافة ، لتفسح المجال للنموذج الديمقراطى المألوف الذى يتمشى والانقلاب الصناعى والتسوية بين الناس . كذلك لم تخل الحياة فى الريف الإنجليزية من مظاهر العصور الوسطى خلواً تاماً : فإن السائح فى إنجلترا لا يزال يصادف هنا وهناك هذه الحقول المكشوفة وقطع الأرض المبعثرة التى كانت تميز الفلاحة فى العصور الوسطى — هذا على الرغم من أن إنجلترا كانت أولى الدول التى استبدلت بهذا النظام نظاماً آخر يقوم على إنشاء المزارع الواسعة المسورة التى توافر أصحابها من النبلاء على تحسينها ، وهو النظام الذى اكتمل فى إنجلترا على نحو لم تعرفه البلاد الأخرى . وإذا كانت إنجلترا لا تزال تحمل من رواسب العصور الوسطى ما تحمل ، فما بالكم بالأقطار المتخلفة فى شرق أوربا حيث غرق رجال الدين حتى أذقانهم فى بحر من الجهالة والوخم منذ عهد بعيد ؟ ولم يبدأ الفلاحون المضطهدون فى غاليسيا والبلقان يحسون بتغيير ملموس فى أوضاعهم أو تحسين لأحوالهم وطرائق معيشتهم إلا فى القرن

(١) مدينة فى جنوب غرب فرنسا قرب جبال البرانس اكتسبت أهميتها الدينية فى منتصف القرن التاسع عشر على أثر الرؤى التى كشفت لفلاحة شابة اسمها برناديت سوبيرس Bernadette Soubirous .
(٢) مدينة إسبانية شهيرة ذات أهمية دينية .

التاسع عشر . ولا يزال الناس يذكرون يوم كان أمير الجبل الأسود يقضى بين رعاياه بطريقة أبوية ، جالساً تحت شجرة على نحو ما كان يفعل القديس لويس في زمانه . ولا يزال الرجل الألباني يغدو ويروح مدججاً بالسلاح كشبيهه الأفغاني ويحيا حياة لا تختلف عن تلك الحياة التي صورتها الإلياذة . ولا يزال القرويون في بلغاريا يمارسون طقوساً ويعتقدون في خرافات ربما لو سمع بها يوريبديدس^(١) لافتر ثغره عن ابتسامة عريضة . وقد لاحظ كاتب أريب ملم بأحوال اليونان الحديثة أن قوام الحياة الروحية للشعب اليوناني في الوقت الحاضر لا يزال يتألف من مجموعة الأفكار والخرافات « يستتر بعضها خلف وشاح رقيق من المؤثرات المسيحية » ، في حين أن بعضها الآخر لا يزال « متشعاً بثوب كلاسيكي لم يتغير » : فلا تزال تقدم القرابين من النقود والملح والخبز لاسترضاء آلهات الحظ الثلاث ، كما أن النقود التي كانت تقدم لراكب سفينة الموتى كى يحرس الموتى لا تزال توضع على شفتى من تنتهى حياته . وعلى هذا المنوال لا يزال هناك من يعتقد بوجود عرائس البحر والأشباح مصاصة الدماء والأرواح الشريرة والمردة التي تسكن الينابيع والجبال أو تلقى بالملاح في قاع اليم^(٢).

ولا تزال حياة الفلاحين الأوربيين تحمل كثيراً من الأوضاع العتيقة التي لم يعف عليها الزمن أو يغير منها كثيراً . ومع ذلك فكما أن العصور الحديثة لا تقوم تماماً على نور العقل ، كذلك لم تكن العصور الوسطى غارقة تماماً في ظلام الخزعبلات . فقد عاش فيها روجر بيكون Roger Bacon^(٣) ، هذا الراهب الفرنسيسكاني المتخرج من أكسفورد ، الذي وضع قاعدة عدم التسليم المطاق بمعرفة شيء ما دون إخضاعه للتجربة ، والذي كان أول من أصر على ضرورة إلمام الطبيب بأصول الكيمياء كشرط أساسى لتكوينه ؛ وعاش فيها تشوسر Chaucer^(٤) الذي سبق بملاحظاته الدقيقة الغربية من تقلبات الطبيعة البشرية وشذوذها عبقرية

(١) ٤٨٤ - ٤٠٧ ق . م . هو أحد كبار كتاب المساة في بلاد الإغريق القديمة .

(٢) Rennel Rodd, The Customs & lore of Modern Greece

(٣) حوالى ١٢١٤ - ١٢٩٤ م . فيلسوف وعالم إنجليزى .

(٤) ١٣٤٠ - ١٤٠٠ . هو أكبر شعراء إنجلترا في العصور الوسطى ، ومن أهم مؤلفاته

قصص كانتربرى The Canterbury Tales .

تشارلز دكنز Charles Dickens^(١) ؛ وعاش فيها فللون Villon^(٢) السارق القاتل والشاعر الذى تبرز منظوماته الشعرية اللاذعة (١٤٣١) تلك الصورة التى رسمها فكتور هيجه Victor Hugo^(٣) فى «أحدب نوتردام Notre Dame de Paris» لپاريس العصور الوسطى بروحها الساخرة المرحية ومشاعرها وإحساساتها وعواطفها الصاخبة ومزاجها المتقلب الذى تختلط فيه الجريمة بالتوبة ، والخشونة بالثقافة ، والقسوة بالعاطفة . والحق أن الحياة فى العصور الوسطى لم تطب لأصحاب العبقريات الأصيلة : فقد أمضى بيبكون فى السجن عشر سنوات ، كما حوكم پترارك Petrarch^(٤) بإيعاز من أحد الكرادلة باعتباره ساحراً توفّر - دون داع - على دراسة فرجيل Virgil^(٥) . ولكن بيبكون كانت تكمن فيه روح العلم الحديث ، كما وجدت فى پترارك روح الإنسانية الحديثة . وحتى فى القرن الرابع عشر نأقّى أناساً كانت لديهم الشجاعة الكافية ليقوموا بتشريح جسم الإنسان فى الخفاء . وكّم من باحث مغمور فى عصر الإيمان سبق فسالينوس Vessalius العظيم (١٥١٤ - ٦٤) الذى يعتبر الرائد الأول لعلم التشريح الحديث .

ولكن على الرغم من أن التحول قد سار حتماً بالتدرّج ، فإن التباين الكبير بين العصور الوسطى والعصور الحديثة كان واضحاً بما فيه الكفاية . فمن مجتمع موزع بين علمانيين ولاكليروس إلى مجتمع موزع بين أغنياء وفقراء ؛ ومن بيئة معادية لحرية البحث إلى بيئة يعيش فيها العلم ويتعرّج . كانت الكنيسة فى القرون الأولى من العصور الوسطى هى وحدها ملاذ الثقافة والواسطة العليا لضم القبائل المتبربرة إلى حظيرة التقاليد العظيمة للحضارة المسيحية والرومانية ، كما كانت الكنيسة الوارث الحقيقى للتقاليد السياسية للإمبراطورية الغربية المنهارة . وصبت اللغة والآداب والسياسة والقانون فى القوالب التعليمية المألوفة التى تبقت من حطام الساطة المدنية

(١) ١٨١٢ - ١٨٧٠ . أشهر ، وربما أعظم ، كتاب القصة فى إنجلترا .

(٢) حوالى ١٤٣١ - ١٤٦٣ . شاعر فرنسى غريب الأطوار اكتسب شعبية كبيرة واتسمت

أشعاره بالطلاوة وأثرت كثيراً ليس فقط على معاصريه ، بل أيضاً على الشعر الفرنسى الحديث .

(٣) ١٨٠٢ - ١٨٨٥ . شاعر وكاتب قصة فرنسى .

(٤) ١٣٠٤ - ١٣٧٤ . الشاعر والإنسانى الإيطالى الكبير .

(٥) ٧٠ - ١٩ ق . م . الشاعر الرومانى الكبير ؛ أشهر أشعاره «الإنياذة» .

التي انهارت . وكان استعمال اللغة اللاتينية شائعاً بين الطبقة المتعلمة في غرب أوروبا فكانت لغة عامة لهم جميعاً ، وظل روح المشرعين الرومان القدماء حياً مؤثراً في قوانين الكنيسة التي كانت المحاكم الكنسية تطبقها في شتى بقاع العالم المسيحي اللاتيني . زد على ذلك أن التفكير الأوربي ظلت تقوم عليه وتتناقله في داخل المدارس والجامعات وفي خارجها طوائف من الرهبان في نطاق النصوص المقدسة وما يتفرع عنها من آداب . ولقد ضاعت معالم المعرفة القديمة في حين لم تتكون بعد معرفة جديدة ؛ ولما كانت أساليب العلوم الطبيعية لم تنزل في حيز العدم ، فقد وقع الذكاء البشري فريسة لاتجاهين متطرفين : التسرع والاندفاع أو التردد والاستكانة . وكانت الكتابة باللغة الدارجة تدنياً يعتذر عنه ، حتى إن بترارك (١٣٠٤ - ١٣٧٤) كان يفضل ملحمة « إفريقيا » - وهي ملحمة كئيبة نظمها باللاتينية - على القصائد البديعة التي كتبها والتي أكسبته الخلود .

أما النظريات السياسية في العصور الوسطى فقد تأثر تشكيلها بالمكانة التي كانت الإمبراطورية الرومانية لاتزال تحتلها ، بالإضافة إلى تلك السلطة الطاغية التي تمتعت بها كنيسة روما الكاثوليكية . حقيقة إن الوحدة الأصلية للإمبراطورية الرومانية قد تمزقت أوصالها تحت مطارق المتبربرين الذين غزوا العالم الغربي ؛ فقامت إمبراطورية غربية لاتينية وأخرى شرقية يونانية . ولكن فكرة قيام إمبراطورية موحدة وعالم مسيحي موحد ظلت حية ؛ وإذا لم يكن في وسع الناس أن يوفقوا بين الكنيستين اليونانية واللاتينية - والأمل في احتمال التوفيق بينهما لم يجب على الإطلاق - فإن الكنيسة اللاتينية في الغرب على الأقل قد اعتبرت كلا لا ينحل ولا يفنى ، بحيث اعتبر البابا الحارس الأعلى للعقيدة والأخلاق على الأرض ، وأصبحت كلمته - وقد علت فوق أنقاض الفوضى والعنف اللذين غمرا العالم - الصوت الحاسم الذي يدعو الحكام والراعا على حد سواء إلى اتباع العدالة والمحافظة على السلام والتحلل بفضائل الدين التي تتكشف لهم . وقد لقيت هذه الفكرة عن حكم البشر قبولاً في ذلك المجتمع الفقير الجاهل الذي كان يتكون أكثره من الجنود والكهنة والفلاحين ، خاصة وأن المسيحيين كان أكثرهم يعيشون داخل وعاء الإمبراطورية الرومانية القديمة ولا يكادون يحسون بوجود بقاع واسعة من الكرة

الأرضية لم يصل إليها اسم روما .

والقرن السادس عشر الذى كان أول قرن اتضحت فيه معالم العصور الحديثة يقدم لنا أقوى تعارض لوجهة النظر هذه الرومانية والكهنوتية التى سيطرت على العالم فى العصور الوسطى ؛ فقد استرد التفكير العلمانى اعتباره ، يغذيه شيوع استخدام اللغات الدارجة وبعث اللغتين الإغريقية والعبرية بعثاً كاملاً ، وكذلك بدأت دراسة طبيعة الكون دراسة جدية ستؤدى إلى نمو العلم الحديث . درس المصورون جسم الإنسان ، بينما شرحه الجراحون : وكان المثال فيروكيو Verrochio عالماً فى التشريح فى نفس الوقت . كما اطرده عدد المسلمين باكتشاف كوبرنيكوس Copernicus (١٤٧٣ - ١٥٤٧) ، ذلك الفلكى البولندى الذى أكد أن الأرض تدور حول الشمس . وما لبثت تلك الثقافة العلمانية ذات الطابع الأرستقراطى - ولا غرو ، إذ أنها نمت فى القصور المترفة للحكام الطغاة فى إيطاليا - ما لبثت هذه الثقافة أن أصبحت مشاعاً للجميع بفضل اختراع الطباعة . وفى الوقت الذى كانت المصالح الكهنوتية لا تزال قوية مؤثرة . عادل تأثيرها هذا اللون الحديد المثير من المعرفة التى لا ترتبط بعلوم الدين ؛ ولكنها ثمرة عماليات عقلية لم تقو العلوم الدينية على تسخيرها لمصلحتها . وضاق صدر أوروبا ، فتحوّلت عن ذلك العلم الأدبى الواسع ، عالم التعليقات والشروح التى خطها العلماء فى القرون الأخيرة من العصور الوسطى « بحروف من أفيون على ألواح من رصاص » .

وشغلت الجغرافية قسطاً مهماً من هذه المعرفة الجديدة . فقد كان احتلال البرتغاليين لسبته على الساحل الإفريقى عام ١٤١٥ بمثابة الحلقة الأولى فى تلك السلسلة الطويلة من المغامرات البحرية المثيرة التى أدت إلى دوران فاسكو داجاما Vasco da Gama حول إفريقيا (١٤٩٢) وتأسيس الإمبراطورية البرتغالية فى الشرق ؛ كما أدت إلى اكتشاف العالم الجديد فيما واء المحيط الأطلنطى على يد الملاح الجنوى كرسطوفر كولمبس Christopher Colombus . ومنذ ذلك الحين لم يعد البحر المتوسط مركز العالم المتمدين ؛ فقد انتقل التفوق التجارى من المدن الإيطالية إلى الأمم القريبة من المحيط الأطلنطى : البرتغال أولاً ثم إسبانيا فالأراضى المنخفضة ففرنسا وإنجلترا ، وترتب على ذلك أن انتقلت على السفن عابرات المحيط

إلى أقصى الأرض تلك الحضارة التي نشأت في وادي الفرات والنيل ثم انتشرت حول سواحل البحر المتوسط ، وأخذت أوروبا تدخل مرحلة جديدة من تاريخها ، وهي مرحلة تتميز بتأسيس المستعمرات والإمبراطوريات فيما وراء البحار وبالاتشار التدريجي للنفوذ الأوربي في شتى أنحاء المعمورة .

وقد وافق اكتشاف العالم الجديد انتشار الكتب المطبوعة ، ذلك الاكتشاف الذى علم الأوربيين - على حد كلمات بيكون السياسية أن « الحقيقة ليست وليدة السلطان ولكنها وليدة الزمن » وكان الأوربيون قد عرفوا منذ زمن طويل أن الأرض كروية ، وأنهم لو أبحروا غرباً بالقدر الكافى فإنهم لابد واصابوا إلى الهند . ورغم ذلك فإنهم كانوا خالى الذهن تماماً من وجود كتلة أرضية لاحد لاتساعها ومواردها تتوسط العالم . وإذا كانت تكهناتهم قد صدقت عن شكل الأرض ، فإن تقديرهم لحجمها قد انهار تماماً ؛ إذ أن العالم كان أكبر بكثير مما كانوا يعتقدون . وفجأة أدرك الناس أن حقائق الجغرافية القديمة التى طالما لقنها إياهم أهل العلم منذ قرون ، والتى كان يؤمن بها الناس فى كل الجامعات ، أصبحت تتناقض تناقضاً صارخاً مع الحقائق الثابتة .

وكانت النتائج التى ترتبت على ذلك أعمق مما أضافته الكشوف الجغرافية إلى المعرفة الوضعية ؛ فقد بدا الإنسان - دون وعى - يتخذ موقفاً جديداً من المعرفة نفسها ، ولم يعد يتورع عن تحدى السلطان ، كما تهاوت سيطرت الماضى على الأذهان . وكما تكشف كوكب الأرض عن عجيب خباياه التى لا نهاية لها ، فقد ظهرت أجيال من الناس لا يسلمون بأن الحقيقة قد اكتملت واحتوتها الكتب القديمة فعلاً ، بل هو سر يبحث عنه فى طيات الزمن .

وفى غمرة التكهنات المختلفة بصدد المستقبل التى أثارها رد الفعل الأول لكشف أمريكا ، لم يتوقع أحد أن تصبح القارة الجديدة يوماً ما الإناء الواعى لما تلفظه أوروبا . يومئذ بدا أن لأمريكا فوائد كثيرة : فهى ستفتح للكنيسة الكاثوليكية آفاقاً روحية واسعة . كما تقدم للملوك إسبانيا والبرتغال ملكاً عريضاً ، وتجذب رجال البحر والباحثين عن الثروة والتجار والمبشرين عبر الأطلنطى ، وتمكن للسادة النبلاء لإسبانيا فرصة تنفيذ أحكام القانون والقضاء بين أهل البلاد الأصليين من الهنود ،

وتمثيل أبهة التاج الإسباني في أملاكه عبر البحار . ولكن لم يكن ثمة في قصص البحارة العائدين من تلك البلاد ، أو في أحوال أوروبا الاقتصادية في طلائع النصف الأول من القرن السادس عشر ما يؤيد توقع أن نجد جماعات كبيرة من المهاجرين الأوروبيين مستقرًا لها في العالم الجديد . وحتى بعد مرور قرن من الرحلات عبر المحيط الأطلسي ، حذر فرنسيس بيكون Francis Bacon^(١) صاحب الطريقة العلمية ورائد الجغرافية ، حذر مواطنيه من استعمار أمريكا ، وجهًا النظر إلى أن أيرلندة تلك الجزيرة المهملة عبر مضيق سانت جورج ، أولى من أمريكا باهتمام المهاجرين الإنجليز ، إن كان لابد من الهجرة .

وفي إبان ذلك انهار الكيان السياسي « للإمبراطورية » التي عرقها العصور الوسطى ، لتحل محلها الدول القومية الآخذة في النمو . فبالرغم من تمشى فكرة المملكة العامة التي تسندها الكنيسة العامة مع أمانى أوروبا خلال عدة قرون ، فإن هذه الفكرة لم تشكل تمامًا لتتفق واحتياجات أوروبا ؛ كما أن أوروبا لم ترعها رعاية كاملة . والحق أن الإمبراطورية لم تحظ قط بولاء عام ؛ فإن الأمراء كثيرًا ما تحدوا ادعاءات البابوات . وبينما كانت السلطة المدنية تمضى قدمًا في السيطرة على الإقطاع كانت الدول القومية تشق طريقها في خطوات بطيئة مضنية ؛ وقد ظهرت في إنجلترا أولاً حيث كانت الظروف مواتية لظهورها ، ثم ظهرت في الدول المسيحية في شبه جزيرة أيبيريا ، وفي فرنسا وفي الإمارات الكبرى من مجموعة الدول الألمانية . وما أشرف القرن الخامس عشر على النهاية حتى توطدت دعائم الحكومات القومية في إنجلترا وفرنسا وإسبانيا ، مستعينة فيما استعانت به لتحقيق هذا الهدف بالاختراع الجديد للبارود . وفي إنجلترا كان « انتحار » النبلاء الإقطاعيين في حروب الوردتين مقدمة لتوطيد حكم التيودور .

وإن هذا الطراز من الحكم الذي أخذ إذ ذاك يفرض نفسه قد تشكل على أساس مخالف لنظم العصور الوسطى القائمة على تفتت السلطان ، وأصاب من القوة درجة تدعو إلى الإعجاب ، ولكننا لو حكمنا عليه بالمقاييس الحديثة لألفيناه

(١) ١٥٦١ - ١٦٢٦ - الفيلسوف ورجل السياسة وكاتب المقال الإنجليزي .

ضعيفاً لدرجة تدعو إلى الرثاء . فإن ما كان يتمتع به أقوى الملوك فى القرن السادس عشر من موارد روحية وعقلية ومادية لبيدوتافهماً حقاً إذا قيس بما يسند الدولة الحديثة من الضمير الاجتماعى الملهذب والتعليم القومى المنظم والأدوات القوية لتحصيل المعرفة وتركيزها والمنشآت الحربية والبحرية العظيمة والموارد الهائلة . فالأوراق التى كانت تغذى أداة الحكم الإنجليزى طيلة عهد الملكة إليزابيث قد لا تعدل ما يتجمع خلال شهر فى أقل مكتب من مكاتب الحكومة الإنجليزىة فى أيامنا هذه ؛ وأقوى جيش كان يستطيع فرنسوا الأول أن ينزله فى ميدان الحرب ليس شيئاً مذكوراً أمام فرقة واحدة من جيش پتان Pétain أو فوش Foch . وحتى فى أكثر الدول تقدماً فى القرن السادس عشر كانت الحكومة تعيش يوماً بيوم أو - كما يقولون - « من اليد إلى الفم » ؛ فهى تحشد الجيوش والأساطيل لتواجه ظروفًا معينة ، بينما تلجأ إلى أياأس المحاولات للحصول على المال . ذلك أن تجديد جيش قوى والإنفاق عليه وإطعامه لم يكن فوق طاقة أية حكومة فحسب ، بل كان أمراً فوق مستوى تصور رجال الحكم وتديبيرهم . فقد طلب شارل السابع ملك فرنسا من كل أبروشية أن تعد جندياً ضارباً للسهم ، ولما فشل هذا الإجراء اضطر خليفته لويس الحادى عشر إلى الالتجاء مرة أخرى إلى الجنود المرتزقة من الأجانب ، وإن الإفلاس المزمع الذى حل بشارل الخامس ، وهو يعد أقوى ملوك زمانه ، لظاهرة عامة للضعف الذى كانت تعانيه كل الحكومات فى ذلك العصر .

وبالرغم من ذلك كله ، فإن ذلك العصر الذى شهد تفكك العالم المسيحى اللاتينى قد شهد أيضاً - بشكل واضح - ظهور ذلك الشكل الأكفأ من أشكال التجمع الاجتماعى والسياسى وهو يتطلب من الأمة ولاء حراً وإن يكن صارماً . وفى القرن السادس عشر أخذ الأوربيون أكثر من أى وقت مضى يفكرون باعتبارهم أمماً ويعملون فى وحدات قومية ، ويقدمون لرأس الدولة القومية قدراً من الولاء الذى كانوا يقدمونه من قبل للكنيسة العامة الواحدة . ويعد روجر أشام Roger Ascham ، ناظر المدرسة والمصلح التعليمى الذى علم الملكة إليزابيث ، يعد نموذجاً للحركات التعليمية العلمانية الجديدة التى دعمت الأدب الشعبى والعة القومية .

وكان ظهور الملكيات القومية فى القارة إيداناً بعصر من التنازع الدبلوماسى

الحاد تحكمه فكرة التوازن الدولي . وفي حين زال ما كان يشعر به الأوروبيون في العصور الوسطى من وجود مصلحة أوروبية عامة ، لم تستطع دولة واحدة أن تقدر قوتها ومواردها الحقيقية . وامتلاّت أدمغة الحكام بمطامع رومانتيكية من تراث الرومان والكارولنجيين ؛ بينما كان من الخير لهم أن يكرسوا نشاطهم للعمل لما فيه خير رعاياهم . وكان فن السياسة لم يكن فجاً ، ولم يكن الاقتصاد السياسى قد ظهر بعد ولا قدر الناس فن « الراحة » المنزلية ولا سعوا إليه . ولعدم توافر الإحصائيات الصحيحة انتشرت معلومات غامضة عن ثروة الدول الأوروبية وسكانها ، وثبت في يقين الناس أنه ما زال في وسعهم القيام بفتوح باهرة والاحتفاظ بها في نطاق الإطار القديم للمجتمع الأوربي .

أما أن قيام دولة « عامة » (أى تنتظم قوميات متعددة) يقتضى التزامات عامة ، فهذا أمر لم يعن أحد في مستهل القرن السادس عشر بالتفكير فيه . والسفر إذ ذاك كان أمراً شاقاً ، والعلاقات بين الحكومات نادرة ومتقطعة ؛ وكانت كل دولة تحاول أن تبرز جارتها وتسعى إلى توسيع حدودها ، وضاعت على أوروبا أكبر فرصة سنحت لها للقيام بذلك العمل العظيم ، وهو إنشاء حضارة تقوم على تعاون بنى البشر . وهذا الكشف عن العالم الجديد لو أنه وضع تحت إدارة رشيدة وعالجه الرأى العام بروح أكثر بهجة ، لكان من المحتمل أن يتمخض عن تقسيم القارة الجديدة بالعدل والقسطاس بين الدول التى اهتمت بها . إلا أن الكشف عن العالم الجديد كان — على العكس من ذلك — إيذاناً بانفجار حرب قاسية وانتشار القرصنة فى أعالي البحار لعدة قرون . وقد أخذ الناس كل ذلك قضية مسلماً بها ، ولم يرتفع مفكر سياسى إلى مستوى الأحداث الكبرى التى كانت تغير وجه العالم . وفى حين استسلم سير توماس مور Thomas More للأحلام السعيدة من عالم مثالى فاضل ، نرى ميكافيللى Machiavelli المفكر الفلورنسى الكبير ولا شىء أعز على قلبه من إيطاليا وقد تحررت من الغزاة المتبربرين .

وأصبح المال — الذى هو دائماً قوة يحسب حسابها فى شئون البشر — أكثر توافراً فى أواخر العصور الوسطى ، ثم ازداد وفرة قبل أن ينتهى القرن السادس عشر حين تدفقت على أوروبا فضة بيرو . أما التجارة فقد نمت فى كل الأقطار

الغريبة على أثر الدافع الأول الذى أنعشها أثناء الحرب الصليبية ، وترتب على ذلك ظهور طبقة وسطى ذات نفوذ قوى ومصالح مادية تتعارض مع استمرار فوضى الإقطاع . وفرض رأس المال نفسه على الحياة العامة ؛ وكم من تاجر أو مصرفى كبير بز بنفوذه كبار النبلاء الإقطاعيين بسيطرته على رأس المال حر التداول ، وقفز إلى مراكز ذات نفوذ سياسى : من أمثال جاك كير Jacques Coeur فى بروج ، وفوجر Fugger فى أوجز بروج ، وذلك وتنجتون Dick Whittington فى لندن وروبرتو ستروترزى Roberto Strozzi فى فلورنسة . وقد مضى حين من الدهر قامت فيه أوجز بروج على تمويل الإمبراطورية ، بينما كانت مشروعات فرنسا فى إيطاليا تعتمد على تمويل بنك ستروترزى فى فلورنسة فى لاون والبندقية وروما . وهكذا أصبح رأس المال قوة لها حسابها ، تشد من أزر الدول الملكية القومية التى تعتبر سلطانها الوثيق من الحقائق الجديدة التى تميز أوروبا فى القرن السادس .

وبينا أوروبا تستنير بما انبثق لها من معارف وآفاق جديدة، وتهدف بروح العزة والاستقلال القومى ، انفجرت فوق ربوعها شرارة الإصلاح البروتستانتى . وما كان تحدى التعاليم الكاثوليكية بالشىء الجديد ؛ فقد بدأه وكلف Wycliffe (١٣٢٤ - ٨٤) فى إنجلترا وهس Huss (١٣٧٣ - ١٤١٥) فى بوهيميا . ومنذ ذلك الانقسام الأول فى الكنيسة الغربية امتلأت جنبات العالم المسيحى بالمفكرين الجادين الذين توافروا على البحث عن الطريق الأمثل لإصلاح العيوب الواضحة فى الكنيسة . وعقدت المجالس الدينية ، وتناقشت ، ثم انفرط عقدها ولما يصل الناس إلى أى تحسن ملحوظ . أما البابا - وقد بدا له أن لا شىء يتهدد سلطانه قدر اعترافه بمجمع دىنى عام هيئة نظامية ومقررة لحكم الكنيسة - فقد تمكن من التحايل على الحركة الداعية إلى عقد مجمع عام بالاتصال مباشرة بالحكومات القومية فى أوروبا وعقد اتفاقات دينية معها . ولم يكن بطاقة هذه المجالس العامة ، بمناقشتها الصاخبة دون نظام ، وبتشكيلها من أعضاء متباينين جنساً ولغة وولاء ، لم يكن بطاقتها أن تكون ندّاً للبلاط البابوى بما عرف به من حنكة دبلوماسية . وكان اتفاق البابوية والحكومات الزمنية كفيلاً بالقضاء على المحاولات الرامية إلى عقد مجمع دىنى عام . وعلى أى حال فإن الإصلاح البروتستانتى لم يبدأ على يد أصول التاريخ الأوروبى

المجالس الكنسية أو بتعضيد منها؛ بل إنه نبع من شعور مخلص بالتناقض القائم بين بساطة المسيحية الأولى والثروة التي كانت تتمتع بها الكنيسة الرومانية ، وما كانت تجنيه من فروض مادية ، وهذه الحركة قد عمّاها وشد أزرها تعضيد بعض الأمراء العلمانيين وطموحهم . هذا إلى أن حركة الإصلاح البروتستانتي قد نجحت في توطيد أقدامها في تلك المناطق من شمال أوروبا حيث احتمت من هجوم الكاثوليكية عليها بمصادرة مساحات واسعة من أراضي الأديرة وما أدى إليه هذا الإجراء من قيام مصالح مكتسبة في هذه الأراضي التي سلبت من الكنيسة ، رسخت أقدامها في بعض المناطق حتى لم تعد ثورة ولا حرب بقادرة على المساس بها .

وفي غمرة هذا الانشقاق الديني الكبير الذي قطع أوصال أوروبا المسيحية كان الأتراك العثمانيون قد وضعوا أيديهم على كل البلقان واحتلوا مصر وأنشأوا أسطولاً مرهوب الجانب . حينئذ — في النصف الأول من القرن السادس عشر — كان الدافع المسيحي في توجيه السياسة من الضعف بحيث لم يتورع ملكا فرنسا فرانسوا الأول وابنه هنري الثاني عن التحالف مع العثمانيين ضد شارل الخامس ، في الوقت الذي تصدى فيه الإمبراطور — رأس أسرة الهابسبورج — للدفاع عن « الدين الحق » (الديانة الكاثوليكية) ضد « هرطقة » لوتر . والحق أن انتصار الحركة البروتستانتية في أصقاع واسعة من شمالي أوروبا يرجع إلى هذه المنازعات القومية والأسرية التي استعر أوارها في طلائع القرن السادس عشر على نحو لم يعرف من قبل . وإنه لمن الخطأ أن نظن أن الاضطهاد لا يثمر على الإطلاق : فهو الذي سحق حركتي الإلبجنسس Albigenses ^(٢) واللولاردز Lollards ^(١) واقتلع بذور البرتستانتيّة من إسبانيا وإيطاليا وبوهيميا . ولا داعي لافتراض الفشل الحتمي لجهود الحكومات الأوروبية فيما لو اتحدت للقضاء على اللوثرين في ألمانيا ، والكالفينين في جنيف . ولكن هذا الاتحاد لم يحدث قط . فلقد سيطر النضال الكبير بين أسرتي القالوا والهابسبورج على العصر كله بحيث ارتبك شارل

(١) جاعة من الساخطين على الكنيسة الكاثوليكية ، ظهرت في جنوب فرنسا في القرنين الثاني عشر والثالث عشر . ومن الصعب تحديد تعاليمهم بحكم أن معظم مصادرها مستقاة من خصومهم .

(٢) أتباع جون وكليف في إنجلترا وكانوا من الساخطين على كنيسة روما .

الخامس أمام حركات الهرطقة في ألمانيا التي وجدت ترحيباً من فرانسوا الأول ، فكان أول من استن باتجاهه هذا ذلك المبدأ في تقاليد السياسة الفرنسية ، وهو تشجيع حركات الهرطقة في خارج فرنسا مع العمل على إخماد أنفاسها في الداخل . ولو لم تنتهج فرنسا هذه الخطة لكان من المحتمل إعادة ألمانيا كلها إلى حظيرة الكنيسة الكاثوليكية .

كذلك تأثر مجرى الإصلاح الديني في إنجلترا بالتنافس الكبير الذي كان قائماً بين دول القارة الأوروبية في ذلك الوقت . ففي ذلك العام المضطرب ، عام ١٥٢٧ ، حين بات استمرار ولاء إنجلترا للبابوية رهناً بإقرار البابا لطلاق هنري الثاني لكاترين الأراغونية ، كان البابا أسيراً في يد شارل الخامس ابن أخت كاترين نتيجة للحرب بين فرنسا والإمبراطورية . وحتى ولو أراد البابا كليمنت السابع التمشي مع رغبة الملك — وقد كانت ثمة سوابق مماثلة في تاريخ البابوية لمثل هذا الإجراء الذي يحثه على اتخاذ البلاط الإنجليزي — فإن البابا كان قد فقد حريته ، فلم يعد في وسعه أن يوافق على إجراء الطلاق . وهكذا نجد أن الصراع بين أسرتي الهابسبورج والفالوا ، وهو الصراع الذي ساعد على التحول النهائي لشمال ألمانيا البروتستانتية ، هو نفسه الذي عجل بانفصال إنجلترا عن روما في عهد هنري الثامن ، ثم هو أيضاً الذي وقى الكنيسة الإنجليكانية الناشئة من الانهيار في الأيام العصيبة من حكم إليزابيث .

ولم يتم ذلك الانفصام الديني في غرب أوروبا دون كفاح مرير . ففي خلال النصف الأول من القرن السادس عشر استوعب الصراع الكبير بين أسرتي الهابسبورج والفالوا جهود أكبر دولتين كاثوليكيتين في أوروبا ، وانتشرت المعتقدات البروتستانتية في وقت قصير ، فاستقرت في الجزء الأكبر من ألمانيا وسويسرا وغزت ممالك اسكنديناوة وتسالت إلى إيطاليا وإسبانيا ، وجرفت كل شيء أمامها في أسكتلندة وبوهيميا . وطبقاً لما ذكره كاردينال اللورين أصاب مس الهرطقة الجديدة ثلثي سكان فرنسا في إبان حكم هنري الثاني (١٥٤٧ - ٥٩) . وما فتئ ساعد الحركة يشتد طيلة قرن من الزمان ؛ وكما يحدث عادة حين تغدو الحركات الدينية شعبية وتتغذى بحقد الرجل العادي على بهارج السلطان والثروات التي يساء استخدامها ،

فقد تكونت حول البؤرة الأصلية للحماسة الدينية الحقيقية حالة واسعة من الأنانية والإهمال والجشع .

ثم جاء رد الفعل — ففي عام ١٥٥٩ نفّض هنرى الثانى ملك فرنسا يديه من حلم الفتوح الإيطالية ، وقد ردته إلى صوابه دون شك هزيمة جيوشه فى معركة سان كنتان ، فوقع معاهدة كاتوكمبرسيس Cateau Cambrésis مع الإمبراطورية . وصمم حينئذ على تسخير كل جهوده لاجتثاث جذور الهرطقة من فرنسا ، فكان ذلك إيذاناً ببداية عهد جديد إذ تأجل الصراع بين الهاپسبورج والغالوا . بينما بدأت الحروب الدينية ، وتساءل الناس : هل يصمد اللوثرىون فى ألمانيا؟ وهل سيتسنى لأتباع كلفن السيطرة على فرنسا ؟ هذا بينما نهضت البابوية فى ثبات لتسترد ما فقدته العقيدة الكاثوليكية من بقاع ، مستعينة فى تحقيق ذلك بطائفة الجزويت (اليسوعيين) التى أنشئت حديثاً .

واستمرت الحرب الدينية فى فرنسا ، تتخللها فترات انقطاع ، من ١٥٦٠ إلى ١٥٩٨ ، حين صدر مرسوم نانت الذى ضمن للهيجونوت البروتستانت تسامحاً دينياً وخلقهم وضعاً ممتازاً جعل منهم دولة داخل الدولة فى المملكة الفرنسية ، واشتعلت الحفائظ أثناء تلك الحروب الدينية التى لجأ الدهماء أثناءها إلى كثير من أعمال العنف ، واتسمت خلالها أعمال العسكرين بالقسوة . ومع ذلك فإن هذه الحروب لم تخلف ندوباً عميقة من شأنها أن تعرقل رخاء المجتمع الفرنسى ؛ بل إن فرنسا خرجت بعد انتهائها أقوى مما كانت عليه فى أى وقت مضى : فأضحى جيشها أقوى جيوش القارة ودبلوماسيتها أقدر فى استقاء الأخبار ، وبلاطها أزهى بلاطاً أوربا . وفى القرن السابع عشر بلغت الملكية الفرنسية أوج مجدها وعظمتها : فقد وضع ريشيليو وما زران دعائم عصر لويس الرابع عشر (١٦٤٣ — ١٧١٥) الذى فرض نفسه أمداً طويلاً .

وعلى العكس من ذلك كان أثر حروب الثلاثين عاماً الدينية فى ذلك الشتات من الدول الألمانية . وحين وضع صلح وستفاليا (١٦٤٨) حداً للنزاع ، ورسم الحدود بين الدول البروتستانتية والدول الكاثوليكية (وقد بقى الوضع الدينى منذ هذا الصلح قائماً حتى الآن) كانت ألمانيا قد أصبحت خراباً : فقد نقص عدد سكانها

إلى حد كبير واضمحلت مواردها فأصبحت مؤسساتها العلمية والتعليمية بضرر بالغ وتحطم كبريائها وضاعت ثقها بنفسها نتيجة لما نزل بها من هزائم متوالية وإذلال شنيع . فليس إذاً من قبيل المبالغة القول بأن حرب الثلاثين عاماً قد أخرجت حضارة ألمانيا لما تبقى عام ، أو أن السهولة التي أخضع بها نابليون هذا الشعب الحى الناضج في العقد الأول من القرن التاسع عشر كانت نتيجة للعواقب المهلكة التي تمخضت عنها هذه الطامة الكبرى .

وبعد سلسلة من الانتصارات الباهرة التي حققها الحركة الكاثوليكية في محاولتها رد أوروبا إلى حظيرتها ، نجدها وقد توقفت فجأة وفي كل مكان ، ولم يعد من الأمور الممكنة أن يرد العالم اللاتيني المسيحي إلى حظيرة البابوية ؛ فقد سالت أنهار من الدماء وتكونت ألوان من المصالح ، واستقرت ألوان متضاربة من الولاء . وجاء صلح وستفاليا ثمرة لذلك الصراع الوحشي الذي دفعت أوروبا ثمنه غالياً ؛ فدمغ خريطة أوروبا بطابع الانقسام الديني . ولم تسو الخصومات بين الكاثوليك والبروتستانت ، ولم تهدأ الأحقاد بينهم ، فظل كل فريق متحفزاً في مراكزه مستعداً للوثوب .

وكانت النتيجة أكثر مدعاة للدهشة . فإن النمسا وإسبانيا — وهى الدول الثلاث التي كانت تهيمن على شئون أوروبا — بقيت كلها مخلصه للعقيدة القديمة ، ولو أن هذه الدول القوية ، وكل منها مخلصه للعقيدة ، متحمسة للحفاظ على الكاثوليكية ونشرها ، وقد آثرت الوقوف صفاً واحداً ضد البروتستانتية ، فهل ثمة مجال للشك في إمكانها فرض نوع من الوحدة الدينية على القارة مهما تكن هذه الوحدة آلية وجوفاء ؟ لقد اجتثت الهرطقة من جذورها في النمسا وإسبانيا وبوهيميا وبولندا — فهل كان يقيض لها البقاء في شمال ألمانيا والأراضي المنخفضة أمام جهد موحد تبذله الدول الكاثوليكية في عزم وإصرار ؟ أما الذي حدث فهو أن الدول الكاثوليكية لم تتحد قط . ففي اللحظة الحاسمة وقعت فرنسا نفسها — بتوجيه من الكاردينال ريشيليو — تعرقل المجهودات التي كان يبذلها دعاة الإصلاح الكاثوليكي بتوجيه من حكام الهابسبورج في النمسا وإسبانيا . وقد بدأت فرنسا تفعل هذا بطريق غير مباشر ، ثم نجدها بعد عام ١٦٣٥ تنفذه بطريقة سافرة ؛ وفي كلتا الحالتين

كانت مقاومتها لتلك المجهودات مجدية تماماً ، و «كاردينال الهيجونوت» — كما عرف ريشيليو — أحد أولئك النفر النادر من الرجال الذين تسلطت عليهم فكرة «الدولة» . وجد حدود فرنسا تهددها من كل جانب أملاك أسرة الهابسبورج ، وقد تضامن أمؤها ضد فرنسا ؛ فصمم بكل ما لديه من عزم على إضعاف هذا التضامن والخط منه لمصلحة سيده ملك فرنسا . ولم يكن أى اعتبار دينى أو أخلاقى ليوقف فى وجه إرادته الحديدية أو يبعث العاطفة إلى قلبه المتحجر . وبرغم أنه حين أصبح وزيراً لخارجية الملك لويس الثالث عشر عام ١٦٢٤ لم يكن لديه أسطول ولا جيش نظامى ، ورغم أن نبلاء الهيجونوت وأعضاء البرلمانات المحلية قد اعتصموا بمدنهم المحصنة مكونين بذلك دولة داخل الدولة ، وبرغم أن حياته ذاتها قد تهددت بالمؤامرات الداخلية ، برغم ذلك كله فإن همته لم تقتر لحظة واحدة فى مقاومة الأديتين العلمانيتين العظيمتين اللتين كانت تحركهما الكنيسة الكاثوليكية . وفى الداخل قضى تماماً على قوة الهيجونوت السياسية فى الوقت الذى سمح لهم فيه بالتمتع بحريتهم الدينية . وفى الخارج مد القضية البروتستانتية بالمال وحارب معها جنباً إلى جنب مما ضمن لها النجاح : فهو آتياً يحتل الفالنتين الذى يربط دوقية ميلان التابعة لإسبانيا بالفرنسا ، وآتياً آخر يسند بقوة السلاح ترشيح أحد الأمراء الفرنسيين لدوقية مانتوا ، وفى الوقت العصيب الذى تعرضت فيه البروتستانتية للأخطار كانت المعونة المالية الفرنسية التى حركت جيش جوستاف أدولف ملك السويد . وإذا كان جزء من قارة أوروبا لا يزال بروتستانتيّاً حتى اليوم فإنما يرجع ذلك إلى الدبلوماسية النشيطة الدعوب التى اتصف بها هذا الكاردينال الكاثولىكى .

وقدر للمرحلة الأخيرة من ذلك الصراع الطويل المريب بين المذهبين البروتستانتى والكاثولىكى فى أوروبا أن يكون لها أثر بعيد فى توازن القوى العالمى . فالهيجونوت كانوا من أنشط رعايا لويس الرابع عشر وأولاهم بعطفه ، وقد بزوا مواطنيهم الكاثوليك فى التجارة وركوب البحر ، كما بزوهم أيضاً فى كل فروع الصناعة ، وعلى الخصوص صناعة نسج الحرير التى كانت تحتاج فى ذلك العصر إلى قدر كبير من المهارة الفنية . ومع ذلك فقد رفض لويس الرابع عشر وزوجته المتعصبة مدام دى مانتينون أن يكون هؤلاء الهيجونوت — بسبب آرائهم الدينية — مكان فى داخل الدولة

الفرنسية الكاثوليكية . فلا مهارتهم الفنية ولا مساهمتهم في الرخاء المادى للمجتمع الفرنسى شفعت لهم في تلك الخطيئة الكبرى التى قارفوها باعتناقهم البروتستانتية ؛ فاضطهدوا في أول الأمر ثم طردوا من ديارهم في عام ١٦٨٥ بعد أن سحبت الحماية التى أسبغها عليهم مرسوم نانت ، فهاجروا إلى الدول البروتستانتية المنافسة لفرنسا ولقوا فيها من العطف ما لم يلقوه في وطنهم ، ثم نقلوا إلى أوطانهم الجديدة ثمرات معارفهم ومهارتهم . ولو قد بقى الهيجونوت في وطنهم لربما أحرزت فرنسا قصب السبق في حلبة الاستعمار .

وكانت بريطانيا أسعد حظاً من غيرها ؛ إذ توقت ويلات الانقلابات الدينية التى اكتوت القارة بناها . قامت في الجزء الجنوبي منها كنيسة إراستية^(١) في حكومتها رومانية في طقوسها ، كلفيتية في عقيدتها ، وقد توطدت أركانها في أواخر القرن السادس عشر . حقاً إن ذلك لم يتم دون أن تسفك بعض الدماء وتجرى بعض الاضطرابات المحلية ، ولكنه لم يتم على نحو يبعث على الدهشة بطريق التسليم الهادئ من جانب الشعب الإنجليزى ، وهو شعب في جوهره لا يميل إلى الجدل الدينى . وبتحطيم الأرمادا الإسبانية (١٥٨٨) زالت تماماً فرصة حدوث رد فعل ناجح من جانب الكاثوليك ، برغم أن ذلك الخطر لم يكن بالغ الأهمية بعد أن أشيع النبلاء وأعيان الريف أنهم من أراضى الأديرة . وهذه الحرب الأهلية التى نشبت في إنجلترا في القرن السابع عشر لم تدر لتغلب إحدى العقيدتين : الكاثوليكية أو البروتستانتية ، بالرغم مما كان يتسلط على ذوى الرعوس المستديرة^(٢) من الخوف من روما التى كانت في نظرهم قوة خبيثة سيئة الطوية لا ضمير لها للدرجة أن ممارسة أى طقس من الطقوس الدينية قد اعتبرت ذات دلالة منطوية على الشر . وإنما دارت هذه الحرب الأهلية للمحافظة على الحريات البرلمانية والرسوم الأنجليكانية . ولم يعد خطر استرداد الكاثوليكية للجزيرة البريطانية مرة أخرى عاملاً فعالاً في السياسة الدولية إلا في الجزء الأخير من القرن السابع عشر حين بدأت مرحلة

(١) نسبة إلى توماس إراستوس (١٥٢٤ - ١٥٨٣) الألمانى - السويسرى . وتتضمن الإراستية إعلاء السلطة العلمانية على السلطة الكهنوتية ، وإن لم تحد العلاقة بين السلطين .

(٢) أنصار البرلمان في الحرب الأهلية الإنجليزية (١٦٤٠ - ١٦٤٨) .

اضطهاد لويس الرابع عشر للهيغونوت . وكان كل من شارل الثاني وجيمس الثاني كاثوليكياً ، عمل أولهما في الخفاء بينما أفصح الثاني عن حقيقة نواياه . وقد عمل كلاهما على إعادة إنجلترا إلى حظيرة الكاثوليكية بالاستناد إلى جيش فرنسى : فحاول شارل الثاني تحقيق هدفه في دهاء وتحفظ ، بينما أظهر جيمس الثاني حماسة كبيرة مصحوبة بصخب وضجيج . ولكن قضى على المؤامرة . وحتى في حالة اعتماد الكاثوليك الإنجليز على الحرب الفرنسية يحق لنا أن نشك في نجاح مجالدهم للأسطول البريطانى وللبروتستانتية القوية في مدينة لندن وفي المقاطعات الشرقية . وعندما جاء أخيراً وقت الامتحان ، لم يوجد رجل واحد يغامر بجلبده في سبيل الملك جيمس .

وثورة ١٦٨٨ التى جاءت بوليم أورنج إلى عرش إنجلترا سميت بالثورة المخيدة لأنها لم تسل فيها قطرة من الدم ؛ فقد وقفت البلاد صفّاً واحداً كالبنيان المرصوص دفاعاً عن قضية البروتستانتية — وكان هذا البنيان من القوة بحيث لم تخش البلاد أن تنجح إلى التسامح ، فلم تسفك دماء أحد .

وجاءت هزيمة الإصلاح الكاثوليكي في إنجلترا بداية لعصر جديد في التاريخ الأوروبى ، حقيقة استمر التنافس بين إنجلترا وفرنسا طوال القرن الثامن عشر ، ولكن لم تعد القارة الأوروبية وحدها مسرحاً له ، بل إنه انتقل عبر المحيطات إلى كندا والهند . وأصبحت التجارة والمستعمرات أبعد أثراً في السياسة العامة من الروابط الدينية والمخالفات بين الأسر الحاكمة . وكان الجيل الثانى من الهيبوريثان من الدهاء بحيث أثر كثير منهم الاتجاه إلى ميدان الأعمال واهتموا بجمع المال ، وأصبح طابع عهد أسرة هانوفر المحافظة في السياسة (أو ما عرف حينئذ باسم وجزم Whiggism) ، وتحكيم العقل في مجال الفلسفة ، وإيثار العافية وراحة العيش في الحياة الاجتماعية . وهكذا بدأت ثروة إنجلترا ورخاؤها وحريتها تسترعى اهتمام الأجانب . ورغم أن عبقرية شكسبير كانت لا تزال لغزاً تحار فيه الأفهام ، فقد استحوذت على العالم الخارجى فكرة أنه يمكن استقاء الكثير من تلك البلاد التى كانت بمثابة رأس الحربة للعالم البروتستانتي في تحديه للويس الرابع عشر : ففولتير كان تلميذ بولنجبروك Bolingbroke ، ومونتسكيو بدا له أن الإنجليز قد ملكوا

أسرار الحرية السياسية ؛ وانتشرت فلسفة نيوتن ولوك وكان لها أثرها في المفكرين الذين وجهوا فرنسا في القرن الثامن عشر . وهكذا عادت تلك الجزيرة الصغيرة — الجزيرة البريطانية — لعشرات السنين القادمة تلقن أوروبا من جديد ، وأعادت بذلك ذكرى تلك الفترة الزاهية من تاريخ أكسفورد في العصور الوسطى .

* * *

هذا هو الاتجاه العام لتلك القصة التي نعود الآن لنستعرض حوادثها : دين يؤمن به الناس في بقاع شاسعة ، تتغلغل جذوره بعمق كبير في تقاليد غرب أوروبا الاجتماعية والسياسية ، تتحداه قوى روحية جديدة في عنف وفي جانب كبير من القارة الأوروبية ، وترغمه على قبول الهزيمة ؛ ونظام اجتماعي قائم على الشمول totalitarian يفقد بريقه وواقعيته ، ومجتمع غربي مسيحي تحلل إلى عدة أجزاء عاجز عن امتصاصها من جديد . وجدت وجهات نظر عن الحياة تستند إلى حرية الفكر وضمير الفرد وحقوق الدول — بل الطوائف الدينية الصغيرة — في تقرير مصيرها ، استطاعت أن تقضي بالتدريج على جهاز الكنيسة القديم الذي كان ينتظم كل شيء ، كما أعانت على الظهور سلسلة طويلة من الأفكار الثورية التي أدت في النهاية إلى تعديل النظم الأوروبية وتشكيل العالم الحديث . وأفلتت بلاد أوروبا الشمالية ذات الحيوية والنشاط المتجدد من قبضة روما . بينما ثبتت بلاد أوروبا الجنوبية ، وهي أقل حيوية ونشاطاً ، على الطرائق القديمة . وذلك برغم ما طرأ عليها من تقلبات داخلية . وفي غمرة هذا النضال الطويل الذي أغرق أوروبا في بحر من الدماء امتزجت أنبل الدوافع بأحطها واستحال التمييز بينها . وفي خلال هذا الجدل الديني الكبير بدا عمق العاطفة عند العباقرة من المتدينين في كلا المعسكرين في « كتاب الصلوات » لكرانمر^(١) و « الفردوس المفقود » Paradise Lost للملتون Milton^(٢) و « الرياضيات الروحية »

(١) ١٤٨٩ — ١٥٥٦ . رئيس أساقفة كانتربري . وقد لعب دوراً في حركة الإصلاح الديني في إنجلترا سيأتى تفصيل الكلام عنه فيما يلي .

(٢) ١٦٠٨ — ١٦٧٤ . شاعر إنجليزي عظيم ، وكان ضريراً .

لليولا Lyola^(١) و« أفكار Pensées » بسكال^(٢) وموسيقى بالستريا Palestrina^(٣) الكاثوليكية وموسيقى باخ Bach^(٤) البروتستانتية . ورغم ذلك فإن السواد الأعظم من الأوروبيين لم يكن متديناً حق التدين على الإطلاق . وكانت الشخصيات التي سيطرت على الموقف في أوروبا أثناء الحروب الدينية هم رجال السياسة والقادة العسكريون وفئة المغامرين ممن يستغلون حماسة الدهماء في تحقيق أهدافهم الدنيوية . وهكذا يطفو من العاصفة شخص مثل والنشتين Wallenstein في بوهيميا أو مولبرا Marlborough^(٥) في إنجلترا : يرسم السياسة ويقود الجيش ويجمع المال ويملاأ أوروبا بصيته ويبعث في أرجائها الخوف من جرائته . ولو أتيح لرجل من أهل الصين ، ممن عاشوا في هذا العصر ، أن يستعرض أحوال أوروبا المضطربة إبان القرنين السادس عشر والسابع عشر . لربما احتشدت في مخيلته الأسئلة التالية : ألا يفهم شعب خلا من المنازعات الدينية ، لأنه لا دين له ، بل كل ما عنده مجموعة قوانين أخلاقية تنظم سلوك الناس — ألا يفهم هذا الشعب فن الحياة أكثر من غيره ؟ وهل الإصلاح البروتستانتي ، بكل نتائجه التي لا يمكن حصرها في ميادين الفن والموسيقى والعلم والأدب ، وما يترتب عليه من فك عقاب القوى البشرية بذلك الشكل الواسع ، جدير بالثمن الذي دفعته أوروبا في شكل حروب وحشية طويلة ؟ وهل تفكير الناس في أسرار الكون القصوى ، هذا التفكير الذي كان أقل قدرة على الإلهام وأقل بطولة وثقة مما كان يسود المسيحيين الغربيين إذ ذاك ، لم يكن في الواقع أكثر تأدية لراحة البشر ؟

(١) ١٤٩١ - ١٥٥٦ . مؤسس نظام الجزويت (اليسوعيين) - وسيأتي تفصيل الكلام عنه فيما يلي .

(٢) ١٦٢٣ - ١٦٦٢ . الفيلسوف الديني والرياضي الفرنسي .

(٣) ١٥٢٦ - ١٥٩٤ . المؤلف الموسيقي الإيطالي .

(٤) ١٦٨٥ - ١٧٥٠ . جون سباستيان باخ الموسيقي الألماني العظيم ، وكان ينتسب إلى أسرة مبرزة في التأليف الموسيقية .

(٥) جون تشرشل مولبرا (١٦٥٠ - ١٧٢٢) - هو أحد كبار القواد الإنجليز ؛ وقد ظهرت مواهبه العسكرية أثناء حروب إنجلترا ضد لويس الرابع عشر .

كتب يمكن الرجوع إليها

من الممكن العثور على قائمة ممتازة لعدد قليل من المراجع التي تغطي أكبر حيز في هذا الجزء في الكتب الآتية :

— A.J. Grant, A History of Europe from 1494 to 1610 (1931).

— D. Ogg, Europe in the Seventeenth Century. (1925)

أما إذا احتاج القارئ إلى قائمة أطول فيستحسن أن يرجع إلى مجموعة

Cambridge Modern History والتواريخ القومية المقررة كمؤلفات لافيس Lavisce

فرنسا وفروود Froude وجاردنر Gardiner وماكولى Macaulay و ج . م . تريفلان

G. M. Trevelyan عن إنجلترا، وكذلك كتب التاريخ المتنوعة التي نشرتها تبعاً

دار نشر مثنون Methuen ولونجمانز Longmans .

الفصل الثانى النهضة الإيطالية

أسباب بدء النهضة فى إيطاليا - مكانة فلورنسة - تعدد المواهب لدى كبار الفنانين - المؤثرات الدينية والعلمانية فى الفن الإيطالى - الحركة الإنسانية - فورنزو فاللا Lorenzo Valla - نيكولو دى نيكولى Niccolo de Niccoli - فتورينو دا فلتز Vittorino de Feltre - بابوات النهضة - البندقية - الطابع الأرستقراطى الذى ميز الحركة الإنسانية الإيطالية - التناقض الصارخ فى الحياة الإيطالية - انتشار الأثر الإيطالى - « الأمير » و « رجل البلاط » - العوامل المحددة للأثر الإيطالى .

على حين تميز القرن الخامس عشر فى إنجلترا بالعقم الشديد فى الإنتاج الذهبى ، فإنه شهد بزوغ النهضة فى إيطاليا . فى خلال المائتى عام ما بين ١٣٤٠ و ١٥٤٠ قدمت المدن الإيطالية نتاجاً من الفن والبحث والأدب لم يشهده العالم منذ أعجاد أثينا القديمة . ثم جفت إلى حد كبير ينابيع الخيال الإيطالى الفسيح المسرف الذى كان قد تدفق بقوة هائلة ، وانحصرت فى مجرى ضيق بعد أن وقعت إيطاليا تحت سيطرة الإسبان وخضعت للصرامة الدينية التى تميزت بها حركة الإصلاح الكاثوليكي بما توافرها من أدوات : نظام الجزويت (اليسوعيين) ومحاكم التفتيش المقدسة والقوائم الدورية للكتب التى تمنع الكنيسة تداولها . حينئذ أفسح ما تميز به عصر الخلق والإبداع من نضج خلاق نشط المجال لمشاعر مريضة صوفية . ولما ولى الرسامون الكبار الذين وصلوا فى البندقية ، أكثر منهم فى غيرها ، المحافظة على أسمى تقاليد فنهم ، لم يسد أحد الفراغ الذى تركوه . وانحصرت عن إيطاليا موجة تفوقها بعد الدور الذى قامت به فى إثراء الحياة العقلية الأوروبية إلى درجة تفوق الحصر ، فاستحقت عرفان الجميل الدائم من بجانب الإنسانية . منذ ذلك الوقت أصبح العالم أكثر احتفالاً بنثر فرنسا وشعر إنجلترا ومسرحياتها الدرامية وموسيقى ألمانيا منه بكل ما حفلت به البندقية وفلورنسة من مراسم وأكاديميات .

ومن الطبيعى أن يقوم بعث الفنون والآداب الأوروبية فى بلاد لا تزال مخلفات الماضى من التماثيل وغيرها تلمع بين أشجار الدلب والزيتون . كما أن روح العلوم

الإنسانية التي توارثها الناس عن العصور القديمة لم يحدث قط أن أصابها توقف تام . هذا إلى احتدام التنافس بين المدن والبلاطات الإيطالية المختلفة التي ود كل منها لو بز الآخر ، ووجود عدد كبير من رعاة الفنون الذين كان كل منهم على استعداد لدفع ثمن مرتفع لصورة أو مخطوطة ، وللإغداق على الكتاب والمؤدين . وأخيراً وجد في إيطاليا من الأطلال والنقوش والعملات النقدية والمداليات ما اجتذب الباحثين منذ أيام پترارك ودفعهم إلى مواصلة البحث والتنقيب^(١) .

وأسرعت الحركة الإنسانية ، التي أخذ يشند ساعدها منذ أواسط القرن الرابع عشر ، أسرعت خطاها بشكل مثير براق خلال فترة من السلام ندر أن تعكر صفوها امتدت مدى أربعين عاماً ما بين صلحي لودي Lodi (عام ١٤٥٤) والغزو الفرنسي لإيطاليا على يد شارل الثامن . وقد تقدمت الفنون والآداب بخطى واسعة حين كان لورنزو دى مديتشى Lorenzo dei Medici أميراً لفلورنسة ، وحين كانت إيطاليا آمنة من الغزو الخارجى نتيجة لقيام تفاهم مجد - وإن لم يكن سهلاً - بين الدول الأربع الكبرى التي كانت تسيطر على مصائر شبه الجزيرة . وتركز هذا النشاط الفنى والفكرى بوجه خاص في فلورنسة عاصمة لورنزو على نهر الأرنو ، وهى التي خلدت شهرتها أسماء دانتى وپترارك وبوكاتشيو Boccaccio وغيرهم من مجموعة الرجال الماجدين الذين جعلوا فلورنسة بحق عاصمة أوروبا في الفن والإبداع الفكرى . وقد انتظمت قائمة عظماء فلورنسة الذين ولدوا فيها وأنتجوا خلال الأربعين عاماً هذه أسماء ميخائيل أنجلو Michael Angelo ودونا تللو Donatello وفرافيلو إبي Fra Filippo Lippi وساندرو بوتشيللى Sandro Botticelli ؛ كما ينبغى إضافة أسماء مكيا فيلى Machiavelli الناشر وجيتشاردينى Guicciardini المؤرخ وفيكينو Ficino الأفلاطونى وپوليسيان Politian المتوافر على دراسة اللاتينية ؛ هذا إلى لوكاديللا روبيا Luca della Robbia ودومينيكو جيرلاندايو Dominico Ghirlandaio^(٢) والكل من الفلورنسيين - وكذلك شأن فير وكيو Verrochio وپروجينو Perugino^(٣) وليوناردو

(١) ١٤٥٤ - ١٤٩٤ . الباحثة والشاعر الإيطالى .

(٢) ١٤٤٩ - ١٤٩٤ . الرسام الفلورنسى .

(٣) حوالى ١٤٥٠ - ١٥٢٤ . الرسام الإيطالى الذى يتسبب إلى بررجيا .

دافنشى Leonardo da Vinci ؛ كما أن لورنزودى مدتيشى قد أظهر عبقريته كشاعر ورجل دولة وذوافة للفنون . وإننا حين نذكر ذلك نستطيع أن نكون لأنفسنا صورة تقريرية عن ذلك البهاء الأخاذ لمجتمع يقوده مثل هؤلاء ويسرعون خطاه . وإنه لمن دواعى قوة النهضة الإيطالية أن فنانها لم يتقيدوا كثيراً بالتخصص الضيق . فمثلاً وجد في فلورنسة نقاشون ونحاتون انتموا في نفس الوقت إلى فئة الأطباء والصيادلة بعد أن كانوا قد تلقنوا على أيدي الصباغة الذين جمعوا إلى العلم والتجارة معرفة واسعة بالفنون والحرف . ومن هنا لم تكن خوارق تنوع المواهب بالشىء النادر : فكان من الأمور العادية أن يتحول الناس من النقش إلى النحت ، ومن النحت إلى العمارة وأشغال المعادن ، ومن كل هذا إلى الشعر والفلسفة والعلوم الطبيعية . وكان ميخائيل أنجلو وليوناردو دافنشى وألبرتى Alberti دائماً مضرب المثل المتواتر على هذا التنوع في المواهب . فأنجلو لم يشتهر بتمثيله ورسومه على الجدران وحدها ، بل ذاعت شهرته أيضاً لمهارته في تصميم تلك التحصينات التي درأت عن فلورنسة حصاراً مشهوراً ، ولاستحواذه على مشاعر مضيفه في بولونا بقراءته لدانتى وپترارك وبوكاتشيو ، وأخيراً لأنه — وقد جاوز السبعين — ألف مجموعة من المنظومات الغنائية صيغت في أسلوب عاطفى رفيع لم يعرف في إيطاليا منذ وفاة دانتى . أما ليوناردو فإنه لم يكن مجرد راسم لوحى « مونا ليزا » و « العشاء الأخير » بل كان أيضاً مهندساً وميكانيكياً وعالمًا . وإن مذكراته تكشف لنا عن عقل شغوف بمقارنة كل أنواع المعرفة والخبرة : فإلى جانب شغفه بدراسة أفلاك الشمس والقمر ، كانت له نظريات خاصة بالحفريات التي عثر عليها بين صخور جبال الأبنين ، تقوم على القياس الرياضى وعلم الأحياء ؛ كما أن له مباحث خاصة بالغايات القصوى في علم الميكانيكا . هذه القدرات الواسعة والشغف الكبير بالمعرفة تمثلت أيضاً في ألبرتى الرياضى وفارس عصره ، الذى ألف كذلك مقطوعات موسيقية ورسم صوراً وبنى كنائس وألف ملهارة (كوميديا) وشرح علم العمارة في عشرة كتب كانت صياغتها من اللطف والاتساق بحيث إن قراءتها لا تزال تبعث البهجة حتى وقتنا الحاضر . ولم يكن أى فرع من فروع العلم التطبيقية غريباً على ألبرتى الذى صمم عملية لانتشال السفن الغارقة والذى يقال إنه قد تنبأ ببعض المكتشفات الحديثة

في طب العيون . على أنه إذا كان ألبرتي في مواهبه نسيج وحده ، فإن التطلع إلى المعرفة الشاملة كان ظاهرة من ظواهر العصر شارك فيها الفنانون جميعاً .

وتمشى فن النهضة مع التقاليد المسيحية ، تستوى في ذلك مظاهره المبكرة في فلورنسة والمتأخرة في البندقية ، بحكم أن الكنيسة كانت أكبر معصديه ؛ وهكذا نجد عشرين موضوعاً مستقاة من الإنجيل يقابلها موضوع واحد استقاه الفنانون من الآداب القديمة . هذا إلى أن بعض المبرزين من الرسامين مثل فرا أنجيليكو Fra Angelico وفرا فلپولپي Fra Filippo Lippi وفرا برتلميو Fra Bartolomeo كانوا رهباناً . ولكن بمرور الزمن فقد رسم الموضوعات الدينية كثيراً من مميزاته الروحية التي اتسم بها في البداية ، فأصبحت الشخصيات في اللوحات أقل كهانة وتزمتاً ، وهوما اصطلاح عليه العرف حينئذ ، واقتربوا كثيراً من واقع الحياة الإنسانية بلحمها ودمها . فمثلاً « مادونا Madonna » تيسيان Titian^(١) نموذج أنيق أكثر منها صورة مثالية للأمم المقدسة . وفي هذا المجال — كما هو الحال في أوجه النشاط الإيطالي الأخرى — انقطع الفن بشكل حاسم بالطابع الدنيوي والنقاي الذي ساد العصر والذي لم يكن في أى مكان أقرى منه في روما ذاتها .

وتميز العصر بالجرى وراء المجد الشخصي . ولكي يخلد الأغنياء أنفسهم خلال الفن ، راحوا يحفزون الرسامين والفنانين إلى إبداع الصور والتأثيل . كذلك اكتسبت العمارة الفلورنسية الفخمة شهرة سريعة . وإذا كان من الإنجليز من لم تسنح لهم فرصة القيام برحلة إلى إيطاليا يشاهدون أثناءها تماثلاً من نحت دوناتللو أو ميخائيل أنجلو ، فإنهم يستطيعون تلقى نفس النوع من التذوق في زيارة لكنيسة وستمنستر حيث لا بد أن يستحوذ على إعجابهم قبر هنري السابع الذي صممه تورييجيانو Torregiano^(٢) . وكما طلب الخلود راعى الفن من الفنانين ، كذلك طلب أهل الفن الخلود بأعمالهم . انتهى عهد المعمارين المجهولين والكاتدرائيات القوطية التي ساهمت في تشييدها أجيال متوالية من البنائين المغمورين ، بعد أن أصبح

(١) حوالى ١٤٧٧ - ١٥٦٧ . أحد كبار مثلى مدرسة التصوير البندقية .

(٢) ١٤٧٢ - ١٥٢٨ . نحات فلورنسى قضى جل حياته الأخيرة في إنجلترا وإسبانيا ؛

وفي الأولى صمم مقبرة هنري السابع في وستمنستر وفي الثانية صمم تمثال العذراء في إشبيلية .

المعماري في عصر النهضة ، في أسلوبه في فن العمارة المقتبس عن تعاليم فثروفينوس Vitruvius^(١) ، يتوقع أن يجنى ثمرة عمله بعد إتمامه ، وهي شهرة تطير له أثناء حياته .

ومما يسم إيطالي عصر النهضة بالقوة والذاتية أن فن عمارتهم ، رغم تأثره الشديد بكتابات فثروفينوس ، لم يكن قطعاً متقيداً بالنظريات أو تقليداً أعمى للنماذج القديمة . حقيقة لقد راعوا قواعد أساتذهم الروماني ، إلا أن ذلك لم يمنعهم من الاستجابة لدوافع الذوق الشخصي . وهكذا تشكلت قوالب الماضي بحيث تتمشى مع طرائق الحياة الحديثة ، وخفت حدتها لتلائم لطف الحياة ورخاؤها . فقد يشمل تصميم المعماري حديثة بها مسطحات مزروعة بالأزهار وأفاريز مستقيمة وبحيرات مربعة وخطوط عابسة لا تقوم عليها سوى أشجار الدلب — وبكل هذا تستكمل صورة الواجهة المتناسقة للمنزل الريفي فحتى بلاديو Palladio^(٢) (من فينتنزا Vicenza) ، الذي أصبح كنه الأربعة في العمارة حجة يعتد بها كثيراً في ربوع أوروبا ، لم يستطع أن يفرض حدود نسبه ومقاييسه الكلاسيكية الصارمة على خيال مواطنيه المسترسل . واصطدم شغف الإيطاليين الشديد بالزخارف بما تميز به التصميم الكلاسيكي من أوضاع صارمة ، ولكنه استطاع أن يفرض نفسه بمرور الزمن ، كما هو واضح في كنائس القرن السابع عشر .

وتدفقت عمارة عصر النهضة من مركزها في روما إلى خارج إيطاليا ، بعد أن وصلت إلى مجدها في كنيسة القديس بطرس الجديدة بروما ، فلأت أوروبا في القرن السادس عشر بقصور وبيوت لم تنشأ لأغراض الدفاع بقدر ما أنشئت للحب الراحة والمتعة لأصحابها . وإن قصور إزايلى ريدو Azay le Rideau وفونتنبلو وهاتفيلد ونول Knole لتسجل جميعاً بداية عصر بز سابقه أبهة وفخامة . فقد حل المنزل الريفي محل القلعة المحصنة ، وأخذت مبانى المدينة تزحف بلطف خارج أسوارها ، وتراجع فن العمارة القائم على الخوف من غزوات المتبربرين في القرن الثالث أمام الروح

(١) مهندس معمارى روماني ألف كتاباً مشهوراً عن فن العمارة . لا يعرف كثيراً عن حياته ، وإن يكن قد عاش في عصر أغسطس .

(٢) ١٥١٨ - ١٥٨٠ . الممارى الإيطالى .

الجديدة والبهجة التي تميزت بها الحياة الاجتماعية الجديدة .

وفي مجال الأدب كان الطابع الأساسي للنهضة الإيطالية هو الابتعاد عن الأفق المدرسي والديني المهيمن على العصور الوسطى ، مع شغف شديد بالحياة الوثنية القديمة وآدابها كما لو كان تعويضاً عن اتجاهات الماضي . وهذا الانطلاق الكبير للروح الإنسانية لم يسر على وتيرة واحدة . فالبعض ممن كانت تسهل لهم الكتابة بلغة بلدهم التسكانية رأوا ضرورة التعبير عن أنفسهم بمحاكاة سقيمة مغرورة لشيشرون ؛ بينما ا طرح البعض الآخر الأخلاق والدين إلى غير رجعة . وعلى أى حال فقد علق الجميع أهمية كبرى على التمكن من الفصاحة اللاتينية ، ولهذا نجد أن إينياس سلفيوس Aeneas Sylvius^(١) الذى وضع كتابه « أصول فن البلاغة . Artis Rhetoricae Precepta » عام ١٤٥٦ ، استطاع أن يصل إلى كرسى البابوية ذاته بفضل قدرته الخطابية باللغة اللاتينية وكان الإنسانى من رجال القرن الخامس عشر ، كما كان السوفسطائى اليونانى أو راهب العصور الوسطى ، عرضة للبعثيات التي كانت تستهوى وعظائم الشعوب في كل عصر فيستسلمون لها . وطالما بقيت الآداب القديمة محفوظة في مخطوطات ، فإن حيازة مفاتيح المعرفة والتصرف في « صندوق الدنيا » بالفتح والقفل بحسب الهوية ظل حكراً للإنسانى الذى يحوز هذه المخطوطات . وكان البحاثة المتنقل الذى يلتقى محاضراته عن أفلاطون أو هوميروس ليطالع النص القديم ثم يقدم تعليقه متنقلاً بالسامعين إلى أسرار العصور الخوالى بمحض أعمال ذهنه واستخدام صوته . ومتى كان المستمعون أكثر عاطفية واستعداداً للتعلم وأسهل قياداً منهم حينئذ ؟ فقد كان الإنسانى خطيباً وشاعراً وبجائته ومعلماً ، يدعو القائد إلى معسكره ليلهب القوات المحاربة بخطبه الشيشرونية ، وتستخدمه الحكومة للقيام بسفارات خطيرة أو تدوين الرسائل أو لإلقاء خطب عامة في مناسبات رسمية ، ويستقبله الأمير في قصره ليمتدح بمجلسه وبما يثار فيه من مناقشات عقلية ، ويتخذونه معلماً ومشرفاً على مكتبته ورفيقاً . وكل تكأ كأ الناس من جميع الطبقات ، رجالاً ونساء ، لسماع خطب الإنسانى . . . وكل أبكتهم بلاغته ، وكل عاشوا على

(١) البابا بيوس الثانى الذى عرف في تاريخ الآداب بإينياس سلفيوس . (١٤٠٥ - ١٤٦٤) .

الأفكار التي قدمها لهم ! وفي ظل أحوال كهذه ما كان من المتوقع ظهور أبحاث عميقة شاملة .

وبالرغم مما كانت عليه الكتابات اللاتينية التي وضعها الإنسانيون الإيطاليون من السطحية والضحالة ، فإنها كانت ذات أهمية كبرى من حيث إنها مهدت الطريق لاستكشاف المعنى الحقيقي لجمال العالم القديم . عرف الناس الدراسات الكلاسيكية اللاتينية في البداية ، ومنها تطوقوا إلى الآداب الإغريقية ذاتها . وهكذا تدن أوروباً الغربية للإنسانيين بفضل تعرفها من جديد على أفلاطون ، وبما توصلت إليه من توسيع معرفتها بالنصوص القديمة . وبعد أن اكتشف الغربيون أن الماضي شيء له كيانه يقف على قدم المساواة مع الحاضر ، وأن المستقبل سيطبق مثل هذه النظرة على الحاضر ، بدعوا يضعون الأجيال القادمة نصب أعينهم ، ويسرحون النظر في الصورة التي سيبدو بها عصرهم بعد قرون . وتتميز المدرسة الكبيرة من الناشرين والمؤرخين الفلورنسيين بهذا الشعور الجديد بالاستمرار التاريخي الذي يتطرق رجوعاً إلى الماضي ويتطلع قدماً إلى المستقبل .

وتدفقت على أوروبا المخطوطات الجديدة (فثلاً أحضر الكاردينال بساريون Bessarion ١٤٠٣ - ٧٢) وحدة ٨٠٠ مخطوطة إغريقية من القسطنطينية) ، حتى بدا أن ليس هناك حداً لما يخبئه المستقبل ، بحيث بات من الممكن أن تلقى الأضواء على كل ما عفى عليه الزمن مثل كتب تاسيتوس Tacitus ومسرحيات سوفوكليس Sophocles وعشريات ليفي Livy . وبما زاد في إثارة مشاعر الناس ما وجدوه من صعوبات في تفسير النصوص ، بحيث أصبح لامعدي منذ البداية عن وضع منهج نقدي كامل للدراسات الإغريقية ، ومنذ البداية تقريباً فيما يختص باللاتينية . أما الأدوات الفنية اللازمة للثقافة من قواعد اللغة والمعجمات والأبحاث التي تتصل بالفن القديم وعلم طبقات الأرض ، وتحقيق المصطلحات الذي قد يطول ، فقد امتزجت جميعها بروعة جمال الأدب الجديد .

وفي غمار هذا الخضم من الأذواق الجديدة ووجهات النظر الوليدة انفسح

المجال للنقد التاريخي العلمي الذي كان أستاذه لورنزو فاللا Lorenzo Valla (١٤٠٥ - ١٤٥٧) . ولقد بدأ فاللا حقبة جديدة في تاريخ البحث الأوربي بمقالاته الجريئة التي انتقد فيها صحة «هبة قسطنطين»^(١) ، مستنداً أولاً وقبل كل شيء على قواعد عامة يؤيد بها أن قسطنطين لم يمنح الهبة باتباناً وأن البابا سلفستر Sylvester بالتالي لم يقبلها . ثم تطرق من فرض إلى فرض في محاولته إبراز وجهة نظره . فلو أن إمبراطورية العالم الغربي قد منحت حقيقة للبابا لأمكن الاستدلال على أن الهبة قد منحت بالفعل بوجود عملة تحمل اسم البابا . ولاحظ فاللا أن يوتروبيوس Eutropius^(٢) — وقد كتب في وقت متقدم بعد الحادث المزعوم — لم يشير إلى هذه الصفقة المهمة ، وأن النص الأصلي لم يظهر قط ، وأخيراً أن الوثيقة قد كتبت بلاتينية سقيمة تحمل طابع الديوان البابوي بدرجة من الموضوع بحيث يبدو ظاهراً كل دلائل التزييف المغرض . على أنه ليس أدل على التسامح الذي ساد إيطاليا حينئذ من أن مثير هذه الحملة الجريئة ضد إحدى الميزات التي اعترت بها البابوية قد أصبح هو نفسه سكرتيراً للبابا نقولا الخامس .

في بيئة كهذه سادتها الدعة والحرية أخذت حياة الباحثين تجتذب اهتمام الناس الذين كانوا في الماضي شغوفين بمتابعة أعمال الملوك والقباطنة . أما الآن فقد استهوتهم قراءة حياة أولئك الأبطال الذين اجتذبوا التفات الأجيال القادمة بمحض شغفهم بالكتب والمخطوطات وهيامهم بالمعرفة لذاتها . وهذه صورة رسمها فُسپازيانو — Vespasiano —^(٣) لنيكولا دي نيكولي Niccolo de Niccoli الذي كانت مكتبته الخاصة — وقد حوت ثمانمائة ألف مخطوطة — إحدى مفاخر فلورنسة . قال فُسپازيانو :

(١) طبقاً لما يروى عن هذه «الهبة» منح قسطنطين البابا سلفستر Silvester وخلفاءه من بعده — إلى الأبد — ليس فقط السيادة الروحية على البطريركات الروحية الأخرى ، في شئون العقيدة والعبادة ، بل أيضاً السيادة العلمانية على روما وإيطاليا و «الولايات والأماكن والدول Civitates الواقعة في المناطق الغربية» .

(٢) مؤرخ روماني عاش في القرن الرابع الميلادي .

(٣) إيطالي شغوف بالكتب عاش في القرن الخامس عشر . وله في فلورنسة التي أصبح أميناً لمكتبها ، وكان على دراية وثيقة بالعبرية واللغات القديمة . وله عدة مؤلفات .

« كان مجلسه قبل كل شيء شيقاً للغاية ، يموج بالحركة ؛ فالابتسامة أبداً تراود شفتيه ، وحديثه شديد الإشباع . يلبس ملابس من أرق أنواع السيج ، مشربة بحمرة داكنة ، تصل في طولها إلى إخص قدميه . لم يتزوج قط حتى لا يعوق الزواج دراساته ، معتمداً في قضاء مطالبه اليومية على خادمه . ولقد تميز عن جميع الرجال : فهو أنظفهم مأكلاً وفي شتى نواحي حياته الأخرى . كان في جلوسه إلى الطعام يأكل في أطباق أثرية نوعاً ما . وبهذه الروح كان يضع على مائدته أواني من المرمر وأخرى ذات جمال خلاب ، وكان كأس شرابه من الكريستال أو من أنواع أخرى من الأحجار الثمينة . وفي الحق إن مجلسه إلى الطعام لمنظر خلاب ؛ وكأنك ترى نموذجاً كاملاً للغابرين . يأمر دائماً بأن تكون الفوطه الموضوعة أمامه وكل المفارش ناصعة البياض . وقد يدهش بعض الناس لكثرة الأواني التي حفلت بها مائدته . ولكني أجب بأن مثل هذه الأشياء لم يكن لها من التقدير والاعتبار ما أصبح لها بعد ذلك . ولما كان لنيكولو أصدقاء في كل مكان ، فقد حرص كل من يرد استرضاه على أن يرسل إليه تماثيل من رخام أو أواني أثرية أو نقوشاً ورسوماً وصوراً من عمل الفنانين المبرزين ، كما أهده قوالب من الفسيفساء . كانت لديه خريطة رائعة الجمال أشير فيها إلى كل جزء من أجزاء العالم وإلى كل مدينة من مدنه ؛ كما أنه كان يمتلك خرائط أخرى لإيطاليا وإسبانيا كلها بالألوان . ولم تكن في فلورنسة دار كداره حافلة بأسباب الزينة مكتظة بالتحف الجميلة ، بحيث إن كل من قصده وجد عنده ما لا يحصر له من الأشياء القيمة التي ترضى كل ذوق » .

وفي هذا العصر أيضاً بدأنا نسمع إشارة بمن هو أكثر الناس خدمة للمجتمع وأكثرهم استحقاقاً لجزائه (أعنى المعلم) . وإذا كان فسبازيانو قد قدم لنا وصفاً للثقافة الواسعة التي ألم بها ذلك الأعزب الفلورنسي الحريص الذي يمثل في صفاته ورقة شمائله العالم القديم ، فقد خلف لنا أيضاً صورة للمعلم . ويمكن اعتبار فتورينو دافلتر (١٣٩٦ - ١٤٤٦)^(١) رائداً للحركة التعليمية التي ترتب عليها وضع أسس معرفة الإنجليز بالعلوم الإنسانية . كان صغيراً ضئيل الحجم ، مرحاً ،

(١) ١٣٧٨ - ١٤٤٦ . أحد الإنسانيين الإيطاليين . افتتح مدرسة في مانتوا لتعليم أبناء الأشراف والفقراء جنباً إلى جنب مصطنعاً المساواة في معاملتهم . وشهر بمنهجه الجديد في التعليم .

يبدو ذا طبيعة تغريه دائماً بالضحك ، فارساً ورياضياً ماهراً ، كبرس جهده دون كلل أو ملل لتقويم الجسم والعقل والخلق . اكتسبت مدرسته شهرة واسعة في شتى ربوع إيطاليا ، ويمكننا أن ندخل في دائرة من تأثروا به كولد Colet^(١) وولزى Wolsey^(٢) وچون ملتون وتشارلز كنجزلى^(٣) وكل نظار المدارس المحدثين طالما كان ديدنهم تقويم العقل والخلق عن طريق الآداب والموسيقى والفن ، مع إضافتهم إلى هذا المنهج الدسم اهتماماً بكمال الجسم .

ولم يكن حكام روما بقادرين على الوقوف مكتوفى الأيدي إزاء هذه الإشراقات التى أطلت من قصور الأمراء نتيجة لرعايتهم للفنون والآداب . أما منصب البابوية - وهى التى اهتزت هيبتها الروحية إلى حد كبير أثناء فترة الانقسام والأسر فى أفينيون^(٤) - فقد غدا أداة ناجحة لترقية المعارف وجمع الكنوز الفنية وتجميل تلك العاصمة المشهورة التى أهملت ردىحاً طويلاً من الزمن على نحو يعيد إليها طلاوتها القديمة . وقد أنشأ مكتبة القاتيكان نقولاً الخامس (١٤٤٧-٥٥) ، وهو البعثة المنحدر عن أب فقير كان يشتغل بدق أجراس الكنيسة ، والذي شجع كلا من فرا أنجيلكو وبنوتزو وجوتزولى Benozzo Gozzoli^(٥) وبييرو دلا فرنشيسكا Piero della Francesca^(٦) كما أن إينياس سلفيوس المبدع ، وهو الذى شيد قصر بيكولويني فى سينا ، قد كرس للكرسى المقدس مواهبه كرحالة ورجل آداب ودبلوماسى وذو ذوق للفن ، حتى إنه حين اعتلى الكرسى البابوى باسم بيوس الثانى (١٤٥٨ - ٦٤) راح يستعيد الكثير من الحماسة القديمة التى كان يتسم بها الصليبي .

(١) ١٤٦٧ - ١٥١٩ . جون كولد مرب إنجليزى ومتفقه فى الشئون الدينية . وهو من زمرة الإنسانيين الذين نظروا إلى المسائل الدينية نظرة تحررية وانتقدوا المفايد الملمة بالكنيسة الكاثوليكية .
(٢) حوالى ١٤٧٥ - ١٥٣٠ . كاردينال سياسى إنجليزى لعب دوراً فى الإصلاح الدينى فى عهد هنرى الثامن سائق تفصيله فيما يلى .

(٣) ١٨١٩ - ١٨٧٥ . رجل دين وشاعر وكاتب قصة إنجليزى .

(٤) إشارة إلى أن مدينة أفينيون الفرنسية التى أصبحت قاعدة للبابوية من ١٣٠٩ إلى ١٣٧٧ .

(٥) ١٤٢٠ - ١٤٩٧ . رسام إيطالى .

(٦) ١٤٢٠ - ١٤٩٢ . مصور إيطالى ، شهر لابتكاراته فى فن الرسم المتطور وبراعته فى استخدام الضوء . وله كتيب هام فى الهندسة .

أما خليفته بولس الثاني (١٤٦٤ - ٧١) الذى جمع القطع المنقوشة من الأحجار الكريمة والبرونز بتلك الحماسة والمعرفة التى يتميز بها ذواقه بنادى ، فإليه يرجع الفضل فى إعادة معالم أقواس النصر التى بناها كل من سبتيموس سيفيروس^(١) و تيتوس^(٢) . وهكذا توافر بابوات النهضة على البناء والترميم والزخرفة والجمع والانطلاق فى دنيا اللذات المترفة ، وهم ينفقون ويجمعون الضرائب من رعاياهم ، حتى وصلت رعاية البابوية للفنون أوجها حين تولاهما ليو العاشر من أسرة مديتشى فى عام ١٥١٣ . وفى عهده أدت النفقات الباهظة التى أنفقت فى بناء كنيسة القديس بطرس إلى اهتزاز ولاء نصف العالم المسيحى .

على أنه يشق على زائر روما وهو يستمتع بهذه المجموعات الفنية والأبنية التى ترجع إلى هذا العصر أن ينتقد بابوات النهضة على ما بذلوه من جهود مستنيرة برغم فداحة تكاليفها . أما الذى يمكن أن يؤخذ عليهم فهو ذلك الجشع السافر الذى حفز بعض بابوات النهضة إلى توسيع أملاكهم العلمانية على حساب جيرانهم من أمراء إيطاليا . وحين نضع نصب أعيننا أن الخطر التركى كان داهماً ملحاً ، وأن الحاجة كانت شديدة إلى التساند السياسى من جانب الدول الإيطالية ، فإن سياسة بابا كسكستوس الرابع ، الذى أدى به طموحه إلى تأسيس مملكة علمانية وإلى تطبيق نظام علمى من المحسوبة وإلى الدخول فى الحربين ، للدليل بارز على الإثم السياسى . وإن الشعور السائد حينئذ فى شمال أوربا بأن البابوات هم أمراء إيطاليون يعملون على توطيد سلطتهم العلمانية أكثر مما يهتمون بالسهر على مصالح العالم المسيحى فيما يمس حياته الروحية — إن هذا الشعور لم يكن أقل العوائل شأنًا فى الخروج على روما .

وفى لبنان ذلك كله كانت جمهورية البندقية تواجه حقيقة داهمة رهبة حين استولى الأتراك العثمانيون على القسطنطينية . فى عام ١٤٥٤ تعجلت البندقية توقيع صلح غير مشرف مع الأتراك تلتته فترة سلام قصيرة الأجل انتهت فى عام ١٤٦٣ ،

(١) ١٤٦ - ٢١١ . الإمبراطور الرومانى الذى يعتبر عصره بداية ظهور الاستبداد العسكرى .

(٢) ٤٠ أو ٤١ - ٨١ . الإمبراطور الرومانى الذى تميز عهده (٧٩ - ٨١) بسلام نسبي .

فنشب بين الطرفين قتال مرير خرجت منه البندقية وقد نفذت دلاشيا ولنوس والمورة ، وأجبرت على دفع جزية سنوية للسلطان . ولم يكن ذبلاء البندقية الذين يملأهم الزهو وحب المخاطرة على استعداد للتسليم بهذه الشروط المذلة عن يد وهم صاغرون ، ففكروا في أن يعوضوا في الغرب ما فقدوه في الشرق بحيث يمكن موازنة الكوارث التي حلت بالبندقية في بحر إيجة على حساب ميلان وفرارا وناپولي . وهكذا فإن البندقية في عزمها الملح على تعويض ما فقدته ، قد سعت في النهاية إلى إثارة شهوات فرنسا ومطامعها .

ورغم هذه العواصف فإن النصف الأخير من القرن الخامس عشر خالداً في تاريخ النهضة البندقية . فكنيسة القديس مرقس التي بدئت في عام ٨٣٠ وأكملت في عام ١٤٨٤ لا تزال محفوظة بالخصائص الجوهرية التي تميز بها الفن البيزنطي بشكل لا نجاهه في أي بناء آخر من الأبنية الباقية في البلاد التي كانت يوماً ما من أملاك الإمبراطورية البيزنطية . ولعل أنبل رد على أعمال التخريب البربرية التي أتاها الترك أن يكتمل على أرض البندقية الحرة بناء يقف كنصب تذكاري خالد لعظمة الإمبراطورية المسيحية الغاربة في الشرق وحضارتها . ومع ذلك فقد وجد بجانب آخر من النشاط الفني والعقلي في البندقية لم تعبر عنه الفسيفساء البيزنطية ولا الحلى التي تعيد إلى الأذهان ما كان قد صممه الصائغ الإسكيني^(١) في قديم الزمان . فالبندقية على حدود عالمين : الإغريقي واللاتيني — وإذا كان الطابع الإغريقي يتمثل في كنيسة القديس مرقس ، فإن فن جون بليني John Bellini^(٢) الشائق — وبليني أحد الرواد الأوائل للتصوير في البندقية — ليرتبط تمام الارتباط بالمدارس الإيطالية .

أما اختراع الطباعة ، الذي قدر له في الشمال أن ينشر نثر لوثر الملهب في طول ألمانيا وعرضها ، فقد كان بوجه خاص أداة الشعب الإيطالي في دعم الدراسات

(١) سكان سكيثيا التي كانت تمتد في الإستبس من جبال الكرپات إلى نهر الدون ؛ وقد ورد ذكرها في تاريخ هيرودوت .

(٢) حوالى ١٤٣٠ - ١٥١٦ . من أشهر المصورين البنادقة .

الكلاسيكية . وكان أبرز أعلام الطباعة الإيطالية ألدس مانوتيووس Aldus Manutius الناقد والنحوى ومؤرخ الأدب وعالم الأخلاق الذى أنشأ المطبعة التى عرفت باسمه فى البندقية ، والذى لا يوجد فى حوليات الحركة الإنسانية الإيطالية من هو أنبل منه وأرق حاشية . كأن ألدس قد كابد أسوأ آفات الطفولة ، على شكل كتاب مدرسى سيئ للغاية . ولما كان ألدس مربياً ومن أتباع فلسفة أفلاطون ، فقد أمكنه الاقتناع بأن تحسين التربية الإيطالية يتوقف فى أساسه على تقديم كتب جديدة قليلة التكاليف . لهذا استقر فى البندقية وكانت مدينة آمنة من أخطار الحرب ، وهناك استطاع أن يجد مجتمعاً مثقفاً وأن يعتمد على تعضيد اليونانيين المهاجرين . وأن ينشئ مطبعة أصدرت فى تتابع سريع كتباً كلاسيكية الواحد تلو الآخر فى طبعات من الرخص والبهجة والإتقان وحسن التناول بحيث استطاع السيد البندقي وهو ينساب بجندوله فى القناة الكبرى أن يتمتع بمباهج هوميروس فى مجلد صغير أوضح ما يكون طباعة .

وكانت الحركة الإنسانية فى عصر النهضة تتسم بطابع أرستقراطى يخالف طابع العصور الوسطى الذى يمتاز بالتدين والبطولة اللذين تعبر عنهما الكاتدرائيات القوطية والملاحم الشعبية Chansons de Geste — فإن الإنسانى إنما كان يخاطب الخاصة من الناس . ذلك لأن حماسة الفنان أو العالم لا تستطيع أن تحرك شعور العامة ؛ فإن الفلسفة والمعرفة والبحث النقدى للنصوص والحماسة فى متابعة الفن للفن ستظل جميعاً ألواناً من النشاط البشرى تختص بها فئة ضئيلة من مجموع الجنس البشرى . هكذا الحال الآن ؛ وكذلك كان فى عصر النهضة . وإذا كان الإنسانى قد استطاع حينئذ أن يرفع من أذواق الناس ، فإنه استطاع كذلك أن يوسع المسافة بين الأفراد .

وكما هو الحال فى الحركات الكبرى المعبرة عن الروح الإنسانية ، اقتصر نشاط النهضة على فئة قليلة نسبياً من الناس هم أولئك الموهوبون الخلاقون الذين عاشوا وأنتجوا فى مجتمع حساس ذكى . ولولا الحياة الزاخرة فى قصور إيطاليا ، ولولا رعاية الكنيسة وشغف الناس فى إيطاليا بامتاع العين والأذن ، لكان ما قام به الإنسانىون فى حيز الاستحالة . فلم يحدث فى أى بلد أوروبى آخر أن تقفل الحوانيت

حين يرتل الشاعر الشعبي أشعاره ، ولم يحدث كذلك أن سمح لفنان ذوقه بالصفح عن جريمة قتل . ففي إيطاليا وحدها كان يتوقع من نبيل أن يتدق سوناتة أو يقدر لوحة أو يطالع أدباً قديماً . ويتضح ذلك كله بمقارنته بأحوال الأرستقراطية الفرنسية كما كانت عليه حتى هزبها فرنسوا الأول . فقد كان النبلاء الفرنسيون أجلاً يقصرون همهم على الحرب ومباريات القروسية والصيد . ولكن ذلك لا يعنى أن الحياة الإيطالية ، برغم كل ما بلغته من رقة ولطف ، كانت مريحة أو آمنة . فقد كان الريف خالياً من حراسة الدولة ، وكأن الناس يسرون مسلحين ، وبأخذون حذرهم من مظاهر الكراهة الحيوانية التي قد تبدو فجأة من جيرانهم . وهذا تألق في قصر الأمير من قطع الرخام والصور ، فإنه لا يعدو أن يكون قلعة أبرد من القبر في الشتاء : فهو لا يحوى من وسائل الراحة إلا القليل الذي يتطلبه أقل السكان تواضعاً في حي إسلنجتون وبتنى في لندن . وإن مادونه بنفشتوتشلايني Benevento Cellini^(١) (١٥٠٠ - ٧١) عن تاريخ حياته ليصور مجتمعاً شاعت فيه جرائم العنف وأعمال القسوة والخيانة إلى حد أنها لم تعد تثير اهتمام الناس . هكذا كان مزاج الإيطاليين : سرعة غضب ، وثأر قاس ، مع حساسية لألطف ما يشوق الناس شكلاً وصوتاً .

واستمدت الأرستقراطيات المحاربة فيما وراء الألب من هذه المواهب المتفتحة في إيطاليا عناصر جديدة من الاهتمامات . فالنبلاء عبر الألب ، بما كانوا عليه من بداوة ريفية خفت منها الرحلة إلى إيطاليا ، أخذوا أنفسهم بتشجيع الفنون والآداب . كما أخذ يضيق ذلك الفاصل الذي قسم المجتمع الوسيط ما بين كاتب مثقف ورجل حرب جاهل . وقبل نهاية القرن الخامس عشر نجد الناس - حتى النبلاء أنفسهم - يجارون روح العصر : فهم يغشون الجامعات ويتثقفون بالقراءة ويزينون دورهم ويبحثون عن الأبهة .

فإنجلترا - مثلاً - أثناء حروب الوردتين - لم يكن فيها من كرهه الناس قاطبة مثل جون تبتوفت John Tiptoft إيرل ورستر (١٤٢٧ - ١٤٧٠)^(٢) ، وذلك

(١) ١٥٠٠ - ١٥٧١ . فنان وصانع معادن ونحات إيطالي من فلورنسة .

(٢) قائد بارز من أنصار أسرة يورك أثناء حروب الوردتين .

لنفسوته الباطشة حين جعله الملك إدوارد الرابع كبير ضباط حاشيته ، وأداة لتنفيذ أحماله الانتقامية الفظيعة ، مما أدى إلى تسميته « جزار إنجلترا » و « الجلاد الشرس ونازع رموس الرجال » . ومع ذلك فإن قسوته ، وهى النموذج الذى كان مألوفاً فى إيطاليا ، كانت تخالفها درجة كبيرة من الثقافة ، ولم يكن بإنجلترا إلا نفر قليل ممن يلمون باللاتينية يمكن أن نقول إنهم أكثر ثقافة من هذا الأرستقراطى اللفظ الذى تلقى تعليمه فى باليول ثم خالط الإنسانيين فى بادوا وأفرغ حوانيت بيع الكتب فى فلورنسة . كان تبتوفت فى الطليعة ، ثم ترسم خطاه نفر كبير من الإنجليز ممن تعلقوا بالدراسات اللاتينية وجرى العرف فى عهد الملكة إليزابيث على تسميتهم « بالمرءة المتجسدين » ؛ ولكنهم بتلهمهم على الإيطاليين ، إلى جانب ما اكتسبوه من آفات خلقية كثيرة ، كسبوا فنوناً متنوعة من الذوق والمعرفة والتجربة عملت دوماً على إثراء ثقافة بلادهم .

وورثت أوروبا عن إيطاليا النهضة فكرتين قيض أن يكون لهما أثر دائم فى مجال السياسة والتعليم . أما الفكرة الأولى عن السياسى الخالص أو المنقطع للسياسة فقد احتواها كتاب « الأمير » لمكيافيللى ، وهو الكتاب الذى كتب فى عام ١٥١٣ ؛ والفكرة الثانية عن السيد المهذب الشغوف بالدراسة احتواها كتاب « رجل البلاط » لكاستيلونى Castiglione^(١) الذى وضع بعد أعوام ثلاثة من هذا التاريخ . أما مكيا فيلى فقد كان دبلوماسياً فلورنسياً ووطنياً إيطالياً متحمساً ، استغل الفراغ الذى فرض عليه فى المنفى فى تصوير نوع الحاكم الذى يؤهل خير تأهيل لتحرير أرض إيطاليا من دنس الغزاة ويبعث أمجاد روما القديمة . والمثير فى هذا البحث أنه موضوعي ؛ فالأمير متمرس فى سياسة القوة : فهو يلجأ إلى أساليب القوة والغش دون وازع أو تبكيت ، لا يعبأ بشيء فى سبيل توسيع رقعة أملاكه وإحاطتها بالضمانات الكافية . وهو واقعي يرى الحياة كما هى عليه ، ويحيط بالتيارات المعاصرة عن كثب ، ولا يتوقع فى الحياة أحسن أو أكثر مما تستطيع هى إعطائه . وهكذا كان « أمير » مكيا فيلى مختلفاً كل الاختلاف عن أرواح القديسين الذين

(١) . بلدزار كاستيلونى (١٤٧٨ - ١٥٢٩) . دبلوماسى إيطالى .

حفلت بهم مؤلفات القسس في العصور الوسطى . وإن مبدأ سياسة القوة الذي سفير للناس دون موارد أو تحفظ ، ممثلاً ما هو جار في الراقع في ذلك العصر ، قد نجاء بمثابة صدمة للرأى العام — إذ الناس لم يعتادوا أن يطلع عليهم بحث سياسى جار من الأخلاق والدين . ثم إن بطل ميكافيللى كان قيصر بورجيا ابن أخ إسكندر السادس البابا السفاح . وبالرغم مما قام به قيصر بورجيا من أعمال شخصية براقعة ، فقد عرف في الناس جميعاً بنجاحه في تدبير جرائم القتل وأعمال الغدر والحيانة ، وهذا كله مما أضفاد صفة الجرأة إلى هذا الكتاب الذى تحدى المؤلف عند الناس .

وبقدر ما مثل « الأمير » الروح الإيطالية في ذلك العصر ، مثلها أيضاً كتاب « رجل البلاط » لكاستليونى . وقد استقى المؤلف انطباعاته من بلاط إيطالى على درجة كبيرة من الثقافة ، هو بلاط الدوق جويدو بالدو Guidobaldo في أرينو ، ثم رسم لرجل البلاط الأنموذج صورة نالت شهرة طبقت الآفاق في طول أوروبا وعرضها . فرجل البلاط لا ينبغي أن يقصر تدريبه على مدرسة البلاط ، بل عليه أن يتلقاه أيضاً في المعسكر ؛ فينبغى عليه أن يكون مدججاً بالسلاح ، وأن يكون رياضياً يعنى بصحة جسمه ، ومثقفاً ذواقة للأدب بحيث يتدمج في كل مجتمع — فيقرأ الإغريقية واللاتينية والإيطالية جيداً ، مع بعض الإلمام عملياً بالرسم والموسيقى وإظهار إتقان يخيل إلى الناس وكأنه ليس نتيجة مجهود كبير ، لكل ما يسود عصره من أذواق وأفانين . وتمشت هذه النظرة إلى التعليم مع روح العصر ، فترجم كتاب « رجل البلاط » إلى عدة لغات . ويمكننا مطمئنين أن نعزو فكرة ملتون عن تعليم متعدد الجوانب من شأنه « أن يعد الإنسان للاضطلاع في مهارة وإتقان بكل المناصب العامة والخاصة سواء في الحرب أو السلم ، وفقاً لمقتضيات الظروف » — يمكننا أن نعزو فكرة ملتون هذه إلى الترجمة الإنجليزية الجذابة التى قام بها سير توماس هوبى Thomas Hoby في عام ١٥٦١ .

ولكن هذا الفيض المفرط من العبقرية الإيطالية لم يكن له أى صدى في العالم الإغريق الأثرؤذكسى سواء في أملاك السلطان العثمانى أو في أملاك قيصر روسيا . فلم تكن النهضة الإيطالية تعنى شيئاً للروس أو للترك ، وبغض النظر عن بعض

المؤثرات القليلة المتناثرة كصورة محمد الفاتح التي رسمها أحد البنادقة ووضعت في قصر السلطان ، أو كبناء الكرملن في موسكو الذي أخذ عن ميلان ، أو بعض اللقنات المتقنة في أكرا ودلهي ، ظل أثر الذوق الإيطالي والعبقرية الإيطالية مقصوراً على العالم المسيحي اللاتيني . أما روسيا فقد كانت عالماً منفصلاً قائماً بذاته ، ولم تكن عاملاً يعتد به في السياسة الأوربية حتى القرن الثامن عشر .

كتب يمكن الرجوع إليها

- Trenchard Cox, *The Renaissance in Europe (1400-1600)*. 1933.
نماذج مأخوذة عن الأعمال الفنية في متاحف لندن
- M. Creighton, *History of the Papacy during the period of the Reformation*. (1882-94).
 - Janet Trevelyan, *A Short History of the Italian People*. (1929).
 - E. Armstrong, *Lorenzo de Medici and Florence in the Fifteenth Century*. (1896).
 - P. Villari, *Life and Times of Girolamo Savonarola*. Tr. L. Villari. 2 vols. (1897-8).
 - G. Vasari, *Lives of Italian Painters, Sculptors and Architects*. 8 vols. (1900).
 - B. Berensen, *Central Italian Painters of the Renaissance*. (1897).
 - B. Berensen, *Venetian Painters of the Renaissance*. (1894).
 - M. Von Wolff, *Lorenzo Valla*. (1893).
 - L.B. Alberti, *Opere Vulgari*. Ed. A. Bonucci (1843-9).
 - L. von Ranke, *History of the Popes*. Tr. S. Austin. (1847).
 - H.A. Taine, *Philosophie de l'Art en Italie*. (1865).
 - Machiavelli, *Principe*. Ed. L.A. Burd. (1891).
 - Vespasiano Da Bisticci, *Vite de uomini illustri de Secolo XV*. Ed. L. Frati. (1892).
 - Cambridge Modern History. Vol. I.
 - J. Burckhardt, *Die Cultur der Renaissance in Italien*. (1869).
 - J. Morley, *Machiavelli. Romanes Lecture*. (1897).
 - J. Zeller, *Italie et Renaissance*. (1883).
 - H. Brown, *The Venetian Printing Press*. (1891).
 - J.A. Symonds, *The Renaissance in Italy*, Vols. IV & V. (1875-86).
 - A.F. Didot, *Alde Manuce et l'Hellenisme Venise*. (1875).
 - *The Book of the Courtier*. Tr. Sir T. Hoby. Ed. W.R. Raleigh. (1900).
 - W. Ormsby-Gore, *Florentine Sculptors of the Fifteenth Century*. (1930).

الفصل الثالث

فرنسا وبرجندية

لويس الحادى عشر - انتصاره على النبلاء وشرائه الإنجليز بالمال -
حسن حظه - مقارنته بشارل حاكم برجندية - الخدمات التي أداها أدواق
برجندية للأراضي المنخفضة - الفن الفلمنكى فى القرن الخامس عشر .

على حين كانت إيطاليا تتمخض عن حركة من الإنتاج الفنى ، كانت فرنسا تمر بمرحلة توقف فى تطورها الثقافى جاءت نتيجة طبيعية لما ألم بها من كوارث سياسية . فلقد عاصرت أزهى فترات التاريخ الفنى فى فلورنسة حقبة طويلة مضنية مرت فيها فرنسا بدور النقاهاة من آثار التخريب التى حلت بها أثناء حربها ضد إنجلترا ، كما عاصرت ذلك الصراع الحاد بين دوقية برجندية والمملكة الفرنسية ، وتلك المراحل التى اجتازتها حكومة الملكية الفرنسية حتى استحالت من دولة ضعيفة منهوكة القوى إلى دولة تقوم على دعائم قومية سليمة ، وذلك بفضل ذكاء رجالها وغباء خصومها . فى هذه السنين القلقة لم يبد الفرنسيون أى رعاية للعبقريّة الإيطالية ، ولم يقدموا إلا دليلاً باهتاً على وجود مواهب فنية خاصة بهم . فلم يوجد من يخلف فئة النحاتين العظام من رجال القرن الثالث عشر الذين تجمل تماثيلهم كاتدرائيات ريمز Rheims وشارتر؛ أما جان فوكيه Jean Fouquet المصور فقد كان من بروكسل . ولم يحس الفرنسيون بعظمة الإنتاج الفنى الإيطالى ، ولم يستعدوا لتقبل النهضة الإيطالية إلا حين غزت الجيوش الفرنسية إيطاليا فى عام ١٤٩٤ . حينئذ كانت قد مضت ست سنوات على وفاة فروكيو صانع الفضة المهندس الرسام النقاش الموسيقى النحات ، وهى الشخصية التى ربما كانت أبرز الشخصيات فى قصة التطور الفنى الإيطالى فى القرن الخامس عشر .

فى عام ١٤٦١ توّ شاول السابع بعد أن خلص فرنسا من نكسات الحروب الطويلة ضد إنجلترا ، وبعد أن ترك لبلاده حكومة وجيشاً . وواصل ابنه لويس الحادى عشر

(١٤٦١ - ١٤٨٣) ، الذى كان ثائراً ومنفيّاً ، ذلك الجهد القيم الوئيد . هذا الملك ذو القبة والملابس القديمة الرثة ، العالم بيوطن الأمور ، الحريص الحذر ، الذى كان يعتقد أن لكل شخص ثمنه ، ومع ذلك لم يتردد فى قطع رأس من يعارضه من النبلاء أو فى وضع كاردينال خائن فى قفص حديدى - بدا هذا الملك مزيجاً يحير الأبواب من الخلق والقسوة والشر . ولكن أولئك الذين عرفوا الرجل من أمثال فيليب دى كومين Philippe de Commines^(١) البرجندى وأدركوا الصعوبات الملمة به ، قدروا فى لويس مجموعة من المواهب التى أنقذت الملكية الفرنسية من أشنع ألوان المهانة ، وإن كانت هى المواهب ذاتها التى كرهت فيه فئة النبلاء الخلقى الجهلة المتهورين الذين كانوا وباء المجتمع . أدرك لويس بذكائه الفطرى أن على السياسى أن يكون حسن الإصغاء نهماً فى جمع المعلومات قادراً بقدر الإمكان على أن يتعرف بنفسه على كل من له أهمية سياسية سواء فى مملكته أو خارجها فى البلدان المجاورة ، كما أن عليه ألا يدخر وسعاً لكسب عدو ، وألا يحفظ ضغينة لأحد ، وأن يصطنع صبراً بعيد النظر ، وأن يكون دائم الاستعداد للتعلم من أخطائه الشخصية ، وألا يقف كبرياؤه حائلاً دون استرداد الأرض التى يكون قد فقدها . وبعد أن صب لويس جام غضبه - للمرة الأولى - على البارزين من أنصار العهد القديم ، مما هو متوقع من منفى عائد ، حاول أن ينظر إلى الموقف من زاوية أخرى حتى يستغله لمصلحته ، فسعى لاستعادة ود من أساء إليهم من قبل .

وكم من أزمة معقدة ثارت فأبدى لويس معيناً لا ينضب من الشجاعة والمقدرة . لم يكن قد مضى على توليه وقت طويل حين واجهه تألب خطير من النبلاء الساخطين (عرف بعصبة الصالح العام) يقوده شارل كونت شارولاي Charolais (الجسور) وريث دوقية برجنديّة ، ويسنده دوق برى Le Duc de Berri ، أخو الملك ، ودوق بريتانى ، وفى الوقت الذى وصلت فيه قوات الحلفاء إلى مشارف باريس كان ولاء العاصمة متذبذباً ، وكان من شأن أى خطأ أن يكفى لتحطيم ذلك الشاب غير المحبوب (الأجنبي حتى ذلك الوقت) الذى كان قد طرد مستشارى أبيه من مناصبهم

(١) حولى ١٤٤٦ - ١٥١١ . أهم مستشارى الملك لويس الحادى عشر ، وتعتبر مذكراته - بعد أشعار فولون - أهم ما كتب باللغة الفرنسية فى القرن الخامس عشر .

وأحاط نفسه بعصبة من اختياره هو . ولكن لويس لم يتعثر على الإطلاق — فبعد أن أسرع إلى باريس يقود قوة كبيرة ، استطاع أن يكسب خصومه في المدينة بما أظهره من دلائل الصفع الحكيم ، وبذلك استطاع أن يعتمد على باريس وأن يواجه جميع أعدائه الذين دبت الفوضى في صفوفهم . ولقد تحاشى الدخول معهم في معركة عامة ، مفضلاً إرهابهم بالمناوشات المستمرة حتى اضطروا إلى طلب الصلح ، وإذا كان لويس في شوقه إلى فرجة يستطيع منها أن يبذر بذور الشقاق بين أعدائه قد منحهم شروطاً (صلح كونفلان Conflans) كانت من السخاء المفرط بصورة لا تتمشى على الإطلاق مع صالح فرنسا ، فإنما كان ذلك جزءاً من ذكائه الأفعوانى .

ولو كانت دوقية برجندية في أيد قوية أو كان في مقدور إنجلترا أو في عزمها أن تأخذ جانباً فعالاً في الصراع ، لربما كان من الممكن أن تتكرر فظائع حرب المائة عام . ولعله من حسن حظ أوروبا — ومن الحق أنه كان من حسن حظ فرنسا — أن شارل بهجومه العنيد على السويسريين قد أطاح بالمركز القوى الذى شاده للبيت البرجندى أربعة من أحكم أمرائه ، وأن الحرب بين أسرى لانكستر ويورك على الجانب الآخر من القنال الإنجليزي قد حالت دون قيام إنجلترا بأى تدخل فعال في شؤون القارة . حقاً كان لا يزال في طوق إنجلترا إرسال حملة لقيت ترحيباً من الشعب الإنجليزي ، ضد العدو القديم ، ولكن هدفها لم يعد الغزو — بل التهديد السافر . وهكذا في خلال عشرين عاماً انتقلت مرتين إلى الأراضى الفرنسية جيوش إنجليزية ، ثم سحبت نظير إتاوة مجزية . واعتبر لويس وولى عهده أن هذا المال الذى تدفعه فرنسا للتخلص من رماة النبال الإنجليز ، الذين كانوا لا يزالون مبعث خطر ، إنما هو ثمن بخس .

وحالف الحظ لويس بتوفيقات أخرى . كان من حسن حظه أن شارل الجسور لم يعقب ذكراً ، ولهذا فبوفاته في عام ١٤٧٧ آلت برجندية وبيكاردى وآرتوا إلى العرش الفرنسى . ومن حسن حظه أيضاً أن يتوفى رينيه آخر ملوك لكس دون أن يعقب ذكراً كذلك ، مما ترتب عليه أن مين وآنجو وإقطاعية بروفانس الإمبراطورية أصبحت كلها جزءاً من المملكة الفرنسية في عام ١٤٨٠ . وأخيراً كالت الأقدار

خدماتها للويس حين لم يعقب فرنسوا دوق بريتاني ؛ تلك المقاطعة الكلمتية القديمة المعتزة باستقلالها الغنية بالحرف البحرية ، ولهذا لم يكن له وريث يستطيع أن يواصل خصومة جنتسه القديمة. وإلى كل هذه السلسلة من حسن الطالع يرجع الفضل — في الدرجة الأولى — في أن تصبح فرنسا بعد وفاة لويس دولة متاسكة قوية ، مأمونة الحدود من كل جانب ، بعد أن كانت عند توليته على شفا الانهيار .

وفي ذلك التأليف الباهر الذى كتبه كوين ، يقف كل من لويس وشارل بارزاً كأنه صورة مجسمة للحكمة يمازجها الهوس ، وإن نقض أحدهما الآخر ؛ فاويس — بالتأمر فى صبر وأناة وببذل أقل ما يمكن من المال والدماء — يتغلب على أعدائه ويترك مملكته أقوى مما كانت عليه عندما تولى عرشها . أما شارل فيبدد إرثه العظيم بطموحه الحربى الذى لا يهدأ والذى دفع ثمنه غالباً . ويلاحظ بوجه الخصوص على لويس أنه كان يفضل العمل مع رجال الطبقة الوسطى ، وأنه كان يمثل طرازاً جديداً من رجال الدولة فى تجنبه سفك الدماء وعدم ثقته بالنبلاء وتفضيله للجند المرتزقة (وقد أدخل السويسريين فى خدمة التاج الفرنسى) وفى تشجيعه للتجارة . كان يشبه معاصره إدوارد الرابع ، ولكن بصورة أوضح ، فى كونه ملكاً من رجال الأعمال .

وإذا ما أخذنا ما قام به أدواق برجندي بصفة عامة ، لوجدناه أيضاً ، رغم ما حمل من طابع الاستعلاء الحشن ، يحمل دلالاته على هذا التحول العديق من إقطاع العصور الوسطى إلى نظام الدولة القومية ، هذا النظام الذى أخذ فى القرن الخامس عشر يشكل من جديد الأوضاع السياسية فى غرب أوروبا . كان أمراء برجنديه مبشرين خشنيين ملتهبين حماسة ، وضعوا نصب أعينهم تدعيم أسس الملكية وبناء دولة متاسكة فى وادى الرين وروافده تضم بعضاً من أغنى المراكز التجارية فى أوروبا . ولم تكن التقاليد والولاءات القديمة تعنى شيئاً بالنسبة لهم ؛ ولهذا فإنهم صنعوا دولتهم بالفتوح العسكرية المصحوبة بالعنف دون كبير اكتراث بما جرى عليه العرف وأهواء الناس فى الأجزاء التى تتألف منها . وكادت سياسة التوسع المطردة التى اتبعتها هذه الأسرة النشطة الخازمة فى مدى أربعة أجيال ، كادت توصلها قاب قوسين أو أدنى من تحقيق هدفها .

وبموت شارل الجسور أمام أسوار نانسي (١٤٧٧) انهار هذا البناء المصطنع برمته كأوراق الشجر. ولكن جهود أدواق برجندية لم تكن كلها عبثاً - فهم الذين صنعوا بلجيكا ، كما أنهم هم الذين لقنوا كوتية الفلاندر - التي هي نواة مملكة بلجيكا الحديثة - معنى جديداً للاستقلال والوحدة ، وإن سياستهم الطدوحة وانتصاراتهم الوامضة وتوفيقهم المحكم في المزج بين ميول الشعب ومقتضيات الأبهة ، لما ألهم مدرسة من الكتاب والمؤرخين كانوا فوق المستوى العادى . ولقد جعلوا من بروكسل ، حيث أقاموا بلاطهم ، عاصمة من أشهر عواصم أوروبا ؛ وإن أنتورب تدين بعظمتها التجارية إلى حد كبير لتشجيعهم والقيود التي فرضوها للحد من منافسة بروج وغنت لها .

وفى غمرة هذا التنافس في المصالح الاقتصادية التي كانت الفلاندر مسرحاً لها في ذلك الوقت المتميز بالتطور السريع ، استطاع أدواق برجندية دائماً أن يعتمدوا على المصالح التجارية النامية ضد الصناعة التي أصبحت لا تجارى الزمن لما فيها من قيود الاحتكارات والأساليب التي عفى عليها الزمن . كانت سياستهم جعل الفلاندر وحدة اقتصادية بقدر الإمكان وتشجيعهم للفنون الجميلة نفس تشجيعهم للتجارة ، وإزالة العوائق الداخلية التي تعترض نقل المتاجر وتبادلها . ورغم أن هؤلاء الأدواق كانوا فرنسيين من حيث الأصل واللغة والذوق ، فإنهم توافروا على تعلم اللغة الفلمنكية ، ودفعتهم حكمتهم - وقد زادت عن حدها - إلى أن يحاولوا أمراً كان في الحق مستحيلاً : وهو القضاء على اللسان التيوتوفى الذى كان أداة للكثير من المبادلات التجارية في الفلاندر .

وإذا كانت الظروف الرئيسية التي أحاطت بالأدواق قد فرضت عليهم أن يجعلوا قاعدة ملكهم في الفلاندر حيث ذكرى زمالة الحرب القديمة مع إنجلترا كانت لا تزال ماثلة ، فإنهم من الناحية الأخرى لم ينسوا موطنهم الأصلي . أصبحت العاصمة في بروكسل ، ولكن مدافن الأسرة بقيت في ديجون التي لم تعد تسابير مقتضيات العصر . وانتشر فن الرسامين والنحاتين الفلمنكيين غرباً عبر برجندية إلى فرنسا حيث كان له أثر كبير . وكما أن الفلاندر قد أثرت في فرنسا ، فإن فرنسا بدورها قد أثرت في الفلاندر عن طريق أدواق برجندية . وإذا كانت

بلجيكا لا تزال اليوم فرنسية الطابع ، فإن مرجع ذلك إلى تلك الفترة التي كانت فيها الفلاندر الخاضعة لأسرة فرنسية ، قلباً ومركزاً لدولة طموحة ميالة للفتح والتوسع :

ورغم أن الأدواق قد شجعوا الفن الفلمنكي برعايتهم ، فإنه - كالفن البرجندى - استمد أصوله من تراث العصور الوسطى . وعلى حين اتسمت النهضة في إيطاليا بابتعاد حاسم عن أساليب العصور الوسطى وعن الفن القوطي ، وبإثارة قوى لنماذج الوثنية القديمة ، لم يوجد لدى فناني برجندية مثل هذا الشعور الواعي بالتجديد ؛ ولهذا نجدهم يرقون من العالم الوسيط إلى العالم الحديث بهدوء غير محسوس . اعتمد تطور الرسم عندهم على الملاحظة الدقيقة أكثر من اعتماده على النظريات الأدبية أو على الانتقاء أو الترك المبني على أسس عقلية . وتتميز الفن الفلمنكي في القرن الخامس عشر برقة الشعور ومراعاة الحقيقة واتباع الأصول الفنية بدقة ؛ وعن الفلمنكيين الذين كانوا قد اخترعوا الأصباغ أخذ الإيطاليون استعماها ، وإلى تصاوير هذا الشعب الموهوب يرجع أكبر الفضل في شهرة تلك الإمارة الفنية الحشنة الصاخبة .

ويستوى فن الأراضي المنخفضة مع الفن الإيطالي في كونهما ينبعان من حياة مدن تزخر بالنشاط وتقدم على الرخاء المادى . وقد نافس سكان مصبات الأراضي المنخفضة سكان فلورنسة والبندقية في نشاط طوائفهم وتقديرهم للمهارة الفنية وتشجيعهم للجهود الأدبية والفنية . وقد نما نظام حكم المدينة الذي قام في العصور الوسطى - نما في إيطاليا والأراضي المنخفضة ، كل مستقلاً عن الآخر ؛ وكان تدهورهما قميناً بأن يصيب الحضارة الغربية بحرمان قاتل . ولم يحتج الرسامون الفلمنكيون من رجال القرن الخامس عشر في رسم شكل الإنسان كما رأوه إلى دروس جيوتو^(١) أو مدرسته ، فقد تحولوا عن التقاليد البيزنطية بفعل مؤثرات واقعية أصيلة من وحي بلادهم ، ولقد استمدوا رسومهم من الحياة ، ولكن في أصباغ مشرقة تبدو كأنها تتحدى حلوة السهوات في بلاد الشمال ، وآثروا الموضوعات

(١) ١٢٦٧ - ١٣٣٧ . الرسام الفلورنسى الكبير الذى لعب دوراً مهماً في إرساء القواعد

الجديدة لرسومات عصر النهضة .

المنزلية بوحى رعاة الفن من الأثرياء العلمانيين ، وجسموا إبراز كل تفصيل مأوف ، وكأنما هو نقش بارز . وانتشر تأثيرهم كما انتشر تأثير الفنانين الإيطاليين في مجال أوسع . وما أشرف القرن الخامس عشر على نهايته حتى صارت كل ألمانيا الشمالية من أقصاها إلى أقصاها بمثابة مستعمرة فنية لفلاندر .

* * *

كتب يمكن الرجوع إليها

- A.W. Ward, in Cambridge Modern History, Vol. I, Chap. XIII.
- C. de Cherrier, Histoire de Charles VIII. (1868).
- J.F. Firk, History of Charles the Bold. 3 vols. (1863-8).
- C. Legeay, Histoire de Louis XI. (1874).
- Sir W. Scot, Quentin Durward.
- L.E. de Laborde, Les Ducs de Bourgogne. (1849-52).
- C. Petit Dutailais in E. Lavis, Histoire de France., Vol. IV.
- P. Fredericq, Essai sur le rôle politique et social des Ducs de Bourgogne dans les Pays-Bas. (1875).
- E.A. Freeman, Historical Essays, First Series (Charles the Bold). (1892).
- L. Battifol, The Century of the Renaissance. (1916).

الفصل الرابع النهضة الألمانية

تقدم ألمانيا ثقافيا في النصف الأخير من القرن الخامس عشر - انتشار الطباعة - أثرها في ازدياد اهتمام الناس بالمسائل الدينية - فشل محاولات مكسمليان إصلاح الإمبراطورية - عظمة ألمانيا الحقيقية في ذلك الوقت - الفنون والحرف - ألبرخت ديرر . Albrecht Dürer وبطرس فشر Peter Vischer كوزانوس Cusanus .

تميز النصف الثاني من القرن الخامس عشر في ألمانيا بتقديم ملحوظ في الثقافة والتعليم والتربية ، تميزه بنمو سلطان أمراءها المحليين على نحو ما حدث في إيطاليا . والواقع أن الشهرة الحالية التي يتمتع بها الألمان كقادة للعالم في دراسة الكتب يمكن أن نرجعها إلى ذلك العصر الذي شهد إنشاء ثمانى أكاديميات ألمانية واختراع فن الطباعة الذي فتح للعالم آفاقاً جديدة والذي يرجع الفضل فيه إلى حنا جوتنبرج John Gutenberg من ماينز Mainz . وإن الثورة الضخمة في الطاقات العقلية البشرية التي ترتبت على هذا الاختراع الأخير يمكن أن تعزى إلى السرعة التي انتشر بها هذا الاختراع في ربوع أوروبا في عصر يتقيد بحقوق الاختراع . وفي عام ١٤٦٥ دخلت الطباعة بحروف معدنية إلى إيطاليا ، وفي عام ١٤٧٠ وصلت إلى باريس . ووصلت إلى لندن في عام ١٤٧٧ واستوكهلم في عام ١٤٨٣ ومدريد في عام ١٤٩٩ . وقد قدر البعض ، ولو أنه قد يكون تقديراً متحفظاً جداً ، أنه حين انتهى القرن الخامس عشر كان يوجد في أوروبا ما يقرب من تسعة ملايين كتاب مطبوع في مقابل بضعة آلاف قليلة من المخطوطات حوت كل ما ورثه العالم من حكمة وشعر حتى ذلك الوقت .

وينبغي أن يعزى إلى الألمان الفضل الأكبر في انتشار آلة الطباعة في أوروبا . حينئذ عرفت الطباعة بأنها الفن الألماني ، وقصد الطابعون وبائعو الكتب الألمان كل مكان بحثاً عن العملاء ؛ وما أوفى عام ١٥٠٠ على نهايته حتى كان لهم أكثر من مائة

مطبعة في إيطاليا ولا أقل من ثلاثمائة مطبعة في إسبانيا . وعمت الأقطار حماسة تبشيرية ضخمة للفن الجديد . وراح الناس يقدرّون أهميته بالنسبة إلى الحياة . وعبر عن ذلك أحد المعاصرين - وهو ومفلنج Wimpeling^(١) - بقوله : « وكما انتشر رسل المسيح في أقطار الأرض يبشرون بالأنباء السعيدة - أنباء ظهور المسيح - كذلك ينتشر في أيامنا هذه رجال الفن الجديد في كل مكان يحملون في أيديهم الكتب وكأنها كتب الرسل وكأنهم الدعاة إلى الحقيقة والعلم » . وليس أدل على صدق فراسة التاجر الألماني عن هذه الاحتمالات « التبشيرية » من أنه في عام ١٤٩٤ ، أي بعد مرور سنتين فقط على طرد المسلمين من غرناطة ، كان ثلاثة من الطباعين الألمان قد استقروا في تلك المدينة .

وإن ما قام به الرواد الأول في ميدان الطباعة وتجليد الكتب ليعد مفعزة من مفاخر أوروبا ؛ وإن أوربا لتدين بالكثير لهؤلاء التجار الملهمين الذين جمعوا إلى تفرسهم في البحث والفن خبرة بتنظيم الأعمال على نطاق دولي ، حتى إن التاريخ ليسجل دون تحيف أسماء الرعيل الأول من بائعي الكتب العظام مثل كوبرجر Koberger من نورمبرج وفروبين Froben من بال . فإنه يندر حقاً أن نجد ما يفوق الطباعات الأولى من الكتب في ألمانيا جناباً وروعة . وإذا كان الجانب الأكبر من الأدب الذي أخرجته المطابع الألمانية أدباً دينياً ، وإذا كانت قد ظهرت في خلال الخمسين سنة الأولى من اختراع الطباعة مائة طبعة من الإنجيل وتسع وخمسون طبعة من كتاب « ترسم خطي المسيح Imitatio Christi » ، فلأنما مرجع ذلك إلى أن رجال الدين في ألمانيا ، مثلهم في أي مكان آخر ، كانوا يكونون أغلبية الطبقة المتعلمة ، بالإضافة إلى أنهم كانوا أكثر الناس احتضاناً لتجارة الكتب ورعاية لها . ورغم أن الكتاب المطبوع قد لعب دوره في نشر الحركات الفكرية والنقدية في القرن السادس عشر ، فإن النتائج الأولى التي تمخضت عنها حركة الطباعة كانت مخالفة لذلك ؛ فقد عملت على إيقاظ اهتمام جماهير الشعب بالعقيدة وزيادة اهتمامهم بقراءة الكتب الدينية ومناقشتها .

(١) ١٤٤٩ - ١٥٢٨ . أحد فقهاء الدين الألمان ؛ وكان أيضاً متفهما في اللغة . اقترن اسمه

ومن هنا يكون من عدم الإنصاف القول بأن الفترة من تاريخ ألمانيا التي سبقت النهضة مباشرة قد اتسمت بدلائل الانحطاط والضعف . حقيقة وجد كثير من الأخطاء الفاحشة في جهاز البلاد السياسى والاجتماعى — ومن ذلك أن الكنيسة التي قدر لها أن تمتلك ثلث الأراضى المملوكة أضحت من الغنى بدرجة لا تعصمها من الفساد ، وأن رجال الدين قد أمعنوا في الاستسلام لمظاهر الترف الفارغ والإسراف البالغ . وكانت الحروب الخاصة أمراً مألوفاً لم يجد ما يوقفه بطريقة ناجعة حتى عقد مجمع (ديات) ورمز Worms في عام ١٤٩٥ ، ولهذا قاست البلاد مما حل بها من دمار على أيدي أرستقراطية من أشد أرستقراطيات أوروبا أنانية وكسلا .

يضاف إلى ذلك أنه لم توجد في داخل الإطار السياسى للإمبراطورية الألمانية أية قوة قادرة على تربية وإعداد هيئة من الرأى العام حازمة منزهة عن الهوى ، بحيث توازن شرور الأنانية الطبقية أو الاتجاهات الانفصالية الصغيرة . وليس أدل على ذلك من عصر الإمبراطور مكسميليان (١٤٩٣-١٥١٩) مؤسس الوحدة النمساوية وحبيب أهل التيرول وخير من اصطادوا الشاموا و« آخر الفرسان » . وقليل من الحكام الألمان من هم أكثر من ذلك العاهل الأنيق النبيل الكريم جدارة بما أحيط به من حب . كما أنه لم يكن هناك من هو أكثر منه نشاطاً أو بلاغة أو جاذبية ، أو أشد منه رغبة في المحافظة على ما اعتقد أنه التقاليد الحققة لمنصبه الرفيع وشرف الاسم الألماني . ورغم كل هذه الخصال المحببة لم يستطع مكسميليان أن يوقظ تلك الهيئة السادرة في غيوبتها— أعنى الربخ الألماني — للقيام بعمل فعال ضد الأتراك في الشرق والفرنسيين في إيطاليا — ففي المجمع الإمبراطورى الذى انعقد في ورمز في عام ١٤٩٥ ، ثم في أوجزبورج ، تحطمت محاولاته القيام بإصلاح كاف للدستور الألماني على صخرة المعارضة الصلبة التي أثارها المصالح الأنانية ؛ فلم يستطع تكوين جيش إمبراطورى ثابت أو إقامة نظام ثابت لجميع الضرائب الإمبراطورية ، بعد إذ رفض الأمراء التابعون له العمل مع القوات الإمبراطورية ، كما رفضوا دفع « المليم العام^(١) » (وهذه ضريبة تصاعدية على الأملاك) أو التعاون في تكوين جهاز ينفذ قرارات المحكمة الإمبراطورية . وفيما عدا إدخال بعض

(١) في الأصل The common penny .

التحسينات الطفيفة على دوائر القضاء والبوليس بإعلان سلام دائم بين ملاك الأراضي ، وإفشاء محكمة إمبراطورية ثابتة ، وتقسيم الإمبراطورية إلى عشر دوائر ، فقد فشلت كل المحاولات المضنية التي قام بها هذا الإمبراطور الأريب الواسع الأفق لجعل مجموعة الدويلات الألمانية قوة فعالة في العالم . لهذا كله بقي الإمبراطور ظلاً لا حول له ولا طول ، وظل المركز الحقيقي للقوة السياسية في أيدي المنتخبين والأمراء .

وعلى أي حال فليس ثمة ارتباط بالضرورة بين الحكمة السياسية عند شعب وتقدمه الروحي والفني . فإن ألمانيا لم تكن تتجلى قيمتها السياسية في إمبراطوريتها أو في كبار الكهنوت فيها أو في أمراءها العظام ، وإنما كانت تتجلى في الآلاف من عمال المدن المهووبين الذين سخروا ذكاءهم في بناء الكنائس والكاتدرائيات القوطية ، وفي إدخال التحسينات على الأرغن ، والذين نبغوا في مجال الحفر والنقش على الحجر والخشب والبرونز وخلفوا بنقوشهم ورسومهم وصياغتهم المعدنية شهرة عالمية فائقة تشهد بمهارة الجنس الألماني . وإن الرسوم والنقوش التي أبدعها ألبرخت ديرر ^(١) ، وهذه الصنوف الفاخرة من القطع البرونزية التي أخرجها في مدى خمسين عاماً مصنع الصهر الذي كانت تملكه أسرة فشر في نورمبرج لم يكلها آثار من الفخامة كفُرت بها ألمانيا في الفترة السابقة للنهضة مباشرة عن الفساد الذي حل بالكنيسة والخلط العنيف الذي أصاب حياتها العامة .

وفي العقد الثالث من القرن السادس عشر توقف فجأة تطور فنون النحت في ألمانيا ، وهي التي كان بطرس فشر الأصغر قد سما بها إلى درجة كبيرة من المهارة ، وبدأ أن الشريان الزاخر القديم الذي كان يغذى المهارة الفنية الألمانية قد استنفد طاقته . فقد حلت نماذج وأفكار متواترة مقتبسة عن الإيطاليين محل الفن الألماني الذي — برغم افتقاره إلى الجمال البسيط الذي اتسم به الفن الإيطالي — كان أصيلاً وقوياً ومتمشياً مع الطابع القومي ؛ ولم تعد نورمبرج — التي كانت في القرن الخامس عشر فلورنسة ألمانيا — المركز الحيوي للفن الزخرفي . وبظهور

(١) ١٤٧١ - ١٥٢٨ . الرسام والمصور والنقاش الألماني .

الإصلاح الديني بدأت تهب على النحاتين والنقاشين ربح سموم ، ليس فقط لأن ألمانيا باتت أشد فقراً بسبب الكشف عن الطرق الجديدة عبر المحيطات ، بل ولتحول أذهان الشعب الألماني إلى مسارب أخرى على أثر انغمار ألمانيا في بحر من الفوضى الدينية والاجتماعية . فقد أصبح الدين لا الفن هو العامل الفعال ؛ وما له دلالة أن هولباين Holbein^(١) قد لجأ إلى حماية البلاط الإنجليزي حين وجد أن بال لم تعد بأية حال البيئة المناسبة لرسم ألماني . لم ينفس الألمان عن طاقاتهم الفنية في مجالات الرسم أو النحت أو حتى في الفن الطيف ، فن النقش على الخشب ، وهو الذي كان يوماً هواية عامة من الطبيعي أن تجد مجالها لدى سكان بلاد تنمو بها الغابات ؛ فإن كتابات لوثر — وكأنها التراتيل — قد كشفت عن طريق جديد . وانكب الألمان على الموسيقى ، وما أوفى القرن الثامن عشر على نهايته حتى كانوا قادة أوروبا في هذا اللون من الفن الذي هو أكثر الفنون عالمية ، وهو اللغة الواحدة المشتركة بين الأديان جميعاً .

وعلى أى حال فقد كان ذلك مما يتوقع حدوثه . وإن الحياة الفكرية الألمانية ، قبل أن تهب عواصف النهضة ، لتتمثل أصدق تمثيل في نقولا كريس Krebs (١٤٠١ - ٦٤) الذي عرف بعد ذلك بالكاردينال كوزانوس ، نسبة إلى مسقط رأسه Gues في وادي الموز . ففي كوزانوس امتزج اتجاه قوى من الديانة الصوفية ، قد ترجع جذورها إلى تعليمه المبكر في « أخوة الحياة المشتركة » في دفتنر Deventer ، بحماسة الإنسانى وبلاغة السياسي وطلعة بحثة تيوتوني . درس كوزانوس في شبابه الرياضيات وقانون الكنيسة في جامعة بادوا ؛ حيث اختلط بمجموعة من العلماء النابهين الذين كانوا في ذلك الوقت يحاولون اقتحام المعارف الرياضية والفلكية والجغرافية . ثم أتت بعد ذلك فورة من النشاط في وقتها لتفتح أبواباً عدة على جانبي الألب للشباب الطموح : فعين كوزانوس سكرتيراً لأورسيني Orsini أحد كبار رجال الدين الذي كان من نخبة المثقفين الإيطاليين وممثلاً للبابا في ألمانيا . وبذلك وجد نفسه في غمرة الأضواء الرئيسة التي أشعات جذوة الحركة الأدبية الإيطالية ،

(١) أنتجت أسرة هولباين (في أوجزبورج وبال) عدداً من الرسامين ، أبرزهم هانز الأكبر

(حوالي ١٤٦٠ - ١٥٢٤) وهانز الأصغر (١٤٩٧ - ١٥٤٣) .

فأصبح من أصدقاء توسكانيلى Toscanelli^(١) الجغرافى وقاللا Valla^(٢) بحاجته التاريخ
ويوجيو Poggio^(٣) مكتشف تاكيتوس . وبحماسة النحوى الحق كرس كوزانوس
جهده للبحث فى مكتبات الأديرة فى موطنه الأصلى فى إقليم الرين . ولم يمض طويل
وقت حتى تكاثرت جهوده بكشف النقاب عن اثنتى عشرة مسرحية من مسرحيات
بلوتس Plautus^(٤) . ومنذ ذلك الوقت ذاعت شهرة تريفرانوس Treveranus (وقد
لقب كريس بهذا اللقب لأنه كان من مقاطعة تريف Trèves على الرين) فى
عالم المثقفين . وكوفئ ذلك المكتشف المحظوظ لهذا العدد من الكوميديات اللاتينية
التي تفيض بالفجور بترقيته فى سلك الكهنوت ؛ فعين نائب أسقف ثم رئيساً
لأسقفية فى التيرول ثم كاردينالا . وقد اكتسب كوزانوس بحسن تصرفه ونهمه فى
القراءة وشخصيته السامية أفكاراً ألعمية ، ويصدق ذلك على الفترة التي كان فيها
الروح المحرك لمجمع بال صدقه على الفترة التي كان فيها الساعد الأيمن للبابا
يوجينيوس Eugenius الرابع . وفى كل الأعمال التي قام بها هذا البحاث الذي لم يكلل
له جهد ، كنسخه المخطوطات اللاتينية فى ألمانيا أو نقله نصوصاً إغريقية أتى بها
معه من جبل آتوس ، أو فى تعليقه على القرآن أو فى الأطلس الذى وضعه لوسط
أوروبا — فى كل ذلك كان هذا الرجل يستلهم إحساس المسيحى الحق والأوربى
الحق والألماني الحق . ولأنه لما يسترعى الانتباه أنه فى رسالة كتبها فى سن الثلاثين
عن الوفاق الكاثوليكي قسا فى المهجوم على مساوئ الكنيسة ودعا إلى إنشاء جيش
إمبرطورى كوسيلة لعلاج الفوضى الممسكة بخناق ألمانيا . والحق أنه لم يوجد أحد ،
منذ ذلك الوقت حتى اكتوت ألمانيا بمذلة الفتح النابليوني ، يدعو إلى ذلك العلاج
لنفس الداء من الفوضى والعجز الذى ظلت تعاني منه ألمانيا ، سوى جورس Gorres
الألمعى ، وهو ناشر ألماني آخر من منطقة الرين ، وإن لم تجد دعوته .

(١) ١٣٩٧ - ١٤٨٢ . رياضى وطبيب إيطالى ، رسم خريطة للعالم يقال إن كولبس
استخدمها فى رحلته إلى أمريكا فى عام ١٤٩٢ .

(٢) ١٤٠٧ - ١٤٥٧ . الإنسانى الإيطالى .

(٣) ١٣٨٠ - ١٤٥٩ . بحاث إيطالى ظهر فى عصر النهضة .

(٤) هو المؤلف المسرحى العظيم فى روما القديمة . ولد ما بين ٢٥٤ و ٢٥١ ق . م وتوفى

فى عام ١٨٤ ق . م .

ويمتاز كوزانوس — كرجل دين — بصدق حماسته في الهجوم على فساد أخلاق رجال الدين الألمان والخرافات الوثنية التي كانت لا تزال منتشرة بين الفلاحين الألمان ، كما يمتاز بعدم اعتقاده باللجوء إلى القوة المسلحة للقضاء على الروح الوثنية ، وإيمانه بسلطان المعرفة وإحكام العقل وفصاحة اللسان باعتبارها قوى لا غنى عنها في الشئون الإنسانية . ومهما يكن الأمر ، فإن كوزانوس لا يعرف اليوم باعتباره إنسانياً أو رجلاً دين في المحل الأول ، بل لأنه مؤلف « الجهالة المتأصلة De Docta Ignorantia » الذي يقال إنه يمكن أن تستشف فيه بسهولة مبادئ كثيرة موجهة من الفلسفة والعلوم الحديثة . ويرى كثير من الألمان المغالين في وطنيتهم أن كوزانوس هو الذى مهد الطريق لكل من كوپير نكوس وديكارت وهيكل . على أن الناس لا ينبغي أن يتوقعوا أن تكون مجموعة من الأبحاث الدينية الصوفية من وضع سياسى من رجال الدين شغل بأشياء كثيرة جهداً ارتيادياً في ميدان العلوم . ورغم أن أبحاث كوزانوس القائمة تشرق هنا وهناك بوميض براق عن الإلهام المفضى إلى أغوار الكون الطبيعي ، وإذا كان تصوره « للمطلق » على نحو تنسجم فيه المتناقضات العقلية يبدو جديداً ، فإن طريقته في التأليف كانت لا تزال تمت إلى طرائق العصور الوسطى . ذلك أن النتائج التي يؤكد بها العلم الحديث قد توصل إليها كوزانوس بفروض لا بد لأى عالم اليوم من أن يرميها بالخيال والسخف . والأهمية الحقيقية لما قام به هذا العالم التيوتونى الدعوب هي أننا نرى فيه ذكاء خارقاً التزم أساليب العصور الوسطى الألمانية تماماً ، ولكن أذكاه بالإشعاعات الأولى من العلم الإيطالى .

كتب يمكن الرجوع إليها

- J. Janssen, Geschichte des deutschen Volkes seit dem Ausgang des Mittelalters. Tr. M.A. Mitchell & A.M. Christie (1896-1925).
- C. Ulmann, Reformatoren vor der Reformation. Tr. R. Menzies. 2 vols. (1855).
- F.A. Gasquet, The Eve of the Reformation. (1905).
- F. Paulsen, Geschichte des gelehrten Unterrichts auf den deutschen Schulen und Universitäten. (1885-96).
- E. Müntz, Histoire de l'Art pendant la Renaissance. (1889-95).
- W.B. Scott, Albrecht Dürer, his life and works. (1869).
- L. Geiger, Renaissance und Humanismus in Italien und Deutschland. (1882).
- A.D. Vandam, Social Germany in Luther's Time, being the Memoirs of Bartholomew Sastrow. (1902 - abridged). With preface by H.A.L. Fisher.
- W. Bode, Geschichte der deutschen Plastik. (1885).
- Cecil Headlam, Peter Vischer. (1901).
- Sprenger, Albrecht Dürer.
- B.A. Duan, Ada, Krafft und seine zeit. (1896).

الفصل الخامس

ملكية جديدة في إنجلترا

حروب الوردتين - أصولا - هنرى السادس وإدوارد الرابع - نتائجها
الاجتماعية والاقتصادية - أهمية حكم هنرى تيدور - أول مستعمرة إنجليزية .

اندلعت حروب الوردتين بعد عامين من طرد الإنجليز من فرنسا فى عام ١٤٥٣ ولأنه لمن الصعب أن نتصور نكبات عامة أنكى من نشوب نضال داخلى طويل بعد الفشل فى حرب خارجية ؛ ولكن الهزيمة والحرب الأهلية قد تضمستا مع ذلك خيراً : فإن إنجلترا بعد أن تخلت تماماً عن محاولتها الفاشلة احتلال فرنسا استطاعت أن تجد طريق الصواب لتطورها فى بسط نفوذها على الجزر البريطانية والتوسع فى تجارتها وصناعاتها وتأسيس المستعمرات فيما وراء المحيط . ويرجع نجاحها فى الاضطلاع بمثل هذه التبعات إلى أن حروب الوردتين قطعت دابر الإقطاع من الجهاز السياسى للدولة بشكل موفى لا نظير له فى بلد آخر .

ويختلف الصراع بين أسرقى يورك ولانكستر المتصارعتين اختلافاً أساسياً عن القلاقل الإقطاعية الناشئة فى القارة الأوروبية فى تلك الفترة ؛ إذ أن كلا الفريقين الإنجليزيين كانا يسلمان بوحدة المملكة وبنظام الحكومة القائم على الملك والمجلس والبرلمان وهو النظام الذى توارثته إنجلترا منذ زمن بعيد . ولم يكن هدف أتباع أسرة يورك فى إبان المراحل الأولى للحرب هو انتزاع مقاطعات واسعة على نحو ما حاولت « عصابة الصالح العام » أن تفعله فى فرنسا ، ولم يكن هدفهم كذلك شل السلطة الملكية تماماً كما كان الحال فى ألمانيا ، أو تنفيذ أية خطة محددة للإصلاح الدستورى ؛ بل كان هدفهم شق طريقهم بالقوة إلى مجلس الملك ، وعن طريق سيطرتهم على المجلس يتسنى لهم حكم البلاد . ولئن يستطيع أى الفريقين أن يدعى أنه التزم سياسة منزهة عن الهوى تهدف لخدمة الصالح العام - فإن المنازعات العائلية الخاصة ، وعلى وجه الخصوص المنازعات القائمة بين الأسرات

الكبرى في مناقع حدود ويلز ، وفوضى الحرب والحاجة إلى تشغيل عصابات وفيرة من الأتباع المسلحين الذين أدى توقف الحروب الفرنسية إلى تركهم بلا عمل - كل هذه كانت عوامل هامة في حروب الوردتين . ومع ذلك فإن من الإجحاف أن ننكر على الزعماء في هذا الصراع الوحشي كل اهتمام بالصالح القوي . فالحرب بين أسرقى يورك ولانكستر لم تكن عقيمة تماماً ؛ بل إنها نشبت من الصراع على قضية كانت أخطر القضايا العامة : وهى قضية الحرب أو السلام . فقد عزم هنرى السادس ووزيره سفولك Suffolk على إنهاء الحرب الفرنسية المؤسفة التى كان جلوستر ورتشارد أوف يورك متحسين للاستمرار فيها ، وقوبلت معاهدة تور (١٤٤٤) التى قام سفولك بإجراء مفاوضاتها باحتقار مزدوج حين عرف أنها نصت على التخلي لفرنسا عن كاليه وعلى زواج ملك إنجلترا إحدى بنات العدو وهى مارجريت أنجو . وهكذا ساد جو من الكراهية والشك في كل حصن من حصون البلاد وأثار مشاكل حادة : عمل أو تبطل ؛ مخاطرة أو يرم بالحرب ؛ جنوح إلى الشهوة أو تحكيم العقل ؛ محاولة فجأة لإحياء أجداد قديمة أو قبول مخز لهزيمة لا محيص عنها . وتمخض هذا النزاع عن جو عنيف من الكراهية والحقد . وكانت النهاية المفاجئة العنيفة التى ختمت حياة كل من جلوستر العدو الشخصى للملكة فرنسا وسفولك الذى مثل للشعب كبش الفداء في هذا الصلح المخزى - كانت هذه النهاية بداية عهد من الرعب وسفك الدماء وأحكام الإعدام ، مما لطخ بالعار الأيام الأخيرة من إنجلترا الكاثوليكية .

ولذا كان حزب يورك هو أول من لجأ إلى السلاح ، فإن رجاله برروا ذلك بالمذلة التى لقيتها البلاد في الخارج وسوء الأحوال في الداخل . ووجه اللوم إلى حزب لانكستر لضيق ما كان لإنجلترا من أملاك في فرنسا ؛ ولم يستطع تدين هنرى السادس الواضح ولا مؤسساته التعليمية المحيطة في إيتون وكينيدج أن تحجب في نظر معاصريه سياسته الخارجية المزرية وشخصيته الضعيفة وعلائم الجنون التى كانت تظهر عليه أحياناً ؛ كما أنها لم تحل دون الكراهية الشديدة التى ووجهت بها زوجته الفرنسية التى سيطرت عليه . وبعد أن هزم ذلك الأخير في توتون Towton (١٤٦١) تتابعت عليه المآسى بعد أن عاش حياة لا غبار عليها ، فن منى مريد ،

إلى سجن خشن ، ثم مينة قاسية رهيبة .

وعلى عكس ذلك القديس اللانكستري اللين الذى كان لا حول له ولا طول ؛ كان قاتله زعيم آل يورك ينتمى لطراز فى فن الحكم أحدث وأكفأ أخذ الآن مكانه فى الطليعة فى دول أوروبا الآخذة بأسباب التقدم نتيجة لازدياد أهمية الصناعة والتجارة . وإدوارد الرابع (١٤٦١ - ٨٣) لم يكن ذواقاً للفن كلورنزو مديتشى ، ولا عبقرية فى الدبلوماسية كلويس الحادى عشر ، ولكنه كان جندياً كفئاً أنيق المظهر ذا خلال محبة ، يتمتع بتلك الفطرة السليمة التى عرف بها رجال الطبقة الوسطى ، وهى الفطرة التى حملت عقلاء ذلك العصر على تقدير أهمية العمل لترويج مصالح أصحاب المال وكسب تأييدهم . ولما كان إدوارد الرابع ميالاً إلى جمع ما يلزمه من الموارد بأقل ما يمكن من المتاعب له ولغيره ، فإنه اقتصد فى جمع البرلمان مفضلاً على الضرائب التى كانت تجمع بطريقة عقيمة وعلى نطاق واسع اتباع طريقة مباشرة بفرضه الهبات على الأغنياء . ولكن إدوارد جمع إلى صفاته الجذابة بعض الأخطاء الفادحة : فأخلاقه — حتى بمقاييس ذلك العصر — كانت متحللة بشكل مزر ، وهمته غير منتظمة ، وبخله شديد ؛ كما أنه أضاف إلى جريمة الاغتيال السياسى (بما فيها قتل الإخوة) أعظم خطأ توج به أخطائه فى شعب تحكمه مقتضيات العرف الاجتماعى ، وهو زواجه من غير طبقته . وقد استنكر نبلاء إنجلترا ، الذين لم يغفروا لإدوارد الثانى إطلاقاً انشغاله بصناعة الأففال والبناء والملاحة ، استنكروا زواج إدوارد الرابع سرّاً من ابنة أسرة محدثة . إذ لم يستطع جمال إليزابيث وودفيل Elizabeth Woodville أن يغطى على أصل والدها ؛ فهو رغم زواجه بإحدى الدوقات ، قد بدأ حياته بداية متواضعة كفارس . وورثت أسرة يورك تحت عبء هذا الزواج غير المتكافئ : وعندما توفى إدوارد فى سن الأربعين نتيجة انهماكه فى الملذات ، لم يجد أبناء الملكة غير المحبوبة سنداً من الولاء أو الحماسة يحمهم . وقد أحسن عمهم ريتشارد الذى اغتصب العرش باعتقاده أن البلد غير مستعد لبذل أية تضحية جسيمة لمصالح إدوارد الخامس وأخيه الحدث . ومع ذلك فإن فظائع الحرب الأهلية لم تكن قد حجرت قلب الشعب الإنجليزى تماماً بحيث يقبل قتل هذين الطفلين فى برج لندن دون احتجاج . أصول التاريخ الأوربي

ولم تنقذ العم الشاذ والملك المغتصب شجاعته ولا مقدرته ، فاتجهت الرغبة إلى إنزاله عن العرش ، ودبرت المؤامرات لتحقيق ذلك ليس فقط من جانب حزب لانكستر ، بل أيضاً من جانب فريق كبير من حزب يورك ذاته . وعلى ساحة بوسورث فيلد Bosworth Field (١٤٨٥) ، استطاع هنرى تيزودور ، وهو ابن سيد من ريف ويلز ولكنه سليل جون أوف جونث John of Gaunt عن طريق أمه مرجريت بوفورت Margaret Beaufort والمطالب الوحيد بالملك الباقي من حزب لانكستر ، استطاع أن يضع نهاية لرتشارد وأتباعه من حزب يورك ، وأن يؤسس الأسرة القوية التي قدر لها أن تقود إنجلترا عبر المصاعب الدينية والسياسية التي اتسمت بها الحقبة التالية^(١) .

انتهت حروب الوردتين بعد أن استنزفت الأرستقراطية الإنجليزية دماءها وشارفت على الهلاك . ومع أن النضال العنيف قد جرى على رقعة واسعة من البلاد وكلفها مائة ألف نفس ، فإن آثاره الاجتماعية والاقتصادية كانت محدودة تماماً . ولم تهتم أية مدينة إنجليزية بهذا النزاع بين الفريقين إلى درجة أن تصمد لحصار . أما الجيوش التي كانت تقطع أوصال بعضها البعض بالحرب أو تتقاذف بالتبال أو تتبادل بمهارة أقل وتكاليف أكثر طلقات مدافعها الحديثة الصهر على أيدي مدفعيين محترفين — هذه الجيوش لم تجمع من سكان المدن وأهل الفلاحة ، ولكنها تكونت من كبار النبلاء وأتباعهم المأجورين . ولم يتأثر تقدم البلاد الاجتماعي بهذه الاضطرابات كما يتبادر إلى الذهن ؛ فإن الشجار الناشب بين أسرتي بيرسى Percy ومورتيمر Mortimer ، أو بين أسرتي نيكل Neville وموبرى Mowbray لم يكن يعنى إلا القليل للعامة ورجال الحرف والتجار . وسارت التجارة في طريقها للمعبد ، وجمعت ثروات ، وبنى الأغنياء بيوتاً من الآجر أو الحجر لسكنهم الخاص ، أو شادوا الملاجئ والكلبات لخلاص أرواحهم ، وبدأ لسير جون فورتسكيو Sir John Fortescue^(٢) أن الفلاحين الإنجليز أسعد حظاً من فلاحى فرنسا لأنهم أكثر رخاءاً ، وأخذت تختنى باطراد طبقة الأفنان الإقطاعيين ، وذلك تحت ضغط العوامل الاقتصادية الجديدة . ولكن هذه الحرب الأهلية الطويلة صاحبها إحدى

(١) انظر ثبت الأنساب (١) .

(٢) حوالى ١٣٩٤ - ١٤٧٦ . مشرع إنجليزى اختلف مع الملك هنرى الثامن الذى عزله من منصبه القضائى الهام ثم صالحه بعد ذلك .

المصائب الكبرى التي يمكن أن تنزل بمجتمع منظم : فإنها شلت سير العدالة البريطانية وإن لم تحطم جهازها . استمر القضاء في حضور الجلسات القضائية الدورية التي كانت تعقد في كل مقاطعة بدورها ، ولا زالت محاكم الملك تعقد جلساتها في وستمنستر ، وظل العمدة (sheriff) يعقد مجلس مستشاريه ، كما واصل « قضاة التحقيق » جلساتهم القصيرة ، واجتماعاتهم الدورية كل ثلاثة شهور . ولا زال المحلفون المتهيبون يدعون إلى القيام بمهامهم ويعاقبون على عدم الحضور . ومع ذلك كان القضاء يتعرض للتهديد في كل حالة تتصل بمصالح صاحب أرض ذى نفوذ أو بمصالح أتباعه . واللوائح التي كانت تحرم كسوة الأتباع وإعالتهم ظلت عاجزة عن الحد من شر فاضح ، وإن كان قد أصبح أمراً شائعاً . ذلك أنه حين كانت تنظر المحاكم الدورية قضايا خاصة بأسرتين كبيرتين ، جرت العادة أن يركب رجال الفريقين المتخاصمين المسلحون خيولهم ، وقد حملوا شارات اللوردات الذين يعولونهم ، ويقتحمون المدينة التي تعقد فيها المحكمة لإرهاب المحلفين والقضاة . ومن هنا لم تستطع يد العدالة أن تمتد إلى أى شرير مجرم طالما كان في حماية النبلاء ذوي السلطان .

ورغم ذلك فما له دلالة أنه على الرغم مما اتسم به ذلك العصر من الاضطرابات والعنف ، فإن كاتباً مثل فورتسكيو Fortescue استطاع أن يفخر بقوانين بلاده ودستورها . كان الإنجليز حينئذ شعباً يألف المقاضاة ، وهى سمة لازمتهم فيما بعد . وكانت المحاماة حينئذ ، كما هي الآن ، مهنة متميزة بالنفوذ والحفاظة ؛ وكان المحامي فخوراً بعلمه الملىء بالأسرار شغوفاً بشرف مهنته وعلو مكانتها . وإن ما صاحب الحرب الأهلية من عنف وتوالى أحكام الإعدام خلال ذلك العصر العاصف لم يمحُ ذكرى الأيام الأولى من حكم أسرة لانكستر حين كانت البرلمانات تجتمع باستمرار وحين كان القانون يأخذ مجراه والسوابق الدستورية تتجمع لترجع إليها الأجيال المقبلة . وظلت تقاليد الحكومة البرلمانية قائمة رغم أن البرلمانات تحت حكم إدوارد الرابع لم تعمل أكثر من إقرار حالات التجريد من الحقوق المدنية أو التغاضي عن القتل والمصادرة . ولكن العدالة في الأقاليم كانت قد انهارت تحت وطأة الإرهاب المتفشى فيها .

وتطلبت إعادة حكم القانون إقامة نظام جديد من الإجراءات الجنائية بحيث

يلقى كل كبير يخرق القانون جزاءه العدل بعد إزالة ذلك الكابوس الذى كان يشل السادة المحلفين البؤساء الذين كان الفزع أو الجشع يملى عليهم أحكامهم .

وترجع أهمية حكم هنرى تيودور (١٤٨٥ - ١٥٠٩) إلى تأكيده سلطان الدولة القومية على فوضى الإقطاع ، وأنه بزواجه من إليزابيث أوف يورك ، ابنة إدوارد الرابع ، قد أظهر للبلاد أن النزاع الحاد بين الأسرتين المتناحرتين قد آذن بالانتهاء . ومنذ ذلك الوقت رحبت البلاد بالبشائر الجديدة للسلام ، بغض النظر عن بقايا من أسرة يورك لم يتسن تأليفها ، وكانت تلقى تعصيداً فى أيرلندة والفلاندر ، واقتصرت خطورتها على تحالفها مع الأجانب . وقد أمكن قمع الثورتين اللتين قام بهما الدعيان لامبرت سيمل Lambert Simmel وبيركن ووربك Perkin Warbeck ، أمكن قمعهما الواحدة تلو الأخرى بنجاح أسهل ، لأنه - كما قال بيبكون - « كان أمراً بغيضاً بالنسبة إلى سكان إنجلترا أن يحكمهم ملك تحمله إليهم حراب الأيرلنديين والهولنديين » . ولم يكن لهنرى تيودور جيش ثابت ، ورغم أنه - كما لاحظ سفير إسباني - كان يود أن يحكم إنجلترا على الطريقة الفرنسية ، فإنه كان يعلم أنه لا يستطيع أن يفعل ذلك ؛ فقد كان منذ البداية من الحصانة بحيث استشف أن أسرته لن يقدر لها البقاء إلا برضى من الشعب الإنجليزي .

وليس هناك ما هو أكثر إغراء للباحثين فى علوم السياسة من دراسة العملية التى عادت بها تدريجاً إلى السلام والعقل أمة أفسدها عهد طويل من الصراع المشوب بالحقد الشديد . وهذه الغاية كرس هنرى السابع اهتمامه . وإن من الملوك من هو أشد منه بهاء ، ولكن لن تجد من هو أجدى من ذلك العاهل الحريص الدعوب الذى استطاع بتصرفه الحكيم وسهره على شئون البلاد أن يبحث نهائياً سموم آخر حرب إقطاعية من كيان البلاد القوي . ورغم أن حكمه كان أوتوقراطياً ، فإنه كان خلواً من شروء الحكم المطلق ؛ فلم يبد غيرة من الرجال الأكفاء أو شيئاً من مركبات العظمة ، ولم يتخذ له بطانة من أصحاب الخطوة . فقد كان مستشاروه إما رفاق شبابه فى المنفى ممن خبرهم ، أو محامين أكفاء ، أو رجالاً مثل هورتون Horton وفوكس Fox أو وورهام Warham ممن سما بهم ذكاؤهم وشخصياتهم بفضل المجال

الديمقراطي الذي هيأته الكنيسة . وقد كان من المستحسن صراحة أن يفوض الملك إيمسبون Empson وددي Dudley انتهاب أملاك النبلاء بدلاً من اتباع ماجرت به العادة في فرنسا من إعطاء الطبقة الأرستقراطية ميزة الإعفاء من الضرائب الملكية . ولم يوجه أحد من المعاصرين اللوم إلى هنري لاقتصاده في دعوة البرلمان . وفي هذا العصر كان الناس يفضلون العدالة العامة على التمتع بالحرية السياسية الذي كان أمراً صعب المنال ، وفيه ارتفع مستوى القضاء . وأخيراً كانت « قاعة النجم » التي أقامها هنري محكمة يرتجف لسلطانها أكبر نبيل في البلاد .

ولم يكن تولى أسرة تيودور يعنى اعتزال إنجلترا ، ولا كان يستطيع فرض العزلة عليها . فإن هنري في سبيل حماية نفسه اضطر إلى البحث عن محالفات خارجية وإلى الاهتمام بمصالح إنجلترا في أيرلندا وأسكتلندا ، وهما - كما أظهرت ذلك قصة ثورة آل يورك - البلدان اللذان كان من الممكن أن يشن منهما هجوم عدائى . لهذا زوج ولي العهد من كاترين أميرة أرجونة وزوجت مارجريت ابنة الملك بجيمس الرابع ملك أسكتلندا ؛ وفي الوقت نفسه بدأ في عام ١٤٩٤ ذلك العمل الطويل لإعادة سلطة إنجلترا على أيرلندا ، وهو العمل الذي توج بالاتحاد البرلماني بين الدولتين في عام ١٨٠٠ ، وقد بدأ بإصدار قانون (قانون بويننج Poyning) أخضع القسم الشمالى من أيرلندا التابع لإنجلترا للمجلس الخاص في لندن .

وقبل أن ينتهى القرن الخامس عشر أقلع أحد البحارة الجنوبيين واسمه جون كابوت John Cabot من برستول برخصة من الملك (١٤٩٦) على ظهر سفينة من غرب إنجلترا بصحبة بحارة من غرب إنجلترا أيضاً ، ثم عاد بالنبأ المثير : أنه لامس أرضاً في الطرف الآخر من الأطلنطى . وترجع نيوفونلاند ، وهى أقدم ممتلكات التاج البريطانى ، إلى حكم هنري السابع حين أمكن لأول مرة أن تستشف معالم الدور الذى قيض لإنجلترا أن تلعبه في المستقبل كدولة تتمتع بالنفوذ الغالب في الجزائر البريطانية ، وترتبط ارتباطاً وثيقاً بالقارة الأوروبية ، وكذلك تدفعها روح المخاطرة التجارية والبحرية إلى آفاق واسعة فيما وراء البحار .

كتب يمكن الرجوع إليها

- James Gardiner, in Cambridge Modern History, Vol. I, Chap. XIV.
- Vickers, England in the Later Middle Ages. (1913).
- Sir John Fortescue, Governance of England. Ed. C. Plummer. (1885).
- Paston Letters. Ed. J. Gardiner, 4 vols. (1900-1).
- J.A. Froude, Life and Letters of Erasmus. (1894).
- P.S. Allen, The Age of Erasmus. (1914).
- Erasmi Epistolae. Ed. P.S. Allen. (1906-1938).
- H.A.L. Fisher, History of England, 1509-47. Longmans. (1910).
- Francis Bacon, History of the Reign of King Henry VII. Ed. J.R. Lumby. (1876).
- C.L. Kingsford, Prejudice and Promise in Fifteenth Century. England. (1925).

الفصل السادس

تنافس فرنسا وإسبانيا على إيطاليا

شارل الثامن وإيطاليا - غاطرة إسبانيا - اتحاد أرجونة وقشتالة - غلبة الدين في إسبانيا وتوسعها السياسي - العلاقات بين إسبانيا والبرتغال - معاهدة تورديسيلاس Tordesillas - ارتباط إسبانيا والفلاندر عن طريق الزواج - النتائج البعيدة المدى لهذا الارتباط بالنسبة إلى أوروبا والعالم - غزوات الفرنسيين لإيطاليا (١٤٩٤ - ١٥٥٩) . إسكندر السادس ومغازي روما - الروح الجديدة القائمة على الاحتكام إلى العقل وإرنيس .

وصلنا الآن إلى فترة من التاريخ الأوربي تثبت مدى ضعف الارتباطات الدينية والجنسية والثقافية لإزاء مطامع البشر وحجهم المفرط للحرب . كانت إسبانيا وفرنسا قرب نهاية القرن الخامس عشر في طليعة الدول اللاتينية والكاثوليكية في الغرب ؛ تربطهما روابط الجنس والدين والتراث المشترك من اللغة والآداب الرومانسية . كما أنهما كانتا قد بلغتا مستوى عاماً من الثقافة يفوق كثيراً ذلك المستوى السائد في شرق أوروبا ، إن يكن أدنى من مستوى الثقافة الإيطالية بشكل واضح . وكان الأتراك يعتبرون الأعداء الألداء لهذه الحضارة اللاتينية المسيحية ؛ ولما كان الأتراك يسيطرون على شرق البحر المتوسط ويهددون شواطئ إيطاليا وإسبانيا ، فقد كان من المحتمل أن يكون تكوين عصبية لاتينية لحجبتهم الشغل الشاغل للدبلوماسية الغربية . ولكن ذلك لم يحدث . فبدلاً من اتحاد الدول اللاتينية ضد الخطر الإسلامي ، اشتبكت مع بعضها البعض في معارك عنيفة . وكانت إيطاليا جائرة النصر ، كما كانت ميدان الصراع . ومن مساحرة التاريخ القاسية أن هذه البلاد ، التي تمتعت بموجة دافقة لم تكن تنقطع من الحضارة السلمية النادرة ، اطلعت البشرية من خلالها على ذرى جديدة من التفوق الفني ، قد قيض لها أن تصبح - في خلال أكثر من ستين عاماً - ميداناً لتصارع الجيوش الفرنسية والإسبانية .

والإيطاليون مسئولون عن ذلك بعض الشيء ؛ إذ أن السبب الرئيسي للمأساة هو الخلافات الناشئة في إيطاليا ذاتها . حقاً تمتعت إيطاليا بعهد طويل من السلام ؛

فإن الحصومات المحلية التي كان يقوم بها الجند المرتزقة كادت تخلو من الدماء ، ولكن هذا السلام الطويل ، وإن محا ذكريات الحرب البشعة ، لم يُقرب بين الإيطاليين بحيث تتكون لهم عقلية مشتركة . كانت إيطاليا لا تزال على عهدها أيام دانتى : دولة تتأمر على دولة . وكان الإيطاليون لا يزالون يؤمنون بهذه الفكرة المحببة إليهم — وهى فكرة جديرة بأهل الفن — وهى أن من الخير إسناد المعارك إلى العصابات المتطاحنة من الجند المرتزقة . أما أن تكون هذه القوة المرتزقة صغيرة أو كبيرة ، محلية أو أجنبية ، فلم يكد يكون مسألة مبدأ فى وقت كانت فيه المشاعر الوطنية ضعيفة لدى الإيطاليين . ولكن كان أمراً بالغ الخطورة بالنسبة لإيطاليا ومصدر متاعب كثيرة فى المستقبل حين انضم لدفيكو سفورزا Ludovico Sforza الوصى القوى على ميلان ، إلى رعايا فرانتى Ferranti حاكم نابولى الساخطين ، واستصرخ شارل الثامن ملك فرنسا لكى يحى ادعاء آل أنجو القديم فى مملكة نابولى — وكان ذلك أمراً خطيراً جداً بالنسبة إلى إيطاليا ومصدراً لكثير من المتاعب المستقبلية . ولم يكن ثمة ما يمكن الدفاع به عن فرانتى ؛ فقد كان شخصاً فقطاً خطراً ذئب النفس . ولكن جيشاً فرنسياً كان شيئاً آخر غير الجند المرتزقة : فهو يحارب ليقتل ؛ ولما كان فرانتى ينتمى إلى البيت المالك فى أرجونة ، وإن يكن من فرع غير شرعى ، فإن سقوط أسرته لم يكن ليحدث دون أن يسترعى انتباه ملك إسبانيا .

وفى أكثر من مناسبة فى تاريخ فرنسا ارتفعت الصرخة المنبهة للخطر الداعية « إن فرنسا متبرمة La France s'ennuie » . وكذلك كان الحال فى عام ١٤٩٤ . ولم يكن حكم لويس الحادى عشر ، وإن حفل بالمكاسب الراسخة ، براقاً بدرجة تكفى لإبهاج أرسقراطية فارغة تميل إلى ركوب المخاطر . ثم قامت ثورة صاحبة — عرفت باسم « الحرب الحمقاء la guerre folle » — عكزت صفو الوصايا الرشيدة التي كانت تقوم بها ابنته آن بوجيه Anne de Beaujeu ، ونهبت أخاها الأصغر شارل — ولى العهد — إلى أنه إذا أراد أن يحكم فعلاً ، عليه أن يظهر الروح الرياضية التي تنتظرها من ملكها أرسقراطية فرنسية تتقد حماسة .

وكان خوض غمار حرب فى إيطاليا أكثر المخاطر جاذبية . فلم يكن ثمة ما يغرى طموح الشباب أكثر من توقع سير ركبهم فى موكب للفرسان وهم يرتدون

حللهم الحربية البراقة تحت قبة إيطاليا الزرقاء عابرين بلاداً جميلة قد تتعرض بفعل خلافاتها الداخلية للوقوع فريسة في يد الأتراك أو الإسبان ، ما لم ينتشلها فرسان فرنسا من هذا المصير .

وحروب (المتعة) لا يعوزها على الإطلاق عذر جدى . فالأتراك كانوا قد استولوا على أوترانتو بالفعل بعض الوقت . وكان حكام أرجونة يحكمون نابولى التى كانت يوماً ما ملكاً لآل أنجو (١٢٨٣-١٤٤٢) ؛ على حين كان يشك فى أن الإمبراطور مكسميليان - وزوجته الثانية هى بيانكا من آل سفورزا Bianca Sforza - يدبر خططه للاستيلاء على دوقية ميلان الغنية التى كان أمراء أسرة أورليان يعتبرونها - منذ وقت طويل - غنيمة لا بد واقعة فى النهاية فى أيديهم . وكان فى يد شارل الثامن ملك فرنسا - وهو شاب أحذب مابجن يشك فى قواه العقلية - أقوى مدفعية فى أوروبا . ورغم أن كل العقلاء من ذوى الرأى فى باريس كانوا يعترضون على المغامرة الإيطالية لأن المملكة لم تكن وثيقة العرى وأحوالها المالية مضطربة ، ولأن الأسطول الصالح للخدمة فى البحر المتوسط كان لا يعتد به - رغم ذلك كله استسلم الملك لإغراء من استولوا على مسامعه ، ممن توافدوا عليه من ميلان وفلورنسة وروما وكلايريا ، يبنونه شكواهم وآمالهم ويقدمون له رشواهم . فهو سيدخل إيطاليا ليس كمجرد غاز ، أو كمجرد مطالب بميراثه فى نابولى ؛ بل إنه سيدخلها ونجم الحرية يلمع فوق بنوده . قيل له إن الإيطاليين الذين يبنون من الطغيان سيتقاطرون على معسكره ، وإنهم سيمثلون خزائنه بالأموال ، وإنه سيعيد الحكم الجمهورى إلى فلورنسة ويطرده الأرجونيين من نابولى . ومن يدري لعله ، وقد خرت إيطاليا المعترفة بالجميل ساجدة له ، سيطرد الأتراك من أوروبا ويضع التاج الإمبراطورى فوق جبينه المكمل بالغار . قيل له أيضاً إن خيالاته الذين جمعوا من نبل فرنسا وأشرفها ، وإن مقاتليه المرهبين من حاملى الحراب والبلط ممن أتى بهم من سويسرا وألمانيا ، وإن رماة الغسقونيين ومدفيعته الخفيفة السريعة الإطلاق ، وهى آخر ما وُفقت إليه المهارة الميكانيكية الفرنسية - قيل له إن هذا كله سيأخذ بلب أوروبا بحيث لن تنساه سريعاً .

واتخذت الاحتياطات الدبلوماسية الكافية . كان شارل فى مأمن من الهجوم

من جهة الشمال الغربي ، وذلك لأنه بفضل تدبير أخته الوصية قد تزوج في عام ١٤٩١ من آن وريثة عرش بريتاني . ولكي يعبر جبال الألب وهو خلو من المخاوف ، اشترى رضى إسبانيا بالتنازل لها عن كرداني Cerdagne وروسيون Rousillon (وهما مقاطعتان على حافة البرانس كان حنا الثاني الأرجوني قد رهنهما للويس الحادي عشر) ؛ وكذلك أمن حدوده الشرقية بالتنازل للإمبراطور عن مقاطعة فرانك كونتيه Franche Comté . ورغم هذا الإسراف في التنازل عن الأراضي ، فقد كان ثمة مسألة عجز شارل عن أن يجد لها علاجاً . تلك هي مسألة نابولي ؛ فما من ملك لإسبانيا يرضى بوجود الفرنسيين في نابولي : فالمسألة لم تكن مسألة شرف فمحسب ، بل كانت صقلية بفائضها من القمح تسد دائماً العجز في محاصيل إسبانيا الهزيلة .

ومما زاد في مخاطر المغامرة الإيطالية — وهي المخاطر التي كانت عظيمة على أي حال ؛ إذ لا يوجد بلد متحضر أهل بالسكان ينخضع برضاه لغزو أرضه على يد ثلاثين ألفاً من الجند الأجانب الماسحين — حدوث تغيير وقى في ظروف إسبانيا السياسية قبل ذلك بوقت قصير . فإن دولة أرجونة البحرية ، وهي الدولة التي كان بحارتها وتجارها معروفين في كل موانئ البحر المتوسط ، وقد اتحدت مع مملكة قشتالة بعد زواج فردناند وإيزابلا في عام ١٤٦٩ . وليس من المتوقع أن يكون اتحاد سياسي مبنى على الزواج مدعاة لتغيير سيكلوجية شعبين مختلفين . ذلك أن سكان قطالونية ، التي هي أغنى وأهم مقاطعات مملكة أرجونة ، لم ينم إطلاقاً اندماجهم في أهل قشتالة الذين يفصلهم عنهم اختلاف اللغة وكل تلك الاختلافات العميقة التي تفصل المزارعين عن ركاب البحر والتجار عن الفلاحين والنبلاء عن سكان المدن ومجتمعاً يقوم على نشاط عالمي واسع عن مجتمع يعيش معظم أهله يملأهم الزهو وينعمون بالعزلة على نجاد عالية في الداخل . ولكن على حين أن قطالونية لم تستسلم قط لنير قشتالة ، فإن زواج فردناند حاكم أرجونة من إيزابلا حكمة قشتالة كانت له مزايا بلغ من أهميتها أنها ظلت باقية على الزمن . فقد ترتب على هذا الاتحاد أن أصبحت إسبانيا دفعة واحدة دولة أوربية عظمى قوية في البر والبحر ، وسمت إلى مكانة من التفوق والمهابة في العالم استمرت إلى نهاية القرن السادس عشر .

وآن الآن لأطماع أرجونة التي لا تهدأ ، وهي الدولة التي استولت أساطيلها على

ممالك في جزائر البليار وصقلية ونابولي ، أن يدعمها مشاة جمعوا من حقول قشتالة ومدنها العالية . ولكن المزايا التي ترتبت [على اتحاد إسبانيا لم تكن موضع تقدير ؛ فقد طبق لون من النظام على شعب يميل للعصيان ولا يخضع لنظام ، وتم ذلك على أيدي قوة مشتركة من ملكية قوية وكنيسة موالية . وبالتدريج حل محل النزعات المحلية المتنابذة تفكير أرحب أفقاً يتحرى حاجات إسبانيا وما تتيحه الدنيا الواسعة من فرص وإمكانات . ولكن كان للمسألة وجه آخر . فإنه لما كانت إسبانيا قد ورثت سياسة أرجونة في إيطاليا ، كان لزاماً عليها أن تقوم بسلسلة طويلة من الحروب في إيطاليا كانت وخيمة العاقبة لها بقدر ما كانت ضارة لإيطاليا .

ذلك أن إيزابلا ، وهي من أكثر النساء اللاتي عرفهن التاريخ ضيق أفق ، وإن تكن أيضاً من أكثرهن نفوذاً ، كانت كاثوليكية متعصبة . ومن أول الأعمال الباهرة التي قامت بها المملكة الإسبانية المتحدة الاستيلاء على دولة غرناطة الصغيرة ، وهي الدولة التي كانت تحت حكم سادتها المسلمين المستيرين قد وصلت إلى درجة من الرخاء والحضارة لا نظير لها في أي بلد آخر في شبه جزيرة أيبيريا ، بل في قليل من أسعد مناطق فرنسا وإيطاليا حظاً . هل كان القضاء على هذه الدولة الإسلامية نعمة أم نقمة ؟ هذه مسألة يمكن المناظرة فيها بأساليب وحجج مختلفة . ولكن من دواعي الحكمة — على الأقل — أن نذكر أن مسلمي إسبانيا — بعكس الأتراك العثمانيين — قد استجابوا لدواعي الفن والعلوم والفلسفة ، وأن حكمهم قد تميز بالتسامح ، وأن دولتهم كانت ضعيفة لا تضر أحداً ، وأن طردهم من الأراضي الأوروبية أمام الضغط الملح من جانب إيزابلا ، كان الخطوة الأولى في سلسلة مستمرة من الاضطهاد الديني نالت باستمرار من قوة إسبانيا وحيويتها .

قد تبدلوا هذه السياسة بغليظة في عصر يتسم بالتسامح ؛ ولكنها لم تثر اعتراضاً من جانب رعايا فردناند وإيزابلا المسيحيين . فقد كانت تعاليم الكنيسة الكاثوليكية محل قبول في كل مكان ، ولم ينكر أحد في أي مكان المبدأ القائل بأن واجب الدولة المسيحية أن تقضي على الهرطقة في داخل حدودها . وعلى حين كان الناس يدافعون بحرارة عن حرياتهم المحلية ، ولم تجد قضية حرية الفكر المقدسة من يعطف عليها أو يثيرها .

وهكذا كان الإدراك الغريزي العميق لحاجات البلاد السياسية معاوناً على دعم القوى الدينية المحافظة في بلد انطبعت سياسته الخارجية زمناً طويلاً بطابع الحروب الصليبية . وإن اتحاد أرجونة وقشتالة لم يفعل شيئاً لتخفيف حدة الروح الإقليمية المتغلغلة في المقاطعات الإسبانية ؛ فالناس لا يزالون يحرصون على الامتيازات المحلية والإقليمية ويدافعون عنها بعناد شديد بحيث أصبح تأييد الكنيسة وعونها بوصفها النظام الأوحد العام في إسبانيا كلها وموضع التبجيل من جميع أهلها أمراً بالغ الأهمية للحكومة .

وقد بلغ من توفيق ملوك إسبانيا في كسب الولاء الكامل لقسيسهم أنك لن تجد كنيسة پروتستانتية واحدة قد خضعت تمام الخضوع للحاكم الزمني خضوع كنيسة إسبانيا الكاثوليكية للملك في العهد الذي بلغت فيه الإمبراطورية الإسبانية أوج عظمتها . فقد كون الملك والكنيسة ، والكنيسة والملك ، أداة واحدة متماسكة هما نشر العقيدة الكاثوليكية والدفاع عنها .

وعلى النقيض من ذلك التركيز الصارم في العقيدة الدينية ، ذلك التركيز الذي جعل حكم إسبانيا في كل مكان مرادفاً لاضطهاد العقائد المخالفة ، على النقيض من ذلك اتسع الأفق السياسي والاقتصادي لإسبانيا اتساعاً مفاجئاً واسع المدى . أصبحت فرنسا عدواً لإسبانيا ، وإيطاليا مسرحاً للحرب ، وإنجلترا حليفة ، والإمبراطورية الرومانية المقدسة والأراضي المنخفضة — بطريق الزواج — توابع لها ، والمحيط الأطلنطي ممراً يوصل إلى ممتلكات إسبانيا في أقصى الغرب ، وهي أراض لا يحدها حد ، غامضة تحوطها الأسرار . وبتوسع النشاط في المحيطات ، دبت حياة جديدة في موانئ بسكاي وسانتندر وفيجو والفيرول وقادس وإشبيلية . وتزاحم الناس على مغامرات جديدة ، وظهرت خصومات جديدة ، وتكونت أحلاف جديدة هجومية ودفاعية . وكان لزاماً على الدبلوماسية الإسبانية أن تنشط العمل على نطاق واسع . وليس في وسع أحد أن يأخذ على السياسة الإسبانية في العصر الذي بدا الآن أنها كانت تعاني تركيزاً في الفرص لا محل له أو ضيق أفق مخز ؛ بل إن الخطر كان يكمن في التشتت المفرط بين أهداف يختلف بعضها عن البعض الآخر : كإعادة تنظيم داخلية البلاد واحتلال أراض في إيطاليا ، ومناضلة فرنسا

واستعمار القارة الأمريكية وسكنها .

ولو كانت الملكية الإسبانية تنصف بخيال بحرى ناضج ، لربما أضافت إلى سياساتها المتعددة احتلال البرتغال أو ضمها إلى الأملاك الإسبانية . كان هذا الجار ، الذى لم يتحل بخلال الحيران ، يقوم حينئذ بقيادة العالم الغربى فى مضمار النشاط البحرى . وكان ملاحو البرتغال قد وضعوا أيديهم على ثروة غينيا ولا مسوا رأس الرجاء الصالح ، وكانوا على وشك الالتفاف حول شاطئ إفريقيا وفتح طريق جديد للثروة والفتح فى الهند . وكان من شأن ذلك كله أن يغرى بالعدوان منافساً متقدماً فى مجال النشاط الاستعماري . وكان من الممكن حينئذ أن يقال — كما ذهب كاتب برتغالى فى عام ١٦٢٤ (حين كانت البرتغال قد اتحدت بالفعل مع إسبانيا) — إن لشبونة هى العاصمة الحقيقية لشبه جزيرة أيبيريا وأن سواحل الأطلنطى هى مركزها العصبى وأن أهم أهدافها السياسية تحطيم القوة البحرية المعادية حيثما وجدت . ولو قد قدر لهذه الآراء أن تتغلب فى نهاية القرن الخامس عشر ، لكان من المحتمل أن تتلخخ طلائع ارتياد المحيط الأطلنطى بدماء حرب أهلية بين دولتي شبه جزيرة أيبيريا المسيحيتين .

ولكن شيئاً من ذلك لم يحدث . فإن فردناند وإيزابلا — اللذين لم تراودهما كثيراً أحلام البحر — عزموا على أن يرتبطا بالبرتغال بروابط تحالف أسرى يكون من القوة بحيث يقاوم إلحاح المنافسة الاستعمارية بين الدولتين . وهكذا عندما سارت إسبانيا فى إثر البرتغال وطالبت بنصيبها فى العالم الجديد ، حال تحكيم البابا دون نشوب الصراع . وقد هوجم حكم إسكندر السادس القاضى بأن تقسم إسبانيا والبرتغال كل الأراضى والجزائر التى تم اكتشافها بالفعل ، أو تلك التى ستكتشف بعد ذلك « فى الغرب فى اتجاه الهند أو المحيطات » — هوجم هذا الحكم باعتباره اعتداء وقحاً على حرية البشر . وهذا الحكم واحد من تلك التدابير السياسية التى لا بد من انهيارها أمام ضغط الحوادث ، مهما كانت فائدتها باعتبارها توفيقاً مؤقتاً بين مصالح متعارضة . فإن الناس فى فرنسا أو هولندا أو إنجلترا لم يروا فى هذا الحكم البابوى أمراً يمكن التسليم به ؛ وتساءلوا : بأى حق يقصر البابا — وبأى إسباني بالذات — العالم الجديد على الإسبان والبرتغاليين ؟ وهل من مصلحة البابوية أن

تربط نفسها في هذا الوقت المبكر بالمبدأ القائل بأن الهند وأمريكا قد أقفلتا إلى الأبد أمام ملاحى الشمال؟ على أن أداة — مهما تكن قاصرة — تنجح لوقت ما في وضع صيغة ملائمة تحسم الخلافات بين دول متنازعة بتحديد مناطق نفوذ كل منها — مثل هذه الأداة لا يمكن إدانتها برمتها . فإن المراسيم البابوية الخمسة التي أصدرها إسكندر السادس قبل تحقيق غرضها نافعاً وإن يكن وقتياً . ذلك أنها كانت الأساس الذي قامت عليه معاهدة تورد سيللاس (٧ يونية ١٤٩٤) التي قضت بأن تأخذ البرتغال كل شىء شرقى خط يرسم بطول المحيط الأطلسى على بعد ٣٧٠ ميلا غرب جزائر الرأس الأخضر ؛ على حين يعطى لإسبانيا كل شىء يقع غربى هذا الخط . وهكذا مكن ذلك الخط المرسوم البرتغال من المطالبة بالبرازيل وحدها .

ولقد كان من محض الصدفة أن يقوم كرسطوفر كولبس برحلته الاستكشافية المشهورة تحت العلم الإسباني . كان قد عرض سره الدفين وحماسته الدافقة على كل من البرتغال وإنجلترا وفرنسا . وقد بحث لجنة إسبانية مشروعه لمدة خمس سنوات ثم رفضته ، ولم يعدل هذا القرار غير المناسب نهائياً إلا بشق الأنفس وبنفوذ كاهن وسيدة ذات حظوة كبيرة لدى الملكة . كان كولبس ملاحاً ممتازاً ، وقد سما إلى درجة العظمة بتصميمه الدافق على تحقيق حلمه حتى انتصر في النهاية ، وذلك رغم ما صادفه من صدد ومن عقبات كانت قمينة بأن تشبط همم رجال أتوا حظاً وسطاً من الشجاعة . وبعد أن عبر الأطلنطى في ثلاث قوافل بحرية صغيرة ، وصل إلى جزيرة واتلنج Watling التي هي إحدى جزائر البهاما وذلك في ١٢ أكتوبر ١٤٩٢ ، وأطلق عليها اسم سان سلفادور San Salvador . كان قد أبحر منذ خمسة أسابيع في بحر موحش مجهول ، مسكناً بإيمانه الذى لا يقهر هواجس بحارته المتמרدين ، إلى أن وصل إلى ما اعتقد حتى آخر حياته أنه الطرف الشرقى لآسيا . وإن اكتشافه جزائر الهند الغربية هو المقوم الحقيقي لشهرته ، وإن أول رحلة له عبر الأطلنطى هي أعظم أعماله ؛ ذلك لأنه لم يوهب المقدرة على معالجة مشكلات الاستعمار الدقيقة أو حكم الناس على الأرض ؛ تلك المشكلات التي ملأت رحلاته الأخيرة بالمرارة ، فاعتقد أن استرقاق أهالى البلاد من الهنود هو خير ما يمكن عمله لهم . وقد بدا للمضاربين من التجار الذين كانوا يحومون حول بلاط برشلونة أن عدداً

قليلا من العبيد الذين لا يمكن فهمهم وحفنة من ذهب إنما هى جزاء حقير لسلسلة متتالية من الرحلات الباهظة التكاليف ، وبديل يبعث على السخرية لتوابل الشرق التى يتطلعون إليها . فأقصى الملاح العظيم عن قيادته وأعيد إلى إسبانيا مكبلا بالأغلال ليواجه الحقد الدفين من جماعة المستثمرين الذين خابت آمالهم والغیظ الأشد من جانب المستعمرین العائدين إلى إسبانيا . ومات كولبس فى عام ١٥٠٦ فى إسبانيا، البلد الذى اتخذهُ وطنًا له، مغضوبًا عليه مجللا بالمهانة . ورغم ذلك فهو مكتشف أمريكا ؛ وقد خلد التاريخ اسمه أبدا الدهر .

ولا يمكن القول بأن الدافع لاكتشاف العالم الجديد لا يتعدى الرغبة فى الحصول على التوابل والذهب ؛ إذ اختلطت المشاعر الدينية بالمطامع الاقتصادية . ففي الفاتيكان — وخصوصًا لدى الفرنسيين الذين كانت مشروعاتهم التبشيرية تمتد إلى العالم بأسره — كانت مشروعات البرتغال وإسبانيا تثير أكبر قسط من الاهتمام ، لا لأنها قديمة بأن تهىء السبيل إلى تنصير الوثنيين فحسب ، ولكنها ستفضي أيضًا إلى شن هجوم على المسلمين من ناحية الشرق . كان المعروف أن نجاشى الحبشة مسيحي ، وكان المعتقد أنه لا تزال توجد فى الهند ، نتيجة لبعثة القديس توما ، دولة مسيحية يحكمها عاهل يعرف بالخان الأكبر . وكان يداعب أوروبا الكاثوليكية أمل كبير فى أن تتلقى من هؤلاء الملوك الشرقيين البعيدين مساعدة فعالة فى حرب صليبية ضخمة أخيرة تشنها على المسلمين . تلك هى « خطة الهند » كما رسمها نقولا الخامس منذ وقت مبكر يرجع إلى عام ١٤٥٤ فى مرسوم بابوى أرسله إلى ملك البرتغال . وفى هذا الجو المفعم بالآمال الكبار أقلع كولبس ليكشف الطريق إلى الهند غربًا .

وفى تلك الأثناء كان ضغط الأحداث البعيدة يمهّد لاندماج غير طبيعى بين ثلاث دول تختلف كل منها عن الأخرى اختلافًا كبيرًا ، هى إسبانيا والأراضى المنخفضة واتحاد ألمانيا الإمبراطورى ، فقد تمخض عن زيجتين مشؤمتين وخمس ميات غير متوقعة تغيير لمعالم السياسة الأوروبية . فى عام ١٤٧٧ تزوج مكسميليان ابن الإمبراطور فردريك الثالث ووريثه ، تزوج مارى وريثة شارل الجسور صاحب برجنديّة . ومرت السنون . وتوفيت مارى، وأصبح

مكسمليان وصياً على الأراضي المنخفضة ، وفي عام ١٤٩٣ خلف والده في منصب الإمبراطور الروماني المقدس . أما فيليب ابن زوجته البرجنديّة ، وهو شاب رقيق أنيق ، فقد دخل في طور الرجولة ؛ ولما كان وريثاً لثروة عظيمة ، فقد اشترأت إليه الأعناق . ومنذ وقت مبكر في عام ١٤٩١ دار الحديث عن زواج الأرشيدوق الفلمنكي من جوانا الابنة الثالثة للملكى إسبانيا . وكان الابنان صغيرين ، ودارت المفاوضات في أناة ؛ ومع ذلك فقد تم عقد الصيغة في عام ١٤٩٦ : وأصبحت جوانا الإسبانية زوجة لفيليب صاحب الفلاندر . من كان يستطيع حينئذ أن يتنبأ بالمصير المختلف تماماً الذى كان ينتظر الزوجين السعيدين ، أو النتائج البعيدة المدى لزوجهما ؟ من كان يستطيع حينئذ التنبؤ بالموت المبكر الذى قضى على فيليب الأنيق ، وجنون زوجته ، وتلك السلسلة الطويلة من الجنازات المفجعة التى حملتها إلى عرش إسبانيا على نحو لم يتوقعه أحد قط ، أو ذلك الأفق العريض من السلطات والعزة التى تفتح لابنها الصغير الوارث لحكم إسبانيا والأراضي المنخفضة والذى قدر له أن يخطو على إثر جده مكسمليان فيحمل تاج الإمبراطوية ؟ وهكذا بينما كانت الأحداث تجرى على هذا النحو لتمهد لإمبراطورية شارل الخامس ، كان من الطبيعى أن تركز السياسة الإسبانية جل اهتمامها على العالم القديم وليس على العالم الجديد .

ومن الصعب لوم معاصرى شارل الثامن لاعتقادهم أن إيطاليا التى قطعت شوطاً بعيداً في التفكك السياسى — وإن تكن قد أصابت شهرة واسعة بسبب تراثها وثقافتها — غنيمة تفضل بكثير الجزائر التى اكتشفت وشيكاً في الطرف الآخر للأطلنطى ، وكان يتحدث عنها بحارة نحاسيو الوجوه على أرصفة برشلونة ولشبونة . فإذا كان لابد من إيجاد ميدان للفتح والتوسع ، ففي إيطاليا حقل يمكن جنى ثماره على وجه السرعة . ولكن مما يؤسف له أن حكام فرنسا وإسبانيا ، رغم حاجات رعاياهم ومغريات العالم الجديد ، قد بددوا قواهم لفترة تزيد على الستين عاماً في نضال هدفه السيطرة على إيطاليا ، فأنزل بهم جميعاً أضراراً فادحة وأذل بلدأ متحضرأ ومسالماً نسبياً أرغمته الظروف على أن يصبح مسرحاً لحرب بشعة .

وقد قيل في معرض التهوين من هذه النتائج الخطيرة إنه لولا وجود الجيوش الفرنسية والإسبانية في إيطاليا لكان الأتراك قد استولوا عليها . كذلك يمكن القول

أيضاً أن هذه الحروب التي لا هدف لها قد تمخضت عن بطولة بابار Bayard^(١) وعن الأشعار الرائعة التي أودعها أريوستو Ariosto^(٢) ملحمة « أورلاندو غاضباً Orlando Furioso . إن مثل هذه التخمينات الوهمية قد تصلح عزاء ، ولكنها لا تقيم دفاعاً .

وكانت حملة شارل الثامن (١٤٩٤) على إيطاليا — كما كانت الغزوات الفرنسية التالية لهذه البلاد — لا تعدو أن تكون قصة نصر سريع تعقبه نكسة مفاجئة كاملة . وقد ابتسم الحظ في البداية للجيش الفرنسي بمظهره البراق وهو يحمل معداته الحربية التي تمت إلى العصور الوسطى ويسوق قطاراً طويلاً من المدافع الفاخرة ولم يكن لدفيكو سفورزا Ludovico Sforza حاكم ميلان الذي دعا بنفسه تلك الحملة ، لم يكن بالرجل الذي يعترض تقدمها . أما سافونارولا Savonarola الراهب الدومينيكانى — وهو أحد أولئك الوعاظ المنتشرين العظام الذين يظهرون بين وقت وآخر في بلاد جنوب أوروبا اللاتينية والكاثوليكية ، فقد رحب بالفرنسيين باعتبارهم محررين لفلورنسة المدينة التي اتخذها وطناً له . وفتحت روما أبوابها . وغدا شارل دون أن يطلق رصاصة سيدياً على مملكة نابولي . ولكن حينئذ ، وقد تحققت أهم أغراض الحملة ، أطلت الصعوبات الحقيقية برأسها . فلم يكن الجيش الغازى الذى انتظم جنوداً من الألمان والسويسريين ، كما صورته خيال سافونارولا ، سرباً من ملائكة مطهرين حلقوا فوق إيطاليا يحملون رسالة لوضع حد للبهذخ والسرف ومساوى الكنيسة البابوية ؛ بل كان ، كما يتوقع من القوات الفرنسية والألمانية فى ذلك الوقت ، جيشاً فاسد الخلق منحلاً فظاً (رغم بعض الاستثناءات المشرقة) . وكلما مضت الحملة جنوباً خلفت وراءها طغياناً من السخط المحتدم . وسرعان ما تكونت عصبة إيطالية هدفها طرد الغزاة واعتراض طريق تفقههم . وفى ساحة فورنوفو Fornovo شق شارل طريقه بين صفوف العدو (١٤٩٥) ورجع إلى فرنسا مكلاً بهذا النصر ، ولكن بعد أن خسر كل شبر من الأراضي الإيطالية .

(١) ١٤٧٣ - ١٥٢٤ . ينتسب بابار إلى أسرة فرنسية نبيلة سقط معظم كبار رجالها فى ميدان القتال طيلة قرنين من الزمان . وقد أبدى ضروباً نادرة من الشجاعة أثناء الحروب الإيطالية .

(٢) ١٤٧٤ . ١٥٣٣ . الشاعر الإيطالى .

وبفضل النصر الذى أحرزه شارل فى فورنوڤو ، ولكن أكثر من ذلك بفضل معيشة الجيش الفرنسى على موارد أرض العدو ثم عودته إلى فرنسا محملا بالغنائم ، استعادت فكرة الحرب الإيطالية بريقها فى فرنسا . وحين توفى شارل (١٤٩٨) اجتذب سراب المجد الإيطالى الخادع ابن عمه ووريثه على العرش لويس الثانى عشر (١٤٩٨ - ١٥١٣) صوب الجنوب . وتكررت نفس القصة القديمة : انتصارات سهلة أعقبتها ارتباكات خطيرة ؛ ثم هزائم فى إيطاليا ، بل غزو فرنسا ذاتها فى نهاية الأمر . فتح الفرنسيون ميلان ثم أضاعوها ، واقتسموا نابولى مع إسبانيا ثم أضاعوها ، وطردت البندقية من أملاكها على الأراضى الأوربية على يد عصابة تكونت من فرنسا والبابوية والإمبراطورية ، ثم أعيدت إلى ما كانت عليه على يد تحالف بابوى تكون ضد فرنسا . وهكذا فى هذا الجلو المتقلب ، جؤ الدبلوماسية الإيطالية ، كان صديق اليوم عدو الغد . كان يوليوس الثانى ، البابا المحارب ، الذى ساعد فرنسا ضد البندقية هو - بعد وقت قصير - الذى دبّر العصبة المقدسة لطرد الفرنسيين من إيطاليا ، ولم يكن بوسع لويس الاعتماد على أية صداقة إيطالية راسخة . هزمت جيوشه فى نوافارا (١٥١٣) ، وبعد أن جرد من كل فتوحه الإيطالية رجع إلى فرنسا لكى يواجه الإنجليز الذين استولوا على تورنى Tournai والبرجنديين الذين كانوا يحاصرون ديجون . تلك هى المذلات التى أصابت « أب بلده » فى النهاية لإغراء إيطاليا . استولى على ميلان ونابولى وأراضى البندقية ثم أضاعها جميعاً ؛ وغزيت أراضى فرنسا فى موضعين . ولكن الدرس مضى دون أن يثمر شيئاً . ذلك أن فرنسوا الأول (١٥١٥ - ٤٧) ابن أخ لويس الثانى عشر ، وهو شاب ذواقة للفنون ملتهب بالشعور يميل إلى الانطلاق ، لم يكن بالرجل الذى ينسى أن عمه قد طرد من ميلان على يد جيش من صبعاليك فلاحى سويسرا . وعبر فرنسوا جبال الألب وواجه الجند السويسريين المرتزقة الذين كانوا يحرسون ميلان ؛ وقد مكنته النصر الباهر الذى أحرزه فى مارنيانو Marignano (١٥١٥) من استرداد لومبارديا لفرنسا ، ولكن إلى حين .

وفى تلك الأثناء كانت الأمور تجرى باطراد معاكسة للأمل فى فوز دائم للفرنسيين فى إيطاليا . كانت إسبانيا ، منافسة فرنسا ، تتمتع بميزة سبق فى البحر

وقوتها الحربية من المشاة أقوى ، وثروة العالم الحديد بدأت تعرف طريقها إلى خزائنها . وفي عهد فردناند الكاثوليكي (١٤٧٩ - ١٥١٦) كانت إسبانيا من القوة بحيث استطاعت طرد الفرنسيين من نابولي . وفي عهد حفيده الفلمنكي شارل (١٥١٩ - ١٥٥٦) غدت إسبانيا أكثر قوة بفضل الجزية التي تحمل إليها من الأراضي المنخفضة ، ثم منذ عام ١٥١٩ بفضل الموارد البشرية التي تجلب إليها الإمبراطورية . ولكن كلما مضت الأيام استجمعت المقاومة قواها وأنت إليها المساعدات من كل جانب . ففي خلال جيل واحد امتشق البابا وميلان والبندقية والسويسريون وإسبانيا والفلاندر والإمبراطورية الخسام للحيلولة دون سيطرة فرنسا على إيطاليا . ولكن فرنسوا الأول ظل متمسكاً بمشروعاته الإيطالية ؛ ورغم هزيمته وأسرته في بافيا Pavia (١٥٢٥) لم يتحل مواطنوه من مشروعاتهم اليائس أو يتنازلوا عن ادعائاتهم في إيطاليا إلى أن وقع هنري الثاني معاهدة كاتو كبريسيس Cateau Cambrésis في عام ١٥٥٩ . كانت المعاهدة نصراً لإسبانيا ؛ وكانت النتيجة القصوى لنزعة القروسية التي أقدم عليها شارل في خفة ونزق هي تسليم لمبارديا ونابولي للحكم الإسباني الصارم المحافظ ، وأقول النهضة الإيطالية ، واختفاء الخيال الإيطالي الرحب وراء غيوم من الطغيان الإسباني وتحكم رجال الدين ، وهو الخيال الذي كان في وسعه أن يثير أجواء من البهاء لا يمكن أن تبارى ، ولكن كان في وسعه أيضاً أن يقبل - في سخرية وصبر - صرامة الطغيان والهزيمة .

كان لإيطاليا منذ زمن بعيد تأثير قوى في شمال أوروبا ، إن لم يكن لشيء ، فهو على الأقل لوجود روما وتأثيرها . ففي خلال القرن الخامس عشر كان يأتي إليها طلاب العلم من إنجلترا وألمانيا وفرنسا للدراسة في جامعاتها ، ثم يعودون إلى بلادهم مزودين بأكداس من المعارف الطبية والكلاسيكية . وعلى فرض أن شارل الثامن لم يعبر الألب على الإطلاق ، فقد كان لابد أن يأتي الوقت للنهضة الإيطالية لتؤثر في حياة الشعوب الشمالية . ولكن الحرب تسرع الخطى بعجلات التاريخ : فالعمليات التي تسير بطيئة وتدرجية في الأحوال الأخرى تصبح حينئذ - في ظروف الحرب - سريعة تتدفق حيوية ؛ فكل حرب رحلة استكشافية ، وكل اتصال دبلوماسي كشف الطبيعة الأجانب البشرية . وكذلك كان الشأن في هذه الحروب

الإيطالية : فهي قد عجلت — إن لم تكن قد سببت — انتشار النهضة الإيطالية لدى شعب الشمال .

ومن الشخصيات التي وقفت على المسرح الإيطالي وظهرت أمام أعين أوروبا عامة حين ارتفع الستار في عام ١٤٩٤ شخصية رودريجو بورجيا Rodrigo Borgia (١٤٩٢ - ١٥٠٣) ، وهو إسباني ثرى كان قد رشى الجمع المقدس منذ عامين ليحصل على منصب البابوية ، واتخذ لنفسه اسم إسكندر السادس . وهناك من يتلمسون الأعذار لكل شيء : فأعين النقد الحديثة التي تعجنح إلى التسامح تجاوزت عن أخطر التهم التي ألصقتها بهذا البابا معاصروه قانعة بأن تترك منها كنزوات مقررة بيع وظائف الكنيسة والمتع الدنيوية وأعمال الغار والاعتيال بالسهم . وفي حياة أى نظام قترات يكون فيها للطباع الحيوانية الحشنة فوائدها . ولم يكن هذا البابا الإسباني الضخم أخشن ولا أفسق ولا أقسى من الأسرات الفظة البارزة في روما ووسط إيطاليا التي صرف همه إلى سحقها . فهو إن كان قاتلاً ومتآمراً فقد عاش في جو من الاعتيال والتآمر . فإن إنشاء دولة بابوية خاضعة له في وسط إيطاليا ، وهو ما كان يعمل له ، لا يكون بالكلمات المعسولة والرياضات الروحية ، بل بالقوة والغدر ، بالإدارة والمال . وفي هذا المجال كان إسكندر في موضعه الحق ؛ كان يعمل — فيما يعمل — لمصلحة الكرسي البابوي ، ولكن كان من الواضح أنه كان يعمل فوق ذلك لإعلاء شأن أسرة بورجيا . وقد سجل ميكافيللى في كتاب « الأمير » كيف عمل قيصر بورجيا ، الابن اللامع للبابا ، على مساعدة أبيه في إقليم رومانا ، وذلك المعين من أعمال البطاش والغدر التي استخدمها لهذا الغرض . وقد رأى ميكافيللى — كما سبق أن ذكرنا — في حياة المغامر المعلوم الضمير نموذجاً لفن السياسة الحديد الذي لا تنال منه شفقة ولا تؤثر فيه أخلاق أو عقيدة دينية .

وكان مظهر الفساد الذي تقدمه روما في عهد آل بورجيا مثيراً لاشمئزاز الطباع الروحية . وقد كتب سافونا رولا : « إن الفساد يبدأ في روما ، ثم يمتد إلى الإكليروس جميعاً ؛ إنهم أسوأ من الأتراك ومسلمى المغرب . سترى أن الجميع في روما قد جمعوا ثرواتهم عن طريق بيع الوظائف الدينية : فهم يشتررون الحظوة ثم يخلعونها على أبنائهم أو لإخوتهم الذين يحصلون عليها بالعنف وبكل الوسائل الآثمة . إن

شراهم لا تخمد وهم يرتكبون كل شيء للحصول على الذهب . لأنهم لا يدقون أجراسهم إلا في مقابل المال والشموع ؛ وهم لا يحضرون التراتيل والصلوات والقداس إلا إذا توقعوا كسباً . لأنهم يبيعون دخل كنائسهم ، ويبيعون القربان المقدس ، ويتجرون في القداس . . . وإذا ما عاش قس أو كاهن حياة عادية فهم يسخرون منه ويقولون إنه منافق . وأصبح من الشائع أن الجميع يحذرون من روما وأن الناس يقولون : « إذا أردت أن تحطم ابنك فاجعله قساً » . هذه اللهجة قد تحوى بعض المبالغة ، ولكن الاتهام كان حقيقة في أساسه . ورغم أن أوروبا الكاثوليكية كانت في نهاية القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر تزخر بالحياة الدينية الأصيلة ، ورغم أن وجود رجال مستقيمين وقديرين قاموا بمجهود جدى لتحسين التعليم والمعرفة وإصلاح مفاصل الكنيسة — ومن هؤلاء هيجيوس Hegius ^(١) في دنتير Deventer من أعمال الأراضي المنخفضة ، ونقولا الكوزي Nicholas of Cusa ^(٢) في ألمانيا والأسقف كولت Dean Colet في إنجلترا — رغم ذلك كله أضاعت روما مركزها في القيادة الروحية لأوروبا . لن تجد بلاطاً كبلاطها في سوء سمعته في الشره والفساد والرذيلة . ومنذ عام ١٤٩٩ كانت الأحاديث تجري على ألسنة الناس عن احتمال انفصال ألمانيا وإسبانيا عن روما .

وزاد الانحلال الروحي الذي أصاب روما أهمية ما تفجر في شمال أوروبا من روح جديدة تقوم على الاحتكام إلى العقل . وكان إرزمس Erasmus من روتردام (١٤٦٧ — ١٥٣٦) هو البشير بهذه الروح وداعيتها ، ما بقيت هذه الروح في نطاق الكاثوليكية الأصيلة . وقليل من الرجال من كان له على جيله تأثير أقوى وأنفع من تأثير ذلك البهائية الهولندي الرقيق المفلس الضئيل الحجم . انكب إرزمس على نفسه في حرارة متقدة في الأراضي المنخفضة وإنجلترا وفرنسا وإيطاليا حتى غدا للدرجة لا يدانيه فيها أحد — إلى أيام فولتير — الزعيم المعترف به لحركة الاستنارة في أوروبا .

(١) حوالى ١٤٣٣ — ١٤٩٨ م . إنسان ألماني سعى بهذا الاسم نسبة إلى موطنه الأصلي هيك Heck في وستفاليا .

(٢) ١٤٠١ — ١٤٦٤ . كاردينال ومتفقه في شئون الدين وبهاثة . سبق كوبرنيكوس في القول بحركة كوكبية ليست الأرض مركزها ، بل تشترك فيها . أشهر مؤلفاته عن الإنسان والدين كتاب « الجهالة المتأصلة De Docta Ignorantia » .

وقد تأثر إرزمس — ككل رجل مثقف في عصره — بالدراسات القديمة اليونانية واللاتينية التي كان من دواعي مجد إيطاليا أن أحييها . ولكنه كان يخجل من كثير من البحاث الإيطاليين في أنه لم يكن وثيقاً ولا محباً للجمال ولا متعلقاً بما وراء الطبيعة ؛ ولكنه كان مسيحياً عادياً مستمسكاً بالدين القويم ؛ كما أنه كان إلى حد ما ضاحك الخيال — وتيرنس Terence^(١) هو شاعره المفضل — ولكنه كان زاهر المواهب في الإشراف والحكمة والفهم والاعتدال والذكاء الوقاد ، وهي مواهب أهله لحمل رسالته للعالم أجمع . كان صاحب رسالة وكان داعية كما كان عالماً . كان يمتدح الافتخار بالعلم والحذقة والخرافة والجهل والغباء والعنف والرذيلة ؛ وقد وجه نشاطه الأدبي الطويل المتواصل لمقاومة هذه الشرور مقاومة باهرة متصلة . ورغم أنه تردد على بعض الجامعات — بل إنه شغل كرسي اللاهوت في كيمبردج بعض الوقت (١٥٠٠ — ١٥١٣) — إلا أنه لم يكن جامعياً يدلّ بعلمه ؛ بل كان مواطناً في هذا العالم يهتم بالسلوك قبل كل شيء ، كما اهتم أشد الاهتمام بجعل المعرفة في متناول الناس العاديين وتوسيع آفاقها . وقد أراد بوجه خاص أن يرى أسفار الكتاب المقدس مترجمة إلى كل اللغات ، وقال في ذلك : « يشوقني أن أرى الفلاح يتلوها وهو يسير وراء محراثه ، وأن يرددها النساج على أنغام منسجه ، وأن يستعين بها المسافر على متاعب رحلته » . بل إن أعماله الأكثر عملية — كشرحه لنسخة الإنجيل اليونانية ولما كتبه الآباء الأولون — تشفّ عن اهتمامه بمطالب القارئ العادي . وقد قرّ قراره على أن يرد الإنجيل اللاتيني إلى أصله اليوناني ، وأن يتحول عن محاورات المتفهمين في الدين من المدرسين القائمة على الخلق والمهارة إلى تعاليم الآباء الأولين التي كان يرى أنها تحوى روح الكنيسة الأولى نقية غير ممسوخة . وكان لبّ إيمانه — كإيمان النحوي — بقواعد لغته أن المسيحية الحقّة الأصيلة قد غطى عليها ركام من أفكار عصور متتالية ، وأن من الممكن بعثها ببذل جهد كبير من الدراسة العلمية الجادة الواسعة الأفق .

وبالإضافة إلى التوجيه الجديد النافع الذي أضفاه إرزمس على الدراسات الإنجيلية ، وقف يبشر بكاثوليكية إنسانية متسامحة مستنيرة . لم يتردد في أن يصب

(١) حوالى ١٩٠ — حوالى ١٥٩ ق . م . شاعر كوميدي إيطالي .

احتقاره على الرهبان الجهلة الحاملين ولا على الخرافات الكامنة في عبادة المخلوقات الدينية والمساوي المتصلة بالحجج وبيع صكوك الغفران ، ولا على غيرها من مفاسد الكنيسة الشائنة ؛ وقد شاعت سخريته التي صاغها في لاتينية حية محبة إلى النفس على كل لسان في دنيا الأدب . ولكن روح النقد عنده لم تكن من العنف بحيث تصل به إلى حد المرطقة أو الثورة . وفي البحث الذي وضعه إرزمس تحت عنوان « مرجع الجندى المسيحي Enchiridion Militis Christiani » (١٥٠١) عبر عن البشير الخالد للإيمان المستكن في القلب الذي يستغنى عن السلوك والطقوس الظاهرة ، ويجد غذاءه في الاستغراق في النصوص المقدسة . ومن الواضح أنه لم يكن يعاباً بما وراء المبادئ الدينية من غموض أو مهارة في الصيغ .

وقد أصابت كتاباته شهرة ضخمة منقطعة النظير . كانت محادثاته (Colloquies) وإشاداته بالحماقة (Praise of Folly) وأمثاله السائرة (Adagia) في طليعة كتب الأدب المطبوعة غير المتصلة بالمسائل الدينية التي أصابت رواجاً كبيراً . ولم يسبق قط أن استخدمت موهبة السخرية بمثل هذه المهارة . وقد جعل هذا الساخر الساحر الخفيف الظل من طبقة رجال الدين — وهي الطبقة التي كانت يوماً ما مهيبة الجانب وذات نفوذ ضخم — موضوعاً للتسليّة والاحتقار . هاجم شرور الحرب وفساد أساليب التربية العتيقة وفراغ الحياة الدينية السائدة ، وعرض بكل ذلك في إخلاص زاد في وقعه خلوه من نقل الأسلوب والتعصب والهوى . وجاء وقت سار في نفس الاتجاه مع لوثر ، ولكنهما لم يلبثا أن افترقا : إذ خرج لوثر على روما ؛ أما إرزمس فكان يؤمن بإمكان إصلاح الكنيسة الكاثوليكية من الداخل . والروح العنيفة المتعصبة التي لا بست حركة الإصلاح البروتستانتي لم يستغها المزاج الإنساني المتسامح لذلك البحاث الهولندي . وبينما كانت ألمانيا تضطرم بالنضال الديني ، كان إرزمس — في عزله الهادئة في بازل (١٥١٤ — ٣٥) — يحاول ، بسلسلة متقنة من الشروح والترجمات عن « الآباء » الأولين ، أن يحيي روح المسيحية الأولى وأفكارها لما فيه توجيه الكنيسة الكاثوليكية .

إن أهمية إرزمس في تاريخ أوروبا ترجع إلى أنه — في عصر النهضة — قد مثل في رونق وبراعة لا تداني ذلك الإرث من الثقافة المسيحية والكلاسيكية ، وهو

الإرث الذى كان — ولا يزال — ملكاً مشاعاً لأوروبا كلها . وسيبقى اسم إرزمس شائعاً فى كل قائمة تحوى حيرة الأوربيين . كان صاحب تلك الفكرة الداعية إلى تنظيم أوروبا لتحقيق أهداف عقلية ، بحيث تكون مخلصاً لماضيها بعد تنقيته من المساوئ التى علقت به ، ومرتبطة جميعاً برابطة باقية من السلام والأخوة . ولا يزال مثل هذا الوحي طلبة ذلك النفر القليل من الإنسانيين الذين يحاولون فى كل قطر أن يخففوا من مرارة الحياة السياسية .

كتب يمكن الرجوع إليها

- J.S.C. Bridge, A History of France from the Death of Louis XI. (1921).
- H. Lemonnier in Lavisce, Histoire de France, Vol. V.
- R.B. Merriman, The Rise of the Spanish Empire. (1918-25).
- J. Fiske, The Discovery of America. (1892).
- C.R. Markham, Life of Cristopher Colombus. (1892).
- E.I. Payne, History of the New World called America. (1892-9).

الفصل السابع

خطر الأتراك العثمانيين

سليم الأول وسليمان القانوني - الاستيلاء على رودس - جورج بودبراد George Podiebrad ومتياس كورفينوس Matthias Corvinus - معركة موهاكز Mohacs - عواقبها على النمسا .

لم يكن سقوط القسطنطينية بالنسبة إلى محمد الفاتح بمثابة النهاية ؛ بل إنه كان بداية لها ما بعدها . فقد اعتبر هذا الحاكم الكفاء الطموح نفسه مبعوثاً برسالة هدفها ضم العالم إلى دار الإسلام ، مثله في ذلك مثل لنين الذي ظهر بعده بمدة طويلة ، وتطلع بعمليات أخرى أقل شأنًا من العمليات الحربية إلى تحويل الجنس البشري إلى العقيدة الشيوعية . كان لمحمد الفاتح من شعبه المطواع الذي درب على تحمل كل المشاق عدا التفكير المستقل ، ومن جيشه المحترف المتمرس وطواير مدافعه الجيدة ، ما أعطاه ميزة السبق على أعدائه المتقسمين على أنفسهم . كان دوى المدافع التركية يقصف على الفرات والدانوب وشاطئ ألبانيا ؛ وحين توفي السلطان في عام ١٤٨١ كانت قد دانت له آسيا الصغرى وبلاد اليونان ومعظم شبه جزيرة البلقان ، وكان الأتراك قد وضعوا أقدامهم على جانبي بحر الأدرياتيك بعد استيلائهم على الجزائر الأيونية وإشقهودره وأوترانتو وهددوا سلامة إيطاليا وأوربا .

وبعد فترة قصيرة من حكم بايزيد المجنون ، تجدد سير الفتوح التركية على أيدي شخصيتين من أبرز شخصيات آل عثمان . فإن سليما الأول الذي خلع والده بايزيد في عام ١٥١٢ هو - بعد جده محمد - أكبر بناء تلك الإمبراطورية التركية الواسعة التي تحملت تقلبات قرون عدة ولم تسقط إلا بفعل الصدمة الهائلة التي أصابها في الحرب العالمية الأولى . فسلیم هو الذي فتح سورية ومصر وبلاد العرب ونقل الخلافة إلى بيت عثمان بعد تنازل آخر الخلفاء العباسيين ، وإليه سلمت رسمياً مقاتيبح الحرمين رمزاً لسلطانه على العالم الإسلامي . وأصبحت إستانبول منذ أيام سليم مركز القوة الإسلامية غير مدافع مدى ثلاثة قرون . أما بغداد التي كانت عاصمة

العباسيين ومسرحاً رئيسياً لحضارة فاقت كثيراً مستوى التفكير التركي ، فقد نزلت وقتذاك إلى مجرد مدينة نائية من مدن الولايات .

وتميز التاريخ الحربى لسلطان القانونى ، وهو السلطان النشط الذى تولى الحكم بعد سليم ، بثلاثة انتصارات على وجه الخصوص : انتزاع بلغراد من المجرىين ، وإرغام فرسان الإسبتارية^(١) فى رودس على التسليم ، ومعركة موهاكز (١٥٢٦) التى لطخت ساحتها بالدماء ، وهى المعركة التى آذنت بالقضاء على استقلال مملكة المجر . قبلغراد كانت بوابة المجر ، ورودس محطة فى منتصف الطريق بين إستنبول ومصر ، والمجر كانت آخر حاجز جددى قام بين الأتراك والنسويين .

وكان مفعول هذه الانتصارات أشد تأثيراً ، وذلك لما كانت تتمتع به الأمة المجرية من سمعة حربية عالية ، ولثقة التى علقها الناس جميعاً على مهارة الحامية المسيحية فى رودس وشجاعتهما . أمكن الدفاع بنجاح عن حدود المملكة المجرية تحت قيادة جون هنيادى John Hunyades وابنه ماتياس كورثينوس (١٤٥٨) ، وأُرغم الأتراك على قبول الهزيمة أكثر من مرة . أما سمعة فرسان الإسبتارية المقيمين فى رودس فكانت من نوع آخر — فعلى حين أن الحيار كانوا قد شقوا طريقهم — منذ وقت قصير — إلى الطليعة من تاريخ أوربا بصفتهم أكبر المدافعين برّاً عن قضية المسيحية ، فإن فرسان رودس ما يرحوا منذ أيام الحروب الصليبية منتصبين بمثابة رأس الحربة المسيحية فى أقصى الشرق ضد آسيا والإسلام . كانت رودس جزيرة صغيرة ، وكان الإسبتارية من حيث العدد والعدة أقل بكثير من مهاجمهم ؛ ومع ذلك فإنهم قد عاشوا طويلاً حتى أصبح من الطبيعى أن يعتقد الناس أنهم سيبقون أبداً الدهر . وكان تركهم يواجهون مصيرهم أمام الأتراك ، فى الوقت الذى أبدت فيه جنوة رضاها السلبى عن ذلك ، واغتبطت البندقية بذلك اغتباطاً لم تعمل على إخفائه — كان ذلك إعلاناً مدوياً للغرب بأن الأسطول التركى قد غدا صاحب السيادة فى بحر إيجه ، وأن المدينتين الإيطاليتين الكبيرتين اللتين قامتتا بنقل الصليبيين إلى فلسطين قد غيرتا الآن اتجاهاهما وانضمتا إلى العدو .

(١) أوفرسان القديس يوحنا — أهم النظم العسكرية الدينية من حيث المدى والاستمرار . يقال إنهم وجدوا قبل الحروب الصليبية ولا يزالون يوجدون حتى الوقت الحاضر .

وكذلك اهتزت أوروبا لانهباء الحجر الذى فاق أثره فى التاريخ الأوروبى سقوط رودس . ومن سوء طالع أوروبا أن البولنديين والتشيكيين والحجبار لم يستطيعوا قط أن يتفقوا على شكل راسخ من أشكال التعاون السياسى . فإن عدم توافق الأمزجة المبنى على الاختلافات اللغوية والجنسية والدينية قد ثبت دائماً أنه أقوى مما تفرضه الاعتبارات والضرورات السياسية . وقفت عوائق فى وجه اتفاق بوهيميا ، وهى أغنى هذه الممالك الثلاث وأكثرها تحضراً ، مع كل من بولندة والحجر — فوقف الدين حائلاً بينها وبين بولندة ؛ كما فصلها عن الحجر اختلاف الدين والجنس واللغة . ولما كان نبلاء بولندة وبوهيميا والحجر يعرفون كيف ينتزعون امتيازاتهم الشخصية كاملة من ملكية انتخابية ضعيفة ، فقد ترتب على ذلك أنه فى نفس الوقت الذى كان فيه حكام غرب أوروبا يدعمون قوتهم ، كانت دول شرق أوروبا تسير فى الاتجاه المضاد : نحو التفكك الإقطاعى .

وقد تميز الفصل الختامى فى قصة استقلال بوهيميا والحجر بإحدى الفرص النادرة التى لو ضاعت لن تعود أبداً . فى ربيع عام ١٤٥٨ انتخب رجلان بارزان لاعتلاء عرش بوهيميا والحجر . كان جورج بودبراد (١٤٥٨ — ٧١) نبيلاً تشيكياً كسب ثقة الأمة البوهيمية بدفاعه الناجح عن عقيدة هس^١ ضد أقلية قوية من الكاثوليك المتجرمين . وبفضل ثباته واعتداله ورغبته فى اعتبار الدين مسألة يجب على الدولة أن تتناولها بروح التسامح والتوفيق بين الآراء المتضاربة ، ونجاحه فى قمع العصيان — بفضل هذا كله تمتع بسلطان قوى لم يتمتع به حاكم بوهيمى منذ أيام شارل الرابع ، ولم يقدر لحاكم بوهيمى أن يتمتع به مرة أخرى حتى أيام مازاريك Mazaryk^(١) . وكذلك كان الشاب الذى اعتلى عرش الحجر فى نفس الوقت تقريباً يتمتع بمثل ما تتمتع به ملك بوهيميا من ميزات . فقد كان ماتياس كورفينوس (١٤٥٩ — ٩٠) — كما كان بودبراد — من طينة قومية : فهو ابن ذلك الجندى الذائع الصيت جون هُفيادى الذى طرد الأتراك من أمام أسوار بلغراد ، وقد ورث الكثير من حيوية أبيه ونشاطه ، وأضاف إلى مزايا الجندى فيه بصراً بفنون السلم ؛ وكان فاتح قينا هو أيضاً مؤسس جامعة برسبرج Prassburg وأول من أدخل على نبلاء الحجر

(١) أول رئيس لجمهورية تشيكوسلوفاكيا (من ١٩٢٠ إلى ١٩٣٥) .

المتخلفين كثيراً من مهارات إيطاليا وفنونها . ولو تم عقد تحالف وثيق بين رجلين من طراز ماتياس كورفينوس وجورج بودبراد — وكل منهما مبرز في ناحيته ومحبوب كثيراً في بلده — لكان لذلك أكبر الأثر . ولو قد تحالفت المجر مع بوهيميا في ظل هذين الحاكمين ، لكان في إسكانهما وقف غارات الأتراك وقفاً تاماً وتجنب مملكتي جنوب شرق أوروبا المسيحتين المصير الذي قدر لهما — وهو ابتلاع الإمبراطورية النمساوية لكل منهما . ورغم أن الرجلين قد ارتبطا برباط المصاهرة ، فإنهما اشتبكا في صراع مدمر كان كارثة على كلا المملكتين . هاجت المجر بوهيميا ، ثم تركت بدورها — ولا صديق لها — لتخر على ركبتين أمام الأتراك . وكان العامل الديني هو السبب في ذلك الانهيار المفاجئ الذي أصاب هاتين المملكتين اللتين كان من الواضح أنهما تسيران قدماً نحو الاستقرار والقوة . فقد وقف جورج حاكم بوهيميا مخلصاً لمواثيق مجمع بازل التي سمحت لكنيسة بوهيميا القائمة على تعاليم جون هوس باستعمال العلمانيين « للكأس » في تناول القربان المقدس . ولكن المجلس البابوي الذي لم يقر هذه المواثيق قط رأى في ذلك أمراً لا يمكن السماح به . أُعلن حرمان بودبراد في عام ١٤٦٦ ، وصممت روما على إلخاع هذا الهرطيق وإحلال ماتياس الكاثوليكي محله . واستسلم الملك المجرى للإغراء وانحاز بقواته إلى صف الكاثوليك الساخطين في بوهيميا . وفي الحرب الأهلية القاسية التي نشبت بعد ذلك في عام ١٤٦٨ صمد البطل البوهيمي ، ولكنه أرغم — بعامل الدفاع عن النفس — على أن يختار خلفاً له أميراً كاثوليكياً من الأسرة الحاكمة في بولندا . وحين توفي بودبراد في عام ١٤٧١ خلفه على العرش فلادسلاف جاجلون Vladislav Jagellon .

وكان تولى هذا البولندي ، الأجنبي عديم الكفاءة ، الذي استدعى لحكم بوهيميا والمجر على التوالي مؤذناً في كلا البلدين بانفجار نزعات الطبقة الأرستقراطية ، وقف هذا الملك البولندي عاجزاً إزاء الملاك المثيرين للقلق في هاتين المملكتين الشرقيتين — كما لو كان معلماً فرنسياً في فصل من تلاميذ الإنجليز المشاغبين . لم يكن لديه جيش ولا مال ، ولم يكن يستطيع عمل شيء دون التجاء إلى المجمع (الديات) ، وقد حيل بينه وبين إدخال أية تجديدات في المجر قصداً ، وهكذا كان مقضياً بالفشل على الكتابات الإقطاعية التي تجمعها مثل هذه الملكية أمام

المحكم الذى كان يخضع له جيش الأتراك .

ووضع ذلك كله موضع التجربة فى ساحة موهاكر (١٤٢٦) حيث دارت معركة كانت لها عواقبها الخطيرة بالنسبة إلى أوروبا . فبعد هزيمة الجيش المجرى ومقتل لويس آخر الملوك من أسرة جاجلون واستيلاء الأتراك على المنطقة كلها الممتدة حتى أبواب فيينا ، لم يبق للأرستقراطية المجرية المزهوة رفق . استولى الأتراك على الجزء الأكبر من المجر واحتفظوا به حتى أواخر القرن السابع عشر ، ووضع فردناند حاكم النمسا وصهر لويس ووريث ادعاءاته يده على الباقي منها . وكانت النتيجة المباشرة لهذا اليوم المشئوم خضوع بوهيميا والمجر هذا الدهر الطويل لأسرة الهابسبورج ، فقد استمر حتى معاهدة سان جرمان بعد الحرب العالمية الأولى . ولم يمكن نحو آثار معركة موهاكر بصورة نهائية إلا بعد أن أوقع النصر الإيطالى فى قنطريو فيتو Vittorio Veneto (١٩١٨) الانهيار بالإمبراطورية النمساوية .

حقاً لقد تفجر فى ساحة موهاكر نبع جديد أمد بالحياة الإمبراطورية الرومانية المقدسة وبيت هابسبورج . ذلك أن الدفاع عن المسيحية ضد الأتراك ، هذا الدفاع الذى كان من الممكن أن يلقى على كاهل الأمة المجرية لولا موهاكر ، قد وقع بمحض الضرورة على عاتق أرشيدوقات النمسا . وجدت هذه « الإمبراطورية المفككة » التى أقيمت على سلسلة من الزيجات الموفقة ، الأمر الذى يبرر وجودها فى نظر أوروبا المسيحية ، لأنها - وقد اختفت المجر - أصبحت الحاجز الضرورى الوحيد القوى فى وجه إمبراطورية إسلامية عظيمة متوسعة . أما أن تقوم الإمبراطورية على شتات من القوميات المختلفة ، فلم يكن مما يؤخذ عليها فى القرنين السادس عشر والسابع عشر . ولكن لما كانت إمبراطورية الهابسبورج تدين بوجودها للخطر التركى ، فإن كل مرحلة من مراحل اضمحلال القوة العثمانية كان يصحبها فقدان مبراطورية الهابسبورج قدراً مما كان لها من مكانة . وفى النهاية انهار ملك الأتراك والنمساويين على يد عدو واحد - فإن روح القومية الذى تمخضت عنه الثورة الفرنسية قد ألهم الشعوب المسيحية فى البلقان أولاً ، ثم امتد إلى الكرواتيين والتشيكيين والبولنديين ، فحطم الإمبراطورية النمساوية تحطيماً .

كتب يمكن الرجوع إليها

- Cambridge Modern History, Vol. I, chap. III; Vol. III, chap. IX.
- J. Von Hammer-Purgstall, Histoire de l'Empire Ottoman. Traduit de l'allemand par M. Dochez, 3 vols, (1840-2).
- S. Lane-Poole, Turkey, (1908).
- L. von Ranke, The Ottoman and Spanish Empires in the Sixteenth and Seventeenth Centuries. Tr. W.K. Kelly, (1843).
- F. Donney, The Grand Turke Suleyman the Magnificent, (1929).
- De La Jonquière, Histoire de l'Empire Ottoman, (1881).
- G.E. Hubbard, The Day of the Crescent, (1920).
- G. Finlay, History of Greece. Ed. H.F. Tozer, 7 vols, (1877).
- G.G. Macartney, Hungary. Nations of the Modern World, (1934).
- Sir P. Rycaut, The Present State of the Ottoman Empire, (1668).
- F. Palacky, Geschichte von Böhmen, (1844-67).
- E. Denis, Fin de l'Indépendance Bohème, 2 vols, (1890).
- H.F. Brown, Venice : A Historical Sketch of the Republic, (1893).
- Zinkeisen, Geschichte des Osmanischen Reiches, (1840-63).

الفصل الثامن

الإصلاح الدينى فى ألمانيا

عوامل الإصلاح الدينى - المعارف الجديدة - مغريات البروتستانتية - التمكن الأدبى لدى زعماء البروتستانتية - مارتن لوتر - صكوك الففران - البنود الخمسة والتسعون - الخروج على روما - شارل الخامس ومرسوم ورمز - العوامل التى ساعدت لوتر - نجاحه الجزئى - حملته على الفلاحين - زونجلي ولوتر - نجاح حركة لوتر فى إسكندنافيا وبروسيا - الصدع الذى استعصى على الرأب قبل أن يحل عام ١٥٤١ .

كان الإصلاح البروتستانى ثورة على كل من الشيوقراطية البابوية وامتيازات الإكليروس ؛ كما كان ثورة على روح الوثنية لدى شعوب البحر المتوسط . فهو من ناحية قد اتخذ شكل انتفاض للروح العلمانية على ادعاءات الإكليروس والإعفاءات التى كانوا يتمتعون بها ؛ ومن ناحية أخرى كان حركة إحياء دينى ومحاولة للعودة إلى الأساليب الأولى التى درجت عليها الكنيسة المسيحية . ويرجع حدوث الإصلاح الدينى فى الوقت الذى حدث فيه من ناحية إلى إحساس الناس بأن المساوىء المتصلة بالحكومة البابوية وبالكنيسة قد بدت إذ ذاك على جانب كبير من الخطورة ؛ كما يرجع من ناحية أخرى إلى أن الرغبة فى اصطناع شكل آخر من المسيحية أبسط وأكثر روحانية - وهى الرغبة التى استحوذت فى ذلك الوقت على عقول كثير من المتحمسين - قد ظهرت فى نفس الوقت على شهوة الأمراء العلمانيين الذين سال لعابهم على ثروة الكنيسة بعد أن لمسوا قصور مصادر دخلهم التقليدية عن الوفاء بمحاجات الدولة المتزايدة . كما أن هذا الإصلاح الدينى قد تجاوب مع مد القومية الصاعدة وأسرع خطاه تحول البابوية إلى دولة إيطالية . وكانت قد سبقته ثم تمشت معه حركة قوية من التحرر الفكرى ، بحيث إن آلاف الجداول الصغيرة المنفصلة من الشك والتقد والاحتجاج - وهى الجداول التى كانت تتجمع طيلة جيل من الزمان - قد التقت أخيراً فى نهر صاحب من الثورة . هنا اطرح الفكر العام أوضاع الماضى ، وتهاوت القيود القديمة التى كانت تكبل الفكر وتحصيل المعرفة ؛

فرجع ريوتخلن Reuchlin^(١) في ألمانيا إلى العبرية ، ورجع قالالا في إيطاليا وبوديه Budé^(٢) في فرنسا إلى لغتي العصور القديمة اللاتينية والإغريقية الأصليتين ؛ وطرأت على أوروبا روح من التنوير التقدمي المتقد تحت المعرفة التقليدية ووجهت احتقارها وسخريتها إلى المساويء والحرافات القديمة . ولم يقتصر رواد التنوير على بلد دون آخر : فكان مكيا فيللي وقالالا إيطاليين ، وفون هوتن Von Hutten^(٣) ألمانياً وزونجلي سويسرياً ، ورابليه Rabelais^(٤) فرنسيّاً ومور More إنجليزياً وإرزمس هولنديّاً . كان بعض هؤلاء من الشكاكين ؛ في حين بقي الآخر مخلصاً للكنيسة الرومانية الكاثوليكية ، وانحاز آخرون للثورة حين حل الشقاق .

ورغم أن حركة التنوير في القرن السادس عشر كانت حركة قائمة بنفسها متميزة تماماً عن الحركة البروتستانتية ، فإنها كانت من العوامل التي ساعدت على إنجاحها . فقد أضعفت عناصر التحصيل العلمي الجديد الميل التقليدي إلى تقديس الكثير من العقائد والتقاليد والعادات التي كانت سند الكنيسة الرومانية منذ زمن بعيد ؛ واستطاع الرجل العلماني أن يقرأ لنفسه بعد أن أصبح في مقدوره أن يتعلم الإغريقية ، بل العبرية أيضاً ؛ وبذلك تسنى له أن ينفذ من وراء اللغة اللاتينية ، وهي اللغة الرسمية للإكليروس الروماني ، إلى اللغتين الأصليتين اللتين كتب بهما الكتاب المقدس . فلم تعد نسخة الإنجيل المكتوبة باللاتينية منذ القرن الرابع شيئاً مقدساً ؛ إذ كانت هناك نصوص أقدم منها وأقدس يحفلها الإكليروس اللاتين ، ولكنها في متناول أولئك الذين يبحثون عن المعرفة ؛ ومن هنا لم يكن هناك بد من أن تظهر فكرة أن العلماني الفاضل يستطيع الاتصال بربه مباشرة دون وساطة من الكهان . وما لبثت تلك

(١) ١٤٥٥ - ١٥٢٢ . إنساني ألماني متخصص في الدراسات العبرية . كان طيلة رده طويل من حياته المركز الحقيقي لكل الدراسات الإغريقية والعبرية في ألمانيا .

(٢) ١٤٦٧ - ١٥٤٠ . بحاث فرنسي نال ثقة فرنسوا الأول الذي شجعه وتجاوب معه ، فتأسست كلية هي التي أصبحت فيما بعد Le Collège de France ، ومكتبة هي التي أصبحت « المكتبة الأهلية La Bibliothèque Nationale » ولقد أقنع فرنسوا بمنع الحظر على التصوير ، وهو الخطر الذي كانت جامعة السوربون قد فرضته .

(٣) ١٤٨٨ - ١٥٢٣ . إنساني ومحارب ألماني اشتهر بالسخرية والتجوال ؛ وقد أدت سلطته إلى الإيقاع به في المتاعب .

(٤) حوالي ١٤٩٥ - ١٥٥٣ . مؤلف فرنسي شهير .

الحركة أن وجدت صداها لدى أشد المشاعر حيوية وأشدّها تحللاً في أوروبا .
فمن الناس - كالمعمدين Anabaptists ^(١) في مونستر Münster - من اطرحوا
كل ما في النظام القديم من قيود أخلاقية ، ومنهم - على النقيض - من تقمصته
تلك الروح الكامنة في الرواية المسيحية التي هيمنت على حكومة كلن في جنيف ،
كما هيمنت على الجيش النموذجي ، جيش أولفر كرمويل ، وخرج منها ذلك اللون
من الحضارة الجارية وراء المال التي قامت في مستعمرة نيولانجلند وما أنجبت
من ولايات .

وفي مقابل ما كانت الكنيسة الرومانية تقدمه من جمال فني وطقوس ، كان
في مقدور المصلحين أن يقدموا للشعب شيئين كبيرين لإغرائه : أحدهما بهجة
التراتيل الكنسية ، والآخر لذة الاشتراك في صلاة تجرى بلغة يستطيع غير المتعلم
أن يفهمها . ثم إنه ليس من الضروري أن تكون تلك المحاولة للأصول إلى الرجل
العادي شيئاً سوقيّاً ؛ فكثيراً ما سميت الموسيقى واللغة إلى مستوى رفيع . وإن لإنجيل
لوثر وإنجيل تنديل Tyndale ^(٢) وكتاب صلوات كرانمر Cranmer والترجمة الفرنسية
لكتاب كلن « أصول الديانة المسيحية Christianae religionis institutio » ،
كل منها في لغتها ، لقطع رائعة من النثر الفني ، أما لوثر فيمكن القول بأن شغفه
بالموسيقى ومواهبه الفياضة ككاتب ، كانت جزءاً مهماً في تكوينه لا يقل أهمية في
حياته عن عمق معارفه وطاقاته الروحية . ولهذا يعد لوثر من واضعي دعائم اللغة
الألمانية ، لما اتصفت به كتابته من غنى وغازاة وحيوية ، وإن كانت أقل صفاء
من كتابه تنديل وكرانمر . ولأنه لأمر بالغ الأهمية لتاريخ الإصلاح البروتستانتي
أن من بين الرعيل الأول من رواده بعض الكتاب الذين أوتوا من المزاج والعبقرية

(١) اسم أطالته الأعداء على فرق مختلفة كانت تنكر قيمة تعميم الأطفال ، وهي الفرق التي
اشتهرت في ألمانيا وغيرها أثناء فترة الإصلاح الديني . ولعمد ألمانيا أهمية خاصة لأن حاسة الإصلاح
الديني قد بدت لديهم بأشكال مختلفة وبدت للناس مخالفة للقانون ، وإن يكن القصد منها غير ذلك :
إذ جوهرها التطرف في فهم وممارسة الإصلاح الديني .

(٢) حوالي ١٤٩٢ - ١٥٣٦ . متفقة في الشؤون الدينية من أهم أعماله ترجمة العهد الجديد
إلى اللغة الإنجليزية الدارجة . وقد لجأ إلى ألمانيا واستطاع أن يهرب إلى إنجلترا نسفاً من ترجمته الجديدة
للإنجيل .

ما جعل لكتاباتهم سلطاناً لا يزال يحرك الأفئدة . وإن قليلاً من فقرات من الإنجيل باللغة الإنجليزية أكثر شيوعاً على ألسنة الناس من الفصل الثالث عشر الرائع من « الرسالة الأولى إلى الكورنثيين » وهذه الترجمة في الأصل من عمل وليم تندرل الذي أحرق بتهمة الهرطقة في عام ١٥٣٧ . وقد تنقب عبثاً في آداب اللولاردز والهسبين لتجد مثل ما خطه هذا الفنان العظيم .

كان مارتين لوثر (١٤٨٣ - ١٥٤٦) ذلك الفلاح السكسوني الذي تدين له حركة الإصلاح الألماني بقيامها وصفاتها ، أحد أولئك الرجال الذين يصلون إلى مراكز الصدارة في العالم ، ليست لأنهم يمتازون بالابتكار ، ولكن لأنهم يحسنون التعبير عن أفكار وخاجات عصرهم . لم يكن لوثر متفهماً في الدين ولا كان فيلسوفاً ، وهو لم يؤمن بالبحث الحر ولا بالتسامح ، ولهذا رفض أن يسلم باحتمال التطور في الفكر الديني ، بل تمسك بكل شدة باعتقاده أن كل الحقائق المتصلة بالمشاكل القصوى للحياة والفكر كامنة في الكتاب المقدس . ومن هنا لم تستمد الحركات العقلية الحرة في الفكر الأوروبي أصولها من مارتين لوثر الذي كان لاسامياً عنيفاً . ورغم أنه قد تسبب في قيام ثورة ، إلا أنه لم يكن ثورياً ، بل عبقرياً من عباقرة الدين حصل على خبراته بنفسه ؛ وفي بحثه من الخلاص لنفسه اندفع خطوة إلى موقف جعل منه بطل الأمة الألمانية ضد ادعاءات الكنيسة الرومانية .

وإن قسماً كبيراً من قوة لوثر ليكمن في كونه ألمانياً بكل ما تعنيه هذه الكلمة من معنى ؛ فقد انعكست وتضخمت في مزاجه العاطفي كل عناصر القوة والضعف في الشخصية الألمانية ، بما فيها من رقة وعنف ، ومن إسفاف في القدر إلى ورع إنجيلي من الطراز القديم ؛ ومن موسيقى وعلم ، إلى مرح وتكشف ، وحسن إدراك ومجادلة للنفس ، ومن ندم عنيف إلى اعتداد شديد بالنفس . لم يحدث منذ أيام بربروسا^(١) أن قام في ألمانيا من مثل عصره وجنسه كهذا الراهب السكسوني

(١) حوالى ١١٢٣ - ١١٩٠ . هو فردريك الأول الإمبراطور الروماني المقدس ، وقد أطلق عليه الإيطاليون اسم بربروسا أى ذى اللحية الحمراء . قام بست حملات على إيطاليا استوعبت نشاطه لمدة ٣٠ عاماً ، كان القصد منها إخضاع شبه الجزيرة . وقد اصطدم بالبابوية ، وكان ذلك جزءاً من النضال الكبير بين البابوية والإمبراطورية . كما قام بمجهود كبيرة لتثبيت السلطة الإمبراطورية في ألمانيا . وقد اشترك في الحملة الصليبية المعروفة بالثالثة ، ومن طريقه إلى فلسطين مات غرقاً في آسيا الصغرى .

الضامر الذى مثل عصره بأسلوبه الخشن المكافح ، وبصوته الواضح المجلجل وسيطرته التى لا حد لها على الكلمات والحركات والأخيلة والمناقشات .

ومع ذلك فإنه لا ينبغي أن يتبادر إلى ذهن أحد أن الشعب الألماني الذى نشأ لوثر بين ظهرانيه كان مهياً لقبول فقه پروتستانتي أو كنيسة منشقة . ولو أن لوثر تقدم إلى الناس فى بداية الأمر بهذا أو بذلك لقبول باستنكار عام ، ولكنه لم يأت بشيء من هذا القبيل ؛ بل كل الذى فعله أنه هاجم بيع صكوك الغفران . وإن مصدر ما حصل عليه من نفوذ لا يبارى أنه — وهو الراهب الأوجسطينى — قد شن حملة على تلك المساوئ العملية المتفشية فى الكنيسة الرومانية ، التى كان كل ألماني مستقيم التفكير — مهما بلغ من عقله بروما — يعتبرها من الناحيتين الأخلاقية والدينية ما لا يمكن الدفاع عنه . وحين هاجم لوثر صكوك الغفران لم يعبر فقط عما يحول بخاطر الألمان ، بل إنه عبر كذلك عن الرأى الصائب فى داخل الكنيسة ذاتها .

كانت فكرة أن البابا قادر على إصدار صكوك غفران تجب الخطايا من كل نوع مستمدة من النظرية القائلة بأن القديس بطرس وخلفاءه قد خلعت عليهم ميزة توزيع فيض لا ينضب من الثواب على المؤمنين . وهذا الفيض من الثواب يرجع أصلاً إلى توضيحات المسيح ؛ ثم زاد على مرّ السنين بالأعمال الخيرة التى قامت بها أجيال متعاقبة من المسيحيين المؤمنين . وقد تجاوبت فكرة الثواب على أنها ليست أمراً موقوتاً ولا شخصياً ؛ بل حصيلة من الثروة الروحية يمكن ادخارها لصالح الأحياء والأموات — تجاوبت فى نفس الوقت مع الخيال الدينى والمطالب المالية للبابوات على حد سواء . وليس أنسب لخزانة مرتبكة من أن تحوز مورداً سخياً دائماً لا يبذل فيه صاحبه أى جهد ولا يساوره فى المحافظة عليه أى قلق ، ويكون قادراً باستمرار على استخدامه لتحقيق فوائد مالية . وحين أسفرت عن نفسها المغريات المالية الكامنة فى ذلك الكنز الروحي ، تبددت الأحكام الأخلاقية التى كانت ملازمة لاستخدامه أصلاً . لم يعد هناك إصرار على الاعتراف والتوبة ؛ بل أصبح من الممكن الحصول على غفران كامل من البابا يوليوس الثانى بمجرد المساهمة فى إعادة بناء كنيسة القديس بطرس . وذهب البابا ليو العاشر إلى ما هو أبعد من ذلك حين

وعد كل من خرج في حرب صليبية ضد الأتراك برحمات السماوات الباقية (وليوكان من أسرة مديتشي) قد اغتصب ما كان مفروضاً أنه من صفات الله وحده ؛ فلم يقصر دعواه على أنه قادر على التجاوز عن العقوبة على الخطيئة في الحياة ، بل إنه قادر على أن يمحو الخطيئة ذاتها .

ووصلت المهزلة مداها إبان حملة لجمع المال لبناء كنيسة القديس بطرس قادها في مقاطعتي ماينز ومجديبرج المبشر اللومباردي حنا تيتزل John Titzel .

وقد كتب أحد المعاصرين « إنه ليس من المعقول ما ذهب إليه هذا الراهب الجاهل الأحمق حين قال للناس إنهم إذا ما ساهموا عن طوعية واشتروا الثواب وصلك الغفران ، فإن كل تلال سانت أنابورج St. Annaburg ستستحيل إلى كتلة هائلة من فضة صافية وأنه ما إن سمع رنين العملة في الصندوق حتى تكون روح من دفعت الأموال من أجله في طريقها إلى الفردوس » . مثل هذه الوقاحة هي التي دفعت لوثر إلى أن يلصق على باب قلعة كنيسة وتبرج Wittenburg في ٣١ أكتوبر ١٥١٧ تلك البنود الخمسة والتسعين التي أشعلت جذوة الإصلاح الديني في ألمانيا بعد أن انتشرت في الناس بسرعة على يد مطبعة صديق له .

ولكن قبل ذلك كان لوثر قد توصل إلى المعتقدات الأساسية التي آمن بها وأهمته كل ما قام به في قابل الأيام . وقد جرب الصلاة والصوم وصنوف رياضة النفس ، فلم تجلب له راحة ولا خفت قيد أتملة من عبئه المبرح بأوزار خطاياهم . هناك تبين له ما في الإنسان من شرور حقيرة ، وما في الله من خير وضء ليس في طاقة البشر أن يصلوا إليه فتساءل : أين يجد الوسيلة لاجتياز تلك الحوة المظلمة بين الله والإنسان ؟ وترأت له بشائر الأمل خطوة خطوة : في زيارة لروما أولاً ، ولكنه ما لبث أن تراجع لما شاهده فيها من فساد متأصل ، ثم بعد ذلك في إرفرت من خلال دروس ستاوپتز Staupitz^(٢) ؛ وتوصل آخر الأمر إلى أن الإيمان هو الوسيلة

(١) أغلق لك أبواب النار وأفتح أبواب الجنة .

(٢) حوالي ١٤٦٠ - ١٥٢٤ . متفقة في الشؤون الدينية كان له تأثير على لوثر ، وإن بقى

كاثوليكيًا حتى نهاية حياته .

لعبور هذه الهوة ، فإن الإنسان إذا ما كان مؤمناً فإنه يستطيع الخلاص بالرغم مما استقر في ذاته من شرور مهلكة . أما الأعمال فلا جدوى منها ؛ فالحج والاحتفالات الدينية والهمس في المسابح وإيقاد الشموع وعبادة الخلفات الدينية لا تعدو جميعاً أن تكون عقبات في طريق الخلاص . فالإيمان هو شرط الغفران ، والغفران هو الثواب على الإيمان ، وهما معاً كل ما يهم في الحياة المظلمة للإنسان الذي قدر له مصيره . هذه الفكرة اشتقها لوثر من تعاليم أستاذه القديس أوجسطين^(١) ؛ ولكنه الآن وقد كشف عنها بعد أن كانت غائبة عن إدراك الناس ، تشبث بها إلى حد التعصب .

وما إن ركب لوثر سفينة الغفران حتى انحدرت به بعيداً وبسرعة إلى مياه صاخبة . فإذا كانت الأعمال عديمة الجدوى ، فأى قيمة لاذاً لقسم الراهب أو تعبد الكاهن ؟ وما جاء عام ١٥٢٠ حتى كان لوثر قد توصل إلى أن كل مسيحي معمد قسيس ، وأن روما هي بابل وأن البابا هو المسيح الدجال ، وأنه يجب السماح للقسس بالزواج وأن الطلاق أمر شرعى . ثم أتم لوثر خصومته مع روما حتى عزت على كل علاج برسائله الثلاث المشهورة – الأولى نداء بالألمانية وجهه إلى العلمانيين ختم فيه على تولى إصلاح الكنيسة بأنفسهم بعنوان « إلى هيئة النبلاء المسيحيين من الأمة الألمانية بصدد إصلاح العالم المسيحي » ؛ والثانية رسالة باللاتينية وجهها إلى رجال الفقه الدينى بعنوان « مقدمة عن الأسر البابلي الكنسى De Captivitate Babylonicon Ecclesiae Praeludium » ؛ والثالثة رسالة غريبة بعنوان « فيما يخص الحرية المسيحية » وجهها إلى ليو العاشر في الظاهر على أنها نداء للسلام eirenicon . وقال مخاطباً البابا بصدد هذا كله « وذلك لأنك ترى ما يسمى بهيئة الكهنوت الرومانية التى لا تستطيع أنت ولا غيرك أن تنكر أنها أفسد من بابل وسدوم . ولقد أظهرت احتقارى حقاً وانتابنى الغضب لأن الشعب المسيحي يخدع تحت ستار اسمك واسم الكنيسة المسيحية ؛ لهذا قاومت ، وسأظل أقاوم ما وجد في عرق ينبض بروح الإيمان » . وقد يعذر أى إنسان إيطالى حين لا يرى في مثل هذا التصريح أى مظهر للمصالحة –

(١) ٣٥٤ – ٤٣٠ م . هو الفقيه المسيحي الكبير الذى وضع آراؤه عن الديانة المسيحية

ودفاعه عنها في كتابه « مدينة الله Civitas Dei » .

فكان أن أصدر ليو قراراً بحرمان الثائر وأجاب الثائر (في ١٠ ديسمبر ١٥٢٠) بحرق القرار علناً .

وفي تلك الأثناء وقع الاختيار على يافع فلمنكى يبدو عليه الجدل وقد بلغ من العمر تسعة عشر ربيعاً لاعتلاء المنصب الإمبراطورى بعد إسراف بالغ في المال والتأمر ؛ فكرس الإمبراطور الجديد نفسه تَوَّاً لمعالجة هذه المشكلة الجديدة المضيئة : مشكلة التصدى لهرطيق هو بطل قوى في الوقت نفسه ، وبعد مرور وقت طويل اتهم ناپليون شارل الخامس بأنه أضاع إحدى الفرص العظيمة في التاريخ حين رفض دعوة لوثر إياه ليتزعم حركة الإصلاح في ألمانيا . ولكن كيف كان يتسنى لشارل وهو من أسرة الهابسبورج وإمبراطور للدولة الرومانية المقدسة وملك لإسبانيا الكاثوليكية المشددة في كثرلكتها — كيف يتسنى له أن يكون زعيماً لثورة ألمانية قومية ضد الكرسي البابوى ؟ لقد اجتمعت تقاليد أسرته وتقاليد منصبه الإمبراطورى وعقيدته الخاصة وتربيته والزرعة المحافظة في تفكيره والمشاعر الغالبة على رعاياه الفلمنكيين والإسبان لتجعل مثل هذا الاتجاه مستحيلاً ؛ فوجد شارل نفسه بالضرورة في وضع المدافع الشخصي عن البابوية ودرع النظام القائم .

وهكذا دعى لوثر إلى ورمز (١٥٢١) لمقابلة الإمبراطور الشاب والمثول أمام أول مجمع إمبراطورى له وسط تبليل الرأي العام وموجة من سخط الناس على البلاط الإمبراطورى . طلب إلى لوثر أن يسحب ما كان قد كتبه ولكن أجاب في كبرياء ، قواه دون شك شعور بتعصيد خارجي — أجاب بأنه طالما أخطأ بأبوات وأخطأت مجامع دينية ، وناقض الجميع أنفسهم ، فإنه لن يسحب شيئاً ما لم يكن متعارضاً مع نصوص الكتاب المقدس أو المنطق الواضح ؛ وهو في تشبته لم يخسر شيئاً . ورغم أن البابا والإمبراطور قد تحالفا (٨ مايو ١٥٢١) لاختطافه والقضاء على آرائه ، فإنه ظل لبضع سنوات أخرى معبود جانب كبير من الشعب الألماني ، خصوصاً الطبقة الوسطى العاكفة على صناعاتها في المدن . أما مرسوم ورمز ، الذي جعل منه خارجاً على القانون ، فقد كان منذ البداية قراراً أجوف .

وكانت الظروف السياسية في صالح دعاة الإصلاح . فإن الإمبراطور الذى كانت تشتت جهوده ماث المطالب وتحوله بعض الشيء عن ألمانيا : حرب فرنسا

وحاجة إلى سحق العصيان الخطير الذى قامت به المجالس المحلية — فلم يكن إطلاقاً فى وضع يمكنه من القيام بضغط متصل هو وحده الكفيل بقمع حركة اعتمدت على تأييد الطبقة الوسطى وأصحاب المطابع . ولم يكن أخوه فروناند حاكم النمسا ، الذى كان يواجه الأتراك ، بأحسن منه مركزاً للتصدي للهرطقة الألمانية . أما الفرنسيون الذين كان شارل أعنى منافسيهم وأعدائهم ، فقد اعتبروا — وهم المستمسكون بالدين « القويم » ولكنهم الحريصون فى المسائل السياسية — اعتبروا اللوثريين مستحقين لكل تشجيع : إذ هم مصدر هم دائم يقض مضجع الحكومة الإمبراطورية .

ولا تقوم الكنيسة عادة على نبى واحد — ومن هنا تدين اللوثرية بالكثير لسياسى وبحائه وجامعة . كان فردريك العاقل منتخب سكسونيا أحد أولئك الذين لا يمتازون بقوة أو بشيء من الألمعية ، ولكنهم يؤثرون فى التاريخ عن طريق ما يبثونه فى نفوس الناس من احترام وما يصطنعونه وقت الحاجة من اعتدال أبوى رحيم . كان فردريك حاكماً معتدلاً حكماً محباً للسلام فخوراً بفرقة الترانيم فى كنيسته الخاصة ، معتزلاً بصوره وقلاع وجامعة وتبرج التى هو مؤسسها ، شغوفاً برياضات دينية من الإنجيل ؛ وقد أعطى فردريك الحركة الجديدة من التشجيع ما كانت فى أشد الحاجة إليه فى المراحل الحاسمة الأولى من تاريخها . فحين أصدر كل من البابا والإمبراطور ضد لوثر قرار الحرمان ، تقدم المنتخب العجوز فحماء من أعدائه ودبر له مخبأ بعيداً عن متناول أيديهم — وفى أراضى فردريك وبتعصيد منه انصهرت أفكار المصلح الكبير المتأججة ومشاعره الملهبة لتشكل القالب الذى اتخذته الكنيسة اللوثرية .

هذا هو السياسى . أما الباحثة فكان فيليب ملانكتون Philip Melancthon ذلك الباحثة الهادئ المتعمق فى الدراسات الإغريقية الذى أمد الدين الجديد فى ديسمبر ١٥٢١ بأول كتاب أولى له فى اللاهوت وهو « كلام معاد Loci Communes » الذى كان — كما لاحظ رانكه Ranke — أول كتاب ظهر فى الكنيسة اللاتينية منذ قرون حاوياً لنظام مبنى على الإنجيل وحده ، وقد وصف لوثر علاقته بملانكتون فقال : « لقد نشأت خشناً جافاً ، عاصفاً أميل للنزال . لقد ولدت لأحارب مرده وشياطين لا عدو لهم ، لأزحزح جذوعاً وصخوراً ، وأجتث أشواكاً وأزبل غابات

برية ؛ ولكن المعلم فيليب يقف في رفق وهذوء ومرح ، متحلياً بالنعم الكثيرة التي أنعم الله بها عليه .

أما الجامعة فكانت جامعة وتبرج التي ما لبثت أن أصبحت المهده الأساسي للتعالم اللوثرية ومنافساً خطيراً للتعليم التقليدي في السوربون . وإليها جاء طلاب العلم من جميع أصقاع ألمانيا ، بحيث غدت بمثابة المعمل العظيم للأدب اللوثرى . وفي هذا المكان الصغير وجد العقل القوى لألمانيا ، وهو العقل الذى أثرت فيه مشاعر هذا العصر المحتدم وحوادثه ، وجد من يعبر عنه بلغة استطاع كل ألماني أن يفهمها ، ومنه أيضاً استمد بعض الأساتذة في جامعة كيمبرج في إيست إنجلجيا التعالم المستوحاة من الإنجيل رأساً ، وهى التعالم التي ساعدت على تحول إنجلترا إلى المذهب البروتستانتي ، وخلعت فجأة على معهد مغمور في منطقة مليئة بالمستنقعات مكان الصدارة في الحياة الفكرية عند الشعب الإنجليزى .

وبالرغم من الحماسة الشعبية الملتبهة ، فقد عجز المصلحون عن تحويل ألمانيا إلى بلد بروتستانتي . فإن الانقسامات السياسية المتأصلة التي عوقت ذلك الشعب العاصف لعدة قرون قد أثبتت أنها أقوى من موجة السخط على مساوئ البابوية التي عم انتشارها .

قبلت بعض الدول الألمانية النظام الجديد ؛ في حين بقي بعضها الآخر مخلصاً للنظام القديم . فتألفت عصبة من الدول الكاثوليكية التي ارتبطت معاً في راتسبون Ratisbon (١٥٢٤) ، كما تألفت عصبة أخرى مضادة من الدول البروتستانتية في ترجاو Torgau (١٥٢٦) ثم اتسع نطاقها في شمالكلدن Smalkalden (١٥٣١) . وقد وجدت ألمانيا السلام في نهاية الأمر ، ولكن بعد حرب دينية أخرت تطور البلاد مدى قرنين من الزمان خرجت منها الحضارات الأحدث في سكسونيا وهس وبروسيا وبراندنبرج معتنقة العقيدة اللوثرية ؛ في حين أنه — بصفة عامة — بقيت تلك الأجزاء من ألمانيا التي كانت فيما مضى جزءاً من الإمبراطورية الرومانية ، خصوصاً بافاريا والنمسا وإقليم الرين — بقيت مخلصاً للعقيدة الكاثوليكية .

وهكذا تطورت الحركة اللوثرية في بضع سنوات ؛ إذ بعد أن كانت في أساسها حركة وطنية وشعبية ، لم تعد لا وطنية ولا شعبية . اقتصرت العقيدة الجديدة على

بعض الإمارات والمدن الحرة ، واعتمدت في كل مكان على عطف الأمراء والحكومات إلى حد كبير ؛ بينما لقيت معارضة وسخطاً من جانب طبقات برمتها من المجتمع وفي دوائر فكرية كثيرة . وأعجب الإنسانيون بالنقد الذي وجه إلى الجُمُود البابوي ، ولكنهم ما لبثوا أن انزعجوا لإغراق لوثر في العنف ؛ بل إن لوثر نفسه قد تراجع عن تأييد الفلاحين الثوار (١٥٢٥) : فكتب رسالة سجلت انشقاقه عن الديمقراطية الألمانية ، وألب فيها انتقام الأمراء على الكادحين من فالحى الأرض الذين نشأ هو منهم .

ومنذ تلك اللحظة وقفت الكنيسة اللوثرية بشكل قاطع إلى جانب النظام المذنى والسلطان . كان هذا القرار من حيث المبدأ قراراً حكيماً — فإن سفينة الإصلاح كان من الممكن أن تهوى إلى قاع خضم من الفوضى . وما يشهد بحكمة لوثر أنه وقف ضد كل الحركات: التي تدعو إلى الخروج على القانون في غير مسئولية : سواء من أنبياء هاذين أو قواد جند مرتزقة متمسكين بنصوص الإنجيل ، أو معمدنين فوضويين . ولكن الطريقة التي فصل بها لوثر حركته عن ثورة الفلاحين ، وفشلته في اقتراح أسس للتوفيق والمصالحة ، وتشجيعه لإجراءات القمع التي اتصفت بالوحشية لدرجة تركت الفلاحين الألمان أكثر عجزاً وهواناً عن أية طبقة اجتماعية أخرى في وسط أوروبا أو غربيها — كانت كلها بقعاً سوداء لطخت سمعته الطيبة . لقد كان الفلاحون الألمان رجالاً غلاظ الطبع ومحاربين أفضاظاً ؛ ولكن شكواهم كانت حقيقة ومطالبهم الأصلية عادلة ومعقولة . وإن اقتران اللوثرية بإجراءات القمع التي قامت بها أرستقراطية ملاك الأراضي الذين لا تعرف قلوبهم الرحمة ، بتدنى طبقة الفلاحين ، وهى أول طبقات المجتمع بالتعصيد — كل هذا مما أدى إلى نقص فاحش في الطاقات الحيوية للحركة اللوثرية .

ولا يقل عن ذلك أهمية لمستقبل البروتستانتية الألمانية إصرارها على الانشقاق عن حركة الإصلاح الدينى في سويسرة . كان السويسريون لا يزالون أشهر جند مرتزقة في أوروبا ، ولقد أوتوا حظاً وافراً من قوة البدن ، مع تأخر في تذوق الفنون وطيبات الحياة ؛ وقد فصلتهم جبالهم عن الحركات العامة في أوروبا . ولكنهم في عام ١٥٢٢ انجرفوا لأول مرة في تيار الإصلاح الدينى ونقد العقائد والعادات . بدأت

الحركة في زيورخ ، وكانت حركة أخلاقية من ناحية وإنسانية ووطنية من ناحية أخرى ، ودينية من ناحية ثالثة - وهي ككل حركات الثورة الدينية ساورها قدر ليس بضئيل من السخط الذى يتحفز للثورة على الأوضاع والقيود القديمة المقررة التى أحاطها الناس بالاحترام . كان ألرخ زونجلى Ulrich Zwingli ديمقراطياً جمهورياً إنسانياً ، وبدأ أهل زيورخ تحت قيادته يتبينون أن من العار على من يحترم نفسه من أهل زيورخ أن يتلقى إعانة أو أجراً من دولة أجنبية . وهكذا سرعان ما أخذت خميرة الوطنية الدفينة تفعل فعلها بين مواطني هذه المدينة القائمة على شاطئ تلك البحيرة الهادئة ، فعاهدوا أنفسهم على « ألا يكونوا تبعاً لفرنسا ولا للإمبراطور ، بل يكونون مواطنين صالحين لزيورخ والاتحاد » ؛ وصاحب هذا الإصرار على أن يكونوا سويسريين بأى ثمن إصرار آخر على ألا يكونوا تابعين لروما مهما كلفهم ذلك . هاجم زونجلى الصوم فى Lent ، كما هاجم تحريم الزواج على رجال الدين وعهود الرهبنة واستعمال اللاتينية فى الصلوات الكنسية وعقيدة الوجود الحقيقى فى القربان المقدس . ولقد كان المصلح السويسرى أشد تطرفاً من لوثر وأكثر منه تنوراً وأقل منه تأثراً بأفكار العصور الوسطى . لهذا فإنه حث الخطى دون تردد نحو الانفصال التام عن روما . وما وفى عام ١٥٢٩ حتى كانت ست من المقاطعات الثلاث عشرة وبعض المدن القليلة فى جنوب ألمانيا قد أخذت جانب الإصلاح الزونجلى .

وقد ارتأى فيليب أمير هس (ولقبه الرسمى Landgrave) ، وهو أقدر الأمراء الألمان الذين انحازوا إلى لوثر ، مدى الميزات التى يحققها تحالف القوتين الألمانية والسويسرية ؛ ولو كان الساسة هم الذين تزعموا الحركتين لأمكن إتمام هذا الاتحاد . ولكن لسوء الحظ لم يكن لوثر ولا زونجلى من رجال السياسة ؛ بل كانا من رجال الدين ، وكان كل منهما شديد التشبث بالموقف الذى وقفه من قبل . وقد حاول الأمير عبثاً أن يؤثر على الفقيهين المتنافسين لكى يجتمعا فى مؤتمر فى ماربورج Marburg (١٥٢٩) . ورغم إمكان الاتفاق على كثير من النقاط الثانوية ، لم تستطع أية حجة أن تزيل الهوة التى أثارها بين المتنازعين المشكلة الرئيسية الخاصة بوجوده جسم المسيح فى القربان المقدس . قال زونجلى إن العشاء الربانى كان

احتفالاً رمزياً : أما لوثر فرغم رفضه وجهة النظر الكاثوليكية التقليدية القائلة بأن جسم المسيح ودمه قد حلا محل العناصر ، فإنه قال بأنهما قد انصهرا بهذه العناصر جميعاً كما توجد النار في الرصاص المنصهر . وحين جلس لوثر على كرسيه في المؤتمر ، كتب على المنضدة أمامه : « هذا جسدي Hoc est corpus meum » . ولم يجد بدءاً بعد ذلك من التمسك بذلك النص الواضح ، وعلى الصخرة العتيقة التي أقامتها هذه الكلمات الأربع تحطم حلم إقامة اتحاد پروتستانتي واسع ينتظم المقاطعات السويسرية ومدن جنوب ألمانيا وإمارات ألمانيا الشمالية .

وعلى ذلك لم تصب اللوثرية أى توفيق في سويسرا ، كما أرغمت على التنازل عن كثير مما أصابته أولاً من نجاح في ألمانيا . ولكنها عوضت نفسها عما فقدته باستقرارها في ممالك إسكنديناوة الشمالية التي لا تزال حتى اليوم على المذهب اللوثرى ، وهو مذهب معتدل يناسب اعتداله الملوك الإراستيين ويلأثم شتاء الشمال الطويل القاسى .

والسنوات العشرون التي أعقبت مرسوم ورمز من أشد الفترات قلقاً ودقة في تاريخ ألمانيا . ولا شك أن قوماً جادين يواجههم هذا المزاج المتنافر من الآراء المتضاربة ليسائلون أنفسهم عما إذا كان كيان الريخ الألماني سيخرج سليماً من مثل هذه الصدمة الشديدة أو عما إذا كانت الحضارة ذاتها ستغرق في طوفان من الفوضى . ولكن الأمل كان لا يزال يلح على الناس في إمكان رأب هذا الصدع ؛ فلو أن في الإمكان فقط دعوة مجمع ديني ، إذن لأمكن القضاء على مخازي الكنيسة التي يعرفها الجميع ووضع أساس يرضى كل المسيحيين الصادقين بالالتفاف حوله . ولم يكن أحد أشد إيماناً من شارل الخامس — بشعوره الطيب وضميره الحى — بضرورة إعادة السلام الدينى .

ولم يكن في وسع الإمبراطور أن يعمل الكثير مما يساعد على حل المشكلة . فقد واجهته الأعباء في إسبانيا وإفريقية وإيطاليا والأراضي المنخفضة ، وهى بالنسبة إليه كانت أشد حاجة إلى الحسم من التوفيق بين الخلافات الدينية في ألمانيا . وفى خلال تلك الفترة الحاسمة من العشرين عاماً لم يزر هذا العاهل المقل بالأعباء رعاياه الألمان أكثر من مرة واحدة (١٥٣٠) حين ترأس جلسات المجمع الإمبراطورى

في أوجزبورج Augsburg وانساق إلى رفض « إعلان للعقيدة Confessio » وضعه ملائكوتون الداعية إلى التوفيق ، وهو البيان الذى أطلق عليه اسم اعتراف أوجزبورج واعترف به منذ ذلك الوقت على أنه العرض الأصيل للعقيدة اللوثرية . وهكذا دون تدخل من جانب الدول العظمى انتشرت العقيدة اللوثرية في ألمانيا الشمالية ، واعتنقها الناس حتى في بروسيا حيث قرر ألبرت أوف براندنبرج القائد الأكبر للفرسان الألمان (١٥٢٥) أن يفرض الطابع العلماني على دوقيته وأن يحكمها باعتبارها إقطاعاً له من التاج البولندي ؛ مدخلا عليها في الوقت نفسه النظام السكسوني للطقوس الدينية وحكم الكنيسة ، ومن السهولة بمكان أن نتصور النتائج التي تترتب على ذلك العمل ؛ فإن النظام الجديد وطد أقدامه بمرور السنين والتفتت حوله مشاعر وارتباطات جديدة بحيث أصبح من الصعب القضاء عليه . وعندما عاد شارل الخامس إلى ألمانيا في عام ١٥٤١ بعد غيبة تسع سنوات وتصدى لمشكلة التوفيق من جديد ، كانت المشكلة قد أصبحت أشد تعقيداً منها في أى وقت آخر ، وذلك بسبب تلك المصالح المكتسبة التي فرضت نفسها وأصبح من المستحيل الرجوع عنها . وقد تحطمت آخر محاولات التوفيق في راتسبون . حينئذ أصبحت الفروق بين الكنيستين اللوثرية والرومانية أكثر اتساعاً وأعمق أثراً وأكثر تعدداً بحيث استعصت على العلاج .

كتب يمكن الرجوع إليها

- Cambridge Modern History, Vol. II.
- T.M. Lindsay, History of the Reformation; Vol. I, in Germany; Vol. II. in lands beyond Germany, (1905).
- B.J. Kidd, Documents Illustrative of the Continental Reformation, (1911).
- T.M. Lindsay, Luther and the German Reformation, (1900).
- The Table Talk of Martin Luther. Tr. & ed. William Hazlitt, (1848).
- Luther's Primary Works. Tr. & ed. H. Wace and C. Buchheim, (1896).
- L. von Ranke, Deutsche Geschichte in Zeitalter der Reformation. Tr. Sarah Austin, History of the Reformation in Germany, (1905).
- L. Pastor, History of the Popes. Ed. F.I. Antrobus and R.F. Kerr, (1894-1933).
- S.M. Jackson, Huldreich Zwingli, 1484-1531, (1903).
- W. Oechsli, History of Switzerland, 1499-1914. Tr. E. and C. Paul, (1922).
- E. Belfort Bax, The Peasant War in Germany, (1899).
- E. Belfort Bax, Rise and Fall of the Anabaptists, (1903).

الفصل التاسع

خروج إنجلترا على كنيسة روما

هنرى الثامن فى شبابه - الحركة الإنسانية والعقيدة الحقّة - المزاج الإنجليزى - المشكلة الاجتماعية - مكانة الملكية - عدم وجود معارضة متحدة - توماس ولىزى Thomas Wolsey - الطلاق - برلمان الإصلاح الدينى - توماس كرمويل Thomas Cromwell - حل الأديرة - قانون السيادة Act of Supremacy - الطريق الوسط الذى انتهجه هنرى - توماس كرانمر Thomas Cranmer - الخدمتان اللتان أداها للإصلاح الدينى - إدوارد السادس ومارى - أسباب إخماد الشعب عنها - شهاده عصر ماري - أعداء إنجلترا .

فى عام ١٥٠٩ بدأ هنرى الثامن أنموذجاً كاملاً لشباب من أمراء النهضة : كان يافعاً غضباً لايزيد عمره على ثمانية عشر ربيعاً ، طويلاً متورداً الوجنتين ظريفاً كجده إدوارد الرابع ، تتفجر منه حيوية دافقة ، ماهراً فى كل رياضات الرجال . اتصف بشهوة فائقة للصيد وللقمار وعشق النساء ومبارزة الفرسان ، وامتزج فيه هذا كله بتذوق لصحبة المثقفين من الرجال وبخيال داعبه - وإن لم يسترسل فيه كثيراً - لضم إحدى المقاطعات الفرنسية ووضع التاج الإمبراطورى على رأسه . وما إن اعتلى هنرى العرش حتى تزوج كاترين الأرجونية ، وهى سيدة جادة دمثة الأخلاق تكبره بست سنوات ، كانت أرملة لأخيه الأكبر آرثر الذى توفى فجأة فى لدلو Ludlow فى سن السادسة عشرة بعد زواج دام أربعة شهور . وفى عام ١٥٠٣ أصدر البابا يوليوس الثانى (١٥٠٣) فتوى أقرت الزواج من أرملة أخ متوفى ، وذلك رغم النص الرسمى للفتكوس Leviticus^(١) .

وقد أغرم الملك الشاب - عدا مفاتن البلاط والصيد - بأمرين لم يعرفا كثيراً فى الملوك الإنجليز حتى ذلك الوقت . كان هنرى مغرمًا بالبحر ، فبنى الأحواض البحرية الملكية فى وولتش Woolwich ودفنورد Deptford وأنشأ ترنيتى هاوس Trinity House ، وهى مدرسة لإعداد رجال البحر ، وأشرف بكل دقة واهتمام على بناء

(١) الجزء الثالث من العهد القديم .

أسطول ملكي ووضع أساس قوة إنجلترا في البحر . وكان أول ملك إنجليزي له أسطول بمعنى الكلمة على أحدث طراز . وحين أنزلت السفينة « پرنسس ماري » إلى البحر في عام ١٥١٩ حضر الاحتفال كل رجال البلاط ؛ أما هنري - كما أخبرنا المبعوث الفرنسي الذي اشترك في الاحتفال - فقد « سلك مسلك أهل البحر : لبس سرة البحار وسروالا مصنوعاً من قماش مذهب ، وسلسلة ذهبية نقش عليها " الله وعدلى Dieu et mon droit " وعلقت فيها صفارة كان يبعث فيها صفيراً مرتفعاً كأنه صوت النفير » . وفي هذه وفي شئون كثيرة أخرى كشف الملك الشاب عن مزاج الشعب الإنجليزي وتمشى مع روحه .

أما الأمر الثاني الذي شغف به الملك فهو المسائل الدينية التي كانت قد أصبحت - كما أصبح الاقتصاد في أيامنا - أساساً لدراسة السياسة . قرأ فلسفة توما الأكويني^(١) وناقشها ؛ بل إنه كتب بحثاً نشر في عام ١٥٢١ ردّاً على لوثر كان من نتيجته أن أنعم عليه البابا ليو العاشر بلقب حامي العقيدة Fedei Defensor . وكلما تقدمت به السن وازداد اهتمامه بنفسه نما شعوره بالثقة في عقيدته إلى حد أن أصبح يعد نفسه في كل المسائل العليا الخاصة بالعقائد الدينية القاضي الفرد الذي لا ضرورة لغيره ، الوثيق الصلة بغايات الله وموضع سره . كانت وجهات نظره متمشية مع البابوية ؛ وفي كثير من المسائل الأساسية كالقداس أو تحريم الزواج على رجال الدين كان شديد التمسك بالعقيدة التقليدية . وحين اشتبك في حرب خارجية لأول مرة كان هدفه نصره البابا يوليوس الثاني ضد لويس الثاني عشر ملك فرنسا ، وأحرز نصراً في معركة سپرز Spurs ثم نصراً آخر أشهر في فلودن فيلد Flodden Field - وهما الانتصاران اللذان أعادا لإنجلترا سمعتها كدولة مهيبة الجانب في أوروبا ، بالرغم من أن أهميتهما لم تبق قائمة .

أما الشعب الإنجليزي فكان - على عكس ملكه ، وعلى عكس الشعب الإسكتلندي - غير مهال للبحوث الدينية . وقليل من البلاد من تأثر - كإنجلترا - هذا التأثير الطفيف بالهرطقة أو عرف عنه مثل هذا الإخلاص لروما . وكانت حركة

(١) ١٢٢٥ - ١٢٧٤ . شيخ الفلاسفة المدرسين المسيحيين . وكان أتباعه يقولون بالقدرية والإلهام الخصى وينكرون عقيدة أن مريم ولدت خالية من كل خطيئة .

اللوردز استثناء قريب العهد ، ولكنها كانت حين اعتلى هنرى العرش قد فقدت تأثيرها على الجامعات وأهل الريف وغدت عقيدة حفنة مبعثرة من الرجال المغمورين رقيق الحال الذين كانوا يمتنون حرفاً متواضعة في بعض أزقة لندن أو يحرقون الشجر لصنع الفحم في غابات الساحل في تشلترنز Chilterns . ولم يُبد البارونات أو أهل الريف في إنجلترا كبير اهتمام بالمسائل الكبرى التي دار حولها الجدل وكانت تشغل اهتمام الناس في القارة الأوروبية ، كالمسائل المتعلقة بالقدرية أو التبرير بالإيمان . وكان الرجل الإنجليزي العادى يكن في قرارة نفسه ولاء غريزياً للأموال المتواضع عليها وخاصة القداوس والطقوس الكاثوليكية . أما في الجامعات ، حيث كان يتلقى موظفو الدولة تعليمهم - وبالأخص في جامعة كيمبردج - فقد ظهرت حركة دينية سببها الاتصال بالوثنيين وكتاباتهم . ولكن هذه الآراء التجديدية كانت في أوائل عهد هنرى الثامن مقصورة على صفوة من أهل الفكر الأكاديمي .

ورغم أن الشعب الإنجليزي يغلب عليه طابع المحافظة ، فإنه كان أيضاً بصفة عامة لا يميل إلى رجال الدين ؛ ويصدق هذا بصفة خاصة على العلمانيين في لندن والمدن التجارية . وكانت الطبقة التجارية قد بدأت تتحدى الأسس التي تعتمد عليها الكنيسة الإنجليزية العتيقة الغنية واسعة السلطان ؛ وكان الجبليلون^(١) Ghibellines الإنجليز يحقدون على ما يتمتع به القسس من امتيازات وما يحوزون من أملاك . كان يسوؤهم أن يعنى رجال الدين من التشريع الجنائى الذى يخضع له أفراد الناس في الوقت الذى يخضع فيه الناس لتشريع الكنيسة الجنائى . وتساءلوا : لماذا يفلت سافك الدماء فعلا من العقوبة إذا استطاع أن ينشد مقطوعة من المزامير واستحق بذلك أن يكون رجل دين ؛ وأى حق يحول محكمة الأسقف الحكم على رجل علمانى بالحرقة بتهمة الهرطقة دون أى تدخل أو مانع من جانب السلطة المدنية ؟ هذه وشكاوى أخرى ، وإن كانت قد لقيت بعض العناية في التشريع في عام ١٥١٢ ، هي التي كانت موضع النقد والتجريح الشديد في البرلمان الذي انعقد في عام ١٥١٥ .

وهناك سبب مشهور ، لم يمت عنه اللثام تماماً حتى اليوم ، هو الذى أشعل

(١) أنصار الإمبراطورية أثناء فضاها مع البابوية في العصور الوسطى .

نار الجدل . فقد وجد عثمان رتشارد "هن" Richard Hunne ، وهو تاجر وترزى ثرى جواد ، مشنوقاً ومعلقاً فى قصر أسقف لندن . أما الإكليروس فكانت لهم وجهة نظر أخرى . فعلى حين كان الناس فى لندن مصممين على تصديق كل ما هو مشين فى حق القسس ، أصرت محكمة الأسقف المنعقدة فوق جثمان الرجل على أن التاجر كان زنديقاً لم يتب عن زندقته وأنه أقدم على قتل نفسه ؛ ولهذا أحرق جسده وأعلنت مصادرة أملاكه وضمها إلى التاج . واشترك الجميع فى مناقشة هذه القضية ، ووسط خضم من التهم المتراشقة التى أثارها موت هن" ، أثرت كل القضايا الأساسية المتعلقة بالكنيسة والدولة وأضحت مداراً للنقاش . ولم يوقف هذا النزاع الحاد الذى كان يندب بعواقب خطيرة إلا الإقدام على حل البرلمان .

ورغم أن اتجاه الرأى العام كان فى معظمه علمانياً لا يميل إلى الإكليروس ، فإنه لم يكن ثورياً . ولم تلهب حركة الإصلاح الدينى فى إنجلترا تلك المارة الاجتماعية بين الطبقات التى أشعلت ثورة الفلاحين فى ألمانيا . حقاً لقد كان ثمة أشياء معينة لم يستطع الشعب الإنجليزى قبولها . منها الضرائب الفادحة ، ومنها الحرب مع الأراضى المنخفضة التى كان من شأنها أن تقضى على تجارة الصوف . ثم جاء الاضطراب بخصوص « القرض الودى The Amicable Loan ^(١) » فى عام ١٥٢٣ ، والسخط الحديد المنذر بالشر من جانب الرأى العام فى عام ١٥٢٨ حين فكر هنرى فى الدخول فى حرب مع شارل الخامس - فكانت هذه الأحداث نذراً أوضحت للعاهل الثاقب الفكر حدود سلطته . ولكن طالما كانت جيوب ملاك الأراضى ومربى الأغنام وتجار الأقمشة منتفخة بعيدة عن متناول الحكومة ، لم يكن هناك خطر كبير على سلطة الملك . حقاً كانت توجد مشكلة اجتماعية خطيرة من وراء كل ثورة شعبية فى هذا العصر ؛ فقد زاد اعتبار الأرض سلعة ينظر إليها من زاوية تجارية ؛ ونتيجة للتقدم المستمر فى تجارة الأقمشة التى كانت أولى صناعات إنجلترا ، غدت الأغنام أكثر جلباً للربح من الحبوب ، وغدا استغلال أرض المراعى أكثر فائدة من زراعتها

(١) احتدم البرلمان فى عامى ١٥٢٢ و ١٥٢٣ حين طلبت الحكومة منه مبالغ وافرة لى تنفق منها على الحرب مع فرنسا - بما ترتب عليه عدم دعوته حتى نهاية حياة ولزى . حيثئذ لجأ الملك إلى « المنح وأهبات الجبرية » ، وطلب فى عام ١٥٢٥ « قرضاً ودياً » قيمته سدس دخل كل فرد . وثار الرأى العام ضد هذا القرض وكاد ينشب العصيان .

بمقدار النصف ، وتفتحت شهوة ملاك الأراضي والمضاربين في الأرض من سكان المدن ، وأصبح من الممكن جنى مكاسب ضخمة من الأرض بوسائل متعددة : كتركيز الممتلكات العقارية أو تسوير الأرض العامة بقصد استغلالها في الزراعة أو الرعى أو تحويل أراضي الفلاحة إلى مراعى للأغنام . هذه الخطط كانت معروفة في القرن الخامس عشر ، أى أنها لم تكن بدعاً على أى حال . ولكنها طبقت في القرن السادس عشر على نطاق واسع أثار ضيقاً وفزعاً ونقاشاً . فما مصير المزارع الذى حرم أرضه ؟ وما مصير عمال الحرثة الكثيرين ، وقد استبدل بهم في الحقل راع واحد ، وما مصير الفلاحين الذين كانوا يزرعون بالمشاع ، فانتزع منهم مورد رزقهم بتسوير الأرض وربط ملكيتها ؟ إن هذه المشكلة الاجتماعية هى مشكلة طبقة ريفية فقدت أملاكها وبيوت خربت وقرى هجرها أهلها ومتشردين يزرعون الطرقات ويهاجرون إلى المدينة زرافات ووحداناً — أصبحت هذه المشكلة خطيرة في حد ذاتها ، وزادها خطورة ارتباطها بسياسة الكنيسة التى جعلت من كل قس كاثوليكي متحمس مرشحاً ليكون قائداً للثورة ودفعت بالرهبان إلى سوق العمل ، وحطمت أجهزة العصور الوسطى التى كانت تقدم المعونات للفقراء .

وقد يكون هذا الداء أخطر في الخيال منه في واقع الأمر . وقد تكون النتائج الاقتصادية التى تمخضت عن تسوير الأرض قد بالغ فيها الكتاب المعاصرون . ومع ذلك فما لا شك فيه أن الهدوء الذى اتصفت به الحياة الريفية الإنجليزية منذ القديم قد اضطرب الآن ، وأن شعوراً جديداً بالقلق قد انتشر على نطاق واسع جداً بين فقراء الريف . كما يحدث عادة في فترات الاضطراب الاقتصادي ، كان الأغنياء يزدادون غنى والفقراء يزدادون فقراً . وكانت المصالح المكتسبة من القوة بحيث كانت تستطيع أن تعرقل محاولات الإصلاح التى تقوم بها الحكومة .

ويلاحظ أنه رغم كل هذه العوامل المحركة للسخط التى يمكن أن يضاف إليها الارتفاع المطرد في أثمان ضرورات الحياة ، لم تؤد القلاقل الشعبية إطلاقاً إلى زعزعة مركز حكومة التيودور بشكل خطير . فقد كان باستطاعتها في كل مناسبة أن تقمع العصيان بغير مشقة كبيرة ودون أن يكون لديها جيش ثابت أو بوليس نظامي (وإن كانت قد لجأت في عام ١٥٤٩ إلى استخدام قوة طارئة من المرتزقة الأجانب الذين

تصادف وجودهم حينئذ بالبلاد) . ويرجع ذلك إلى ثلاثة عوامل رئيسية : فمن ناحية كانت الثورات إقليمية لم يتصل بعضها ببعض الآخر ؛ ومن ناحية أخرى كان النبلاء وكبار الملاك بمنأى عن الفقراء ؛ كما أن احترام التاج والأسرة المالكة كان في الطليعة من المشاعر السياسية لدى الشعب — فإن روح الطاعة السياسية قد ازداد عمقاً في ضمير الأمة نتيجة للحرب الأسرية التي كانت لا تزال قائمة عالقة في الأذهان والتي انتهت على ساحة بسورث Bosworth Field .

وقفت ملكية التيودور حائلاً دون تجدد الصراع الأهلي في البلاد . وقد وضعت نصب عينيها المحافظة على السلام والنظام وتطبيق العدالة وكسر غارب الطبقة الأرستقراطية وحماية الفقراء وتشجيع التجارة . وقد نجت الأسرة من أخطار تولى حاكم قاصر تحت الوصاية ، وفشلت محاولة لنقض النظام المقرر لتولى العرش حين دعت ليدي جين جراي Jane Grey إلى الحكم بحركة من أكثر حركات التاريخ الإنجليزي تلقائية وأشدها مضاء . ورغم أن العرش الإنجليزي لم تحتله امرأة منذ عهد ماتلدا Matilda^(١) فقد كان يكفي لمازى ولأختها إليزابث من بعدها أن تكونا ابنتي ملك من ملوك التيودور . ولم تكن مباشرة الحقوق السياسية هي المثل الأعلى لدى إنجليز ذلك العصر ؛ وانصرف همهم إلى أن تبقى أسرة التيودور حاكمة . وكان الولاء للملكية من القوة بحيث إن شكسبير استطاع أن يكتب مسرحية « الملك يوحنا King John » دون أن يذكر « العهد الأعظم Magna Carta » . والحق أن الملكية قد بلغت من القوة حداً مكنها — رغم أعمال الإجرام والفسوة التي اقترفها هنري الثامن — أن تحتاز بالبلاد هذه الفترة الحرجة من تاريخها وقد جنبتها ويلات حرب دينية .

وقد قنع هنري ملدى أربعة عشر عاماً (١٥١٥ — ١٥٢٩) بأن يترك الحكم الفعلي في البلاد في يد توماس ولزى . ومن سخرية الأقدار في تاريخ حياة ذلك الرجل الخارق للعادة أنه ، على حين ارتبطت كل أطماعه بالبابوية ، لم يفقه أحد في العمل على تمهيد الطريق لقيام دولة إراستية . ولقد سعى ليضع نفسه مكان البابا في إنجلترا بمثابة مندوب فوق العادة (Legatus a Latere) وليجمع في يديه كل مقاليد

(١) من ١١٠٢ إلى ١١٦٧ .

السلطة الكنسية ، وبذلك أبطل ولزى دستور الكنيسة الإنجليزية الذى يرجع إلى أيام العصور الوسطى ، وعلى هنرى كيف يكون سيداً فى بلاده . وظل ولزى حتى آخر عمره لا ينفك طامحاً إلى منصب البابوية ؛ ومع ذلك فلا أحد - حتى اللوثرين - قد فاق هذا الكاردينال فى بثه فى نفوس الناس مثل هذه الأنفة الشديدة من الخضوع للقوانين الأجنبية التى كانت تسنها البابوية ، رغم أنه بفضل المراسيم التى حصل عليها من بابوات متوالين قد ابتدع لنفسه لوناً جديداً - ومكروهاً - من الطغيان الكنسى فى إنجلترا .

قيل إن ولزى كان مصلحاً محافظاً عظيماً كان بوسعه - لولا حادثة أرسلها القدر - أن ينقذ الكنيسة الكاثوليكية فى إنجلترا . قام حقاً ببعض الإصلاحات الجزئية : كحل الأديرة الصغيرة واستغلال أوقافها فى إنشاء كليات فى أكسفورد وإيسوتش Ipswich . ويبدو أنه كان قد أزمع القيام بإصلاحات أخرى مثل إنشاء ثلاث عشرة أبروشية جديدة .

ولكن قد يتطرق الشك فى أن هذا الرجل كان فى قرارة نفسه مصلحاً ، هذا الرجل الذى اجتمعت فى شخصه تقريباً كل نقيصة قد توجه إلى الكنيسة الكاثوليكية فى القرن السادس عشر والذى كان شغوفاً بجمع المناصب المتعددة ، منحلاً فى أخلاقه الخاصة ومهملاً لمهام منصبه الرعوى بشكل مزرر (أى رعاية أبناء كنيسته) . فقد كان السلطان ، وليس الإصلاح ، هو العاطفة الرئيسية المتقدة بين جنبى هذا الرجل ، ابن الكلاف فى إيسوتش الذى جمع فى شخصه مناصب كبير قضاة إنجلترا وكبير أساقفة بورك وأسقف باث Bath وولز Wells ودرهام وونشستر على التوالى ، ورئيس دير سانت ألبانز St. Albans ونائب البابا ؛ وبالإضافة إلى ذلك كان « ملتزماً » لإيراد ثلاث أبروشيات خاصة ببعض الأجانب غير المقيمين بها . فكون رجل على مثل هذا الطرار يبدأ حركة الإصلاح ليس إلا نذيراً بما يجتبه المستقبل ..

كان ولزى آخر الساسة العظام من رجال الدين الذين حكموا إنجلترا ، ومن بعده أخذ العلمانيون الأمر بين أيديهم . ولكنه خلال السنوات الأربع عشرة التى

تألق فيها نجمه كان — بإذن من الملك — حاكم إنجلترا الفرد ؛ لا يحد من نفوذه زملاء ولا برلمانات ولا مجامع دينية . كبح جناح النبلاء في محكمة غرفة النجم ، وحد من سلطات المحاكم الكهنوتية بحكم كونه كبيراً للقضاة ، وفي رياسته لمحكمة الشكاوى جعل العدالة في متناول الفقراء بثمن بخس . وقع الملك بترك مهمة الحكم الشاقة في يد مثل هذا التاج الكفء الدموب على العمل الخاضع لشخصه .

ولزى — كرئيس للكنيسة — لم يكن إنجليزياً ، بل كان أوروبياً . فإنه كان يستمد من روما سلطاته الدينية ؛ وكانت روما محط آماله الكبرى ، ومن هنا لم يكن يستطيع أن يغض الطرف عن مصير البابا . وبصفته سياسياً إنجليزياً وكاردينالاً كاثوليكياً في نفس الوقت ، وطد العزم على أن يحول دون استبعاد الفرنسيين للبابا . ولو حدث ووطدت فرنسا — غريمة إنجلترا القديمة — أقدامها في ميلان ، فإن الزمن كفيل باعتلاء أحد الفرنسيين كرسي البابوية وقيام مجمع للكرادلة من الفرنسيين وتوجيه فرنسا للسياسة البابوية — ومعنى ذلك وقوع البابوية في أسر أفينونى جديد لا يقل في خطورته عن الأسر الأول ؛ وحينئذ تصبح البابوية بعيدة عن متناول ولزى بعد القمر في كبد السماء .

لهذا قرر ولزى أن تلعب إنجلترا دورها كاملاً ، وبشكل براق وحاسم ، في الصراع الكبير الدائر في القارة الأوروبية بين شارل وفرنسا ، وأن تفيد من كلا الطرفين المتنازعين . ولكن عندما يجد الجدد ، تنضم إنجلترا إلى جانب الإمبراطور ضد فرنسا ، وبذلك يطبق اسم ملك إنجلترا العظيم آفاق أوروبا ويدرك الأجانب أن حكومة إنجلترا قوة يجب أن تحسب الدول حسابها فتسعى إلى تألفها وتقدم لها الرشى . ولم يدخر ولزى جهداً في الإعلان عن عظمة سيده وقوته ، ولهذا كرس كثيراً من المال والجهد في هذا السباق الدولي الكبير . وقد يتساءل المرء عن الفائدة التي تجنيها إنجلترا من هذا كله . فقد كانت قوة الدولتين القاريتين متوازنة تماماً ، وكان من قبيل الوهم الاعتقاد بأن إنجلترا التي لم يكن باستطاعتها الاحتفاظ بجيش في القارة لمدة تزيد على ثلاثة شهور متوالية — قادرة على أن تؤثر تأثيراً فعالاً في التوازن الأوربي أو تحطم تماسك الملكية الفرنسية . أضف إلى ذلك أنه مُقدر للأحداث أن

تثبت أن الخطر الحقيقي على حرية البابا لن يأتي من فرنسا ، بل من إسبانيا . فبعد أسر قوات شارل الخامس لفرانسوا الأول في باثيا نهبت روما ، وبعد عامين (١٥٢٩) وقعت معاهدة برشونة التي أخضعت البابا كليمنت تماماً لإرادة شارل الخامس . وفي تلك الأثناء أجرى الانتخاب مرتين لمنصب البابوية . ورغم الوعد القاطع الذي بذله الإمبراطور ، ولم يتول ولزى منصب البابوية . وما جاء عام ١٥٢٩ حتى كانت خبرات الكاردينال الدبلوماسية قد اكتملت - فإن تجار الصوف لم يكونوا ليسمحوا له - وقد حاول ذلك بالفعل - بتحدى الإمبراطور ؛ فبقى الإمبراطور مسيطراً على السياسة البابوية . ومن هنا فإنه بصفته حبراً متطلعاً إلى اعتلاء الكرسي البابوي ، كان قد راهن على الجواد الخاسر ؛ وبصفته رئيساً لوزراء إنجلترا يعنى بشئون التجارة ، لم يكن بوسعهم أن يؤيد شخصاً آخر غير الإمبراطور . ومع ذلك فلم يكن ثمة سبب قاهر يرغمه على تأييد أحد الطرفين . وعندما سقط الكاردينال العظيم ، جول سيده - وقد كان أحرص منه - اهتمامه عن القارة ، وكرس اهتمامه لميدان آخر كان أولى بالاهتمام وأدعى إلى توقع النجاح . وهو توسيع سلطته في داخل الجزائر البريطانية . ولكن هنري لم يصب نجاحاً تاماً إلا في ويلز . على أن انتصار الإسبان في إيطاليا ، ذلك الانتصار الذي توجَّ بمعاهدة برشونة - قد تمخض عنه سقوط ولزى وتأسيس الكنيسة الأنجليكانية (الإنجليز) .

أنجبت كاترين هنري بنتاً عمدت باسم ماري ، ولكنها لم تنجب له ابناً ذكراً . وقد حملت المرة تلو الأخرى لتلد له أطفالاً إما ماتوا أجنة أو ماتوا بعد ولادتهم بوقت قصير ، مما أورث الملك المتحرق إلى وريث ذكر (ووراء ذلك أسباب سياسية وحيية) اعتقاداً جازماً بأن ثمة لعنة متسلطة على زواجه . ومن يدري - لعل فتوى يوليوس التي كانت باطلة من الوجهة الفنية... لعل البابا لا يملك الإفتاء في مثل هذه المسألة . وكلما أمعن الملك في التفكير ازداد اقتناعاً بأنه لا زال أعزب ، ومسيحياً أعزب أسىء التصرف في شؤنه ، وأنه يجب تسخير الجهاز البابوي العادي في تنحية كاترين عن طريقه . ولم يكن يساوره شك في أن ذلك أمر ممكن - وفي الحق أنه حدث في محيط أسرته منذ وقت قصير . فإن صهره سفولك كان قد طلق زوجته ، وكذلك طلقت أخته مارجريت زوجها ، وتزوج الاثنان من جديد طبقاً

لنفوتى أصدرها كليمنت السابع الذى كان مطوعاً . وبعد عام ١٥٢٧ ازدادت
لحفة هنرى لأن يسدى إليه البابا هذا الجميل . إذ كان قد وقع فى حب آن بولين
Anne Boleyn ، وعزم على أن يحقق رغبة هذه الشابة الجميلة المتقلبة فيتخذها زوجة
شرعية له (١) .

وكانت إسبانيا هى العقبة التى تعترض تحقيق هذه الأمنية . ولو لم يكن البابا
أميراً إيطالياً ضعيفاً تهيم عليه إسبانيا ، لربما تم إلغاء زواج كاترين دون أن تترتب
عليه نتائج ما . ولكن كليمنت كان مسلوب الإرادة ؛ فرغم أن ولزى حذره من أن
ولاء إنجلترا لكنيسة روما قد أضحى بأسره فى الميزان ، فإنه كان عاجزاً عن تحدى
ذلك الرجل الذى انتهكت قواته قداسة ضريح القديس بطرس وجعلت من قصر
الفاتيكان إسطنبولاً خروها . وإزاء الضغط الملح من جانب كل من الملك والإمبراطور
نظر البابا المنحوس يمنة ويسرة عله يجد مخرجاً : انتحل أعذاراً للتأجيل ، واقترح
حلاً وراء آخر (بل وصل به الأمر إلى اقتراح الجمع بين زوجتين) ؛ ولكنه وافق
فى آخر الأمر على إنشاء محكمة تنوب عنه فى لندن يرأسها الكاردينال ولزى وكامبيجيو
Campeggio ، وبدأ أنها قد تستطيع اتخاذ قرار نهائى . وواجه هنرى وكاترين هذه
المحكمة وأدلى كل منهما فيها بحججه ، كما أبيح حضورها لدهماء لندن — وهم على
فظاظتهم لم يتجردوا من الإنسانية أو العدالة — وأتيح لهم بذلك أن يشهدوا جانباً من
المأساة الكبرى التى حركت خيال شكسبير . ولكن لا مشاعر أهل لندن ولا دفاع
الطرفين عن وجهات نظرهما ولا الشعور العام القوى فى صالح الملكة التى أهينت
فى كرامتها ، ولا الكراهية الشديدة الموجهة إلى المرأة الشابة التى كان مقدراً لها أن
تخلفها — لم يكن لشيء من هذا أثره . كانت إسبانيا تسيطر تماماً على إيطاليا ،
وفجأة فعل الضغط الإسباني فعله ، فأحيلت قضية الملك إلى روما .

وكانت الحوادث التى تلت ذلك دلالة كبرى . ذلك أن هنرى اصطنع خطة
تدل على الحنكة السياسية الفائقة : فقد دعا البرلمان إلى مساندته فى نضاله مع
الكرسى البابوى . وبعدها أن كان قد نجح فى حكم إنجلترا بدون برلمان (باستثناء

(١) ترجع رغبة هنرى فى طلاق كاترين إلى عام ١٥١٤ .

فترة واحدة قصيرة الأجل) ، فإنه دعا الآن اللوردات والعموم إلى وستمنستر واستبقى دورة انعقادهم سبع سنوات ؛ وأصدر عن طريقهم اللوائح التي اقتضاها استقلال الكنيسة الإنجليزية عن روما وإخضاعها للتاج . قيل أحياناً إن مجلس العموم المنعقد في عام ١٥٢٩ كان معبأ ؛ ولكن ليس ثمة ما يدل على ذلك . قد يتوقع هنرى — وله الحق في ذلك — من مجلس مكوّن من ملاك الأراضي ومندوبى المدن ، أن لا يتقاعس عن مساعدته في تحطيم الروابط المالية والقانونية التي كانت تربط إنجلترا بسلطة روحية أجنبية . ولو أنه طالبهم بإبطال القداس لما أطاعوه مثل هذه الطاعة . ولو أنه من أتباع لوثر (كما كان الشائع بوجه عام عن آن بولين) لما استطاع التغلب على ما كان يواجهه من صعاب . ولكن هنرى كان في عقيدته الأساسية من أكبر عُمد الكنيسة القديمة ، واستمسك هنرى بالعقيدة الكاثوليكية كان لا يقل أهمية عن الجراءة الثورية التي دفعته — في نطاق العلاقات الدستورية — إلى تحدى البابا والإمبراطور ، ولو أدى إلى أسوأ النتائج . وقد نجح الإصلاح البروتستانتي في إنجلترا لأنه تم على مراحل (جانبية) ، ولأن التعديل الأول — أو الدستورى — قدم للناس باعتباره رجوعاً إلى الأيام الخوالي حين كان الملوك حقاً هم سادة الكنيسة الإنجليزية . وفي هذا أيضاً أبدى هنرى روح الدهاء المعروفة عنه ؛ إذ لا شيء يقنع الإنجليزي بقبول تغيير أساسى لمن الاعتقاد بأن مثل هذا التغيير يتمشى في الواقع وزرعة المحافظة .

أما المكان الذى شغل بسقوط وازى فقد شغل جانباً منه رجل علمانى كان قد تدرب في خدمة الكاردينال حيث تعلم أن وسيلة الخطوة لدى الملك هي المضاء والكذب والخضوع . نظر توماس كرمويل إلى العالم بعين مغامر صلب كان قد حارب في إيطاليا وقرأ « أمير » مكيافيللى وشعر بأن تيار الأحداث يتجه نحو تجريد السياسة من الطابع الدينى . ولن تجد بين البارزين في إنجلترا في ذلك الوقت من كان أقل تأثراً منه بالنزعات الدينية أو أقل استجابة لنداءات العاطفة والتاريخ أو العقيدة والتقوى — وهى كلها عوامل من شأنها أن تحرك قلوب المتدينين . أخذ على عاتقه مهمة تجريد الإكليروس من ممتلكاتهم واقتلاع جذور الرهبان بتلك الروح التي يتصرف بها محام جامد العواطف لا وازع عنده في مسألة دقيقة معقدة من مسائل

العمل لحساب عميل سيئ السمعة وإن يكن ذا اعتبار .

وكانت المهمة الكبرى التي تواجه كرمويل — وتلى في الأهمية تدبير أمره مع برلمان الإصلاح الديني — هي حل الأديرة . كان كرمويل قد وعد الملك بأن يجعله أغنى عواهل أوروبا . ورغم أن كثيراً من المؤسسات الدينية كانت مثقلة بالديون بشكل خطير ، فقد كان لا يزال ثمة محصول واغر دائية قطوفه لمن يشاء أن يجنيه . وكان ثمة أسباب أخرى تدعو إلى تضمين التهجم على المؤسسات الدينية في خطة العمل ضد البابوية . فالرهبان والراهبات كانوا حصن البابوية ، وكانوا في أغلب الأحيان يتمتعون بالإعفاء من إشراف الأساقفة ؛ كما أنهم كانوا يخضعون لرياسة أجنبية . وطالما سمح لهم بذلك ، كان من المتوقع أن يتحول كل دير في البلاد للرهبان أو الراهبات إلى معهد تشع منه الحماسة والدعاية للقضية الكاثوليكية . يضاف إلى ذلك أنه لم تكن ثمة وسيلة لاستمالة طوائف الملاك في البلاد وربطهم بعجلة الإصلاح الديني خيراً من الإسراف في أن توزع عليهم الأراضي الواسعة التي كانت ملكاً للأديرة . ولا يمكننا أن نجزم بأن ذلك التوزيع كان جزءاً من خطة موضوعة ؛ ولكن من الثابت أن شهوة ملاك الأراضي المجاورة لأراضي الأديرة قد جعلته أمراً محتوماً . وما إن استحوذت الدولة على ثروة الأديرة حتى أغدقتها بسخاء على ملاك البلاد ونبلأها المتلهفين على زيادة ثروتهم — ومن ثم غدت أقوى طبقة في إنجلترا ذات مصلحة مكثبة في حركة الإصلاح البروتستانتي . وسواء أكان ذلك جزءاً من خطة موضوعة أم لم يكن ، فإنه كان أحكم الضربات التي صوبها هنري إلى البابوية أثناء نضاله معها .

وأضنى لون من الاحترام المزيف على ذلك الإجراء ، ولولا ذلك لبدا عملا سافراً من أعمال السلب ، وذلك بحرص تقارير عمال كرمويل على إظهار مدى الفساد الخلق المتغلغل في تلك الأديرة .

والحق أن الفساد الخلق كان فاشياً ؛ وتشير إلى ذلك مصادر أخرى أقل من تلك التقارير عرضة للشك . ولكن الرذيلة المستشرية حينذاك في تلك الأديرة لم تكن في الواقع كل ما يؤخذ على نظام الأديرة ؛ فإن الرذيلة كانت متوطنة فيها من قديم — بل إن ما أخذ عليها هي أنها غدت عديمة النفع ، وهذا أمر جديد . كانت

الأديرة قد استنفدت أغراضها حين انقطعت عن مهام العلم والتدريس والتسجيل والتنوير ، وبدا أنها فقدت عنصرى الإلهام والابتكار . وكان بإمكانها — على أحسن الفروض — أن تدعى أنها تقدم الفرصة للاسترخاء البريء المتأمل ، وعلى أسوأها أنها تتصدى لإصلاح المتبلدين والجرمين . ولو أنها كرست ثروتها للتعليم لقدر للمستوى الفكرى والأخلاقي العام فى البلاد أن يسمو لدرجة عظيمة ، وإن أدى ذلك إلى تقليل فرص نجاح حركة الإصلاح ، ولما قدر للأسرات الكبيرة كآل سسل وآل كافندش أن يجمعوا ثرواتهم الطائلة ، ولما استطاع توماس كرمويل أن يصبح مليونيراً قبل أن يساق إلى المشنقة .

وبسرعة جارفة نفذت هذه التغييرات الضخمة التى أحست بها كل قرية . ولم يشهد تاريخ إنجلترا حكومة فاقت حكومة هنرى فى تصميمها على السير فى طريقها أو فى طابع الطغيان الذى اتسمت به أساليبها . وما إن افتتح برلمان السنوات السبع حتى تملك الرعب الكهنوتيين والعلمانيين على السواء ، حين علموا بأنهم — بتجاهلهم للجنة وازى الكنسية العليا — قد عرضوا أنفسهم للعقوبات القاسية التى كانت توقع على من يتهمون بتنفيذ التشريعات البابوية .

أما قانون السيادة (The Act of Supremacy) الصادر فى عام ١٥٣٤ ، فقد وضع موضع التجربة — فإن هذا القانون الذى جعل الملك الرئيس الأعلى للكنيسة كان أكثر إثارة للجدل من القانون الخاص بالأموال التى كان يحصلها البابا على شكل دخل سنة مما تدره المناصب الجديدة على أصحابها (Annates Act) ، ومن مفعول قانون الاستئناف (Appeals Act) أو أى قانون آخر أصدره برلمان الإصلاح . فإن قسّم الناس عليه — طبقاً لأوامر الملك — كان معناه النكث بعهدهم للبابا ؛ كما أن رفضهم أداء القسم معناه ملاقة الموت بفأس الجلاذ . وفضل سير توماس مور والأسقف فشر ، وهما أعظم شخصيتين فى الفترة الأخيرة من تاريخ الكاثوليكية فى إنجلترا ، أن يواجهوا الموت بيد الجلاذ على حلف اليمين . ولكن أحداً لم يخذلوهما : فقد حسمت الموقف مشاعر الرعب والإعجاب والولاء التى أثارها جبروت هذا الملك المحتدم العاطفة .

وحتى دارسى D'Arcy زعيم حركة « الحج الزلقى — Pelgrimage of Grace » وهى الثورة الكبيرة التى نشبت فى الشمال رداً على حل الأديرة — اعترف بأنه لم يحل إطلاقاً بخاطره أن يمتشق حسامه ضد الملك . حينئذ بدا أن لاشئ يستطيع أن ينال من شعبية هنرى : لإطلاق كاترين ولا إعدام آن بولين ولا شتى أفضل أخبار العصر وألمع إنسانيه .

ورغم انفصال الكنيسة الإنجليزية عن روما وتأكيده السيادة الملكية عليها ، فقد بقيت مشكلة العقيدة والطقوس الدينية دون حل . فى تلك الحال من المشاعر الملتبهة كان من المحتمل أن تفضى هذه المسائل العليا الدقيقة إلى فترة طويلة من الاضطراب والفوضى . كان هنرى قد عقد العزم — وكان مقتنعاً بأنه مهياً لذلك تماماً — على أن يتقدم لشغل مكان البابا من الكنيسة الإنجليزية ، وعلى أن يصف لشعبه ما يجب عليهم أن يؤمنوا به وما لا يجب عليهم ، معتمداً فى ذلك على أفسى العقوبات التى يستطيع برلمان مطواع أن يبدعها . فالملك هو الذى كان قد وضع فى عام ١٥٣٦ أول مجموعة من الطقوس الدينية لكنيسة إنجلترا وعنوانها : « المواد التى وضعها سمو الملك لإقرار السلام المسيحى »^(١) . ورغم ميل توماس كرمويل إلى إقامة اثنالاف دينى وسياسى مع الدول البروتستانتية فى ألمانيا ، لم تقبل إنجلترا إطلاقاً « اعتراف أوجزبورج » أو تنجرف فى الخضم العام الذى أثارته البحوث اللاهوتية الألمانية . وإلى الملك يجب أن نعزو اللون الخاص الذى اصطبغت به الحركة البروتستانتية فى مراحلها الأولى والخطى المرسومة التى سارت فيها . لم يكن هذا الملك اللاهوتى عالماً ولا فيلسوفاً ولا مثاليّاً . كان عاقد العزم على وجوب أن يكون الفقه الدينى للكنيسة إنجليزيّاً لا ألمانياً ، وأن يكون من صنعه هو لا من صنع فيليب ملانكتون . وربما كان من شأن ذوى الأمزجة الدقيقة الباحثين فى الفقه الدينى أن يتساءلوا عما هو حق أو أصيل أو أكثر ملاءمة لتحقيق حاجات البشر . ولكن هنرى كان يريد تسوية تضمن له فى ذلك الوقت حصر انقسام شعبه فى أضيق نطاق : فى عام ١٥٣٦ خطا نحو الإصلاح ؛ ولكن فى عام ١٥٣٩ تراجع بمحبة وسن المواد الست ، وذلك على أثر إنذار حركة « الحج الزلقى » بالخطر ؛ وفى أواخر حياته خطا مرة أخرى إلى

(١) "Articles devised by the King's Highness to establish Christian quietness"

الأمم ، وقد يكون ذلك بتأثير من كاترين پار Catherine Parr . فأمر في عام ١٥٤٥ بإجراء مراجعة عامة لكتب الصلوات وأقرت تراثيل الصلوات العامة . ووضع « الإنجيل العظيم » . وهو الإنجيل المعتمد إلى حد كبير على الترجمة المترجمة الرشيقة التي قام بها وليم تندرل ، في الكنائس بأمر ملكي وجعل في متناول الجميع . وقد ظل هنري حتى آخر أيامه متبعاً لطريق الوسط المحبب إلى الساسة : فظل يحرق اللوثريين لهرطقهم ويشق الكاثوليك لخيانتهم .

وفي السنوات الأربع عشرة الأخيرة من حكمه عاونه رجل ترك طابعاً باقياً في حركة الإصلاح الديني في إنجلترا . كان توماس كرانمر من تلامذة كيمبرج المتبحرين في اللاهوت ومتزوجاً من سيدة ألمانية ، وكان بالفعل قد سار شوطاً في عداوته لروما حين أدى هنري تلك الخدمات الخاصة بذلك الطلاق والتي وضعت أساس سطوته وخطورته في المستقبل . كان من الممكن لهذا الفقيه الديني المهذب المثقف أن ينعم بحياة مجيدة لا غبار عليها في الأوقات الهادئة . فقد تميز بأخلاق صافية وبشعور ديني عميق ورقيق معاً ، وكانت تتملكه رغبة صادقة في الرجوع بالكنيسة إلى بهائها القديم ، ولكن كانت تعوزه الجرأة . إلا أن الملك - في مشكلته الشائكة الخاصة بإلغاء زواجه - استطاع أن يركن دائماً إلى خضوع أساقفة كاتدربرى .

ورغم هذا الضعف الخطير ، قدم كرانمر للكنيسة الإنجليزية خدماتين لن تمحى آثارهما . فهو المؤلف الرئيسي لكتاب الصلوات الأنجليكاني الذي ساهم هو فيه بالتراثيل والصلوات اليومية . وفيما يلي نقدم اعتراف كاتب كاثوليكي - تأسره اللغة الإنجليزية الجيدة أكثر مما يأسره توماس كرانمر - بالصيغة التي أضفت على كتاب الصلوات جاذبية خالدة : « بفضل التراثيل التي هي من تأليفه ، والصلوات القصيرة اليومية والمقدمات والموسيقى العجيبة الكامنة في الصلوات الخاصة ، وأكثرها من ابتكاره ، أضفى على الديانة التي قامت وشيكاً قوة لم تكن لتستمدّها من أى مصدر آخر . وقد قدم بذلك بديلاً من اللغة اللاتينية الرفيعة التي شكلت روح أوربا لأكثر من ألف عام ، وأثرى كنيسة إنجلترا بالأثر الجمالى الذى منه - أكثر

من أى شيء آخر - اكتسبت روحها بقاءها وتعلقت بها (بالكنيسة) قلوب الناس»^(١).

وكانت الطريقة التي انتهت بها حياة كرانمر هي الخدمة الثانية التي قدمها للكنيسة الإنجليزية . فبعد حياة قضائها في العمل المتواصل ، مات كرانمر بطلاً وشهيداً . كانت الملكة ماري قد أجبرته ، بأمر منها ، على توقيع ست وثائق يحدد فيها معتقداته ؛ ثم علم أن هذه الوثائق التي وقعها قد نشرت . وحين كان في طريقه إلى سيف الجلاد ألقى بالوثائق إلى النار وأكد معتقداته ، « وفي النهاية قال بأسطفاً ذراعه اليمنى ويده اليمنى : ” يجب أن تكون هذه اليد التي وقعت في الخطيئة بتوقيعها (للوثائق الست) أول ما يقاسى العذاب من جسمي “ ؛ وهكذا وضعها في النار وأحرقها بنفسه » .

وتتميز الفترة التي تفصل بين وفاة هنري واستشهاد كرانمر باستمرار تأرجح إنجلترا بين النفوذ البروتستانتي والنفوذ الكاثوليكي ، وإن اتخذ ذلك التأرجح شكلاً أشد عنفاً ، بعد أن كانت مشيئة هنري الطاغية قد حصرت في أضيق الحدود . ففي عهد إدوارد السادس سيطر المصلحون على الحكومة ، وشقوا طريقهم بخطوات حذرة تحت الحكم المستنير الذي اتسم به عهد الوصي سومرست ، ثم أسرعوا الخطى وأصبحوا أكثر خطورة في عهد خلفه نورثمبرلاند . ثم أعقب ذلك رد فعل حاد - ففي عام ١٥٥٣م توفي الملك الصبي ، وانتقل العرش طبقاً لوصية والده إلى الأميرة ماري ، وكانت سيدة مكتملة في السابعة والثلاثين من عمرها عرفت بإخلاصها للعقيدة الكاثوليكية قولاً وعملاً . وقد تلقى حزب الإصلاح المتطرف تولى مثل هذه الكاثوليكية بعين الشك والنفور ، إذ تنبشوا بنقض كل ما فعلوه : إلغاء الطقوس الإنجليزية ، وإلغاء الإنجيل وعودة الكنيسة إلى الصلح مع روما ، وفقدان الأساقفة البروتستانت مناصبهم - وبذلك يتعرض كل ما اتصل بالإصلاح الديني لأخطار شخصية خطيرة . ولقد أراد نورثمبرلاند أن يتجنب هذه الشرور ، ويضمن بقاءه متمتعاً بالسلطان ، فعزم على تعديل وراثة العرش . ولكن المؤامرة فشلت ؛ إذ فضل الشعب الإنجليزي ماري تيودور على ليدى جين جراي Gane Gray حفيدة ماري الأخرى

التي كانت أختاً لهنرى الثامن وزوجة لدوق سفولك . ثم حدث ما كان متوقعاً : أعيدت العبادة القديمة ، وأعيد رسمياً ارتباط الكنيسة بروما ، وعُني رسمياً على آثار الإصلاح الدينى ، وذلك باستثناء شىء واحد وهو أن برلمان مارى نفسه لم يحسر على المساس بالمصالح المكتسبة الكبيرة التي تمخضت عن توزيع ثروة الأديرة .

ورغم أن رجال البرلمان لم يكونوا يأبهون عادة للمسائل الدينية (كما يدل على ذلك موافقتهم على السياسة التي اتخذت في عهد إدوارد ثم موافقتهم على سياسة أخرى مخالفة في عهد مارى) ، فإن الناس في إنجلترا كانوا يحسون بإحساسين عميقين لم يوجدوا في هذه السيدة المتعصبة لمبادئها السامية ، المنكودة الطالع مما يشبعهما ، أو وجدا ما يعترضهما — وأول هذين الإحساسين هو العاطفة القومية . فقد تزوجت مارى بمطلق رغبها فيليب ملك إسبانيا ؛ ورغم أن عقد الزواج كان من صنع الأسقف جاردنر الذى بذل أقصى ما أمكنه من المهارة واضعاً نصب عينيه المحافظة على استقلال إنجلترا ، فإن زوجها كان غير محبوب : فلم يكن هناك من يكن المحبة للملك الإسباني أو لحاشيته أو لفكرة أن إنجلترا الآن تابعة لبلد أجنبي . بل لقد قامت ثورة ضد هذا الزواج تزعمها توماس يات Thomas Wyatt ولكن قضت عليها شجاعة الملكة نفسها . وحين علم الناس أن الزواج لن يعقب ولياً للعهد ، اتجهت أفكار الشعب إلى الأميرة إليزابيث التي لم تكن من صلب إسباني أو زوجة لإسباني ، بل كانت إنجليزية أو ويلزية من الناحيتين : فهي ابنة آن بولين وهنرى ، وهي ثمرة ذلك الزواج الذى ترتب عليه فصم الرابطة بين إنجلترا وروما ، وفتح الباب واسعاً أمام المد الكبير لحركة الإصلاح الدينى .

أما الإحساس الآخر لدى الشعب الإنجليزي فهو عاطفة الإنسانية . حقاً إنه في الأوقات التي تحدث فيها المشاعر كان بإمكان الإنجليز أن يقرؤوا أعمالاً وحشية فظيعة ، ولكنهم كانوا يستطيعون أن يدركوا وجه الخير حين يترأى لهم . كان النحس الذى أحاط بالملكة كاترين قد استحوذ على مشاعرهم ؛ والآن أصبحت تثيرهم تلك المأساة الأخطر شأنًا التي تسببها اضطهادات حكم مارى . قد لا يزيد عدد البروتستانت الذين قطعت رؤوسهم بسبب معتقداتهم في عهد الملكة مارى على ثلاثمائة ؛ ولكن كان يدخل في هذا العدد القليل — إذا قارناه بما كان يحدث في القارة — زعماء حزب

الإصلاح وأسمى الرجال في البلاد فضيلة وموهبة . ولم تنطق النيران التي اشتعلت حول جثمان كرانمر ولا تيمر Latimer وردلي Raidley بسرعة ؛ وكان سجل الشهداء (Martyrology) الذي وضعه جون فوكس John Foxe وحكى فيه بحرارة قصة حياة ضحايا تعصب مارى وموتهم — بالنسبة للبروتستانت — لا يفوقه قداسة إلا الإنجيل وحده . ومثلاً للروح السامية التي كانت تدفع آباء العقيدة البروتستانتية ، وللشجاعة التي حدث بهم إلى أن يفضلوا مواجهة عذاب التحريق على أن يخونوا معتقداتهم . ولم يخدم شيء العقيدة البروتستانتية في إنجلترا فصفاها وعمقها كما غرس في نفوس الشعب الإنجليزي الفزع من روما ، بقدر ما خدمتها تلك الألوان من العذاب التي لم يكن لها مبرر والتي نفذت — على عكس ما ارتأته حكمة شارل الخامس تطبيقاً لإرادة سيده وحيدة بائسة . ومحا تيار البطولة والتضحية من نفوس الإنجليز ذكريات الطلاق بكل ما لا يسه من فجر دنىء .

ولم يكن استقلال إنجلترا آمناً بأي حال خلال هذه الفترة القلقة . كان ثمة سؤال جوابه في ضمير الأحداث : هل ستصبح البلاد تابعة تدور في فلك فرنسا أو إسبانيا ؟ أو هل توهب القوة لتشق لها طريقاً خاصاً بها وحدها ؟ كان حجر الزاوية في أمن البلاد هو الاتحاد بين إنجلترا وإسكتلندة . وقد أدرك هنرى السابع هذه الحقيقة فوضع أسس الوفاق بين الدولتين بزواج ملكي ؛ وأدركها هنرى الثامن من جديد فدبر تزويج إدوارد السابع بالطفلة مارى ملكة الإسكتلنديين ؛ كما أدرك تلك الحقيقة أيضاً الوصى سومرست الذي بدت في الخطط التي رسمها لإقامة اتحاد إنجليزي — إسكتلندي صورة التسوية النهائية في كثير من تفاصيلها الدقيقة . ولكن العقبات كانت جسيمة في سبيل الوحدة — فإن رجال الأرسقراطية الإسكتلندية الذين كانوا يوجهون السياسة في تلك المملكة الشمالية كانوا لا يقلون عن أمثالهم في أوروبا فساداً وإيثاراً لمصالحهم الخاصة ، وكانوا على استعداد — إذا واتهم الظروف — لبيع أنفسهم بالمال للحاكمين في لندن وباريس على حد سواء . ولكنهم لم يكونوا يستطيعوا كلية أن يتجاهلوا دروس تاريخهم القومي : من تلك القرون من الإغارات على الحدود ، ومن ادعاءات الملوك الإنجليز المتعالية ، ومن التحالف الطويل مع فرنسا ، والإخلاص التقليدي للكرسي البابوي . كذلك لم يزدادوا ميلاً

للتفاهم مع إنجلترا حين عمل هنرى الثامن - فى الأيام السود التى تلت هزيمة ساواى موس Solway Moss (١٤٥٢) - على إحياء ادعاءات السيادة القديمة التى كان أسلافهم قد رفضوها ، وحين استرسل الوصى سومرست فى تلك السياسة الجامدة حين غزيت بلادهم وأحرقت أدنبرة وهزم جيش إسكتلندى فى بنكى Pinkie . هذه الأعمال لم يكن من شأنها أن تجعل الأدلة البايغة التى وجهها الوصى إلى الشعب على مزايا الاتحاد أكثر إقناعاً . ولهذا لاعجب أن يتفوق الحزب الفرنسى فى توجيه السياسة الإسكتلندية ؛ فى عام ١٥٤٨ زوجت مارى الطفلة ، التى كانت قد خطبت للأمير لإدوارد الصغير فى عام ١٥٤٣ ، من فرنسوا ولى عهد فرنسا .

تلك هى السحابة التى خيمت فى ذلك الوقت على مستقبل إنجلترا السياسى . أصبح من المحتمل أن تتحد فرنسا وإسكتلندة يوماً ما تحت حكم الزوج الفرنسى لمارى ملكة الإسكتلنديين ، وفى هذه الحالة يكون من المحتمل أن يصبح التحالف مع إسبانيا أمراً لازماً لسلامة إنجلترا . ولكن إسبانيا كانت كاثوليكية ، وكان رأى العام فى إنجلترا منجرقاً فى تيار الإصلاح . وقد لا يكون التحالف مع إسبانيا مما يمكن الحصول عليه فى كل وقت ، أو قد يتعذر تحقيقه إلا نظير ثمن قد لا تكون إنجلترا مستعدة لدفعه . وهكذا يقدر لإنجلترا البروتستانتية أن تضرب عليها عزلة خطيرة وهى تواجه أيرلندة الكاثوليكية فى الغرب وإسكتلندة الكاثوليكية فى الشمال ، وإسبانيا المشكوك فى موقفها ، وفرنسا المعادية . هذا الاحتمال الباعث على القلق هو الذى حدا بسومرست إلى التصميم على نشر أفكار الإصلاح الدينى بين الشعب الإسكتلندى ، وكان ذلك هو الموقف الذى قدر لحكومة إليزابيث أن تواجهه ، وهو الموقف الذى لم يعدل منه سوى نمو حركة الإصلاح الدينى فى إسكتلندة .

يمكن الرجوع إليها

- Histories of England : G.M. Trevelyan (1905-23). J.A. Froude, (1856-187
- Cambridge Modern History, Vol. II.
- A.F. Pollard, Henry VIII, (1913).
- A.F. Pollard, Wolsey, (1929).
- A.F. Pollard, A Life of Thomas Cranmer,
- F.A. Gasquet, Henry VIII and the English
- H. Belloc, Cranmer, (1931).
- G. Cavendish, Life of Thomas Wolsey, (1930).
- W. Roper, The Life and Death of Sir Thomas More.
- Sir Thomas More, Utopia.
- R.B. Merriman, Life and Letters of Thomas Cromwell
- R.W. Chambers, The Saga and Myth of Sir Thomas More
- J.S. Brewer, The Reign of Henry VIII. Ed. J. Gard
- R.W. Dixon, History of the Church of England, (1899).
- W. Stubbs, Seventeen Lectures on the Study of Mediaeval and Modern History, (1900).
- F. Seebohm, The Oxford Reformers of 1498, (1867).
- J.B. Mullinger, The University of Cambridge from the Earliest Times, (1873-84).
- A.F. Pollard, England under Protector Somerset, (1900).
- A.F. Leach, English Schools at the Reformation, (1896).
- J.M. Stone, History of Mary I, Queen of England, (1901).
- H. Forneron, Histoire de Philippe II. 4 vols, (1881-2).

الفصل العاشر

إمبراطورية شارل الخامس

دالاتها - مراكز المعارضة - الأهداف الرئيسية للسياسة الإمبراطورية - شعبية شارل في إسبانيا - الصعوبات المالية - الأراضي المنخفضة - أهميتها المالية - محاكم التفتيش في الأراضي المنخفضة - الالتفاف بحراً حول العالم - المكسيك وبيرو وإسبانيا الكبرى - معاملة إسبانيا للأجناس الخاضعة لها - الانتصارات الإسبانية في إيطاليا - كليمنت السابع ونهب روما - دوريا يسترجع جنوه إلى جانب الإمبراطور - شارل في أوج عظمته في عام ١٥٣٠ - الممتلكات الإسبانية في إيطاليا .

أوجدت إمبراطورية شارل الخامس تحولاً سياسياً في أوروبا لا يقل كثيراً في أهميته عن احتلال قيصر لبلاد الغال أو ضم شارلمان لألمانيا إلى مُلك الفرنجة^(١) . قدر لهذه الإمبراطورية أن تضم بلاداً شديدة التباين في كل شيء في طباع أهلها وتقاليدهم : كإسبانيا والأراضي المنخفضة ، وألمانيا وناپولي ، وحضارة سهل لمباردي القديمة ، وممالك المكسيك وبيرو التي ضمت حديثاً . ولقد تكونت هذه الإمبراطورية نتيجة لحروب كانت ميادينها من الاتساع بحيث يمكن وصفها بأنها حروب أوروبية خاصة ، كما كانت نتيجة التنافس مباشرة بين فرنسا وألمانيا للسيادة على أوروبا ، تلك الخصومة التي ما فتئت منذ ذلك الوقت تقض مضاجع الساسة . ولقد أتاححت الإمبراطورية لإسبانيا ، التي لم يفقها بلد آخر في شدة تمسكها بروح المحافظة ، سيادة عابرة في العالم في العصر الحديث اعتبرتها فرنسا في بادئ الأمر ، ثم إنجلترا فيما بعد ، خطراً دولياً . كذلك أدى قيام هذه الإمبراطورية إلى القضاء على الحريات الإيطالية ؛ وبسلسلة واضحة من العلية ، إلى خلع الملكية الإنجليزية سلطان البابوية عنها . وإليها يمكن أن نتبع المرحلة الأولى في ذلك الانفصال التدريجي في العلاقات بين الأراضي المنخفضة (التي كانت في ذلك الوقت وثيقة الاتحاد مع إسبانيا) والريخ الألماني ، مما أفضى في الوقت المناسب إلى قيام جمهورية هولندا البروتستانتية ومملكة بلجيكا الكاثوليكية . ويستوى عندنا اعتبار هذه الإمبراطورية المترامية الأطراف إيداناً ببدء العصر الحديث ، أو اعتبارها آخر محاولة كبيرة لاسترجاع

(١) انظر ثبت الأنساب (ب) .

الوحدة القديمة التي قامت في العصور الوسطى بين العقيدة والحكم بصاحبة الكنيسة الكاثوليكية . ولقد وقف شارل يحارب في كل جبهة : يحارب الاوثريين في ألمانيا والأراضي المنخفضة ، والأتراك في المجر وتونس والجزائر ؛ وفي كل ركن من أركان البحر المتوسط وقف شارل يحارب كالبطل الذي اختارته العناية الإلهية للدفاع عن العقيدة الكاثوليكية . وكان كل ما في إسبانيا من غلايين الحرب وحملة الرياح والحكام العسكريين والكهنة الإسبان يعلنون للملأ أن الدولة الإسبانية التي التأمّت حديثاً ، قد اضطلعت بدور تبشيري وإمبراطوري .

ولكن أوروبا لم تكن متحدة الجنان : ففرنسا التي كان من الممكن أن تتفق مع شارل الكاثوليكي كانت شديدة العداء لشارل الإمبراطور ؛ وإيطاليا (باستثناء بعض المؤثرات البروتستانتية الضئيلة) اضطرت للرضوخ لسيطرة الدولة اللاتينية التي كان بوسعها على الأقل أن تحمي مدن الشاطئ الإيطالي من الأتراك . ولكن الإسبان الصارم الذي لا يمكن فهمه كان موضعاً للخوف والكراهة في الشمال التوتوني . هناك في تلك الأصقاع استطاعت الدول اللوثرية ، يدعمها الكبرياء الألماني والكراهية الفرنسية للإمبراطور ورجاله ، أن تثبت أقدامها ؛ وهناك أيضاً في الأراضي المنخفضة تمت المعارضة للسيطرة الإسبانية ، وهي معارضة بلغت من العنف والإصرار أن ثورة الفلمنكيين والهولنديين تعدت في طليعة الأسباب التي يعزى إليها اضطهاد إسبانيا . وكان رأس هذه الإمبراطورية المترامية الأطراف رجلاً خلا تماماً من الفتنة والحادية وخلال الفروسية . كما أنه لم يكن محارباً ولا مسترسلاً في الخيال ، وفي أي موضوع يعرض له كان يعوزه الإبداع ، لم يكن جذاباً في مظهره أو في سلوكه ، وكان ذا شفة بارزة عرفت عن أسرة هابسبورج ، مع لعثمة في حديثه . وحين ولي الحكم في سن الثامن عشرة كان يستطيع التكلم بالفرنسية والفلامنكية ، ولكن كان لا يعرف شيئاً عن الإسبانية لغة أمه أو عن إسبانيا وطن أمه . ورغم ذلك فقد كانت عنده قابلية للتعلم ، كما كان مقداماً صبوراً . وبعد انحسار الفورة الأولى من طيش الشباب ، أسرع إليه الشيخوخة ، وتملكته حكمة صارمة ملحة مكنته من اجتياز صعاب قد ينوء بها من كان أضعف عوداً . كان فلمنكياً بالميلاد وبالوراثة ، ثم كانت نهاية حياته — بعد أن تنازل عن العرش — في دير إسباني . وإذ أدرك أن إسبانيا هي المركز الحقيقي لقوته ، أصبح بالتدريج إسبانياً دون أن يحسّ بذلك .

ورغم ما حاوله من إنصاف الأجزاء المختلفة التي كان يتكون منها ملكه ، فإنه لم يكن بأى حال السيد المطلق السلطان فى أى جزء منها ؛ فلم يكن على الإطلاق من الغنى أو القدرة بحيث يدمج الشعوب المتناحرة التي كان يستند إليها حكمه . وحتى نهاية المطاف بقيت كل من إسبانيا وفلاندر ووتبرج وروما ، بعيدة بعضها عن بعض ، بعد القطبين أحدهما عن الآخر .

أما إزاء العواهل المسيحيين الآخرين ، فقد كانت سياسته دفاعية محضة . فقد عزم على الاحتفاظ بما ورثه أو ما اعتقد أن له حقاً فى وراثته . ولكن الدفاع عن إمبراطورية فتية ضخمة مثل هذه لم يكن ليتم دون حرب . كانت فرنسا خصماً بالضرورة ، تنافس شارل على برجندي ونافار (والأخيرة دولة صغيرة بجوف البرانس كان شارل قد وعد فى عام ١٥١٦ بأن يرجعها إلى أسرة ألبرت الفرنسية التي كانت تحكمها من قديم) كما تنافسه أيضاً فى الانتخاب لمنصب الإمبراطورية وفى ميلان . وإن احتمال قيام دولة فرنسية فى سهل لباردى أو فى خليج جنوة تعرقل المواصلات البحرية بين إسبانيا وألمانيا كان خطراً شعر شارل بأن من واجبه مقاومته . كان ينبغى إذن أن تبقى ميلان وجنوة فى حوزة الإمبراطورية إذا ما أريد للفرسان الإمبراطوريين Landsknechts أن يعمروا بسهولة إلى إسبانيا أو إذا ما أريد لحملة الرماح الإسبان أن يؤدوا دورهم فى ميادين الحرب الألمانية .

ولم يكن انتزاع ميلان من يد الفرنسيين عملاً عدائياً نزقاً فى نظر شارل ، بقدر ما كان استرداداً لحلقة ضرورية فى سلسلة الدفاع الإمبراطورى . أما الأتراك فلمهم شأن آخر — فقد كان واجباً مقدساً مفروضاً على الإمبراطور بحكم منصبه التاريخي وبحكم اتجاه الرأى العام فى إسبانيا ، أن يناجز « المسلمين » فى كل مكان . وكانت قشتالة شديدة الاهتمام بنافار ، ولكن إيطاليا لا تعنيها فى قليل أو كثير ؛ وعلى العكس من ذلك كانت أرجونة شديدة الاهتمام بإيطاليا غير مكترثة بنافار ؛ هذا إلى أن أرجونة وقشتالة كلتاهما لم تبديا اهتماماً بالأراضى المنخفضة . ولكن إسبانيا بأسرها كانت تمتد الأتراك وتخشاها ، وتضاعف هذا الشعور منذ أن التحق القرصان خير الدين بربروس بخدمة الأتراك ، وأخذ من وكره فى الجزائر يسطو على الشاطئ الإسباني . وكان الإسبان قد دربتهم الأحداث التاريخية على فكرة

الحرب الصليبية . وكانوا شديدي الرضى طالما حارب إمبراطورهم اللوثريين والأتراك ؛ أما إذا حارب فى سبيل أى قضية أخرى من قضايا تلك الإمبراطورية المترامية الأطراف فإنهم لا يكثرثون إلا قليلا .

كان التاج محبوباً فى إسبانيا . وكانت ثورة ممثلى الأقاليم Comuneros التى أقلقت شمال إسبانيا على أثر توجه شارل إلى تلك البلاد لأول مرة ، قليلة التأثير بالتمهضة الجمهورية ، الأمر الذى يدل عليه أن الملكة الخبولة جوانا كانت أكبر همول للثوار . لم يكونوا يشكون فى أن ملكاً شاباً من الفلاندر قد اعتلى عرش إسبانيا ؛ بل إن سبب شكواهم أنه قد اصطحب معه رتلا من الأتباع الفلمنكيين الجشعين وأنه اعتصر البلاد طلباً للمال ثم رجع إلى الشمال تاركاً إسبانيا تحت رحمة أديان أسقف يوترخت ، وهو حبر هولندى مكروه لم يكن يعرف شيئاً عن البلاد أو لغتها . ومع هذا فإن عدداً من نبلاء قشتالة التفوا حول الملك وهزموا الثوار على ساحة فيلاجوس Vilagos (٢٣ أبريل ١٥٢١) ؛ ولهذا حين رجع شارل إلى إسبانيا فى عام ١٥٢٢ - وفى هذه المرة كان التاج الإمبراطورى قد رفع قدره ، وكان إخلاصه للكاثوليكية قد تأكد فى مرسوم ورمز - حين رجع شارل إلى إسبانيا تصحبه قوة لا بأس بها من المدفعية وثلاثة آلاف فارس ألماني ، وجد شعباً على استعداد لطاعته والموافقة - فى حدود معينة - على تقديم المال له . وأكسبه تنكبه عن إراقة الدماء إعجاب رعاياه وعرفانهم للجميل ، خاصة وأنهم عرفوا أخيراً (١٥٢٢ - ٩) أنه على استعداد لتعلم طرائقهم وإعطائهم نوع الحكومة الذى يريدون . ورغم أن مزاج أهل قشتالة كان يقرّ الحكم الفردى ، فإن شارل حرص على احترام الحقوق الدستورية التى كان يعتز بها أهل أرجونة كثيراً . كذلك سرعان ما أدرك سطوة الكنيسة الإسبانية واعترف بها .

وخيرّ المسلمون فى بلنسية بين اعتناق المسيحية وترك البلاد ، وهو عمل يعده رجال الاقتصاد الحديث من أعمال الجنون والتعصب وإن كان عملاً سياسياً يتمشى وروح التحيز السائدة فى ذلك العصر . كذلك رحب الناس بزواجه من إيزابلا أميرة البرتغال باعتباره إجراء دفاعياً لإزاء احتمال نشوب المتاعب فى الغرب ؛ كذلك رحبوا بهذا اللون من الفخامة التى كانت مألوفة فى برجنديّة وإن كانت غريبة على

عادات البلاد البسيطة ، ولكنها ليست كثيرة على ملك هو في نفس الوقت إمبراطور وأعظم عواهل أوروبا .

وكان تمويل هذه السياسة الإمبراطورية العالمية مشكلة جديدة لأوروبا ، ولم يستطع شارل أن يجد لها حلاً ناجحاً بالرغم من حصوله على معونة آل فوجر Fuggers وولزر Welsers — وهما البيتان الماليان الألمانيان اللذان كان لا غنى عن قروضهما . ورغم أن الضرائب قد ازدادت في إسبانيا إلى ما يقرب من ثلاثة أضعاف ما كانت عليه ، ورغم أنه لم ينفق منها على البلاد ذاتها سوى القليل ، فقد وجد في نهاية حكمه عجز يتراوح بين ثلاثة عشر وعشرين مليوناً من الجنيهات الإسترلينية ، كما وجدت ظاهرة خطيرة منذرة بالويل للميزانية الإسبانية بصفة خاصة ، وهى اطراد الزيادة فى المعاشات التى تمنحها لإدارة الدخل مقابل الأموال التى قدمها أصحابها مقدماً ، وهى طريقة لعقد قرض داخلى لا يوجد ما يداينها سفعاً . وأسوأ من هذا كله رفض نبلاء قشتالة أن تفرض عليهم الضرائب (١٥٣٨) ، وما ترتب على ذلك من حرمانهم عضوية الكورتيز . وهكذا نجد أن صعوبة تمويل الإمبراطورية قد عجلت بالقضاء على الحريات البرلمانية فى قشتالة بدلا من عملها على تنميتها . أما الكورتيز فقد أصبح ظلاً بعد أن انعدم تمثيله لمصالح ملاك الأراضى — مجرد برلمان يضم أعضاء يمثلون ٣٦ مدينة .

ورغم ذلك فإن الإمبراطورية الواسعة المفككة قد بقيت ملتزمة فى اتحاد شخصى فضفاض تحت حكم آل هابسبورج . كانت مقاطعات الأراضى المنخفضة فى بداية الأمر (١٥٠٧ — ٣٠) تحت حكم ماجريت دوقة ساوى ، وهى ابنة مكسمليان وعمه شارل الخامس ، ثم حكمها بعد ذلك (١٥٣١ — ٣٥) مارى النمسوية أخت شارل وأرملة لويس ملك المجر . ولكن شارل كان باستمرار وراء كل شىء . وحين رفضت مدينة غنت المزدحمة بالسكان (١٥٣٩) أن تدفع نصيبها من الضريبة التى أقربها مقاطعات الفلاندر من أجل الحرب مع فرنسا ، وانجرفت فى تيار الثورة لدرجة القبض على ضباط الإمبراطور والاتصال بفرنسا الأولى ، جمع شارل جيشاً وأوقع بالثوار العقاب الذى يستحقونه . أعدم اثنان وثلاثون من زعماء البلاد . وألغى الدستور ، ونزلت أشد جمهوريات الأراضى المنخفضة

اعتداداً بنفسها إلى مركز مدينة وسط أراض زراعية مفروض عليها إعالة حامية إمبراطورية .

ولذا أريد لإمبراطورية من أى نوع أن تبقى متماسكة ، فإن من الواضح أنه لا بد من مقاومة ادعاءات مدينة مثل غنت وحريتها في أن تشارك في تمويل حروب الإمبراطورية . ولكن في الحق لا غنت ولا أى مدينة أخرى ، فلمنكية أو هولندية ، كانت تكثر لأطماع الإمبراطور الواسعة . كانت هذه المدن فخورة بشارل ، وقد أفادت — على طول المدى — بالسياسة التي ترتب عليها ضم تورني Tournai وفريزيا Frisia ويوترخت Utrecht وأفريسيل Overijssel وجرونجن Groningen ودقنر Deventer وجلدلاند Gilderland إلى كيائها الرخو . ولكن أى مصلحة لها في ناغار أو ميلان ، أو في استرجاع دوقية برجندية التي أضاعها الهابسبورج ؟ إن تجارة الأراضي المنخفضة كانت تتطلب السلام وتلح عليه ، ولكن سياسة شارل كانت تقحمها في حرب مستمرة . وقد فرض على سكان مدن الشمال أن يتحملوا القسط الأوفر في أعباء الإمبراطورية المالية ، وكان لهم الحق في أن يقولوا إنهم لم يحصلوا في مقابل ذلك إلا على جزاء ضئيل ، اللهم إلا الاضطهاد الوحشي للخارجين على الكنيسة .

هذا الاضطهاد الديني هو أكبر بقعة لطخت سمعة شارل . حقاً إن كونه — هو نفسه — فلمنكياً جعله أشد تصميمًا على اجتثاث جذور الهرطقة من وطنه ، ومن هنا نجده يعتبر قمعه للإلحاد واجباً مقدساً في عنقه عليه أن يني به لله وللابلاذ . وحين وجد لدى عودته من مجمع ورمز الإمبراطوري أن الآراء اللوثرية تسرى بسرعة في الأراضي المنخفضة ، أدخل إليها محاكم التفتيش (١٥٢٢) اعتقاداً منه أن بإمكان مثل هذه الأداة التي أحرزت نجاحاً كبيراً في القضاء على بقايا المسلمين في إسبانيا أن تحرز نجاحاً مماثلاً إزاء الهولنديين والفلمنكيين . ولكن أهل الشمال كانوا يمتازون بشجاعة فائقة وعناد شديد . وحين أحرق في أنتورب هنرى دى ثوز Henry de Voës وجون إتش John Esch — وهما في الطليعة من شهداء العقيدة البروتستانتية — (٣١ يولية ١٥٢٣) ، أعطيا مثلاً لمن يأتي بعدهما في تذوق العذاب بتلك الروح الصلبة التي نجحت بعد ثمانية وخمسين عاماً في تأسيس الجمهورية الهولندية البروتستانتية .

« وبينما كانوا يساقون إلى المحرقة ، صاحوا بصوت مرتفع أنهم مسيحيون ، وحين شد وثاقهم إليها وأشعلت النيران أخذوا ينشدون مواد العقيدة الاثنى عشرة ، ثم ترنمو بعد ذلك بترنيمة الشكر (Te Deum laudamus) متناوبين في إنشاد مقاطعها مقطعاً مقطعاً حتى أتت النيران على أصواتهم وحياتهم . »

وقد قيل إن عهد شارل شهد استشهاد نحو ثلاثين ألف رجل وامرأة في المقاطعات السبع عشرة في سبيل معتقداتهم . كان بعض هؤلاء من المعمدين النافرين على النظام الاجتماعي بأسره ، كما كانوا خصوصاً ألداء للكنيسة الكاثوليكية ؛ ولكن البعض الآخر كانوا من أتباع لوثر وكلفن وكانت جريرتهم الوحيدة أنهم كانوا يلتقون لقراءة الكتاب المقدس بلغتهم القومية ، وأنهم صمموا على عبادة الله وفقاً لطريقتهم . لم يدخر شارل وسعاً في توقيع أى عقوبة مهما قست على المعمدين ، هؤلاء البؤساء الذين كانت معتقداتهم - الثورية إلى حد كبير - ثمرة البؤس الاجتماعي . شويت أجسادهم بنار بطيئة ، وأحرقوا أحياء أو أغرقوا في اليم ، أو نزلت بهم أساليب أخرى من العذاب الأليم . فقد رأت السلطات أن المشنقة أو المحرقة اللتين قد تكونان كافيتين للوثريين ليستا كذلك لأولئك المهوورين الذين تجرعوا على مهاجمة الملكية والكهانة . وبالرغم من كل ذلك استمرت الهرطقة ؛ بل لقد تغلغل مذهب لوثر في بلد تواس أكيمس^(١) Thomas à Kempis و « أخوة الحياة المشتركة » إلى حد استحلال معه سحقه بالاضطهاد مهما بلغت قسوته . اضطهد پروتستانت الأراضي المنخفضة وزج بهم في أعماق السجون ومنعت اجتماعاتهم الدينية وحرقت أناجيلهم وذبح خطباؤهم ؛ ورغم كل ذلك فإنهم لم يهنوا في مقاومتهم السلبية للحكومة . وحين تنازل شارل عن العرش في بروكسل في عام ١٥٥٥ ، واجه خلفه في المقاطعات الشمالية شعباً قد رسخت عقائده البروتستانتية وسرت فيه مسرى الدم بحيث عجز كل جبروت الإمبراطورية الإسبانية عن ردعهم .

وفي العام الذى أدخلت فيه محاكم التفتيش في الأراضي المنخفضة ، وبينما كان لوثر لا يزالاً محتبئاً في وارنبورج Wartburg كان لا يزال يحق لكل كاثوليكي مخلص

(١) ١٣٨٠ - ١٤٨٠ . راهب ألماني ألف (أو نسخ) كتاب « ترسم خطى المسيح Imitatio Christi » الذى يمزوه البعض إلى المصلح الكاثوليكي الهولندي جيرار جروت Gerard Groote .

أن يأمل في أن يتم — على يد حكومة حازمة خلال بضعة سنوات — القضاء على « مشادة الرهبان » ، وهو الاسم الذى كان يطلق على المشكلة اللوثرية في ذلك الوقت . وبينما كانت هذه الأحداث تجرى ألفت السفينة « فكتوريا » — وهى غايون حمولته خمسة وثمانون طنًا ، يحمل العلم الإسباني ويقوده جون سباستيان دل كانو John Sebastian del Cano — ألفت مراسيها على نهر الوادى الكبير بعدغية ثلاث سنوات . كانت هذه السفينة قد دارت حول العالم بعد أن بدأت رحلتها كوحدة من أسطول يتكون من خمس سفن ويتولى فردناند ماجلان قيادته العامة . وكانت « فكتوريا » قد دارت حول پتاجونيا وعبرت المحيط الهادى ، وشقت طريقها بعد موت ماجلان في جزائر البهار عبر المحيط الهندى إلى الطرف الجنوبى لإفريقية ، ومن هناك رجعت إلى بلادها .

وقد انتشى الإمبراطور الشاب بهذا الدليل الجديد على النعم المتعددة التى اختصت بها العناية الإلهية أسرة هابسبورج . ألم يكن من الواضح أن النمسا كان مقدراً لها أن تبسط سلطانها على العالم ؟ « النمسا ! إمبراطورية كل الوجود Austriae est imperare orbi universo » . وقد تراءى لناظرى شارل أن النمسا الكاثوليكية ستبسط جناحيها على العالم الكاثوليكي : فكوبا كانت قد دخلت في حوزة لإسبانيا ، وكان هرناندو كورتيز Hernando Cortes قد أبحر من كوبا وضم المكسيك إلى أملاك إسبانيا . ورغم أن هذا القائد الصلب الذكى المحنك لم يكن معه سوى حفنة من الإسبان ، فقد استطاع بخيوله ومدافعه أن يتغلب على الأزتك Aztecs ، وهم جنس من أكلة اللحوم المتعطشين للدماء ، كانوا قد أقاموا في بلادهم حضارة عجيبة عرجاء : فلم يكونوا يعلمون شيئاً عن العملة أو دواب الحمل أو الأبقار والماعز . ولقد خطف كورتيز ملكهم مونتزوما Montezuma ونصب نفسه سيداً على عاصمتهم . وليس في التاريخ سوى أمثلة قليلة أوضح من المثال الذى ضربه كورتيز على أثر الهيبة في الحرب . كان الأزتك قوماً أبرياء بقدر ما كانوا قساة . وجدوا في القائد الإسباني مصدراً للعجب تملك ألبابهم : فقد كانت حيويته الحيوانية الشرسة وخيوله ومدافعه أشياء خارجة عن عالم تجربتهم . وكانوا على استعداد لتصديق الأسطورة التى دبر كورتيز لإذاعتها ، وهى الأسطورة القائلة إن الأجانب المحاطين بالأسرار والذين هبطوا

من المجهول بحيواناتهم الخارقة للعادة ، هم أنصاف آلهة ، من العبث إغصابهم أو مقاومتهم .

ولم يكن إخضاع المكسيك — أو إسبانيا الجديدة — سوى أحد تلك المظاهر العديدة لمقدرة الغزاة الإسبان في مجال الارتياح . قد تلقاهم في مستنقعات فلوريدا وعلى شواطئ المسيسيبي وكلورادو . وقد أسسوا بناما ودخلوا نيكاراغوا واجتذبوا في ركابهم الممولين الألمان إلى فنزويلا . ولكن لا يوجد في هذه الأعمال العظيمة التي قام بها هؤلاء الرواد الشجعان ما يعدل في أهميته استيلاء بيزارو Pizarro على بيرو . في هذه البلاد أمكن الحصول على كميات وافرة من الذهب والفضة والأحجار الكريمة التي كانت في نظر كل الإسبان — الذين سيطرت على تفكيرهم الأغراض المادية — الهدف الرئيسي للمغامرة الاستعمارية . هنا كانت تقع إلدورادو Eldorado التي كان البحث يجري عنها منذ عهد بعيد ، والتي لم يمكن الاستحواذ عليها إلا بعد مشاق ، إن يكن إغراؤها من القوة بحيث إنها أصبحت في الحال المستوى الذي يتحتم أن تقاس به كل الفتوحات والمستعمرات الأخرى . ولم تكن الأرجنتين — التي قدر أن تصبح أعظم مزارع الحبوب في العالم الجديد — بلداً يستحق الاستغلال إذا ما قورنت ببيرو بمعادنها وأحجارها الثمينة . وفي الواقع أن سر اجتذاب نهر پلاتا — الذي يمد هذا البلد الخصب بالمياه — للمرتاد الإسباني يرجع إلى كونه قد بدا مجرى مائياً يفضى مباشرة إلى ما اشتهوه من خزائن قشتالة الجديدة .

كان بيزارو أمياً لقيطاً ، احترف ركوب البحر كغيره من فقراء الإسبان في ذلك الوقت ، بعد أن حاول طرق أسباب أخرى للرزق . وفي خريف عام ١٥٢٢ كان في بناما معوزاً باحثاً عن الثروة ، متحرراً لركوب الصعب في سبيل الكسب . هنالك أخبره من يدعى بسكال دى أنداجايا Pascual de Andagaya — وهو ملاح إسباني — عن أرض غنية في أمريكا الجنوبية على ساحل المحيط الهادى ، يسكنها أقوام يعرفون باسم الإنكا Incas . وكان بيزارو أحد أولئك الرجال الذين يتخطفهم الطمع كالسكير يعضه العطش . ملأت أحلامه وشكلت تاريخ حياته رؤى ثروة عظيمة لا يحتاج الحصول عليها والتصرف فيها إلى كبير عناء . وكان الذهب عقيدته التي يؤمن بها ؛ وفي بحثه عن الذهب لم يستشعر خوفاً ولم يلق بالالضمير . وفي التو

أقلع إلى بلد الثروة على ظهر سفينة واحدة ومعه مائة رجل . ورغم أن أمانيه قد انتهت بالفشل ، إلا أنه جدد المحاولة بعد سنتين (١٥٢٦) ، وكوفئ على جهده بما رآه من حقول فلحت خير فلامنة ووطنيين تحلوا بالآلى وزينة الذهب . ومنذ تلك اللحظة حدد هدفه دون هوادة ؛ فعندما أراد أتباعه انتهاز فرصة وجود سفينة إسعاف ليرجعوا إلى پناما ، رسم بسيفه خطأ على الرمال وقال : « أصدقائى ورفاقى . . . على هذا الجانب يوجد الكد والجوع والعرى والعاصفة التى تبتلع كل شىء ، والحرب والموت ؛ وعلى الجانب الآخر الدعة والسرور . هناك پیرو پیرواتها ، وهنا پناما بفقرها . ليتخير كل منكم ما هو أكثر جدارة بقشتالى شجاع . أما أنا فإننى أختار الذهاب إلى الجنوب » . وهذه الكلمات خطأ پیزارو إلى جنوبى الخط وتبعه ستة عشر من رفاق سفينته .

أما الأراضى التى اكتشفوها فكانت دولة لم يكن لها قط نظير فى أى جزء آخر من العالم . كانت إمبراطورية الإنكا تتميز بتوسعها فى تطبيق نظام يقوم على شيوعية المتعسفة . فلم يكن يسمح لأى فرد بأن يكون عاطلا أو أن يعمل أكثر مما يطيق ، وكان كل فرد معرضاً لنقله من مكانه - إذا ظهر أنه مزدحم بالسكان - إلى مكان آخر . وكان عباد الشمس الأذكىاء الأغنياء هؤلاء قد أقاموا المعابد والقصور والقنوات المعلقة وحفروا القنوات وشقوا الطرق ومهدوا أرضهم للزراعة ، مما أثار جميعه إعجاب غزاتهم الذين ألهمت الفضة والذهب جشعهم . وبعد ارتياد دقيق لهذه البلاد العجيبة ، رجع پیزارو إلى إسبانيا حيث حصل على تفويض من الإمبراطور (٢٦ يولية ١٥٢٩) خوله سلطة نائب ملك فى البلاد التى كان لا يزال عليه أن يضمها . وليس فى الغزاة من يزّ فرانتشسكو پیزارو عنفاً وغدراً . خطف أتاهوالپا Atahualpa حاكم البلاد المنكود الطالع بطريقة غادرة . ثم جرد من ثروته ، وبعد محاكمة هزلية أحرق حتى الموت فى أكبر ميادين كازامانكا Casamanca (٢٩ أغسطس ١٥٣٣) . ومن المظاهر الشريرة لهذه الجريمة التى تتفزز منها النفوس أنها نفذت على ملاء من الرهبان المبشرين الذين أبدوا موافقتهم عليها وأعلنوا استحسانهم لها ساعة تنفيذها .

ولم يكن فتح پیرو - التى كانت آخر وأغنى الثمرات الاستعمارية التى سقطت

في يد إسبانيا أثناء حكم شارل الخامس — خيراً كله . لم يسبق لمجتمع أن اكتسب ميزة أخلاقية باشتراك أفراده في الاندفاع بحثاً عن الذهب ؛ ولا يشذ عن ذلك إسباني القرن السادس عشر الذين تملكهم حمى الذهب والفضة قبل أن يتم تنظيم المثل العليا للإنسانية ويبدأ تأثيرها في مشاكل الصناعة . فقد تشاجروا مع بعضهم البعض ، وفرضوا أقصى أنواع الطغيان على أهل البلاد الأصليين البائسين ممن لا حيلة لهم . واعتبر المال — خطأ — هو الثروة ، وتجهزات الدعائم الحقيقية للرخاء الاقتصادي . وهكذا أفسد قناصو ثروات بيرو أنفسهم ، ثم نقلوا جرثومة بخلهم وجشعهم الذي لا يعرف هوادة إلى صميم الجهاز السياسي الإسباني .

« قبل تنازل شارل عن الحكم نظمت المكسيك وأمريكا الوسطى وفنزويلا وغرناطة الجديدة وبيرو وبوليفيا وغربي شيلي ممتلكات تابعة لثاج قشتالة . أما الأرجنتين وباراجواي فكانتا لا تزالان في المراحل الأولى من الاستيطان . في الوقت الذي كانت فيه كاليفورنيا وفلوريدا تمران بالمراحل الأولى للاستكشاف » . وما يثير الدهشة في العمل الذي قامت به إسبانيا أن هذا الاتساع الذي طرأ على إمبراطوريتها واستكشافاتها قد تم في وقت كانت هي فيه مشتبكة في حرب لا تكاد تنقطع مع أعظم دول أوروبا ومع الأتراك غالباً .

وهذا الطغيان البشع الذي صبه المستعمرون الإسبان هو البقعة السوداء التي تلتطخ سجل تاريخهم هذا . ولكن من حق أوروبا أن تشير إلى أن الإمبراطور قد انحاز إلى جانب الرأفة والاعتدال وأنه كان — إذا ما نشب النزاع بين الإرساليات التبشيرية العاملة لخير الإنسان وبين المستعمرين المستغنيين — وهو ما كان يحدث غالباً — كان ينحاز إلى جانب الإرساليات ؛ كما أنه يحق لأوروبا أن تذكر أن سكان أمريكا الأصليين إنما صينوا من الهلاك إلى أكبر حد بفضل تدخل الحكومة الإسبانية . وفي قائمة الأبطال المرسلين الذين وهبوا حياتهم للتخفيف عن الشعوب التي أخضعت لن تجد من هو أنبل من لاس كازاس Las Casas الذي كان أول من قس تحق من المظالم التي كان يقترفها مواطنوه في المستعمرات الإسبانية وأول من أنكرها ؛ كما أنه رائد تلك الحركات الإنسانية التي جاءت فيما بعد وحاول رجالها أن يلفقوا من حدة استغلال العالم القديم للعالم الجديد .

وقد خلدت حروب شارل الخامس في إيطاليا عبقرية تيسيان^(١) وأريوستو^(٢).
 إلا أن هذه الحروب ليس لها من النتائج الباقية ما لتلك الفتوحات البعيدة عبر
 الأطلنطى . أما المعاصرون فكان يبدو لهم أن ليس ثمة كثير من الأحداث تفوق في
 ضخامتها مع الزمن القضاء على القوة العسكرية الفرنسية في إيطاليا . تم هذا القضاء
 بشكل مفاجئ جداً . وكان يبدو أنه مكتمل تماماً . هُزم الفرنسيون في بيكوتشا
 Bicocca في عام ١٥٢٢ ، ثم هزموا مرة أخرى في بافيا في عام ١٥٢٥ حيث أسر
 ملكهم فرنسو ونقل على ظهر إحدى السفن إلى إسبانيا . وانتزعت ميلان من أيدي
 الفرنسيين وأعيدت إلى فرنسيسكو سفورزا باعتبارها إقطاعاً إمبراطورياً ، وأصبحت
 منذ ذلك الوقت تابعة لإسبانيا ، لا يكاد يخفى ذلك ستار رقيق من التنكر ، وكما
 كانت إسبانيا تمسك بمفاتيح الشمال بإشرافها على ميلان ، فإنها بإشرافها على نابولي
 وصقلية غدت سيدة الجنوب . وبدا لتفكير أريوستو الشاعر أن انتصارات شارل
 في إيطاليا تنبئ بالإمبراطورية التي يقيض لها في نهاية المطاف أن تحمل السلام إلى
 البشر .

مثل هذا الاستعراض لقوة إسبانيا أفرع كل من يهتم من الإيطاليين - لسبب
 أو لآخر - بمنع أية دولة أجنبية وحدها من إحراز السيطرة على شبه الجزيرة ؛ كما أن
 هذا الاستعراض قد ألقى برعشات القلق في قلوب الساسة الأذكى العالمين ببواطن
 الأمور الذين كانوا يحكمون في الفاتيكان . ربما بدا كليمنت السابع خير من يصلح
 لتزعيم حركة إيطالية كبيرة ضد الإمبراطور وأنصاره ، وذلك بحكم حسبه ومنصبه
 وتجربته (فهو - عندما كان كاردينالاً باسم الكاردينال جوليانو مديتشى Guliano
 dei Medici قد ظل مدة طويلة في الطليعة من ميدان السياسة) . ولكن من سوء الحظ
 كان البابا - رغم كل قدرته في المفاوضة ومضائه وفراسته ودهائه وثقافته - خلواً من
 الصفات الحلقية والذهنية التي تلزم من يتصدى للقيادة ، وكان من ذلك الطراز من
 الرجال الذين يجمعون في خيالهم قدراً كبيراً من الأشياء الصغيرة بحيث تخفى عليهم
 الأشياء الكبيرة . لهذا كان كليمنت ، كلما احتاج الأمر إلى قرار واضح ، يتأرجح

(١) انظر ما سبق ، ص ٢٦ .

(٢) انظر ما سبق ، ص ٨١ .

بين خطط متنافرة ؛ فعندما كانت الضرورة تدعو إلى تعبئة كل أمراء إيطاليا في جبهة واحدة لحرب الإسبان ، اطرح مساعدة حليف قوى بإصراره على استرجاع مدينتين تافهتين كان دوق فرارا قد اغتصبهما من الدولة البابوية . وهكذا في موقف كان يقتضى البابا أن ينظر إليه نظرة عالمية ويتطلب منه إرادة حاسمة ، راح هذا السيد التسكاني الجذاب المثقف يبين عن أفق أسقى ضيقاً لأمير إيطالى صغير ، وعن تردد عصبي لجندي قديم كثير الجلبة .

ففى ظل قائد من هذا الطراز كان من المستحيل أن تثمر أية خطة عظيمة . وكان شارل على علم بالمؤامرات التى كان البابا يحيكها مع الوصية على عرش فرنسا ، ومع البندقية ، ومع مورون Morone مستشار ميلان ؛ كما كان على علم بعصبة كوزيك المقدسة التى تكونت ضده ، وبجيش العصبة الذى كان يتجمع فى إيطاليا . لهذا احتاط مقدماً ضد هذه الإجراءات التى أنبئ بها ، فارتأى أن تعزز القوات الإمبراطورية بحيث يمكنها مواجهة الموقف .

وغدا البابا فى روما معتزلاً لاحول له ولا قوة . وحتى فى الفاتيكان لم يكن فى أمان من عشيرة كولونا Colonnas الموالية للإمبراطور القوية الشكيمة التى كانت لا تدع أى فرصة تمر دون استغلالها لتسوية حساب قديم ضد أحد البابوات . ولكن كان ثمة عدد تنبغى مواجهته أسوأ من عشيرة كولونا الذين أرغموه بالضغط الحلى المذل على سحب قوته من جيش العصبة . ذلك أن اثني عشر ألفاً من فرسان الإمبراطور اللوثرين اقتحموا إيطاليا ، إذ كانوا يسرون دون أن يتلقوا مرتباتهم ويعيشوا على ما ينهبونه من الريف (كما كانت عادة القوات الإمبراطورية) — اقتحموا إيطاليا لإنزال العقاب بالبابا الذى تجرأ على إهانة سيدهم الإمبراطور . وقد قال قائدهم جورج فون فرندسبرج George Von Frundsberg : «إن البابا أسوأ أعداء الإمبراطور ، وهو الذى بدأ الحرب . وفى سبيل مجد الله لابد من شنقه ، وإن كان الواجب يملى على أن أشنقه بيدي » . وفى مثل هذا المزاج تحرك هذا الجيش من الألمان الجائعين ، منضمين إلى القوات الإمبراطورية التى كان يقودها كونستابل^(١) بوربون ، نحو

(١) كان لقب كونستابل فرنسا يطلق على أكبر موظفى خدمة القصور فى عصر الملوك الفرنسيين الأول . وكان يعنى كذلك القائد العام للجيش أثناء غياب الملك .

الجنوب دون أن تعترضه أية صعوبة في طريقه إلى روما . وما حدث بعد ذلك ، بالرغم من أنه لم يدبر من قبل بأى شكل ، ولم يكن على الإطلاق نتيجة لتعليمات من إسبانيا ، كان درساً قاسياً لرجال الدين أوضح لهم خطورة مخالفة إرادة الإمبراطور . وفي ليلة ٦ مايو ١٥٢٧ اجتمع خارج جدران المدينة البابوية أربعون ألفاً من شرار الجند وأبعدهم عن النظام لا يدانيهم في وحشيته أى جيش فى أوربا ، وشقوا طريقهم إلى داخل المدينة واعتقلوا البابا فى قلعة سان أنجلو ، ثم أطلقوا العنان طيلة ثمانية أيام عصبية لقسوتهم وتخريبهم : نهبت كل الكنائس والأديرة ، وقطعت رؤوس رهبان وقسس ؛ « وتعرض عدد كبير من الراهبات العجائز للضرب بالعصى ، واغتصب عدد كبير من الراهبات الشابات وأخذن أسيرات » ، وتحولت كنيسة القديس بطرس وتحول القصر المقدس إلى إصطبلات للخيل ، وترك ثلثا مدينة روما أنقاضاً . وقد بدا لبعض الناس أن هذه العقوبة القاسية ليست إلا وحياً من الله ، وقال معاصر وقور : « كل الآثام كانت تقترف فى روما : اللواط وبيع المناصب الدينية ، وفساد الطواغيت ، والنفاق والختل . لهذا فمن المؤكد أن ما حدث لم يكن من وحى الصدفة ، بل إنه عقاب أنزله الله » . وفى فلورنسة كان الدرس الذى لقيته هذه الحادثة أن فى الإمكان الآن طرد آل مديتشى دون خطر ، وإقامة جمهورية على أنقاض حكمهم ؛ أما العالم فقد وضع له أكثر من أى وقت أن النير الإمبراطورى قد أحكم وثاقه على إيطاليا .

ومن ناحية أخرى أصبح خطر الإمبراطورية من الجسامة بحيث أثار ضدها تألباً من الدول : فقد انضمت فرنسا وإنجلترا إلى البندقية لتخفيف حدة الزهو الإمبراطورى وتحريض البابوية من النير الإسباني . واسترد جيش فرنسى يقوده لوترك Lautrec الجانب الأكبر من دوقية ميلان وسار عبر إيطاليا دون أن يعترضه شىء فى طريقه إلى حصار ناپولى . وفى يونيو ١٥٢٨ بدت المدينة على وشك السقوط بعد أن شدد الفرنسيون حصارها من البر وحاصرتها سفن جنوة بحراً . وتساءل الناس عما إذا كان قد قدر لإيطاليا الانتقال من السيطرة الإسبانية إلى السيطرة الفرنسية . ولكن حينئذ طرأ أحد تلك التغيرات المفاجئة فى الأقدار التى من شأنها أن تؤثر بوجه خاص على جيوش صغيرة تعمل على مبعدة من بلادها . فى الجنوب داهمت الأمراض جيش

لوترك وكبدته خسائر كان لا يمكن تعويضها ، ثم تضععت قواه المعنوية بموت قائده ، فاضطر هذا الجيش إلى التخلي عن حصار نابولي والتسليم في أفرسا Aversa ؛ وفي الشمال انهزم الفرنسيون في لاندريانو Landriano أمام جيش إمبراطوري أرسلت إليه الأمداد . ولكن بقي هناك عامل أكثر أهمية من حيث تأثيره في التوازن الدائم للقوى في البحر المتوسط ، وهو تخلي الملاح الجنوى الكبير أندريه دوريا Andrea Doria عن الفرنسيين وانضمامه إلى الإمبراطوريين . كان دوريا بحاراً يجرى وراء الكسب ، ولكنه كان في نفس الوقت جندياً مخلصاً لبلده ، تعمل في نفسه إحن كثيرة ، بعضها عام وبعضها شخصي ، ضد الفرنسيين . وكان وجود حامية فرنسية في مسقط رأسه مثيراً لغضبه ، كما أنه سخط للنمو السريع الذي أصابته تجارة سافونا Savona جارة جنوة ومنافستها بتشجيع من الفرنسيين . حتى إذا كان حصار نابولي على أشده بحيث كان تحول دوريا من شأنه إلحاق أكبر ضرر بالفرنسيين وجلب أكبر منفعة لخصومهم ، حول دوريا نفوذ جنوة كلية إلى جانب المعسكر الإمبراطوري . وهكذا انحاز أقوى أسطول إيطالي في غربي المتوسط إلى جانب إسبانيا . أما شارل فإن التحالف مع جنوة قد أكسبه ثلاث ميزات حاسمة : فهو قد أغلق الشاطئ الإيطالي في وجه الفرنسيين وفتح الممر الموصل بين إسبانيا وألمانيا وأشاع في إيطاليا شعوراً قوياً بالانتصارات الإمبراطورية . وفي ملحمة أريوستو العظيمة ينفرد دوريا من بين أتباع شارل بكونه الصديق الذي جلب له النصر في كل حرب .

ولم يشترك الإمبراطور بنفسه لا في هذه الحملة ولا في أى حملة إيطالية أخرى . فقد أحرز الانتصارات الإسبانية في الميدان قواد إسبان يقودون جنداً من المشاة النظاميين الإسبان كانوا قد دربوا ليس فقط على الضرب بالرمح ، بل على المهارة في استعمال الأسلحة النارية أيضاً . وعلى أى حال فإن الفضل في ضمان ثمار النصر يرجع إلى شارل بتوخي الحكمة والاعتدال السياسي . فإنه بعد انتصاره على الفرنسيين في لاندريانو حطم التآلب المعادى له بعقده صلحاً منفرداً مع فرنسا . كان لديه بعض ما يتنازل عنه والكثير مما يأخذه ؛ وطبقاً للمعاهدة التي أبرمت في كامبري Cambrai (أغسطس ١٥٢٩) تنازل الإمبراطور عن ادعاءاته في وراثته ملك برجندي ، وهي الادعاءات التي جاءت عن طريق جدته ماري ، على حين تخلى فرنسوا عن

ادعاءاته في إيطاليا وعن حقوقه الإقطاعية في الفلاندر وأرتوا ، وتزوج فرنسوا إليانور أخت شارل .

وأصبح الإمبراطور في أوج قوته : ساد إيطاليا ، وأجرى حلفاً أسرياً مع كليمنت السابع الذى تَوَجَّه في بولونا بتاج لمباردى الحديدى وتاج الإمبراطوية الذهبى ، وعين أخاه فردناند خلفاً له على عرش الإمبراطورية ، وابنه فليب خلفاً له على عرش إسبانيا ، وتوافر له حينئذ الشرط الأساسى للقيام بأى عمليات ناجحة ضد الأتراك ، وهو عقد الصلح مع فرنسا . وعندما قاد جيشاً إلى إفريقيا في عام ١٥٣٥ واستولى على تونس ، تألق نجمه في أوروبا باعتباره البطل المنافع عن المسيحية ، وذلك بالرغم من ذكريات نهب روما المريعة .

ومع ذلك كله لم يكن شارل قد سوى حسابه نهائياً مع فرنسوا الأول . فإن هذا العاهل الذى صقلته الحضارة — وإن كان خسيس المعدن — ذلك الذى وصل بفن من الانطلاق حدث به إلى تشجيع الخارجين على الكاثوليكية نسا مع اضطهادهم داخلها ، بل إلى تقديم ملجأ في ميناء طولون للقرصان التركى برباروس — إن هذا الملك لم يكن قد اطرح أحلام الفتوح الإيطالية رغم كل ما نصت عليه معاهدة كامبرى . كان زواج أكبر أبنائه لكاترين مديتشى ، وهى من أقرباء البابا ، دليلاً على أن ادعاءات فرنسا في إيطاليا لا تزال قائمة . وفي الحق لقد نشبت الحرب من أجل ميلان في عام ١٥٣٦ واستمرت سنتين حتى انتهت بمعاهدة نيس في عام ١٥٣٨ ، ثم تجددت في عام ١٥٤٢ ، وسويت نهائياً — فيما يتعلق بشارل وفرنسوا — بصلح كرسبي Crispi في عام ١٥٤٤ . ولم ترتب على هاتين الحربين القصيرتين أية نتائج على جانب من الأهمية . فقد بقيت إسبانيا سيدة ميلان وناپولى ، وظلت فرنسا محتفظة بحدودها باستثناء استيلاء إنجلترا على بولونى . وبقي التفوق الدبلوماسى في جانب شارل الذى أبدى مهارة كبيرة بإيقاعه فرنسوا في شرك الأمل في وراثة ميلان ، وكسب تعضيد إنجلترا له في آخر حروبه . ولكن أهم الحقائق التى يبرزها هذا النضال الطويل على إيطاليا الاضمحلال الشديد للفكرة القديمة ، فكرة الوحدة المسيحية التى تشمل كل أوروبا . ورغم أن المسلمين كانوا يدقون أبواب أوروبا بعنف ، فإن جيش الإمبراطورية الرومانية المقدسة نهب

كنائس روما وأعلن « أشد الملوك مسيحية » أنه صديق الأتراك وحليفهم .

واستمر سلطان الإسبان في إيطاليا ، وهو السلطان الذي توطدت دعائمه نهائياً في عام ١٥٣٩ ، حتى نهاية حروب لويس الرابع عشر . واستبدلت إيطاليا بعصر النهضة الزاخر بالحركات العقلية الباهرة فترة من السكون الثقيل تحالف فيها الجزويت مع محاكم التفتيش وقائمة المطبوعات المحظورة (Index) لخنق الحركة العقلية الحرة وصهرها في قالب كاثوليكي . ومضت الحياة أكثر وقاراً وأشد احتفالاً بالتكلف ، وحل النفاق محل الجرأة الوقحة ، وأصبح اقتراف الرذيلة علناً والجهر بالإلحاد أمراً خطيراً وبالتالي لا يوافق روح العصر ؛ وتحالفت كل العناصر الفاضلة في المجتمع الإيطالي . بقصد إصلاح كنيسة روما . ولم يبق شيء من تلك الحرية الفكرية والكلامية القديمة التي جعلت إيطاليا في العهد الماضي معلمة أوروبا ، اللهم إلا في دائرة صغيرة بين المثقفين في نابولي وفي جمهورية البندقية التي حافظت على استقلالها عن إسبانيا وظلت بعيدة عن نفوذ البابا . وراح الإيطاليون السريعو الخاطر يسخرون من حكاهم الوقورين الجادين ، ويهزون أكتافهم في غير اكتراث ، ويصطنعون الطاعة — في أسلوب لا يخلو من الشكر — لهؤلاء الأجانب الذين أعفوه من مهمة الحكم والحرب .

وكانت إعادة أسرة مدينتي إلى فلورنسة من بين شروط الحلف الأسرى الذي تم بين شارل وكليمنت في عام ١٥٢٩ . ونفذ هذا التعهد في العام التالي : فحاصر المدينة جيش إمبراطوري كبير وضعت قيادته في يد الأمير أورنج ، وسقطت بعد دفاع مجيد ، ثم جردت من نظامها الجمهوري وأجبرت على الخضوع لألساندرو مديتشي Alessandro dei Medici وهو ابن سفاح من جارية مخلطة بالدم الزنجي . وقد يكون سقوط جمهورية إيطالية قصيرة العمر قليل الأهمية بالنسبة إلى تاريخ أوروبا الطويل ؛ ولكن الظروف خلعت على أفول الحريات الجمهورية في فلورنسة دلالة خاصة . كانت المدينة عاصمة للعبقرية الإيطالية . أما الجمهورية التي خلقتها حاسة نبى داعية^(١) ، فقد اجتذبت إليها آمال سلسلة من المؤرخين الوطنيين

(١) يقصد المؤلف الراهب سافونا رولا .

لا تزال صفحاتهم الجادة تنبض بحماسة كلاسيكية . فلقد دافع ميخائيل أنجلو عن أسوارها ، ودافعت عن ريفها قوات من الميليشيا تنبض قلوبها بحب الوطن ، محقة حكم مكيا فيلي . ولو قيض للجمهورية البقاء لربما لقت الشعب الإيطالي ذلك الدرس في الاعتماد على النفس في الحرب ، وهو الدرس الذي كان وحده كفيلا بأن يجلب لهذا الشعب السلامة والوحدة واحترام الذات . ولكن المدينة سقطت ؛ وبما هو جدير بالذكر أن من بين أسباب تسليمها خيانة أحد قادة الجند المرتزقة من بروجيا Perugia ، وكانت المدينة قد ارتكبت حماقة بطلب مساعدته .

كتب يمكن الرجوع إليها

- E. Armstrong, The Emperor Charles V, (1902).
- F.A. Mignet, Rivalité de François I et de Charles V. 2 vols, (1876).
- H.C. Lea, The Moriscos of Spain, (1901).
- Gelps, The Spanish Conquest of America, (1900-4).
- J.S.C. Bridge, A History of France from the Death of Louis XI, (1921).
- Henri Lemonnier in Lavisce, Histoire de France, Vol. V, i, V, ii.
- H.B. Merriman, The Rise of the Spanish Empire, (1918-25).
- R. Altimara y Crevea, Historia d'Espana y de la civilizacion espanola, (1902).
- J. Fiske, The Discovery of America, (1892).
- W.H. Prescott, History of the Conquest of Mexico. Everyman's Library. 2 vols, (1909).
- W.H. Prescott, History of the Conquest of Peru. Everyman's Library, (1908).
- H.M. Stephens, Portugal, (1891).
- Janet Trevelyan, A Short History of the Italian People, (1929).

الفصل الحادى عشر

عقيدة كلشن

نذير الإصلاح - إنجيل زيورخ - ساحة كابل Cappel - جنيف - جون كلشن -
رواقيته واعتقاده بالقدرية - تأسيسه دولة ثيوقراطية - طابع الكلفنية الديمقراطية - جنيف
تصبح مركزاً لتدريب رجال الدين البروتستنت - انتشار نفوذ الكلفنية .

لم يقتصر أثر لوثر في تاريخ الجنس البشرى على تلك الرقعة من أرض ألمانيا
وأسكندناوة التى ضمتها الكنيسة اللوثرية واستبقتهما فى حوزتها ؛ بل إن هذا الأثر
تغلغل فى كل مكان ومضى يجلجل فى ربوع أوروبا بصيحات التحدى . وتساءل
الناس عما إذا كان العالم حقيقة قد ظل يسير فى طريق الخطأ لأكثر من ألف عام ،
وعما إذا كانت البابوية خداعاً ودجلاً ، والقداسة التى يحاط بها رجال الدين سراباً
والطقوس والاحتفالات والنظم التى تداخلت فى الحياة الأوربية العادية لا لزوم
لها ؛ إن لم تكن ضارة . وما كان بوسع أحد - إلا إذا كان بليداً لا يكثرث لشيء -
أن يمنع نفسه من أن تملكها روعة هذه الدعوة . قد تختلف الآراء حول قيمتها :
فمن قائل إنها حسنة جداً ، بينما يرى آخرون أنها خبيثة جداً ؛ ولكن أحداً لا يستطيع
أن ينكر أنها مثيرة . وقد تسابق فى الاستمساك بها البولنديون والتشيكيون والمجريون ،
وحملها التجار الإسبان فى كتب صغيرة مطبوعة - عبر طرق جبلية - لتتحول إلى
نثر قشتالى ، وناقشها علماء اللاهوت من فوق منابرهم فى كيمبردج ، وباعها تجار
الكتب فى أكسفورد سراً ، ووزعت فى باريس تحت سنع أساتذة السوربون
وبصرهم . وإذا كان لإرمس قد أثار فى الناس - أكثر من أى شخص آخر -
روح التطلع والتساؤل ، فإن لوثر هو الذى بدأ الثورة العظمى وهو الذى بذر البذرة
وهياً الأرض فى سويسرا وفرنسا وإسكتلندة وإنجلترا ، وهى البلاد التى اتخذ فيها
الإصلاح شكلاً مغايراً للطراز اللوثرى .

ولقد أسرع ألرخ زونجلي الخطى بشكل مثير : حاول باتباعه سياسة حظر
تجارى أن يرغم المقاطعات الكاثوليكية الخمس فى شرق سويسرا على اتباع التعاليم

الإنجيلية التي لقيت رواجاً في زيوريخ وبرن ، ودفع حياته ثمن تهوره على ساحة كابل الملتخة بالدماء (١١ أكتوبر ١٥٣١) . وفقدت زيوريخ بموت حاميتها زعامتها للحركة الإصلاحية السويسرية ، واسترجعت الديانة القديمة سطوتها في القسم الشرق من سويسرا ، وهو القسم الذي كان يغلب عليه الطابع الجرمانى من الناحيتين الجنسية واللغوية . ولم تنجح على الإطلاق آثار هذه الحرب القصيرة التي استمرت ستة أسابيع ؛ فإن ما كان كاثوليكيّاً في نهاية هذا النضال ظل كاثوليكيّاً حتى الوقت الحاضر . وتبخر حلم زونجلي في انتشار العقيدة الإنجيلية في جميع أنحاء الاتحاد السويسرى ، وحلول الحكم الديمقراطي محل حكم الأقلية في كل مكان ، وحصول برن وزيوريخ في شئون الاتحاد السويسرى على الأهمية التي توائم أعداد سكانهما . ومع أن أخلاقه الخاصة كانت لا شائبة فيها ، فإنه — وهو أكثر المصلحين الدينيين موهبة وأشدهم جاذبية — فشل لأنه أخطأ في تقدير أهمية الفلاحين المتحمسين ، حماة العذراء والقديسين الذين كانوا يعيشون في أكواخهم الخشبية المصنوعة من جذوع الأشجار في أعالي مراعى جبال الألب وغاباتها على مسافة بعيدة من هرطقات الذين نشأوا في المدن .

وانتقلت زعامة حركة الإصلاح السويسرية إلى برن ، ثم إلى جنيف ، وهي مدينة كانت تقع خارج الاتحاد السويسرى ولا يزيد عدد سكانها على ١٣ ألفاً ؛ ولكن قبض لها بسبب موقعها الجغرافى (وكانت تقع على حدود أربع دول) وأكثر من هذا بسبب ارتباطها بأحد الزعماء الدينيين العظام في العالم ، أن تكون عاصمة البروتستانتية الغربية ، وعلى رأس المدن التي احتمت بها الأقليات المضطهدة من معتنى هذه العقيدة لعدة قرون .

ولقد كانت جنيف تناضل منذ ثلاثين عاماً للتخلص من سيطرة دوق ساڤوى وأميرها الأسقف ، واتخذ النضال شكل حرب أهلية مريعة . وأطلق خصوم حزب « حكومة الكنيسة بواسطة الأساقفة »^(١) على الحزب اسم الممالك . أما حزب الأحرار فقد عرف باسم Eidgenossen (بمعنى الرفاق الذين أدوا القسم) ؛ وما لبث هذا الاسم — في شكله الفرنسى المعرف بكالهيونوت — أن طبق آفاق أوروبا .

(١) The Episcopal Party .

ولكن جنيف استطاعت تحقيق حريتها في النهاية (أكتوبر ١٥٣٦) مستعينة بمساعدة برن المدينة البروتستانتية، وأصبحت على استعداد للاحتفال ببعض الدعاة الفرنسيين الذين كانوا ينشرون التعاليم الإنجيلية عبر إقليم الفود Pays de Vaud — وكانت برن تشجعهم على ذلك . ولم يكن ثمة من هؤلاء الدعاة من كان أقوى أثراً من وليم فارل William Farel الذي كان يتقد حماسة، وهو الذي أقنع باحثاً فرنسياً شاباً كان يتجول في رحلة خاصة ثم ألقي رحاله في جنيف في عام ١٥٣٦ ، أقنعه بأن يتوقف في هذه المدينة ويستبدل إلى الأبد بحياة البحث العلمي حياة الخدمة الكهنوتية العاملة .

هذا الباحث الشاب هو جون كوڤان John Cauvin (وكلشن)، وهو ابن موثق عام ، ولد في نويون Noyon في بيكاردى في عام ١٥٠٩ ، وكان قد قفز إلى حيز الشهرة — بالرغم من أنه لم يكن قد تجاوز السابعة والعشرين من عمره — حين نشرت له ثلاثة بحوث تستحق الإعجاب : الأول تعليق علمي على كتاب سنيكا^(١) « عن التسامح De Clementia » ، والثاني مقالة أكاديمية كتبها بقدر من الحماسة للتعاليم الإنجيلية بحيث اضطر إلى الرحيل عاجلاً عن باريس ؛ والبحث الثالث مدخل إلى الدراسات الإنجيلية بعنوان « مبادئ الديانة المسيحية Christianae Religionis Institutio » وقد نشره في بال وأهداه إلى الملك فرانسوا الأول .

ولن نجد من هو أقل شهاً بمارتن لوثر من هذا الشاب الفرنسي المذهب الدعوب على الدراسة . كان كلشن ينتمى إلى الطائفة العليا من الطائفة الوسطى ، وكان يغشى مجالس النبلاء من الرجال والنساء فلا يحس ضيقاً ، وكان قد اعتصر كل ما استطاعت باريس أن تقدم له من العلوم الإنسانية وكل ما قدمته له أورليان وبورج Bourges من علوم القانون . ولم يكن في كلشن شيء من طباع لوثر : فلم يكن فيه شيء من حيويته الدافقة ، ولا من مرحه وألمعيته ، خشونته ودعابته ، خياله الملتهب وروحه . « المدرسية » الضيقة ، إيمانه الرينى الساذج بالخرافات ونقده لذاته لدرجة غير عادية . أما المصلح الفرنسي فكان هادئاً متحفظاً ، مشرق التفكير

(١) حوالى ٤ ق . م — ٦٥ م . فيلسوف وخطيب روماني . كان معلماً لنيرون الذي أرغمه — عندما شب عن الطوق — على الانتحار .

والتعبير ، دائم التفوق على من تصدى لمجادلته ، وذلك بفضل ما لديه من ذخيرة حاضرة من المعارف عن آباء الكنيسة والإنجيل ، كما كان متملكاً لتلك الميزة العظيمة التي لا يعرفها إلا أولئك الذين شقوا طريقهم حتى وصلوا إلى معتقدات راسخة آمنوا بها دون أن تبدو عليهم آثار صراع داخلي . وكان في تفكيره يمتاز بالبساطة الجادة ، مما منحه سلطاناً على أصحاب العقول الرخوة المترددة . ومن الممكن أن نصفه بأنه بطل من أبطال الرياضة — لا رياضة الجسم ، ولكن رياضة الفكر — أو أنه قديس مجرد من النوازع العاطفية أو قد نقول عنه — ببساطة — إنه قد ولد موجهاً للضمير . ولقد كرس جهده ليجعل من جنيف جمهورية إنجيلية وأن يقود حزب الإصلاح — أو الهيجونوت — في فرنسا .

وفي تقديمه لنفوذ كلثن في فرنسا يقول رنان Renan^(١) إنه نجح في عصر وفي بلد كانا يطلبان العودة إلى المسيحية ، لسبب بسيط وهو أنه كان أشد رجال جيله استمساكاً بالمسيحية . هذا الحكم صحيح إلى حد كبير ، ولكنه ليس كل الحقيقة . كان كلثن مسيحياً ، بسيطاً مترفعاً في حياته الخاصة ، مسيطراً على عواطفه ، سامياً في أهدافه . ولقد سخر كل قواه الجسمية والعقلية في محاولة هدفها أن يعيد إلى العالم مسيحية القرون الثلاثة الأولى التي كون عليها بأسلوبه الذهني الهادئ المتوثب صورة مُقْنِعة . كانت مراسلاته شديدة الوفرة ؛ ومن المدينة التي اتخذها وطناً له أخذ يبعث النصائح الروحية لكل هيئات الهيجونوت في فرنسا : فهو يثبت إيمان المتشككين ويهز الكسالى ويشجع من وهنت روحهم المعنوية ويؤنب المتخلفين . ولكن لا ورعه المسيحي ولا نشاط قلمه الذي لا يهدأ كان كفيلاً بأن يجعل منه قوة في فرنسا لولا ما كان عليه من قدرة فائقة في التراكيب المنطقية ، مع إشراق العبارة ووضوحها ، وإيجاز العرض وحاسة الاتزان — وهي وحدها الصفات الكفيلة بأن تمكن مثقفاً فرنسياً أريباً أن يكون مسموع الكلمة في فرنسا .

وفي عام ١٥٦١ كتب سفير البندقية إلى الدوج ما يلي : « إنه ليصعب على قداستكم تصديق القوة والنفوذ اللذين يتمتع بهما في هذه البلاد أكبر حكام الكنيسة

(١) ١٨٢٣ - ١٨٩٢ . فيلسوف ومشرق فرنسي ، اشتهر في العالم الإسلامي بمساجلاته

مع جمال الدين الأفغاني في باريس .

في جنيف ، واسمه كلشن ، وهو فرنسي من مقاطعة بيكاردي . إن له سلطاناً خارقاً ، يفوق كل الآخرين بأسلوب حياته وتعاليمه وكتاباتاته . وكان مما يدعم نفوذ كلشن تلك السمعة المنقطعة النظير التي كانت تتمتع بها جنيف ، فهي المدينة التي كان شعبها يختار حكامه ، والرعية قسسا ، وليس بها كنيسة ممتازة ولا طبقة أرستقراطية ، ولكن يتساوى أهلها جميعاً أمام القانون تساويهم أمام الله .

وكان كلشن - محقق سنیکا وناشر مؤلفاته - رواقياً كأستاذه : فهو يؤمن بوجوب اتباع الفضيلة لذاتها دون أمل في جزاء أو خوف من عقاب . وهذا المثل الأعلى الرواقى الذى طورته تعاليم الإنجيل جزء لا يتجزأ من العقيدة الكلشفية . وكذلك لم ينل من نفوذها الأدنى ذلك المبدأ الآخر الذى نادت به العقيدة وهو مبدأ القدورية : بمعنى أن بعض الناس قدر لهم سلفاً أن يحيوا حياة سرمدية ، بينما أعد للآخرين عذاب مقيم ، وهو مبدأ لم يكن كلشن ليعثر عليه في الإنجيل ، ولكنه استنبطه من تعاليم القديسين بولس وأوجسطين .

والحق أنك لن تجد بين الشعوب الأوربية من هم أصلب عوداً أو أشد تمسكاً بشعائر عقيدتهم ، أو حرصاً في البحث عن أسباب الثروة من أتباع عقيدة قد يبدو أنها تسفه كل جهود البشر وتدعو إلى حياة الحمل والدعة .

عاش كلشن في جنيف من عام ١٥٣٦ إلى وفاته في عام ١٥٦٤ ، باستثناء فترة ثلاث سنوات من ١٥٣٨ إلى ١٥٤١ . وفي جنيف شكل طرازاً جديداً من الدولة الثيوقراطية- فرضت نفوذها على روح الكنائس « الإصلاحية » وتكوينها في جميع أنحاء العالم . وسر التنظيم الذى وضعه كلشن ما اهتدى إليه من أنه في خلال القرون الثلاثة الأولى من تاريخ المسيحية كان الذين لا يستحقون رحمة الله يحرمون من مائدة العشاء الربانى . لهذا عزم على إحياء هذه القاعدة القديمة ، فيقصر الامتياز الأسفى بالانتماء إلى الكنيسة على المتعبدين الذين يثبت إيمانهم ويمتحنون في تقواهم . ولم يثبط من همته أن مثل هذا الهدف لا يمكن تحقيقه دون إشراف دقيق شاق على الحياة الخاصة للفرد . وهو قد رحب بفرض شروط يخضع بمقتضاها رجال الدين والعلمانيون على حد سواء لرقابة صارمة . ورغم أن دعوة السلطة العلمانية لتأييد النظام الروحى كانت مما يناقض تعاليمه ، فإنه كان مقتنعاً بأن من واجب الحاكم في جنيف أن يعضد الكنيسة . وأية تضحية لا يمكن تبريرها في

سبيل رد الناس إلى التقوى ؟ لهذا أنشئ^١ في جنيف مجلس أعلى ، بعض أعضائه من العلمانيين وبعضهم الآخر من الكهنوت ، بمهمته فرض طائفة من الجزاءات على كل من يترأخى في سلوكه الشخصى وفي معتقداته الخاصة . كان الموت عقوبة الزنا والتجديف والهرطقة . وهكذا أصبحت حكومة جنيف العابسة ، المنقبة عن أخطاء الناس ، الشديدة البطش ، وقد اتخذتها بلاد أخرى نموذجاً تحتذيه — أصبحت مصدر قسوة ومكابدة للناس في العالم الجديد والقديم على السواء . أما في جنيف ذاتها فقد تسميت في حرق سرفيتوس Servetus الموحد (Unitarian)^(١) وقد اشترك كلثن في إصدار قرار الحرق ووافق عليه .

ولأنه لمن ذواعى عظمة كلثن أنه لم يكن فقط قطب الرعى في حركة أوربية واسعة ، بل إنه كذلك قد جعل من جنيف — في نطاقها الضيق المحدود ، ضد كل ما يمكن تصوره من العراقيل — المدرسة الكبرى لعقيدة الإصلاح . وقد افتخر في خطاب وجهه إلى الحريجين من رعاة الكنيسة في جنيف بأنه في خلال الفترة الطويلة التي قضها يلقي تعاليم الإنجيل ، لم يقدم قط على مسخ أى نص من نصوص الكتاب المقدس . وبفضل جهوده أصبحت جنيف مدينة على ثقافة عالية ؛ بل إنها غدت كذلك ، وبوجه أخص منذ إنشاء الجامعة في عام ١٥٥٩ ، مركزاً لتدريب الرعاة البروتستانت أو الهيجونوت . وحين حل كلثن بجنيف كانت مدينة شديدة الصخب منقسمة على نفسها ، يشيع فيها الفساد ؛ فخلفها من بعده « إسبرطة » پروتستانتية وروحاً لكل ما في الحركة الإنجيلية لذلك العهد من جرأة وإخلاص وإيمان في التعصب .

كانت الكلفنية أكثر أشكال الإصلاح البروتستانتي اتساع مدى وأعماقها تأييراً ؛ فقد خلقت الكنيسة البروتستانتية في فرنسا ، وشكلت الجمهورية الهولندية ، وقبلها الإسكتلنديون ديانة قومية لهم . وقبل وفاة كلثن كانت المقاطعات البروتستانتية في سويسرا الشرقية قد قبلتها ، كما قبلتها البلاطينات ، واعتنقها معظم المجرين الذين خرجوا على روما . وحتى في إنجلترا ، حيث كان عليها أن تواجه تياراً جارفاً من الروح المحافظة ، كان لها أثرها البارز في المواد التسع والثلاثين التي تؤلف العقيدة

(١) الذى لا يؤمن بالثالوث .

التي أقرتها الكنيسة القومية . وكان هذا الأثر من الوضوح لدرجة أن الملكة إليزابيث ، على قلة عطفها على جنيف ، قد وقع عليها قرار الحرمان باعتبارها كلفنية . ومن بعد ذلك أصبحت الكلفنية قوة غالبية في السياسة الإنجليزية . ولكن ذلك لم يستمر إلا فترة وجيزة في عهد البرلمان الطويل الأمد ؛ ولم يحدث إلا بقوة السلاح ، لا نتيجة لتغيير في مشاعر الشعب . حتى إذا عادت الملكية إلى إنجلترا تدهورت الكلفنية مرة أخرى وأصبحت عاملاً ثانوياً وإن كان لا يمكن إهماله في الشعور الديني في البلاد . وإذا كانت جنيف لم تلق ترحيباً في بلاط شارل الثاني الطروب ، فإنها بالذات كانت طلبة سكان المناطق الساحلية في أمريكا الشمالية حيث ظل نفوذها العميق على الكنيسة والدولة — خاصة في مستعمرات نيوانجلاند — منذ رحلة السفينة ماي فلور Mayflower في عام ١٦٢١ حتى أواسط القرن التاسع عشر . وأثارت تعاليمها الجاهدة الحشنة تيارين متباينين ولكل منهما مميزات الخاصة : من تفاؤل البرجماسي المبني على التفكير الذي يحث على العمل الإيجابي ، المثالية والمتطرفة عند رجل العلم المسيحي الذي ينكر وجود الأمل والشر .

كتب يمكن الرجوع إليها

- Mark Pattison, Collected Essays. Ed. H. Nettleship, (1889).
- T.H. Dyer, The Life of John Calvin, (1850).
- H.F. Henderson, Calvin in his Letters, (1909).
- A. Bossert, Calvin (Grands Ecrivains Français).
- Ch. Borgeaud, The Rise of Modern Democracy in Old and New England. Tr. Mrs. Birkbeck Hill, (1894).
- Ch. Borgeaud, Histoire de l'Université de Genève. I, L'Académie de Calvin, (1559-1798).
- L. Häusser, The Period of the Reformation. Tr. Mrs. G. Sturge. Ed. W. Oncken. 2 vols., (1873).

الفصل الثانى عشر ألمانيا تتفق على ألا تتفق

التوازن بين القوى الكاثوليكية والبروتستانتية فى ألمانيا - أول صدمة خطيرة للحركة
اللوثرية - فيليب حاكم هس Hesse-شارل الخامس يهاجم اللوثرين - تراوح مصائر
الجانين فى الحرب - استنجد اللوثرين بفرنسا - صلح أوجزبورج (١٥٥٥)
- معاهدة كاتوكبريس (١٥٥٩) - فرنسا تخسر إيطاليا ولكنها تحصل على
متر وتول وفردان - الشخصيات الجديدة على المسرح .

إذا لم يكن فى الإمكان رد اللوثرين إلى حظيرة الكتلكة بالوسائل السلمية ،
أكان من الممكن سحقهم بالقوة ؟ فى عام ١٥٤٠ كانت الكتائب الضخمة فى
جانب الدول الكاثوليكية ؛ ولم تكن العقيدة اللوثرية معترفاً بها إلا فى عدد من الدول
الألمانية الصغرى : منتخبة سكسونيا ، ودوقية سكسونيا ، وهس ، وبرنزيك ،
وبراندنبرج (منذ عام ١٥٣٩) وبروسيا وعدد من المدن الهامة فى الشمال والجنوب .
وهؤلاء البروتستانت - وقد سمو بهذا الاسم نتيجة احتجاج protest على الادعاءات
الكاثوليكية وضع فى عام ١٥٣١ - قد نظموا أنفسهم ، وكان بإمكانهم إنزال جيش
إلى الميدان ؛ بل إنهم انتزعوا نصراً عسكرياً على أسرة هابسبورج حين أعادوا إلى
ورتمبرج دوقها - اللوثرى المنفى . ولكن إذا ما قارنا الموارد العسكرية والمالية التى كانت
لدى عصبة شمالكلدن Smalkalden بسطوة الدول الكاثوليكية - فيما لو اتحدت هذه
الدول أو استطاعت تعبئة مواردها ؛ وإذا ما قارناها بإسبانيا وفرنسا وإيطاليا والنمسا
والأراضى المنخفضة - بله نصف ألمانيا الكاثوليكية ، لوجدنا هذه الموارد العسكرية
والمالية مما لا يعول عليه . كان لا محيص لأية قوة يستطيع البروتستانت الألمان
إنزالها إلى الميدان من أن تتحطم أمام جيش يمثل - ولو على وجه التقريب - الموارد
التي تستطيع دول أوربا الكاثوليكية الاعتماد عليها . هذه الفروض لم تتحقق على
الإطلاق : فلا فى هذا الوقت ولا فى أى وقت آخر كان الدين هو الدافع الأوحد
فى السياسة الأوربية ؛ إذ وجدت إلى جانبه دوافع وعوامل أخرى . كان شارل مخلصاً
فى كاثوليكيته ، ولكن حتى شارل ذاته كان أحياناً على خلاف مع البابا . ولو أن

الأمراء الكاثوليك في الديات الألمانية خيروا بين أحد أمرين : توحيد ألمانيا كلها تحت حكم إمبراطرى قوى في ظل المذهب الكاثوليكي أو بقاء ألمانيا منقسمة تحت حكم إمبراطور ضعيف ، لاختاروا الأمر الأخير . ولم يكن ثمة أمير - كاثوليكيًا كان أم پروتستنتيًا - على استعداد للموافقة على أية خطة تهدف إلى تعبئة موارد الإمبراطورية في سهولة وقوة بقصد تحقيق سياسة قومية ، كاثوليكية كانت هذه السياسة أم لوثرية . كان الأمراء قانعين بضرورة استمرار الإمبراطورية الرومانية المقدسة - فهي جزء من الماضي ، ورياستها بالانتخاب وتضمن مزاياهم الخاصة ، وتداخل كيائها مع ما لهم من امتيازات خاصة ، حتى أصبحت جميعاً تشكل كياناً واحداً - كانوا قانعين بذلك طالما لا يفكر الإمبراطور الروماني المقدس في التدخل في شئونهم الداخلية . ومن هنا اجتمعت مجامع إمبراطورية وأقيمت الولائم ثم انفضت ولم تضع شيئاً اللهم إلا الاعتراف أو عدم الاعتراف - دون جدوى - بالانقسام الدائم ، الذي غدا حقيقة مقررة . وحين أصبح من المعروف أن عصبة شمالكلدن - سطمب للمقاومة وأن لها أصدقاء في الخارج ، أحجم خصومها عن الالتجاء فوراً إلى استخدام القوة .

وكذلك كان المصلحون في كل المراحل الأولى من حركتهم الإصلاحية يتمتعون بالمزايا التي تتمتع بها كل هيئة نشطة من قوم متحمسين انطلقوا يشنون حملة على المساوي التي يعترف بها الجميع ، وهم أوفر استعداداً وأمضى سلاحاً من خصومهم في مجالات النزاع الجدلى . كان هجومهم الفكري والأدبي قوياً ، بينما كان الدفاع الفكري والأدبي - حتى نزل اليسوعيون الميدان - ضعيفاً . وكانت القوى العادية الممكن تنظيمها ضد الحركة الجديدة ، وهي القوى التي كانت تقف في صف المحافظة العمياء ، مجردة من السلاح نتيجة لإصرارها على عدم الاعتراف بالفلاحين والمعمدين على حد سواء . وبفضل نفوذ لوتر في تنظيم الحركة (وقد عاش حتى عام ١٥٤٦) لم يثر المصلحون الألمان ذلك اللون من الفرع الذي يحدو بالخصوم إلى الاعتقاد بأنهم يواجهون أحد تلك الأخطار التي تهدد الطمأنينة الأساسية في الحياة والتي ينبغي العمل على تجنبها بأي ثمن وقبل كل شيء آخر . والحق أن اليرثية كانت أكثر الأشكال التي اتخذتها حركات الخروج على روما في القارة محافظاً . كانت

طقوسها الكنسية منصبة في قالب الكاثوليكي ، ولم تكن عقيدتها الخاصة بتحول جسد المسيح ودمه تبعد كثيراً عن نظرية الكاثوليكية القائلة بتحول العناصر . ولم يكن دعايتها الأول بمعزل عن الكنيسة ؛ بل كانوا في معظم الأحيان رهباناً وقساوسة على درجة خارقة للعادة من التدين ، اعتقدوا أن باستطاعتهم لإرجاع الكنيسة إلى أساليبها الحقمة الأصيلة ، والفارق الآن بين الكاثوليكي والبروتستانتي واضح وعميق . أما في الجيل الأول للحركات الإصلاحية فقد كانت المعالم أكثر مرونة ، وكان إمكان الوصول إلى حلول وسطى أكثر احتمالاً . وقد اجتذبت التعاليم الجديدة رئيس أساقفة كولونيا ، وجاء وقت لاح فيه احتمال انحياز كل الأسقفيات الكبرى الثلاث على الرين إلى المعسكر اللوثرى .

وفي كل الحركات الدينية تأتى فترة من الخطر تظراً حينما تبدأ الحماسة العاطفية الأولى في الحمود ويدعى رجال السياسة ليأخذوا الأمر بين أيديهم . ولم يكن الأمراء الذين خلفوا الدعاة في توجيه الحركة اللوثرية على قدر من الخلق يرفعهم فوق المستوى العام لعصرهم وبلادهم ، بل كان واضحاً أن واحداً منهم كان أحط من ذلك المستوى .

وكان طلاق فيليب حاكم هس في عام ١٥٤٠ أول صدمة خطيرة أصابت الحركة اللوثرية ، وأول حادث أتاح لخصومها مجالاً قوياً لمهاجمتها . إن أولئك الذين تعرضوا للهجوم العنيف بسبب تدنى أخلاقهم سرهم أن يعلموا أن هذا الزعيم اللوثرى الكبير لم يكن أفضل من غيره ، وأنه أقدم على طلاق زوجته الشرعية ليتزوج امرأة أخرى أسرت لبه ، وأنه لقي تشجيعاً من بعض الفقهاء اللوثرين مثل بوسر Bucer وملانكتون ، بل من الدكتور مارتن (لوثر) نفسه برأيه الذى أبداه حين قال إن الكتاب المقدس يقرّ تعدد الزوجات . كذلك لم يخفف من ذلك العمل الشائن ما نصح به المتفقهون من وجوب إخفاء الزواج الثانى . ولم يكن فيليب هس مستعداً لا لإخفاء زواجه الثانى ولا لاقرار « كذبة جزئية كبيرة في سبيل خير الكنيسة المسيحية » تمشياً مع نصيحة لوثر . ولكن مجرد إسداء مثل هذه النصيحة قد خفف من حماسة الأمير لإخوانه اللوثرين ، بل دفعه — لوقت ما — إلى

الانضمام إلى معسكر الإمبراطور ، وأعلن بذلك عن انشقاق في صفوف البروتستانت .

وبينما كان الحزبان الألمانيان كل منهما يراقب الآخر بعين الكراهية المتحفزة ، وقع شارل صلحاً مع فرنسا (سبتمبر ١٥٤٤) وبذلك أصبح حراً - فيما لم فشل التوفيق - في أن يجرب سلاح القوة ضد اللوثرين . ويمكن تبرير هذه الخطوة بطائفة كبيرة من الأسانيد المتجانسة ، وبخاصة الانتصارات الأخيرة التي أحرزتها العقيدة البروتستانتية في البلاطينات وفي كولونيا ؛ كما تقدم إليه بالنصيحة كاهن اعترافه ، وكان صاحب نفوذ عليه استغل نفوذه لإشعال نار الحرب . ولكن الإمبراطور لم يكن يؤمن في قرارة نفسه بسلام ديني يتم بهذه الوسيلة العنيفة ، ولهذا لم يحزم أمره على أن يجمع جيشاً يضم أحلافاً ويضرب ضربته إلا بعد تردد طويل وبعد محاولات - لها مغزاها - لإخفاء غرضه الحقيقي .

وحين شن الإمبراطور الهجوم على جون فردريك حاكم سكسونيا وعلى فيليب هس - وهما أبرز قادة القضية اللوثرية - حرص على أن يبرر عمله باعتبارات سياسية محضة . أعلن أنه إنما يعاقب الأميرين لا بسبب هرطقتهما بل بسبب عصيانهما . ورغم أن البابا كان يقدم رجالاً ومالاً ، فإن شارل كان يعلم أن شن حرب صليبية صريحة على الهرطقة لن يلقى ترحيباً من الألمان ؛ فهو نفسه كان يعتمد على تعضيد بعض الخارجين على الكنيسة - ومن ذلك أنه كان يعتمد بوجه خاص على المهارة العسكرية المعروفة عن موريس حاكم سكسونيا الماكر الطموح الذي كان الإمبراطور قد وعده بمنصب جون فردريك الانتخابي^(١) .

وتميزت الحرب التي اندلعت بعد ذلك بعجز القواد البروتستانت عن الاستفادة من المزايا العظمى التي توافرت لهم في البداية ، كما تميزت بخيانة الأمير موريس القاصمة ، وبانتصار الإمبراطور في ميلبرج Mühlberg على نهر الألب (٢٤ أبريل ١٥٤٧) ، وهو النصر الذي توج انتصاراته الأخرى . ولكن انتصارات شارل العسكرية لم تعجل بحسم المعضلة الدينية ؛ فلم يترتب على هزيمة الجيش اللوثرى

(١) انضم موريس دوق سكسونيا إلى جانب الإمبراطور بسبب غيرته من ابن عمه فردريك منتخب سكسونيا ؛ وكان موريس يطمح في أن يؤدي ذلك إلى جعله منتخبا لسكسونيا بدلا من فردريك .

وأسر جون فردريك وتسليم فيليب هس دون قيد أو شرط ، أى تعديل فى الميزان العام للعقيدتين المتصارعتين ؛ بل لم يكن الألمان اليوم أشد ميلا إلى مساعدة الإمبراطور ، فى علاج ذلك البلاء الذى ظل يقوض الحياة الألمانية العامة ، ونعنى به الفوضى السياسية التى كانت تخيم على البلاد . وحين اقترح شارل تكوين عصبة ألمانية يرأسها قواد دائمون ، لها موارد دائمة وجيش نظامى ، لم يلق من يستمع إليه فى الحجب الإمبراطورى ؛ وحين وضع خطة ترى إلى جعل الإمبراطورية وراثية فى أسرة هابسبورج ، رفضها المنتخبون فى الحال . وكان من الواضح أنه - وهو ألمع شخصيات أوروبا - يريزح فى ألمانيا تحت وطأة كل أنواع الصدد والتحقير . كان الأمراء يشكون فيه لأنه كان يبغي السلطان ، وكذلك كان يشك فيه الكاثوليك لرغبته فى إصلاح المفاسد ، والبروتستانت لإخلاصه للبابا . ولهذا عندما وضع مشروع مدروس للتوفيق عرف باسم (Interim) (١٣ مايو ١٥٤٨) ، هاجمه كل الناس ولم ينفذه أحد .

ثم تلت ذلك فترة أصيب شارل أثناءها بإذلال مباشر كان أنكى على ألمانيا ، وأدى - بسلسلة طويلة مترابطة من الأحداث - إلى هاتين الحربين الفرنسيتين - الألمانيةين الكبيرتين اللتين اجتاحتا أوروبا فى القرنين التاسع عشر والعشرين^(١) . وكان موريس حاكم سكسونيا وهنرى الثانى ملك فرنسا الجديد هما الممثلان الرئيسيان فى تلك المأساة . كان موريس قد باع نفسه لشارل فى عام ١٥٤٦ جرياً وراء المنصب والسلطان ؛ إذ كان يبغي سلب جون فردريك منصبه الانتخابى ونقل الأملاك التى كانت فى يد فرع إرنست إلى فرعه هو (الألبرتى) من أسرة فتن Wettin . ولما كان مغامراً نهماً ، فقد جرى وراء أشياء أخرى لم يقيض له الحصول عليها ، وإن كان قد خرج منها فى الواقع بصيد ثمين . فقد حصل على المنصب الانتخابى ، ولكنه لم يحصل على مجد بورج ؛ وربما قد أثارت شكواى أخرى ، وإن كانت أقل مساساً بشخصه : كاستمرار حبس صهره فيليب هس واعتداء

(١) يقصد المؤلف حرب السبعين (١٨٧٠ - ٧١) والحرب العظمى الأولى (١٩١٤ - ١٩١٨) . وقد نشر الكتاب قبل نشوب الحرب الثالثة فى عام ١٩٣٩ التى كان من ورائها كذلك العداء التقليدى بين فرنسا وألمانيا .

الإمبراطور على الحريات المحلية التي كانت تتمتع بها بعض المدن البروتستانتية . وهكذا تحول سريعاً من خيبة الأمل إلى الشك فالغضب وبدأ سرّاً في تكوين تألب ضد الإمبراطور ، وراح يبحث عن حليف قوى ، فولى وجهه شطر هنرى الثانى ملك فرنسا . وليس ثمة كثير يمكن أن يقال لمصلحة هذا العاهل سوى إدراكه أن مصالح فرنسا الحقيقية ليست فى إيطاليا ، بل على الرين . وقد تمشت مقترحات موريس وزمرته من القواد البروتستانت مع ذلك التقرير البارح لحاجات فرنسا . فاتفق فى معاهدة شامبور Chambord (١٥٢٢) على إعطاء هنرى متروتول وفردان ومدينة كامبرى يحكمها بوصفه نائباً للإمبراطور ، وذلك مقابل تعضيدته للشوار الألمان . وهكذا منذ عقدت هذه الصفقة الشهيرة وضعت فرنسا قدميها فى الألتراس واللورين .

وبينما كان الفرنسيون منشغلين بالاستحواذ على مغانهم ، زحف جيش موريس على إنزبروك Innsbruck واضطر الإمبراطور إلى الهرب فجأة ناجياً بحياته عبر ممر برنر . ومنذ ذلك الوقت لم يعد لشارل أدنى تأثير على مصائر ألمانيا .

وكانت النتيجة أن السلام الدينى فى ألمانيا لم يتم على يد شارل ؛ بل تم على يد أخيه فردناند وهو من أعقل الحكام من آل هابسبورج . كان شارل يسعى إلى إقرار التفاهم على أساس التوفيق ؛ أما فردناند فقد سلم بالانقسام كحقيقة واقعة لا مناص من التسليم بها ، وكان المبدأ الأساسى الذى قام عليه صلح أوجزبورج (٢٥ سبتمبر ١٥٥٥) هو حق كل إمارة فى اختيار عقيدتها Cujus regio ejus religio ؛ فلكل أمير الحق فى أن يحدد فى بلاده شكل الكنيسة ونوعها دون تدخل من جانب الإمبراطور أو الديات . وهكذا ثبت أن فكرة إعادة توحيد ألمانيا حتى يمكن توجيه قواها ضد فرنسا ، وهى الفكرة التي كانت لا تفتأ تداعب خيال شارل ، لا تعدو أن تكون حلماً بعيد المنال . فلم يكن الكاثوليك على استعداد للتسليم للوثرين ، ولم يكن اللوثرين بدورهم على استعداد للتسليم للكاثوليك . على أن فردناند أخذ بخطة التوفيق فى أعضل المسائل : فقد تقرر حرمان كبار الأساقفة والأساقفة والقسس الذين تحولوا إلى البروتستانتية من مناصبهم وممتلكاتهم ؛ على أن لا يسمح لأى حاكم دينى بأن يفرض العقيدة الكاثوليكية بالقوة على رعاياه .

والحق أن صلح أوجزبورج لا يمكن أن يدرج في عداد الوثائق الحرة ؛ فهو لم يفسح مكاناً لتلك الأنواع من العقيدة البروتستانتية التي ازدهرت في زيوريخ أو في جنيف ؛ كما أنه لم يعلن مبدأ التسامح الديني . ولكنه يستحق التقدير باعتباره حلاً نافعاً - وإن لم يصقل - لتزاع خطير - فإذا كان لم يجلب إلى ألمانيا الوفاق الديني ، فقد أبعد عنها شبح الحرب نصف قرن من الزمان .

وبعد أربع سنوات من تلك التسوية الدينية (إبريل ١٥٥٩) عقدت معاهدة أخرى في كاتو كمبرسيس Cateau-Cambrésis ، وهي المعاهدة التي وضعت حداً لذلك النضال الطويل الذي نشب بين فرنسا وإسبانيا من أجل السيادة على إيطاليا . وإذا كانت الدول الأبية الحساسة لا تتخلى ببساطة عن مطامعها الكبيرة ، فن السهل أن نتصور أن فرنسا - دون ألم أو شعور بالمذلة - تتخلى عن أحلامها في السيطرة على إيطاليا ، وهي الأحلام التي ما فتئت فرنسا ستين عاماً تسخو لتحقيقها بالدماء والمال . ولكنها تلقت في المرحلة الأخيرة من النضال تحذيرين خطيرين : فقد هزم الإسبان في نابولي جيشاً فرنسياً يقوده دوق جيز أبرع قواد فرنسا ، ويسنده بولس الرابع أشد البابوات اختلالاً ، وقفل هذا الجيش متقهقراً صوب الألب ، وعلى مقربة من فرنسا ذاتها - على مسيرة أيام قلائل من باريس - دحر جيش فرنسي آخر يضم زهرة نبلاء فرنسا ويقوده كونستابل مونغورنسي Montmorency ، كبير نبلاء فرنسا وأكبر مستشاري الملك ، أمام أسوار سان ككتان على يد جيش إمبراطوري يقوده عمانوئيل فلبرت Emmanuel Philibert دوق ساقوى . ولم يحدث منذ أيام أجنكور Agincourt^(١) أن نزلت بنبلاء فرنسا وفرنساها مثل هذه الضربة القاصمة ، ولم يحدث إطلاقاً أن أسر مثل هذا العدد الكبير من النبلاء الممتازين . وارتفع صوت أسرى الحرب - بما فيهم مونغورنسي - ملتمسين عقد الصلح .

وهكذا ترك الفرنسيون إيطاليا بعد انسحابهم من بيدمونت وساقوى لقمة سائغة في يد الإسبان . ولكنهم لقوا في الشمال ما عوضهم عن تلك الخسارة ؛ فإن أحداً لم يطالبهم بإعادة أسقفيات اللورين الثلاث - بل لأنهم أضاعوا إليها كاليه التي

(١) قرية في شمال فرنسا في قسم بادى كاليه Pas de Galais ، جاءت شهرتها من وراء انتصار هنري الخامس ملك إنجلترا على الفرنسيين في ٢٥ أكتوبر ١٤١٥ .

انتزعوها من الإنجليز في عام ١٥٥٨ سواء لخير إنجلترا أو شرها . ومنذ ذلك الوقت اتجهت أطماع فرنسا في القارة صوب الرين .

ثم أعد المسرح لاستقبال ممثلين جدد . كان شارل الخامس الهامام قد نفّض يديه من أعبائه التي لا تنتهي ، وانزوى في دير إسباني معتل الصحة مضيق الآمال ؛ وخر موريس الحائن صريعاً في الميدان ؛ وكان هنري الثامن وإدوارد السادس وماري ملوك إنجلترا قد ماتوا . ولم يبق من شخصيات الماضي الكبيرة سوى شخص واحد أثبت كفايته في الحرب والسلام ، هو فردناند حاكم النمسا الذي غدا الآن إمبراطوراً . أما الرجال الجدد فهم فليب ابن الإمبراطور المتقاعد ، الأمير المدقق الدعوب الممعن في كاثوليكيته ، وعمانوئيل فلبرت حاكم سوفاي ، وهو القائد الشاب الذي انتصر في معركة سان ككتان والمؤسس الحقيقي لتورين وتلك الدولة الصغيرة في جوف الألب في الركن الشمالي الغربي من إيطاليا ، وهي دولة بيدمونت التي ستوحد الشعوب الإيطالية تحكمها في القرن التاسع عشر . أما إنجلترا فكان على عرشها امرأة شابة تدعى إليزابيث لم تكن معروفة حينئذ ، ولكن كان يبدو أن لها قدرها في موازين أوربا ومصائرهما . وفي بلاط فرنسا كانت توجد فتاة تدعى ماري ، وهي ابنة جيمس الخامس ملك إسكتلندة من ماري جيز ، قبض لها أن تحمل على رأسها تيجان إسكتلندة وإنجلترا وفرنسا . أما هنري ملك فرنسا فقد قتل في حفلة مبارزة بعد وقت قصير من توقيع تلك المعاهدة الهامة ، مخلفاً من بعده أرملة إيطالية أطلق عليها الفرنسيون اسم كاترين دي مديسيس Catherine dei Médicis . وقد قدر لها هي الأخرى أن تلعب دوراً مثيراً على ذلك المسرح الحافل .

كتب يمكن الرجوع إليها

- Cambridge Modern History, Vol. II.
- B. Zeller, *Histoire d'Allemagne*, Vol. V, (1885).
- O. Engelhaaf, *Deutsche Geschichte im Zeitalter der Reformation*.
- P. Voigt, *Moritz von Sachsen*.
- W. Stubbs, *Lectures on European History*, 1519-1648. (1904).
- L. Haüsser, *The Period of the Reformation*, (1873).
- L. von Ranke, *History of the Reformation in Germany*. Tr. S. Austin, (1905).

الفصل الثالث عشر

الإصلاح الكاثوليكي

إجناطيوس ليولا Ignatius Lyola - نظام اليسوعيين - مجمع ترنت Trent - روح الإصلاح - تدخل روما - بيوس الرابع - قلاع البروتستانتية - بوهيميا والبلاتينات - ضعف الحركة البروتستانتية - الأمور المثيرة للزجاج في صلح أوجزبورج - ضالة شأن الحكومة الألمانية - مكسميليان الثاني - عهد رودلف الثاني الخافل بالكوارث - تربية اليسوعيين - فتوح اليسوعيين في النمسا وبولندا .

في يوم ١٥ أغسطس ١٥٣٤ ، وهو العام الذي قطع فيه هنري الثامن علاقاته بروما ودفع فيه توماس مور حياته ثمناً لاستمساكه بالعقيدة القديمة ، ورفع فيه جاك كارتيه Jacques Cartier - من سان مالو St. Malo - الصليب على خليج سانت لورنس - في ذلك اليوم اجتمع سبعة من الطلاب في كنيسة القديسة مريم على ربي مونمارتر في باريس حيث أقسموا على التزام العفة والفقر ، وعاهدوا أنفسهم على أن يقضوا حياتهم في أورشليم ، مكرسين جهودهم لأعمال اعتبروها أقدس الأعمال ، وهي رعاية المسيحيين ، وتنصير المسلمين . كان زعيم هذه العصبة رجلاً أعرج من جماعة الباسك ، في أواسط العمر اسمه أنيجو لوپيز دي ريكالدي Inigo Lopez de Recalde ، وإن يكن التاريخ يعرفه باسم إجناطيوس ليولا . كما كانت العصبة تضم شخصين آخرين هما أجزافيه Xavier ولينيز Lainez .

ولإسبانيا بلد المتصوفة والرهبان والحجاج والأجناد . كان ليولا جندياً خيالياً . يمثل بأسلوبه الصارم الخيالي الحماسة الدينية الصليبية التي عرفت عن مواطنه ، تماماً كما تجسم في لوثر ذلك الورع الإنجيلي الذي عرف عن فلاحى سكسونيا في القديم . حارب في نافار (١٥٢١) حيث أصابه الجرح الذي خلف فيه عرجاً لازمه طيلة حياته ؛ وفي أيام نقاهته البطيئة المؤلمة اتجه بتفكيره إلى نوع جديد من الخدمة يستوى في بطولته وشاعريته وتضحيته ، ويقدم لمن راض نفسه ووهبها للخير فرصاً للسمو إلى أعلى عليين . قرر قراره على أن يصبح جندياً للمسيح ، ولم يكن

أى تعذيب للبدن فى سبيل تطهيره من الأدران أمراً شديداً القسوة بحيث يتخرج عنه هذا الرجل المتقد حماساً . هجر أسرته ، وعاش على الخبز والماء ، محاسباً نفسه حساباً عسيراً بضع مرات فى كل يوم ، وأخذ نفسه بنظام قاس من الصلوات وقمع مطالب الجسد ، ليروض نفسه على الاندماج فى الذات العليا . ثم بعد رحلة إلى بيت المقدس مرتجربة لا تمر دائماً بمن شفهم الوجد : فقد غدا يهتم نفسه بالجهل ويتحرق شوقاً إلى المعرفة ، وإلى على نفسه أن يتعلم ؛ حتى إذا كانت سنة ١٥٢٨ وجد نفسه فى باريس ملكة الجامعات ، وفيها تلقى العلم سبع سنوات ، وفرض إرادته المسيطرة على صحبة من الرفاق ، وتراءت له فكرة مشروع يقوم على الفروسية المقدسة تنهض به صفوة من الناس امتحنت نفوسهم .

وكان من حسن حظ الكنيسة الكاثوليكية أن الحرب بين البندقية وتركيا عرقلت المشروع الذى كان ليولا ورفاقه قد تعاهدوا عليه : وهو تكريس حياتهم للتبشير فى فلسطين . وفى إيطاليا وجد تحرقهم إلى نصرة الدين ميداناً بزّ غيره من الناحية العملية . فقد أقسموا على الطاعة ، ورسّموا قساوسة ، وسموا أنفسهم جماعة المسيح ؛ وفى ٢٧ سبتمبر ١٥٤٠ حصلوا من البابا بولس الثالث على مرسوم بتكوين « فيالق العسكرية الكنسية Regimini Militantis Ecclesiae » ، وهو المرسوم الذى أرسى القواعد التى قام عليها نظام اليسوعيين .

ووجه الأهمية فى النظام الذى ابتدعه ليولا أنه وفر للبابوية صفوة مختارة من الناس دربوا بعناية لتنفيذ مشيئتها . ويقدر صرامة مسئوليات اليسوعيين كانت ضخامة الامتيازات التى منحت لهم : فقد أعفوا من الضرائب ، وكانوا لا يعترفون للأمرأ بأية رئاسة ، كما أعفوا من الخضوع لقضاء رجال الدين إلا من طائفهم . أما تنظيمهم فكان عسكرياً أوتوقراطيّاً ؛ إذ كان يرأسهم قائد (جنرال) منتخب مدى الحياة ، يتبع البابا فى كل الأمور . ولا يقل عن ذلك أهمية المقومات الأخرى لنظام اليسوعيين من رياضة النفس رياضة روحية ، وتقدير التربية والتعليم ، وهو الأمر الذى تميزت به أخصب سنى ليولا نفسه . وكان تدريب اليسوعى المبتدئ بالغ الصرامة — فهذه الرياضات الروحية التى وضعها مؤسس النظام كانت تقتصد إلى تطهير الفكر من الأخيلة المشتتة ، وتدريب الإرادة على الحياة المكرسة لهذا الغرض

ولكن هذا النظام لم يقصد إلى تكوين طائفة من الرهبان المنعزلين عن العالم ؛ فإن أهداف ليولا كانت عملية بقدر ما كانت خيالية . كانت مهمة اليسوعى أن يعظ الناس ويصغى إلى اعترافاتهم ويعلمهم أن « التعقل الكامل ممزوجاً بالتدين المعتدل أفضل من كثير من التدين مع مجرد التعقل » وأن « الكنيسة لو قالت عن شيء ما إنه أسود — ولو كان يبدو أبيض — فما علينا إلا أن نقر في الحال أنه أسود » . مثل هذه الأقوال ترينا روح الخضوع التام والتسليم المطلق للذين خلعا على النظام مقوماته الخاصة . وحيثما احتاج الأمر إلى وضع سياسة ما ، تجد القس اليسوعى مستعداً أبداً بنصائحه . وحيثما احتاج الأمر إلى جهد تربوي — سواء في أوروبا أو في الصين — كانت مدرسة اليسوعيين أو كليتهم — المتمتعة دائماً بالكفاءة والمقدرة والخاضعة لإدارة جيدة صارمة — أداة هامة ، لأكثر من قرن ، في يد النفوذ الكاثوليكي والدعاية الكاثوليكية .

* * *

وقد اتضح لكل العقلاء من الكاثوليك منذ زمن بعيد أن الكنيسة قد أضحت كومة عالية من المفاسد . سلم البابا أدريان السادس بالحاجة إلى الإصلاح ، وكان قبل ذلك قد كتب عن كثير من الأمور المشينة التي استشرت في البلاط البابوي ذاته ، كما اعترف بذلك الداء المزمن الذي استشرى في كيان الكنيسة برمتها بحيث كان من العبث إخفاؤه . نفس هذه النغمة ترددت بشكل أكثر تجسماً في وثيقة تستحق الاهتمام (عن الإصلاح الكنسي المتعلق بنظم الكرادلة Constitutum quarondam cardinalium emendenda ecclesia) قدمت إلى البابا بولس الثالث في عام ١٥٣٨ . هذه المفاسد الصارخة كانت أوضح في البلاط البابوي ومدينة روما منها في أى مكان آخر .

كان البابا يتمتع بسلطان مطلق . فقد وقف — معتزلاً بتقاليد طال عليها الأمد في السلطة المطلقة — يقاوم بعناد أى اقتراح يرمى إلى أن يتم إصلاح الكنيسة على أيدي مجالس قومية أو أن تطلق أيدي المجالس المسكونية للكنيسة في إخضاع الملاحدة أو تعريف صلاحيات الكرسي المقدس أو تحديدها . فقد كان للكنيسة في القرن الخامس عشر تجربة من تلك المجالس ، وقد اعتبرتها شراً ينبغي تجنبه ، ولا يسمح

به إلا إذا تلقت تلك المحامع أوامرهما من روما .

ومع ذلك ، فبعد كثير من التسويات والاعتراضات دعى مجمع ديني إلى الانعقاد في ترنت Trent ، فكان مرحلة حاسمة في تاريخ الكنيسة الكاثوليكية ، وذلك رغم أن أعضائه لم ينتظموا في حضور جلساته ، وأن هذه الجلسات أجلت عدة مرات استمرت إحداها عشر سنوات . وخرجت الكنيسة في آخر الأمر بتعاليمها وقد تحددت ، ونظامها وقد توطد ، وصلواتها وقد أثرت روعة موسيقى بالسترينا . وقد دخلت البابوية المجمع عرضة لكثير من الاحتمالات ، وخرجت منه منتصرة في كل قضية . وبدلاً من أن تضطر إلى التنازل مرضاة للوثريين ، أصرت على أن تضع مبادئ العقيدة على رأس موضوعات المناقشة ، واستطاعت - بفضل ما كان لها في أشخاص القساوسة الإيطاليين من أغلبية طيبة - أن تحصل خلال الجلسات الأولى على قرارات قاطعة بصدد المسائل الأساسية الثلاث : سلطة نصوص الإنجيل ، ومبدأ التبرير بالإيمان وحده ، وطبيعة القربان المقدس - وهي المسائل التي فصلت العالمين اللوثري والكاثوليكي كلا عن الآخر . وبهذه القرارات ضيقت البابوية نهائياً على الإمبراطور أملة الذي طالما راوده في أن يهتدى إلى خطة لتسكين ثائرة رعاياه اللوثريين ، ورسمت خطاً بيناً ، عميقاً وواضحاً ، فصل بين العقائد الكاثوليكية والبروتستانتية ، ووضع بذلك حداً لمحاولات التوفيق ، وبدأ عهداً من الصراع الصريح بين الجانبين . ولقد قال لورد آكتون Acton المؤرخ الكاثوليكي العظيم إن الكنيسة بهذه القرارات قد « طبعت نفسها بطابع عصر متسم بالتعصب ، واستدامت روح الفساد » . ولم تراجع قط بعد ذلك تلك التشريعات التي خرج بها مجمع لم ينتظم حضور أعضائه وكان يتكون في أساسه من قساوسة إيطاليين يخضعون للبابوية - وهي باقية إلى اليوم باعتبارها عقيدة الكنيسة الكاثوليكية .

وفي المرحلة الثانية من عقد المجمع ، وهي المرحلة التي بدأت في عام ١٥٦٢ بعد فترة توقف استمرت عشر سنوات ، ركز المجمع جهوده لبحث مشكلة النظام والتعليم في الكنيسة . فأصدر مراسيم تحتم إقامة رجال الدين في مقار أعمالهم ، ومراسيم لإنشاء معاهد لتدريب القساوسة ؛ ولكن المجتمع تجنب كل اقتراح من شأنه العمل على ملاقة الهرطقة في منتصف الطريق أو الحد من اختصاصات

البابا . ولقد حفظ لنا المؤرخ البندقي پاولو سارپي Paolo Sarpi بروح النقد التي تميز بها سجل ذلك المجلس الذي كان خارقاً للعادة وكان معنناً في الإخلاص لتقاليد الأوتوقراطية البابوية ولكن كان بعيداً كل البعد عن تمثيل أوروبا ، وجاءت قراراته مخيبة لآمال أولئك الذين كانوا يؤمنون بحكم الكنيسة بواسطة الحجامع الدينية . وكانت شخصية لينيز القائد الثاني لطائفة اليسوعيين والرجل الذي استرد النصر لقضية البابوية ، هي الشخصية الرئيسية في المناقشات الأخيرة . وقف هذا اليسوعي الصارم البليغ الذي لا يقهر كالعلاق في ذلك الخصم من التآمر الخفي والإحسان القومية الغاضبة والفجر السافر .

* * *

ولا يكاد يقل عن مجمع ترنت في أهميته — وإن فاقه قطعاً في أثره المباشر — ذلك التحسن الملحوظ في صفات شاغلي الكرسي البابوي ، الأمر الذي بدا واضحاً حين تولى بولس الثالث في عام ١٥٣٤ ؛ وبلغ أوجه بتولية بيوس الخامس في عام ١٥٦٣ . كان بابوات عصر النهضة العظام غالباً شخصيات فخمة عالمية تتقد حيوية : فهم طيبو المنبت ، على ثقافة عالية ، ويغدقون من كرمهم على رعاية الفنون والآداب ، ويأخذون بنصيب كامل نشط من عواطف عصرهم ومنافساته السياسية ومن شهواته الوضيعة أيضاً . كان لهم « أبناء إخوة » و « بنات إخوة » جاءوا من اتصالاتهم غير الشرعية ، وكان من أعز أمانيتهم أن يوفروا لهم مناصب تتفق ومكانتهم ، وكثيراً ما أذكوا نار الحروب وتعرضوا لفصائح صارخة . وقام بلاطهم على الانحجار بالمناصب الكنسية وجمع رجل الدين لعدة مناصب وعدم إقامته في مقر عمله . وفي إبان النضال الطويل بين فرنسا وإسبانيا للسيطرة على إيطاليا ، لم يستطيعوا أن يتفادوا القيام بدور فعال . كان بولس الثالث ، وهو من أسرة فارنيز Farnese العظيمة ، التي يمكن اعتبارها آخر الأسرات المالكة في عصر النهضة ، نصيراً لفرنسا ، وإن عرف بالتردد . أما يوليوس الثالث فقد كان ذا نزعة للتوسع والسيطرة ، وكان بولس الرابع (من أسرة كارافا Caraffa من نابلي) يكره إسبانيا كرهاً جنونياً دفعه إلى طلب معونة الأتراك ضدها . ولكن في تلك الأثناء لاح تغيير في الأفق — فالحركة الإصلاحية التي اجتاحت فرنسا وألمانيا وإنجلترا

كانت قد أخذت تطرق أبواب روما ذاتها ، وانتشر الشعور بوجوب عمل شيء ما ، وبأن الهيئة البابوية لن تظل سادرة في طرائقها القديمة ، بينما العالم كله ينادى بعمل فيه طلباً للتغيير والإصلاح . واستجاب بولس الثالث البابا الألعى الديوى لهذه الروح الجديدة ، فدعا مجمعا وأقام نظام اليسوعيين . أما البابا بولس الرابع المتقد حماسة وإيمانا فكان أكثر شعورا بهذه الروح . حقا إنه كان رجلا أضنته المشاعر السياسية التي عرفت عن نبلاء نابولي ، وهو الذي دبر تلك الحرب المنكودة لكي يمكن فرنسا من السيطرة على نابولي بلده الأصلي : كما أنه لم يكن فوق مستوى رذيلة المحسوبية . ورغم هذا كله فإنه كرس جهده لتفصيلات الإصلاح العملي ، فكان بذلك أول بابا يسير في هذا الطريق . ولكن أعظم تغيير حدث على أثر تولى بيوس الرابع في عام ١٥٥٩ ، فقد تميز عهد هذا الشاب الميلاني الحدير بالاحترام باختفاء تلك الخصائص التي خلعت على البابوية منذ زمن بعيد طابعا دينويا . لم يكن ينتمى إلى أسرة من النبلاء ، ولم يكن سياسيا أو داعية حروب ولا متجرا بالمناصب . بل لقد حكم بالموت على « أبناء إخوة » سلفه غير الشرعيين ، على حين كان ابن أخيه كارلو بوروميو Carlo Borromeo من أكثر شخصيات عصره تدينا . أما عن مجمع ترنت فقد كان يرضيه أن يدعى للانعقاد من جديد ، وقال في ذلك : « إننا نرغب في مجمع ، ولا جدال في أننا نود أن نعتقد وأن يكون عالميا . . . إنه سيصلح ما يحتاج إلى إصلاح ، حتى وإن كان ذلك في أشخاصنا أو في شئوننا » .

ولكن ربما كان ميشيل جسليرى Michele Ghislieri الرجل المتواضع الذي اعتلى العرش البابوي في عام ١٥٦٥ باسم بيوس الخامس أكثر البابوات تمثيلا للروح الجديدة ، روح التعصب الصارم الذي ألم بالحياة الدينية في إيطاليا في ذلك العصر . كان شعب روما يستثيره ذلك المنظر الذي لم يألفه : منظر البابا الناسك ، يخرج الشوارع حافي القدمين ، ولا يكثر براحة الظهيرة ، ويصحو مع الفجر ، ويقلل نفقات بلاطه إلى أدنى حد . لقد بدا لهم شخصية بعثت من بعض قبور العصور الوسطى حين حرم إعطاء أية أحياء للهيوجنوت وأبدى إعجابه بالفضائع التي قام بها ألفا في الأراضي المنخفضة ، وأرسل تلك السفن الحربية الإسبانية والبندقية التي

حطمت الأسطول التركي في لبنانو .

ولا شيء يفوق في مفعوله أن يضرب الإنسان المثل بنفسه . قال باولو تيبولو Paolo Tiepolo في عام ١٥٧٦: « لقد كان من حظ الكنيسة — إلى أقصى حد — أن توالى عليها عدد من البابوات ممن لم تلحق حياتهم شائبة ، ومن هنا حرص الآخرون على أن يسلكوا مسلكاً طيباً ، أو على الأقل تظاهروا بذلك . أخذ الكرادلة وكبار موظفي الكنيسة يحضرون الصلوات في مواعيدها ؛ واهتم أهل بيوتهم بتجنب كل ما من شأنه أن يثير الفضايح ، وتخلت المدينة كلها عن نزواتها القديمة ، واتخذت مسحة أكثر مسيحية في الحياة والسلوك مما كانت عليه في أي وقت مضى » . ولكن البابوات لم يصلوا بعد إلى حيز الكمال . فسكستوس الخامس المتدفق حيوية ، وهو الذي كتبت هذه الكلمات في عهده ، لم يكن قط جاهلاً متعصباً ، لم يسلم من يديه الغليظتين أي أثر قديم ، مهما كان بديعاً ، بل كان يذكر مفتقراً إلى خلال البر التي أوصى بها بولس الرسول^(١) . فهذا البابا نائب المسيح على الأرض ومحقق مؤلفات القديس أمبروز Ambrose^(٢) ، أبدى ارتياحاً ملحوظاً حين علم أن بعض رجال العصابات في كميانيا قد ماتوا على أثر تناولهم طعاماً مسموماً أعد لهم .

وقد أخذت ألمانيا — وهي البلاد التي ظهر فيها الانشقاق أول ما ظهر ومنها طبق آفاق أوروبا — أخذت دور الطليعة في الحملة التي شنت لرد البروتستانت إلى حظيرة الديانة الكاثوليكية ، ففي ألمانيا بدا أن الهرطقة الجديدة قد استقرت إلى أبعد الحدود ، وفيها كانت تشق طريقها على أوضح ما يكون ؛ وكان تخفيف حدة التوتر أو القيام بإجراءات قمعية أشق ما يكون في ألمانيا نظراً لأنه لم توجد بها حكومة كاثوليكية مركزية قوية . وما جاء عام ١٥٧٠ حتى كان شمال ألمانيا — وهي البلاد التي عرفت أثناء الصراع الطويل في العصور الوسطى بين الإمبراطورية والبابوية بحماسها لقضية البابوية — قد أوشك أن يتحول إلى كتلة بروتستانتية

(١) أحد حوارات السيد المسيح ، ومن كبار المتفكرين في الدين المسيحي . وقد قام بجهود تبشيرية كبرى — وأهميته بالنسبة إلى الدين المسيحي لا تفوقها إلا أهمية المسيح ذاته .

(٢) ٣٤٠ ؟ - ٣٩٧ . أسقف ميلان وأحد كبار آباء الكنيسة .

مترابصة . أما في المقاطعات الكنسية الواقعة في أسفل الرين فقد استجمعت المهرطقة — بعد انتشارها جنوباً من هولندا وغرباً من سكسونيا وشمالاً من سويسرا — استجمعت قدراً كبيراً من القوة لدرجة أثارت الخوف من احتمال انتقال أسقفيات الرين الكبرى إلى المعسكر البروتستانتي رغم التحفظ الديني الذي جاء في صلح أوجزبورج . استقرت الكلفنية البلاطينات واللوثرية في ورتنبورج وبادن . وكان القسس اللوثريون يعملون في قلاع نبلاء بافاريا وفي المدن الواقعة على الدانوب . وعلى حين ظل لإقليم التيرول شديد الاستمسك بالكاثوليكية ، كان كل من ستيريا Styria وكورنثيا Corinthia ومقاطعتي دوقية النمسا قد تحول إلى الطقوس البروتستانتية إلى حد كبير .

كانت القوة الحقيقية للمذهب البروتستانتي في وسط أوروبا — وإن لم يكن ذلك واضحاً في عام ١٥٧٠ — وتكمن في منطقتين إحداهما في أقصى الشرق في ألمانيا والأخرى في أقصى الغرب منها : الأولى مملكة بوهيميا القديمة ، التي كان يختار ملوكها بالانتخاب ، حيث استطاع أتباع هس "أولا ثم « الإخوان البوهيميون » ثم الدعاة اللوثريون من سكسونيا أخيراً ، استطاعوا أن يغرسوا في نفوس الفلاحين التشيكيين وفي نفوس النبلاء التشيكيين إلى حد كبير تحولا عنيفاً عن الولاء لروما ، والدولة الأخرى التي تركزت فيها القوة البروتستانتية في وسط أوروبا هي إمارة البلاطينات ، تلك المنطقة التي يرويها نهر النكر والرين حيث توالى على حكمها عدد من الأمراء المنتخبين الكلفنيين الذين حرصوا على أن يظلوا على اتصال بأبناء عقيدتهم في سويسرا وفرنسا جنداً مرتزقة للهيغونوت ، وأقاموا في عاصمتهم هيدلبرج مركزاً للآراء والتعاليم الكلفنية وعمارا كحلقة توثق الصلة بين قوى الثورة البروتستانتية المناضلة في هذه البلاد .

ورغم ذلك فقد وجد في الحركة البروتستانتية عنصران من الضعف كانا أعمق من البعد الجغرافي الفاصل بين بوهيميا والبلاطينات . فكلما ازداد فقهاء الديانة اللوثرية تعمقاً في بحث عقائدهم ، وألفوا عنها البحوث ، بدت لهم — وهم فقهاء لا يعرفون شيئاً في السياسة — شدة الحاجة إلى كبح جماح الكلفنية كما بدا لهم خطؤها واضحاً في نقاط حيوية كثيرة .

ووضعت صيغة للأمم الخلافات القائمة بين اللوثريين (Formula Concordiae, 1580) ،

وجعلت الخط الذى يفصل بين العقيدتين المتنافستين واضحاً لا يلحقه لبس ، فقد اتفق الكلفنيون واللوثريون على أن يحتفظ كل فريق بعقيدته - وهكذا، بينما كان فى وسعهم أن ينتزعوا ضمانات لحماية إخوانهم فى العقيدة ، وذلك عن طريق الضغط السياسى المشترك على الإمبراطور حين طلب منهم أن يساعده فى حربه مع الأتراك ، سارت سكسونيا اللوثرية فى طريق وسار منتخب البلاتينات فى طريق آخر .

على أن نقطة الضعف الثانية كانت أشد خطورة ؛ وهى تتمثل فى هبوط الحماسة الروحية ، وهو أمر يطرأ على كل الحركات الثورية حين تنحسر موجة الحماسة الأولى . فلم يترك لوثر من يخلفه فى زعامة الحركة اللوثرية ، وجاءت بين وفاته وميلاد جون سباستيان باخ مائة وأربع وثلاثون سنة خالية من العبقريّة اللوثرية . وجاء فى أعقاب عصر المبشرين والأخلاقين عصر من الحذقة الدينية والانحطاط العبودى وفى مجال الأدب عصر من الإسفاف الثورى الوضع . وأجذبت الحركة اللوثرية ، فلم يخرج من صفوفها أى مفكر أو بحاث عظيم ، ولم تجرف هذه الديانة أمامها اتجاهات سياسية ، وذلك رغم ما كان لها من أثر عام على أخيلة الناس وقلوبهم . ومع ذلك كان فى اللوثرية مصادر قوة داخلية ، ماثلة فى ذلك التدين الذى كان يطبع حياة الأسرة عند أوساط الناس ، وفى ارتباطها بموسيقى الكنائس ؛ وقد صمدت هذه القوة الداخلية لكل العوامل ، فلم ينل منها شئ حتى تنظيمها الحكومى وانتشار الفساد الخلقي فى ألمانيا .

وكان الوضع الدينى فى ألمانيا لا تزال تحكمه معاهدة أوجزبورج التى اقتضت كثيراً من الجهد حتى أمكن الحصول عليها والتى أسىء وضعها ؛ ولكنها رغم ذلك تأتى فى مصاف أنجح ما استطاع الساسة الألمان تحقيقه : إذ أنها منحت أوروبا نوعاً من السلام لفترة تزيد على الخمسين عاماً . ولكن لا اللوثريون ولا الكاثوليك كانوا على استعداد لأن يخلصوا فى تنفيذ هذا الحل الوسط للانضال الذى استنفد طاقتهم ؛ فإن اللوثرين لم يقبلوا إطلاقاً مبدأ «التحفظ الكنسى» الذى أجبر رجل الدين الذى يتخلى عن عقيدته الأولى على أن يتخلى كذلك عن الدخل والموارد التى كانت فى

يده فعلا. أما الكاثوليك فكانوا يرون أن الكنيسة الكاثوليكية يحق لها أن تسترد كل الممتلكات الكنسية التي صودرت منذ عام ١٥٥٢ ، واعترض اللوثريون على ذلك . وتمسك الأمراء الكاثوليك بحقهم في طرد البروتستانت من أراضيهم ، وإلا حق لهم اضطهادهم . وكان هذا في نظر البروتستانت ، الذين لم يكونوا أقل تعصباً من الكاثوليك ، نقضاً صريحاً لمرسوم التسامح الذي اعتبروه جزءاً لا يتجزأ من التسوية . وفي وقت كانت فيه مبادئ العقيدة مائعة في قلوب الناس ، بحيث إن الأمير أو المدينة أو مجمع القسس في الكاتدرائية أو أحد أجباز الكنيسة كان يستطيع أن يتحول من الكاثوليكية إلى البروتستانتية ، مثيراً في كل حالة تلك المسألة الشائكة : مسألة مصير أوقاف الكنيسة – في مثل هذا العصر من السهل أن نتصور كيف تعددت ظروف النزاع من جراء تنفيذ صلح أوجزبورج ووصلت إلى درجة خطيرة .

ورغم ذلك فإن الداء لم يكن مما يعز علاجه . حقاً لقد طرد قسس بروتستانت من أراض كاثوليكية ، وحرّم الوعظ على البروتستانت ، وكان يكفي أن يكون المرء بروتستانتيّاً لكي يغلق في وجهه كل سبيل إلى الوظائف العامة أو تحصيل الرزق ؛ وقد حدث ذلك دون أن يثير موجة من السخط العام لدى الرأي العام ، ذلك السخط الذي يثيره تحريق الأتقياء من الناس من أجل عقائدهم . ولكن مما يجب أن يذكر للحكام الكاثوليك في ألمانيا أنهم اتبعوا سبيل الحكمة فتحجبوا محاكاة أساليب محاكم التفتيش الإسبانية . فلو أن لوثرانياً أُعدم حرقاً ، لتعالت صرخات الألمان ولاضطروا أمراءهم إلى الخروج بجيوشهم طلباً للإنصاف .

وكان سر هذا الأفول في ألمانيا خلو البلاد من أية حكومة ؟ فلم توجد بها سلطة قوية قادرة على حسم الخلافات الناجمة عن تفسير المعاهدة الدينية أو ردع من يخرق أحكامها . كانت الجماع الإمبراطورية بطيئة العمل مشوشة النظام عديمة الأثر وأعضاؤها جاعحون . أما الأمراء فكانوا أكثر اهتماماً برعاية مصالحهم الأسرية والإقليمية المتعددة منهم باتباع خطة شاملة ومدرسة لحل المشكلة الدينية في ألمانيا . حقاً كان هناك الإمبراطور ، وهو هابسبورجى تربطه بمملكة إسبانيا القوية وشائج عائلية وثيقة ؛ وكان ملكاً على بوهيميا ، وملكاً على المجر بالاسم (رغم أن فتح

لأنتراك للمجر لم يترك له إلا حكم رقعة صغيرة من تلك البلاد ، وكان كذلك حاكماً على الدوقيات الخمس : النمسا العليا والنمسا السفلى وستيريا وكارنثيا Carinthia وكارنيولا Carniola . لم يكن ثمة أمير ألماني يدانيه في مكانته أو في اتساع الأراضي التي يحكمها ؛ ورغم أن سلطاته الدستورية في الإمبراطورية قد تقلصت إلى حد كبير ، فإنه كان لا يزال ثمة لدى الشعب الألماني رصيد كامن من مشاعر الولاء للإمبراطورية ، وهو رصيد كان بإمكان رجل عظيم أن يلبأ إليه ويستثيره لو استطاع أن يلهب خيال الناس ويعالج أموره مع الأمراء ويتصدى بشجاعة لمعضلة الجامعة الجرمانية . ولكن أباطرة الهابسبورج في النصف الثاني من القرن السادس عشر لم يكونوا في مستوى هذه المهام العظام . كان فردناند الأول (١٥٥٦ - ١٦٤٠) كاثوليكيًا طيباً حكيماً . وقد وفق طوال حياته في توفير شروط معقولة لرعاياه البروتستانت رغم أنه سمح لليسوعيين بالعمل في ثينا . أما خلفه مكسميليان الثاني فقد أشاد به ستبز Stubbs ^(١) باعتباره « أول عاهل أوروبي من أي دين رفض أن يلبأ إلى الاضطهاد » ، ولأنه اعتذر عن تنفيذ دعوة البابا بيوس له لمهاجمة البروتستانت ، كما رفض أيضاً رجاء البروتستانت له أن يطرد اليسوعيين . ولكن رغم ذلك كانت تعوزه الصفات التي يستلزمها الموقف . فهذا الرجل ذو الشخصية المحبوبة الذي استمع في شبابه إلى تعاليم الدعاة اللوثرين ، وفي أواسط عمره زوج ابنته بفيليب الثاني ثم في آخر رسالة له في الدييات أعلن حياده في المسألة الدينية ، وحين حضره الموت رفض مناولة الكنيسة - هذا الرجل لم يساهم بجهود إيجابية في تسوية النزاع الديني في ألمانيا . ورغم أنه هو نفسه كان متسامحاً ، فقد أقر أعمال الاضطهاد التي قام بها جيرانه . ورغم أنه كان كاثوليكيًا من الوجهة الرسمية ، فقد كان لوثرياً في روحه . وهكذا عاش موزع النفس بين العقيدتين المتنازعتين وسط حالة من التردد الذي لا نفع فيه ، الأمر الذي منعه من اتخاذ قرارات حاسمة تحتاج إلى جهد .

ثم تولى الحكم رودلف الثاني (١٥٧٦ - ١٦٠٢) الذي كان عهده خطيراً

(١) أكبر المؤرخين الإنجليز في القرن التاسع عشر . كان جل اعتماداه على الوثائق والمصادر الأصلية ، ولم يكن يعترف بفلسفة معينة للتاريخ .

منكود الطالع كاد يفضى بألمانيا إلى الحرب . ففي عام ١٥٧٦ كان الإمساك بزمام الإمبراطورية يتطلب رجلا ذا همة عالية أصيلا نشطاً ، مغرمًا بألمانيا ، قادراً على أن يوظف دعائم صداقة راسخة مع الزعماء السياسيين للشعب الألماني ، وهي وحدها السبيل إلى أن يسترد الإمبراطور شيئاً من نفوذه وسلطانه . ولكن رودلف كان على نقیض ذلك كله : لم يكن فيه شيء مما عرف عن الألمان من صخب وإسراف في الشراب ودماثة في الحق . تربى في البلاط الإسباني ، بما فيه من مراسيم شكلية ، بل إنه في شبابه قبل أن يلم به الانقلاب ويملك عليه نفسه ، أظهر من المراس ما عرف عن طالب العلم أو صاحب المركز الرفيع أو الراهب المتعب . وقد أورثه الميل إلى البعد عن الغوغاء مرضاً قتلًا في عقله ؛ وبينما كان الأتراك يحتاجون حدوداً المحر ، وبينما كانت ألمانيا تسير سراعاً إلى الفوضى والانحيار ، كان هذا الأعزب الشاذ العديم الشعور بالمسئولية يعيش معتزلاً بنفسه بعيداً عن جماهير الشعب الألماني الهائجة ، في تلك القلعة العالية التي تطل أبراجها على براغ ، يمضي أيامه بصحبة المنجمين والكيميائيين وسوآس الخيل ، قانعاً من دنياه بأن يدعوهم ينعم بنحوه وكتبه وأدواته الرياضية ومحظياته ، عاهداً بشئون الإمبراطورية المسئمة إلى رجل بعد آخر من الأصفياء العاجزين . فليس بمثل هذا الحاكم كان يمكن تهدئة الضجيج المتعالى من جانب الشعب الألماني .

وفي تلك الأثناء كان الإصلاح الكاثوليكي يمضي ببطء في إحراز انتصاراته بفضل التشجيع الخاص الذي كان يبذله أدواق بافاريا وبفضل المساعدة الملحوظة التي قدمتها له طائفة اليسوعيين .

أدرك إجناتيوس ليولا — مثله في ذلك مثل كل الساسة الذين يفوقون غيرهم دراية وبعد نظر — أن كل التغيرات البعيدة المدى في الاتجاه الروحي عند البشر ينبغي أن تقوم على المدرسة . رأى أن إفساد الإكليروس الكاثوليك وجهلهم هما الدعامة الأساسية للقضية البروتستانتية ، ولهذا صمم على أن يعالج هذا الداء بالتعليم . كما أنه رأى أنه بتأثير الإنسانيين أدخل في تعليم الشباب تقيم جديد للقيم : ثقافة طغت على اللاهوت ، وعقيدة أخلت مكانها للحرية ، وفقد المجتمع الحصون التي كانت تحمي العقيدة الكاثوليكية ، وهي حصون الجدل التي شادها المدرسيون العظام في العصور الوسطى .

ولكى يخدم ليولا هدفه المباشر ، وجد أنه من الأجدى أن يدرّب الصفوة من الناس بدلا من توزيع مواهبه على الجماهير . وعجلة التاريخ قلما يحركها الفقراء ؛ فالعالم — فى جملته — يحكمه أصحاب المناصب والثروة والمواهب . وهكذا لم يوجه اليسوعيون جهودهم فى التعليم نحو الجماهير ، بل وجهوها إلى الأشخاص الذين يعول عليهم والذين قد تؤهلهم مواهبهم ومراكزهم ليكون لهم نفوذ على رفاقهم . ولما كان نظامهم مجانياً متسماً بروح المحافظة ، فقد لقي إقبالا واسعا ، وكانوا من التعقل بحيث لم يهملوا العلوم الإنسانية والتعليم باللغات اليونانية واللاتينية والعبرية ، وهى اللغات التى كانت قد استقرت فى ذلك الوقت باعتبارها من لزوميات الثقافة الرفيعة ؛ كما عنوا بصحة تلامذتهم وسلوكهم ، وهو مما كان يميل إليه الناس أيضاً . على أن أهم من ذلك التفوق الفنى فى أساليب تدريب الشباب على أن يتعلموا ويكتبوا ويناقشوا كان ذلك النظام المطرد الصارم من الرياضيات الروحية ؛ فكان تلميذ اليسوعيين يظل حتى يذهب إلى قبره حاملا معه طابع التأثير اليسوعى .

وفى الخمسينات من القرن السادس عشر أخذ « الكهنة الإسبان » — كما كان اليسوعيون يسمّون — يتسربون إلى ألمانيا وينشئون فيها المدارس والكليات بقصد ردّ الناس إلى العقيدة الكاثوليكية . فنحن نجدهم فى ثينا حيث أطلقت أيديهم فى شؤون الجامعة فسيطروا عليها فى عام ١٥٥١ ، وفى كولونيا وإنجلشتاد Ingolstadt فى عام ١٥٥٦ ، وفى ميونخ فى عام ١٥٥٩ . وعلى طول الرين والنسين : فى بون وماينز وشپير Speier وفى ورزبورج Würzburg أيضاً ، أنشئوا مراكز للتعليم والدعاية . وعجزت المدارس اللوثرية فى منتصف القرن السادس عشر — بكفاءتها وضيق أفقها أيضاً — عن مناقشة المدارس اليسوعية .

كانت ثينا تملك مفتاح الموقف ؛ ولم يفت على ليولا أن يدرك أن قلب الإمبراطورية لا محالة واقع فى أيدي العدو إذا لم ترد المقاطعات النمسية حالا إلى حظيرة الديانة الكاثوليكية . لهذا أرسل إلى ثينا واحداً من أعظم الشخصيات الكاثوليكية فى ذلك العصر ، وهو العلامة الهولندى الغيور بترس كانيزيوس Petrus Canisius الذى استطاع بحماسة وبلاغته — وكان لا يزال شاباً — أن يحتفظ بكونونيا فى نطاق الكثرة ، أصبح كانيزيوس موضع ثقة الإمبراطور ، وله تدين

حركة الإصلاح الكاثوليكي في النمسا بأقوى دفعاتها : فهو الذى كسب اليسوعيين الهيمنة على التعليم في النمسا ، تلك الهيمنة التى استمرت قائمة عدة قرون لم ينل منها شيء . على أن طائفة اليسوعيين قد حققت أعظم نصر في ألمانيا حين قام فردناند حاكم ستيريا — وهو من شباب أسرة هابسبورج — وكان قد تشبع في شبابه بمبادئ اليسوعيين ، بطرد البروتستانت من ستيريا أولاً ، ثم — حين أصبح إمبراطوراً على الدولة الرومانية المقدسة — تزعم قوى الهجوم الكاثوليكي المضاد أثناء حرب الثلاثين عاماً .

ولكن بقى علينا أن نشير إلى أعظم توفيقات اليسوعيين . كانت مملكة بولندة بعد اتحادها مع دوقية لتوانيا في عام ١٣٨٩ أكبر من أى دولة في غرب أوروبا . وكانت هذه البلاد الموحشة الحالية ترحب بكل مهاجر ؛ ولكن لم يحدث فيها على الإطلاق ما يدعو إلى أن توضع المؤهلات الدينية لدى أولئك المهاجرين موضع الامتحان الدقيق . فر إلى بولندة في العصور الوسطى عدد من اليهود هرباً من الاضطهاد الشديد الذى كانوا يلقونه في بلاد غرب أوروبا الكاثوليكية ؛ وفي بولندة أعطوا حق الضيافة ثم أنسلوا نسلاً تكاثر عدده باطراد وأمد بولندة بالقسط الأوفر من فنونها الحضرية . وكان أكثر من نصف السكان يعتنق باستمرار العقيدة الأرثوذكسية (اليونانية) ، وفي القرن الخامس عشر تسلس إلى بولندة عدد من أتباع جون هس ، ثم تبعهم بعد ذلك ممثلون لكل مذهب من المذاهب البروتستانتية ؛ فن لوثريين وكلقثنيين إلى « إخوان بوهيميا » واتحاديين — وكلهم نشروا دعاياتهم بسهولة فائقة ؛ إذ أن سلطان الملك الكاثوليكي كانت تحصره في حدود ضيقة امتيازات النبلاء الباهظة . ولكن ثبت أن الحرية الدينية الكاملة التى منحت للبولنديين كانت بالذات نكبة على القضية البروتستانتية . فلم تكن بالبلاد سلطة بإمكانها أن تحدّ أو توجه ذلك السيل المتدفق من الآراء الدينية المتعارضة التى كانت قد انتشرت في الخارج على أثر ذبوع التعاليم اللوثرية . حقاً لقد أبرمت بعض المواثيق — في إخوان بوهيميا قد أقنعوا أنفسهم بالانضمام إلى الكلفثنيين في عام ١٥٥٣ ، وهؤلاء أقنعوا أنفسهم بالانضمام إلى اللوثريين في عام ١٥٧٠ . ولكن هذه التشكيلات كانت قد تأخرت طويلاً ، كما أنها لم تكن وثيقة العرى بدرجة كافية ؛ فقبل خمس

سنوات من اتفاق اللوثريين والكلفنيين على تسوية خلافاتهم كان اليسوعيون قد نزلوا إلى الميدان ، وبفضل تشجيع الملك لهم هيمنوا على التعليم العالى فى البلاد .

وتلا ذلك حملة كاثوليكية بطيئة راسخة القدم تسير فى اتساق ونظام ، كالت بالنصر فى النهاية . وما أوفت نهاية القرن السابع عشر حتى كان اليسوعيون قد جعلوا من بولندة قطراً من أشد أقطار أوربا تمسكاً بالكاثوليكية ومركزاً لاتينياً أمامياً بين البروتستانتية التيوتونية والحضارة اليونانية - الروسية الشرقية . وإن الرحالة الذى يعبر الحدود البولندية اليوم إلى أراضي جمهوريات الاتحاد السوفيتى ينسى أن السكان على جانبي خط الحدود يرتبطون معاً بروابط الوحدة الجنسية . فقد حجبت حركة الإصلاح الكاثوليكي كل الصلات التى ربما ربطت البولندى بالروسى من قبل .

ففى جانب تقوم الكنائس الكاثوليكية بأنوارها الساطعة وخفيف أثواب أفواج الركع المتعبدين فيها ؛ وفى الجانب الآخر تقوم الدعوة المقصودة إلى اللادينية التى ترجو الحكومة الشيوعية الجديدة فى الاتحاد السوفيتى أن تحلها محل عبادة الأيقونات البيزنطية التى سيطرت أجيالا طويلة على طبقة الفلاحين الجهلة الذين يؤمنون بالخرافات .

كتب يمكن الرجوع إليها

- L. Pastor, History of the Popes. Ed. F.I. Antrobus & F. Kerr, (1894-1933).
- A.W. Ward, The Counter - Reformation, (1889).
- L. von Ranke, History of the Reformation in Germany. Tr. S. Austin, (1905).
- J.A. Froude, Lecture on the Council of Trent, (1896).
- M. Philippson, La Contre-révolution religieuse du seizième siècle, (1886).
- J.C. Lea, History of the Inquisition in Spain. 4 vols, (1907).
- J.A. Symonds, Renaissance in Italy : The Catholic Reaction, (1886).
- H.D. Sedgwick, Life of Ignatius Lyola, (1923).
- W. Stubbs, Lectures on European History : 1519-1648, (1904).
- W.E. Collins, The Catholic South (in Cambridge Modern History, Vol. II, chap. XII).
- A. Gindely, Rudolf II und seine Zeit, (1863).
- G. Droysen, Geschichte der Gegenreformation, (1893).
- A. Huber, Geschichte Oesterreichs, (1885).

الفصل الرابع عشر

الحروب الدينية في فرنسا

هذه الحروب الأهلية شر مستطير - الموقف في عام ١٥٥٩ - كاترين مديشي - آل جيز - الهيجونوت - السياسيون Les Politiques - الحل الوسط الذي اتفق عليه أولا - مذبحه فاسي Vassy - اللجوء إلى المرتزة الأجانب واستصراخ الدول الأجنبية - الانتصارات الكاثوليكية في دريه Dreux وجرناك Jarnac ومنكتور Moncontour - كوليني يعيد الميزان إلى صف الهيجونوت في عام ١٥٦٩ - صلح سان جرمان (١٥٧٠) - سياسة كوليني الطموحة المعادية لإسبانيا - الرعب يستولى على الملكة - مذبحه يوم القديس بارتليميو - هنري نافار يصبح الثاني في وراثة العرش في عام ١٥٦٤ - مخاوف الكاثوليك - مقتل آل جيز - آخر القتالوا - مقاومة « العصبة » - انتصار هنري نافار - مرسوم نانت (١٥٩٨) - سياسة هنري الحربية وموته المفاجئ .

كانت الحروب الدينية في فرنسا ، وهي الحروب التي شغلت النصف الأخير من القرن السادس عشر ، أنكى على البلاد بكثير من الحروب الإيطالية التي سبقتها . وكانت سياسة فرنسا الإيطالية من الحماقة بمكان ؛ فهي - إلى جانب أسباب أخرى - قد ضحيت بأعمال الارتياح التي كان ملاحو بريتانى ونورمندي قد بدعوها في العالم الجديد ، مما ترتب عليه - بعد هذا الإسراف الشديد في إراقة الدماء وبذل الأموال - انتهاء هذه الحقبة من الطموح الفرنسى بالفشل . ولكن الحروب الدينية كادت تحطم الوحدة التي حققها فرنسا بعد جهود طائلة ، وأورثت فرنسا عللا لا يمكن إقياسها بخسائر المعارك وحدها . فقد قامت مدينة على أخرى ، وأخذت قرية بتلايب أخرى ، وقامت الأسر بعضها على بعض ، وأصبحت المصادمات المسلحة والاغتيالات قصة كل يوم . وقد ارتبكت بعض حوادث القتل نتيجة لتعصب ديني ، وبعضها طلباً لثأر خاص ، وبعضها الآخر نتيجة موجة من الإرهاب الأهوج كما يحدث في كل وقت تفتك فيه جرثومة الجاسوسية الرهيبة بجهاز الدولة السياسى ؛ وانحرفت المثل العليا الأخلاقية لدى أتقياء الهيجونوت في نضال اتسم - إلى حد كبير - بأساليب لصوص أيرلندة المسلحين . أما عقلاء الإنسانين الفرنسيين فقد نأوا بأنفسهم عن ذلك ، كما فعل مونتاني الذي تشف مقالاته التي

نشرها أثناء الطغيان الوحشي الذي قامت به العصابة الكاثوليكية عن مبادئ أبيقورية
ستينية وشك كريم .

* * *

وفيما يلي صورة تقريبية للوضع في فرنسا حين توفي هنري الثاني في عام ١٥٥٩ .
أحرزت دعاية جنيف (أو دعاية الهيجونوت) تقدماً كبيراً ، كسبت إلى صفها
أصدقاء في الجيش وفي برلمان باريس ، كما اجتذبت إليها أنصاراً كبيرين آمنوا بها
بحماسة في كثير من مدن الأقاليم . والاضطهادات الكثيرة التي صبت على تلك
الحركة لم تفلح في وقفها ؛ ورغم أن عقوبة الهرطقة كانت الموت حرقاً ، وأن ثمانية
وثمانين من بسطاء البروتستانت قد لقوا هذا المصير في عهد هنري الثاني ، فإن عدد
المتحولين إلى العقيدة الجديدة كان ينمو باطراد . وكانت الأناجيل الفرنسية الصغيرة
وكتب الزمائر توزع سرّاً وتقرأ في الاجتماعات المنزلية الخاصة « والدعاة والمعلمون
الذين تلقوا تدريبهم في مدرسة جنيف الحصن الحصين للكثنية ، كانوا يتجولون
من مكان إلى آخر يثيرون في الناس روح البطولة والصبر على المكاره . هذا ولم يكن
الهيجونوت الفرنسيون يجهلون المصير الذي يواجهه إخوانهم في العقيدة في بلاد
أخرى : فهم كانوا يعلمون أن نسوة بروتستانتيات قد دفنّ أحياء في الأراضي
المنخفضة ، وأن الملكة ماري في إنجلترا أرسلت قسماً بروتستانتين إلى المحرقة ،
وأن جون هس رفع راية جنيف بين الإسكتلنديين . وكانت جمعيات المخلصين
لعقائدهم ترتبط معاً برابطة الزمالة في الاستشهاد ؛ وهكذا واجهت حكومة فرنسا
الضعيفة المفلسة طائفة من الهرطقة لم ينظموا صفوفهم بعد ، ولكن شوقهم للمنافحة
عن عقيدتهم كان كبيراً ، وكانوا يتقدون حماسة ويشدّ عزمهم شعور بالتضامن
مع الطوائف البروتستانتية في البلاد الأخرى .

وفي مواجهة هذا التحدي للعقيدة القديمة ، وهو التحدي الذي كان حينئذ
أخذاً في التجمع ، قامت التقاليد الكاثوليكية للملكية الفرنسية ، والقوة المنظمة
للكنيسة الكاثوليكية وغضبات رعايا باريس الممتزجة بالخرافات ؛ كما كان وراءها
دائماً قوة إسبانيا-المتفوقة بحراً ، وذات الكلمة العليا في إيطاليا والأراضي المنخفضة ،
والمرتبطة بالأسرة الحاكمة في النمسا بأوثق الوشائج الأسرية .

ولو قدر للعرش الفرنسي أن يشغله في ذلك الوقت ملك قوى عاقل مستامح فدير راغب في الإفادة من تلك المشاعر القوية في سبيل تحقيق استقلال الكنيسة الفرنسية عن سلطان البابوية ، وهو الاستقلال الذي طالما تطلع إليه كثير من أحبار الكنيسة الفرنسية ، ولو كان هذا الملك — كهنرى الثامن — على استعداد لأن يكون السيد المتصرف في بيته ، لو قدر لفرنسا مثل هذا الملك في هذا الوقت لربما وفرت البلاد على نفسها عهداً طويلاً من البؤس والشقاء . ولكن في هذه الظروف الحرجة توالى على حكم فرنسا ثلاثة من أضعف الملوك الذين جلسوا على عرش أوربي على الإطلاق . كان فرنسوا الثاني أكبر أبناء هنرى الثاني وكاترين مديتشى قد أقعده المرض ، وكان الثاني — شارل التاسع — محطم الأعصاب ، إن لم يكن مجنوناً ؛ ثم كان الثالث — هنرى الثالث — منحلاً . أما السلطة الحقيقية فكانت في يد أهمهم التي كانت تعاني من شيئين : كونها امرأة ، وكونها أجنبية^(١) .

كان مركز هذه السيدة الإيطالية المثقفة الساخرة المنحدرة من صلب الطبقة الوسطى فريداً في صعوبته بعد أن دعيت فجأة لتحكم فرنسا في وسط عاصفة من المنافسات الحادة التي قسمت البلاط والبلاد . فاتباع سياسة جريئة مما قد يستهوي ملكاً من أبناء البلاد كان أمراً بعيداً عن متناول سيدة أجنبية . وسياسة نشطة متحمسة من شأنها أن تلاقى تعصيماً قلبياً سواء من جانب الكاثوليك أو من جانب الهيجونوت كانت غريبة على مزاجها الذي لا يكثرث لشيء ولا يتأثر مطلقاً بالنوازع الدينية . ولما وجدت نفسها تكتنفها الأخطار ، وفي مركز يستلزم أقصى درجات الحذر ، قررت أن تحتفظ لأولادها بمباهج الملكية على أن تحتفظ هي بجوهر السلطان ، ذلك باتباع وسيلة رأتها أكفل ما تكون لتحقيق هذه الغاية ، وهي إقامة سلام ديني يقوم على التوفيق . ولقد اختلفت الآراء حول شخصيتها : فهي من نظر أحد المؤرخين « تمتاز بوجه خاص بعقريتها في الحب الأموى » ؛ على حين أنها في نظر آخرين أكبر صورة مجسمة لخداع البشر ولؤمهم . وربما كان أصغر أبنائها ، وهو من أقل نقادها عطفاً عليها ، أقرب إلى كبد الحقيقة حين خاع على أمه لقب « السيدة الأفعى Madame la Serpente » . ولقد كانت في احتقارها للصدق وفي

(١) انظر ثبت الأنساب (٢) .

إسرافها على نفسها وفي إلحاحها على طلب الثأر الشخصي دون أن تعتمل في قلبها ذرة من تبكيت الضمير - في كل ذلك كانت كاترين دي مديتشى إيطالية بنت عصرها . ولعل أعظم مزاياها السياسية ماثرتها في هدوء على السعى لتحقيق توازن سلمى بين طائفتين متعصبتين ؛ ورغم أن التسامح كان مما يرتاح إليه عقلها ومزاجها ، فإنها لم تتخذ قط مبدأ ثابتاً لا تحيد عنه . وقد أتى وقت على هذه السيدة السمينة اللطيفة المكبة على العمل ، صاحبة الذوق الفنى الدقيق الأصيل التى كانت تهوى اللوحات والجواهر والكتب الجيدة وما كانت على الإطلاق لتنسى أو تغفو عن إساءة التى كانت أول حاكم فى فرنسا نظم الفساد الخلقى كأداة للسلطان السياسى - أتى عليها وقت نحت جانباً سياسة التسامح التى انتهجتها وعازنت فى تدبير مذبحه يوم القديس بارثليميو .

وكان ثمة فى فرنسا جماعات من الطبقة الأرستقراطية العالية ، تحجب - بسلطانها وطموحها إلى السيطرة على شخص الملك وبالتالي على الحكومة - الملكة الإيطالية وأولادها التعساء الذين تابعوا على العرش . وكانت إحدى هذه الجماعات كاثوليكية بشكل واضح ، والأخرى پروتستانتية بشكل واضح أيضاً ؛ على حين أن الجماعة الثالثة كانت تشغل موقفاً وسطاً : فهى تعارض زعماء الكاثوليك فى شؤون السياسة ، وتعارض البروتستانت فيما يتعلق بالعقيدة الدينية . وكان الفريق الكاثوليكي هو حزب آل جيز الذى كان يترجمه فرنسوا دوق جيز الذى أصبح معبود فرنسا بعد دفاعه عن متر واستيلائه على كاليه . وكان يترجم هذا الحزب من الناحية الدينية أخوه شارل صاحب اللورين وكاردينال ريمز Rheims الذى لم يكن لديه مانع أن يكون أول بطيريك لكنيسة جاليكانية مستقلة ، فلما ثبت له استحالة ذلك نصب من نفسه فى مجمع ترنت راعية شديد الحماسة والمهارة لأشد ادعاءات البابوية تطرفاً . وهكذا كان باستطاعة حزب جيز أن يفاخر بأنه جندى فرنسا الأول وينتظم فى صفوفه أبرز رجال الكنيسة فى المملكة ؛ ولكن نفوذهم لم يقف عند هذا الحد . فإن أختاً لفرنسوا جيز كانت زوجة الملك إسكتلندة ، وكانت ابنة عم له تجلس على عرش فرنسا . وهكذا كان حزب جيز يمثل أقوى هيئة تسند المصالح الكاثوليكية فى البلاد ، وذلك بفضل ارتباطه الوثيق بملكين متوجين ووضع الأسرة يدها على

خمس عشرة أسقفية وأملاك واسعة متناثرة على طول الحدود الشرقية للمملكة . ولقد تطلعت إسبانيا وروما - المرتبطتان بهذه الأسرة البارزة - إلى آل جيز ليقوموا بالعبء الأكبر في الدفاع عن الكاثوليكية في فرنسا .

أما زعيم حزب الهيجونوت فكاننا أميرى البوربون : أنطوان ملك نافار وأخوه لويس دوق كونديه الذى كان حاكماً لبيكاردى ، وكان قد قبل منصب حامى حمى كنيسة فرنسا . حقاً إنه لا يمكن القول بأن أحداً من هذين النبيلين الكبيرين كان راسخ القدم في العقيدة الهيجونوتية ، إلا أن نفوذهما كان عظيماً في غرب فرنسا وجنوبها الغربى وكذلك في نورماندية ، مما ترتب عليه اجتذابهما كثيراً من صغار النبلاء وأعيان الريف في هذه المناطق إلى حلبة الصراع .

أما الجماعة الثالثة الذين كانوا يمثلون قوة لها وزنها في وسط فرنسا بوجه خاص والذين كان يتزعمهم السياسى المخضرم آن دوق مونمورنسى فقد كانوا رجالاً مخلصين للعقيدة الكاثوليكية ، ولكنهم لم يكونوا يكونون كثيراً من الحب للملكة الوالدة ولا لآل جيز ؛ ومن ثم وقفوا موقفاً وسطاً بين الفريقين المتطرفين . كان مونمورنسى معنئاً في كاثوليكيته ، ولكن أبناء عمومته - الإخوة شاتيون Châtillon - كانوا ينتهجون خطة أخرى . انضموا إلى الهيجونوت ، وأصبح أحدهم وهو جاسپارد دى كولبنى Gaspard de Coligny ، أميرال فرنسا - وهو رجل ذو شجاعة لا تتردى وعقيدة دينية متأصلة - أكبر القوادى پروتستانت ؛ وبالتالي أصبح الهدف الرئيسى لانتقام الكاثوليك .

وفي هذه الأوقات التى احتدمت فيها مشاعر الناس كان أقل حادث كفيلاً بإشعال الحرب . أثار إعدام محام كلفى في باريس - لدى الجماعات البروتستانتية السرية - وربما بتشجيع من كونديه ، بل من إليزابيث ملكة إنجلترا - أثار تدبير مؤامرة لحطف الملك وآل جيز في أمبواز Amboise . واكتشفت المؤامرة ، ووقعت عقوبات قاسية على المتآمرين ، وغامر آل جيز - الذين كانت قوتهم تتزايد باستمرار - بالقبض على كونديه والحكم عليه بالإعدام . ولكن حدث تبدل مفاجئ في مصائر الأمور : ففي ٥ ديسمبر ١٥٦٠ مات الملك الشاب ؛ وهكذا وجد آل جيز أنفسهم - وهم في غمرة نجاحهم - وقد انتزع منهم نفوذهم في

البلاط ، وأعداؤهم وقد أرسوا أقدامهم في مكانهم . أصبحت الملكة الوالدة وصية على ابنها القاصر شارل ؛ وانتهجت سياسة تقوم على العفو والتوفيق ، يساعدها في ذلك مستشار الدولة لوپيتال L'Hôpital ، وهو أحد الساسة العظام القلائل الذين أنجبهم ذلك العصر ، أطلق سراح كونديه من سجنه ، وصدر عفو عن الكلفنيين ، وعين ملك نافار عضواً بمجلس الملك (Lieutenant-General) وهكذا كان من الممكن أن تضع أسس صلح مؤقت فيما لو تمت في وقت تكون فيه مشاعر الناس أكثر هدوءاً . وقطعت المباحثات بين كبار الفقهاء في كلا الفريقين المتباعدين - وهو ما كان يحدث عادة لمثل هذه المجادلات بشكل أو آخر - وعلى أثر ذلك صدر مرسوم في يناير ١٥٦٢ أقر شرعية ممارسة الهيجونوت لمشاعرهم الدينية علناً طبقاً لشروط معينة غير جائزة . ولكن حدث هذا بعد أن اضطرت النفوس . حطمت الصور الدينية ، وشوهت الكنائس ، وهوجم الإكليروس والمبشرون ؛ ثم ذبحت قوات آل جيز عدداً من الهيجونوت وهم يتعبدون في قاسي ، فانفجرت الحرب الأهلية انفجاراً عنيفاً مفاجئاً بعد أن أمكن تجنبها هذا الوقت الطويل .

وقد اتسم هذا النزاع ليس فقط بأنه كان يعتمد على المرتزقة من الأجانب إلى حد كبير ، بل إنه تميز أيضاً بأنه كلما قامت الحرب أعقبتها السلام بعد وقت قصير . وليس سبب ذلك توقع الطرفين تسوية يقبلانها حقاً ، ولكنه يرجع إلى عوامل أخرى كفراغ أيدي المتحاربين من المال أو مقتل قائد أو حدوث تخاذل أو ضعف مفاجئ في الشعور الذي كان لا يزال كامناً بوحدة فرنسا باعتبارها كترلاً لا يجوز تبديده بسهولة ، وهو الشعور الذي كانت تجالطه الأحقاد الدينية أو الشخصية العنيفة لذلك العصر .

هذه الأسباب تفسر كيف أن فرنسا كانت مضطرة إلى خوض حروب أخرى قبل أن يحسم النزاع بين الكاثوليك والهيجونوت .

ولم يتورع كلا الطرفين عن اللجوء إلى المعونة الأجنبية . ولّى الكاثوليك وجوهم شطر إسبانيا ؛ على حين ولّى الهيجونوت وجوهم شطر إنجلترا ؛ بل لقد ذهبوا في الحرب الأولى إلى حد وضع الهاثر في يد الإنجليز ووعدهم بكاليه ، ومع ذلك فإنهم لم يعقدوا قط حلفاً مع دولة پروتستانتية : فإن الصدع القائم بين اللوثرين

الألمان والهيجونوت الفرنسيين كان يعز على الرأب . حقاً لقد شارك لوثريون من الألمان في الحروب الفرنسية ؛ ولكن أكثرهم كان يقاتل في صفوف الكاثوليك ، لا الهيجونوت .

وفي الحرب الأولى كانت كل المقدمات تشير إلى توقع انتصار الكاثوليك : فهم قد تسلطوا على الملك والملكة ، وضمنوا تعضيد باريس ، ومساعدة طائفة من المرتزقة الإسبان والألمان ممن مهرؤا في القتال — هذا إلى استيلائهم على روان ثم انتصارهم أخيراً على قوات كوليني وكونديه في درية (في نورمندية) . ولكن هذه الميزات تبددت فجأة حين خر فرنسوا جيز صريعاً على يد سفاك أمام أسوار أورليان .

ولكن الهيجونوت لم يفيدوا كثيراً من هذه الجريمة ؛ فقد عزي مقتل فرنسوا جيز إلى كوليني ، وأصبح لدى أسرة القتل دافع للتأثر أقوى بكثير من قوة معتقداتها الدينية .

ثم تلت ذلك سنوات أربع تخللها سلام غير مستقر جابت كاترين وأولادها خلاله ربوع الأقاليم . وتيقظت شكوك حزب الهيجونوت حين نمت في بايون Bayonne (مايو ١٥٦٥) مقابلة بين كاترين وأختها إيزابلا ملكة إسبانيا التي كان يصحبها دوق ألفا . وكان من الواضح أن غرض كاترين الأساسي هو السعي لتزويج ابنتها مارجريت بدون كارلوس Don Carlos بن فليب الثاني ملك إسبانيا ؛ ولكن نوقشت أيضاً في هذا الاجتماع مسائل أخرى ، وبخاصة تعاون فرنسا وإسبانيا ضد الأراضي المنخفضة . وفي ذلك ما يكفي لإثارة مخاوف كوليني أنشط محركي حزب الهيجونوت ؛ وحين علم أن ألفا يزحف صوب الأراضي المنخفضة على طول حدود فرنسا الشرقية على رأس جيش إسباني ممتاز تصحبه فرقة استطلاع فرنسية ، شعر الأدميرال أن الوقت قد حان لتحرير البلاط من المؤامرات الإسبانية . وضعت خطة لاختطاف شارل التاسع ، وكان فشلها معجلاً بنشوب القتال من جديد .

وقد يكون بإمكاننا اعتبار الحربين التاليتين سلسلة واحدة من العمليات : إذا لم يفصل بينهما سوى صلح لونجيمو Lonjumeau القصير الأمد (١٥٦٨) . ولهاتين الحربين أهميتهما لعوامل ثلاثة : ففي هذه الفترة بالذات برزت لاروشل لأول مرة باعتبارها حصناً بحرياً بروتستانتيّاً عظيماً قادراً على أن يصمد للحصار ؛ وفي

هذه الفترة أيضاً برز هنرى نافار ابن الملك أنطوان ، وهو الذى قدر له فيما بعد أن يصبح هنرى الرابع ملك فرنسا — باعتباره قائداً پروتستانتياً . ولكن أهم ما يلفت النظر فى خصائص هذه الفترة أن النصر النهائى كان من نصيب كولبى ، وذلك رغم سلسلة متلاحقة من الانتصارات الكاثوليكية وأسر كونديه ومقتله فى جرناك ، وتغطية ساحة مونكتور الملطخة بالدماء بحوالى ستة آلاف جثة من الهيجونوت . ولقد قام هذا القائد الحنك بتقهقر رائع من اللوار صوب الجنوب ، ثم كون جيشاً جديداً زحف به على باريس حيث وجد البلاط خلواً من كل قوة ، فأرهب أعداءه وسيطر على الملك وانتزع لنفسه السيطرة على سياسة فرنسا . وكان شارل التاسع ، الذى قامت على تنشئته مربية پروتستانتية ، على استعداد للتفاهم . اعترف صلح سان جرمان (أغسطس ١٥٧٠) — أكثر من أى وقت مضى — بأهمية حزب الهيجونوت كهيئة ذات مصالح خاصة لها كيائها فى فرنسا . وسمح لكبار النبلاء — كما كان الحال من قبل — بأن يقيموا الصلوات — طبقاً للمذهب الهيجونوت — فى قلاعهم لكل من يرغب فى حضورها ، ونص على بقاء شعائر العبادة البروتستانتية فى كل المدن التى تمارس فيها فعلاً ، وفى مدينتين فى كل مقاطعة إدارية فى فرنسا ؛ ووضعت ضمانات لمنع المظالم التى تتخذ شكل القانون ، كما وضعت فى يد الحزب — لمدة سنتين — أربعة أماكن لها أهمية حربية عظيمة ، وذلك ضماناً لتنفيذ المعاهدة . وهذه الأماكن هى : لاروشل ومنتوبان Montauban وكونياك Cognac ولاشارتيه Ln Charité.

وهكذا انفسح أمل جديد أمام الهيجونوت . فحتى ذلك الوقت كانت الملكية الفرنسية ، فى دفاعها عن القضية الكاثوليكية ، وبفضل نفوذ آل جيز إلى حد كبير ، على استعداد للالتجاء إلى إسبانيا طلباً للمعونة . فجاء كولبى الآن يمهّد الطريق لانقلاب سياسى كامل . كانت خطته أن يضمن حماية بنى ملته فى فرنسا عن طريق إشعال حرب قومية ضد إسبانيا فى الأراضى المنخفضة . ولتحقيق هذا الهدف عمل على تكوين حلف عظيم تتزعمه فرنسا وتسندة كل من إنجلترا وهولندا وتسكانيا والبنديقية وربما الأتراك ، القصد منه لإقرار السلام فى البلاد وضم الفلاندر وآرتوا إلى أملاك التاج الفرنسى . وكانت المعاهدة الدفاعية التى وقعها كولبى مع إنجلترا

في بلوا Blois في ١٩ أبريل ١٥٧٢ الحجر الأول في البناء الدبلوماسي الجديد .
وبين التدابير التي اتخذت في هذه الفترة التي ارتفع فيها نفوذ الهيجونوت مشروع قدر له أن يؤثر تأثيراً قوياً في الموقف الداخلي في فرنسا . فقد تمت المباحثات في أمر زواج أبرم بالفعل (١٨ أغسطس ١٥٧٢) بين مرجريت ثالوا ، أخت الملك ، وهنرى نافار . فقد استدرج هذا الشاب من بيارن Bearn ذو الأنف الصغير الأحذب ، هذا الابن الرقيق لفارس من البرانس وأم هيجونوتية متعصبة — استدرج من مقاطعته البعيدة وزوج بإحدى أميرات الأسرة الفرنسية المالكة الكاثوليكية . وكان هذا الزواج المختلط الأول من نوعه ؛ فلقى المقت الشديد من كل كاثوليكي مخلص . وتساءل الناس : في أى طريق تسير فرنسا في ظل ملكها ضعيف العقل وقائدها الهيجونوتي ؟ أتسير في طريق ينتهي بها إلى منازل أعظم القوى الكاثوليكية في أوربا ؟ أم في طريق يفضي إلى وقوعها في قبضة ملك پروتستانتي ؟ كانت كاترين من الألعية بحيث استبانت ما طراً على الجو السياسي من تغيير : فقد كانت تعلم أن الأغلبية العظمى من الشعب الفرنسي لا تزال مخلصه للعقيدة القديمة رغم أن ما يقرب من ثلث النبلاء أصبحوا من الهيجونوت . كانت تخشى الحرب ، وسطوة إسبانيا ونفوذ كوليني على ابنها ؛ كما كانت تخشى أن يوجه آل جيز ضربتهم إذا ما بقيت ساكنة ، ومن ثم ينتزعون لأنفسهم السيطرة على فرنسا ؛ وكانت من الخدق بحيث أدركت أن حرباً تشنها فرنسا للاستيلاء ولو على شبر من أراضي الفلاندر لن تحظى بعطف الحكومة الإنجليزية لأمد طويل . لكل هذا قرّرها على تدبير مقتل كوليني . ولكن الهجوم على الأميرال فشل ، ولم يكن الجرح الذي أصابه على يد كاثوليكي مسلح بالغاً (٢٢ أغسطس ١٥٧٢) ؛ ومن ثم أصبح مركز الملكة الوالدة دقيقاً . وكانت باريس مزدحمة بالسادة الهيجونوت الذين أتوا إلى العاصمة لشهود حفلات الزواج الملكي ، وقد استشاطوا غضباً للاعتداء السافل على زعيمهم موضع حبه وتقديرهم العميقين . وحتى لا يتطور الأمر من سيئ إلى أسوأ ، صممت الملكة على إعادة الكرة ، ليس ضد كوليني وحده في هذه المرة ، ولكن — في جنح الظلام — ضد كل الزعماء البروتستانت . وانخدع الملك الضعيف بقصة مؤامرة يدبرها الهيجونوت ، وأمكن إقناعه بالموافقة .

كان آل جيز يتعطشون للانتقام ، ومن ورائهم ومن وراء من يلوذ بهم وقفت باريس الكاثوليكية يملؤها الغيظ الكامن والغضب . وفي فجر يوم ٢٤ أغسطس (يوم القديس باثلميو) دقت أجراس قصر العدل في باريس فكانت إشارة البدء بالمذبحة .

ولم تقتصر المذبحة الوحشية على باريس ، حيث قتل حوالى ثلاثة أو أربعة آلاف من الهيجونوت ؛ بل لقد تعدتها إلى الأقاليم أيضاً ، وقد فاقت بكثير أقصى ما كان يقدره رجال البلاط . ولم يكن أهل باريس ، الذين تأثرت تجاربهم بالقلقل الدينية ، بحاجة إلى من يغريهم بقتل الهيجونوت أو التمثيل بجثثهم . فلم يقف بهم الأمر عند حد قتل زعماء الهيجونوت ، بل مدوا أيديهم بالقتل إلى عامتهم ، واقتدى بهم أهل الأقاليم وكأنهم يقومون بعمل بهيج . وأرسل كوميني إلى البابا الذى بعث « بالوردة الذهبية » إلى الملك . وحين سرت هذه الأخبار السعيدة ، أخبار التخلص من مثل هذا العدد الكبير من المهرطقين . أمر البابا بنقش ميدالية تخليداً لهذا العمل ، ورأس فليب الثانى ملك إسبانيا صلاة شكر . فلم يكن أحد يحلم بمثل هذا النصر الكاثوليكي العظيم : فلقد مات كوليني ، ووقع كوندية وهنرى ناغار في يد الملك ، وأكدت الآلاف من جثث الهيجونوت ثبات فرنسا على العقيدة الكاثوليكية .

وكان العرب يسيطر على المتآمرين الذين دبروا مذبحة سان بارثلميو ، ولكن من المحتمل — بالرغم من ذلك — أنهم كانوا يخشون أن يقدم الحزب الكاثوليكي المتعصب ، الذى يسيطر عليه آل جيز ويرتكز على رعايا باريس ، على خلع هذا الملك الذى سابر الهيجونوت إلى أقصى حد . وقد كاد هذا الخطر أن يتحقق في عهد هنرى الثالث الذى خلف أخاه في عام ١٥٧٤ . وهكذا بدلا من أن تقضى مذبحة سان بارثلميو على الهيجونوت ، كانت مقدمة لحرب رابعة . فلقد تحدى الهيجونوت القوات الملكية ، وهددوا وحدة فرنسا من عاصمتهم الغربية لاروشل يؤيدهم عدد كبير من « السياسيين Les Politiques » ومنهم — لفترة من الوقت — الأخ الأصغر للملك . ولكن الكاثوليك — وخاصة جماهير باريس الديمقراطية — لم يغتفروا للهيجونوت هذا العناد العنيف المستمر الذى كان يؤثر تأثيراً سيئاً على حركة المعاملات ، والذى كان يتنافى مع الوطنية (إذ كان الهيجونوت على اتصال بإنجلترا) . وكان المتعصبون يريدون السير بالحرب إلى النهاية ؛ ولكنهم رأوا أن

الملك والمملكة والوالدة لا يزالان يتابعان سياستهما المألوفة : عرض سلام أو هدنة على العصاة في كل مناسبة ، وأنهما لا يزالان تسيطر عليهما تلك الفكرة الجديرة بالاحتقار — فكرة إمكان إيجاد مكان لتعبد الهيجونوت أحراراً في غير خفاء في دولة كاثوليكية . بدا لهم أن معاهدة ١٥٧٦ تكاد أن تكون تسليمًا . لهذا تكون اتحاد كاثوليكي — عرف عادة باسم « العصبة » — يرعاه البابا وملك إسبانيا هدفه تثبيت دعائم العقيدة الكاثوليكية في فرنسا .

وفي عام ١٥٨٤ توفي الأخ الأصغر للملك ، وكان أصغر أبناء كاترين والأخ الوحيد لهنرى على قيد الحياة . ولما كان الملك لم ينجب نسلا ، فلا مناص من أن يكون هنرى ناظر الوريث التالى للعرش . وأصبح مبدأ أعضاء العصبة الباريسيين أن « الجمهورية خير من تولي ملك من الهيجونوت » ، وأصبح هنرى الثالث لسنوات طويلة لا حول له ولا قوة أمام آل جيز يؤيدهم إذ ذاك مثل هذا الشعور الحماسى الدافق . أحنى الملك رأسه ، ومضى فى حماية السفاكين ، تحيط به شبكة من المؤامرات ؛ بينما انتزعت العصبة السلطة الحقيقية على فرنسا الكاثوليكية ، وظهر مدى ضعف الملك فى يوم المتاريس Journée des Barricades (١٢ مايو ١٥٨٨) حين رفضت باريس — فى ولائها لهنرى دوق جيز — أن تسمح لقوات الملك بالدخول إلى المدينة ؛ كما ظهر هذا الضعف مرة أخرى حين أصدر مجلس طبقات الأمة — فى اجتماعه فى بلوا Blois تحت نفوذ اليسوعيين — سلسلة من القوانين التى كان من شأنها — لو نفذت — أن تؤدى إلى إفلاس الخزينة وحرمان الحكومة من آخر مقومات سلطتها . ولقد حاول هذا الملك المنكود الطالع — الذى قيل عنه إنه « أسوأ حاكم من أسوأ أسرة حكمت على الإطلاق » — أن يتخلص من هذه المهانات فلجأ إلى الاغتيال : فقتل دوق جيز وأخوه كاردينال اللورين فى قلعة بلوا قرابة عيد ميلاد عام ١٥٨٨ على يد بعض أتباع الملك الغسقونيين .

وكانت الملكة والوالدة العجوز على فراش الموت حين حمل إليها أحب أبنائها الخبر قائلاً لها كما يروى : « الآن غدوت ملك فرنسا ؛ لقد قتلت ملك باريس » — فكان جوابها : « أرجو الله أن يكون ذلك حقاً ؛ ولكن هل تأكدت من المدن الأخرى ؟ »

وحينئذ بدأ الفصل الأخير من الدراما الطويلة . وبينما أعلنت العصبة الكاثوليكية خلع هنرى عن العرش وحاولت أن تحكم العاصمة والبلاد كان عدد كبير من الفرنسيين يتزايد يوماً بعد آخر — وهم ليسوا من الهيجونوت ولا من أتباع العصبة — يتجهون بأفكارهم إلى هنرى نافار وارث العرش بحكم القانون . وكان هذا الأمير ، ابن الجنوب الشاب ، قد كشف عن صفات حربية باهرة : فقد أثبت في كوترا Contrats أن باستطاعة جيش من الهيجونوت حسن القيادة أن يهزم قوات التاج من الكاثوليك في معركة نظامية ؛ كما أن أعمال الفروسية العديدة التي شاعت عنه ، وحرصه الرينى وروحه المرححة — كل ذلك كان مما قرب به إلى رجل الشعب . كان بروتستانتيّاً ، ولكنه كان رجلاً ، بينما كان قريبه الملك — الذى كان يلبس عقدّاً من اللؤلؤ وأقراطاً فى أذنيه — كاثوليكيّاً ، ولكنه كان خليعاً . ووجد ابنا العم أن مصلحتهما المشتركة تدعوهما إلى مهاجمة العصبة الكاثوليكية ، تلك العصبة التي خلعت أحدهما وأعلنت أن الآخر لا يستحق العرش . ولكن بينما كانت جيوشهما تقف خارج باريس ، خر الملك صريعاً على يد يعقوبى مفتون اسمه جاك كليمان Jacques Clement (أول أغسطس ١٥٨٩) — وبذلك انتهى حكم أسرة الفالوا الطويل فى فرنسا ، وانفتح باب الصراع المباشر بين هنرى نافار و « العصبة » .

وحكمت باريس باسم العصبة لجنة من ستة عشر بإشراف دوق ماين Mayenne الأخ الأصغر لهنرى جيز . وقد فرضت نظاماً من الإرهاب شبيه بحكم لجنة الأمن العام فى عام ١٧٩٤ . ويستند المدافعون عن تلك اللجنة إلى أنها صانت لفرنسا عقيدتها الكاثوليكية وهى أكثر ملائمة للناس من البروتستانتية ، وأن الجرائم التي ارتكبتها كرهت الناس فى النزعات الجمهورية مدى قرنين من الزمان . وكان من آثار حكمها العنيف المكروه رجوع فرنسا آخر الأمر إلى الاعتقاد بأن إعادة الملكية الوراثية من شأنه أن يقلل من فرص الانقسام ؛ ولما كانت البلاد لا تقبل حكم أميرة إسبانية ولا حكم نبيل فرنسى ينتخبه مجلس طبقات الأمة ، فإن الكتلة الرئيسية الأرستقراطية الفرنسية قد التفت حول الأمير البوربونى . ولكن التعصب كان لا يزال حاداً بلغ من حدته أن هنرى — حتى بعد تخليه عن عقيدته البروتستانتية فى كنيسة سان دنيس (٢٥ يولية ١٥٩٣) — اضطر إلى الانتظار مدى ثمانية

شهور خارج أسوار باريس قبل أن يتمكن من التغلب على مقاومة المدينة .

. وحمل العاهل الجديد إلى فرنسا هدية أثنى من كل ما حققه ملوك القالوا من باهر الأعمال : فقد كان يهتم برجل الشارع في فرنسا ويتمنى أن يراه راقعاً في بحبوحة الرخاء والسعادة . ورغم أن مذكرات وزيره البروتستانتي الكفاء سلى Sully موضع شك في كثير من النقاط ، إلا أنها على الأقل تقدم دليلاً جيداً على أن حكومة فرنسا في عهد هنري الرابع كانت تهدي في أعمالها بفكرة الصالح العام . ومن ذلك أنها شرعت تعمل في عزم على قمع الفوضى وتحسين الزراعة وترويج التجارة وإعادة السلام إلى بلد نزلت به ثلاثون عاماً من الحروب الأهلية إلى أدنى درجات اليأس . وقد تحقق الكثير من مشروعات الحكومة : كالأعمال العظيمة لتجفيف المستنقعات وتحسين الطرق . وازداد الدخل وانخفضت الديون ؛ وقد وجد سلى البلاد عند توليه الحكم مثقلة بعجز كبير ، ثم تركها وقد تخلصت من ديونها . ولكن كان على هنري قبل أن يتمكن من تطبيق هذا العلاج تطبيقاً كاملاً أن يواجه مشكلتين ملحيتين : الإسبان والهيجنوت . وقد استطاع ببعض العون من الملكة إليزابيث أن يطرد جيشاً إسبانياً من أميان ، وأجبر إسبانيا (طبقاً لمعاهدة فرغان Vervins — ١٥٩٨) على التخلي عن كاليه وبلافيه Blavet في برتاني ، وهما القاعدتان الفرنسيتان اللتان كانت إسبانيا قد وضعت يدها عليهما بصفتها حليفة للعصبة الكاثوليكية . أما الهيجنوت فقد كانوا يثيرون صعوبة أخطر من ذلك بكثير . كانوا رجالاً من حديد تحدوا التاج الفرنسي أكثر من ثلاثين عاماً ، وكان بوسعهم في أي وقت أن ينزلوا إلى الميدان جيشاً من خمسة وعشرين ألف رجل — لهذا لم يكن من اليسير إخضاعهم ؛ بل كانوا في مركز يمكنهم من الوقوف من الملك موقف الند للند . ولم تكن التسوية المشهورة المعروفة بمرسوم نانت مرسومياً ملكياً بالعفو تفضل به الملك ؛ كما أنها لم تكن إعلاناً فلسفياً للتسامح — إنما هي معاهدة لم يمكن الوصول إليها إلا بعد مفاوضات مضنية استلزمت وقتاً طويلاً ، ثم قبلت بعد تردد كضرورة فرضتها ظروف كريمة لا يمكن تجنبها . ولقد منحت هذه التسوية الهيجنوت حرية العبادة في قلاع النبلاء وفي أماكن معينة نص عليها ، كما منحهم المساواة في الحقوق المدنية والحماية القانونية ؛ وزيادة في ضمان سلامتهم منحوا حق

وضع حاميات في أكثر من مائة مدينة محصنة بما في ذلك بعض القواعد الكبرى في البلاد مثل لاروشل وسومير Saumur ومونيلييه - وكل ذلك على حساب الخزانة الفرنسية . وفي الواقع لقد سمح للدولة هييجونوتية ، صغيرة بجيشها وقلاعها وحكومتها المدنية ، أن تقوم وتعمل في قلب فرنسا .

ولرسوم نانت مكان ملحوظ في تاريخ الحضارة باعتباره أول اعتراف عام بأن من الممكن أن تقوم أكثر من طائفة دينية واحدة في نفس الدولة ؛ فقد جعلت هذه التسوية الشهيرة التسامح الديني جزءاً من القانون الدستوري لفرنسا قبل الاعتراف به في إنجلترا أو ألمانيا لوقت طويل . وهكذا انتزع الهيجونوت قوة واقتداراً من خصوصهم الكاثوليك امتيازات ما كان الكاثوليك ليسمحوا بجعلها موضع نقاش .

ومنذ ذلك الوقت وضعت الأسس لأزهى فترة في تاريخ فرنسا انتعشت فيها الملكية وسما قدرها واتسع نطاق الصناعة والتجارة فيها بشكل ملحوظ ، ودبت الحماسة في الكنيسة الكاثوليكية وأثرت حياتها بفضل تحدى عقيدة الهيجونوت لها ووجودها معها جنباً إلى جنب . ولكن كُتب لهذه المزايا أن تتبدد أمام التعصب الأعمى والخشع القاتل . ولقد قال سكاليجر Scaliger - البهائية الكلاسيكي الكبير - عن هنري إنه لا يستطيع تركيز تفكيره على المستقبل لمدة ربع ساعة برغم ذكائه ومعرفة الواعية للطبيعة البشرية . فلو أنه كان يتمتع بمزيد من بعد النظر لحاول أن يحكم بمعونة مجلس طبقات الأمة ، ولرفض استدعاء اليسوعيين الذين كانوا قد طردوا من فرنسا في عام ١٥٩٤ باعتبارهم مفسدين للشباب ومقلقين للأمن العام وأعداء للملك والدولة ، ولأبعد عن عقله فكرة حرب خارجية أملاها الطمع . لقد عاش هنري الرابع ، الذي كان معرضاً باستمرار للقتل على يد سفاك ، معتمداً على ما تملبه عليه قريحته الحاضرة . ولقد رفض هنري واثقاً في رجاحة عقل مستشاريه ، ورغم الوعد القاطع الذي أخذه على نفسه - رفض أن يدعو مجلس طبقات الأمة للانعقاد أو أن يشرك معه رعاياه في المران على أعباء الحكومة . كان سمح النفس في المسائل الدينية ، وقد ورث كاترين مديتشي في خطة التسامح ؛ ولكنه استدعى اليسوعيين الذين قُدِّر لنفوذهم في البلاط ولتأثيرهم في التعليم الفرنسي - وهو التأثير المطبوع بروح

التعصب — أن يؤديا إلى طرد الهيجونوت ونقض مرسوم نانت الذي كان أعظم ما قام به هنري .

أما في السياسة الخارجية فقد أخرج هنري بعد صلح ثرفان (١٥٩٨) بعض الوقت بين فكرة الاحتفاظ بالسلم مع إسبانيا ، سلماً تدعمه مصاهرات ملكية ، وبين الهجوم على أسرة هابسبورج . ولكن أفكاره اتجهت بالفعل إلى الحرب وإلى سياسة كتلك التي تحمس لها كوليني منذ حوالي الخمسين عاماً : وهي القيام بهجوم كبير على أسرة هابسبورج الكاثوليكية بمساعدة پروتستانت ألمانيا والأراضي المنخفضة ، وينتهي باحتلال الأراضي المنخفضة الإسبانية وإيصال حدود إسبانيا إلى الرين . ووجد هنري تلة لتنفيذ هذا المشروع في النزاع على مصير كليف - جيليش Cleves-Julich الواقعة على الحدود الفرنسية الشرقية ، وتقرير إلى أي الكتلتين تنتمي : الكاثوليكية أو البروتستانتية . واختار هنري لحظة البدء في العمل مدفوعاً بعاطفته نحو دوقه كونديه التي كان زوجها قد دفع بها إلى حماية البلاط النمساوي في بروكسل دون استعداد دبلوماسي كاف . وكان على حافة الحرب لتنفيذ مشروعه الضخم المعادي للكاثوليك حين خرّ صريعاً بنحجر رفاياك Ravallac — وهو كاثوليكي متعصب . وهكذا لم يكن من شأن استدعاء اليسوعيين إلى فرنسا أن يكسر من غارب « العصبة » الكاثوليكية .

كتب يمكن الرجوع إليها

- L. von Ranke, Civil Wars and Monarchy in France in the Sixteenth and Seventeenth Centuries. Tr. M.A. Garvey. 2 vols. (1852)
- L. Rouvier, Les Origines Politiques des guerres de religion. 2 vols. (1913-14)
- E. Armstrong, The French Wars of Religion. (1892)
- P.F. Willert, Hency of Navarre and the Huguenots of France. (1893)
- A.J. Grant, The Huguenots. (1934)
- J.H. Mariéjol, Catherine de Médicis. (1920)
- E. Faguet, Seizième siècle. Etudes Littéraires. (1894)
- L. Battifol, The Century of the Renaissance. (1916)
- J. Delaborde, Gaspard de Coligny, Admiral de France. (1879-82)
- A.J. Butler, Wars of Religion in France (Cambridge Modern History, Vol. III, chap. I).
- Lord Acton, Lectures on Modern History (Saint Bartholomew). (1906)
- A. Forneron, Les Ducs de Guise et leur époque. 2 vols. (1878)
- A. Tilley, The Literature of the French Renaissance 2 vols. (1904)

الفصل الخامس عشر

قيام الجمهورية الهولندية

استمساك إسبانيا بالديانة الكاثوليكية - فيليب الثاني - إسبانيا وجيشها وأسطولها - مالية إسبانيا واقتصادياتها - أهمية الأراضي المنخفضة لإسبانيا - انحياز إليزابيث إلى البروتستانتية - نجاح الملكة في إسكتلندا « محض إنجليزى » - المحافظة على الوحدة القوية - الحل الوسط الخاص بالكنيسة - فليب وإنجلترا - جرنفل Granvelle في الأراضي المنخفضة - وليم أورنج - إجمونت Egmont وألفا - أورنج وألفا - تسوية غنت The Pacification of Ghent . دون جوان النموسى - انشقاق الشمال عن الجنوب - تأسيس جمهورية الأراضي المنخفضة - سطوة أمستردام - بيت أورنج - أسباب نجاح الهولنديين - العوامل التى شتت جهود پارما - مهارة موريس ناساو Nassau العسكرية - الهولنديون يوقعون هدنة مع إسبانيا (١٦٠٩) .

برزت إسبانيا فى التضال الأوروبى الكبير الذى أثاره الإصلاح البروتستانى أكبر نصيرة للقضية الكاثوليكية. فبينما استقر فى شمال ألمانيا لون من ألوان البروتستانتية وبينما كان لون آخر منها يخوض فى فرنسا معركة حياة أو موت ، كانت إسبانيا ممتنعة وراء حدودها الجبلية الصلبة كاثوليكية من قمة رأسها إلى إخص قدميها . وفى إسبانيا ارتبط الدفاع عن العقيدة الكاثوليكية ونشرها بنمو الأمة ومجدها على نحو لا تجده فى أى مكان آخر فى أوربا . كان الرهبان والراهبات والقساوسة يشكلون جانباً كبيراً من السكان ، واعتبرت محاكم التفتيش - وكانت تحت رقابة التاج - إجراء وقائياً ضرورياً . وكان المشهد المثير لتنفيذ أحكام التحريق علناً فى بلد الوليد (١٨ أكتوبر ١٥٥٩) الضربة الأولى فى حملة القمع التى وجهت ضد العقائد الجديدة التى جاءت من ألمانيا إلى إسبانيا ، وهى حملة لم تثر سوى احتجاجات متقطعة عقيمة . وقد بلغ من نشاط محاكم التفتيش الإسبانية - بتشجيع من فليب الثانى - أن الهرطقة - وكانت لا تزال إذ ذاك فى إسبانيا نبتاً جديداً لم يألفه الناس - قد اجتثت من جذورها قبل نموها . ومنذ ذلك الوقت غدت الكنيسة الكاثوليكية بمأمن من الأخطار ، وتمتعت بهيمنة على التعليم ثبتت لكل تحد حتى كانت ثورة ١٩٣١ حين جاء التحدى لها من جانب حركة نبعت من إسبانيا ذاتها وأيدتها

— فيما يبدو — أغلبية الشعب الإسباني .

وكان فليب الثاني حاكماً كاثوليكيّاً متديناً شديد التمسك بواجباته ؛ وكان يرى أن أسمى رسالاته في الحياة أن يستأصل الهرطقة من جذورها في البلاد التي يحكمها ، وأن يأخذ بناصر عقيدة آباءه في شتى ربوع العالم . ولما كان رجلاً ضيق الأفق جاداً في عمله متوافراً عليه ، عاجزاً عن تمييز جلائل المسائل من حقيرها — وبالتالي عاجزاً عن أن يعهد بعمله لغيره — فإنه أثقل في نفسه بواجبات تافهة ، بحيث خفيت عليه الجوانب الكبرى من سياسة الدولة . ولقد ترسبت في ذاكرته بعض الذكريات المعتمدة : كقتل أكبر أبنائه — وكان مختل العقل ، واغتيال سفير للأراضي المنخفضة سراً . ولا يعنى التاريخ أمثلة كثيرة أفجع من حياة هذا الحاكم المستبد المتقبض المثقل الضمير وقد راح — منكبّاً على مكتبه وباذلاً جهداً يفوق طاقة البشر — يعمل لإنقاذ إمبراطورية إسبانيا الكاثوليكية من الأفكار الجديدة التي بلبت الخواطر ، ومن القوى العارمة التي كان يزخر بها العالم .

وكانت قوة إسبانيا كامنة في جيشها القائم ؛ ولم تكن بأوربا قوة مشاة أكثر مراناً أو نظاماً أو حنكة في الحرب من مشاة الإسبان المشهورين الذين قدر لهم أن تكون إيطاليا ميدان تدريبهم . ولقد هرع نبلاء الإسبان إلى الانتظام في صفوف الجيش معتقدين أنهم لن يندموا على الانخراط في السلك العسكري تحت سماء إيطاليا المشرقة . وفي النصف الثاني من القرن السادس عشر كان ملك إسبانيا يتمتع بخدمة أمهر الضباط في أوربا . وكان نفر منهم — مثل ألفا — من النبلاء الإسبان ، بينما كان آخرون من الإيطاليين ، ومن بينهم أعظم قواد ذلك العصر ألسندرو فارنيز Alessandro Farnese دوق پارما . هكذا كان من دواعي فخر السياسة الإسبانية أنها استطاعت أن تجتذب إلى خدمة التاج الإسباني بعضاً من أعلى الكفايات من أشد عائلات إيطاليا اعتزازاً بأصولها النبيلة .

على أن قوة إسبانيا البحرية كانت أقل خطراً . فهي من ناحية دولة بحر متوسط ؛ ثم هي دولة محيط أطلنطي من ناحية أخرى . وكان يواجهها في البحر المتوسط عبء تطهيره من القراصنة الأتراك ، ومساعدة البندقية وفرسان مالطة في وقف تقدم الزحف البحري المطرد لأسطول السلطان . وكانت هذه التبعات ثقيلة

ومرهقة . فهذا العدو الجسور السريع الحركة كان - من قواعده في الجزائر وتونس - يشن الغارات على جزائر البليار وشاطئ بلنسية . وكانت الدولة العثمانية الطموح ، التي وطدت مركزها في القسطنطينية ، تعتمد على بحارة من اليونان ومصدر تهديد مستمر لسلامة إيطاليا . حينئذ نشأ على مياه البحر المتوسط الهادئة - على مرّ القرون - شكل من أشكال الحرب لم يكن يتناسب على الإطلاق مع مناخ المحيط الأطلنطي . فالسفن الواطئة التي تدفعها المجاذيف (Galleys) ، وهي السفن القديمة من أيام الجمهورية الرومانية والإمبراطورية الرومانية ، كانت لا تزال تستعمل ؛ وطريقة التجذيف صوب العدو والاشتباك معه ، ثم حسم المشاة للمعركة بالتلاحم بالأيدي على صفحات البحر ، كانت لا تزال متبعة أيام فيليب الثاني لم تتغير عما كانت عليه في أيام إيجزيسيس^(١) وبومبي^(٢) . وأعظم معركة بحرية دارت في البحر المتوسط في القرن السادس عشر - وهي معركة لپانتو (Lepanto) (١٥٧١) التي أوقع فيها دون جوان النمسي ، أخو الملك فليب ، هزيمة ساحقة بالجيش التركي ، كانت معركة بين هذا النوع من السفن وبين السفن ذات المجاذيف . ولكن لم يترتب على هذا أن يحصل الرجال الذين مروا على القتال في هذه السفن على أية خبرة تكون عوناً لهم في تسيير السفن الشراعية عابرة المحيطات أو الغلايين (Galleons) التي أصبحت جزءاً لا غنى عنه في القوة البحرية الإسبانية . بل على العكس من ذلك ، غدا استخدام النوع القديم من السفن ، أي السفن الواطئة ذات المجاذيف ، في وقت أصبحت لا تتمشى مع روح العصر ، غدا أمراً شديداً للضرر . وأصبح بإمكان أسطول مزود ببخار في المحيط أو في بحر المانش أن يثق في قدرته على دحر عدو لا يزال أسير خطط حربية تقوم على حشو البنادق من الأمام ، وهي الطريقة التي كانت متبعة في حرب السفن الواطئة ذات المجاذيف .

وبما عرقل جهود إسبانيا في ذلك الوقت أنها - بسبب اضطرابها إلى الحرب في جبهتين - كانت مضطرة إلى أن تستخدم في نفس الوقت طرازين من سفن

(١) إيجزيسيس الأول ملك الفرس الذي قام بحملة ضخمة في أوائل القرن الخامس الميلادي لغزو بلاد الإغريق ، منيت بالفشل .

(٢) جينايسوس بومبي Gnaeus Pompeius (١٠٦ - ٤٨ ق . م) . المحارب الروماني الكبير . هزم في الحرب الأهلية بينه وبين يوليوس قيصر ، وفر إلى مصر حيث قتل .

القتال : أحدهما قديم غاية القدم ، والآخر حديث جداً ، وأن كثيراً من بحارتها قد تدرّبوا على الطريقة القديمة . ولكن كان من الممكن التغلب على هذه العراقل لو قيض للمشرفين على شئون إسبانيا أن يلهموا التقدير الواعي لقيمة القوة البحرية في القتال . ومن العجيب أن إسبانيا — برغم المصالح الضخمة التي تكونت لها في العالم الجديد — لم تبذل جهداً مستمراً لكسب السيطرة في المحيط الأطلنطي . ومن المؤكد أن تحرر الجمهورية الهولندية من السيطرة الإسبانية يرجع إلى حد كبير إلى ترك الثوار يسيطرون على البحر دون منازع .

ولكن ضعف إسبانيا كان في اضطراب ماليتها . لم توجد في القرن السادس عشر حكومة أوروبية ذات اقتصاد قوى ؛ ولكن إسبانيا ضربت مثلاً فريداً لبلد يمتلك مساحة واسعة من الكرة الأرضية في كلا العالمين القديم والحديث ، وفي متناول يديه أغنى الموارد المعدنية المعروفة حينئذ ، ومع ذلك فهو في حاجة مستمرة إلى المال ، وهو غالباً عاجز — لفقره المدقع — عن القيام بأبسط أعباء الحكومة . وأسباب هذا التناقض يرجع بعضها إلى سياسة عامة لا وعى فيها ولا ذكاء ، وبعضها إلى جهل بالقوانين الاقتصادية وإلى نظام ضرائبي فاسد ؛ ولا يقل عن ذلك أثراً فقدان أى وقف جدى لأعمال المضاربة والتبذير . ولم يكن باستطاعة الملك أن يجمع الكثير من الأموال من إسبانيا ذاتها : فالإكليروس — برغم ثرائهم العريض — كانوا يعفون من الضرائب ؛ وفي قشتالة كان النبلاء غالباً عرضة لإجراءات ابتزاز من وقت لآخر ، ولكنهم — بسبب ما جرت عليه العادة لوقت طويل — كانوا يعفون من المساهمة في موارد التاج المنتظمة ؛ وفي أراجونة أقر الكورتيز مبلغاً ثابتاً من المال ولكنه غير كاف بالمرة . ولما كان الانتهاب شائعاً في المستعمرات الإسبانية ، فلم يكن يصل إلى الخزائن الملكية سوى جانب صغير من الثروة التي كانت تجمع من المكسيك وبيرو . ولكن إذا كان في الوسع علاج خراب الذمم بفرض رقابة أشد صرامة ، فإن أخطر من ذلك أن النظام المالي العام في الإمبراطورية الإسبانية كان يقوم على نظرية خاطئة فيما يتعلق بالتجارة — إذ أن رخاءها كان يتطلب أن يوفر لها أقصى ما يمكن القيام به من التبادل الدولي للبضائع . أما إسبانيا فقد اتبعت فعلاً خطة الحماية في أضيق صورها وأشدّها إسرافاً . ولم يكن في إسبانيا إذ ذاك أى علم

أو صناعة ؛ وعلى حين أنها كانت عاجزة عن أن ترسل إلى مستعمراتها ما كانت هذه الأخيرة تحتاج إليه ، فإنها حرمت عليها المتاجرة مع الدول الأخرى . وكان من المتوقع أن تنتهى هذه السياسة إلى إحدى نتيجتين لا ثالث لهما : إما عرقلة التقدم المادى فى المستعمرات ؛ أو تشجيع التهريب على نطاق واسع . وقد أدت هذه السياسة فى الواقع إلى كلتا النتيجتين — هذا فى الوقت الذى عرقلت فيه ضرائب داخلية لا حصر لها تجارة إسبانيا وزراعتها ، كما أثقلت كاهلها كذلك ضريبة الكابالا (alcabala)^(١) وهى ضريبة كانت تفرض بنسبة ١٠٪ على المبيعات ، حتى إنه من العسير أن نتصور وجود وسيلة أخرى دبرت خيراً من هذا لتشل الرخاء الاقتصادى عند شعب من الشعوب .

ولذا كان من الممكن استخراج القليل من المال من إسبانيا ، فلم يكن يتوقع منه شيء فى إيطاليا — وترتب على هذا أن تكون الأراضي المنخفضة هى مصدر الدخل المادى الأكثر قابلية للتوسع . وقد غدت أنتورب إذ ذاك من أغنى المدن التجارية فى العالم ؛ ولم تكن تعترض نشاطها القيود التى كانت تفرضها طوائف الحرف (guilds) ، وغدت مركزاً عظيماً للمعاملات الدولية ، وبزّت بسهولة بروج وغنت فى الثروة وحرية المواصلات ، كما غدا لها — بفضل نمو تجارة المحيطات — ميزة على الفلاندر باعتبارها مركزاً للأعمال المصرفية . وكانت أمستردام — وهى إحدى مدن الهانسا — تسير بخطى واسعة نحو التقدم ، وقد نما رخاؤها — الذى كان مستمداً فى الأصل من صيد الأسماك — بفضل الثروة النامية للدول الأوربية القريبة من ساحل الأطلسى . وهكذا أترعت الأراضي المنخفضة بالثراء ، فكانت القلب المالى للإمبراطورية الإسبانية .

وكانت إنجلترا — التى حكمها فليب بعض الوقت بصفته زوجاً للملكة ماري — مرتبطة بالأراضي المنخفضة التى كانت بالنسبة لإسبانيا أرض الذهب — بروابط المبادلات التجارية منذ أمد بعيد . وكان فليب — كأبيه من قبل — يدرك تماماً قيمة إنجلترا كحليف وصديق . كان يقدر قيمة التجارة الإنجليزية بالنسبة إلى رعاياه الفلمنك والنتائج السيئة التى تترتب على وقف هذه التجارة ؛ كما كان يعلم

(١) من الكلمة العربية « القبالة » .

أن إنجلترا تستطيع — لو ناصبته العداء — أن تعرقل المواصلات البحرية بين إسبانيا والأراضي المنخفضة ، وأنها تستطيع — لو وهبته صداقتها — أن تحمي هذه المواصلات أحسن حماية . ولكنه كان كاثوليكيًّا مخلصاً ، وكان يقدم الدين على أى اعتبار آخر . واحتفاظه بصداقة إنجلترا يتوقف — فى النهاية — على العقيدة التى يعتنقها أهلها .

ولكن إليزابيث صممت على أن تكون پروتستانتية . وكان قرارها هذا جريئاً : فشمال إنجلترا كان لا يزال كاثوليكيًّا ، وكذلك سكان مرتفعات إسكتلندة والأيرلنديون ؛ على حين أن جيشاً فرنسيًّا تقوده الوصية مارى جيز كان يعسكر فى المنخفضات الإسكتلندية للدفاع عن القضية الكاثوليكية . ولكن إليزابيث اتخذت هذا القرار بالتعاون مع مستشارها العظيم وليم سسل Cecil لورد برجلي Burghley ، ولم تراجع قط . وربما تكون قد تأثرت فى ذلك بآثار تربيته الأولى وتنشئتها وفقاً للعقيدة البروتستانتية ، وبألوان المهانة التى عانتها فى عهد أختها الكاثوليكية .

وقد أبدت الحكومة الإنجليزية فى السنوات القليلة الأولى من حكم إليزابيث من الحنكة السياسية ما لم تبلغه قط أية حكومة أوروبية حتى ذلك الوقت . أمكن تفادى حرب أوروبية ، وكان ذلك لخير البلاد ، وأقيمت كنيسة إنجلترا على أساس قوى مستقر دون حدوث قلاقل أهلية ، وبأدنى حد من التدخل فى حرية الفكر . وأرسل جيش إلى إسكتلندة حيث أبدى من الشجاعة فى حينها ما يعود الفضل فيه إلى سسل ، ونجح هذا الجيش فى تحرير البلاد من عساكر الوصية الفرنسية مارى الذين كانوا هناك لحراسة القضية الكاثوليكية ، وبهذا مهدت الأرض فى منخفضات إسكتلندة لتلقى دعوة جون نوكس والديانة البروتستانتية . ولا يوجد فى تاريخ إنجلترا الحربى — ولا حتى ووترلو — ما يفوق فى نتائجه البعيدة المدى ذلك الحصار المضطرب لمدينة ليث Leith الذى قام به جيش إنجليزى مختل النظام ، وتوج فى النهاية بمعاهدة إدنبرة . فلا أول مرة منذ قرون يدخل جيش إنجليزى إسكتلندة ، لا ليلحق مهانة بكبرياء الإسكتلنديين ، بل ليعخدم قضية إسكتلندية . وهكذا خطت الحكومة الإنجليزية — بتأمينها للإصلاح البروتستانتى فى جنوب إسكتلندة — الخطوة الأولى^٣ اللازمة لاتحاد البلدين على نحو ما تنبأ به بعض عقلاء الرجال فى ذلك الوقت .

ومن الخير أن الحكومة استطاعت أن تتجنب خطأ حمقاء كان يحتمل أن تفسد هذا العمل العظيم الذى أملتة الحنكة السياسية : كإحياء ادعاء إنجلترا القديم فى السيادة على إسكتلندة أو زواج الملكة إليزابيث من نبيل إسكتلندى . ولكن الحكومة الإنجليزية لجأت إلى خطط ماهرة ، فضربت الحكومة ضربتها فى الوقت الذى كانت تنعم فيه بالهدوء وفرنسا مشغولة بمؤامرة أمبواز^(١) . وفى أثناء ذلك كانت ملكة إنجلترا تخادع بتقديم بعض العون للتأثرين فى فرنسا حتى تحول الأنظار عن ضربتها فى إسكتلندة .

وكانت الملكة الجديدة تعتز بأنها « محض إنجليزية » . فقد كانت على علم بهواجس رعاياها فى الجزيرة ضد الأجانب ، الأمر الذى لمسته بنفسها فى عاصفة الاحتجاج التى واجهت زواج أختها بإسباني . ولهذا لم تعزم تكرار الخطأ الذى ارتكبته أختها . ولكن استهواء الرجال كان طبيعة ثانية فيها ؛ كما رأت فى التلهى الجدى ببحث عروض الزواج منها واجباً دبلوماسياً عليها تدين به لبلدها . ومن ذلك أنها — حرصاً منها على أن تحفظ للهييجونوت روحهم المعنوية — أبدت لفترة تزيد على عشر سنوات استعداداً لقبول زواج ألسون Alençon الذى كان يصغرها بنحو عشرين عاماً ، والذى كان مجرد أضحوكة ، حتى فيما لو كانت خلاله أقل مدعاة للاحتقار . ورغم ذلك فإنها فى قرارة نفسها كانت تأنف أن يشاركها أجنبي عرشها وآثرت أن تموت — كما عاشت — ملكة عذراء و « محض إنجليزية » . وقد قالت لآخر برلماناتها فى نهاية حياتها الطويلة : « رغم أنكم قد لقيتم ، وستلقون ، على هذا العرش من هم أقوى منى وأحكم ، إلا أنكم لم تجدوا ولن تجدوا من هو أكثر حباً لكم منى » . وكان الإنجليز يعلمون أن ذلك حق ، ولم يستطع شيء أن يوجب عنها ولاء رعاياها لها ولاء شاعرياً : سواء مظاهر الغرور والحماقات التى كانت كفيلة بأن تجعل امرأة أخرى أدنى من إليزابيث موضعاً للسخرية ، أو الأعمال الوضيعة التى تكفى لتلطيخ أية سمعة بالأحوال . كانوا يحسون أنها امرأة عظيمة معتزة بنفسها متوقدة الحماسة ، حكيمة إلى درجة تفوق التصور ، وأنها وهبت حياتها لخدمة بلادها ومجدها .

(١) انظر ما سبق ، ص ١٨٧ .

وكان الجميع في خارج إنجلترا يعترفون بأن بلداً كإنجلترا بلغ هذا المبلغ من الثروة والقوة لا يمكن غزوه على الإطلاق إذا ما بقي متحداً ؛ ومن هنا استندت آمال آل جيز — ثم آمال فليب الثاني واليسوعيين من بعد ذلك — على احتمال انقسام الإنجليز على أنفسهم . ولكن باستثناء حركة العصيان التي قام بها إيرلات الشمال في عام ١٥٦٩ — وكان قد مضى على جلوس إليزابيث على عرشها أحد عشر عاماً — لم يهدد الوحدة القومية خطر جدى ؛ وأنت دعوة الشمال الكاثوليكي متأخرة جداً . فسكان منخفضات إسكتلندا كانوا قد انضموا بالفعل إلى كنيسة الإصلاح ، كما أن معظم سكان وسط إنجلترا وجنوبها ارتضوا التسوية الأنجليكانية . وهكذا حين نشبت الحرب مع إسبانيا ، لم يوجد حزب إنجليزى مستعد لتعصيد الغزاة الأجانب ، كما كان شأن « العصابة » في فرنسا . كانت لندن پروتستانتية قلباً وقالباً ؛ وما كان أحد يقبل أن يفكر في أن تقيم بعاصمة الإنجليز حامية إسبانية كتلك التي احتفظت « للعصابة » بباريس .

وفي مقدمة الأسباب التي عملت على تشكيل تفكير الرأي العام في إنجلترا على هذا النحو غير العادى البراعة التي تم بها توطيد الكنيسة الإنجليزية على دعائمها الجديدة : فلم يحرق أحد من خصومها ، وعومل الأساقفة الكاثوليك الذين جردوا من أملاكهم باحترام ؛ ورغم أن البرلمان قد أقر قانوناً بالوحدة الدينية Act of Uniformity ، فإنه لم ينفذ بشكل يجعل اعتناق معتقدات دينية مخالفة أمراً خطيراً — بل لقد أطلقت في سماء إنجلترا — عن تدبير ملائم — غمامة هذبت من معتقدات الملكة الدينية ، حتى بدا للناس في نهاية الأمر أن من المحتمل أن تعود إلى حظيرة البابوية — فعلى حين اعترضت الملكة على التضحية في القداس ، لم تخف كراهيتها لزواج رجال الدين ، وكانت الشموع تضيء أحياناً على مذبحها فتعطى الكاثوليك بصيصاً خداعاً من نور الأمل .

أما أولئك الذين أزعجهم الخوف من اقتداء الملكة بوالدها فتعلن نفسها « رأس الكنيسة » ، فقد تعزوا بقلب جديد غامض قد يعنى أقل من ذلك ، ولو أنه قد يعنى أيضاً نفس الشيء . وبعد — فأى شيء في هذه التسوية الدينية مما يدفع العقلاء إلى الثورة ؟ إن طقوس الكنيسة (The Liturgy) المستمدة من كتاب صلوات

كرانمر الموضوع في عام ١٥٥٢ بعد إدخال بعض التعديلات الطفيفة عليه ، وضعت بصراحة على نماذج كاثوليكية ، وإن تكن حكومة الكنيسة أسقفية ونصوص عقيدتها كلفنية إلى حد كبير . ولهذا لم تحظ هذه التسوية الدينية بالرضى التام من جانب أى فريق من الرأى العام : فالفقهاء الإنجليز الذين تلقوا علومهم الدينية في سويسرا وجدوها جدّ محافظة ، على حين اعتبرها الكاثوليك جدّ ثورية . أما أولئك الذين كانوا يمتقنون وشاح الكهنوت أو موائد القربان المقدس ، أو يبحثون في الكتاب المقدس عن بيئة للأساقفة فلا يجدون إلا قليلا ، فقد بدت لهم كنيسة إليزابيث بعيدة كل البعد عن الكمال . أما الشعب في مجموعه ، ممن لا تعنيهم في كثير أو قليل المسائل اللاهوتية ، فلم يجدوا في هذه التسوية القائمة على التوفيق شيئا يكرهونه ، وبقى الكاثوليكي العادى لا يحرك ساكناً حتى عام ١٥٧٠ حين حرم البابا الملكة وأعلن عزلها ، فاضطر حينئذ أن يسائل نفسه : لمن يدين حقاً بالولاء في خاتمة المطاف ؟

وحين اعتلت إليزابيث العرش لم تكن إنجلترا في نظر ملك إسبانيا متشحة بشوب العداء ؛ بل كانت بلداً ينبغى عليه أن يسعى لكسبه ومصالحته .

ورغم أن فيليب كان كاثوليكياً متديناً ، عقد العزم على اجتثاث جذور الهرطقة من أملاكه ، فإنه لم يكن قط صليبيّاً للدرجة التي تحدوه إلى التضحية بالمصالح السياسية الحقيقية لبلاده على مذبح الدعاية الدينية . كانت إنجلترا دولة « مهرطقة » - وهذه طامة كبرى ووصمة بشعة . ولكن هرطقة إنجلترا لم تكن مطلقاً مما يحدو بفليب إلى مهاجمتها ؛ بل إنه - على العكس من ذلك - اغتبط كثيراً برؤية جيش إنجليزي يحطم كبرياء آل جيز في إسكتلندة رغم كونهم من الكاثوليك . وكان من الجائز أن يتوقع منه - بصفته كاثوليكياً - أن يرحب بتوقع احتمال حدوث اتحاد بين إنجلترا وإسكتلندة وفرنسا تحت حكم ماري ملكة الإسكتلنديين ؛ ولكنه - بصفته ملكاً لإسبانيا - كان لا يسعه إلا أن يعتبر هذا الاحتمال كارثة ينبغى تجنبها بأى ثمن . وفي هذا التقدير الأخير ثبت أن السياسى فيه أقوى من الكاهن - وهكذا وقف فيليب من الأزمة الكبرى التي وطدت الإصلاح البروتستانتي في إسكتلندة ومهدت الطريق للاتحاد بين إنجلترا وإسكتلندة ،

موقف الصديق الذى لا يحمل ضغناً لأخت زوجته ، إليزابيث المهرطقية . وهكذا عاونت إسبانيا المذهب البروتستانتي فى إنجلترا بصدقتها فى عام ١٥٦٠ بقدر ما عاونته بعدائها فى عام ١٥٨٨ .

ثم جدّ حينذاك عامل آخر جعل فليب يحرص على علاقته الودية مع إنجلترا : فقد ووجه بمتاعب خطيرة فى الأراضي المنخفضة . كان الملك حين توجه إلى إسبانيا قد أناب عنه فى حكم المقاطعات السبع عشرة مارجريت دوقة پارما ، وهى ابنة شارل الخامس وثمرة زواج غير شرعى من عشيقة فلمنكية . وكانت مارجريت ذكية عطوفة قوية الشخصية ؛ كما أنها من أهل البلاد ، وباستطاعتها أن تتكلم لغاتها . ولو أنها تركت لتحكم المقاطعات السبع عشرة بمساعدة نبلائها المحليين دون تداخل من إسبانيا ، لما كان ثمة كبير شك فى أن يكون حكمها ناجحاً محبوباً . ولكن نائبة الملك لم تكن مطلقة الحرية : فقد أرغمها التعليمات السرية التى بعث بها الملك على أن تنفذ المراسيم ضد المهرطقيين ، وفرض عليها العاهل الغائب عن البلاد هيئة استشارية من ثلاثة مستشارين ترجع إليهم بانتظام فى كل مسائل السياسة والإدارة كبيرة كانت أم صغيرة . وكان الكردينال جرنفل ، ابن ذلك السياسى العظيم الذى كان أكبر مستشارى شارل الخامس طيلة ثلاثين عاماً ، الرئيس المعترف به لهذه الهيئة وصاحب القسط الأوفر من النفوذ فيها ، وذلك لما عرف عنه من الانكباب على العمل والمقدرة الفائقة ودماثة الخلق .

ووجه الخطورة الحقيقية فى حكومة جرنفل (وكانت حينئذ تعدّ كذلك) ليس أنها كانت تفتقر إلى المقدرة أو الحنكة السياسية ؛ بل إنها كان يطلب منها — على غير ما تراه أصحح للموقف — أن تنفذ سياسة كريمة تملئها إسبانيا . كان أهالى الأراضي المنخفضة معترزين بالحقوق التى حصلوا عليها والامتيازات التى اكتسبتها مقاطعاتهم . وكانوا يمتقون وجود القوات الإسبانية وفضائع الاضطهاد الدينى الإspanى ، ويخشون العواقب التى تترتب على تنفيذ المشروع الجديد : مشروع إنشاء أربع عشرة أبروشية ، وهو المشروع الذى كان ينذر بإدخال محاكم التفتيش الإسبانية واتخاذ إجراءات أعنف ضد العقائد الإصلاحية . وتساءل النبلاء الوطنيون الأثرياء المعتزون بأنفسهم ممن خدموا الدولة فى عهد شارل الخامس : إلى متى

يحملون هذه المظالم ؟ ومتى يسمح لهم بنصيبهم الحق من نفوذ الحكم ومغانمه التي أقصاهم عنها الكاردينال المقيت وبطانته ؟

وكان الرجلان اللذان عملا سويًا على إنزال الكاردينال من علياء سمائه يتباينان بشكل غريب في المزاج والطباع . كان إجمونت جنديًا كريماً مزهوًا بنفسه ، مهتر الشخصية بعض الشيء ، ارتفعت به انتصاراته في سان كنتان وجرافلين Gravelines إلى الذروة في أعين الشعب ، ثم أخذته الحسرة لشعوره بأنه لم يجز الجزء الأوفى . أما وليم ناساو أمير أورنج فقد كان أصلب عوداً وإن يكن أقل احتفالا بالمظاهر ، وكانت شخصيته تقوم على الاعتزاز بالنفس والعزم والشفقة . كان هذا الأرستقراطي الكبير يأنف من وطأة القوات الإسبانية على الأراضي الفلمنكية ، وأفعم بالأسى على ضحايا قسوة الطغيان الإسباني . حقاً إن وليم كان يتمتع بقليل من الصفات العسكرية ، عدا أنه لم يكن مستعداً للاعتراف بالهزيمة ؛ ولكنه كان يتحلى بعزم فائق على متابعة هدفه ، وكان لديه معين لا ينضب من المهارة الدبلوماسية — وقد وجد نفسه منساقاً في مجرى الأحداث إلى تزعم حركة شعبية هدفها التحرر من الحكم الإسباني . وهو يتهم بأنه كان مخلصاً لإسبانيا في البداية ثم انقلب ثائراً ، وبأنه كان كاثوليكيًا في البداية ثم انقلب لوثيريًا فكلفتيًا . كان انتهازيًا في الواقع ، يعيش على خيط رفيع من المبادئ ؛ ولما كان يهيم بالحرية ويمقت التعصب — وهي العقائد التي عرضته ، كما عرضت صديقه إجمونت ، لميته عنيفة — فإنه يعد أحد كبار الأبطال في تاريخ الحرية في أوروبا .

وعندما لاحت تباشير العاصفة صمم فليب على أن يضرب ضربه . ولكن لم يترتب على انسحاب جرنفل تحت ضغط إجمونت وأصدقائه (١٥٦٤) إلا إصرار الملك وتصميمه على القضاء على هراطقة الشمال . وبالإضافة إلى الرعب الذي أشاعته محكم التفتيش والتطبيق القاسي للمراسيم الصادرة ضد الهرطقة ، صدر إلى سكان الأراضي المنخفضة في ١٨ أغسطس ١٥٦٤ أمر بضرورة التزام قرارات مجمع ترنت . وبنفوذ الأمير أورنج صدر في مجلس نائبة الملك احتجاج رسمي على هذه المظالم وغيرها ، وحمل إجمونت الاحتجاج بنفسه إلى الملك في يناير ١٥٦٥ . واحتدمت المشاعر بسرعة حين ظهر أن بعثة إجمونت لا طائل منها وأن في

عزم الحكومة انتهاج الصرامة في تطبيق المراسيم والقرارات التي صدرت لمقاومة الهرطقة . وتعاهد بعض شباب النبلاء وتكاتفوا لمقاومة محاكم التفتيش ، ومنهم كلثنيون معروفون بالصلابة - مثل مارنكس Marnix ، ومنهم كاثوليك متأثرون بالتعاليم الإنسانية - مثل بردرود Brederode . تلك هي الجماعة التي وضعت الوثيقة المعروفة في التاريخ باسم « الحل الوسط » ، وهي الوثيقة المتشددة التي ما كانوا يقبلون فيها جدالا . وقد أخذهم الكبر فاتخذوا الاسم الذي أطلقه عليهم خصومهم المزدرون بهم وهم اسم « الشحاذين Gueux » - تماماً كما فعل بعض الجند البريطانيين فيما بعد حين لم يأنفوا من أن يعرفوا باسم « المحتقرين The Contemptibles » . أما فليب فكان يدبر في هدوء رداً قاتلا على كل هذا الاحتجاج والهيجان (وقد حاول أورنج وإجمونت أن يسلكا بهما مسلك الاعتدال) وعلى الثورة الوحشية التي قام بها الكلثنيون على العقائد المقررة .

ويؤخذ على هذا الملك الإسباني أنه لم يكن متفتح الذهن ، ولا ألمعياً ولا إنسانياً ، كان الرجال الثلاثة (أورنج وإجمونت وكونت هورن Hoorn) هم الذين عاونوا في إقرار الأمن في البلاد أثناء الاضطرابات الأخيرة ، ولكن هلل لهم « الشحاذون » فوشت بهم نائبة الملك سراً ؛ ومن ثم استقر الأمر على تحطيمهم . وبدلاً من أن يفكر الملك في علاج آخر ، كأن يذهب بنفسه إلى الأراضي المنخفضة لمدة أسبوعين مثلاً لبحث المشكلة في مكانها ، أرسل إليها ألفاً ، أحسن قواده وأشدهم عنفاً ، على رأس جيش قوى من المرتقة الإيطاليين والإسبان ليسحق الهرطقة ، ويعمل - بتوجيه خاص - للإيقاع بالرجال الثلاثة وقتلهم ، وهم الذين كان يستطيع حاكم أكثر تعقلاً أن يجد فيهم الدعائم الرئيسية لحكمه .

وانسحب أورنج الحريص إلى حيث يجد السلامة في وطنه في ألمانيا قبل أن تدركه العاصفة ؛ ولكن في لحظة جانب فيها التوفيق الإسبان أمسك بإجمونت وهورن غدرًا ، وبعد محاكمة هزلية قطعت رأساهما في الميدان العام في بروكسل . وكان مصرع هذين الرجلين الشجاعين الواسعي النفوذ (يونية ١٥٦٨) جريمة من تلك الجرائم السياسية التي لا تبرأ منها الحكومات .

وفي خلال ست سنوات مليئة بالفزع مضى ألفا يطبق على أهالي الأراضي

المنخفضة الذين أذهلهم الرعب مبدأه بجذافيره . ولكن كانت ثمة عوامل أربعة لم يعمل لها حساباً ، هي في مجموعها التي أحالت نجاحه الأول إلى فشل قتال . وأورنج أول هذه العوامل . أعلن هذا الأمير خارجاً على القانون ؛ ولما كان يخشى الإسبان ولا يرجو منهم شيئاً ، فقد شرع في تنفيذ خطة جريئة تقوم على جمع الجيوش لمحاربتهم . ولكن عملياته الحربية منيت بالفشل ؛ فهو لم يكن قائداً ، وكانت قواته تفتقر إلى النظام والأجر ، ولا تستطيع الوقوف أمام جنود ألفا المحنكين والمعدنين للخدمة في هذه البلاد في معركة يلتحم فيها الفريقان . ولكن إذا كان أورنج عاجزاً عن قهر العدو في الميدان ، فقد كان باستطاعته أن يكبده نفقات لا قبل له بها . ولكي يدفع ألفا رواتب جنده ، اضطر إلى اللجوء إلى نظام ضرائبي كان من المحتم أن يثير موجة من السخط الشديد في مجتمع يعمل أهله في التجارة . فالتجار الكاثوليك الذين لم يرفعوا إصبعاً لإنقاذ مهروط من المحرقة أو للاحتجاج على المذابح الشاملة التي كان « مجلس المتاعب Council of Troubles » يقوم بها — قد استشاطوا غضباً حين طلب منهم أن يدفعوا رثماً قدره ١٠٪ على كل مبيع ، ولم يقنعوا بما قبل لهم من أن الضريبة سمة من سمات الميزانية الإسبانية . وهكذا اتحدت البلاد كلها وكأنها رجل واحد — دون تمييز بين طبقة وأخرى أو بين عقيدة وأخرى — ضد حكومة وجهت مثل هذه الضربة القاتلة إلى التجارة التي كانت قلب البلاد النابض .

أما العامل الثالث فهو البحر . كانت السفن في أيدي پروتستانت وقراصنة . فإن نبتاً جديداً من أهالي ألمانيا السفلى أو من الفايكنجز الهولنديين كانوا يجتاحون البحار الضيقة وينتهبون الكنوز والمتاجر وينهبون الكنائس ويقتلون القسوس والرهبان — يفعلون كل ذلك ردّاً على الأعمال البربرية التي لم يكن في وسع أى جيش پروتستانتي في القارة أن يأخذ ثأرها بدرجة كافية . فإذا كان « الشحاذون » في البر حتى ذلك الوقت قليلي الحيلة ، فإن « شحاذي البحار » وضعوا روحاً جديدة في النضال . واستطاع القراصنة الهولنديون بتشجيع صريح من جانب الإنجليز ، وهم على مثالهم في المهرطقة والعقلية ، وبرضى إيجابي من جانب الملكة إليزابيث استطاعوا أن يستولوا على مدينة برل Brill (أبريل ١٥٧٢) — وبذلك وضعوا — من حيث لا يحتسبون — أسس دولة أوربية جديدة وشهيرة .

ولكن المجهود البحري لم يكن وحده كافياً على الإطلاق لبناء الجمهورية الهولندية ، فلقد شارك « شحاذه البحار » في الدافع الأساسي الذي حرك المقاطعات الشمالية إلى أن تنفض النير الإسباني وتدعو وليم أورنج ليقودها إلى النصر . وأدى الاستيلاء على برل مباشرة إلى الاستيلاء على فلشنج Flushing في الشمال ومونز Mons و فالنسيين Valenciennes في الجنوب ؛ ولكن — أهم من ذلك — بدأ معارك الحصار التي أعطت تاريخ هارلم Haarlem وألكمار Alkmaar وليدن Leyden شهرة خالدة . وإذا كان الهولنديون عاجزين حتى ذلك الوقت عن الصمود لقوات ألفا من الجند المحنكين في معركة مكشوفة ، فقد كانوا من وراء أسوار مدنهم يحاللون بشجاعة رجال باعوا أنفسهم عدواً أثبت المرة تلو الأخرى أنه — حين يحمي ويطيس المعركة — لم تكن تأخذه رحمة ولا شفقة : لا بصغير أو كبير ولا برجل أو امرأة .

وكانت فظائع الجيش الإسباني الذي لم يقبض رواتبه بانتظام ، وانحلال نظامه ، مما رفع أورنج في خريف عام ١٥٧١ وربيع العام التالي وصيفه من مستواه العادي إلى أوج مجده . كان ألفا قد استدعى ، ثم مات خلفه ركوسنس Requesens فجأة ، وجاء خلو البلاد من حاكم إسباني فقدم فرصة للفلمنكيين لا ينتظر من دبلوماسي في ذكاء أمير أورنج أن يهملها . وكانت البروتستانتية الهولندية في موقف لا تحسد عليه ، وكان الأمير قد خسر جيشاً وفقد أخوين له في ساحة موكرهيد Mookerheede المروعة (١٥٧٤) ؛ كما طردت قواته من جزائر دويقلاند Duiveland وشووين Shouwen ، وفرغت خزائنه ، وصدته الملكة إليزابيث وكان قد عرض عليها السيادة على مقاطعاته الشمالية ؛ وكان يعلم جيداً أن دولته الكلفنية الصغيرة التي لم تكد تتكون بعد لن تكون لها حيلة لإزاء سطوة الإمبراطورية الإسبانية ما لم تستند إلى تعضيد داخلي قوي . وفجأة لمع في المقاطعات الجنوبية بريق من الأمل لم يكن متوقفاً : فقد رفع الجيش الإسباني راية العصيان بسبب عدم دفع رواتبه ، ثم استولى على ألوست Alost وتحول إلى عصابات أعملت السيف والنار حتى مشارف بروكسل . ووجد وليم في هذه الحالة من الغضب والفرع التي استولت على الأهالي فرصة ذهبية ليوسع نطاق قضيته ويحول مصائرهما — فدخل في مفاوضات مع ولايات الفلاندر وبرابانت Brabant بالنيابة عن هولندا وزيلند ، وذلك بقصد إخراج

الأجانب وتسوية المسألة الدينية ٥ ثم جاء نهب الإسبان الفظيع لمدينة أنتورب ، المعروف « بالغضبة الإسبانية » ، فأزاع نهائياً آخر مظهر للتردد كان يعترض إتمام تسوية غنت (نوفمبر ١٥٧٤) . وتكاثفت المقاطعات الكاثوليكية والمقاطعات الشمالية البروتستانتية (هولنديو أسفل البلاد والوالون) معاً في اتحاد سياسى لمواجهة الخطر المشترك . وحين بدأ الحاكم الإسباني الحديد - دون جوان النموسى - حكمه يحيط به كل بريق دمه الملوكى ، وغار لپانتو لم يذبل بعد على جبهته ، لم يجد بداً من أن يسلم بالمطلب الذى أجمعت عليه البلاد : وهو وجوب تخلصها فى الحال وإلى الأبد من القوات الأجنبية ، واحتفاظ المقاطعات بالمواثيق والحريات التى حصلت عليها . وأشد إيلاماً لهذا الحاكم المتغطرس المندفع كان السلطان الذى كسبه أورنج - ولقد كتب ألفا إلى الملك : « لقد سحر أمير أورنج عقول الناس : فهم يحبونه و يخشونه ويتمنون أن يصبح سيدهم » .

ولكن الأمير لم يحتفظ بالنصر الذى كسبه ؛ فإن روابط الاتحاد التى صهرت على لب « الغضبة الإسبانية » أصبحت من الضعف بحيث لا تقوى على الصمود لامتحان جدى . فالمقاطعات المتحدة لم تكن على رأى واحد بشأن المسألة الحيوية التى لم تكن قد حسمت بعد وهى المسألة الدينية . ثار الكلفنيون فى غنت على حكومتهم ، وجانب الأمير أورنج الصواب إذ شجعهم بعض الشيء على ذلك ، ثم سجنوا دوق إيرشوت Aerschot وهو حينئذ القائد الكاثوليكي للجنوب - وبذلك أثاروا من جديد مشاعر الكراهية الدينية المحترمة التى كانت قد التأمت أمام الشعور بالخطر المشترك . وفى هذا الجو ؛ والبلاد قد التهب مشاعرها وتقطعت أوصالها ، نزل بها جيش مختار من عشرين ألف مقاتل ، يقوده أعظم جنود إسبانيا وأقدر ساستها . لم يكن دوق پارما - كما كان ألفا - متعطشاً للدماء ، لا يقوم من خطأ حتى يقع فى آخر ؛ ولا كان خيالياً مثل دون جوان . ولكنه كان يحسن المداينة والحداع والتهديئة ؛ وهو حين يبدد الشكوك من حوله يعرف أيضاً كيف يسدد ضربته - وقد تمكن بالنصر الساحق الذى أحرزه فى جمبلو Gembloux (يونيو ١٥٧٨) أن يضمن أخيراً عودة المقاطعات الجنوبية إلى الخضوع لإسبانيا .

وبهذه المعركة استقر لكل من هولندا وبلجيكا وجودها السياسى المنفصل .

واستمر الحال على هذا المتوال حتى الوقت الحاضر . باستثناء الاتحاد القصير المضطرب الذى أقيم بين البلدين بين عامى ١٨١٥ و ١٨٣٠ . وهذا البعد الذى يفصل بين بروكسل ولاهاى فى الوقت الحاضر روحاً - رغم قربهما مكاناً - يعزى فى الدرجة الأولى إلى ألفا الذى سحق پروتستانات الجنوب فى القرن السادس عشر ، وإلى پارما الذى حال دون عودتهم وانتعاشهم . فإذا ذكر التاريخ بناء بلجيكا الحديثة ، عدد منهم هذين القائدين الأجبيين . وقد ترك أولهما ذكرى كريهة ، على حين خلف الآخر أجدد الذكريات .

وأخيراً - وبعد إحجام كبير - اطرح أورنج حلمه بتكوين دولة متحدة من الأراضى المنخفضة ، ووافق على اتحاد يوترخت (١٥٧٩) الذى كان معضدوه البروتستانات فى الشمال قد وضعوا إطاره رداً على اتحاد آراس Arras الكاثوليكي . لم يبق أمامه حينئذ سوى أن يركز جهده فى الدفاع عن كلفيني الشمال فى هولندا وزيلندة ، أولئك الذين قاسوا كثيراً ، وقد وضعوا مصائرهم بين يديه ، وباتوا مصممين على التضحية بكل شئ فى سبيل معتقداتهم . وفى سبيل تحقيق هذا الهدف ، ورغم ما أبداه خيرة مؤيديه من أسف شديد ، قرر أن يطلب المساعدة من دوق أنجو Anjou الذى كان يبدو أنه سيقدم خير ضمانات المساعدة الفعالة بسبب كونه وريثاً للعرش الفرنسى وخاطباً معروفاً ليد ملكة إنجلترا . ولكنها كانت مضاربة فاسدة : فأنجو كان خثوناً ، وجيشه عاصياً وحمايته مكروهة ، ولهذا لم ينتج خير من تدخله القصير الأمد . ولكن القدر كان يدخر للهولنديين فى حربهم ضد إسبانيا حليفاً أقوى ، لن يلبث قبل مضى وقت طويل حتى يميظ اللثام عن خلال مدهشة .

فى ذلك الوقت كان مبدأ الاغتيال السياسى أمراً مقررّاً على مدى واسع ، خصوصاً وأنه - وإن لم يكن الأسلوب الوحيد - كان يزكيه بعض الأعضاء الإسبان فى طائفة اليسوعيين . لهذا ليس ثمة ما يدعو إلى الدهشة حين تقرر حكومة إسبانيا أن تزيح غريمها العنيد القوى من طريقها باغتياله . وأعلنت الإمبراطورية أن الأمير خارج على القانون (١٥ مارس ١٥٨١) ، وأنه عدو للجنس البشرى ، ووعدت بالمال والأراضى والألقاب من يأتى برأسه . ولكن إلهة النعمة تلازم سياسة

الاغتيال السياسى : فقد تخر الضحية صرعى ، ولكن القضية تبقى يشد أزرها دم الشهيد . فى ١٠ يولية ١٥٨٤ أطلق شاب برجندى متعصب يدعى بلتزار جرار Balthazar Gérard الرصاص على أورنج فى « هو الأمير Prinzenhof » فى دلفت Delft ؛ ولكن رغم أن وليم فى ذلك الوقت لم يكن يزيد على الحادية والخمسين من العمر ، فإن مقتله جاء متأخراً جداً . فقبل ذلك بثلاث سنوات (٢٦ يولية ١٥٨١) كان ممثلو برابانث والفلاندر ويوترخت وجلدرلاند Guelderland وهولندة وزيلندة قد اجتمعوا فى لاهاي ووقعوا صكاً Act of Abjuration أقسموا فيه اليمين على خلع ولائهم للتاج الإسباني . وهكذا فرغم وفاة وليم أورنج فى تلك الآونة ، تمخض الاضطراب والعاصفة عن دولة من صنع يديه قامت بالفعل ، وكان من المقرر لها أن تملأ البحار بسفنها وتبنى فى الشرق إمبراطورية مفرطة فى الغنى ، وتتحدى أساطيل إنجلترا وجيوش فرنسا ، وتكسب امتنان الجنس البشرى باعتبارها ملجأ للحرية الفكرية وموطناً للمدرسة من الرسامين أثروا ثقافة أوروبا على الدوام بما راعوه فى رسومهم — بدقة ورقة — من بدائع الحياة الهادئة .

* * *

واصطنعت الدولة الجديدة لنفسها دستوراً كان يبدو لكل ناظر أنه لا يصلح مطلقاً لجو السياسة الأوربية العاصف . فقد كانت الدولة عبارة عن اتحاد من سبع جمهوريات صغيرة ذات سيادة ، لكل منها برلمانها المحلى وحاكمها التنفيذي المنتخب Stadtholder ، وحقها فى المشاركة بنصيب مباشر فى الإشراف على مالية الاتحاد وسياسته الخارجية . وللاتحاد مجلس للنواب ، يختار أعضاؤه من مجالس الطبقات المحلية ويساعده مجلس من اثنى عشر عضواً ، وهو ينظر فى الشؤون التى تعنى الاتحاد كله ويعين القائد العام للجيش والقائد العام للأسطول . ولكن لما كانت هذه الهيئات المركزية لا تتمتع بالسيادة الحقيقية ، بل تتمتع بها المجالس المحلية السبعة ، فلم يكن ثمة ضمان دستورى يضمن تماسك الجمهورية كما يضمن الاستمرار والحيوية فى إدارة شئونها . فى أية لحظة كان بإمكان فلاحي فريزيا وقسس يوترخت أو نبلاء جلدرلاند أن يعرقلوا بأصواتهم — إذا ما أرادوا — الخطط التى جهد فى حبكها أرستقراطيو المدن التجارية . على أن الجمهورية لم ينقذها من هذه العواقب

السيئة التي ترتبت على هذا القصور في جهازها السياسى سوى عوامل ثلاثة هى التجانس الفعلى بين سكان هولندا ، وتفوق هولندا على سائر المقاطعات - وأهم من هذين العاملين المكانة الخاصة التي أعطيت عن طوعية لزعيم بيت أورنج خلال الخمسين عاماً الأولى الدقيقة لاستقلال هولندا .

ولما كان الجانب الأكبر من الشعب الهولندى يعنى بالتجارة والصناعة وركوب البحر ، فقد كان يجتمع على وجهة نظر واحدة في الشئون الخارجية ، وعلى فهم مشترك لحاجات هولندا ومصالحها . زال النظام الإقطاعى ، وحل محل النبيل والكاهن في أهميتهما رجال الطبقة الوسطى من سكان المدن . وكان الأرستقراطيون في المدن يسيطرون عليها ، والمدن بدورها كانت تسيطر على الجمهورية . وشاعت الأقدار - إلى حد ما - أن تقع المراكز الرئيسية للتجارة والعلم في داخل مقاطعة واحدة ، الأمر الذى عاون كثيراً على منح البلاد الاستقرار والقوة . فإن أمستردام وروتردام ودلفت ودوردريخت Dordrecht وليدن (مقر الجامعة الهولندية) ولاهاي (العاصمة السياسية للدولة) تقع جميعها في هولندا . ولم يحدث في أى مكان آخر في أوروبا أن تركز في رقعة واحدة من الأرض هذا الحشد من السكان والقوة التجارية ؛ ولم يحدث في أى مكان آخر أن عولجت شئون التجارة بمثل هذه المهارة أو فهم الناس فن الحياة الحضريّة بمثل هذا الإتقان . ولما كان لهولندا قسبة السبق بين المقاطعات السبع ، فقد تزعمت أمستردام مدنها ويزت منافساتها في الصيرفة والتجارة وحجم أسطولها واتساع نشاطها الاستعماري ، وهكذا عوضت القوة المستمرة من التفوق الاقتصادي الحكم المركزي الذي كان يفترق إليه الدستور . ومن الوجهة النظرية بقيت حريات الأقاليم مصونة لم تمس ؛ ولكن من الناحية العملية كانت السياسة التي تلقى تأييداً من حكام أمستردام الأثرياء كقيلة بأن تستهوى أعضاء الاتحاد الآخرين الأقل من هولندا شأنًا .

على أن أمراء بيت أورنج قدموا لهذه السياسة التي توزعت وتوازنت بهذا الشكل وحدة في التوجيه كان لا غنى عنها . وأبدع ما في هذه الأسرة هو حكمها في مراعاة الروح الجمهورية التي كان يحرص عليها الهولنديون . فوسط خضم من الأخطار لا حصر له كسب وليم الصامت لهذا الشعب حريته ، ثم جاء مورييس وفردريك

هنرى من بعده فنافحا عنها . ولكن لا النجاح الذى حققوه ولا سجل خدماتهم الخلاب قد أغراهم بتقويض أشكال الدستور على ما فيها من عراقيل ثقيلة . قنع عميد بيت أورنج بمركز الحاكم المنتخب ؛ ولما كان يشغل مناصب الحاكم فى خمس مقاطعات والقائد العام لجيش الجمهورية وأسطولها ، فقد ركز فى يديه — باختيار الناس اختياراً حراً — السلطات الفعلية فى الدولة . وقد اجتمع لرؤساء هذه الأسرة الممتازة من المناصب التى انتخبوا لها خلال سبعين عاماً ما جعل لهم قدراً عظيماً من السلطان لا يقل عما كان يتمتع به أى عاهل فى أوربا تولى عرشه بالوراثة فى ذلك العصر الأرسقراطى . ثم أعقب وفاة وليم الثانى (١٦٥٠) عهد طويل حكم فيه حاكم لم يبلغ سن الرشد ، فعهد بتسيير دفة الجمهورية أثناءه إلى أكبر موظف مدنى فى المقاطعة الرئيسية : وهو محصل موارد هولندا العظيم The Grand Pensionary of Holland . ولكن ذكرى بيت أورنج لا تزال حية فى قلوب الشعب الهولندى ؛ فى الوقت الذى أحدثت بهم أشد الأخطار ، حين كانت جمهوريتهم الصغيرة تهددها بالدمار قوة لويس الرابع عشر العسكرية الضخمة ، استصرخوا ابن حفيد وليم الصامت لكى ينقذهم — ولم تذهب صرختهم عبثاً .

* * *

فصل ربع قرن من الحرب بين وفاة وليم أورنج وهندة الاثنى عشر عاماً التى وقعت فى عام ١٦٠٩ والتى أعلنت للعالم أجمع اعتراف إسبانيا نهائياً بعجزها عن قهر الجمهورية الهولندية . وجاء الخلاص للهولنديين من عاملين : أولهما تحول الجهد الحربى لإسبانيا ضد إليزابث وهنرى الرابع ؛ وثانيهما اكتشاف المقاطعات المتحدة لسياسى عظيم وقائد عظيم . فحين خر وليم صريعاً على يد سفاك ، كان دوق پارما فى أوج انتصاراته ؛ وسقطت مدن الفلاندر وبرابانت واحدة بعد أخرى أمام براعته المظفرة . احتل بروكسل ، واجتاح أنتورب ، وهدد بسحق آخر حصون القضية البروتستانتية : هولندا وزيلنده ، لولا أن تداركتهما النجدة سراعاً .

وكان من غير المحتمل أن يستطيع الجيش الإنجليزى الصغير ، بقيادة ليستر Leicester الذى أُلقت به الملكة إليزابيث إلى فلشنج Flushing لموازنة الموقف ، أن يصمد إلى النهاية للقوات التى كان القائد الإسبانى قادراً تماماً على جمعها

وبث الحماسة فيها . ولكن جهود پارما كانت مشتتة : فقد أمر في البداية بأن يجمع جيشاً لغزو إنجلترا ، وحين تبدد هذا الأمل نهائياً بتشتت الأرمادا ، أمر بأن يتوجه إلى فرنسا ليؤيد مصالح سيده في الحرب الأهلية الناشبة فيها . وهكذا ذهب لينقذ باريس في الوقت الذي كان عليه أن يعمل للسيطرة على أمستردام ؛ وفي الوقت الذي كان على قواته أن تحتل هولندة ، طلب إليها القيام باحتلال لا طائل من ورائه لمدينة روان Rouen . وهكذا ترتب على تحمل هذا القائد العظيم واجبات حربية متنوعة ومشتتة للجهد أن توفي في عام ١٥٩٢ ولما يحقق مهمته بعد .

وكان الدستور الهولندى قاصراً عن مواجهة ضغط الحرب وأعبائها الثقالة ، شأنه في ذلك شأن الدستور الأمريكي في الوقت الحاضر . فقد كانت كل مقاطعة تتمتع بالسيادة ، وكانت كل مقاطعة حريصة على التشبث بطرائقها المألوفة . ولكن من حسن حظ الجمهورية في مستقبلها أن تكون مقاطعة هولندة ، بفضل ثروتها وسكانها وحيويتها ومساهماتها بنصيب الأسد في تكاليف الاتحاد ، القوة الأولى المتفوقة في مجلس طبقات الأمة . وكان لسانها الناطق مدى ثلاثين عاماً هو جون فان أولدنبارنفلدت John van Oldenbarnveldt ، والرئيس المدني الحقيقي للجمهورية الناشئة مدى اثنين وثلاثين عاماً (١٥٨٦ - ١٦١٨) . وقد خدم الحظ هذا الرجل العاقل المحنك حر التفكير حين قدم له رفيقاً جديراً بالإعجاب في شخص القائد موريس ناساو بن وليم أورنج .

وكان هدف هذا الضابط الممتاز وابن عمه وليم ناساو أن يصنع جيشاً يستطيع قهر الإسبان في معركة مكشوفة ؛ وهذا ما حققاه بالفعل . واستطاع موريس في أربع معارك رائعة أن يحرر أرض المقاطعات الاتحادية وأن يبين عن نفسه كأعظم قواد عصره . فلم يكن ثمة أى فن من فنون الحرب لم يكن هو خبيراً فيه ؟ وقد اعتبرت خطط الحصار التي وضعها ونفذها غاية في البراعة من حيث الحذر والتمكن ، وكشف توزيعه للخيالة أثناء القتال عن نظرة الخبير المتمكن . وإن استيلاءه على جرتروندبرج Gertruidenburg ومطاردة فرسانه لفاراكس Varax في ترنهوت Turnhout (١٥٩٧) في ليلة من ليالي الشتاء ، وهجومه الجريء الذي أتى في وقته وحول الهزيمة إلى نصر في معركة دنكرك المريعة - كل ذلك - اعتبر نماذج

فائقة في فن الحرب . وفي تلك الأثناء أمكن التفوق على الإسبان بحراً ؛ وسجل الانتصار البحري الرائع في جبل طارق (١٦٠٧) التفوق القاطع للهولنديين وأرغم أعداءهم على التفكير في طلب الصلح .

على أن الاتفاق كانت تعرضه ثلاث عقبات كبرى : الاستقلال والدين والتجارة . فقد كان مما لا يحتمله كبرياء الإسبان أن يعترفوا بهؤلاء العصاة الهولنديين دولة مستقلة ، أو يسمحوا لهم بتحريم إقامة الطقوس الكاثوليكية علناً ، أو بالتجارة مع هذه الرقعة الواسعة من العالم الجديد التي كان البابا قد خص إسبانيا بها . بدا أن عقد الصلح في حيز الاستحالة ؛ ولكن ما لبثت أن وقعت في أنتورب هدنة مداها اثنا عشر عاماً (٩ أبريل ١٦٠٩) . ولم يذكر شيء عن الموضوع الشائك الخاص بالدين ؛ ولكن أهالي الأراضي المنخفضة انتزعوا من خصومهم — بعد إحجام وتردد — الاعتراف باستقلالهم وحقهم في التجارة في المياه الإسبانية .

ففي خلال هذه السنوات الخمس والعشرين كانت خلاصة الشعب الهولندي قد عمدت إلى ركوب البحر ، تاركة جيوشها البرية تتكون في معظمها من الألمان أو الإنجليز أو الأسكتلنديين . وصل قبطان هولندي إلى القطب الشمالي وأمضى الشتاء فوق ثلوجه ، وزار أسطول هولندي الصين وسيام ، وقامت للهولنديين محطات تجارية في جزائر البهار ، وأسست في عام ١٦٠٤ شركة هند شرقية هي أولى الشركات الكبرى الحاصلة على امتياز . وقامت الثروة الحديدية الناتجة من التجارة العالمية النامية على تغذية المجهود الحربي الذي كانت تقوم به هذه الجماعة الصغيرة في عددها ، العظيمة في حيويتها — ثم مكنت هذه الجماعة ، بعد نضال مستميت استغرق جيلاً ، من أن تعقد هدنة مظفرة مع أقوى دولة عسكرية في أوروبا .

كتب يمكن الرجوع إليها

- Motley, Rise of the Dutch Republic. 3 vols. Everyman's Library. (1906)
- H. Pirenne, Histoire de Belgique. (1907)
- W.H. Prescott, History of the Reign of Philip II. (1855)
- Martin A.S. Hume, Philip II of Spain. (1902)
- P.J. Blok, History of the People of the Netherlands. (1892-6)
- J.E. Neale, Queen Elizabeth. (1934)
- R. Altimara y Crevea, Historia d'Espana y de la civilization espanola. (1902)
- R.B. Merriman, The Rise of the Spanish Empire (1918-25)
- A.F. Pollard, History of England. (1912)
- F.W. Maitland, The Anglican Settlement and the Scottish Reformation. (Cambridge Modern History, Vol. II, chap. XVI).
- J.A. Froude, History of England. (1856-70)
- A. Lang, History of Scotland. (1900-7)
- J. Skelton, Maitland of Lethington and the Scotland of Mary Stuart. 2 vols. (1894)
- P. Hume Brown, John Knox. 2 vols. (1895)

الفصل السادس عشر

إنجلترا وإسبانيا

المنافسة التجارية بين إنجلترا وإسبانيا - مشروعات الأفراد وحرص الدولة - ملاحو إنجلترا
البيوريتان - سحر الشرق - الضربة الأولى - فرنسيس دريك Francis Drake - الثورة الكاثوليكية
في الشمال - ماري ملكة أسكتلندة - اتحاد البرتغال مع إسبانيا - الأرمادا وما ترتب عليها - زوال
مكانة إسبانيا - طرد بقايا المسلمين - بداية الاستعمار الإنجليزي .

إن المنافسة بين إنجلترا وإسبانيا ، وهي المنافسة التي تطورت إلى حرب سافرة
في عهد إليزابيث ، قد ساعدت دون شك على تقوية المشاعر البروتستانتية لدى
الشعب الإنجليزي ؛ ومع أنها تلونت منذ البداية بشيء من صبغة العداء الديني ،
إلا أنها كانت في جوهرها منافسة اقتصادية . فإن حب المغامرة والمال والتجارة قد
أغرى شعب إنجلترا - الذي اعتاد ركوب البحار - بتحدى الاحتكار الذي حرصت
إسبانيا على الاحتفاظ به في العالم الجديد وجزائر الهند الغربية . ولكن الحرب لم تقيم
بسبب الدين ؛ فهي لم تندلع بسبب تصميم الحكومة الإسبانية على فرض العقيدة
الكاثوليكية على إنجلترا ، أو لأن إليزابيث كانت تتحرق شوقاً إلى التعجيل بمخاصمة
إسبانيا الكاثوليكية . وإنما نشبت الحرب لأن بحارة من الإنجليز يعملون بدافع
من أنفسهم - وإن لم يخل الأمر غالباً من عطف الملكة وإغضاؤها الطرف -
قد صمموا على تحقيق مطلبهم في المشاركة في تجارة العالم الجديد .

وليس ثمة في السنوات الثماني عشرة التي تلت معاهدة إدنبرة (١٥٦٠ - ١٥٨٨)
ما هو أبرز من التعارض بين روح الحذر من جانب الحكومة الإنجليزية وروح
المغامرة والبحرأة من جانب ذلك الفريق المحارب من الأمة الذي اعتاد ركوب البحار .
وبينما يخلو التاريخ الرسمي للحكومة تماماً من هذا النشاط ، فإن ألوان النشاط غير
الرسمية التي لم يكلف أحد أصحابها بها ، تسجل فصلاً جديداً في تاريخ العالم .
كان غرض الملكة أن تحول دون حدوث انفجار ديني ، وأن تجنب البلاد الدخول
في حرب خارجية ، إلى أن يجيء الوقت الذي يغدو فيه الولاء لها عادة مقررّة لدى

كل رعاياها . لهذا قامت سياستها على تخفيف حدة النشاط وإطراح المسؤولية عن المغامرات التي تؤدي إلى إفساد العلاقات . وعدّ البيورثان المتقدون حماسة — مثل سير فرنسيس ولسنجهام Walsingham — هذه السياسة خيانة مذلة للقضية البروتستانتية فهم كانوا يتوقون إلى محاربة العدو ، لا في الخفاء أو بشكل محدود ، بل جهاراً نهراً في كل الجبهات : في فرنسا ، وفي الأراضي المنخفضة ، وفي أعلى البحار . ولم يكن يرونهم تجنب الملكة ركوب المخاطر ، وهي خطة قد تكون سياسية ولكنها خالية من البطولة . فإنجلترا حينئذ قد غدت أول قوة بحرية في العالم كان لديها أمهر صناع السفن وأحسن السفن ، وخبرة البحارة . كانت قد تلقت دروس المدفعية البحرية وقيمة صفّ المدافع على جانبي السفينة ؛ وكانت سفنها أصغر من سفن الإسبان حقاً ، ولكنها كانت أكثر منها قدرة على مسايرة الريح ، كما كانت أيسر قيادة . ورغم أن الأسطول الملكي كان صغيراً (إذ لم يزد قوامه في عام ١٥٥٩ على اثنتين وعشرين سفينة حمولة كل منها مائة طن فصاعداً ، ولم يعد في عام ١٦٠٣ تسعة وعشرين سفينة) ، فإن كان يوجد دائماً احتياطي كبير من أسطول القراصنة والأسطول التجاري ، يمكن الاعتماد عليه في التعاون مع أسطول الملكة في وقت الشدة . وإن نمو القوة البحرية للأمة يدين بالقليل للتشجيع الرسمي ؛ فهو نتيجة ذلك الميل الطبيعي القوى الكامن في هؤلاء القوم الطموحين المشتغلين بالبحر ، وقد وجدوا أنفسهم فجأة في موقف عجيب : إذ وجدوا في أنفسهم القدرة على التسابق للسيطرة على العالم .

ورغم أن البحارة الإنجليز في عصر إليزابيث لم يكونوا جميعاً من طراز واحد ، فقد كانوا يملكون بعض الخلال المشتركة . فهم — كبشارة — كانوا يؤمنون بتقدّر قاهر يتحكم في الأمواج والرياح ومصائر الرجال . كانوا فخورين بإنجلترا وملكهم ، يحترقون الأجانب ، ويكرهون البابا والأتراك والشيطان — ولو أن كرههم للبابا ربما كان لا يعدله كرههم لأي شيء آخر . فهو الذي خص البرتغال بالهند الشرقية وخص إسبانيا بالهند الغربية ، وليس عندهم أدنى اعتبار للقانون الدولي سواء كضرورة أو كحقيقة واقعة ؛ فهم قد اعتبروا أعلى البحار منطقة فراغ لا يمتلكها أحد ، بإمكانهم أن ينهبوا فيها ويقتلوا كما شاءت لهم أهواؤهم . ولم توح المغامرات بإمكان القيام بعمل تبشيري إلا لفئة قليلة من ذوى النفوس الأكثر تطعماً ، ولم يحس

أحد من القسس البرتغاليين الذين كانوا يعملون في سفن إليزابيث بالدور النبيل الذي قام به الكاثوليكي لاس كازاس Las Casas (١) .

ومع ذلك فقد خالط أخط الشهوات لدى القراصنة شيء من الخيال الفسح الساذج ، مما أضفى شيئاً من النبل على عمليات ركوب البحار في ذلك العصر . وكان اتساع المعلومات الجغرافية واكتشاف الصين (كاثاي Cathay) - أو الفردوس الأرضي - دوافع يشعر بها الجميع : فلم تقتصر على رجال العلوم أو الحالمين الشعريين وحدهم ؛ وكانت الجسارة وليدة النجاح . وقد كتب القبطان روبرت ثورن أوف برستول Master Robert Thorne of Bristol إلى سيده (هنري الثامن) في عام ١٥٢٧ مذكياً له المعبر الشمالي إلى جزائر البهار - بأسلوب ذلك العصر الجريء - قال : « لا توجد أرض لا تصلح للسكنى ، ولا بحر لا يصلح للملاحة » .

ذلك أن جزائر البهار القاصية في مياه الهند الشرقية كانت لا تزال في مقدمة البقاع التي تستهوى المغامرين والرواد . حاول ولوبي Willoughby وتشانسلر Chancellor في عام ١٥٥٣ أن يصلوا إليها عن طريق المعبر الشمالي الشرقي ، وفتحا باب التجارة مع روسيا وكان ديفز Davis وفروشر Frobisher وجلبرت Gilbert يأملون أن يعثروا على الطريق الشمالي الغربي ، فاكتشفوا من جديد مضيق هدرسن في عام ١٦١٠ - - ولكن كلا المعبرين كان يعترضهما بشكل فظيع عائق من الجليد والثلج في المناطق القطبية .

فإذا أريد الوصول إلى ثروة الشرق ، لم يعد ثمة من سبيل آخر سوى تصويب ضربة مباشرة إلى الاحتكار التجاري الذي فرضه الإسبان والبرتغاليون في البحار الجنوبية . أدرك نفر من البحارة الإنجليز - كجون هوكنز John Hawkins (١٥٩٥) الذي بدأ عملية نقل الزوج من غانا إلى جزائر الهند الغربية - أنهم لن يشاركوا في تجارة الشرق هذه إلا باستخدام القوة ، ولهذا سلحوا سفنهم وباتوا مستعدين للقتال ، وتطلّعوا في ثقة إلى الاصطدام بإسبانيا . ولا يمكن توجيه اللوم

(١) ١٤٧٤ - ١٥٦٦ . أسقف إسباني رحل إلى العالم الجديد بعد الكشوف الجغرافية وبذل جهوداً متواصلة لتحسين أحوال الشعوب المفتوحة التي عاملها المستعمرون الإسبان معاملة غير إنسانية . وقد سبقت الإشارة إليه في النص .

إلى هؤلاء البحارة الإنجليز إلا إذا عد الهجوم العنيف على احتكار لا يمكن الدفاع عنه أمراً لا يمكن الدفاع عنه هو نفسه . أما موضوع القضية فهو تجارة العالم .

وفي عام ١٥٦٧ تبودلت الطلقات الأولى في هذه المعركة الكبرى في الميناء المكسيكي سان جوان دي ألو San Juan de Ulloa . كان جون هوكنز وابن عمه الشاب فرنسيس دريك قد لحقاً إلى هذا الميناء احتفاءً من عاصفة ، بعد أن قاما بتجارة وقرصنة رابحتين في أعالي البحار الإسبانية ، عند ما ظهر في الأفق أسطول من ثلاث عشرة سفينة حربية إسبانية تحمل إحداها الحاكم الإسباني الجديد للمكسيك . ورغم أن هوكنز كان في وضع يمكنه من الحيلولة دون دخول الإسبان إلى المياه إلا أنه لم يكن عنده سوى خمس سفن — لهذا أثر أن يفاوض الإسبان وبينما كان الأسطولان الصغيران يقفان جنباً إلى جنب ، وبينما كان بحارتهما يتبادلون الودّ على الشاطئ ، وجه الإسبان هجوماً غادراً إلى الإنجليز الذين كانوا لا يتوقعون شراً ؛ فقتل منهم الكثيرون ، وفقدوا ثلاث سفن ، ولم يتسن لهوكنز ودريك أن ينجوا بنفسيهما من المعركة إلا بعد قتال عنيف باهر . وعندما وصلت أنباء المعركة إلى إنجلترا كان لقصة غدر الإسبان وشجاعة الإنجليز أثر عميق . وعلى حد قول كامدن Camden : « استشاط الجيش والبحارة غضباً في طول إنجلترا وعرضها ، وتحرقوا شوقاً إلى محاربة إسبانيا — ولكن الملكة لم تصخ سمعاً » .

وفي خلال الثماني والعشرين سنة التالية سيطرت على البحار شخصية فرنسيس دريك الجبارة . ويعتقد البعض أن طرائقه في القرصنة لم تكن هي المثلى ، وأنه كان يحسن صنعاً لو أقام في قرطاجنة أو في أي مكان آخر في « البحر الإسباني » Spanish Main قاعدة لقرصنته . ولكن دريك حقق ما كان يصبو إليه . وهو إجبار إسبانيا على الدخول في الحرب عن طريق أعمال السطو المستمرة التي كان يقوم بها في كل مكان . ولم ينج من يده شيء : لا المدن الواقعة على « البحر الإسباني » ، ولا الطريق الذي كانت تسلكه كنوز بيرو عبر برزخ بنما ، ولا شاطئ المحيط الهادى ، ولا جزائر البهار . وفي السنة السابقة على إقلاع الأرمادا أحرق دريك السفن الراسية

(١) ١٧١٤ - ١٧٩٤ . سياسى ومشرع إنجليزى ندد بسياسة إنجلترا إزاء مستعمراتها

في ميناء قادس . وقبل ذلك - عند عودته من رحلته التي طاف فيها حول العالم - أطلق عليه مواطنوه لقب « سيد لصوص العالم المجهول » ، ونزلت ملكته - التي قبضت نصيبها من الغنائم - خصيصاً إلى ميناء دتفورد لكي تنصب المكتشف العظيم فارساً ونقيباً لمهنة القراصنة .

وفي تلك الأثناء كانت الأحداث تتحرك سراعاً نحو النضال السافر الذي كان كل من فليب وإليزابيث شديد الرغبة في تجنبه . كانت قوة إنجلترا حينئذ من الوضوح بما يكفي لإقناع أعدائها بأنه لا يمكن قهرها إلا بالاستناد إلى حزب إنجليزي راغب في الإطاحة بالملكة وإعادة العقيدة الكاثوليكية . مثل هذا الحزب كان موجوداً ؛ فقد كان من الممكن العثور على أنصار للكنيسة مبشرين في طول البلاد وعرضها . كانوا قلة في الجنوب والشرق ، وكثرة في الشمال ، وغالبية في المناطق الكنتية من الجزائر البريطانية . وكانت قوتهم يخشى جانبها بوجه أخص في مقاطعات إنجلترا الشمالية ، تلك المقاطعات الفقيرة المتخلفة حيث كان النبلاء الإقطاعيون لا يزالون يحتفظون بقوتهم ، وحيث تألف القسس الإسكتلنديون الهاربون من غضب جون نوكس مع الرعاية الكاثوليكية التي كان يبشها الإنجليز النازلون في لوفان Louvain ، لكي يستدعوا جميعاً جذوة العقيدة القديمة . وقد لعب كبرياء الطبقة الأرستقراطية في شمال إنجلترا دوره دائماً في الشؤون السياسية سواء في الماضي أو الحاضر ، كانت البروتستانتية بالنسبة لأهالي المستنقعات الغربية - من أمثال إيرل نورثمبرلاند ولورد ديكر Dacre - بدعة كريهة فرضها على البلاد المستشارون من رجال الطبقة الوسطى الذين كان من سوء حظ البلاد أنهم استحوذوا على مسامع الملكة ؛ فرفعوا لواء الثورة في عام ١٥٦٩ معتمدين على معونة إسبانية وإسكتلندية لم تصل أبداً ، فأتلفوا الأناجيل وكتب الصلوات في كاتدرائية درهام ، ثم أمكن سحقهم بسهولة وبدون شفقة بعد أن فشلوا في تلقي أية معونة جدية . وجاء سحق هذه الحركة الفجة المفككة ففقد لإليزابيث ميزة حاسمة كان من الخير لأعدائها أن يتدبروها . ولكنهم لم يعوا هذا الدرس ، فاستمرت المؤامرات ضد الملكة حتى النهاية .

وكانت ماري ملكة إسكتلندة لهؤلاء الحانقين من الكاثوليك بمثابة قاعدة مستمرة أصول التاريخ الأوربي

وخطيرة يتجمعون حولها ولو قدر لقصة هذه الأميرة المنكودة الطالع أن تنتهى نهاية مفاجئة فى صيف عام ١٥٦٧ لربما كانت كالأتى : تربت ماري ، وهى ابنة جيس الخامس من ماري جيز ، فى بلاط كاترين مديتشي الداعر ، حيث زُوجت من فرنسوا ولى عهد فرنسا الذى تولى العرش بعد ذلك . ومات زوجها فى باريس وهو لم يزل صبيًا ، وماتت أمها ماري جيز فى ليث Leith . ولما كانت الملكة الشرعية لإسكتلندة ، فقد دعيت إلى مملكها من أفراد الطبقة الأرستقراطية الإسكتلندية الذين كانوا يهتمون قبل كل شىء بالدفاع عن استقلال بلادهم فى وجه جاريتها الجنوبية . وهناك زفت إلى إيرل دارنلى Darnley الشاب الخليع الذى كان له حق فى عرش إنجلترا عن طريق والدته . ورغم أن الزواج قد أعقب ولدًا هو الذى أصبح جيمس السادس ملك إسكتلندة ، ثم جيمس الأول ملك إنجلترا ، فإنه كان مأساة تلطخت بالدماء . وقد اتخذت الملكة سكرتيرها الإيطالى رتزيو Rizzio عشيقًا لها ، وكان على جانب من الثقافة محببًا إلى النفس ، على النقيض من دارنلى الفظ ، والنبلاء البروتستانت المتزمتين الذين كانوا يسيطرون على سياسة البلاد . وقتل دارنلى غريمه فى حضرة الملكة ؛ وبعد عام قتل دارنلى — واعتقد الكثيرون أن زوجته قد تواطأت مع قاتله بوثل Bothwell الذى أسرع بالزواج منه . وتقزز النبلاء الإسكتلنديون الذين لم يكن يعجبهم العجب من هذه الصفقة التى لطخت بلادهم بالعار ، فسجنوا ماري فى لوتشليفن Lochleven ، وعزموا على تقديمها إلى المحاكمة على ما اقترفت يداها ؛ ولكنها عمدت إلى الهرب ، وعبرت الحدود ملطخة السمعة فى عبون معاصريها من الكاثوليك والبروتستانت على السواء ، والتجأت إلى رحمة إليزابيث .

ولو أن إليزابيث أرجعت ماري لتمثل أمام متهمها فى إسكتلندة لوفرت على إنجلترا كثيرًا من المتاعب . ولكن فكرة العصيان كانت تثيرها ؛ وما كانت تكن أى عطف على العصاة ولو كان فى العصيان مصلحة لبلدها . كانت تمقت جون نوكس ، وراحت تلتقى باللائمة على النبلاء الإسكتلنديين للمهانة التى ألحقوها بمليكهم الشرعية ، ولم تستطع أن تروض نفسها على التعاون الوثيق سواء مع الهولنديين أو مع الهيجونوت . لهذا احتفظت بماري سجينه فى إنجلترا وحاولت أن تتفاوض

وإياها ، مقترحة شروطاً للسلام لم تكن غير معقولة : كأن تنازل ماري عن عرشها لجيمس السادس وتسمح له بتلقي تعليمه في إنجلترا . ولكن ماري ، التي ملأ الانتقام نفسها واستحوذت عليها الأطماع ، فضلت أن تلعب دوراً أكثر أهمية من هذا . وفي ديسمبر وجدت من يشجعها على أن تأمل في الزواج من فليب ملك إسبانيا .

لهذا أصبحت الملكة الأسيرة طيلة تسعة عشر عاماً (١٥٦٨ - ١٥٨٧) مركز الدائرة الذي التقت حوله دوامة التآمر الكاثوليكي . تتابعت المؤامرات التي كان يغذيها كل من ملك إسبانيا والبابا الذي أعلن حرمان الملكة المهرطقة إليزابيث وأحل رعاياها من واجب الولاء لها ؛ كما كان يشجعها كذلك الكاثوليك الإنجليز المنفيون في الخارج . وتألفت جمعية بروتستانتية هدفها حماية حياة الملكة العظيمة التي كانت مهددة بين وقت وآخر ، بعد أن رفضت إليزابيث بإصرار أن تحمي نفسها بتقديم ماري للمحاكمة ، الأمر الذي أزعج رعاياها البروتستانت وأثار دهشتهم . وما لبث أن قام دليل واضح على تآمر الملكة الإسكتلندية واشراكها في خطة هدفها التخلص من منافستها . وحين انكشفت مؤامرة بابنجتون Babington ^(١) تقدم أعضاء مجلس العموم واللوردات ملتزمين بالإجماع بإعدام « التنين الشرير الضخم ملكة الإسكتلنديين » وأخيراً وبعد تردد طويل مضى ، وقعت إليزابيث في أول فبراير ١٥٨٧ على صك الحكم بالإعدام . ذلك الحكم الذي لم يكد ثمة ما هو أوضح منه في تحديه لكل من البابا وإسبانيا وكل أعمالهما . كانت ماري قد تخطت ظلال شبابها العاصف القائمة ، وغدت بطلة من أبطال القصص ، وزعيمة لعقيدة ، يراها العالم الكاثوليكي قديسة وشهيدة . وقدمت إليزابيث - وقد ساورها الشك والقلق - سابقة لإعدام ملكة متوجة مسحت بالزيت المقدس .

وكانت إسبانيا في موقف يسمح لها بقبول التحدي : فقد وقعت كارثة في مراكش ، ومات سباستيان ملك البرتغال (١٥٨٠) وانقرضت أسرته ، فأدى هذا إلى ضم البرتغال إلى التاج الإسباني . وهكذا انتقلت إلى يد فليب الثاني بضربة

(١) مؤامرة دبرت في عام ١٥٨٦ لمقتل إليزابيث ، كان محورها أنتوني بابنجتون الذي سبقت له الخدمة في بلاط ماري ، وكانت ماري نفسها تغذي هذه المؤامرة .

من ضربات الحظ غير المتوقعة البقاع الآتية : شاطئ الأطلنطي الممتاز ، ومناجم البرازيل ، والأملاك البرتغالية الغنية على جانبي إفريقيا ، والمحطات التجارية والقواعد العسكرية في جزائر البهار وجزائر الآزور (وهي محطة في منتصف الطريق في عرض المحيط الأطلنطي) وجزائر الهند الشرقية . وقد قام كاتب برتغالي بعد ذلك بأربعين عاماً ، حين تبينت طبيعة النزاع بين إسبانيا وبريطانيا بشكل أوضح . فاقترح أن ينقل ملك إسبانيا عاصمته من مدريد إلى لشبونة ومن ثم يسوق أسطولاً مهمته الدفاع عن الهند وأمريكا الجنوبية في بحر المانش ؛ إذ فيه وحده يمكن حسم النزاع العالمي العظيم . ولكن أحداً لم يأخذ بهذه النصيحة قط : فلم يلق الإسبان أى ترحيب من جانب البرتغاليين . ولم يكن بأى حال مزج البلدين كل منهما بالآخر ، وانفصم هذا (الزواج) المتعب بعد ستين عاماً . ومن عجائب سخرية القدر أن حقبة الجامعة الأيبيرية قد شهدت أزهى عصور الأدب الإسباني ، كما شهدت أيضاً الاضمحلال التدريجي لقوة إسبانيا والبرتغال . ولكن حين قام الاتحاد في عام ١٥٨٠ ، بعث في نفس فليب ملك إسبانيا الأمل في تضخم قوته ، الأمر الذي نظرت إليه إنجلترا وفرنسا بعين الحذر والشك العميقين .

على أن فليب كان لا يزال مسترسلاً في تردده . ورغم أن إنجلترا كانت تعضد حركة التدمير عند البرتغاليين وثورة الهولنديين ، فإن الملك أحجم عن القيام بهجوم مباشر على جزيرة أولئك الهراطقة الخوفين ، لما يقتضيه ذلك الهجوم من تكاليف ومخاطر . وترتب على ذلك بينما فرنسا مشلولة بحرب الرجال الثلاثة المسمى كل منهم بهنرى ^(١) وبعد أن اعترفت ماري استيوارت بفليب رسمياً خلفاً لها على عرش إنجلترا أن سلم فليب زمام التقدير للبحارة ، والمنفيين والقسس ، ودعا رعاياه إلى التأهب لغزو إنجلترا — وبذلك فعل ما فعله دون كيشوت ^(٢) حين جرى وراء غاية مقدسة وإن كانت مستحيلة . أما الأرماد الإسبانية فقد نظر إليها بروح صليبية مقدسة ، وبذلت في إعدادها

(١) هنرى الثالث وهنرى نافار ضد هنرى دوق ماين Mayenne قائد «العصبة» أو حزب غلاة الكاثوليك .

(٢) هو الفارس الخرافي الذى صوره أديب إسبانيا الكبير ميغيل سرفانتيس (١٥٤٧ - ١٦١٦) . وكان خيالاً يجرى وراء الفضيلة والخير ، ويحارب الشر — أو ما يعتقد أنه شر — وإن كان شبحاً .

نفقات مزعجة وقد أقلعت من لشبونة في ٣٠ مايو ١٥٨٨ يقودها الدوق دى مدينا سدونيا Medina Sedonia ، وكان مالكا للأرض ، غيباً جباناً ، لم يؤهله شيء لقيادة الحملة سوى مركزه وحده . وكانت الخطة تقتضى أن يتقدم الأسطول في بحر المانش إلى دنكرك ونيوبورت Nieuport ، ومن هناك ينقل جيش پارما إلى إنجلترا حيث تخلع إليزابيث وتنصب مكانها بنت الملك فليب . وليس ثمة ما هو أكثر إمعاناً في الجرى وراء الخيال من هذه الخطة الواهية . والمنفيون دائماً مستشارو سوء : فلم يدرك الكاثوليك الإنجليز المقيمون في أوربا - وكان يستمع إليهم ملك إسبانيا والبابا - ما حدث من تغيير في مزاج الشعب الإنجليزي خلال العشرين سنة المنصرمة . فبقدر ما قويت الروح البيوريتانية ، ضعفت الروح الكاثوليكية ، وجاء جيل تمتع بالسلام والرخاء فوطد ولاء الأمة للتاج . حقيقة لم يخل الأمر من الاضطهاد ، ولكن ذلك لم يحدث إلا بعد أن قرر البابا في عام ١٥٧٠ خلع الملكة ، وإن يكن لا يقارن بفظائع التحريق في حكم ماري ، ولا بمذابح الكاثوليك في الأراضي المنخفضة وفرنسا وإسبانيا . ولم يكن يوجد في إنجلترا حزب واحد يرحب بنزول قوات إسبانية أو يرضى بملكة إسبانيا . وحتى على فرض نزول جيش پارما في إنجلترا مع المعدات والإمدادات الآتية بجرأ من إسبانيا ، لوجدوا أمامهم تقاومهم قوة متحدة لشعب مقدم التهبت حماسه . ولكن الخطة بأكملها انهارت على صخرة عجز الأسطول الإسباني . فإن الغلايين الإسبانية الواسعة المزدحمة بالجند التي كان يعرقل حركتها أسلوب القتال القديم بين السفن الشراعية ذات المجاذيف ، وهو الأسلوب الذي عفى عليه الزمن ، تفوقت عليها في الحركة والسرعة سفن الأعداء . وكانت أرشق منها وأسرع . لهذا هزمت الأرماد في معركة بحرية كبرى في جرافلينز Gravelines ثم حطمتها في النهاية العواصف الشديدة التي هبت على بحر الشمال . والمحيط الأطلنطي . وبينما كان أسطول هولندي يحوم حول دنكرك ، مما اضطر پارما إلى البقاء على الساحل ، راح دريك وهوكنز وفروبشر يحطمون الغلايين الإسبانية ويشتتونها .

ولم تكن الأرمادا الإسبانية الفصل الأخير في حرب طويلة استمرت بعد وفاة فليب الثاني وإليزابيث ولم تنته إلا في عام ١٦٠٤ ، بل كانت الفصل الأول منها .

وتميز استمرار القتال من جانب إسبانيا بتحسّن عظيم في أساليب القتال في البحر لولاه لتعذر على هذه البلاد أن تصون مواصلاتها الأساسية مع العالم الجديد ، وهو ما تم لها بالفعل ؛ كما تميز من جانب إنجلترا مجموعة من الأعمال الجريئة كان أبقاها نهب قادس في عام ١٥٩٧ . وقد تابع كل من الفريقين النضال على مدى واسع : فاتصل الإنجليز ببقايا المسلمين في بلنسية وأنصار دون أنطونيو المطالب بعرش البرتغال ؛ بينما تحالفت إسبانيا مع اليسوعيين الإنجليز والثوار الأيرلنديين ، كما أنزلت قواتها في أيرلندا بالتعاون مع أودونل O'Donnell وتيرون Tyrone . وكان إنشاء مزارع مونستر في عهد إليزابيث ، بثمن باهظ من دماء الأيرلنديين ، نتيجة عارضة مؤلفة لهذه المرحلة من النضال بين شيعتي البروتستانت والكاثوليك في أوروبا .

وكان المصير الذي انتهت إليه الأرمادا الإسبانية أول إعلان للعالم بأن الإمبراطورية الإسبانية ليست فوق مستوى الهزيمة . كان من المعروف جيداً أن استعدادات الغزو قد تمت على مدى أرق موارد البلاد إلى أقصى حد ؛ وحظى المشروع بتعصيد البابا وبركات رجال الدين وصلوات الشعب . ولكن قدراً ما — شق على الإسبان أن يواثموا بينه وبين كبريائهم الديني — قد جعل الأرمادا هباء منثوراً على يد بحارة الشمال الأبطال وعواصف السموات العاتية .

حقاً إن الإسبان لم يكونوا على استعداد للاعتراف بالهزيمة ، وإنهم ما فتئوا يواصلون النضال في فرنسا وإيرلندا والأراضي المنخفضة وفي أعالي البحار . ولكن شبح الخوف من طغيان الإسبان قد تبدد من سماء أوروبا . وأظهرت انتصارات هنري الرابع أن إسبانيا لن تستطيع أن تجعل لها موطئاً في فرنسا ، وبددت حركة كنجسيل Kingsale آمالها في أيرلندا ؛ وفي عام ١٦٠٩ وصل بها الأمر إلى حد الاعتراف باستقلال الهولنديين . وعقدت الدول المعادية لإسبانيا الصلح كل منها في الوقت الذي رأيته أكثر ملاءمة لها : فتخلى الفرنسيون عن الإنجليز ، كما تخلى الإنجليز عن الهولنديين . وحين عقد الصلح مع إنجلترا في عهد جيمس الأول في عام ١٦٠٤ اشتمل على تنازلات كرهها الرجال القدماء من عصر إليزابيث : فقد تم الاتفاق على أن يكون بإمكان إسبانيا منع دخول الإنجليز إلى جزائر الهند

ومحاكمتهم أمام محاكم التفتيش . ولكن الواقع أن موجة الهجوم الإسباني قد أوقفت وأكملت الأرمادا عملية تحويل إنجلترا إلى بلاد پروتستانتية ، وهى العملية التى بدأتها اضطهادات عصر مارى .

وإن سلسلة طويلة من الهزائم تنزل بشعب متدين من شأنها إما أن تزعزع عقائده أو تثبتها . وعندما كان القتال العنيف فى المانش على أشده ، صاح البحارة الإسبان قائلين : « لقد تخلى الله عنا » ؛ ثم اقتنع الشعب بعد ذلك بأن العقاب قد حل به لأنه هجر الله . عزا رجال الدين الخسائر التى حلت بإسبانيا فى البحر وعجزها فى أيرلندة وفشل خططها لتحويل إنجلترا عن عقيدتها وفى إخضاع الهولنديين — عزوا كل ذلك إلى وجود لون من ألوان الهرطقة الخبيثة ، وبلغ الأمر من السوء أنه سمح به فى إسبانيا — ومن ثم كان من رأيهم أن الخطوة الأولى لإقالة البلاد من عثرتها ليست خطة لإصلاح مالية البلاد أو أسطوطها ، بل استرضاء الإله الغاضب الغيور ؛ فالمسلمون إما أن يتقدموا إلى الاعتراف أو يتركوا للبلاد . واتبعت النصيحة . كان المسلمون موضع كراهية لأسباب عدة : فهم سمر البشرية ، وهم مهرة ومجدون ، ويراهم الإسبان ملحدين فى قرارة أنفسهم ، يعطفون على القراصنة الإفريقيين الذين كانوا يغيرون على الشاطئ الإسباني . لهذا لم ترحب الأمة الإسبانية بقرار أصدره فليب الثالث قدر ترحيبها بطرده لهذه الفئة الجديدة بالثناء التى بلغ تعدادها حوالى نصف المليون من أمهر زراع البلاد وصناعها — مما أدى إلى إضعاف قدرة إسبانيا على تحمل أعباء إمبراطوريتها المترامية الأطراف .

وحتى نهاية القرن السادس عشر لم تكن إنجلترا قد بذلت جهداً جدياً للاستعمار فى العالم الجديد . فالبحارة والسادة المغامرون الذين سخرؤا بملك إسبانيا لم يكونوا من تلك الطينة التى تنبت المستعمرين : وبدلاً من أن يواجهوا ذلك العمل المجهد المطرد لإقامة جاليات على شاطئى أمريكا الشمالية ، استسلم رحالة العصر الإليزابيثى لثيرات الكشف والنهب والحرب . ولكن فكرة الاستعمار كانت تلوح فى الأفق ، وقد اجتذبت رجالاً مثل رتشارد إيدن Richard Eden وسير همفري جيلبرت Humphrey Gilbert وسير وولتر رالى Walter Raleigh ورتشارد هاكلويت Richard Hakluyt (١٥٥٣ — ١٦١٦) المبشر والطالب لبعض الوقت فى كرايست تشرتش Christ Church فى

أكسفورد الذى كان كتابه « أهم الرحلات البحرية وأسفار الشعب الإنجليزى وتجارته واكتشافاته »^(١) بمثابة الملحمة الثرية الكبرى التى تصور عصر المغامرين هذا ؛ وأدت فكرة الاستعمار إلى تأسيس مستعمرة على شاطئ أمريكا الشمالية أطلق عليها اسم « فرجينيا » تيمناً بالملكة « العذراء » فى عام ١٥٨٤ ، ولكنها تركت بعد ذلك لتذوى بسبب افتقارها إلى المعونة الكافية ، ثم أعيد تأسيسها من جديد فى عهد خلف إليزابيث . أما كيف تعمر المستعمرات بالسكان أو كيف تحكم أو يربط ما بينها وبين الوطن الأم — فكلها مسائل لم توضع على بساط البحث فى ذلك الجو من الحرارة والانفعال الذى أثارته الحرب مع الإسبان . ولكن من الواضح أن نقل نظام الحكم فى الدولة المستعمرة إلى العالم الجديد وميزاتها وحضارتها كان غريباً على ذلك العصر ؛ بل إن جلبرت وهاكليت قد نظرا إلى المستعمرة كوسيلة فى جوهرها لتقدم التجارة وتخليص المجتمع من عناصره التى لا خير فيها . ثم إن البحارة المحاربين فى عصر إليزابيث لم تكن لديهم أية فكرة كيف يعالجون أمورهم مع الهنود الطيبين ، أهالى قارة أمريكا الشمالية . أما سير فليب سيدنى Philip Sidney — الذى كان من الممكن أن يلمع نجمه فى العالمين كمثل أعلى للحاكم فى المستعمرات ، بوضعه مستوى يتبعه الآخرون — فقد أوقفته الملكة إليزابيث عن تولى الحكم فى مستعمرة فرجينيا . ولم يبدأ الإنجليز فى تعلم دروس اللباقة والرافة ، تلك الدروس التى جعلت حكمهم للشعوب الخاضعة لهم مما يرضى عنه العالم^(٢) — لم يبدعوا ذلك إلا بخطوات بطيئة خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر .

(١) Principal Navigation, Voyages, Traffiques and Discoveries of the English Nation

(٢) الاستعمار الإنجليزى — كأتى استعمار آخر — يمتلئ تاريخه فى شتى البلدان التى حل بها بألوان من الضغط والاستغلال والقسوة . ولو كان قد ظهر بالصفة التى يخلعها عليه المؤلف لما ووجه هذا التحدى العاصف فى كل مكان .

كتب يمكن الرجوع إليها

- Histories of England : Froude, (1856-70). Pollard, (1912). Fletcher, (1905-23). Trevelyan, (1926)
- J.E. Neale, Queen Elizabeth. (1934)
- G.W. Prothero, Select Statutes and Other Constitutional Documents. (1898)
- M. Creighton, The Life of Elizabeth. (1896)
- M.A.S. Hume, The Great Lord Burghley. (1898)
- P. Hume Brown, John Knox. (1895)
- G. Lytton Strachey, Elizabeth and Essex. (1928)
- Conyers Read, Mr. Secretary Walsingham. (1925)
- A Lang, The Mystery of Mary Stuart. (1904)
- J. Skelton, The Scotland of Mary Stuart. (1894)
- R. Simpson, Edmund Campion : A Biography. (1896)
- J.S. Corbett, Drake and the Tudor Navy. 2 vols. (1898)
- J.A. Froude, English Seamen in the Sixteenth Century. (1895)
- M.A.S. Hume, The Year after the Armada. (1896)
- William Harrison, Description of England. Ed. F.J. Furnivall. (1877)
- Daniel Neal, History of the Puritans. 5 vols. (1822)
- W.B. Rye, England as seen by Foreigners in the Days of Elizabeth and James I. (1865)
- W.A. Raleigh, Shakespeare. (1907)
- G. Saintsbury, History of Elizabethan Literature. (1887)
- عن النشرات الرئيسية التي وضعها كبار من ألفوا في عصر إليزابيث ، انظر :
Cambridge Modern History, Vol. 3, Chap. 11.

الفصل السابع عشر حرب الثلاثين عاماً

المأساة الرئيسية في تاريخ ألمانيا - فرديناند الثاني - الطابع العام للحرب - دور السويد - الثورة البروتستانتية في بوهيميا - حادثة الإلقاء من النوافذ في براج - الفلسجراف وتاج بوهيميا - مدى مسئولية جيمس ملك إنجلترا - معركة التل الأبيض - حركة المقاومة الكاثوليكية في بوهيميا - عقاب الفلسجراف - تدخل الدنمرك - ولنشتين - تهديد الكاثوليك في الشمال - هشتاف أدولف يعيد التوازن - موته في لوتزن - أكسنستييرنا Oxenstierna يعقد حلف هيلبرن Heilbronn - مقتل ولنشتين في ١٦٣٤ ، و صلح براج ١٦٣٥ - انتهاء الدوافع الدينية من الحرب - انتصار ريشيليو - هزائم إسبانيا - صلح وستفاليا .

ما فتئت دنيا العبقريّة الأوربية المزهرة يتلألاً سناها بأيدي أعلامها شكسبير وسرفانتيس حتى منيت بمحنة عاجلة هوت برقعة عظيمة من أوربا الوسطى إلى منازل البريرية والبؤس . هنالك نشبت حرب الثلاثين عاماً بسبب الفتنة الدينية في بوهيميا ، وقد كان من الممكن تحديد ميادينها ولكن أتيح لها أن تنتشر مما أدى إلى تدخل معظم الدول الأوربية في الصراع بدرجات مختلفة . وعلى الرغم من أن الدنمرك والسويد وفرنسا وإنجلترا وسافوى والأراضي المنخفضة قد لعبت دوراً في المأساة، فقد اتخذت الحرب الإمبراطورية الألمانية مسرحها الأصيل على الدوام ، كما كان البوهيميون الألمان أوفر هذه الشعوب حظاً من الخسائر . ومن قبل كانت الطبيعة قد فرضت على الألمان جزاء صارماً . فقد كانوا بسبب موقعهم الجغرافي بعيدين عن المشروعات الاستعمارية التي أغنت حياة الأمم المطلة على المحيط خلال القرن السابع عشر - ثم أضيف إلى ذلك الوضع الجغرافي المعوّق ما حل بهم عندئذ من ضيق اجتماعي نتيجة لدمار حرب قد شُنت بوحشية قلّ أن عرف لها التاريخ مثيلاً . وفي الحق أن وصف حالة البؤس التي اضطّر العاجزون من فلاحى ألمانيا أن تحملها في تلك الأيام العصبية أمر لا تشوبه مبالغة . فكان النهب ، وكانت المجاعة ، بل أكلت لحوم البشر . وفنيت قرى بأكملها ، كما وقع ما ينتظر دائماً في مثل هذه المحن القاسية المفجعة ، فقد انهارت الروادع الأخلاقية تاركة المجال لموجات عارمة من الفسوق .

وفي بداية القرن السادس عشر كانت ألمانيا تقتعد مكان الصدارة في الحضارة الأوروبية ، حتى إذا انتهت حرب الثلاثين عاماً غدت البلاد وقد أفقرت من كل أدب وفن ، وتبلبل لسانها ، كما انحدرت أساليبها الاجتماعية وعاداتها إلى حضيض من البربرية المسكوفية .

وكان المحرك الأول للحرب يسوعياً تقلد تاجاً ، وهو فرديناند صاحب استيريا الذي أصبح فيما بعد الإمبراطور فرديناند الثاني الذي ينبغي أن يُعد من عظماء الرجال العاملين في ذلك القرن ، وذلك على ضوء ما أحدثه من تغييرات بوازع من نفسه . كان أول طالب يتلقى علومه في كلية يسوعية يصل إلى العرش الإمبراطوري . وكانت تعاليم اليسوعيين تتحكم في ذهنه المحدود المفعم بالمرارة ، وتسيطر عليه عاطفة واحدة وغرض واحد : المقت الشديد للبروتستانت والتصميم على اقتلاعهم من أملاكه . فأنزل بهم سلسلة من الاضطهادات في استيريا عام ١٥٩٨ ، وواصلها في بوهيميا ثم تابعها في سائر أنحاء أملاكه النمساوية . ونجح في تحقيق هدفه وهو تصفية « المارقين » . ووضع الحياة الدينية والفكرية في بلاده تحت حكم جماعة اليسوعيين الحديدية . ولكن الثمن كان باهظاً . وهو التحطيم العنيف الذي أصاب بناء المجتمع البوهيمي بأكمله ؛ وما تلا ذلك عرضاً من اندلاع حرب الثلاثين عاماً . ولن تجد في العالم رجالاً كثيرين — على شاكلة فرديناند الثاني — ذوى أمانة وتقوى وعزم قد ساقوا العالم في مثل هذا التيار الجارف من البؤس وفرضوا على عقول الناس مثل هذا العهد الطويل من الإرهاق الديني .

ومع ذلك فإن الأهداف التي تسببت في هذا النضال الطويل المهلك لم تكن تافهة . فقد كان يتوقف عليه مصير ألمانيا وانتزاعها من حركة الإصلاح الكاثوليكي فيتوقف التقدم الذي أحرزته تعاليم اليسوعيين ، وتخلص للكنيستين اللوثرية والكالفينية مساحات واسعة من الأرض في وسط أوروبا . ولكن الدين على الرغم من أنه كان أشد العوامل أثراً في النزاع وأكثرها بعثاً للمرارة في نفوس الناس ، لم يكن عندئذ ، وربما لم يكن على الإطلاق ، الدافع الوحيد في أذهان رجال السياسة .

وقد نفت حرب الثلاثين عاماً بصورة قاطعة للغاية فكرة إمكان توحيد ألمانيا

مرة ثانية في أى وقت في ظل نظام إمبراطورى قوى . كما وضحت كذلك أن أولئك الأمراء الألمان الذين كانوا يهتمون اهتماماً بالغاً بالكنيسة الرومانية كانوا أكثر اهتماماً بمراكزهم الخاصة في ولاياتهم ؛ لذلك كانوا على استعداد أن يحتفظوا بحيادهم بل يتحدوا مع الفرنسيين أكثر من العمل على استعادة الإمبراطورية الكاثوليكية إلى مركز السلطان الفعلى في ألمانيا . وهكذا ثبتت الحرب الانقسامات الدينية في ألمانيا ، في الوقت الذى أكدت الفوضى السياسية فيها ، ومع ذلك فقد كان ثمة قضية أخرى ، لعبت دوراً كبيراً في دوافع ذلك العهد وأثرت كثيراً في التسوية النهائية في صلح وستفاليا (١٦٤٨) : لمن تؤول السيطرة في بحر البلطيق ؟ لقد انقضت أيام مجد حلف الهنسا Hanseatic League إذ أن لشبونة وأنتورب وأمستردام ولندن قد فاقت كثيراً كلا من ليوبك Lübeck وروستوك Rostock ، « وسترالسند » Stralsund ، وندنزج بعد أن افتتحت الطرق البحرية الجديدة . فلم تعد جمهوريات الحلف الألمانية المنافس الخطير للسيطرة على البلطيق ، وإنما أصبحت الممالك المتنافسة هي الدنمرك والسويد وپولندا . وكانت المملكة الأولى عزيزة الجانب بسبب سيطرتها على مضيق « سوند » Sound ، واحتلالها للولايات السويدية الجنوبية الثلاث ، وكذلك كانت السويد لما كان يتمتع به ملوكها الممتازون من نشاط وفهم ؛ بينما راحت پولندا وكان يحكمها أمير كاثوليكي من أسرة فازا Vasa ، وكأنها تحلم بأن يأتى يوم تخضع فيه السويد للنير الأجنبي ممثلاً في حكم اليسوعيين والصقالبه .

وعلى ذلك فمن المظاهر المميزة لحرب الثلاثين عاماً أنه بينما كانت السويد تحارب في سبيل قضية البروتستانت ، وتساهم مساهمة حاسمة في انتصارها النهائي ، كانت كذلك تهتم اهتماماً جديداً بالحصول على السيطرة السياسية والتجارية على الساحل الجنوبي للبلطيق ، وعلى حرية استخدام السوند Sound في تجارتها ، مما جعلها تستخدم الصراع الدينى في ألمانيا لتحقيق أهدافها ؛ وتصبح في نهاية الحرب سيدة على البلطيق ، كما نالت بفضل انتصاراتها في ألمانيا مقعداً في مجلس الدايت ، وأصبحت ذات أهمية عظمى في السيطرة على شئونه . ولم يكن دور روسيا قد حان بعد . فقد انتزعت منها السويد ولايات البلطيق . أما أسرة الموهنزلرن أصحاب براندنبرج الذين سينالون الغنيمة في النهاية فقد كانت پوميرانيا تفصلهم عن البحر ، كما كانوا

يحكمون بروسيا الشرقية بوصفها إقطاعاً بولندياً . أما السويد فكان ذلك اليوم يومها . وللمرة الأولى منذ هجرات القوط خطت السويد ، البلد الفقير القاحل الذى يبلغ تعداد سكانه مليوناً ونصف مليون نحو مسرح السياسة العالمية وأثرت فى تشكيل التاريخ ، حين أتيح لها ملك عظيم ينتمى إلى أسرة لا مثيل لها فى المواهب وعلو الهمة ، تتمتع بعواطف الولاء العميقة الجذور فى نفوس الفلاحين ، فتقدم نصيراً لقضية البروتستنتية ، وجعل من السويد دولة من الدرجة الأولى ، وبفضل سلسلة من الانتصارات الباهرة — قد ساهمت فرنسا فى تمويلها بنصيب وافر — حول بحر البلطيق إلى بحيرة سويدية .

* * *

وفى تاريخ الشعوب لحظات تتصافر فيها مجموعة متباينة من الأسباب فتستثير أفكار الناس . وقد كانت مناسبة انقضاء مائة عام على بدء حركة الإصلاح الدينى (١٦١٧) لحظة من هذه اللحظات . ومنذ مضى وقت طويل وصراع العقائد فى أوروبا الوسطى يهدد بحدوث انفجار عام . وقد وقعت أحداث خطيرة بل حدثت انفجارات صغيرة أشعلت الحرب فعلاً ولكن أمكن لحسن الحظ حصرها فى مكمنها كما حدث فى كولونيا عام ١٥٨٠ ، كما بلغت حالة القلق درجة من الخطورة بررت تكوين اتحاد پروتستانى دفاعى مسلح (١٦٠٨) قابله حلف كاثوليكي متحالف مع إسبانيا . ولم يمنع نشوب حرب عامة فى عام ١٦١٠ حول وراثة دوقى كليف جوليش Cleves-Gulich سوى مقتل هنرى الرابع ملك فرنسا ، حتى إذا كان عام ١٦١٨ حين مضى قرن على قيام حركة الإصلاح الدينى ، وكانت حرب الدعاية قد بلغت ذروتها وغدا الجو مشحوناً بمهاترات رجال الدين المتنازعين ، وصلت الأنباء بأن فرديناند مضطهد البروتستانت فى استيريا قد أصبح ملكاً على المجر وبوهيميا وراح يرسم الطريق ليخلف ابن عمه الأكبر ماثياس Mathias على عرش الإمبراطورية .

وعلى الرغم من أن پروتستانت بوهيميا كانوا من الكثرة والنفوذ بحيث استخلصوا من الإمبراطور رودلف عهد التسامح (الرسالة الملكية فى يولية ١٦٠٩) ، فقد كانوا لا يسيطرون على تقاليد الحكم . فقد رُهم أن يشاهدوا « عهدهم » العزيز

عليهم وقد قامت على تنفيذه — بما يتعارض مع مصالحهم — هيئة من الأوصياء أو وزراء الملك عينهم الإمبراطور « متياس » ليدبروا حكومة البلاد . وكان عهد التسامح قد منح النبلاء والمدن الملكية في بوهيميا وسيليزيا ولوساتيا Lusatia حق بناء دور للعبادة ، وممارسة العقيدة اللوثرية على طريقة أهالي بوهيميا . ولكن ذلك الحق — على ما قيل — أنكر عليهم في موضوعين ، في برونو Braunau وفي كلستر جراب Klostergrab بتأثير تعصب رجال الدين الكاثوليك وتأييدهم السلطة الإمبراطورية . فهُدمت الكنيسة البروتستانتية في كلوستر جراب ، وفي برونو سُجن البروتستانت الذين ثاروا على الاضطهاد الكاثوليكي . وإذا كانت هذه الأشياء قد وقعت في عهد ماتياس ، فماذا يبقى للبروتستانت من أمل في أيام أصنى في عهد فرديناند ؟ لقد اشتدت عزائم جميع اليسوعيين في البلاد عندما أُعلن أن مضطهد البروتستانت في استيريا قد غدا ملكاً وأنه سيصبح عما قريب إمبراطوراً . وتحت زعامة أحد النبلاء الكلفنيين ويدعى « هنرى متياس أف ثورن Henry Matthias of Thorn » قرر البروتستانت في بوهيميا القيام بالثورة .

وقد أجاب نبلاء بوهيميا على المرسوم الملكي الذى يحرم البروتستانت من عقد المجالس بعمل ذاعت شهرته : وهو حادث الإلقاء من النوافذ في برج « Defenestration of Prague » الذى أشعل لهيب الحرب الطويلة . وكان في الحكومة وزيان كاثوليكيان يُدعىان مارتينيز Martinitz وسلواتا Slawata وقد حملا خزي السياسة الملكية ، وكانا بصفة خاصة على صلة وثيقة بالحكومة الأخيرة البغيضة . وفي خلال مقابلة عاصفة جرت في هاروشين Hardshin في القصر الحصن الكبير القائم الذى يشرف على المدينة ألقى الشعب من إحدى نوافذ القصر بهذين الوزيرين ومعهما سكرتير خاص إلى خندق الحصن ؛ ولقد كان عملا جاء نتيجة لحدّة متعمدة قصد به توجيه إنذار إلى كل من يهمه الأمر : بأن صبر البروتستانت في بوهيميا قد نفذ، وأن الكلفنيين قد أصبحوا أخيراً على استعداد لتصويب ضرباتهم .

ولاحت عندئذ فرصة عظيمة لمنتخب سكسونيا اللوثرى وللاتحاد البروتستانتي : فلو أنهم أعلنوا بجلاء باسم هذه الكتلة من الأمراء الألمان التى اكتسبت نفوذاً أنه يجب احترام عهد التسامح ، وأقنعوا هيئة المنتخبين بأن تُصرّ على ذلك كشرط

سابق لانتخاب فرديناند إمبراطوراً إذ أن أصبح في الإمكان تهدئة الحال في بوهيميا ، ومنع وقوع الحرب . ولكن الاتحاد البروتستانتي كان يعوزه الإقدام وبعد النظر . فلم يقاوم الثورة ، كما أنه لم يمنحها المساعدة الفعالة ، واعتلى فرديناند عرش الإمبراطورية غير مقيد بأي شرط (في عام ١٦١٩) .

لم يكن للبروتستانتية في بوهيميا قط كيان قوى متحد . فكان لزاماً عليها أن تبحث في الحلفاء وإلا ففئت . فوجهت أنظارها شرقاً ناحية الأتراك وبرتستانات المجر ، واتمست المساعدة المربية لدى أمير كلثفي بربري غريب الأطوار من ترنسلفانيا يدعى بثلين جابور Bethlen Gabor ؛ كما اتجهت جنوباً نحو البروتستانات في النمسا ، أما غرباً فاتجهوا ، نظراً لجمود سكسونيا وضعفها ، نحو ذلك الحصن المنيع للكثفنية : وهو إقليم البلاطين . وبعد أن أعلن البوهيميون خلع فرديناند قدموا التاج لفرديريك الخامس ليكون ملكاً عليهم وهو منتخب البلاطين ، أو إليسجراف كما كان يعرف في إنجلترا .

وقد قدر لهذا إليسجراف أن يصبح في نظر الپورتیان الإنجليز المسيطرين في ذلك الوقت بكل قضية البروتستانات في القارة الأوربية — كانت أمه بنت وليم الصامت ، وزوجته إليزابيث الجميلة ابنة جيمس الأول ملك إنجلترا في ذلك الوقت . وقد كان جميع البروتستانات الإنجليز من أصحاب النخوة على استعداد لامتناع الحسام في سبيل الأميرة الإنجليزية وقد بدا زوجها الألماني الشاب الزعيم المختار لقيادة الثورة ضد النمسا وإسبانيا — وقد راجت في لندن فكرة وجوب إرسال بعض الإنجليز للمساعدة في الدفاع عن البلاطين في الوقت الذي يتجه فيه إليسجراف لنجدة بوهيميا .

وكان جيمس الأول لا يوافق على هذه الحماسة الطبيعية العنيدة المشهورة ، وإن كانت خالية من الحكمة والتعقل ؛ وقد بدا هذا الملك من بعض الوجوه أكثر استنارة من شعبه . كان يؤمن باتحاد قام بين إنجلترا وإسكتلندة ويرى أنه قد آن الأوان لأوروبا بعد هذا النضال الديني الطويل الدامي أن تصطنع شيئاً من السلام والتسامح ، ولذلك عقد صلحاً مع إسبانيا عام ١٦٠٤ لم يرض عنه الناس ، كما أخذ يتفاوض لعقد زواج — كان أشد إثارة للسخط — بين ابنه وأميرة إسبانية ، وقد كان

متأثراً بسفير مضلل محنك ، وإذا به يفاجأ بالعرض البوهيمي وهو يعلم علم اليقين بشعور رعاياه .

وإن سياسياً أريياً بعيد النظر كان جديراً به أن يستخدم كل جهوده لتحويل الجغرافيا عن الشروع في محاولة يائسة من شأنها أن تقحم في الحرب أوروبا من الكريبات إلى الراين . ولكن جيمس امتنع عن استخدام نفوذه على زوج ابنته ، ذلك النفوذ الذي كان ولا شك يملكه عليه . وعلى ذلك فهو يتحمل نصيباً ثقيلاً من المسؤولية عن الشرور التي نجمت عن ذلك .

أما النتائج فكانت كما يلي ، فإن الجغرافيا الذي لم يكن بطلا وإنما كان شاباً خجولاً لا تجارب له خضع لإلحاح الكلفنيين المتسرعين -- ودون أن يحسب للعواقب حساباً قبل أن يتوج ملكاً على بوهيميا . ولكن معركة واحدة حاسمة على التل الأبيض White Hill . على بعد بضعة أميال خارج براج (نوفمبر ١٦٢٠) كانت كافية لتقرير مصيره . ولو كان له حظ من شجاعة لربما حاول أن يجمع شتات الهاربين، ولكن الكلفني الشاب اكتفى بالفرار مع زوجته الجميلة تاركاً بروتستانت بوهيميا تحت رحمة فرديناند . ولم ير هذا العاهل الذي كان يؤيده وقتئذ عصبة الكاثوليك ولوثريو سكسونيا ما يدعوه إلى أن يترقب بثوار تأمرؤ مع الأتراك ، وهددوا فينينا ووضعوا على عرشه هرطقياً أتوا به من أقصى ألمانيا . فصمم على استئصال الديانة البروتستانتية من بوهيميا، وقد صادف هذا التصميم نجاحاً لم يشاهد له نظير في تاريخ الاضطهاد إلا في أحوال نادرة. ولم تلبث البلاد أن خضعت للحكم النمساوي عن طريق المصادرات الواسعة النطاق والقمع الذي لا يرحم . وفرض الألمان سلطتهم على التشيكيين بطريقة غير محتملة ، كذلك الذي فرضه الإنجليز المستوطنون في إيرلندا ، وقد بقي قائماً لا يكاد يتزحزح حتى القرن التاسع عشر . فحكم الموظفون الألمان في « هاردشين » ، وسيطر رجال الدين اليسوعيون على التربية من Clementinum^(١) . وفي أعقاب النبلاء الألمان والمغامرين والموظفين والقسس اليسوعيين والرهبان والكابوسيين أتى الفقهاء الألمان يبشرون بالمبادئ الأنوقراطية للقانون الروماني . وتحت وطأة تلك المبادئ الصارمة بات الفلاحون البوهيميون تحت مواطئ

(١) Clementinum دير أنشأه الرهبان الدومينيكان وأعطاه فرديناند الأول اليسوعيين في ١٥٥٦ .

الأقدام وأصبحوا أقتاناً . وهكذا كانت النتيجة الأولى لمغامرة الپلسجراف لإحداث حالة من الاسترقاق في أوروبا .

أما النتيجة الثانية فكانت أن أصدر الإمبراطور أمراً باعتبار الپلسجراف خارجاً على القانون وطرده من حظيرة الإمبراطورية ؛ وبمقتضى السلطة التي يملكها نقل الپلاتين مقاطعته ومنتخبه إلى مكسميليان Maximilian صاحب بشاريا ورئيس الحلف الكاثوليكي وقائد الجيش الذي انتصر في موقعة التل الأبيض . وكان حتماً أن يتبع هذا الأمر انتقال ميدان الصراع من بوهيميا إلى الراين ، ويستأنف بذلك الصراع كما كان على أشده . وكان إقليم الپلاتين معقل الكلفنية الرئيسي في غرب ألمانيا — فمن إقليم الپلاتين خرجت الجيوش مؤيدة ثورة الهيجونوت في فرنسا ، وجهود الهولنديين لخلع النير الإسباني عنهم . وعلى الرغم من أن الپلسجراف لم يكن أهلاً لتقدير إخوانه في العقيدة ، فإنهم لم يكونوا على استعداد لرؤيته وقد طرد من ولايته ليتولاها أمير كاثوليكي ، أو أن ينقل منصبه الانتخابي بصفة دائمة إلى الفرع الأصغر من أسرة « وتلسباخ » Wittelsbach . ولما كان دايت راتشبون Ratisbon يشاركهم شعورهم إزاء اللقب الانتخابي فقد استخلص من الإمبراطور ، عن طريق التراضي والتوفيق ، أمراً بأن لا يتمتع مكسميليان باللقب الانتخابي إلا لمدة الحياة فقط ، ولكن الممتلكات كان لها شأن آخر . فإن هذه الأملاك قد عزيت وأعيدت قسراً إلى حظيرة الكاثوليكية : إقليم الپلاتين الأعلى شمال (راتشبون) على يد مكسميليان ، وإقليم الپلاتين الأدنى على يد « تلي » Tilly القائد الكفء لجيش الحلف وأصله من الوالون — وقد قبل الدايت بقاء هذه الأقاليم خاضعة للحكم الكاثوليكي . وهكذا بلغ مدى انتصار الكاثوليك فانتزعت بنجاح من يد البروتستانت بوهيميا أولاً ثم إمارة الپلاتين الانتخابية .

وكان حتماً على الكلفنيين إذا أرادوا أن يستردوا هذه الأقاليم الحيوية أن يبحثوا عن حلفاء بسبب نتيجة ثالثة لمغامرة الپلسجراف وهي انحياز سكسونيا واللوثريين إلى جانب الإمبراطور ، كما أدت فعلاً إلى حل الاتحاد البروتستانتي . وإذا كان اللوثريون السكسونيون قد انضموا إلى كاثوليك بوهيميا للقتال في حرب فرديناند في سبيل القضية الكاثوليكية في بوهيميا فإن ذلك لإيضاحاً جلياً لذلك النفور المستحكم

بين معتنقى اللوثرية والكلفنية ذلك النفور الذى ساد منذ البداية وكان أكثر من مرة شؤماً على التوجيه المحكم لقضية البروتستانت . ولكنه يدل كذلك على حقيقة سياسية أخرى هامة وهى إغراق منتخب سكسونيا فى رجعيته ونفوره من تشجيع البدع الصارخة ، ورغبته فى العمل مع الإمبراطور طالما كان ذلك ممكناً .

وعندما اشتدت المحنة بالبروتستانت المقاتلين فى ألمانيا طلبوا المعونة من كريستيان Christian ملك الدنمرك فقدمها لهم ولم يدفع هذا الملك اللوثرى ليتدخل فى الصراع الألمانى اهتمام بالغ بالعقيدة البروتستانتية بقدر ما دفعته شهوة جارفة للحصول على مغام من الأراضى الكاثوليكية . وكان بين هذه الأغراض الحصول لأبنائه على حصص محترمة من إيرادات بعض الأسقفيات فى شمال ألمانيا . ولما لم تكن الرغبة فى أملاك الكنيسة أمراً مقصوراً على الدنمرك وإنما شارك فيها على نطاق واسع الأمراء البروتستانت فى سكسونيا الدنيا ، فإنه لم يكن من المتعذر مع شئ من التشجيع من الملكية الإنجليزية أن يقوم بين الطامعين لون من التحالف وأن يجمع جيش وتوضع خطة للمعركة .

وبينما كان يدبر كل هذا فى الشمال ، طرأ تغيير هام على التوجيه الحربى للقوات الكاثوليكية . فإن الانتصارات المبكرة لحركة الإصلاح الكاثولىكى فى بوهيميا والبلاتين لم تحرزها القوات الإمبراطورية تحت قيادة فرديناند ، وإنما أحرزتها الفرق الألمانية تحت قيادة مكسميليان صاحب بشاريا . على أن اعتماد الإمبراطور بهذه الصورة على جار يحميه — وقد يغدو منافساً له — وكان أمراً لن يطيقه الإمبراطور . فتطلعت السياسة الإمبراطورية إلى جيش إمبراطورى يخضع لقيادة إمبراطورية . ومن هذه الضرورة ظهرت شخصية غامضة وقوية هى شخصية « ألبرت وينسلاس فون ولدشتين Albert Wencelas Von Waldstein أمير فريدلاند Friedland الذى يعرف غالباً باسم ولنشتين Wallenstein وكان الرجل من نبل بوهيميا نشأ وترعرع بوتراكيا Utraquist^(١) . وقد برزت مواهبه فى الحروب ضد الأتراك . أما فى الناحية الدينية فقد كان حظه منها باستثناء علم الفلك ضئيلاً أو لا يساوى شيئاً . أما شهواته العنيفة

(١) أطلقت هذه التسمية على أتباع هس فى بوهيميا ، الذين سمح لهم باستخدام الكأس فى

تأدية الطقوس الدينية Communion Service .

فقد كان له منها حظ يكفى لتشييد إمبراطورية أو إتلافها . كان يملك ثروة هائلة لأنه قد ربح من الحروب ، ومن المضاربة فى الأراضى ، ومن كل شىء لمسه ؛ وبقدر ما كان طموحه كان مصيره فى الحياة . وما زال قصره الفسيح فى براج ، بتمائله وأروقته الإيطالية ، وأبهائه الطويلة ذات النهايات البهية ، ولوحاته ذات القماش المزركش بالرسوم وصوره وتحفه يشهد بذكرى ولنشتين وعظمته وانتصاراته . تقدم هذا الرجل عندئذ إلى الإمبراطور يعرض عليه أن يقدم لفرديناند جيشاً على نفقته الخاصة غير مشروط شيئاً إلا أن يحتفظ جيشه بالغنائم بينما يكون من نصيب الإمبراطور ما يغم من المدفعية والذخائر .

والحرب التى شنها البروتستانت فى سنة ١٦٢٦ من محاولتين منفصلتين انتهت كل منهما بكارثة : إحداهما القيام بهجوم ضد الجيوش الإمبراطورية فى الشرق بالاشتراك مع أمير ترنسلقانيا ، والأخرى زحف جيش آخر من الدنمرك لمقاتلة جيش الحلف الكاثوليكي . ولم يتمخض عن المحاولة الشرقية غير موت مانسفيلد Mansfield فى قرية بعيدة من قرى البوسنة ، وكان من أمهر قواد البروتستانت . أما فى الدنمرك فقد كانت ضربة محطمة محكمة فى لوتر Lutter بشورنجنيا Thuringia (٢٧ أغسطس) كافية لتوطيد انتصار « تلى » وولنشتين ، ولفتح الطريق إلى شلزويج هلشتين Schleswig Holstein أما زحف القوات الكاثوليكية ، وإبعاد الدنمركيين ، فلم يعودوا يشكلون عاملاً خطيراً فى القتال .

وللمرة الثانية هوت قضية البروتستانت إلى درك سحيق ولكن للمرة الثانية كان انتصار الإمبراطور الكامل بعينه سبباً فى تحريك عوامل مضادة كان من شأنها أن تحد من هذه الانتصارات . فى غمرة الابتهاج بالفوز لاحت للمنتخبين الكاثوليك فكرة كانت طبيعية وإن تكن غير حكيمة ترتبت عليها نتائج بالغة الضرر بمصالح الإمبراطورية . منذ ١٥٥٢ انتقلت حصّة كبيرة من الثروة الكنسية من الكاثوليك إلى البروتستانت متضمنة فى شمال ألمانيا أسقفيتين عظيمتين واثنتى عشرة أسقفية . ومن هذا القدر الضخم من الموارد ، كان جانب يصرف بطريقة مشرفة للقيام بحاجات الكنيسة اللوثرية ، وجانب آخر يصرف بطريقة أقل كرامة لمساعدة الأمراء الزمانيين لتوفير ما يحتاجون إليه من الضروريات والكماليات . ثم تقرر الآن بمرسوم

٦ مارس ١٦٢٩ أن تعود كل هذه المغنم إلى أصحابها من الكاثوليك - ونستطيع أن نتصور مدى ما أحدثته هذا الأمر من اضطرابات بين البروتستانت الذين وضعوا أيديهم على هذه الأملاك ثم اضطروا تحت ضغط قوى والنشئين الغاشمة إلى التخلي عنها بعد أن مضت عليهم سنون طويلة وقد اعتادوا أن يعدوها أملاكاً خاصة ، بل إن الكاثوليك بدعوا يتدمرون عندما تبين لهم أن الآباء اليسوعيين قد أخذوا يتسربون إلى بيع لم يطأها قدم يسوعى من قبل ، وأن مشروعاً يدبر بإشارة من ولنشتين يقضى بإنشاء إمارة من أربع أسقفيات غنية في شمال ألمانيا لتكون ملكاً وراثياً لأحد الأمراء . وأخذ الألمان الكاثوليك منهم والبروتستانت يتساءلون عما يترصد بهم من سوء بسبب مكانة ولنشتين وأعماله ؛ فإن جيشه العظيم المجدد من كل إقليم وكل عقيدة قد قام بنهب الكاثوليك والبروتستانت على حد سواء . أكان هذا الجيش يمهّد لصاحبه أن يصبح طاغية على ألمانيا ؟ أم كان هذا القائد يسعى لينشئ مملكة لنفسه ؟ ثم أكان هذا الحماس الملهب للكتلة قناعاً يخفى وراءه مؤامرة تستهدف هدم حرية الألمان لصالح النمسا وحسب ؟ جالت هذه الشكوك في أذهان الكثيرين من البروتستانت والكاثوليك في ألمانيا ، وكان مكسمليان صاحب بشاربا بابوياً مخلصاً ، ولكنه لم يقاتل في معركة فرديناند بالتل الأبيض كى يمهّد السبيل لقائد بوهيمى ليجعل الأمراء الألمان عند موطن قدميه . وفي دايت راتشون (يولية ١٦٣٠) ، أصر مكسمليان على عزل ولنشتين ، ولشد ما كانت دهشة ألمانيا عندما أجيب إلى طلبه .

وأفادت فرنسا تحت زعامة الكاردينال ريشليو فائدة سريعة وباهرة من هذه الثورة التي ذر قرنهما ضد سيطرة النمسا . فأزالت شكوك بشاربا بمقتضى معاهدة سرية ، ورتبت تمويل القوات السويدية التي أعدت لاحتياج ألمانيا (معاهدة باروالد Barwalde في ٢٣ يناير ١٦٣١) حتى تُقيل عشرة قضية البروتستانت .

وإن جستاف أدولف ملك السويد ينبغي في مجال التفاضل البشرى أن يحتل أرفع مكانة ؛ كان لغوياً بارعاً ، إذ كان يتكلم ثمانى لغات ، جندياً عظيماً ومدرّباً ماهراً للجند ، سياسياً يتميز بمطامعه الواسعة ولكن غير المتعدرة ؛ كان مخلصاً ، عاطفياً ، مؤمناً بالعقيدة التي ورثها عن آبائه . وإن جستاف أدولف ليفوق معاصريه من الساسة في نشاطه وبساطته واستقامته خلقه . وبالجملة سيطرت عليه طوال حياته

المصالح العظمى لبلاده وعقيدته . كان يأمل أن يؤمن للسويد نصيباً آمناً متفقاً من تجارة البلطيق لا ينافسه فيه أحد ؛ وفي سبيل تحقيق هذه الغاية ، وكذلك لتكوين درع واق من بولندا والروسيا تطلع إلى الاستيلاء على شريط طويل من الساحل الجنوبي للبلطيق ؛ أما في سبيل القضية البروتستانتية في ألمانيا فكان يعمل على تحقيق النصر لها على الكاثوليكية والحصول لها على أراض أكثر تساعداً لتكون آمنة من الاعتداء .

وقد أمضى فترة شبابه في الحرب . فحارب الدنمرك وروسيا ، ثم حارب سيجسمندفازا Sigsmund Vasa ، ملك بولندا الكاثوليكي وهو ينتمي إلى أسرته نفسها وكان يحلم بالحكم في السويد وينشر العقيدة الكاثوليكية فيها . وفي خلال هذه الحروب العصبية تحت أجواء بولندا القاسية ، شكل جستاف الأداة الحربية التي أكسبته الشهرة في تاريخ فن الحرب .

وإن الجيش السويدي الذي كان يحوى خلاصة من الإسكتلنديين الأشداء دائماً ، اشتهر أساساً بخمسة خصائص . كان أفرادهم يلبسون زيّاً مخصوصاً . وكانت فرقته صغيرة ومجهزة بحيث تكون سريعة الحركة . وكانت مدفعية الميدان خفيفة متحركة سهلة الاستخدام تعمل ببراعة عظيمة ، وتعزز المشاة . أما البنادق فكانت من نوع أفضل من ذلك الذي كان يستخدم عندئذ بصفة عامة . وفرقة الفرسان بدلاً من أن تركز نحو العدو وتفرغ فيه رصاصها على الطريقة الهولندية ، ثم تستدير راکضة لتعمر بنادقها ، فإنها تعمر السلاح في موضعها بصلب مكشوف . وبالإضافة إلى ذلك المزاي كان لها من معدن قائدها ما لا يقدر بثمن . كان جستاف يسيطر على كل صغيرة ، ويساهم في كل عناء ، ويتعرض لكل المخاطر ، وينهز كل فرصة ليبث في أتباعه خفاف الحركة أقوياء العزيمة روح الاحتمال والطاعة والموت إذا دعت الحاجة إلى ذلك .

وقبل أن يبرم جستاف معاهدته الشهيرة مع فرنسا كان قد وصل إلى جنوب بحر البلطيق ووطد أقدامه في كل من بروسيا الشرقية وبولندا الغربية . وإذا كانت قد خالجه يوماً ما بعض الشكوك عن جدوى حرب يشنها في ألمانيا للانتفاص من نفوذ الإمبراطور فقد بددتها بعض العلامات الواضحة التي أظهرت عداة فرديناند .

فإن الإمبراطور الذى كان يتمسك بأن عرش السويد من حق ذلك الشخص الكاثوليكي من أسرة فاذا الذى كان يحكم في بولندا ، لهذا رفض أن يعترف بجستاف ملكاً على السويد . وإن الأمر لا يحتاج إلى بصيرة ثاقبة لاكتشاف ما وراء هذا الرفض من خطة لتدبير إعادة الكاثوليكية إلى السويد عن طريق سيجسمند ملك بولندا .

وهكذا في الوقت الذى بسط لنشتين سلطانه شمال ألمانيا ، بل ذهب أبعد من ذلك فتقدم لمحاورة سترالسند Stralsund ، قرر جستاف أن الوقت قد حان ليضرب بشدة في سبيل السويد والعقيدة البروتستانتية ؛ وقد كان فرديناند عدواً له لاعتبارات ثلاثة منفصلة : بصفته صديقاً لبولندا وحامياً للكنيسة الرومانية ومنافساً مباشراً لملك السويد على السلطان في بحر البلطيق ثم قد بدا أن ألمانيا بأسرها قد جثت عند قدمي الإمبراطور . ولكن على الرغم من الآراء الكريمة التي عرف بها جستاف وأفقّه الواسع فيما يتعلق بتكوين اتحاد بروتستانتي في ألمانيا ، فإن ذلك الملك الذى لا يقهر وحصن العقيدة البروتستانتية وأسد الشمال ، ومصدر الرعب للنمسا لم يصل إلى أبعد مما وصل إليه الدنمركيون في سبيل حل تلك المشكلة المتنازع عليها وهي منح ألمانيا السلام الديني .

غدا أسلوب جستاف في الحرب نموذجاً يتدارسه طلاب الفنون العسكرية في كل أنحاء أوروبا وكذلك في إنجلترا حيث قدر للحروب الأهلية أن تبين ذلك . شن جستاف حرباً سريعة ناجحة في شمال ألمانيا ، وحقق انتصاراً باهراً على الأعداء الغفيرة التي كان يقودها تल्ली في برتنفيلد Breitenfeld (١٧ سبتمبر ١٦٣١) ، وتقدمت القوات البروتستانتية نحو براج شرقاً ونحو مينز Mainz وورمز Worms غرباً ، ثم جاءت هزيمة تल्ली الأخيرة في ليك Lech ، ودخل جستاف ميونخ وقد ألفت كلها عملاً جليلاً يبهّر الأبصار ، وقد ظل مدة طويلة يجتذب إعجاب أوروبا . وفي أقل من عامين انقلبت حظوظ العقائد المتنازعة انقلاباً شديداً .

ولكن المظهر في الانتصارات السويدية كان يفوق الجوهر ، إذ لم يكن من المتوقع أن يرضى الألمان عن جيش أجنبي لا يتقاضى أجراً طيباً ولا يعيش إلا على خيرات البلاد . فتوانى بروتستانت ألمانيا في مساعدة السويديين وقد اتهمهم بحق بأن الحصول على أرض ألمانية كان أحد أغراضهم الرئيسية . وعلى الرغم من آمال ريشيليو

فإن الكاثوليك وقد أثارتهم عمليات السلب المنظم التي قام بها الجند السويديون، لم يعتبروهم أصدقاء لهم وإنما اعتبروهم أعداء ؛ على ذلك هاجمت كل من السويد وبشاريا الأخرى بدلا من الهجوم المشترك على فرديناند . وقد خرج جستاف من هذا الصراع منتصراً . ولكن كان في انتظاره جيش إمبراطوري أعاد تكوينه ولنشتين وأصبح قائداً له . وكان في انتظاره ليحاسبه حساباً عسيراً . وكان هذا الجيش من القوة بحيث استطاع أن يطرد السكسونيين من بوهيميا ، وبحيث أصبح بعد أن انضمت إليه قوات مكسميليان ستين ألفاً . وفي نورمبرج Nuremberg عندما تحرش جستاف بالقائد البوهيمي الكبير نزلت بجيوشه أول هزيمة . وعلى الرغم من أنها قد استردت كرامتها بسهولة في الميدان المنخضب بالدماء في لوتز Lutzen (١٦ نوفمبر ١٦٣٢) فلم تجد شجاعة السويديين كثيراً لأن الملك — دون علمهم — كان قد سقط صريعاً في المعركة . وذكر أنه عندما سأله أحد المتورعين عن اسمه عندما كان ملقاً على الأرض مثخناً بجراحه المميتة قال : « أنا ملك السويد الذي يوقع على عقيدة الشعب الألماني وحرية بدمه » .

واستمرت الحرب وقد فقدت ب وفاة جستاف البقية الباقية من مثلها العليا البروتستانتية — ولم تكن السويد على استعداد للانصراف عن نضال قد أعطاها حصن بوميرانيا المكين ، وغنائم كثير من المدن الغنية ، وصوتاً مسموعاً في مجالس أوربا . وإذا كان جستاف قد اختفى من الميدان فقد كان لا يزال هناك الوصي السويدي على العرش في فترة قصور من ابنة الملك الراحل الطفلة . وكان هذا الوصي سياسياً حكيماً قد شارك الملك الراحل في موضوعات اهتمامه وأحلامه ، وحمل لمدة طويلة أعباء الحكومة الداخلية ، كما جمع كل مقاليد السياسة الخارجية في يديه — وقد صمم ذلك الوصي « أكسنستيerna » Oxenstierna على أن يحتفظ للسويد بالزعامة على ألمانيا البروتستانتية . وكان رهن إشارته ضباط جستاف الذين كانوا يعتبرون المعارك مذاق الحياة . وبفضل مساعدتهم مضافاً إليها جهود الفرانكونيين Franconian ، والسوابيين Swabian ودائرتي الراين (معاهدة هيلبرن Heilbornn في ٢٣ أبريل ١٦٣٣) ، كان المستشار السويدي لا يزال يأمل الاحتفاظ بمركز يجعله قادراً على ضمان صلح موفق للسويد والقضية البروتستانتية .

أما ولنشتين فكان ، وهو أقل تشبهاً بأهدافه ، يفكر في خطة لتسوية المسألة الألمانية .

أما المجلس اليسوعي في فيينا ، فإن سلوك القائد البوهيمي العظيم عقب موقعة لوتزن Lützen قد بعث فيهم أظلم الشكوك ، فبينما هو جامد في الحرب ، كان نشطاً في ميدان السياسة . وبينما كان متوقفاً أنه سيستغل إلى أبعد الحدود نتائج معركة لوتزن ، ظل مقيماً في كسل بوهيميا يفاوض السكسونيين . ولم يدفعه وقوع راتشبون Ratisbon في يد السويديين ولا فزع فيينا إلى العمل الفعال . فإن أفكاره وقد أثرت في توجيهها ما أصابه من سامة المرض ، وكذلك الطموح الغادر قد أصبحت تتجه إلى تحقيق سلام عام . ألمانيا لا يقوم إلا عن طريق فرض نفوذه وحده ، ولن يكون الصلح الذي يوده ولنشتين صلحاً يسوعياً ولكنه يوده صلحاً بوهيمياً مبنياً على التسامح إلى حد لا يرضى عنه الآباء اليسوعيون . ولربما — وإن لم يكن هذا أمراً أكيداً — حوى الصلح أيضاً بين شروطه تاج بوهيميا ولنشتين . ولكن لم يتحقق ولنشتين شيء من هذه الأحلام . وتقرر في فيينا أن من الخطورة بمكان الإبقاء على هذا الرجل حياً . وقد كان فرسان الدراغون الأيرلنديون في معسكرهم «بايجر» Eger على استعداد لاغتياله (١٦٣٤) .

وصدرت عروض الصلح الفعالة الأولى من ذلك الركن في ألمانيا الذي أظهر منذ بداية الحرب أقل قسط من القابلية للقتال : وكان قتال اللوثرين زرعاً ليناً لا يفلح إلا في ضوء الانتصارات السويدية . وعلى ذلك عندما دُحر برنارد Bernard صاحب ساكس فيمار Saxe Weimar وهورن Horn — القائدان اللذان آل إليهما إرث جستاف . وفي معركة نوردلنجن Nordlingen الحاسمة ، انتقل كل الجزء الجنوبي الغربي من ألمانيا بضربة واحدة من السيطرة السويدية إلى السيطرة الإمبراطورية . ولم يكن صلح براج Prague (١٦٣٢) عملية شريفة ذلك لأن اللوثرين لم يلفظوا حلفاءهم السويديين فحسب ، بل تعهدوا بمساعدة النمسا لطردهم من ألمانيا — ولكن الصلح أحكم من الحرب على الدوام ؛ فإن صلح براج الذي قد اعترف به تقريباً في نهاية ١٦٣٥ جميع الأمراء المهيمن والمدن الحرة في ألمانيا كان تسوية طيبة وحكيمة بقدر ما سمح به الموقف عندئذ . فقد حصل الموقعون البروتستانت على ضمان أسلوبهم

فى العبادة ، وعلى استيفاء الأراضى والإيرادات التى كانوا قد أخذوها من الكنيسة الرومانية مدة خمسين عاماً .

ولكن فى هذه اللحظة التى لاحت فيها بشائر السلام العام ، دخلت الحرب فى طور جديد علمانى تماماً ؛ فقد فقدت الحرب ذلك الطابع الدينى الذى تميزت به أصلاً ، واختفى فى غمرة النضال بين أسرتى البوربون والهسبرج للسيطرة على أوروبا . فلم يكن هناك حقاً إلا قدر ضئيل من الروح الدينية القديمة فى نضال اتحدت فيه فرنسا الكاثوليكية والسويدالروتستانتية مع جمهورية هولندا البروتستانتية (فى معاهدة كامبين ٢٨ أبريل ١٦٣٥) ضد ألمانيا اللوثرية والفرنسا الكاثوليكية وإسبانيا الكاثوليكية وأخذت سافوى تباع فيه صداقتها تارة لهذا وتارة أخرى لذلك ؛ وعندما أصبحت المسائل الخطيرة موضع النزاع لا تتعلق بالعقيدة أو الطقوس الدينية ، وإنما تتعلق بإمكان السماح للسويد بالاحتفاظ بيوميرانيا وفرنسا باستبقاء الألزاس . فقدت الحرب الجانب الأكبر من دوافعها الحماسية للعقيدة ولكنها امتلأت بعمليات الزحف والتراجع والحصار والتسليم والحرق عمداً ، والقتل وكل ألوان النكبات التى كان فى مقدور الفرق المرتزقة المتوحشة الجائعة أن تنزلها بشعب لا حول له ولا قوة . وقد تبين أن المدير الرئيسى لهذا الدور الطويل من الكرب الشديد والقوضى هو أحد كرادلة الكنيسة الرومانية . فخلال ثمانية عشر عاماً (١٦٢٤ - ١٦٤٢) ما فتئت عبقرية ريشيليو السياسى ، رئيس وزراء لويس الثالث عشر تسيطر على مسرح الحوادث الأوروبية . ولكن هذا الحبر المستبد كان يفتقر إلى كثير من الصفات الضرورية للرجل السياسى : إذ لم يكن يفقه شيئاً فى الاقتصاديات ولا المالية العامة . فعلى الرغم من المدة الطويلة التى تمتع فيها بسلطان مطلق لم يحرك ساكناً لعلاج ارتباك النظام المالى فى فرنسا وما به من فساد وظلم ، مما أدى فى النهاية إلى القضاء على الملكية . كان عديم الاكتراث بالجانب الإنسانى كله فى ميدان السياسة . ولكن ثمة قضية واحدة فقط كرس لها فى إصرار ذهنه الرائق المنطقى الذى لا يرحم . ولم يشغل تفكيره شىء عن العمل لعظمة فرنسا بالمعنى الذى فهمه من هذه العبارة سلسلة طويلة من السياسيين الفرنسيين من مزران ولويس الرابع عشر إلى دانتون ونابليون وديلكاسيه Delcassé وكليمنصو Clémenceau وپوانكاريه

Poincaré وتلميذه تاردييه Tardieu . وقد وضع لنفسه منذ البداية ثلاثة أهداف : تحطيم النفوذ السياسى للهيجونوت ، وكسر شوكة النبلاء ، وجعل اسم الملك مهيباً ومحتوماً فى سائر أنحاء أوربا . وقد حقق الهدف الأول تماماً ، بينما حقق جانباً من الهدف الثانى . أما الهدف الثالث ، وكان يتضمن تقطيع أوصال ألمانيا وإضعاف إسبانيا فقد قطع فى بلوغه شوطاً بعيداً .

ومن الأدلة على خلوه من روح التحيز الدينى أنه أثناء محاولته العظمى ضد الهيجونوت لم يتورع عن طلب مساعدة البروتستانت وألزم الهولنديين كشرط لحصولهم على المساعدات المادية من المالية الفرنسية . أن يساهموا فى إخضاع حصن لاروشيل La Rochelle العاصمة الشهيرة للكثنية فى فرنسا . ومهما كان الشعور بإزاء هذه المهمة كريهاً فى أمستردام ، فلا شك أنه من وجهة النظر الواسعة للمصالح البروتستانتية ، كان من الخير تجريد الهيجونوت من قدرتهم على مضايقة الحكومة الفرنسية . فإن هذه الأقلية المسلحة التى كانت تسيطر على مائة مدينة محصنة وكانت بمثابة كتلة من الجرانيت وقفت حجر عثرة فى طريق النمو القومى . طالما كان الهيجونوت يكونون دولة داخل دولة فى فرنسا فإن ريشيليو كان عاجزاً عن تنظيم صفوف الأمراء البروتستانت فى قارة أوربا ضد أسرة الهبسبورج . والواقع أن فرنسا لم تتقدم لتساهم بذلك النصيب العظيم فى توجيه حرب الثلاثين عاماً التى أكدت الانقسام الدينى وخلدته إلا بعد أن تخلصت من هذا الارتباك الداخلى (١٥٢٩) . ولم يقف النبلاء حجر عثرة فى طريق ريشيليو ، فأعدم مونتمورينسى Montmorency أعظم نبلاء فرنسا بسبب تأمره - وفى سبيل موازنة نفوذ الأرستقراطية ، أنشأ تدريجياً نواة الأداة المدنية المركزية (عمال الملك فى الأقاليم)^(١) ، وكذلك أقام جيشاً وأسطولاً لخدمة الملك خدمة دائمة .

إن الباحث فى فن الدبلوماسية ، إذا حوّل أنظاره عن الآلام البشرية ، ليعجب بالمهارة التى استخدمها هذا الحبر المسيحى كى يطيل من أمد حرب همجية وغير

(١) عمال الملك أو مندوبوه فى الأقاليم Intendants ، يعينهم الملك فى فرنسا لإدارة الشؤون المالية أو فرض الضرائب ؛ وعلى إثر انتهاء الحروب الدينية فيها فى القرن السادس عشر درج الملك على إنفاذهم لإعادة الأمن فى الأقاليم التى تسودها الاضطرابات . استخدمهم ريشيليو للحد من سلطان الأشراف فى الأقاليم . وألنت الجمعية الوطنية هذه الوظيفة فى ١٧٨٩ ولكن أعادها نابليون .

ضرورية ، وبالسخاء الصائب الذى أحيا الحماسة الضئيلة فى نفوس السويديين الذين لم يكن ثمة مندوحة عنهم ما قدمه إليهم من إمدادات من الرجال والأموال ، والخذل الذى أظهره عندما أخذ سراب صلح وشيك الوقوع يبهر ناظره ، والمهارة التى جعلت أشد منافسيه المعروفين من دنمركيين وبولنديين تخيم عليهم سكينته محايدة . وإذا لاحظ المدقق أن بعض الخطط قد أصابها الفشل ، كما حدث بالنسبة لتكوين اتحاد الراين تحت حماية فرنسا ، ذلك المشروع الذى أعده وحاول إنجازه المرة بعد الأخرى كل من مزران ونابليون وبوانكاريه لهتلل لدقة الخطة التى تضمنت غزو إقليم روسييون Roussillon ، والهجوم على قطلونيه Catalonia ، وتوحيد جهود منتوا Mantua ، وبارما Parma وسافوى ضد النفوذ الإسپانى فى إيطاليا ، ومعامدة المصاهرة مع إنجلترا وحصول المملكة الفرنسية على الإنزاس واللورين . وقد أشار البعض إلى أن ريشيليو كوزير للحربية كان ذا عيوب عديدة ، فهو لم يستطع أن ينشئ جيشاً أو أن يضع خطة للمعركة وأنه بلغ من حرصه على العظمة أنه كان يخشى أن يعهد إلى الرجال النابهين بالقيادة حتى إن انتصار كونديه Condé فى روكروا Rocroi ذلك العصر الذى أعلن أن فرنسا قد أصبحت مرة أخرى قوة حربية عظمت لم يحدث إلا فى عام ١٦٤٣ ، عندما كان قد آواه قبره . وإن دبلوماسية الكاردينال لتدعو إلى الإعجاب بدرجة أكبر . فلم تقم الجيوش الفرنسية إلا بالقدر اليسير خلال المعارك التى استمرت سبعة أعوام تحت قيادة ريشيليو ولكن ما إن وصلت إلى نهايتها حتى أصبحت فرنسا سيدة على الأنزاس واللورين وردسييون كما أوقفت زحف حركة الإصلاح الكاثوليكي فى ألمانيا .

وفى هذه الفترة الأخيرة من الحرب (١٦٢١-٦٥) حين كان يحكم فى إسپانيا فيليب الرابع وأوليفاريز Olivarez ، ملك ضعيف ووزير صلب الرأى ، بُليت إسپانيا بأربع كوارث جسيمة : تحطيم أسطولها ، وثورة قطلونية . وفقدان البرتغال ، وثورة نابلى . وكان العامل المشترك فى جميع هذه النكبات أن إسپانيا وهى البلاد الفقيرة المنهكة القوى التى اتصفت بفساد الحكم والانقسام الجغرافى والتاريخى إلى أجزاء متميزة عن بعضها ومتعادية ، راحت تطمع فى أن تلعب دوراً رئيسياً على مسرح حوادث السياسة الأوربية . ولو لم يكن رجل دولتها مفتوناً بسحر الحروب الخارجية لأدرك أن دولة

كإسبانيا قد بلغت هذا المبلغ من الضعف عند اعتلاء فيليب الرابع العرش كانت في أمس الحاجة إلى عهد طويل من السلام والاستجمام ، والإصلاحات المدنية . ولم تعد إسبانيا - والفوضى ضاربة أطنابها في شئونها المالية ، وأسطولها من السفن عابرة المحيطات قد غدا هيكلًا ، وفقدت جزائر الهند الغربية ، وأصبح لا يربطها بمستعمراتها الأمريكية إلا خيط واه ، وبلغ التذمر بالبرتغال ونابلي مبلغًا عظيمًا ؛ وتدهورت قيمة عملتها ، وضاعت الأراضي المنخفضة فعلا إلى غير رجعة ، لم تعد إسبانيا بأحوالها تلك - بقادرة على تزعم الكاثوليكية في أوروبا ضد أعدائها من البروتستانت . كان أوليفاريز كفتًا ضليعًا ، عصبي المزاج ولكنه كان أيضًا رجلًا من رجال البلاط ، محرومًا من الخبرة السياسية . وقد استطاع أن يتملق سيده التافه عندما أشار عليه بأن حربًا خارجية عظيمة ، يدبر أمورها وزير كفف ، من شأنها أن تعيد إلى الملكية بريقها القديم . ولكن كان أمرًا لا مناص منه أن تعثرت السياسة على صخرة المال . كان أوليفاريز في سبيل تحقيق النصر النهائي في الحرب بحاجة إلى أموال تفوق كثيرًا تلك التي اعتاد الشعب الإسباني أن يقدمها عن طريق مجالس الكورتيز الخمسة الإسبانية . وقد لاقى معارضة في كل مكان ، ولكن على وجه الخصوص في قطلونية أغنى أقاليم الإمبراطورية الإسبانية وكذلك أكثرها استقلالًا . وفي لحظة غير مناسبة صمم أوليفاريز على أن يكسر شوكة القطلونيين لكي يقضى على امتيازاتهم ويقيم بينهم جيشًا مأجورًا . ولكن برشلونة لم تكن مثل لاروشيل فقد كانت باستثناء أشبيلية أغنى ثغر في إسبانيا ، وعاصمة لشعب يتكلم لسانًا مختلفًا ، شديد التمسك ببعض العادات القديمة التي جعلته أقرب إلى أهالي بروقانس منه إلى أهالي قشتالة ، وهو لم يكن مستعدًا بأي حال من الأحوال لأن يعتبر بلاده إقليمًا تابعًا لقشتالة . وفي ١٦٣٠ ثار القطلونيون ، وفي العام التالي انتخبوا لويس الثالث عشر حاكمًا على برشلونة ، ووضعوا أنفسهم رسميًا تحت حماية فرنسا .

وسرعان ما أثرت الثورة القطلونية تأثيراً خطيراً على الحالة في البرتغال ؛ ذلك لأن الستين عاماً التي اتحدت فيها البرتغال مع إسبانيا بدلا من أن تحسن العلاقة بين الدولتين زادت مرارة فقد أثار البرتغاليين حكامهم الإسبان الغافلون وشكوا من أن قادس قد سلبت لشبونة تجارتها . ولكن ثمة حقداً كان أشد عمقا وأكثر شرعية وصل

بالعلاقات بين الدولتين إلى أقصى درجة من السوء منذ تسببت إسبانيا في ضياع إمبراطورية البرتغال في الشرق . إذ أن الاتحاد بين القطرين قد ورط البرتغال في جميع الأعمال العدائية التي أثارها المطامع البعيدة المدى لإسبانيا . تلك المطامع التي يتحمس البرتغاليون في الاستجابة لها ، بل فضلوا ألف مرة أن يفصوا تلك الشركة التي أدت إلى فقدان أئمن ما يملكونه من مستعمرات . وإلى هذا السخط العنيف أضافت سياسة أوليفاريز التي طبقها بشدة فُسكونسيلوس Vasconcellos الكريه الذي لا يمكن احتماله . وعندما تبين للبرتغاليين أنهم سيعاملون معاملة التابعين لقشتالة ، وأنهم مهددون بدفع الضرائب القشتالية ، وقد ألهب حماسهم المثل الذي ضربه القطلونيون ، تنادوا للشوة ودعوا إلى عرش البرتغال أحد نبلاء أسرة براجانزا Braganza . وقد استغرق الأمر ثلاث ساعات . وفض الاتحاد إلى يومنا هذا ، واتسع الصلح بين الدولتين واستعصى على الرأب بسبب الحرب العقيمة التي دامت بينهما ثمانية وعشرين عاماً .

لقد أصاب كل من أوليفاريز وریشيليو عندما قدرا أنه لا بد من تحقيق قدر أكبر من الإدارة المركزية حتى يتوافر لدولتيهما درجة أعظم من الكفاية . أما السبب الذي جعل أوليفاريز يفشل وریشيليو ينجح أن الظروف في فرنسا كانت مواتية لتركيز السلطة بينما كانت معاكسة لذلك في إسبانيا . فكل الطرق في فرنسا كانت تؤدي إلى باريس بينما لا يوجد طريق واحد في إسبانيا يوصل إلى مدريد ؛ وكانت جبال أيبيريا ورجالها يتصفون بالعناد . ولكن أوليفاريز تجاهل الجبال وحاول أن يسوق الرجال . وإزاء مثل هذه الإهانة الموجهة لعزلتهم المفضلة الهادئة لم يكن في استطاعة جنس في العالم أن يقاوم بعناد أعظم مما فعل الأيبيريون . فالإسباني وإن كان يحلم أحلاماً إمبراطورية فإنه كان يرفض أن يدفع ثمن هذه الأحلام . ولم يكن في استطاعة أى شيء أن يقنع القطلوني بأن المستوى المالى الذى ألفوه في العصور الوسطى لا يصلح لمواجهة مسئوليات الإمبراطورية الحديثة .

* * *

ثم كان استئناف الحرب مع الهولنديين بعد انتهاء هذه الاثنى عشر عاماً في ١٦٢١ مسألة أخرى انتهت نهاية سيئة لإسبانيا . عند موت « مورييس ناسو » Maurice Nassau وجد الهولنديون في أخيه الأصغر فردريك هنرى رجل دولة وجندياً

قديراً في توجيه العمل للدفاع القوي . وتحت لواء هذا القائد العظيم ، وبفضل المعونات المالية التي كان يقدمها ريشيليو وبعض المغامرين من الإنجليز ذوى الخبرة ، قاومت الجمهورية الهولندية ، بنجاح قوات إسبانيا البرية .

وفي أثناء عمليات حصار هرتوجنبوش Hertogenbosch ، ومايسترخت Maestricht وبريدا Breda ، أظهر الهولنديون أنهم لم يفقدوا شيئاً من حيلهم القديمة من فن الحصار . فكان في مقدورهم الاستيلاء على المدن والدفاع عنها . وفي حرب المواقع لا حرب الحركة لن تجد أبرع من جيوشهم . ولكن التقدم السريع والانتصارات الحاسمة والعمليات الحربية ذات النطاق الواسع كتلك التي اتصف بها جستاف أدولف كانت غير مألوفة في أذهان هذا الجنس البطيء المنسق . فقد كان الهولنديون يحافظون على مراكزهم ؛ وحتى مع مساعدة فرنسا ، كانت مهمة تحطيم خطوط الدفاع النمساوية والإسبانية في المقاطعات الجنوبية ما يطيقون .

وإن العبقورية الحقيقية للشعب الهولندي لم تظهر في هذه الحرب البرية ، وإنما ظهرت فوق صفحة الماء . ففي بسالة فائقة ، توغلوا إلى أبعد أنحاء العالم وأشدها عزلة فاكشفوا نهر الأمزون ، وأحضروا الشاي من فرموزا إلى أوروبا ، وأسسوا في بتافيا Batavia مركزاً لإمبراطوريتهم الشرقية ، وأقاموا دولة هولندية من الأراضي البرتغالية الشاسعة في البرازيل . ولابد عند تقدير العوامل التي أدت إلى انفصام الوحدة بين إسبانيا والبرتغال اعتبار هجمات الهولنديين على المؤسسات البرتغالية في البرازيل وسيلان من العوامل الرئيسية .

وإزاء ازدياد هذا النشاط الاستعماري المطرد قامت المملكة الأيبيرية المتحدة — وقد أصبحت على وشك الانهيار — بمجهود أخير مجيد وجريء معاً . فأرسلت أسطولاً قوياً تحت قيادة «أكويندو» ، وهو من أقدر رجال البحرية الإسبانية ، إلى بحر المانش لمنازلة الهولنديين في مياههم القومية ؛ وعبر أسطول آخر يتكون من سفن إسبانية وأخرى برتغالية المحيط الأطلسي لاستعادة البرازيل . وقد تحطم كلا هذين الأسطولين بسبب براعة أعدائهم الهولنديين في فن ارتياد البحار . وإن معركة «دونز» The Downs (١٦٣٦) التي هزم فيها «فان ترومب» Van Tromp القائد الإسباني «أكويندو» لشهيرة في تاريخ أوربا البحري ؛ ولكن القتال دام أربعة أيام في «إيتاركا»

Itamarca على سواحل برمبوكو Permambuco (١٦٤٠) كان بالمثل قتالاً حاسماً . وهكذا تضافر هذان الانتصاران اللذان أحرزهما الهولنديون : الأول في مياه أوربية ، والثاني في مياه أمريكا الجنوبية لوضع خاتمة للإمبراطورية الأيبيرية .

ولم يأت صلح وستفاليا (١٦٤٨) الذي أنهى هذه الحرب الطويلة نتيجة لأى ميل من الجيوش المتصارعة في ألمانيا لفرض قرار عسكري حاسم ذلك لأن أحداً منهم لم يكن يميل إلى شيء من هذا إذا كان نداء الحرب موفور الربح ؛ إنما دعا إلى ذلك حسن إدراك ملكة السويد كريستينا Christina وعواطفها الإنسانية ، ثم ما لحق بإسبانيا من إعياء وأخيراً نفاد صبر المؤتمرين وما أصابهم من سأم بعد أن ظلوا مجتمعين مدة ثلاث سنوات في مدينتين صغيرتين من مدن وستفاليا (منستر Munster وأزنبروك Osnabruck) ، ليصلوا بجهودهم الشاقة المعقدة إلى نهاية حاسمة على أننا ينبغي أن لا نخطئ في تقدير الابتهاج العارم الذي كان يملأ جوارح الجنود السويديين والفرنسيين والإمبراطوريين حين كانوا يمارسون حرقهم إلى غايتها . فقد كان القتل والسلب بمثابة العبير الذي يستنشقونه . ولو قد عجز الدبلوماسيون عن الوصول إلى اتفاق ، ولم يوقظهم الصلح المنفرد بين إسبانيا والأراضي المنخفضة في يناير ١٦٤٨ من الركون إلى أساليبهم البطيئة إذاً لاستمر في القتال قواد الحرب «رنجل» Wrangel ، «وكونيجزمارك» Konigsmarck وكونديه Conde ، وتورين Turenne ، وكولورادو Colorado ، وبيكولوميني Piccolomini « حين يحين الوقت ليستأنف القتال جيل آخر من القادة العتاة .

وقد عمل صلح وستفاليا على تحقيق التوازن الديني والسياسي في ذلك العصر ، فأقر ذلك القانون العام لأوروبا لأجيال عديدة . وقد حصل كل من الأطراف المتعادية على لون من ألوان الترضية المادية . فقد تم الاعتراف بجعل تاج بوهيميا وراثياً في أسرة الإمبراطور ؛ وإمارات الألتزاس لفرنسا ؛ وبوميرانيا الغربية وأسقفيتي «برمن» Bremen و«فردن» Verden للسويد ، وإقليم الهلانين الأعلى لبفارييا . وقد كان استيلاء فرنسا التام على الألتزاس العليا والسفلى جزءاً تدخلها في الحرب بين الأمراء الألمان بالنسبة لمصير تاريخ أوروبا — أهم وأعظم ما تمخض عنه الصلح من نتائج . وقد كان أسلم لفرنسا وأقل استفزازاً لألمانيا لو قبلت فرنسا الألتزاس كإقطاع

إمبراطورى يعطيها مقعداً فى الدايت الألمانى ؛ ذلك رأى رآه أحد دبلوماسيى فرنسا فى ذلك العهد ، وتبينه مزران فيما بعد . ولكن سبق السيف العزل لأن الخطأ كان قد وقع . فقد ألقى الفرنسيون القفاز متحدين شعور الشعب الألمانى ، فلما بلغ الشعور القومى قوته أخيراً لى الألمان النداء والتقطوا القفاز . ولم يتوقع أحد أن تتمخض أهواء هذه الحرب المضنية عن ميل للأخذ بالتسامح الدينى ، ذلك لأن أحداً من الطرفين لم يكن مستعداً لذلك ؛ وإنما كان هناك على الأقل اتجاه قوى لإعادة تأكيد ذلك المبدأ الذى اتخذ قاعدة لصالح أجزوج وهو « أن الناس على دين ملوكهم » وتوسيع ذلك المبدأ ليشمل أنصار العقيدة الكاثنية . وآلت إمارة الهلاتين الدنيا بعد أن رفعت إلى إمارة انتخابية ثامنة إلى شارل لويس Charles Lewis ابن « ملك الشقاء » الذى كان حمقه فى ادعائه الحق فى تاج بوهيميا قد أثار كل هذه الشرور ، ولكن بوهيميا ذاتها مع كافة الأملاك الوراثة الخاصة بالأسرة المالكة فى النمسا قد أطلقت لنشاط اليسوعيين ، وبذلك تحقق حلم فرديناند وهو ألا يسمح لمارق أن يتعبد أو يغط فى هذه الرقعة الواسعة من الأرض .

وإن التباين لعظيم بين ألمانيا كما كانت فى عهد فردريك بربروسا وبين الاتحاد الضعيف من ثلثائة وخمسين ولاية الذى تمخض عنه مؤتمر وستفاليا ، (ولكل منها الحق فى انتهاج سياسة خارجية خاصة طالما لم تكن موجهة ضد الإمبراطورية) . فى أيام بربروسا كان الإمبراطور يمارس فى ألمانيا سلطة حقيقية وإن لم تكن منتظمة ، أما الآن فقد غدا سلطانه اسمياً فى ألمانيا وإن أصبح وطيداً فى النمسا وبوهيميا والنجر . فى ذلك الوقت البعيد كانت سويسرا والأراضى المنخفضة فى حوزة الإمبراطور ، أما الآن فقد اعترف رسمياً باستقلال جمهورية سويسرا ، أما الأراضى المنخفضة وإن بقيت اسماً جزءاً من الدائرة البرجندية فقد انقسمت فى النهاية إلى ولاية إسبانية وجمهورية هولندية . فى ذلك الوقت البعيد كانت ألمانيا ذات أثر فعال فى العالم فإذا هى اليوم تصبح عديمة الأثر . فى ذلك الوقت كانت ألمانيا تدين بعقيدة دينية واحدة فإذا هى اليوم تغدو موزعة بين عقائد ثلاث . ومن هذا التشتت فى الولايات الألمانية والانهايار الذى أصاب القوة الإسبانية ستسرح الفرصة لفرنسا لتعزيز مطامعها العسكرية تلك المطامع التى عمل على استغلالها لويس الرابع عشر و نابليون إلى أقصى حد .

أصول التاريخ لأوربي

كتب يمكن الرجوع إليها

- S.R. Gardiner : The Thirty Years War. (1874)
- C.R.L. Fleacher : Gustavus Adolphus, King of Sweden. (1890)
- A. Gindely : Thirty Years War. (1882-3)
- Hanotaux : Histoire du Cardinal de Richelieu. 2 vols. (1898)
- G. D'Avenel : Richelieu et la monarchie absolue. (1884)
- W. Coxe : Honse of Austria. (1847)
- Lavissee : Histoire de France. (1900-1911)
- H. Belloc : Richelieu. (1930)
- Hallandorfand Schuck : History of Sweden. (1929)
- A. Gindely : Waldstein während seines ersten Generalats im Lichte der gleichzeitigen Quellen. (1886)

الفصل الثامن عشر

انتصارات مزران

تفوق فرنسا في أوروبا - آن النمساوية ومزران - حرب الفروند الأولى - المقارنة بين الحركات الثورية في فرنسا وإنجلترا - حرب الفروند الثانية . تشويه سمعة كوندية - أثر الفروند - انتصارات مزران الدبلوماسية . هيجو جروسيوس Hugo Grotius وحلف الراين .

ظاهر أن أثر روح ريشيليو في إملاء معاهدة وستفاليا فاق كثيراً أثرها في إملاء معاهدات أخرى تمت لصالح فرنسا حتى معاهدة فرساي نفسها . فلم يحدث أن أحرزت فرنسا مطلقاً انتصاراً دبلوماسياً أعظم من ذلك الذي أحرزته ، في وستفاليا . كما أن خريطة أوروبا السياسية لم تظهر قط قبل أكثر اتساقاً مع المطامع الفرنسية . أما ألمانيا المكونة من ذلك الاتحاد المروض من الدول الضعيفة الفقيرة التي تتبادل العداء فلم يكن لها كيان كقوة عسكرية قادرة على الوقوف عقبة جدية في سبيل تحقيق السياسة الفرنسية ، وبدلاً من أن تكون خطراً يهدد فرنسا كانت على العكس من ذلك عاملاً أساسياً لتأمينها ، ومصدراً يمدّها بالحلفاء السياسيين ، ومجالاً لنفوذها ، وحاجزاً في طريق النمسا ، وعاملاً أساسياً في التوازن الدولي . ومنذ ذلك التاريخ إلى وقوع الثورة الفرنسية بات الإبقاء على ألمانيا على هذه الصورة ضعيفة ومنقسمة على نفسها هدفاً أساسياً في السياسة الفرنسية .

ولم ير الفرنسيون في مثل هذا الموقف أمراً كريهاً . فإنهم وقد اطمأنوا لجانب ألمانيا التي كانت عندئذ منهوكة القوى والتي لم يكن من المحتمل مطلقاً أن تستجمع أسباب القوة قد سرهم أن يعتبروا أنفسهم الملائكة الحارسين ، والأوصياء القيمين على شعب له مكانته ، شعب مسالم ، ولكنه موعغل في التأخر . وسجلوا في خيلاء انتشار الآداب الفرنسية ، والمسرح الفرنسي ، والأزياء الفرنسية بين أفراد الجنس الثيوتوني الغليظ الخانع ، واعتبروا أن العناية الإلهية بحكمتها هي التي مكنت فرنسا في ذلك الوقت ، في أكثر الظروف ملائمة من استئناف مهمة تحضير الشعوب التي كان شرلمان يقوم بها بين برايرة الشرق .

ولكن الانتصار السياسى فى ذلك الوقت وما صحبه من فرص واضحة مضى دون أن يشعر به أحد . فبينما كان رجال السياسة يوقعون المعاهدة فى مُنستر Munster كانت فرنسا ثائرة ، وحكوماتها لا تستطيع المحافظة على مركزها فى باريس إلا بشق الأنفس .

وكان على رأس الحكم فى فرنسا أجنيان : آن النمساوية والكاردينال مزان . وعندما مات لويس الثالث عشر فى عام ١٦٤٣ ، ترك وراءه طفلاً فى الخامسة من عمره وقد استطاعت أمه الإسبانية أن تحرر نفسها بمهارة من سلطان المجلس الذى كان قد عين لكى يرشدها إلى الطريق السوى . واتخذت لنفسها حق الوصاية ، ثم استدعت زوجها الإيطالى حتى يشاركها الأعباء . وقد بات كل ما يتعلق بهذا الأمر كريهاً لأمرأ البيت المالك والنبلاء وبرلمان باريس وعامة الشعب . فقد كرهوا آن الوصية الإسبانية على العرش ، وبغضوا مبدأ الأمير الذى يصبح وزيراً مسيطراً على شئون الدولة . ولم تكن هناك رذيلة لا يصدقون أن مزان لا يتصف بها . فقد كان فى نظرهم لصاً ، محتالاً ، مفسداً ، فاجراً ، وضع الأصل ، يحدث نعمة ، نهاباً للأموال العامة . وإن المهارة السياسية العظيمة التى مكنت هذا الوزير الذى لا شك فى احتياله من الاحتفاظ بتقاليد ريشيليو السياسية قد ضاعت وسط خضم رذائله .

وقد اشتد السخط على الحكومة بسبب الضرائب التى اقتضاها أولاً تمويل الحرب الألمانية ثم الحرب الإسبانية التى استمرت أحد عشر عاماً عقب توقيع صلح وستفاليا . كان مزان على غرار أستاذه ريشيليو جاهلاً بالمبادئ الأولية للسياسة المالية . فكانت جميع أساليبه المالية سيئة ، ولكن تميز أسلوبان منها بالخطورة لأنها أساءا إلى باريس : وهما فرض ضريبة على المساكن فى ضواحي العاصمة ، ثم تدخل صارم فى عملية الاستثمار المفضلة لدى الباريسيين ألا وهى الإيجارات التى حددتها بلدية باريس .

كان الجوى نذر بالثورة . فى عام ١٦٤٨ كانت الثورة ناشبة فى ناپلى وفى قطلونية ، وفى البرتغال ، وفى إنجلترا ، فكيف يتأتى لفرنسا أن تنجو من هذه الحنة العامة ؟ وهتفت البائعات باسم مسانيللو Masaniello الصياد النابوليتانى الذى تجرأ

على تحدى ملك إسبانيا ؛ بينما تمنع المسنون في البرلمان في سابقة أعظم أهمية ، قد قررها مجلس يمثّل مجلسهم في الاسم ، قد انعقد في وستمنستر Westminster واستطاع ليوه أن يُسقط الملكية الإنجليزية .

نشأ عن هذه الأحوال العامة الثورتان العجيبتان اللتان تعرفان بثورتى الفروند الأولى والثانية . وقد عرضت هاتان الثورتان الملكية لأخطر أنواع الإذلال ، كما انتشرت انتشاراً واسع المدى في وقت من الأوقات (١٦٥٢) مما أصبح يهدد بزعة بناء الدولة من أساسه . وقد ذكر ميشليه Michelet أن كافة أفراد الشعب الأمناء في فرنسا وقفوا في وجه مزران ، بينما وقف المحتالون جميعهم إلى جانبه . وإن هذا القول ليبلغ من التعميم حداً لا يمكن الاعتداد به ، فإن مزران كان يناضل في سبيل مواصلة السياسة الخارجية لفرنسا ، وفي سبيل توحيد الدولة الفرنسية . وقد كان خصومه في كثير من الأحيان لا يعاؤون بأى من هاتين المسألتين . والحقيقة أن كل ما وجد في فرنسا من أفكار صائبة جدية فيما يتعلق بالإصلاحات المالية أو مقاومة الاستبداد بالطرق الدستورية أو ما يتصل بمشكلة « أحوال الشعب » كانت هذه الآراء كلها موجودة عند القائمين بحركة الفروند وعلى وجه الخصوص أعضاء برلمان باريس الذين تزعموا ثورة الفروند الأولى وأكسبوها ذلك الجلال الذى لا يمكن أن تدعيه لنفسها الحركة الثانية .

ولكن هذه الهيئة ذات الأفكار السياسية القيمة كانت على وجه الخصوص في طريقة الدعوة التي بثتها ومداها ، كذلك في طبيعة الوسيلة التي استخدمتها للتعبير عنها ، كانت خالية من الإلهام والقوة إذا قورنت بتلك الفطنة المستنيرة الجائشة التي أذكتها وإن ضيقت أفقها العاطفة الدينية والتي حملت قضية البرلمان إلى النصر في إنجلترا . فإن الثورة التي يرجى من ورائها نتائج دائمة تتطلب بعض الإعداد الذهني ؛ ولكن في فرنسا تدبر أى حركة لإعادة بناء الملكية على أسس دستورية . فإن مجلس طبقات الأمة الذي انعقد في عام ١٦١٤ قد انحل دون أن يوجه خطاباً للأمة بعد أن أظهر بوضوح يبعث على الدهشة مدى أنانية الطبقة الأرستقراطية . وكان برلمان باريس هيئة وراثية من القضاة الوقورين المحترمين القديرين وقد عملت على قمع سلطان الملكية المطلق عن طريق حقها في رفض تسجيل المراسيم الملكية . ولكن

هذه الهيئة كانت عارية من أى صفة نيابية عامة . وبديى أن تدافع الهيئة ذات الامتيازات عن الطبقة صاحبة الامتيازات ، ولذلك فهي لم تعبر عن الإرادة العامة فى فرنسا إلا فى مناسبات نادرة وفترات وجيزة وخلال بعض الأزمات الطارئة . وقد ظهرت مثل هذه المناسبة فى أغسطس ١٦٤٨ ، فاتحد النبلاء والشعب والبرلمان فى الاحتجاج على ضريبة الحرب التى فرضها مزران ، وفى المطالبة بالحرية المدنية والضمانات الدستورية . وقد كان الشعور متقدماً لدرجة أنه عندما سجن مزران « بروسيل » Broussel بطل المطالب البرلمانية الموقر ، أقيمت ألف ومائتان من المتاريس فى أنحاء باريس ، وسقطت الحكومة .

على أنه فى حركة الفروند الأولى عندما كانت المسألة الدستورية محددة بوضوح وعندما كان الشعور إزاءها ملتهباً ، لم تجد هذه الحركة خارج البرلمان أى اهتمام مدعم للإصلاح أو أى محاولة منظمة لتخفيفه ؛ فإن زعيم الغوغاء فى باريس « پول دى جوندى Paul de Gondi » كان مفطوراً على التآمر ، يبحث فى المياه العكرة عن قبعة الكاردينالية ؛ أما السيدات الأنيقات اللائى لعبن دوراً نشطاً للغاية فى هذه الكوميديا الجدية فقد حمستن دوافع بعيدة كل البعد عن إصلاح الدولة أو تحسين أحوال العامة . ولم يكن ثمة أى رابطة بين النبلاء الذين كانوا يرغبون فى أن يؤكد مجلس طبقات الأمة امتيازاتهم ويوسعها وبين البرلمان الذى كان يعتبر هذه الهيئة منافساً خطيراً له، وإنما وجدت بينهما كراهية مشتركة للكاردينال وقد جرّدت هذه الخلافات بين القائمين على حركة الفروند هذه الحركة من كل اعتبار وقوة .

وكانت الفروند الأولى وافرة الأضرار والعيوب : ذلك لأن الحالة التى كان فى الإمكان معالجتها ببعض الترضيات الملائمة فى وقتها ويقصد احترامها بأمانة والمحافظة عليها فى حزم ، قد انحدرت بسبب الحقد وسوء النية إلى درجة جعلت الملك يفقد باريس ، ولا يتمكن من استعادتها إلا بعد حصار فعلى (معاهدة روى Ruil فى ١١ مارس ١٦٤٩) . ولكن أثّرت فى الفروند الأولى قضية معينة على الأقل لها أهمية دستورية حقيقية ؛ ومع أن قضية باريس أعضاء البرلمان قد أساءوا إلى قضيتهم بانضمامهم إلى النبلاء المتמרدين الذين أثاروا عواطف الغوغاء ، فقد كانت بين أيديهم قضية يتحتم على كل حاكم عاقل ألا يرفض الاستماع إليها : إذ أنهم نهضوا

يكافحون في سبيل الحرية المدنية وإدخال نظام الرقابة على الأموال العامة . وإنها لوصمة كبرى في مكانة مزران السياسة أنه كان سيئ القصد في الترضيات التي اضطر إلى تقديمها للبرلمان مرتين فسحبها في أقرب فرصة وائته .

كانت حرب الفروند الثانية أضعف مبدعاً ، وأشد خطورة وأعظم حزباً . فقد افتتحت باعتقال كونديه Condé ، صاحب انتصار روكروا Rocroi ولينز Lens وقائد جيش الوصى على العرش في الثورة الأولى . ولم يكن في مقدور أى رجل أو امرأة الصبر طويلاً على الادعاءات التي لا تحتمل من هذا الجندى المتعجرف . على أنها كانت خطوة جريئة من جانب مزران أن يسجن رجلاً له مثل هذا القدر من الثروة والمهابة والشهرة . هنالك انفجرت البلاد في موجة عنيفة من الغضب ، أئت بالقائد تورين Turenne على رأس جيش إسباني إلى بيكارى ، وأوقدت نار الثورة في بوردو ، وأدت في النهاية إلى إطلاق سراح كونديه وفرار مزران (يناير ١٦٥١) . وبالرغم من أن كونديه كان في وسعه أن يعتمد على تأييد الحزب الناصر من النبلاء ، إلا أنه لانحراف مزاجه ، كان آخر من يستطيع التوفيق بين المختلفين فيربطهم جميعاً بتحالف سياسى . فلم يكد الائتلاف بين صفوف النبلاء من أصحاب السيف والنبلاء من أصحاب الرداء^(١) يبدو حتى انفصمت عراه . ثم إن الوصية الأريية قد كرس نشاطها بوحى من مزران لعمل هين وهو إثارة قائد منافس لكونديه ويمائله في غروره وطموحه من دوائر الفروند الداخلية وهو پول دى جوندى Paul Gondi ، زعيم القساوسة والرعاى وكان قد انحاز إلى جانب البلاط على وعد برتبة الكاردينال . ولم يلبث القائد تورين بعد ذلك حتى استسلم لفعل الرشوة . مات كل من الرجلين في موضع يخول له المساهمة في الدفاع عن قضية الملك ، فكوندى كان ملك رعاى باريس غير المتوج ، كما كان في تورين وهو من أم هولندية أعظم جندى نظامى في أوروبا . وفي يناير ١٦٥٢ ، أعيدت الأمور إلى

(١) النبلاء أصحاب الرداء . الأشراف الفرنسيون الذين كانوا يمنحون ألقاب الشرف بحكم تقلدهم مناصب حكومية معينة . وقد كانوا عادة يشترطون هذه المناصب بالمال - وكانوا أقل مرتبة من الوجهة الاجتماعية من « أشراف السيف » Noblesse de l'Épée الذين امتدت أصول أسراتهم إلى عهد إنشاء الملكية الفرنسية .

(٢) وقد أصبح فيما بعد الكاردينال ريتز Cardinal de Retz

نصابها حتى إن مزران أصبح قادراً على اللحاق بالوصية على العرش في أورليان . ومع ذلك بقيت بعض العوائق العظيمة التي يجب التغلب عليها حتى يمكن إعادة السلام إلى فرنسا . فهذا كونديه في ميدان القتال مع نفر من الصحاب من خلاصة الناس في باريس ، وتحت سلطانه جمهرة من النبلاء المتمردين فضلاً عن ثروته الخاصة الجديرة بملك . كما أن كونديه رغم تخلفه عن تورين في الكفاءة الفنية كان أوفر قواد فرنسا حظاً ممن زانوا جبينهم بأكاليل الغار في حرب الثلاثين عاماً . ولكن مزران كان يعرف كونديه هذا ؛ فقد تبين له أن في وسعه الاعتماد على ذلك الرجل الطاغية في الوقت الملائم بحيث يقضى على حب الجمهور الرخيص له على أن التجربة قد كلفت فرنسا الشيء الكثير . وقد انسحب الكاردينال بحكمة إلى ما وراء الحدود بمجرد دخول الأمير كونديه باريس (في ٢ يولية ١٦٥٢) على رأس جيش قد جند نصفه من إسبانيا ، وقد أمدته ببعض المساعدة الآتية « مونپنسييه » Monpensier وكانت شابة لطيفة ، تسعى يائسة للزواج من رجل مهيب . وعندئذ عندما لم يعد لأنصار مزران قيمة لاختفاء مزران تلاشت مهزلة هذه الفتنة وأغراضها .

وأخذ الأفراد العاديون يتساءلون عما يدعو إلى استمرار هذا الاضطراب المشين الذي كان شديد الضرر بالصناعات ، عظيم الخطورة على فرنسا ، فأدانوا معاهدة كونديه المخادعة في إسبانيا ، وأنفوا من وجود جيوشه الإسبانية ، وسخطوا على اعتداءات السفاحين الذين يتبعونه ، وأخذوا يسائلون أنفسهم عن الأسباب التي أوقعت باريس تحت رحمة هذا الشعب الغريب الذي أثاره بعض النبلاء التافهين والسيدات الرشقات ورعاع الشوارع وجنود الأعداء . أما وقد تهادوا في لعبهم فقد أصبحت منافية للوطن : وأساء من ذلك موجبة للسخرية . وما كاد الأمير يظن إلى أن رضى الشعب قد أخذ ينحسر عنه حتى بارح مقره وانسحب إلى إسبانيا . وفي ٢١ أكتوبر ١٦٥٢ ، عاد لويس الرابع عشر مرة أخرى إلى باريس وانتهت حرب الفروندي الثانية .

وقد خلفت هذه الثورة الموجبة للسخرية درساً انطبعت آثاره عميقة في وعي الملك الصغير ؛ وتلك هي الأهمية الرئيسية التي كانت للفروندي في التاريخ العام .

فلم ينس لويس الرابع عشر مطلقاً الإهانات التي نزلت به صبيها ، عندما طوردت أمه في باريس وعندما أطلقت النيران من الباستيل على الجيش الملكي ، وكادت الملكية تنهار على يد النبلاء الثائرين ، وقد تحالفوا مع دولة معادية ؛ فقد خرج من هذه التجربة بحكمة مؤداها أن فرنسا في حاجة إلى يد حديدية للملك مستبد لا يثق في وزراء عظام ينهضون بأعماله ولكنه ينظر في كل أمر بنفسه ويكبح جماح البلاد . وبذلك أدت اضطرابات الفروند رأساً إلى الحكم الفردي للويس الرابع عشر .

وعاش مزران حتى عام ١٦٦١ ، مؤيداً في مركزه بانتصارات القائد تورين . وقد حقق في الفترة الأخيرة من حياته انتصارات دبلوماسية لا تقل كثيراً في أهميتها عن تلك التي قد ميزت بداية عهده رئيساً للوزارة . وأول ما واجهه الآن هو أن تنتهي الحرب التي طال أمدها مع إسبانيا بنجاح . ولم يكن الكاردينال إزاء أمر على هذا القدر من الأهمية ليسمح لأى اعتبار ديني أو أخلاقي يؤثر في أعماله السياسية . فهو قد غذى الثورة في نابلي وقطالونيا والبرتغال ، وهو لم يحجم في سبيل حمل عدوه على عقد الصلح عن التحالف مع الجمهورية الإنجليزية التي استباححت دم ملك إنجلترا .

ونتج عن ذلك الائتلاف (٣ مارس ١٦٥٧) موقعة الدن Dunes عندما ظهر جيش بيوريتاني إنجليزي لأول مرة في معارك القارة وحارب تحت قيادة تورين ووجه الضربة الأخيرة في الصراع بين إنجلترا وإسبانيا ، ذلك الصراع الذي كان قد بدأ منذ تسعين عاماً على صفحة المياه المشمسة في أحد ثغور المكسيك .

ولقد أتم صلح البرانس (نوفمبر ١٦٥٩) الذي جاء مباشرة في أعقاب الانتصارات الإنجليزية الفرنسية في الفلندر ، أتم تأمين الأراضي الفرنسية . في الحق أن قطالونيا قد تركت لإسبانيا ولكن بعدما بدا منها من إصرار عنيد على فصم عرى التحالف الأهوج الذي تسرعت في عقده مع الفرنسيين . غير أن فرنسا قد نالت فتوحاً أخرى على حساب إسبانيا : روسيون Roussillon وسردينيا في الجنوب ، وجزءاً من أرتوا Artois وطائفة متصلة من المدن على الحدود الشمالية الشرقية في بلاد « الفلاندرز » وهنولت Hainault ولكسمبرج Luxemburg . وإذا كان الإنجليز قد

استولوا على دنكر ك فقد كان ذلك - من وجهة النظر الفرنسية - العيب الوحيد لصلح رجبوا به .

ثم عقد قران ملكى فتوج عمل مزران . فقد كانت الأراضي المنخفضة الإسبانية وهى تمثل على وجه التقريب بلجيكا الحالية منذ أمد بعيد ومطمح أنظار الفرنسيين . ولكن كيف السبيل للحصول عليها ؟ - فسبيل الغزو باهظ الثمن مشكوك نجاحه على حين أن الزواج رخيص مهره ومضمون تحقيقه . ولما تأكد مزران من ضعف ابن فيليب الرابع الصغير من زوجه الثانية ضعفاً يقرب منيته ، فتح موضوع الزواج . فكان آخر ما حققه الكاردينال أن عقد الزواج بين ماريا تريزا كبرى بنات فيليب الرابع ولويس الرابع عشر . كم من نتائج باهرة كانت متوقعة من ذلك القران ؟ قد يكون فيها عقد صفقة لاقتسام الإمبراطورية الإسبانية مع ليوبولد إمبراطور النمسا الذى قنع بالزواج من الابنة الصغرى للملك إسبانيا ، وربما كان أتمن من ذلك أن تجتمع إسبانيا وفرنسا تحت تاج واحد . ولعل مزران توقع ما حدث فعلا وهو أن البائنة التى تنازلت ماريا تريزا فى مقابلها عن ميراثها لن تعبر البرانس أبداً .

لكن ما أضعف أحكم رجال السياسة فى التنبؤ بالمستقبل ، فإن الزواج الذى أثار مثل هذه الآمال العظيمة كان سبباً فى حرب مضنية شنتها فرنسا وإسبانيا على الإمبراطورية والدول البرية فى الشمال وخرجتا منها وقد ضعفت قوتها ونفوذها بدرجة محسوسة .

ولم يمحض ذلك الدرس القطيع الذى خلفته الحروب الدينية دون أن تعيه آذان الإنسانية . فهو قد ترك كتاباً عظيماً وتجربة هامة . أما المؤلف فهو المقال الشهير : قانون السلم والحرب De Jure Pacis et Belli ، ذلك المقال الذى تصور فيه المواطن الهولندى « هيجر جروسيوس » Hugo Grotius لأول مرة القانون الدولى فى معناه الشامل كعلم حديث . وأما التجربة فهى صورة مصغرة من عصبة الأمم (وضعها على نهر الراين فيليب فون شونبرج Philip Von Schonberg رئيس أساقفة ماينز المستنير فى عام ١٦٥٨) . وفيها تعهدت الدول الأعضاء بتسوية منازعاتها بالطرق السلمية . وقد ترك العمل السامى الذى قام به جروسيوس العالم الإنسانى أثراً خالداً فى وعى أنصار السلام . فإذا لم يكن حظه من النجاح فى منع الحروب بأوفر مما كان

لتعاليم الكنيسة المسيحية فهو قد صور المفارقات التي أثرت في قيم الأخلاق السائدة بين الدول من حيث التمييز بين الحروب التي يدعو إليها الحق وتلك التي يُثيرها الباطل ، وبين وضع المحاربين وغير المحاربين وأخيراً بين الوسائل التي تتبع في الحرب مما يقع في نطاق ما اصطلاح عليه من قسوة مباحة وتلك التي تقع خارجه .

أما اتحاد الراين فإن النجاح الذي كان ينتظره كان محدود المدى ؛ إذ أن أهالي الراين بقبولهم فرنسا عضواً في اتحادهم قد أحالوا الاتحاد من جماعة مسالمة إلى تحالف تسيطر عليه أهداف دولة عسكرية عدوانية .

كتب يمكن الرجوع إليها

- J.B. Perkins : France under Mazarin. (1886)
- C. de Cherrier : Histoire de France sous Mazarin. (1868)
- D. Ogg : Europe in the Seventeenth Century. (1925)
- V. Cousin : La Jeunesse de Mazarin. (1865)
- Lavissa : Histoire de France, Vol. VI.

الفصل التاسع عشر

الثورة العظمى في إنجلترا

فشل الحركة المعادية للإصلاح الدينى - الحركة الإنسانية - الإنجيل - البحر - الروح العلمية - ضالة أهمية إنجلترا نسبيا في أوربا - غلبة التعصب - حق الملوك الإلهى - الشعور المعادى للكاتوليكية - مسألة السيادة - جيمس الأول - اتهام بكنجهام بالخيانة العظمى - تقدير البرلمان - نوع المعارضة البرلمانية . شارل الأول غافل عن علامات الخطر - إحدى عشرة سنة من الحكم الفردى - ستراford Laud ولود - هجرات البيوريتان - الثورة الإسكتلندية وعودة الحكم البرلمانى إلى إنجلترا . البرلمان الطويل الأول - جون پيم John Pym - الحرب الأهلية - أوليفر كرومويل Oliver Cromwell - تعصب البرلمار - الصراع بين البرلمان والجيش - الحرب الأهلية الثانية وإعدام شارل - قوة الجمهورية العسكرية والبحرية . سياسة كرومويل الإيرلندية والإسكتلدى وسياسته الخارجية - طبيعة العهد الدكاتورى ونتائجه .

بينما أنهكت الحروب الدينية القارة الأوربية مرت إنجلترا بأزمة الإصلاح الدينى دون أن ترعجها غارة خارجية أو اضطرابات داخلية خطيرة . فقبل أن يصل حكم إليزابث إلى نهايته كانت الأغلبية العظمى من الشعب الإنجليزى قد رضيت بالكنيسة التى صنعها الدولة ، وهى الكنيسة التى لم تكن كاثوليكية ولا بروتستانتية ، وكانت من الأعمال العظيمة التى قامت بها الإصابات لتدعيم مركزها إزاء ضغط القوى المضادة . وقد أمكن صد هجمات الحركة المعادية للإصلاح الدينى ؛ ذلك أن قرار العزل البابوى الذى أصدره بيوس الخامس فى غير ترو جعل الكاثوليك الإنجليز يواجهون صراعاً قاسياً فيما يتعلق بولائهم لدولتهم ونفر عن البابوية هذا الجانب الكبير من رأى العام الكاثوليكى الذى كان إنجليزياً قبل أن يكون كاثوليكياً . وفقدت العقيدة القديمة مكانتها فى نفوس الناس بسبب ارتباطها الوثيق بقوة إسبانيا المعادية . كما أحبطت المؤامرات التى دبرها اليسوعيون لقتل الملكة - وكانت الدولة من القوة بحيث استطاعت أن تقتصد فى عقوباتها - ولو قورن عدد الكاثوليك الذين أعدموا بتهمة الخيانة العظمى فى عهد الإصابات بعدد البروتستانت الذين أحرقوا بسبب الإلحاد فى حكم ماري ثينين لنا أنه كان ضئيلاً . على أن الاضطهاد دائماً أمر يؤسف له ؛

ولكن هؤلاء الرجال الذين عرفوا بسمو الإدراك تحالفوا مع دولة أجنبية لقلب نظام الدولة .

والحق أن الشعب الإنجليزي تمتع بيمين الطالع ، فقد تلقى الإنجليز تربيته من الحركة الإنسانية ، والكتاب المقدس ، والبحر ، واستدركوا ما فقدوه بسبب ارتباك المدارس خلال عهد الإصلاح الديني بالتيارات الجديدة من الإلهام التي سرت في حياة الأفراد عن طريق هذه المنابع الثلاثة المختلفة فيما بينها اختلافاً كبيراً . ففي عهد إيلصابات ، على الرغم من أن الشعب الإنجليزي قد استمر شعباً ريفياً ، فإنه قد أصبح محباً للشعر والموسيقى وللكتاب المقدس كما بات شغوفاً بالبحر — وقد احتفظت المدارس بهذا الاتجاه الجديد في الدراسات الإنسانية ذلك الاتجاه الذي كانت تعاليم إرزمس وكوليت القوة الأصلية الدافعة له . فأرسل نبلاء القوم وسراهم أبناءهم إلى جامعتي أكسفورد وكمبردج ، وكاننا يومئذ قد بدأنا تتجهان اتجاهاً حديثاً نحو تلقين الشباب من غير طلاب رجال الدين ثقافة عليا . وتعلمت السيدات والسادة اليونانية واللاتينية والإيطالية والفرنسية . وترجمت الآداب الإسبانية والفرنسية والإيطالية إلى اللغة الإنجليزية . وسرعان ما أصبح السفر إلى إيطاليا ، وإنشاء القصائد القصيرة (المكونة من أربعة عشر بيتاً) ونظم الشعر غير المقفى على الطريقة الإيطالية مطمح المحظوظين من الدارسين . ودخلت في المسرحية الشعبية قصص من جميع أنحاء العالم لأمثال بوكاتشيو Boccaccio وبانديلو Bandello وساكسو جرامتيكوس Saxo Grammaticus ، وكذلك من تراث الكلتيين القدماء ، فغذت عبقرية شكسبير ببعض المادة الجديدة .

وقد أخذت هذه الثقافة الأدبية الحرة تتغلغل في المجتمع وأفادت من حيوية البلاط ونشاطه وقصور النبلاء والفنادق والمسارح بأكثر مما أفادت من المدارس والكلليات بنظامها المحدود . وقد حال دون انحدار هذه الثقافة الحرة إلى مثل ما شاع في إيطاليا من ترخيص وسخف ظهور عنصر آخر له أهميته في الثقافة القومية تمثل فيما كشف عنه أخيراً الكتاب المقدس في ترجمته الإنجليزية من ثراء وروعة . فقد مضى قرنان ونصف حين لم تكن قد ظهرت بعض الصحف الرخيصة والروايات ، والطبقة الفقيرة والمتوسطة من الشعب الإنجليزي لا تستمد قوامها الفكري وغذاءها

الروحي إلا من كتب اليهود المقدسة . وكان سلطان هذا الأدب الحاد العذب في آن واحد فريداً في نوعه وعالمياً . وغدا الكتاب المقدس في كافة كنائس الأبرشيات مفتوحاً وفي متناول كل قارئ . وهناك تحققت فكرة الجامعة الشعبية : فراح الناس يغترفون من هذا المزيج الوافر حيث اختلطت أقدم وأسمى آيات الفكر الشرق البعيد بآثار الماضي الحسن . وراح أفراد الشعب الإنجليزي يجوسون خلالها بمحض إرادتهم ، لم يرشدهم في ذلك أحد ، ولم تعترض سبيلهم عقبات . فكانوا يلقون دائماً في طريقهم دروساً أعانهم على السلوك في الحياة ، تميز بعضها بالعمق والجمال السرمدي ، على حين كان بعضها الآخر باعثاً للهمم والزهو والاكتفاء الذاتي .

ومثل البحر عنصرًا ثالثاً في الثقافة الإنجليزية في ذلك العهد ، وبات قصص الجغرافيين يسيطر على أخيلة الشعب حيث صور لهم أن كل شيء ممكن في عهد امتدت فيه آفاق الآمال والمعرفة . فتساءل « هكلويت » Hakluyt « من من ملوك هذه البلاد قبل مليكتنا قد شوهدت أعلامه خفاقة في وقت من الأوقات فوق مياه بحر قزوين ؟ بل من من منهم قد اتصل بإمبراطور العجم واستطاع ، كما فعلت جلالته ، الحصول لتجارها على امتيازات ودية واسعة ، ثم من شاهد قبل عهد هذه الدولة أحد الرعايا الإنجليز يمثل الملكة لدى الباب العالي في القسطنطينية ؟ وهل رأى أحد قبل اليوم قناصل وقائمين بالأعمال من الإنجليز في طرابلس وحلب بسوريا وبابل والبصرة ^(١) Balsava ، بل من ذا الذي سمع إطلاقاً بوجود إنجليزي في ^(٢) Goa قبل الآن ؟ ثم هل كانت السفن الإنجليزية فيما مضى تستطيع الرسو في نهر الپلاتا العظيم ؟ كل هذا قد تجده : بعضه واضحاً وبعضه ملحوظاً في كتابات شتى مثل تمبورلان Tamburlane لمارلو Marlow و « مزوفيلوس Musophilus » لدانييل Daniel على حين يفلت بعضه الآخر عن الملاحظة ونعني أثر روح المغامرات الدامية في البحار في أسلوب الشعراء في عصر إليزابيث بالإضافة إلى بعض ما كان يداعب نفوس المغامرين من آمال . وهناك أمران كانا أفعال من كل أثر مباشر في الثقافة : أولهما النظام الذي فرضه البحر على المتعلقين به ، وثانيهما السحر الذي فتن به رجال البحر في عصر المغامرة والاستكشاف والحروب

(١) يقصد Balsara وهو الاسم الذي كان يطلق على البصرة في عصر إليزابيث .

البحرية . فبعد أن كان البحر عند هوراس Horace مصدر رعب غدا منذ يومئذ فرصة بريطانيا .

ومن الممكن اعتبار الروح التقدمي الجريء الذي تميز به دنييل في مسوفيلوس (١٦٠١) أنموذجاً لذلك التكوين الحديث للفكر الإنجليزي الذي نتج عن امتزاج حركة النهضة بحركة الإصلاح الديني . فالكاثوليك كانوا قد قدموا فلسفة متكاملة للحياة ، صاغتها عبقرية اللاتين ، ثم بلغت حد الكمال في القرن الثالث عشر . ومن هذا الإطار المغلق للتعاليم أخذت كافة قوى الحركة الإنسانية ودراسة الكتاب المقدس المطلقة ، والمغامرات البحرية تستمد الجانب الأفضل من الأمة . وتغير مركز اهتمام المفكرين . فأخذت عبقرية فرنسيس بيكون التنبئية تدعو الطالب إلى هجر أرسطو والدراسات الفلسفية والتحول إلى الانصياع لدراسة الطبيعة . وهكذا انزاح الستار عن خفايا العالم عن طريق الاستنتاج وليس عن طريق الترجيح .

ويبدأ القرن السابع عشر بأحلام فرنسيس بيكون البراقة بينما ينتهي بإثبات إسحاق نيوتن المحكم : أن الكون بأكمله وحدة عضوية واحدة ، وبين عهدي هذين العالمين فصل طويل مجيد من جهود العلماء الإنجليز : بدأت باكتشاف هارفي Harvey للدورة الدموية في ١٦٢٤ (ولم يتوصل إلى ذلك إلا لأنه قد اختبر كافة نظرياته بالتجربة) ، ثم تابعها روبرت بويل Robert Boyle بما حققه من فتح في علم الكيمياء . كما وضحت جهود العلماء في الجمعية الملكية التي أنشئت ، وبفضل هذه الجهود نالت إنجلترا مكانة ممتازة في عالم الفكر في أوروبا ، تلك المكانة التي لم تتمكن من تحقيقها عن طريق شهرة شاعر شكسبير أو ملتون محصورة في الجزيرة البريطانية ؛ ذلك لأن إنجلترا ظلت ضعيفة الأثر في أوروبا منذ وفاة الملكة إليزابيث حتى عهد أوليفر كرومويل . فإن مدرسة الدراما والشعر الإنجليزية العظيمة التي أُنعت في عهد إليزابيث وخلفتها جيمس مضت دون أن تلقى إليها القارة الأوربية بالا إلى أن قام « شلجل » Schlegel بترجمة شكسبير إلى الألمانية في نهاية القرن الثامن عشر ، بل إن هذه النهضة الأدبية قد غشاها بعض الأقول في إنجلترا ذاتها وسط السحب المتكاثفة للعقيدة البيوريتانية . كما لم تكن لإنجلترا أهمية جدية في موازين السياسة الأوربية ومقاييسها باستثناء عهد

الجمهورية ؛ فقد أهملت البحرية في عهد جيمس ، وعلى الرغم من أن اهتمام شارل بتقوية البحرية كان أعظم فإنها لم تصل مطلقاً في عهده -بسبب تقدير البرلمان - إلى درجة من القوة تجعلها صالحة على الأقل لحماية البحار البريطانية من القرصنة . حقاً لقد حارب جنود بواسل من الإنجليز لنصرة القضية البروتستانتية في إقليم الهلاتين ، وفي الأراضي المنخفضة ، وبين صفوف جيوش جستاف أدولف ، ولكن لم يكن لإنجلترا جيش قائم ، كما أن تدخل إنجلترا لم يؤثر بدرجة فعالة في مجرى السياسة الأوروبية من أى ناحية من النواحي إلى أن كان عهد كرمويل الذي حوّل إنجلترا لأول مرة في تاريخها إلى دولة عسكرية .

وأثناء هذه الفترة من العزلة والظلام النسبي كان الشعب الإنجليزي يواجه مشكلتين جسيمتين متصلتين إحداهما بالأخرى : الأولى مشكلة دينية والثانية دستورية وسياسية .

عجزت الكنيسة الرسمية للدولة التي أسستها إليزابيث عن إرضاء الروح الدينية الجريئة التي كانت تستقى الإلهام من الكنائس البروتستانتية التقدمية في سويسرا . فكره البعض مبدأ الكنيسة الرسمية للدولة في حد ذاته ، وكره البعض الآخر النظم الأسقفية ، وكره فريق كبير استعمال الحلة الكهنوتية البيضاء ، وموضع المذبح جهة الشرق ، كما كرهوا طقوساً دينية وثيقة الصلة بالطقوس الرومانية . ومن ثم نشأت المسألة التالية وهي هل في الإمكان توسيع الكنيسة إلى حد استيعاب هذه السلسلة الممتدة من الحركات الفكرية والمشاعر البروتستانتية ؛ فإذا كان الجواب بالنفي ماذا يكون مصير البروتستانت الذين يتحتم بقاؤهم خارج الكنيسة الرسمية ، فهل من المستطاع أن يكون ثمة تسامح داخل الكنيسة لإزاء وسائس البيوريتان ؟ وهل من الممكن اتباع سياسة من التسامح الديني لإزاء المجتمعات البروتستانتية المختلفة التي يعترف بها خارج الكنيسة ؟ كانت الإجابة عن السؤال الأول فوراً بالنفي - إذ رفض جيمس الأول ولود Laud كما رفض رجال الكنيسة الإنجليكانية في عهد الملكية بعد عودتها أن تستوعب الكنيسة تلك المذاهب . ولعلنا نأسف لذلك . وقد يكون في وسعنا أن نقدر أنه ربما كان من الممكن تجنب كثير من المتاعب في عهد الملكين الأولين من أسرة استيوارت لو كان هنالك مقدار أوفر من المرونة والسماحة لإزاء مؤلفات

العقيدة البروتستانتية في مسألة الشعائر الكنسية . ولكن التاريخ قد اتخذ الاتجاه الثاني ، عندما أثر ثلثمائة قس بروتانتى اعتزال أعمالهم التى يتعيشون منها في عام ١٦٠٤ على أن يتبعوا كتاب الصلوات كما طلب منهم أن يفعلوا ، ومن ثم واجهت أسرة استيوارت التى أودت بشارل الأول .

ذلك لأن فكرة التسامح التى كانت تتضمن الإجابة الصحيحة عن السؤال الثانى ، والحل الوحيد للمشكلة كلها ، كانت غريبة على الأذهان في ذلك العهد ؛ فلم تتقرر إلا جزئياً بمرسوم برلمانى في نهاية القرن السابع عشر بعد أن أدى الإنجليز الثمن باهظاً : حرباً أهلية وتغييراً في الأسرة الحاكمة ؛ إذ أن الأوربيين لم يتلقوا دروساً في التسامح الدينى في عهد الكنيسة الرومانية الطويل ، كما أنهم أبطأوا في تعلمها وسط العواطف العنيفة التى أطلقها الانشقاق الكبير - ولم يكن جون نوكس John Knox ووليم لود William Laud أكثر تساهلاً من أجناس ليولا Ignatius Lyola ودوق ألثا . وكان الدفاع عن السبيل الوسط الذى انتهجته الكنيسة ناجحاً طالما كانت الملكة العظيمة إليزابيث على قيد الحياة بفضل الإدارة الحازمة لرئيس الأساقفة ويتجيفت Whitgift إزاء الكاثوليك في جانب ، وإزاء المذاهب البروتستانتية في جانب آخر . ولكن مما لا شك فيه أن تيار الفكر داخل الكنيسة كان يطرد ابتعاده بانتظام عن روما ويتجه نحو المذهب البروتانتى .

وقد عارض هذا الاتجاه في إصرار جيمس الأول الابن الشاذ لمارى استيوارت وهنرى دارنلى Henry Darnley وشارل ابنه ؛ ولم يصدر ذلك عن رغبة هذين الملكين العودة إلى حظيرة الكنيسة الرومانية . إذ كانت مكانة الحاكم الأعلى للكنيسة في إنجلترا ترضى في الملك كل ما يتطلبه ضميره وكبرياؤه . فقد كانا على المذهب الأسقفى ، وكانا بدرجة متفاوتة إذ كان شارل أكثر صراحة من أبيه في كهننتيه من أنصار الكهنوت « لا أسقف ولا ملك » عبارة قالها جيمس لزعماء رجال الدين البروتانتى في مؤتمر « هامبتن كورت Hampton Court عام ١٦٠٤ ، واكتسب هذا الاقتران بين الأسقفية والملكية ، الذى أصبح حجر الزاوية في نظام أسرة استيوارت نوعاً من التقديس بظهور مبدأ جديد تحمس بالتبشير له أساقفة ينتمون لبلاط الملك وهو أن الملك يتقلد تاجه بمقتضى حق إلهى . ولم يكن أمر الدفاع عن

هذه النظرية ممكناً ، ولكنها كانت ملائمة . فأسرع رجال الدين في الكنيسة الإراستية Erastian Church^(١) في تأييد فلسفة قد أضعفت من الطابع الديني لمؤسستهم ؛ ثم إن الملك جيمس ، وقد كان حقه في وراثة العرش موضع النقد قد سر كثيراً بدعوى قيام ملكية استيوارت بإرادة الله .

وثمة اعتراض كبير على سيطرة السياسة على الدين ، فالحكم الذي يستمد سلطته من الدين قد لا يخضع ، إذ يشق على ملك يعتقد أنه اللسان المعبر عن الإرادة الإلهية التي لا يعترها تغيير أن ينزل عن شيء أو يساير الظروف ، وهو أمر يساعد في الظروف العادية على تسيير دفعة الحكم . ولو كان مبدأ الحق الإلهي للملك مجرد تنميق لطيف في القول لما آذى أحداً ، على أنه لم يكن شيئاً من ذلك عندما أنذر جيمس زعماء رجال الدين الپيوريتان في سنة ١٦٠٤ أنهم إذا لم يمتثلوا هم وأصدقائهم فإنه سوف يطردوهم من البلاط طرداً . وكانت النتيجة أن تنازل ثلثائة من رجال الدين عن معاشهم مؤثرين ذلك أن يمتثلوا لإرادة الملك .

ولا يمكننا فهم حقيقة الصراع الذي بدأ هكذا مبكراً بين الپيوريتان وملكية استيوارت إلا إذا أدركنا عمق الشعور المناهض للكاتوليكية الذي كان يسود في ذلك الوقت ، ذلك الشعور الذي لم يقتصر على غالبية رجال الدين بل ساد لندن والثغور وأفراد الطبقة الكادحة من المجتمع . في هذه المناطق التي عبر الرأي العام فيها عن نفسه ساد الشعور بالخوف والحققد على الكاثوليكية لعدة أجيال ؛ فإن ذكريات شهداء عهد ماري والأرمادا الإسبانية وتدمير الكنائس ضد حياة الملكة العظيمة كانت لا تزال حديثة العهد عندما اعتلى جيمس الأول العرش . وقبل أن تضعف هذه الذكريات جاءت مؤامرة جاي فوكس Guy Fawkes (وقد دبرها بعض السادة الكاثوليك) لنسف البرلمان بمجلسيه . فكانت جريمة نقش في أذهان العامة رعباً

(١) Erastian Church : الكنيسة الإراستية نسبة إلى توماس إراستوس (Erastus, Thomas)

(١٥٢٤ - ١٥٨٣) ، رجل دين سويسري ألماني اتبع عقائد زونجلي ودافع عنها وقاوم محاولات الكلفتيين لفرض النظام البرسبتراري على الكنيسة الزونجولية وفقاً للنموذج الجنيني . ولا مجال على الإطلاق للمشاكل فيما يتعلق بالعلاقات بين الكنيسة والدولة لدى إراستوس ومن ثم كان Erastianism of Westminster ممناه خضوع الكنيسة لسلطة الدولة .

عميقاً لا تزال ذكراه قائمة في بعض المدن والقرى الإنجليزية حين تقوم جموع الناس سنوياً بإشعال حرائق رمزية لحرق البابا .

ويضاف إلى ما ذكرناه من بواعث الحقد والخوف ما كان يحوط مصائر البروتستانت في القارة الأوروبية من قلق وشك في نفوس أبناء دينهم من الإنجليز ، فإن حروب الهيجونوت وصراع الهولنديين البروتستانت الطويل الجرىء ، والمصائب التي نزلت بقضية البروتستانت في بوهيميا والبلاتين أثارت أقوى مشاعر العطف في إنجلترا . وفي عقلية الحرب هذه التي بعثها هذا الصراع بدت بعض النقاط البسيطة المتعلقة بطقوس أو ملاحظات دينية مما قد يبدو تافهاً في عهد أكثر هدوءاً وتسامحاً ، بدت على جانب عظيم من الأهمية حتى ل ترى الكثير يبارحون أسرهم وديارهم ويواجهون عواصف المحيط الأطلسي حتى لا يشهدوا مائدة القديس وقد تحولت إلى أقصى اليمين من كنيسة القرية ، حيث استقرت لتجتر الحقد على القديس الكاثوليكي .

أما المسألة الدستورية فقد كان مدار البحث فيها حول المعين الحقيقي للسلطة العليا : أهو الملك أم البرلمان ؟ وربما كان من الخير أن تلك المسألة العميقة ، مسألة توفيق القوى داخل الدولة ، لم تدرس أبداً على أنها موضوع نظرية فلسفية—ولإنما جاهد فيها رجال عمليون مستندين على مقتضيات الحياة العملية يوماً بعد يوم ، وعلى ضوء السوابق التاريخية . ومن أجل ذلك كان الحل النهائي الذي ألهمت به التجربة الملحة هو تكوين مجلس وزراء يشير على الملك ويحمل المسؤولية عن جميع أعماله أمام البرلمان ، وقد صمد هذا الحل لكافة الأعاصير السياسية ، ويعد أعظم ما استطاعت الحكمة البشرية أن تبدعه لنظام الحكومة الحرة . غير أن الحل كان معقداً غامضاً ، لا تؤيده السوابق التاريخية ؛ وحتى أواخر القرن الثامن عشر عجز الذين صنعوا الدستور الأمريكي عن فهم طبيعة نظام مجلس الوزراء وعمله . وإذا كان رجال السياسة قد أخطأوا مرماه مدة طويلة في عهد أسرة ستيوارت فإن ذلك أمر لا يدعو إلى الدهشة .

وإن الأهمية البالغة لهذه القضية الدستورية تكمن في الحقيقة الآتية : إن السادة أعضاء مجلس العموم قد نما فيهم الاهتمام القوي بكثير من شئون السياسة العامة وخاصة شئون الدين ، ومسائل السياسة الخارجية المتفرعة عن الدين ، والشئون المالية —

وقد وجدوا أنفسهم في هذه الشئون وقد وقفوا معارضين أشد المعارضة للتاج . فتقاليد الإنجليز كانت برلمانية من قديم . أما استبداد أسرة التيودور فقد كان بدعة جديدة ، ولم يقبله الإنجليز إلا لأنه كان ثانياً أمرين أحدهما الحروب الأهلية والغزو الخارجي ، وأيده ما تمتعت به أسرة التيودور من هيبة ومقدرة ومهارة في معالجة البرلمان — وقبل أن تنقضي أخطاء الأرمادا لم يكن لدى البرلمان غير استعداد ضئيل لمقاومة أعمال الملك على حين أنه في أواخر عهد إليصابات جهر الناس بالتذمر الذي أصبح نذيراً بهبوب العاصفة ومن ذلك ما وقع مرة حول مسألة الاحتكارات عام ١٦٠١ عندما تبينت إليزابيث روح الشعب في معارضة أعضاء مجلس العموم فرأت بعين البصيرة أن الحكمة في الإذعان المؤقت . وفي لهجة سامية ، لهجة تبين عن سر سحرها وقفت إليزابيث تعلن عدوها لأعضاء مجلس العموم الأوفياء : « إذا كان الله قد بوأني مكاناً علياً ، فإنني مع ذلك أرى جلال التاج في أننى حكمت مؤيدة بحكم . ومن أجل ذلك لا أرى السعادة في أن الله قد أقامني ملكة بقدر ما أراها في كونى ملكة على شعب جد شكور » .

أما جيمس الأول وهو لا يتمتع بأى قدر من هذه الكياسة الفاتنة وبوجهة نظر تخالف تماماً وجهة نظر الأعيان وعامة رجال القانون في البرلمان ، فلم يلبث أن أفلح في تأجيج أوار معارضة برلمانية شديدة الخطر . كان الملك حاذقاً ومثقفاً وفكهاً ، ومن نواح متعددة أكثر استنارة وإنسانية من كل أفراد شعبه . إلا أنه كان شديد المراس بسبب غروره ، وكان في تقديره للمواقف السياسية من أسوأ من تربعوا من الحكام على عرش إنجلترا في أى عهد من العهود ؛ فقد جانبه الصواب في كل شيء ، وأثار عاصفة من السخط بسبب سياسته الخارجية الودية لأسبانيا وقد اختار من المقربين إليه أولاً روبرت كار Robert Carr ، ثم جورج فيليبز George Villiers وهو دوق بكنجهام Duke of Buckingham ، وكانوا جميعاً موضع السخط العام . كما أثار عليه تجار المدينة ، وتحدى البرلمان في اختصاصاته المالية عندما حاول أن يفرض ضرائب غير مباشرة (أو قروض) مستخدماً ماله من حقوق . وكان له رأى خاطئ في البرلمان ؛ كما بلغت به الحماسة أن صرح به . فأخبر اللوردات وأعضاء مجلس العموم أن امتيازاتهم ليست قائمة على حق وإنما هي منحة

ملكية ، وقال إن مجلس العموم « لا يتمتع إلا بحكمة خاصة ومحلية » . وأعلن بوضوح أن واجب أعضاء مجلس العموم مقصور على إقرار موارد الدولة والتعبير عن آراء ناخبهم ، أما تشكيل السياسة القومية وتنظيم الكنيسة القومية فمن مسائل السياسة العليا التي يبت فيها الملك وحده . وقد أجاب البرلمان على ذلك في عام ١٦٢١ باحتجاج شهير تناول الأسس الجوهرية للقضية العظمى : إن حرية البرلمان وامتيازاته واختصاصاته حقوق أصيلة قديمة لا شك فيها توارثها الشعب الإنجليزي ؛ وإن المسائل الخطيرة والشئون العاجلة المتعلقة بالملك والدولة والدفاع عن البلاد وعن كنيسة إنجلترا ووضع القوانين وصيانتها وإنصاف المظلومين كلها موضوعات ومسائل من اختصاص البرلمان ، يتشاور فيها أعضاؤه ويتناقشون . وقد وجد الملك أن هذه المبادئ تعارض آراءه الدستورية لدرجة أنه مزق تلك الصفحة المهيبة من مضابط مجلس العموم ، وحل البرلمان ثم اتهم سبعة من أعضائه بالخيانة العظمى . وكان جون پيم أول زعيم للثورة الپيوريثانية أحد أولئك الذين عانوا من اضطهاد الملك .

وكان يترتب على التسليم بحرية البرلمان في تشكيل السياسة العامة والاعتراض عليها أن يكون البرلمان أيضاً حراً في عزل الوزراء الذين تعتبر آراؤهم ماسة بالمصلحة العامة . ولكن كيف السبيل إلى تحقيق ذلك ؟ لم يكن هناك من سبيل أصح من تلك الوسيلة القديمة العنيفة المعروفة وهي الاتهام بالخيانة . وكانت تتمثل في محاكمة قضائية في مجلس اللوردات بناء على تهم قد حددها مجلس العموم . تلك طريقة خرقاء غير قانونية وغير ملائمة ؛ فإن أخطاء رجال السياسة لا تنبئ عادة على عذر أو خيانة عظمى أو مخالفة أو غير ذلك من التهم التي تستوجب المحاكمة القضائية وإنما قد تنجم عن خطأ في الحكم أو انحراف المزاج أو في سوء التقدير . ومهما كان لتهمة الخيانة من فائدة منتظرة في نتائجها السياسية فقد كانت غالباً بعيدة عن العدل في إجراءاتها وفي العقوبة التي يحكم بها . ومع ذلك فقد لجأ أعضاء مجلس العموم خلال القرن السابع عشر المرة تلو الأخرى إلى تلك الوسيلة بغية الوصول إلى ما كان يبدو لهم بغير ذلك بعيد المنال ، ونعني استبعاد الوزراء من المتعسفين ومن غير المرضي عنهم . وهكذا بتلك المقرعة الثقيلة استطاع الزعماء البرلمانيون في ذلك العهد أن يمهّدوا الطريق الذي انتهى إلى اصطناع وسائل أخرى مما تأخذ به البرلمانات الحديثة وهي وسائل أخف وأحكم .

كان جورج فليلرز، George Villiers ، دوق بكنجهام، جريئاً مسرفاً رقيقاً لطيف العشرة ، غير أنه في تدبير أمور الدولة كان ناصحاً متهوراً وعنيداً . وكان المستشار المفضل لدى الملك جيمس الأول خلال السنوات الأخيرة من حكمه، كما غدا صديقاً حميماً وناصحاً يعتمد عليه لابنه شارل الذى خلفه على العرش عام ١٦٢٥ . غير أن البرلمان كان عديم الثقة به ، كثير النقد لعمله وقد حاول في النهاية أن يعزله عن طريق اتهمه بالخيانة . وبات زعماء مجلس العموم لا ينتظرون خيراً من الحكومة طالما بقى ذلك المخطوط البهى المتعجرف قريباً من ساحة العرش . على أن المنازعات التى قامت بين شارل والبرلمانات الثلاثة الأولى لم يكن مبعثها فى حقيقة الأمر غير حقيقة واحدة وهى أن الملك قد أصر على تعصيد وزير صمم النواب على خلعه . ولم يكن ثمة عمل أشد مجافاة للحكمة لخلق جو من الماراة من تمسك الملك بصداقته لبكنجهام على أن تلك الماراة قد توارثها العهد الجديد عن العهد القديم . وآية ذلك أن البرلمان قد تخلى فوراً عن عرفه التقليدى منح الملك الجديد ما قيمته ٣٠٠,٠٠٠ من الجنيهات مدى حياته، فاقترح النواب أن تكون هذه المنحة لمدة عام فقط . والواقع أنهم بلغوا فى الاقتصاد حد التقدير كما بلغوا فى ارتياهم حد الإجحاف ، فهم لا يأتمنون دوق بكنجهام فى الأموال العامة على شروى نكير .

ولن نجاوز الإنصاف حين نأخذ على برلمانات العهد الأول من حكم أسرة ستيوارت أنها لم تراع العجز الذى أصاب مخصصات الملك التقليدية نتيجة لهبوط قيمة العملة، بل لأنها كذلك لم تكن مستعدة لرفع الثمن الذى تتطلبه سياستها الخاصة التى كانت تهدف إلى محاربة الإسبانين وإنقاذ الهلاتين ومعاونة الهيجونوت على ريشيليو . غير أنهم لم يكونوا على استعداد مطلقاً لتقديم الموارد التى لا يمكن أن تتحقق بدونها مشروعات من هذا النوع وعلى مثل هذا النطاق. ولو قد قدر لهم أن يضبطوا مصروفات الدولة ويراقبوا سير الإدارة إذاً لتعلموا أن يكونوا أكثر حكمة وسخاء. ولكنهم كانوا يحقدون على كل فلس ينفق . فدفعوا شارل بتقديرهم هذا إلى أن يسلك سبلاً غير دستورية بغية الحصول على المال ؛ دفعوه إلى فرض ضريبة السفن وإلى القروض الإجبارية ثم دفعوه فى النهاية إلى منازعات بلغت من الشدة حدّاً أدى إلى تعطيل الحياة البرلمانية عدة أعوام .

على أن الساسة الإنجليز الذين تصدوا للدفاع عن الحريات الدستورية خلال هذه الفترة كانوا من طراز لانظير له في كافة الدول الأوروبية ، فهم في الغالب كانوا من سرة الريف ، رفقهم قيس من العلوم الإنسانية ، فهم قد فلحوا الأرض ، وطردها الصيد ولعبوا مع ذلك دوراً خطيراً كقضاة للمصلح^(١) في مقاطعاتهم المحلية ؛ وكانت الأصول الهامة للقانون العام الإنجليزي مألوفة لديهم . وعلى الرغم من أنهم كانوا أكثر الهيئات تمسكاً بالنظريات فقد كانوا أشد تشبهاً بالأصول الشرعية . عليهم مسحة من ذلك الوقار الديني السامي الذي امتاز به رجال القانون من الجانسنست^(٢) في برلمان باريس ، بل كانوا أوسع منهم خبرة بالحياة ، وأكثر استعداداً لمقارعة السياسة . كانوا في قرارة نفوسهم رجالاً وقورين سريعي الانفعال ؛ أحسوا بالمسائل العويصة إحساساً عميقاً ؛ وعلى الرغم من أن مجلس العموم قد أصبح عن طريق نظام اللجان أداة جد ملائمة لمعالجة الشؤون الدقيقة علاجاً فعالاً فقد كان ثمة مناسبات اشتهت فيها انفعال الأعضاء حتى استسلموا لسيل من الدموع .

عجز شارل عن سياسة هؤلاء الرجال الذين ملأهم الجهد والنشاط والعناد . ولا يمكن الاستعاضة بالفضيلة والتهذيب عن الإدراك العام الذي يحف به المرح واللين والذي من شأنه وحده أن يحفظ للسياسي مهارته في الأجواء العاصفة . فكان يلجأ فوراً إلى حل البرلمان الذي يضايقه ، وإيداع العضو المزعج بصفة خاصة السجن دون محاكمة . إذ لم يدرك معنى معاملة الخصم الأمين معاملة أمينة ، كما لم يتورع عن استخدام نفوذه العظيم لدى القضاء للحصول على أحكام تتفق مع الرغبات

(١) Justices of the Peace قضاة الصلح : قضاة محليون في إنجلترا لا يتقاضون مرتبات ، يتمتعون بسلطات واسعة في الفصل في القضايا الصغرى ، ويخضعون لعقاب الملك إذا أساءوا استخدام سلطاتهم . كان ولیم الأول أول من عينهم في ١٠٧٦ . وفي ١٣٢٧ عين إدوارد الثالث من يعرفون بالمحافظين على السلام Conservators of the Peace وحددت اختصاصاتهم في ١٣٦٠ .

(٢) Jansenists : الجانسنيون أتباع كورنيلس جانسن Cornelis Jansen (١٥٨٥ - ١٦٣٨) وهو لاهوتي هولندي ينتمي إلى الكنيسة الكاثوليكية . سعى إلى تقويم الحياة المسيحية بالعودة إلى تعاليم القديس أوغسطين ؛ وأسس مذهباً عرف باسمه Jansenism نادى فيه بضرورة التشف والحصول على النعمة الإلهية وقلل من أهمية الشعائر المظهرية مثل تناول العشاء الرباني . وقال إن المبدأ القائل بصمة البابا عن كل خطأ يجب ألا يؤخذ قضية مسلمة . وقد قضى مرسوم بابوي صدر سنة ١٧٠٥ ، وآخر في ١٧١٣ بطرد أتباع هذا المذهب من الكنيسة الكاثوليكية .

الملكية . ومع ذلك فقد تجمعت نذر الخطر : من ذلك اللوردات الخمسة عشر الذين أبوا أن يدفعوا القرض الإجبارى فى سنة ١٦٢٦ ، والفرسان الخمسة الذين أودعوا السجن « بإعلام خاص من الملك » لرفضهم دفع ذلك القرض . وقد احتجوا بعد ذلك فى قضية شهيرة على أنه على الرغم من ذلك كان من حقهم أن يطلق سراحهم بمقتضى قانون Habeas Corpus^(١) ؛ ثم كان هناك تجار لندن وقد رفضوا دفع الضرائب . وأخيراً أصدر برلمان ١٦٢٨ وثيقة ملتزم الحقوق ، وقد وضعت بضغط من سير إدوارد كوك العظيم Sir Edward Coke القاضى الأعلى لمحكمة الدعاوى العامة ، وقد أعلنت عدم شرعية أربعة من أعمال الحكومة وهى : التصريح بالأحكام العرفية ، إيواء الجند والبحارة فى المنازل الخاصة ، جباية القروض والضرائب بدون موافقة البرلمان ، والسجن التعسفى (دون محاكمة) . ولم يكن شارل ليلتفت لأى من هذه الإنذارات . ومن ثم انفجر سخط الشعب فى ٢ مارس ١٦٢٩ .

ورفض مجلس العموم فى الدورة الثانية للبرلمان الثالث أن ينفذ بأمر من الملك . وبقى رئيس المجلس فى مكانه ، وبإشارة من سير جون إليوت John Eliot تلى القرار التالى على المجلس : إن كل من يُدخل فى الدين بدءاً أرمينية أو كاثوليكية وكل من يُشير بجباية الضرائب قبل موافقة البرلمان ، وكل من يؤدى هذه الضريبة يعتبر عدواً للمملكة والمصلحة العامة . وهنا حل الملك البرلمان ؛ وبدأ عهداً من الحكم الشخصى امتد ما يزيد على إحدى عشرة سنة .

وكان توماس ونتورث Thomas Wentworth الذى أصبح فيما بعد إيرل ستراford Earl of Strafford شخصية بارزة بين الزعماء السياسيين الذين شغلوا بمسألة إقرار ملتزم الحقوق . أما الدوافع التى جعلت هذا السياسى القوي الخيالى إلى الانحياز فى بداية الأمر إلى جانب البرلمان ، ثم إلى التحول بجهوده بعد ذلك

(١) Habeas Corpus : أمر قضائى يوجهه قاض إلى شخص ما سجن شخصاً آخر وهو يقضى بإحضار السجين فى موعد ومكان يحددهما القاضى لكى يمثل أمام المحكمة لسماع أقواله . وعرف القانون فى إنجلترا منذ القرن الرابع عشر وأصبح علاجاً لسجن الأشخاص دون سند قانونى . وأجاز البرلمان الإنجليزى عام ١٦٧٩ هذا القانون لكى يدعم الحرية الشخصية فى إنجلترا ويمنع الحكومة من سجن أى شخص دون تقديمه إلى محاكمة قانونية على أثر القبض عليه .

لتأييد الملك، فكانت أقل وضوحاً لمعاصريه مما أصبحت عليه منذ ذلك الوقت . ومن ثم اتهم Wentworth بالردة في آرائه السياسية . على أنه في مجال نضال التحول لا يمكن إطلاق لفظ مرتد إلا على من يتبرأ من الجانب الأصلح من نفسه . ولكن ونتورث لم يفعل شيئاً من هذا . فقد كانت نزعتة الملكية تجرى في عروقه ، على أنه كان كذلك متحمساً للإدارة القوية العادلة الناجحة . فإذا كان في عام ١٦٢٨ قد تزعم المعارضة ضد التاج فذلك لأنه كان لا يثق في سياسة بكنجهام ، ورأى أن الامتيازات قد ذهبت شوطاً بعيداً، كما كان يؤمن بأن البرلمان « هو النظام الكبير القادر على التوفيق الحقيقي بين الملك والشعب » . وإذا كان فيما بعد ، عندما أصبح رئيساً للشمال ثم بعد ذلك أثناء إدارته لأيرلندا قد ظهر كرائد لهذه السلسلة الطويلة من الولاة الذين أنجبهم إنجلترا بعد هذا فإنه بسبب خطورة النزاع البرلماني العنيف قد توصل إلى النتيجة التالية ، وهي أنه من الممكن ائتمان الملك على حكومة البلاد أكثر من البرلمان . وظلت « الرفاهية المشتركة بين الملكية والرعايا » الهدف الأعظم الذي دأب على تحقيقه . على أنه قد توصل إلى النتيجة الآتية وهي أن الدواء الناجع لاضطرابات عصره في اليد الحازمة أو كما كان يلقبها السياسة النافذة .

واستطاع ونتورث أن يعتمد في هذه المحاولة على المعونة الحماسية التي قدمها له أحد ساسة الإنجليز من المرتبة الثانية ولكنه ترك أثراً كبيراً في تاريخ العالم وهو وليم لود . وقد أدت سياسته الدينية إلى تأسيس مستعمرات نيوانجلند في العالم الجديد والثورة المسلحة التي قام بها البرستاريون في أسكتلندا على كتاب الصلوات الأنجليكاني ، الأمر الذي عجل بوقوع الثورة العظمى . على أن الوسيلة التي دفعت إلى حركتين على مثل هذا القدر من الأهمية على جانبي المحيط الأطلسي وهما تأسيس نيوانجلند وخلع شارك الأول لم تكن نتيجة لمهارة لود السياسية وإنما نتيجة الاستياء العظيم الذي أثارته سياسته . ومع ذلك فإنه لا يمكن نكران مزاياه وإن كانت أقل أثراً من أخطائه . فقد جمع بين الذهن القوى وإن كان ضيق الأفق والميل العميق للتقوى وحساسية مريضة بالضمير ، والتحمس لأنواع من النشاط الدقيق المتداخل . والواقع أنه عندما كان في أكسفورد حيث أصلح من شأن الجامعة والكليات كان في مكانه الصحيح ؛ على حين أن محاولته دفع الشعب الإنجليزي إلى قبول طقوس دينية كان

الاعتقاد السائد عندئذ أنها تميل نحو الطقوس الرومانية أندرت بكارثة كان لا مفر منها .

والواقع أن العقوبات التي فرضها ذلك السيد الأكسفوردي النشط القدير على المعارضين الذين رفضوا قبول النموذج الموحد للكنيسة العليا الذي صمم أن يفرضه على الكنيسة الإنجليزية ، تبدو تلك العقوبات خفيفة إذا قورنت بالاضطهادات العنيفة في إسبانيا والأراضي المنخفضة وبوهيميا . حقاً إن ضحايا لود قد حرموا معاشهم ، وفي بعض الحالات المتطرفة حكم عليهم بالجلد وقطع الأذن ؛ ولكنهم لم يُحرقوا قط على القوائم ، أو تقطع رؤوسهم ، أو يعذبوا على آلات التعذيب ، أو يسترقوا عبيداً يحدفون في السفن . ومع ذلك فقد كره جانب كبير من الإنجليز سياسة رئيس الأساقفة إلى حد أنهم بدعوا حركة الهجرة إلى سواحل أمريكا الشمالية . فبات يغادر إنجلترا كل عام من ١٦٢٩ إلى ١٦٤٠ مئتا من الإنجليز سادة وفلاحين وأجراء في الحقول ورجال دين ؛ واستقروا على سواحل « ماساشوزتس » Massachusetts . ولم يكن ذلك لخروجهم على كنيسة إنجلترا وإنما لرغبتهم أن يعبدوا الله على طريقتهم الخاصة في نطاق تعاليم تلك الكنيسة . وهكذا تمخضت سياسة ذلك الأسقف الأكسفوري المتحدلق عن نتيجة عجيبة إذ تمخضت عن ولايات نيوانجلند وقد قدر أنها زودت الولايات المتحدة الأمريكية بربع عدد سكانها . وهكذا جاء أعظم حدث في التاريخ الإنجليزى في عهد شارل نتيجة غير مقصودة لسياسة فاسدة . وقد حمل الهاربون من لود معهم نظم جيلهم وطابعه إلى مستعمرات نيوانجلند . وقد تميزت دائماً مستعمرات نيوانجلند التي أنشئت متلاصقة بثلاثة مظاهر : الكنيسة المقامة لخدمة الجماعة Congregational ، ومجلس المدينة ومدرسة القرية . وهكذا استقرت في أعماق الأرض الأمريكية هذه المظاهر في الحياة الإنجليزية القديمة . وقد بلغ من هذا الاستقرار أنه حين قذف عهد البخار إلى القارة الأمريكية بالملايين من المهاجرين من جهات أخرى من أوروبا حلوا في وطن يخضع سكانه لأحكام القانون العام الإنجليزى ويتكلمون اللغة الإنجليزية ويحتفظون بكثير من المميزات الأساسية للحكومة الإنجليزية .

وقعت الثورة العظمى لأن الأسكتلنديين من سكان السهول الذين كانوا شعباً

حريياً وپرستبارياً في الوقت ذاته قد رفضوا أن يقبلوا كتاب الصلوات الأنجليكاني الذي حاول شارل الأول ومستشاره الآخرق رئيس الأساقفة لود أن يفرضاه عليهم . وقد كانت مفاجأة تامة لشارل الذي لم يكن يعرف شيئاً عن أسكتلندا أن الأسكتلنديين بدلا من قبول الطقوس الأنجليكانية أنزلوا جيشاً إلى الميدان ، عجز سادة إنجلترا المسلمون عن مواجهته سريعاً . وكانت مصنفات العقيدة البرستبارية غامضة على الملك غموض استعداد الأسكتلنديين لمواجهة الحن في المعركة . وعلى حين كان السادة الإنجليز يفلحون الأرض ويطردون العبيد ، ويدبرون الأقاليم ؛ كان الأسكتلنديون من سكان المنخفضات قد احتفظوا بحماستهم للحرب نتيجة للمشاجرات الإقطاعية وجبرتهم لسكان المناطق المرتفعة البدائيين ، وبفضل حميتهم التي أصبحت اختصاص وخبرة المغامرين منهم في الحروب الألمانية . ولقد عجب الإنجليز أن يجرؤ الأسكتلنديون يترعهم « إيرل أرجيل » Earl Argyll في اجتماعهم في كنيسة جلاسجو على رفض كتاب الصلوات الذي كانوا يرونه صالحاً تماماً لهم . على أن ما حيرهم أكثر من ذلك أن تتمكن هذه الدولة المعوزة الصغيرة لساعتها من إنزال جيش إلى الميدان عبر الحدود بينما كان ملك إنجلترا لا يأمل في صده بدون الالتجاء بوجه خاص إلى دعوة البرلمان .

وكانت تجربة البرلمان القصير الذي استدعى للموافقة على الاعتمادات اللازمة لمحاربة أسكتلندا ، ولكنه انفض عقب دعوته تقريباً (١٣ أبريل - ٥ مايو ١٦٤٠) كانت هذه التجربة كافية لتبين للملك أنه لا يستطيع أن يتوقع الحصول على المال إلا إذا كان على استعداد للقضاء على ما يشكو منه الناس . على أنه كان يتحتم عليه الحصول على الذخائر والمهمات ؛ إذ عبر الجيش الأسكتلندي تحت قيادة الكسندر لسلي Alexander Leslie أحد المحتكين في الحروب الألمانية نهر التويد Tweed فاحتل درهام Durham ونorthumberland وطالب بمبلغ من المال ثمناً للتفكير في الانسحاب . ولم يكن في وسع شارل الحصول على المال بوسيلة أخرى غير الالتجاء إلى برلمان جديد . وعندئذ استقر عزم جماعة كبيرة من أمجاد الريف على رأسها جون پيم وجون همپدن John Hampden على أن عليهم على الأقل أن ينتخبوا لهذا المجلس أعضاء يجبرون الملك على رفع المظالم عن الأمة .

لم تقتصر شهرة البرلمان الطويل على إنجلترا وحدها وإنما تعدتها إلى التاريخ العام ، إذ ترتب على وضعه حداً فاصلاً لاستبداد ملوك إنجلترا نتائج بعيدة المدى فيما يتعلق بنمو الحريات البرلمانية في جميع أنحاء العالم . ففي الدورة الأولى لهذا المجلس الذي تملك أعضاؤه الإخلاص والغضب الشديد ، ألغيت المحاكم ذات الامتيازات (غرفة النجم ، ودار القضاء الأعلى ، والسلطات القضائية المميزة لمجالس ويلز والشمال) . وأكد الأعضاء في وقار أن جمع المال عن طريق الهبات أو عن طريق ضريبة السفن دون موافقة البرلمان أمر غير شرعي . ومنذ ذلك الوقت بقيت تلك الحدود التي رسمت سليمة من كل اعتداء . وهكذا ضمن البرلمان بصفة قاطعة منذ ذلك الوقت حقه في إدارة الشؤون المالية ، وتوجيه سياسة الأمة عن طريق الشؤون المالية . وبما لا شك فيه كذلك أنه منذ ذلك التاريخ ظلت الحقوق المدنية للراعي مصونة من تدخل الملك التعسفي .

على أنه لم يظهر في ذلك الوقت من الشواهد ما يؤكد أن هذه المبادئ الرئيسية ستقرر وتدرج في الدستور . إذ كان الجوفيفيض بالشائعات المزعجة . فكان يلزم نخيلة زعماء البرلمان منظر شبح سترافورد Strafford يتقدم نحو لندن على رأس جيش من الإيرلنديين المتوحشين لكي يعيد للملكية سلطانها . ولم يكن في استطاعة ييم وهو القوة المحركة لنشاط البرلمان أن يركن إلى الحرية الإنجليزية ، طالما ظل سترافورد مطلق السراح — لذلك تقدم فرفع عليه دعوى الخيانة . ولما كانت الإدانة لا تبدو مؤكدة . فقد استبدل هذا الاتهام في منتصف المحاكمة الخطيرة بتجريدته من حقوقه المدنية ومصادرة أملاكه . ولكن سترافورد كان من الخطورة بحيث لا يتوقع إنصافاً من خصومه . فإن أعضاء البرلمان الذين حكموا بإعدامه ، والراع الذين راحوا يزعمون حول القصر الملكي في هوايت هول White Hall ، احتشدوا لمشاهدة إعدام من سموه «توم الأسود الطاغية» Black Tom The Tyrant في البرج Tower Hill . إن هؤلاء وأولئك لم يكونوا يفكرون في إقامة العدل إنما كانوا يحرصون على السلامة . وكان إعدام هذا الرجل الجريء الفطن جزءاً من أحداث الحرب وإجراء احتياطياً عنيفاً ، دبر لتلافى شر سياسي مستطير قد لا يتوقع فيه الجميع تهديداً لصالح الدولة . وعلى أثر ذلك سارت الحوادث بسرعة نحو صراع مكشوف . فألزم الملك

بالموافقة على قانون لا يجيز حل البرلمان دون موافقة أعضائه ، وهناك اندفع البرلمان بزعامة پيم مؤيداً من مدينة لندن حيث كان الشعور البيوريتانى جارفاً ، فاتخذ طائفة من الإجراءات والاقتراحات ، كان القصد منها تطوير طابع الدولة . ولإذ كان سخط پيم وأشياعه أكثر انصباباً على الأساقفة ؛ فقد اقترح إلغاء النظام الأسقفى من أساسه وفروعه وأيد الاقتراح التماس وقعه الكثرة من أهل المدينة ؛ وتراءى لپيم أن كنيسة بيوريتانية تحت إشراف مندوبين من أعضاء البرلمان من غير رجال الدين خير من كنيسة أرمنية ، يسيطر عليها موظفون من قبل الملك يؤيدون الاستبداد السياسى ويظهرون نظام الطقوس الدينية . على أن البرلمان تنزعمه هذه القيادة الجريئة ذاتها لم يكن راضياً أن يدعى لنفسه حق إصلاح الكنيسة . ثم كانت الثورة المروعة التى قام بها الكاثوليك الإيرلنديون ، وكان من نتائجها قتل عدد كبير من البروتستانت ، فجعلت مشكلة سيطرة الجيش فى مقدمة المسائل السياسية التى تواجه إنجلترا .

وعلى الرغم من كافة السوابق ، صمم پيم على أن تعيين الضباط بالجيش الأيرلندى يجب أن يكون من حق البرلمان لا من حق الملك ؛ وأصر كذلك على أن يكون وزراء الملك « من الآن فصاعداً ممن يتمتعون بثقة البرلمان » . على أنه إذا أصبح البرلمان صاحب السلطان فى مراقبة المالية والسيطرة على الكنيسة والجيش ومجلس الوزراء فقد غدا بذلك حاكماً على الشعب . وهذا ما لم يكن شارل مستعداً للتسليم به على الإطلاق . وفى نوبة من الجنون صمم الملك أولاً على توجيه تهمة الخيانة إلى كل من الأعضاء الخمسة الذين تزعموا هجوم البرلمان وهم پيم ، وهمدن ، وهزارج Hazlerigg ، وهولز Holles ، وستروود Strode ، ثم القبض عليهم فى ١٤ يناير ١٦٤٢ . ولإذ قصد الملك إلى مجلس العموم « كان الطائر قد أفلت » . ولم يمض على ذلك ستة أيام حتى رأى شارل أن الحكمة تقضى عليه أن يفر كذلك من لندن التى كانت تموج بمجموع الجماهير المعادية .

وفى غضون ذلك الجدل الحماسى المثير تصدعت وحدة البرلمان الطويل تصدعاً لا يرجى له إصلاح بعد أن ظل ذلك البرلمان قائماً طالما كانت القضية موضع النزاع لإعادة التوازن بين البرلمان والملك . فهذا حزب الأسقفية المعتدل ينحاز إلى جانب

الملك متأثراً بالقانون الذى ألغى النظام الأسقى فى أساسه وفروعه (Root and Branch Bill) ؛ وتكونت الأحزاب ، واشتدت الخلافات بينها عندما ظهر أن ييم لم يعد ينادى بما طالب به البرلمان من قبل ، بل كان يرنو فى الواقع إلى السيادة المطلقة . وقدر يومئذ حين اندلعت نار الحرب الأهلية أن ثلاثين من مجلس اللوردات وثلاثمائة من مجلس العموم سيؤيدون دعوى البرلمان .

فأما الشعب الإنجليزى وهو صاحب تقاليد عريقة محبة إلى نفسه من الوثام الاجتماعى فإنه لم ينخرط فى صفوف المعسكرين المتخاصمين من الفرسان وذوى الرعوس المستديرة إلا فى بطء وبعد إحجام مرير . على أن الظروف التى تزود فى العادة الصراع الداخلى بالمرارة أو تطيل أمدته دون داع لم تكن موجودة فى إنجلترا فلم تعاد طبقة طبقة أخرى ، ولم يثر جوع على شعب ، بل لم يضح بالبلاد إشباعاً لل رغبات الراسخة لعصابات النهب والسلب من الجنود المرتزقين . ومنذ بدء الصراع إلى نهايته . كانت راية المبادئ الدستورية تخفق عالية ظاهرة للجميع ؛ كما زود أعيان الأقاليم كلا الخصمين بعناصر القيادة فمن قادة حزب البرلمان كان لوردات سيكس ومنشستر Earls of Essex Manchester واللورد فيرفاكس Lord Fairfax وأوليفر كومويل . كلهم من طبقة ملاك الأراضى . وهذه الأرستقراطية المستنيرة التى تملأ نفوس أفرادها المشاعر الإنسانية من هوة الرياضة الذين يبطئون فى الغضب ، ويسرعون إلى الصفح ، استطاعت هذه الأرستقراطية أن تتزعزع من الحرب أشد سمومها أذى وأن يجردوها من بعض وحشيتها ؛ وإن شروط التسليم السمحة التى قدمت لأكسفورد عند تسليمها فى نهاية الحرب فى ٢٠ يونيو ١٦٤٦ كانت أصح تنويع لمثل هذا النزاع .

تلك حرب استمرت خمسة أعوام كاملة ظفر فيها فى النهاية حزب البرلمان يظاهاه الأسطول والعاصمة ومدن صناعة المنسوجات والمقاطعات الشرقية مما رجح كفته فى الموارد المالية رجحاناً حاسماً . وإذا كان من شأن المال أن يجعل النصر الهائى مكفوفاً إلا أن أثره الكامل كان بطيء الظهور على الرغم من أن حالة البيوريتان المعنوية لم يعتورها أى انهيار . وفى معركة ١٦٤٣ كان فريق الفرسان (حزب الملك) يفوقون خصومهم من حيث استخدام سلاح الفرسان ومن حيث توفر القيادة فى

شخص الأمير روبرت Rupert ابن أخى الملك ؛ فقد كان قائداً من قواد الفرسان الملهمين ، فباتوا خطراً على خصومهم مما اضطرهم إلى الاستعانة بالأسكتلنديين أملاً في ترجيح كفته . وهكذا يضطر قادة الحرب دائماً إلى المجازفة ؛ فإن ييم - في حرصه على أن لا يفلت منه النصر - كان مستعداً لمواجهة احتمال سيطرة جيش أسكتلندى على البرلمان. وجاءت معركة مارستن مور Marston Moor . (٢ يولية ١٦٤٤) وهي أعظم مواقع الحرب ، فبررت القرار الذى اتخذه ييم ، وذلك أن جيشاً مختلطاً من الأسكتلنديين وأهالى يوركشير وأيست أنجليا East Anglia اكتسحوا جيش الملكيين يقودهم الأمير روبرت ، وتمكنوا بذلك من ضم أقاليم الشمال لندوى الرعوس المستديرة ، وهكذا أنقذوا بضربة واحدة قضية البرلمان من الفشل الذريع .

وفي هذه المعارك التى دارت على أرض يوركشير أظهر أوليفر كرمويل لأول مرة بأعماله المحيطة كفاعته البارزة كقائد للفرسان ؛ على أن الفضل في الانتصار إنما يرجع إلى الجوهر الكامن من رجاله (الحديديين) فهم مندفعون أبداً ولكنهم أيضاً رهن إشارته . واعترف البرلمان بعبقريته قائده الجديد . وبالرغم من أن كرمويل كان « مستقلاً » في عقيدته ومتفقاً مع الكنيسة الإراستية Erastian^(١) إزاء المسائل المطروحة ، فقد أفسح له الزعماء البرلمانيون طريق التقدم واستمعوا لنصائحه . وهكذا أغفل أمر الخلافات الدينية مرة أخرى بغية الحصول على نصر حربي . ولو قد منيت هذه الحرب بقيادة رخوة إذاً لاستمرت سنوات عديدة ولنشرت السموم في حياة البلاد . إلا أنها بفضل ما أوتي خلفاء ييم في تسيير دفة البرلمان من الحزم والمقدرة وصلت إلى نهاية سريعة حاسمة ؛ على أن الفضل في هذا النصر كان قسمة بين كرمويل والبرلمانيين في إيجاد تمويل تلك القوة من محترفي الحرب الذين توافرت لهم الرواتب الطيبة والغذاء الصالح ، وهي القوة التى عرفت باسم الجيش النموذجي الجديد الذى كسب معركة نازبي Nasby في ١٦٤٥ ، ثم أهوى بالضربات الأخيرة على الحطام المتناثر من الحزب الملكي . وتمسك المشرعون البيوريتان بتلك القاعدة القائلة بأن الواجب الأول لحكومة الحرب هو أن تكسب الحرب . فذروا في الرياح نزعاتهم الدينية السالفة وعاونوا كرمويل في تكوين الأداة التى ساقطت الملك إلى المقصلة

(١) انظر هامش (١) ص ٢٧٥ .

وأودت بالبرلمان الطويل إلى نهاية محزنة ومخزية معاً .

ذلك لأن هذا البرلمان الذى استطاع أن يكسب الحرب قد بات عاجزاً عن تحقيق الصلح فهو قد اضطهد الملكيين بما فرض عليهم من غرامات معجزة ثم طرد الإكليروس الأنجليكان من وظائفهم ، كما حرم استخدام كتاب الصلوات الإنجليكاني وبذلك أضاع فرصة استرضاء أعدائه المهزومين . بل كان أدعى إلى العجب أن البيورتيان المتحذلقين فى مجلس العموم المظفر نفروا أنصارهم بتعصبهم الأحمق . وقد كان الفضل فى انتصار ذوى الرؤوس المستديرة فى الحرب الأهلية للجيش النموذجى الحديد . وكانت أكثر عناصره من صغار ملاك الأراضي فى المقاطعات الشرقية الذين كانوا يمتازون على غيرهم من القوى البرلمانية بسعة الصدر إزاء كافة المذاهب البروتستانتية . وقد سعى البرلمان الطويل إلى حثفه بظافه حين أخذ فى اضطهاد المذاهب المختلفة ورفض مطالب الجيش العادلة فى المرتبات . فهذا المجلس الذى أظهر العداء لأئمن مظاهر الحياة والحرية فى الفكر البروتستانتي الإنجليزى وعدم المبالاة بخدمات الجيش الذى حقق له النصر ، هذا المجلس لم يعد صالحاً لحكم إنجلترا . وأثار تعصبه الضيق أعظم شخصيتين فى إنجلترا فى ذلك الوقت وهما أوليفر كروميل ، وجون ميلتون Milton .

وفى الصراع الذى نشب وقتئذ بين البرلمان والجيش وقع حادث يصور بوضوح الخلق الإنجليزى ، ذلك أن أياً من الجانبين لم يكن يفكر فى الاستغناء عن الملكية ، بل سعى كل منهما للاستحواذ على شخص الملك ليتخذ منه أداة للمساومة وتسيير إدارة الدولة فى ظل الحكم الملكى القديم المعتاد . وفى المفاوضات الثلاثية التى دارت بين شارل والجيش والبرلمان دافع كل حزب عن بعض المبادئ التى رأى أن البلاد فى حاجة إليها ، وهى إذا طبقت فى مجموعها كفيلة بوضع نموذج لسلام وطيد الأركان فى إنجلترا . فالملك يدافع عن الملكية وكتاب الصلوات الإنجليزى ، والبرلمان يذود عن القانون العام والحكومة المسئولة ، والجيش يؤيد التسامح الدينى ويرجو له أن يمتد فىشمل المخالفين للعقيدة الرسمية من المذاهب البروتستانتية . ولكن شارل لم يقدر له أن يعود إلى الحكم لاعلى يد الجيش لأن الملك رفض شروطه العادلة ، إذ أنه لم يكن على استعداد ليقوم بدور الملك الذى لا يحكم roi-fainéant على أساقفة دون أصول التاريخ الأوربي

سلطان ومذاهب لا يحكمها ضابط ، ولا على أيدي الأسكتلنديين الذين لم يتورع الملك عن طلب مساعدتهم البرستارية .

هنالك أخذ شارل يضرب البرلمان بالجيش ويضرب أسكتلندا بإنجلترا ، مؤملاً على الدوام أن يواتيه بعض الحظ السعيد ، فيتغلب على خصومه ، وكان في مسلكه « تارة امرأة ، وتارة قسيساً ، وتارة أخرى ولدأً ضالاً مدلاً لم يكتمل بعد نموه »^(١) ، قد سمح لكافة الفرص أن تغفل منه حتى أصبحت الحرب الأهلية الثانية سبباً مباشراً لنهايته . فلم يكن في استطاعة الجيش أن يصفح عن اتفاق شارل مع الأسكتلنديين ، ذلك الاتفاق الذي دفع بجيش دوق هاملتون Duke of Hamilton إلى الإغارة على لنكشير ، وهدد بإقامة ملكية برستارية في إنجلترا تؤيدها حراب الأسكتلنديين . وإذا عاد كرمويل من الشمال عقب واقعة پرستون Preston مال عقله إلى تأييد القرار الحازم الذي اتخذته الجيش وهو أن هذا « الرجل الدموي » ينبغي إبعاده . ثم أزاح كرمويل العقبات التي أقامها البرلمان في سبيله مستخدماً وسيلة التطهير الجافة التي قام بها برايد Pride ، وبذلك ساق الملك إلى ذلك المشهد الختامي أمام قصر هوايتهول ، ولكنه بذلك أعاد إلى الإنجليز ولاعهم للملكية حين أنزل شارل إذ أن سوقه إلى الموت . قد أنزله منزلة الشهداء والسادة من عظماء الإنجليز وأحله تماماً من آثامه العديدة : ولقد خابت تكهنات المتنبيين بقصر حياة الجمهورية التي أقامها قتلة الملك ، فهم قد أخطأوا التقدير الصحيح للنشاط أو التنظيم الذي جاء مجرد نتيجة لحرب أحسن القادة قيادتها . فإن جميع مرافق الحكومة الإنجليزية قد اتسعت بسبب المحنة التي منيت بها البلاد كما عمت الدهشة أوروبا حين رأت أن الجمهورية الجديدة لم تنل منها أو تنهك قواها هذه الحرب الأهلية التي استمرت خمسة أعوام ؛ بل إن إنجلترا لم تكن في مواردها المالية أو قوتها الحربية أقوى منها في أي وقت مضى بل ألهبها نار الحماسة والكفاح والهجوم ، وهو شيء غريب لم يألفه المزاج العادي للشعب الإنجليزي . لقد انشغلت الجمهورية بالمعارك وإراقة الدماء ، فأخضع كرمويل كلا من أيرلندا وأسكتلندا ، كما شن حرباً عدوانية على الهولنديين أولاً ثم على الإسبانيين . وفتحت جمايكا ودنكيرك وضمتهما إلى إنجلترا . وهكذا انعقد

لإنجلترا لواء الزعامة للمرة الأولى والوحيدة بين دول أوروبا العسكرية . وكتب القائد تورين عشية معركة الدن Dunes التي جعلت دنكرك من نصيب كرمويل ، « إلى رأيت الإنجليز . إنهم أبدع جيش في حيز الإمكان »^(١) (يونية ١٦٥٧) . ولم يكن في وسع أى جيش في أوروبا أن يبارى جنود أوليفر كرمويل ذوى المعاطف الحمراء في أساليبهم وأنظمتهم وتجاربهم . وقد كانت حملاته على إيرلندا وأسكتلندا جزءاً من خطة عامة تستهدف تأمين سلطان الجمهورية اليبوريتانية في كافة أنحاء الجزائر البريطانية بحيث يعجز الكاثوليك أو أتباع أسرة استيوارت عن قاب النظام الجمهورى . وفي معركة قصيرة قاسية (أغسطس إلى أكتوبر ١٦٤٩) استطاع كرمويل أن يسجل اسمه بحروف من الدم في حوليات أيرلندا . فقد أراد كما أراد من قبل سترافورد Strafford وجميس الأول وإلصابات أن يجعل من الأيرلنديين شعباً إنجليزياً پروتستانياً . على أنه وإن كان قد ماثلهم فيما انتهوا إليه من فشل ، إلا أن نتائج فشله كانت أبلغ ضرراً إذا قيست بعظمته وسعة إدراكه . فلم يسفر استعمار كرمويل لأيرلندا إلا عن مزيد من الأضرار ؛ فهؤلاء أهل أيرلندا — وقد أجلوا عن ديارهم ليخلوها للجنود والمضاربين في الأراضي من الإنجليز — لجأوا إلى المستنقعات الموحشة في كونوت Connaught ، حيث توجد سلالتهم إلى اليوم . وعلى الرغم من الجهود التي بذلت في تلك البقاع المزدهمة ، فهي ما زالت تمثل صورة من الشقاء المادى لا نظير له في أى بقعة أخرى من الجزائر البريطانية ؛ على أن استعمار كرمويل قد غرس المقت في نفوس المواطنين الأيرلنديين للعقيدة البروتستانتية التي كان يرغب في نشرها بينهم وقد أدى ذلك إلى مذابح دروجدا Drogheda ووكسفورد Wexford ودفعت إلى هجرة الألوف من الأسر الكلتية البسيطة لتخلى الطريق لأرستقراطية أجنبية من الملاك ؛ وهذه الوحدة البرلمانية القصيرة الأجل أفسحت للأيرلنديين البروتستانت ثلاثين مقعداً في البرلمان الإنجليزى لم يكن من شأنها أن تعرض شيئاً من هذه الآثام .

وكذلك كان الخضوع العسكرى الذى فرض على أسكتلندا عام ١٦٥٢ ناشئاً عن ظروف الحرب الأهلية في إنجلترا . حقاً إن الأسكتلنديين قد صمدوا في رفضهم

كتاب لود للصلوات إلا أنهم لم يميلوا إلى جانب المنشقين الذين أعدموا الملك الأسكتلندي . فرحبوا بشارل الثاني وتوجوه في سكون Scone ملكاً على أسكتلندا . ثم ألزموا ذلك الشاب المترف الذكى وهو أكثر الراغبين عن دينهم إباءً ومراوغة بالولاء لحلفهم وتقاليدهم الموقرة . ولكن كرمويل في معركة دنبار Dunbar وورستر Worcester ، استطاع أن يقضى على كل أمل في إعادة الحكم للأسرة ستيوارت بمعاونة أولئك البرسبتاريين المتجهمين (٣ سبتمبر ١٦٥٠ - سبتمبر ١٦٥١).

هنالك تجرعت أسكتلندا نصيبها من دواء كرمويل ، وهو إن كان أقل عنفاً من النصيب الذى خص أيرلندا إلا أنه خلف مع ذلك مذاقاً مرّاً . كان كرمويل من أكبر أنصار الوحدة — وآية ذلك أن أصبحت إنجلترا أو أسكتلندا وأيرلندا للمرة الأولى تحت حكمه فى ظل برلمان واحد . وقد كان حدثاً جديداً منذراً بالويل عندما استوى حامى حمى الجمهورية أمام العالم سلطاناً لا يحكم على إنجلترا وحدها بل على بريطانيا العظمى بأسرها . ولكن اتحاداً قد عمد بدم العنف لا يمكن أن يقدر له البقاء . وهكذا انهار الصرح الذى شاده كرمويل قبل أن تستطيع السياسة المدنية تخفيف حدة الغزو الحربى . فلم تكذ الملكية أن تعود حتى عادت البرلمانات القديمة سيرتها من جديد فى دبلن وإدنبرة وعادت الأحقاد القديمة تتابع سيرها الذى لا يرجى من ورائه خير وأبطأت حركة الوحدة الحقيقية حتى فى الجهات التى لم يكن الدين فيها عائقاً . وفى كل مكان وقف الكاثوليك والبروتستانت وجهاً لوجه ظلت الهوة المظلمة قائمة وانقضى سبعة وأربعون عاماً قبل أن يتفق الإسكتلنديون والإنجليز على أن يتفقوا ؛ أما أيرلندا فكان عليها أن تنتظر حتى عام ١٩٢١ بعد أن اجتازت هزات الحرب العالمية لكى تصل إنجلترا وأيرلندا الكاثوليكية ، بصعوبة ، إلى اتفاق على الاختلاف ، على الأقل بالنسبة إلى ذلك الوقت وإرلندا الكاثوليكية على الانفصال .

أما فيما وراء بحر الشمال فقد كانت تقوم الجمهورية الهولندية ، وتربطها بقتلة الملك من الإنجليز صلات تقوم على التشابه فى نظام الحكم الديمقراطى والحرص المشترك فى الدفاع عن المذهب البروتستانتي حتى باتت فكرة التحالف بين الإنجليز والهولنديين فى شكل من أشكال الاتحاد السياسى أمراً طبيعياً بحيث أصبح بالفعل

موضوع المفاوضة بين الطرفين ؛ ولكن الهولنديين كانوا ينافسون الإنجليز في البحر ، و ينافسونهم التجارة . ومنذ أن زوجوارئيس جمهوريتهم الأخير وليم أورانج . William of Orange (المتوفى ١٦٥٠) من ماري كبرى بنات ملك إنجلترا أصبحوا على العموم على صلات ودية بتلك الأسرة التي كانت مبعث الخوف لقتلة الملك . ولم يلبث كلا الشعبين ، رغم ما ربط بينهما من وشائج كثيرة ، أن باعدت بينهما الفرقة كما تباعد العاصفة الهوجاء بين السفن . وقد عمّ تجار أمستردام السخط حين علموا بإصدار برلمان إنجلترا قانون الملاحة في ١٦٥١ الذي يقضى بالألا تحمل السلع الإنجليزية على سفن أجنبية ؛ وكان الهدف المباشر من ذلك منع الهولنديين من نقل التجارة . ولم يكن شعور الإنجليز أحسن من ذلك حيث كان يُنظر إلى الأراضي المنخفضة على أنها وكر للمؤامرات وللخاطرين من الفرسان . وإلى كل ما ذكر من أسباب العدواة زادت الغيرة ثم التنافس بين قهتين بحريتين متعادلتيْن في البحار الداخلية فازدادت العلاقات بينهما خطورة حتى أدت إلى حالة تجعل اشتعال نار الحرب متوقفاً لأتفه حادث . من ذلك أن امتناع الهولنديين من أداء التحية للعلم البريطاني كان نذيراً بصراع بحري عنيف بين أسطولين عظيمين يقودهما أمهر رجال البحر ، أصاب فيها كل من ترومب Tromp و بليك Blake حظوظاً متوالية من النجاح والفشل . على حين أصيبت الأراضي المنخفضة في تجارتها الخارجية الواسعة الانتشار بخسائر متفاوتة - ومنذ الحرب الأولى من الحروب الثلاث التي قامت بين إنجلترا وهولندا أخذت الأراضي المنخفضة تنهار كقوة عالمية . ولم يكد كرمويل ينهي تلك الحرب بمعاهدة ١٦٥٤ حتى مضى في طريقه بالتدريج إلى تلمس الملابس الدبلوماسية الأكثر موثاقاً لضمير البروتستانت . وفي النهاية اتحد مع السويد وفرنسا واستأنف بذلك النزاع التقليدي مع إسبانيا الكاثوليكية .

وقد أخذ على كرمويل أنه ألقى بثقل إنجلترا وقوتها العسكرية والبحرية في كفة النضال ضد إسبانيا وكان عليه - في نظر القادة - أن يحذر تفوق فرنسا الذي آذن بالظهور ويعمل مع كبح جماحه ؛ إلا أنه لم يفعل ذلك . وفي تلك الآونة الفريدة التي توافرت فيها لإنجلترا القوة الحقيقية وجهت قوتها تلك توجيهاً خاطئاً ؛ ولكن الحكمة لا تدرك بسهولة إلا بعد أن يقع الحادث . في ذلك الوقت كان يمكن أن يقال الشيء الكثير

للدفاع لا عن التحالف مع دولة لو تركت معادية لاستطاعت بتأييدها للملك المنفى أن تكون مصدر أذى ، هي دولة عرفت في سياستها الخارجية التقليدية بالانحياز لحانب البروتستانت . يضاف إلى ذلك أن أطماع لويس الرابع عشر الخطيرة لم تكن قد ظهرت بعد . ولو قد عاش كرمويل عقداً من سنوات آخر لربما وقف وقفة البطل المدافع عن الحريات البروتستانتية في أوروبا ضد التعصب العدواني لفرنسا الكاثوليكية (ولسبق ذلك ولیم الثالث في الدور الذي قدر له) .

على أن ثمة جانباً واحداً من سياسة كرمويل الخارجية تمشي مع المصالح الدائمة لبريطانيا ، وهو التحالف الإنجليزي البرتغالي الذي بدأ منذ سنة ١٦٥٤ والذي أتاح للأسطول الإنجليزي استخدام ثغر لشبونة البديع . فقد كانت لشبونة مفتاح البحر المتوسط وفيها كانت الأساطيل الإنجليزية ترمم ويعاد شحنها بالمؤن ؛ وأمنت بذلك الدفاع عن جبل طارق ، ومكنت إنجلترا قبل عهد البخار أن تحتل مكانتها كإحدى قوى البحر المتوسط ، وكم أبدى الأسطول البريطاني من شجاعة في مستهل هذا الدور حين مضى أسطول بليك يطارد الأمير روبرت وجماعته ومرّ بتسكانيا والبابوية مطالباً إياهما بالتعويضات ، وضرب تونس بالقنابل ، ورفع العلم البريطاني فوق مياه مالطة والبنديقية وطولون ومرسيليا ! وهكذا قبل أن تظهر بوقت طويل حاجة بريطانيا إلى هذه السلسلة الممتدة من القواعد البحرية على طول الطريق البحري إلى الهند أظهر بليك بطل البحار في عهد الجمهورية الذي لا تزال صورته ماثلة في كلية وادهام Wadham College في أكسفورد ، أظهر مدى السهولة التي يمكن أن يتحقق بها مثل هذا العمل الخطير .

ولئن كان عهد الجمهورية والدكتاتورية قد زخر بالمناقشات السياسية والتجارب الدستورية ، إلا أنه ينبغي اعتباره فترة فراغ في تاريخ الشعب الإنجليزي الداخلي أكثر منه مساهمة في تقدمه ، ذلك لأن الأعمال التي بدى بها أو التي تمت في عهد الحكومة غير الملكية لم تعمر بعد ذلك . ولم يكن في استطاعة أوليقر - كما قيل حقاً - أن يحكم بالبرلمان أو بدونه . فقد استحال عليه بحكم طبيعته أن يكون من عشاق الحرية أو حاكماً دستورياً ، واضطره العنف الأحداث الثورية إلى حكم البلاد حكماً عسكرياً ، وهو حكم لم تكن له جذور من رضى الشعب . ولو قد

استفتى الشعب في حرية في أى وقت بعد إعدام شارل الأول إذاً لأعاد الملكية إلى إنجلترا . لكن كرمويل لم يكن في وسعه أن يسمح بمثل هذه الحرية . لقد كان ثمة أمور جوهرية لم يقبل فيها مناقشة خشية المجازفة بأنهم يار كيان الدولة كله ؛ نذكر منها على سبيل المثال مركزه وتساعده إزاء اتباع المذاهب البروتستانتية المنشقة ، وعليهم كانت تعتمد قوته ! ولكن هذه الأمور بالذات كانت مما يرغب بكل برلمانى في مناقشتها . ولو قد وضع كرمويل التاج على رأسه كما أراد غالبية أعضاء مجلسه من المدنيين وعدد كبير من معتنقى المذهب الرستبارى في لندن إذاً لاستقام هذا الوضع الملىء بالشذوذ والارتباك واتخذ شكلاً قانونياً يجعله مقبولاً في نظر رجال القانون — ولكن النظام الجمهورى حتى بعد أن توجهت الانتصارات في البحر والبر ظل في نظر شعب عاطفى محافظ كالشعب الإنجليزى أشد غموضاً وأكثر إزعاجاً من الملكية القديمة . على أن أوليفر وإن كان قد بعث مجلساً وهيباً للوردات فإنه قد نفر من طقوس التتويج التقليدية ، وقد يكون ذلك بدافع من كبريائه وقد يكون عملاً أملتة الحكمة أو إحساس دقيق بسلامة الأشياء . وهكذا مات ذلك الرجل العظيم حامياً حمى الجمهورية ، مخلفاً أخلد ذكرى لحكمه البيوريتانى ، وهو بغض الشعب الإنجليزى للجيوش الدائمة باعتبارها عدواناً على الحريات المدنية وهو أمر تميز به الشعب الإنجليزى منذ زمن بعيد ولا زال ماثلاً في القاعدة الدستورية التى تجرى بأن الجيش لا يقوم إلا على أساس الإنفاق عليه من عام لآخر .

إن السنوات الأخيرة من حكم أوليفر قد سادتها مرارة البغضاء من جانب الإنجليز وقد قسمت إنجلترا إلى أحد عشر قسداً خضع كل منها لضابط محلى كبير . ولم يقتصر واجبه على حفظ النظام بل كان عليه أيضاً أن يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر . ولم تنس البلاد سريعاً ، كما لم تصفح عن أعمال البغى الصغيرة التى ارتكبتها أولئك الطغاة من البيوريتان ، (ومنهم كثيرون عرفوا بوضاعة الأصل وسوء التربية) الذين قضوا على ما كان يهواه الناس من رياضة وأثقلوا كاهل نبلاء الريف بالمغارم الجديدة . وقبل أن يلفظ أوليفر كرمويل آخر أنفاسه بوقت طويل كان الشعب الإنجليزى المؤثر للمتعة يصبو للخلاص من تلك القبضة الرهيبة التى فرضها عليهم فرضاً حكم قائم على التقى والورع .

كتب يمكن الرجوع إليها

- S.R. Gardiner : History of England. (1875)
- G.M. Trevelyan : England under the Stuarts. (1904)
- W.H. Hutton : William Laud. (1895)
- Lady Burghclere : Earl of Strafford.
- Lives of Oliver Cromwell : C.H. Firth, (1900). John Morley, (1900).
John Buchan, (1934)
- T. Carlyle : Oliver Cromwell (1845-1846)
- T. Carlyle : Historical Sketches Ed. Alexander Carlyle. (1898)
- C.E. Wade : John Pym. (1912)
- W. Notestein : The Winning of the Initiative by the House of Commons (Proc. Brit. Ac.,) (1918)

الفصل العشرون

زعامة فرنسا

لويس الرابع عشر - طابع إمبراطوريته - سياسة كولبير - المشروعات البحرية لا تجتذب فرنسا كثيراً . تنسيق جزئي للشرائع في فرنسا - كبت الحريات - المحالفة الفرنسية الإنجليزية - حدود فرنسا الشرقية . حرب الاستحقاق - المحالفة الثلاثية - معاهدة دوفر - معاهدة نيمجن Nimuegen ١٦٧٨ - لويس في ذروة سلطانه - شارل الثاني ولويس - اعتلاء جيمس الثاني عرش إنجلترا - إلغاء مرسوم نانت Nantes - الثورة الإنجليزية ١٦٨٨ - انتصار ولیم الثالث وسوء تقدير لويس - ميزات إنجلترا - حرب حلف أوجزبورج Augsburg .

كانت أوتقراطية لويس الرابع عشر التي تعكس حمية الشعور القومي الصاعد في فرنسا الحقيقية المسيطرة على تاريخ أوروبا منذ أن انفرد الملك بالسلطان عام ١٦٦١ حتى موته ١٧١٥ . وكما أن أسرة التيودور قد جلبت السلام لإنجلترا عقب الاضطرابات التي أثارها حرب أهلية طويلة مما دعا إلى زيادة الترحيب بها ؛ كذلك كان حكم لويس الرابع عشر المديد بداية عهد أمان لفرنسا من الغزو الخارجي ، وخلاصها من أخطر أنواع الفوضى الداخلية التي استمرت حتى وقوع الثورة الكبرى ١٧٨٩ . فلم يعد سلطان التاج يتحداه النبلاء الثائرون يتزعمهم ملك إسبانيا كما حدث في عهد الحلف الكاثوليكي وفي حربي الفروند ، ولئن كان نبلاء فرنسا لا يزالون يحتفظون ببعض الإعفاءات المالية التي ميزتهم عن العامة والفلاحين ، فقد قلمت أظفارهم ، وجردوا من سلطانتهم الفخمة ، واجتذبتهم البلاط ثم شدتهم إلى فلكه البراق . وهكذا تخلى أشد النبلاء عتواً عن استقلالهم في جو قرساي البيزنطي كما فقدوا اتصالهم بالشئون المحلية ، وهوواً إلى مستوى ندماء الملك في تأمرهم ونفاهتهم وعبوديتهم .

كان لويس أول ملك فرنسي جعل من الملكية مهنة جدية . فقرر منذ الوهلة الأولى ألا يدع وزيراً أو صاحب حظوة يوجه شئون الدولة العليا . فقد كانت الملكية في اعتباره مهنة بلغت من السمو والنبيل والمتعة « حرفة عظيمة نبيلة فاخرة » بحيث لا يمكن أن يقاسمه فيها أحد ؛ فهي وظيفة إلهية ، ائتمنته العناية الإلهية

نائباً لها ، استحق بما اختص به أن يكون جديراً بالرسالة الشريفة . كانت له عين نافذة ومظهر فخم وكياسة في مجال النشاط ، وجمع إلى هذا كله عادة ثابتة من الجلد والمثابرة وذاكرة قوية وقدرة على استخدام قرائح الرجال الأكفاء ، وعلى الرغم من قوة عواطفه البهيمية كان يعمل ست ساعات من كل يوم ؛ ولم يسمح على الإطلاق لمسائل الحب أن تتدخل في شئون الدولة العامة . فكان الواجب يأتي دائماً في المقدمة ، الواجب كما يفهمه بمعناه الواسع ؛ كالعامل في سبيل تحقيق الغايات العظيمة المؤدية إلى عظمة فرنسا وشهرة عاهلها ؛ إذ أن الأمرين شيء واحد : « فحين يضع الملك الدولة نصب عينيه فإنه يعمل لنفسه » بذلك وصي ابنه . وهكذا كان من النادر أن يرى لويس وقد لاحت الابتسامة على وجهه الرزين الذي لوحته آثار الجدرى تحت شعره الطويل المستعار ، حين تحدث خصمه سان سيمون St. Simon الذي شهد سنواته الأخيرة المتداعية عن « القلب الذي لم يحب أحداً على الإطلاق ولم يحبه أحد » وإنما مرجع ذلك أن لويس الرابع عشر كان الملك المحترف الذي لم يلحقه يوماً بصيص من المرح أو نعمة من الغموض ، وإنما مضى في جد ورزانة وتحفظ وأنانية يحمل على كاهله القوى المكتنفة ذاتياً أعباء الدولة الجسام .

ويقابل هذا الشعور الحازم بالواجبات العامة أوجه القصور في مزاجه وقد كلفته غالباً . فكثيراً ما اعترته نوبات من العجلة السريعة والكبرياء المحزج بالغرور فقضت على أحكم الخطط المدبرة ؛ وهذا العامل الذي بدأ أحياناً آية في التدبير الهادئ وبعد الروية ، تجده أحياناً أخرى وقد اندفع في عمله تحركه عواهل عنيفة من الحسد أو الجشع أو الاحتقار . وقد كتب — لصالح ولده — معلقاً على معاركه الحربية الأولى : « إن سلطاني الطبيعي وشبابي المتدفق ورغبتي الجارفة في رفع صيتي — كل أولئك قد ملأني شعوراً قوياً بالعجلة » . وهو قد تحرق شغفاً إلى مجازاة قواد عصره العظام . فيما قاموا به من جلائل الأعمال : « بل ربما إلى تخطي بعض المشروعات التي اعتبروها غير قابلة للتحقيق — ولقد كانت لكسمبورج Luxembourg ونامور Namour ومونز Mons ، وغنت Ghent وبروكسل ماثلة أمامي على الدوام » . ولم تخفف تقدم سنه المتقدمة من حدته . فقد استمر

حتى النهاية يتعشق العظمة ويمقت البروتستانت ، وهي أهواء وإن مجدها مواطنوه تمجيداً كبيراً . أقحمت فرنسا في حرب مضنية دامت أربعين عاماً ؛ فقادت بها بذلك إلى الخراب وكلفت البشرية غالياً .

وكانت ملكية لويس الرابع عشر باتساعها وأهبتها وقوتها المنظمة شيئاً جديداً على أوروبا . حقاً إن إمبراطورية شارل الخامس كانت أكثر منها اتساعاً ولكنها كانت دونها اندماجاً وكفاءة ودونها قدرة على إثارة خيال العالم . وفي فرنسا — على عهد لويس — وجدت القومية أكل تعبیر عن نفسها دون أن تخفف من حدتها منظمات عالمية أو تعوقها مشكلات عنصرية ، ووجدت الملكية ، كفن ، أعظم مثلها البراقة ، ووجدت الإدارة كقوة موجهة ومديرة مثالا الأول الحقيقي في أوسع صوره . ويدين الملك خاصة في تحقيق هذا الجهد وزراء تلقوا تدريبهم في عهد سابق . وكانت الفترة الأولى من حكمه عصر عظماء العاملين في شئون الدولة . فلمع اسم هيوغ دى ليون Hugues de Lionne (١٦٦٣-١٦٧١) في الدبلوماسية واسم كولبير (١٦٦٩-١٦٨٣) في الصناعة والتجارة والتنظيمات البحرية ، واسم لوتلييه Le Tellier وابنه لوڤوا Louvois (١٦٧٧-١٦٩١) في الحربية ؛ ولم يكن هؤلاء عمالاً قادرين مهرة فحسب ، بل كانوا ذوى جمية للابتكار والتحسين ، فانطبعت آثار ذكائهم على أنظمة الدولة . ولم يكن لويس ذاته في حبه للتملق المتصل خبيراً بأقدار الرجال . فلما زال جيل العمالقة الأول خلف من بعدهم خلف من الموظفين أصغر شأناً وأحط معدناً . إنه الانتقام الإلهي من الحكم الاستبدادي في كل زمان ومكان حين تعوزه نسمات الحرية المنعشة ؛ فيتوقف إن أجلا أو عاجلا عن الإفادة من أجل خدمات الرجال المصلحين وأعلامهم قدراً .

كان كولبير أحد رجال الدولة الذين ازدانت بهم السنوات الأولى من حكم لويس الرابع عشر ، وهو شخصية لا مثيل لها في المرتبة والامتياز . فكان هذا الوطنى البارد الطبع الحازم الذى لا يشرب غير الماء القراح بما اتصف به من همة شاملة عظيمة وإدراك للتفاصيل ومقدرة على التغلب على الصعاب وإنجاز للأمور يعدل مجلس وزراء بأكمله من الرجال العاديين . وقال عنه جوسران M. Jusserand « لم يحدث قبل كولبير أن أحداً قد أدرك بوضوح قيمة البحرية

والتجارة والمستعمرات والمالية السليمة ، وأهمية تحسين وسائل المواصلات بالطرق البحرية والأنهار والقنوات » . فأعلن لنبلأء فرسأى التافهين الغارقين فى اللهو المبدأ القائل بأن عظمة البلاد إنما تتوقف على ثروتها وأن ثروتها تتوقف على العمل . ومن أبرز مقومات شهرته أنه خلال حياته الطويلة العاملة أخذ يبشر فى إصرار وشجاعة بحقيقة لم تمل إليها قلوب الناس وقتئذ وهى أن قوة الأمة لا تقوم بالأزياء البراقة التى يرتديها الجند وإنما تقوم بالصناعة والتجارة والزراعة والخدمات التى تؤديها بحق تلك الطبقات من المجتمع التى كان ينظر إليها على العموم عندئذ باستخفاف وازدراء .

ولسوء الطالع كان كولبير يعمل متأثراً بنظرية خاطئة شاعت فى ذلك العهد وهى أنه لا يمكن الوصول إلى ثراء بلد ما إلا عن طريق إعواز بلد آخر . فهو لم يكن يرى فى التجارة الدولية تبادلاً للسلع والمنافع يعود بالخير على كل من الجانبين ، بل رآها معركة للحصول على المال ، ربح دولة فيها خسارة للأخرى . ولما كان قد قدر أن عشرين ألف سفينة تكفى لنقل تجارة غرب أوروبا ، وأن كلا من فرنسا وإنجلترا وهولندا تسهم بدرجات متفاوتة فى تقديم هذه السفن ، فقد توصل إلى النتيجة التالية : وهى أنه لا يمكن لتجارة فرنسا أن تتسع إلا عن طريق إضعاف أساطيل كل من منافستها التجاريتين . ومن العجيب حقاً أن رجلاً تميز بمقدرته النافذة يقع فريسة لتصور صبيانى فيفترض أن ثروة أوروبا محدودة أو أن قوامها من الذهب . ونتيجة لفلسفته هذه الخاطئة فى التجارة وقعت الكارثة حين انساق كولبير إلى تقديم تأييده فى الحرب الهولندية التى تسببت بدورها فى مشاحنات أخرى مما أدى إلى هدم صرح الرفاهية التجارية الذى كان تشييده هدف حياته الأساسى .

ومما يؤثر للويس الرابع عشر أنه ظل يؤيد ذلك الإدارى الجاف المدبر حتى مماته عام ١٦٨٣ ، ذلك الوزير الذى شبهته مدام دى سڤينييه de Sévigné بثباته وبروده فى سبيل الوصول إلى هدفه بالنجم الشمالى . ولكن غيرة كولبير الوطنية كانت أمراً لا سبيل إلى إنكاره . إذ كان هدفه ألا يستخدم العالم أجمع فى سبيل مجد فرنسا وملكها .

وقد تركت الوسائل التي استخدمها كولبير في تنفيذ سياسته الواسعة آثاراً عظيمة في عصره كما انطبعت عميقة في صميم الحياة في فرنسا ، كان كولبير مفتوناً بنزعة الإنسان الكامل نحو التنظيم . ولم يفلت شيء من نظراته اليقظة النافذة حتى الفنون والآداب والصناعة والتجارة . وقد تزايدت المكوس التي فرضها على التجارة إلى درجة عطلتها في النهاية . وكانت تنظيماته من الدقة بحيث قصت على مصادر شملت كل نواحي الصناعة . وقد امتدت يده الصارمة إلى أبعد مدى حتى تناولت أبعد ممتلكات التاج . فمن العيب أن يشد المستعمرون الفرنسيون رحلهم عبر المحيط الأطلسي إلى كندا ، أو يضربوا في الطريق العاصف حول رأس الرجاء الصالح للوصول إلى الغابات الاستوائية في مدغشقر ليقتلوا من كولبير ؛ إذ وضعت على شواطئ السين مجموعة معقدة من القوانين لتنظم الحياة في المستعمرات الملكية فرددت في هذا التيه التفاوت القائم في فرنسا الإقطاعية . وعلى حين كان مستعمرو نيوزيلند يتنسمون عبير الحرية ، كان المجتمع في المستعمرات الفرنسية مضيقاً عليه الخناق وخاضعاً لرقابة كل من الكنيسة الممعة في كثرلكتها والملكية المطلقة . وقد بلغ من قلة إدراك كولبير لقيمة الحرية في تنمية الاستعمار ، أنه كان يلزم الأهالي والمستعمرين على حد سواء ، حتى في مدغشقر بأن يسووا منازلهم وفق ما جرى به العرف في باريس .

وعلى الرغم من هذه العقبات فإن كولبير قد أمد حركة الاستعمار بحافز قوى ، وإن فرنسا لتدين إلى حد كبير لهمته وإرادته بما كانت تمتلكه عند بداية القرن الثامن عشر من مستعمرات في أمريكا الشمالية ، ومصائد للأسماك في نيوزيلندلاند ، ومزارع في جزر الهند الغربية وفي مدغشقر ومحطات تجارية في الهند . كان ذلك كله إراثاً مجيداً لم يقدر حق قدره ، ولم يدافع عنه كما كان ينبغي . ولو أن الفرنسيين قد واصلوا — بحافز من روح كولبير — تأسيس الترسانات في فرنسا لكان من المحتمل أن العلم المثلث الألوان لا يزال يرفرف اليوم على قلعة كوييك وأن تبقى بعض أجزاء الهند على الأقل ضمن ممتلكات الجمهورية الفرنسية .

كانت مفاسد النظام المالي عميقة الجذور في فرنسا بحيث تعذر إلزالتها حتى على هذا الوزير الكفء . فاضطر كولبير أن يقبل أسلوباً من الضرائب من شأنه

التفرقة بين أقاليم فرنسا وإعفاء النبلاء من الضرائب ، والاحتفاظ بذلك النظام الفاسد ، نظام تلزيم الضرائب وبيع وظائف الحكومة مما شجع على اختلاس أموال الدولة . وهكذا بينما أدت الإدارة الصالحة إلى ازدياد موارد التاج زيادة عظيمة ، فإن طريقة جبايتها قد بددت كثيراً من أموال الدولة ، كما وقع العبء الأكبر — في تقديرها — على أقل الطبقات قدرة على تحملها — وبذلك كان تاريخ الجهود التي بذلها كولبير لجمع الأموال اللازمة لحروب سيده فصلاً مظلماً من البؤس والتعسف ، ويمثل نقيضاً صارخاً لتألق فرساي واستهتارها . فبينما كان النبلاء منغمسين في حفلات الصيد والرقص والمقامرة كانت الكلاب المتعطشة للدماء تتعقب مخلوقات التعسة التي تهرب الملح ، كما كان مئات من جامعي الضرائب ممن لا حول لهم ولا قوة يزج بهم في السجون لفشلهم في إلزام فقراء الفلاحين بدفع المقدار المعين عليهم من ضريبة العقار ، وعجز كولبير عن مقاومة المصدر الأساسي لهذه الشرور ؛ فلا أقل من ثورة تقضي بإدخال مبدأ المساواة في مالية فرنسا .

وإن الحكمة التي نستخلصها من عهد كولبير أنه لا يمكن دفع شعب من الشعوب في طريق لا يرغب في اتباعه : فقد قنع الفرنسي بما كسب من أهلية متواضعة في داخل بلاده وكره البحر وخشيته ، ولم يحفل بالمخاطرة بثروته في مشروعات غير موثوق بها في أطراف العالم ، لهذا باء بالفشل حلم كولبير بإمبراطورية بحرية عظيمة وتجارة عالمية تقوم بها شركات مساهمة . كان كولبير يأمل في أن تصبح مصر تابعة لفرنسا ، وفي حفر قناة في برزخ السويس ، وامتلاك سلسلة من القواعد البحرية على الطريق البحري للهند والشرق الأقصى ، سابقاً بذلك في الواقع نفس السياسة التي اتبعتها إنجلترا بعد ذلك بنجاح ، كما كان يأمل في ضم مستعمرات مأهولة بالسكان ومرضى عنها من الشعب ، على أن يبنى وطنه لم يشاركوه تلك الحماسة ؛ فلم تلق دعوته للمغامرات البحرية آذاناً صاغية . وتركز اهتمام العاصمة على الحدود الشرقية التي استغرقت عنايتها والتي كانت تقترب من باريس بصورة مزعجة للغاية . ولم تكن مقتضيات ومشاكل الدفاع غير كافية ؛ وكذلك إغراء المعارك الحربية الصيفية على المسرح التقليدي للحروب في أوروبا ، حيث تقاثل عظماء القواد خلال العصور ، وحيث كان الظفر بالمجد الحقيقي دائماً .

ثمة مظهر آخر لما استحدثته إقدام كولبير ، يتضح في محاولته تنظيم القانون الفرنسى فأصدر « قوانين لويس » وهى مجموعة من الشرائع المحكمة الوضع تناولت الإجراءات المدنية والجنائية ، والتجارة والبحرية ، وزنوج المستعمرات (قانون السود) على أنها نظراً لتمسكها بعقوبة التعذيب ، وتحريم المستعمرات على اليهود والبروتستانت ، لا تعتبر من المعالم الإنسانية فى العالم . على أن تشريع ذلك العصر له أهميته ، ليس فقط باعتباره أول خطوة هامة نحو وحدة فرنسا التشريعية التى تحققت بعد ذلك تحت حكم نابليون ، بل أيضاً لأنه وضع الخطوط الرئيسية التى لا تزال الإجراءات فى محاكم فرنسا تسير بمقتضاها . ولم ينجح كولبير فى جمع الشرائع الفرنسية كلها فى دستور واحد ، وإنما ظلت تغلب على المجتمع حتى وقوع الثورة مجموعة كثيفة معقدة من العادات المحلية ظلت تراكم . ولكن كولبير قد أورث فرنسا فيما أورثه إياها فكرة جمع الشرائع كما خلف بعض الأجزاء الهامة المتناثرة ، ومنها ما يمكن تأليف تلك المجموعة حين يحين الوقت لذلك .

ولم تدع الروح القومية العسكرية والدينية العنيفة التى سيطرت على فرنسا فى عهد لويس الرابع عشر مجالاً للحرية الشخصية . فأخمدت الرقابة الصارمة حرية الصحافة ، وحصنت البلاد حتى لا تسرى إليها عدوى المطبوعات الهولندية والإنجليزية المهلكة . وعرضت كتابة الرسائل حياة أفراد وأطرافهم للخطر — ولم يسمح بأى شئ من شأنه إزعاج الحاكم كتلك المقالات اللاذعة التى صدرت فى عهد مزران ، أو تلك الاحتجاجات المنظمة التى تقدم بها برلمان باريس أيام الفروند . حقاً لقد أفلتت هزليات مولير من الرقابة . وقد عوضت فيها حصافة الكاتب المسرحى عن طبيعة أفكاره المنافية للروح المسيحية . ولكن استبعد فى صرامة كل ما حمل نقداً للملكية أو تشكيكاً فى الكنيسة . وإنه لما يحيط بدرجة خطيرة من عظمة لويس الرابع عشر . على الرغم من إعلانه المتكرر عن رعايته لرجال الأدب . أنه لم يحرك ساكناً للحد من وطأة نظام جعل من المستحيل على ديكارت ، أعظم مفكرى عصره ، أن ينشر فى موطنه الأسمى أيّاً من الكتابات التى أعلنت عن ميلاد عهد جديد فى الفلسفة الأوربية .

وقد وضح تماماً أن نفوذ فرنسا قد سما سموّاً عظيماً . نتيجة للتفكك السياسى

فى كل من ألمانيا وإيطاليا ، وتداعى قوة إسبانيا ، وموقف الملكية العائدة فى إنجلترا . واستطاع لويس فى الفترة بين ١٦٦١ ، ١٦٨٥ أن يعتمد غالباً على صداقة إنجلترا . فكانت أسرة ستيوارت فرنسية بعض الشيء ، فشارل كان حفيد هنرى الرابع ، وكانت أخته هنرييت Henriette (مدام ، Madame) متزوجة من دوق أورليان الذى كان أخاً للويس الرابع عشر . هكذا كان كل شىء يجذبهم إلى فرنسا : الدم الفرنسى ، والضيافة الفرنسية أثناء المنفى ، والأبهة الفرنسية ، والانتراطية الفرنسية . والأموال الفرنسية — ولربما فاق هذه الأمور جميعاً بدرجة كبيرة سحر العقيدة الكاثوليكية للملك فرنساوى العقيدة التى تحول إليها شارل سرّاً ، وأخوه جيمس علناً ؛ لذلك كانت صداقة فرنسا عظيمة الأهمية بالنسبة لشارل ، ولجيمس خليفته بدرجة عظيمة . فقد كانا يأملان بمساعدة فرنسا توفير التسامح الدينى للعقيدة الكاثوليكية القديمة ، وقد ينالان لها فى النهاية السيطرة ، كما أنهما باستخدام الموارد الفرنسية — الملاذ الأخير — قد يتمكنان من الدفاع عن امتيازات البيت الملك إذا تعرض التاج من جديد لتحديد شديد . ومن ثم كانت إنجلترا فى عهد الملكين الأخيرين من أسرة ستيوارت — فيما عدا فترة قصيرة — موالية لفرنسا .

وفى تقدير العوامل التى أدت إلى تفوق لويس الرابع عشر وسيطرته ، يمثل الاتفاق الإنجليزى الفرنسى الذى ساد خلال النصف الأول من حكمه مكانة عظيمة الأهمية . فقد أدركت المدن الإنجليزية وهى وإن كانت بروتستانتية تماماً إلا أنها منغمسة فى التجارة ، أدركت أن الحاجة الملحة فى ذلك الوقت تدعوها إلى إضعاف هولندا أكثر مما تدعوها إلى مقاتلة دولة كانت تعدل هولندا فى كره الإنجليز لها — إلا أنها أضعف من هولندا فى البحار . كما لم تكن قد أصبحت بعد منافساً خطيراً لها فى أسواق العالم الحديد . وكان الشعور فى لندن تجاه الهولنديين خليطاً من الإعجاب والحسد والبغضاء — فقد أقام الهولنديون بفضل همهم وحسن تدبيرهم ، وتسامحهم الدينى وكرم ضيافتهم ، وكذلك بفضل عاؤ كعبهم فى التعليم العالى وانخفاض مستوى رسومهم الجديركية ، أقاموا لأنفسهم أوسع تجارة للنقل ، وأقوى نظام فى أوروبا . فلن تجد مكاناً آخر فى غير الجمهورية الهولندية رأس المال فيه بمثل هذه الوفرة والرخص ، ونظام البندرك بمثل هذا الرقى العظيم ، وبناء السفن بمثل

هذه السهولة واعتدال الثمن ، وقوانين التجارة بمثل هذه الملازمة لحاجات مجتمع يعمل أفراده في شئون التجارة والمال . وهذه الميزات التي قدرها تماماً رجال الحكومة البريطانية لم تكن لإنجلترا قد أدركتها بعد (١٦٦٠) في عهد شارل الثاني . وقد أحرز الهولنديون قصب السبق في التسابق إلى المستعمرات والتجارة . ولما كان (وهو افتراض لا يتفق مع الواقع) الاعتقاد في ذلك الوقت أن العالم ليس من الاتساع بحيث يكفل للهولنديين والإنجليز أن يعيشوا معاً معيشة مزدهرة ، وأن يتابع كل منهم طريقه وأساليبه ، فقد ألح الإنجليز في ضرورة العمل على النيل من قوة هولندا بدرجة كبيرة . وقد ردت حكومة الملكية الإنجليزية العائدة إلى الحكم على الاحتكار الذي حرصت عليه هولندا بكل شدة في منطقة جزائر التوابل وغرب أفريقيا -- ردت على ذلك بسن قانون شامل في عام ١٦٦٠ بصيانة تجارة المستعمرات الإنجليزية من الأيدي الأجنبية . ونشأ عن ذلك صراع كانت له نتائج هامة . فقد ساعدت الحربان اللتان خاضهما شارل الثاني ضد الجمهورية الهولندية على تقدم الملكية الفرنسية ، كما أن الحروب الأخيرة التي خاضتها إنجلترا ضد هولندا في عهد ولیم الثالث والملكة آن قد ساهمت بدرجة كبيرة في أفول نجمها .

ولم تكن بريطانيا الدولة التي تصلح للسيطرة على البحار أثناء الحرب الأولى لشارل الثاني مع هولندا فإنها كانت لا تزال بطيئة الخطى ، يعوق سيرها الفكرة القاضية بأن أى قائد من ذوى الألقاب من قواد البر في مقدوره أن يقود أيضاً الأساطيل أو أن أى حامل متسكع تقتنصه العصابات المنظمة لتجنيد بحارة الأسطول صالح للخدمة العسكرية في البحار . وعلى إثر موقعة يونيو ١٦٦٦ التي استمرت أربعة أيام ، عندما تسبب « دى رويتر » de Ruyter في مقتل وإصابة ما يقرب من ثمانية آلاف شخص عاملين بالأسطول الإنجليزي عثر على البحارة الإنجليز طافين على المياه في ملابس الأحد السوداء كما لو كانوا تماماً خارجين بعد الصلاة في الكنيسة عندما أمسكت بهم جماعة من الإرهابيين . وكانت الأجور متأخرة والطعام غير متوافر . وكانت ظروف العمل في الطبقات السفلى من السفن من السوء بحيث إن ثلاثة آلاف ملاح إنجليزي وإسكتلندي فضلوا فعلا العمل مع الهولنديين . ولم تكن ضخامة السفن الإنجليزية وحسن بنائها ، ولا الشجاعة والمران اللتان أبديهما الكثيرون من أصول التاريخ الأوربي

البحارة الإنجليز السبيل للسيطرة على البحار . كذلك لم يكن من الحكمة أن يترك الأسطول خلواً من رجاله في ميناء خال من وسائل الدفاع ، كما حدث في يونيو ١٦٦٧ ، عندما توغلت سفن الأعداء في ميدوى Medway ، وأطلقت النيران على تشاتام Chatham ، وأوقعت بالبحرية الإنجليزية ضربة مدمرة دون أن تتكبد خسائر كبيرة . على أن الصدمة أفادت الإنجليز ، فإن لندن التي كان الطاعون والحريق قد نكلا بها ، لم تنس بسرعة زئير المدافع الهولندية في نهر التيمس . فطرد كلارندون Clarendon رئيس الوزراء من البلاد . وبدأ أعضاء مجلس العموم يفحصون فعلا التقارير البحرية . وفي نهاية حكم شارل الثاني عاد ذوو القبعات إلى قواعدهم ، وبدئ البحث عن ضباط للبحرية . وهكذا انبثقت البحرية الملكية الإنجليزية كمهنة منظور إليها بعين الاعتبار نتيجة للدروس القاسية التي تلقها إنجلترا في الحروب الهولندية .

إن مشكلة حدود فرنسا الشرقية التي حاولت معاهدة لوكارنو^(١) Locarno ١٩٢٥ تسويتها بصفة نهائية ، قد بدأت في شكلها الحديث عام ١٦٦٧ ، عندما اجتاح لويس الرابع عشر عند موت فيليب الرابع ملك إسبانيا الأراضي المنخفضة الإسبانية بحجة أن حقوق إسبانيا في هذه الأراضي قد انتقلت بمقتضى قانون برابان Law of Barbant إلى زوجه ، الابنة الكبرى للملك الراحل . وكثيراً ما عرضت سخافة المعاذير التي أدت إلى الحرب المعروفة بحرية الاستحقاق . فكانت مهزلة قلما وقعت لتعكير صفو السلام في أوروبا . على أن لفرنسا بعض الحق في دعاوها الحديثة أن الأراضي المنخفضة والفرانش كونتية ، وإن كانت سياسياً تابعة لإسبانيا فهي في معظمها فرنسية لغة وثقافة ؛ ثم إنها طالما بقيت في أيد معادية عرضت شرق فرنسا للهجوم . إن تعبير « الحدود العلمية » ينتمى إلى لغة القرن

(١) معاهدة لوكارنو Locarno ١٩٢٥ : سلسلة من الاتفاقات الدبلوماسية وضعت في لوكارنو (سويسرا) لكفالة السلم - وبمقتضاها :

(ا) تعهدت ألمانيا وبلجيكا وفرنسا وبريطانيا وإيطاليا بأن تتعاون معاً في ضمان السلم في غرب أوروبا ،

(ب) تعهدت ألمانيا بأن تحل أى خلاف يجرى بينها وبين فرنسا وبلجيكا وهولندا وتشيكوسلوفاكيا عن طريق التحكيم .

التاسع عشر . ولكن الفكرة التي يتضمنها هذا التعبير أوجت إلى لويس بهذه السياسة ، كما أوجت بأعمال فوبان Vauban المهندس الحربي العظيم الذي أتقن وسائل الدفاع عن فرنسا في كل جبهة ، وجمع إلى براعته في فنه قلباً كريماً وبعد نظر الوطني الحر المصلح . ومن ثم فإن حرب الاستحقاق وإن كانت عملاً هجومياً لم تخل من غرض يتصل بمصالح فرنسا الحقيقية . وكسب « تورين » لبلاده في المعارك التي قادها في ١٦٦٧ شريطاً من المدن الفلمنكية (شرلوا Charleroi وأرمينير Armentières وتورني Tournai ودوي Douai وليل Lille) ، وهي المدن التي لا تزال فرنسا تحتفظ بها إلى اليوم .

وكان لغزو فرنسا للأراضي المنخفضة الإسبانية نتيجة بالغة الخطورة لم يلاحظها لويس إذ ذاك . فقد نهت الهولنديين للخطر . فأسرعت الجمهورية الهولندية بتسوية خلافاتها مع إنجلترا، وتحت زعامة « جون دي ويت » John de Witt أحد كبار الساسة المدنيين ، عقدت مع إنجلترا والسويد تحالف ثلثية (في مايو ١٦٦٨) كانت كافية على قصر عهدها لإيقاف فرنسا وحث لويس على الجلاء عن فرانك كونتيه (معاهدة إكس لا شابل Aix-la-Chapelle ١٦٦٨) . وقد جرح شعور الخيلاء في العامل الفرنسي أن رأى أن جمهورية تافهة من التجار المارتين أخرجتها فرنسا إلى الوجود لتوازن بها عدداً مشتركاً تبلغ بها الوقاحة أن تنضم إلى حلف ضدها . أما لإنجلترا والسويد فلويس يعرف كيف يعاملهما : فكلاهما في حاجة إلى المال ومن المستطاع شراؤهما . أما الهولنديون فادخر لهم مصير آخر . ففي نوبة من الجنون استقر عزم ملك فرنسا على القضاء على الجمهوريين في أمستردام الذين وقفوا لأول مرة حجر عثرة في طريق أطماعه الحربية .

وكان في استطاعة لويس عندئذ أن يعتمد على معونة شارل الثاني في تحقيق هذه الخطة . فنذ عام ١٦٦٩ ، ساد الاعتقاد في دائرة خاصة ضيقة في فرنسا وإنجلترا بأن الملك قد تحول إلى العقيدة الكاثوليكية . وقد وصل السر إلى مسامع « مدام » Madame أخت الملك، ومنها إلى لويس الرابع عشر زوج أختها ، فلاحق له بذلك آفاق واسعة من الكسب السياسي والديني . فدبرت مؤامرة خصت فيها (مدام) الشابة الجميلة الذكية الملتهبة العواطف بالدور الرئيسي أو أخذت هي على نفسها تحقيقه . ولم تلبث مزايا التحالف مع فرنسا أن رجحت لشارل بمهارة

على التحالف مع هولندا . ومن هذه المزايا التخلص من المنافسة الهولندية ، في ميدان التجارة وتحطيم البحرية الحربية الهولندية ، وتقسيم هولندا بين إنجلترا وفرنسا ، والأمل في إقامة جيش ملكي من المرتزقة الأجانب في الأراضي المنخفضة ، ويكون في الإمكان استدعاؤه إذا دعت الحاجة لحماية الملك ضد أعضاء مجلس النواب في إنجلترا ، وأخيراً إعادة الكنيسة الكاثوليكية إلى مكانها الأولى في إنجلترا . وقد عملت أخت الملك المتحمسة على إصب هذه الحجج في ذهن الملك واحدة بعد أخرى ، وأبدتها في ذلك محظيته الماهرة ، فلقبت أذنًا صاغية عند الملك الذي كان قد تحول إلى الكاثوليكية حديثاً . ونجحت المؤامرة . فعقدت في ١٦٧٠ معاهدتان في دوفر لتنظيم هجوم إنجليزي فرنسي كبير على هولندا . وكانت إحدى المعاهدتين سرية وهي معاهدة مدام ، لأنها تضمنت الاتفاق الديني . وهكذا كان شارل ، وهو من أكثر الرجال لطفاً واستنارة ، على استعداد لخيانة حليفته البروتستانتية وتدميرها ، ولتعريض الحرية البرلمانية في بلاده للخطر في سبيل تيسير أحواله المالية وتوطيد دعائم ملكه وترويج العقيدة الكاثوليكية .

إن الحرب سلسلة من المفاجئات . كانت جميع الاحتمالات تؤكد أن أساطيل إنجلترا وجيوش فرنسا لن تستغرق وقتاً طويلاً في الانتهاء من جمهورية هولندا الصغيرة . ولكن لم يقع ما كان متوقعاً . ففي البحر أثبت الهولنديون أنهم أنداد لأعدائهم الإنجليز . وفي البر أغرقوا بلادهم فصودوا الفرنسيين عن أمستردام — وهكذا امتدت ست سنوات تلك الحرب التي كان متوقعاً أن تنتهي في أقصر وقت وأبهى نتيجة (١٦٧٢ — ١٦٧٨) ؛ إذ أخذت في الاتساع كما يحدث دائماً في الحروب ، وأماطت اللثام عن روح المقاومة العنيدة التي أثارها مطامع فرنسا في العالم الثيوتوني — حقاً إن الفرنسيين حققوا في نهايتها بعض أغراضهم ؛ إذ كسبوا (بمقتضى معاهدة نيمجن Nimwegen ١٦٧٨ — ١٦٧٩) فرانش كونتيه وسلسلة من المدن على حدودهم الشمالية الشرقية ، على أن الهولنديين لم يغلبوا على أمرهم ، بل غدوا أكثر قوة على أثر ثورة أطاحت بالجمهورية ورفعت إلى السلطان أميراً شاباً من أسرة أورانج وهو الذي بزواجه من ماري ابنة جيمس ، دوق يورك في ١٦٧٧ ، قدر له أن يصبح فيما بعد وليم الثاني ملك إنجلترا وأن يكون الروح المحركة للمقاومة الأوربية ضد فرنسا .

وعلى الرغم من شروط صلح نيمجن الموقعة « ذلك الصلح الفرنسي » الذى يحدد فيه المؤرخ الفرنسى الحديث أسباباً تجعله خليقاً بالثناء عليه ، فقد أظهرت الحرب ظواهر كثيرة من شأنها أن توحى لسياسى أكثر حذراً من لويس الرابع عشر باتباع سياسة تقوم على الاعتدال وضبط النفس . فقد أثار ظهور جيش فرنسى على نهر الراين تألباً كبيراً ضد الفرنسيين ، شارك فيه الإمبراطور وكافة الإمارات الألمانية — فيما عدا بشاريا — مع إسبانيا والدانمرك وهولندا . وهزمت السويد التى كان لويس يضع كل ثقته فى بأسها المعروف فى واقعة فهربلن Fehrbellin الحاسمة (١٦٧٥) تلك الواقعة التى أعلنت لأول مرة للأوربيين صلابة معدن الجندى البروسى ، وبوأت منتخب براندنبرج الأعظم وعميد أسرة هوهنزولرن Hohenzollern المكان الأول فى ألمانيا الشمالية . وكان ذلك نذيراً واضحاً لمتابع مقبلة لفرنسا .

على أن لويس لم يكن الشخص الذى يبالى بتلك الظواهر المتجمعة للمقاومة الأوربية . إذ قدمت له إصلاحات لوفا الحربية جيشاً نظامياً من مائتى ألف من المقاتلين الأقوياء أعدوا إعداداً منظماً وزودوا بالحراب ، وعين لهم ضباط محترفون تلقوا تدريباً حديثاً . أما البحرية الفرنسية فقد نمت تحت إدارة كولبير الحازمة فأصبحت أسطولا من مائتى سفينة بعد أن كانت مجموعة من خمس عشرة سفينة . وعلى الرغم من أنه كان لا يزال عليها أن تتعلم الشىء الكثير فإنها قد بهرت أنظار أوروبا وخاصة إنجلترا بمشاركتهما كاملة فى الحرب الهولندية . ومن ثم استمرت عملية التوسع وتقوية الحدود الشرقية . وشكلت محاكم محلية عرفت باسم « مجالس الضم » . Chambers of Reunion ، لكى تقرر مدى حقوق الملك فى الألزاس والأسقفيات الثلاثة ، وفرانش كونتية بمقتضى معاهدة مونستر ؛ ولما كانت لغة المدافع على استعداد دائماً لتعويض ما يغفله القانون ، فإن نتائج ذلك البحث الذى لا نظير له كانت مرضية للويس . فنحت فرنسا السيادة التامة على الألزاس وأكملتها بالاحتلال الحربى لمدينة ستراسبورج (سبتمبر ١٦٨١) . وخرج لويس من هذه الحرب القصيرة التى أثارها هذه الإجراءات التعسفية مكلا بنجاح ملحوظ . ولم يكن الإمبراطور — بسبب انشغاله بالغزو التركى الذى كان يشق طريقه إلى أبواب فيينا — فى حالة تمكنه من تقديم عون دى بال لدول التحالف الثلاثى فى عملياتها الحربية ؛

وهكذا مكنت هدنة رجنسبورج Regensburg (١٦٨٤) لويس من الاحتفاظ بمدى عشرين عاماً بكل ثمار جهوده الطويلة المتصلة لتحسين حدود فرنسا الشرقية (وهي قلاع الفلاندر، ولكسمبورج، وفرانش كونتيه، والألزاس وستراسبورج). وهنا كان جديراً به أن يقف، إذ قد بلغ أوج سلطانه.

ولكن مطامع لويس كانت قد أصابت أوضاع أوروبا، كما نظمها معاهدة وستفاليا، بهزة خطيرة. كانت فرنسا ضامنة لتلك المعاهدة وقد أفادت فرنسا منها فائدة لانظير لها، ومع ذلك فإن معاهدة وستفاليا لم تكف لسد مطامع لويس. فلم يتورع عن نقضها، وراح يفقد الأصدقاء كلما أظهر ما تعجش به نفسه من أطماع فزاد بذلك من حشد أعدائه. ففي أول الأمر أزعج هولندا ثم ألمانيا ثم السويد. وأخيراً فقد صداقة إنجلترا.

كان الاحتفاظ بصداقة الإنجليز أو على الأقل بمجادهم منذ عام ١٦٦٨ من أهداف السياسة الفرنسية الرئيسية. وفي نظير تحقيق تلك الغاية وزع المال بسخاء على الملك والبلاط والبرلمان، بل على رجال الدين من المذهب البرسبتارى. وقد أصابت هذه السياسة نجاحاً — وعلى الرغم من الغيرة الوطنية التي أثارها رؤية النمو المدهش لبحرية فرنسا وقواتها العسكرية فقد استمر السلام يسود العلاقات بين فرنسا وإنجلترا تحت حكم شارل، على أن سفراء فرنسا في لندن لم يفتهم إدراك الشعور الحقيقي للشعب الإنجليزي. فتمتد الوهلة الأولى لغزو لويس للأراضي المنخفضة الإسبانية اجتاحت البلاد موجة من الذعر، وتنبأت بالعدوان عليها، وخشيت الغزو. ثم أنبأ باريون Barillon من لندن لويس فيما بعد في أغسطس ١٦٧٧ أن صديقي فرنسا الوحيدين في إنجلترا هما شارل الثانى وأخوه جيمس دوق يورك. ولاح للشعب الإنجليزي أن منافسة إسبانيا القديمة أو منافسة هولندا الأخيرة كانت أقل هولا من قوة فرنسا الحربية والتجارية الجديدة. على أن شارل استطاع أن يتغلب على الصعوبات الكبيرة التي أثارها عليه حزب الهويج بزعماء شافستبرى Earl of Shaftesbury اللامع بالاستعانة بالموارد الفرنسية، وازدياد إيراد الجمارك وحيله الخاصة. فأنقذ تاجه وتحاشى الحرب وانتصر على الحركة التي كانت ترمى إلى حرمان أخيه من العرش، وحل البرلمان وحطم حزب الهويج. واستطاع خلال السنوات الأربع

الأخيرة من حكمه ، بفضل معاونة لويس المثمرة له إلى حدما ، أن يحكم إنجلترا دون الالتجاء إلى برلمان .

كان من الخير كل الخير أن يكون في بلد لا يزال يصلى بنار الطائفية أن يكون على رأسه ملك يعالج الأمور بمثل ما عاجلها شارل الثانى بقايل من الحدة وكثير من الاستشارة . كانت فطنة شارل وجاذبيته ، وبسطة أخلاقه ولطف أساليبه وبراعته الكاملة من كل أنواع التعصب ، وهذا مقروناً بحب استطلاع العلمى كان بمثابة جرعة الدواء المرطبة لمريض أضنته الحمى . ولم يكن إسراف بلاطه المكشوف في الملذات يتنافى ونوبات من العمل الذى أحسن توجيهه . وقد وضعته مرونة ذهنه في نواح مختلفة فوق مستوى عصره بدرجة كبيرة . وعلى الرغم من اضطرابه إلى الموافقة على إجراءات الاضطهاد التى صدرت من برلمان الفرسان Cavalier Parliament (١٦٦٠ - ١٦٦٧) ، فقد كان من أنصار التسامح الدينى ، فأثار عليه خصومة برلماناته بمحاولاته توفير التسامح عن طريق استخدام سلطانه الخاص بتجاوز القانون . وعلى غرار أوياثير كرمويل تبين له ازدياد أهمية مستعمرات إنجلترا فيما وراء البحار وقوتها البحرية ثم إن قوانين الملاحة التى صدرت في عهد الجمهورية (Protectorate) لكى تضمن لإنجلترا احتكار الاتجار مع مستعمراتها قد تطورت في عهده إلى أن أصبحت جهازاً من القوانين والقواعد تنظم كافة مجالات التعامل بين إنجلترا ومستعمراتها .

وقد حفظ له إحساسه المرهف باتجاهات الرأى العام وتقلباته ، ذلك الإحساس الذى بلغ من الدقة بحيث لم يكن يتمشى والشجاعة المدنية الحقة ، حفظ له عرشه سالماً في وقت كان الإفصاح فيه عن أفكاره الباطنة كفيلاً بأن يحدث اضطراباً خطيراً . على أن الناس مهما بلغ منهم الشك لم يعرفوا أن ملكهم الدستورى كان في قرارة نفسه مستبداً في آرائه السياسية ، وكاثوليكيّاً في عقيدته - كما أنهم جهلوا أنه كان عميلاً يتقاضى مرتباً من فرنسا - ذلك لأن شارل لاذ بالصمت حتى إنه تناول طعامه مع الشرير « تيتوس وأتس » Titus Oates ، ولم يوجه له كلمة تأنيب صريحة عندما أخذ هذا يذيع افتراءات مهلكة ضد الكاثوليك من أبناء دينه . فهو لم يكن في تسامحه وحذره بالفارس الذى يعرض نفسه للخطر .

كان الموقف يتطلب رجلاً أقوى من شارل الثانى لوقف تيار اهتمام الناس بشئون الحكم ، ذلك الاهتمام الذى أطلقته من عقاله العواطف التى لا بست الحرب الأهلية . فقد وقف الناس على قدم وساق ، يتحدثون ويتناقشون ويقرعون الأنباء ويرقبون رجال البرلمان فى عملهم . وكانت رسائل هارفيل Harvell إلى ناخبه فى هل Hull تمثل ظواهر العهد الجديد . كما كان كذلك نمو الحزبين الهويج والتورى ، اللذين اتخذوا شكلاً محدداً لأول مرة فى النقاش الذى دار حول اقتراح حرمان دوق يورك (جيمس الثانى فيما بعد) من العرش بسبب عقيدته الدينية ، إذ كانت إنجلترا متشبثة بعقيدتها البروتستانتية ونظمها البرلمانية . وكانت الأخطاء الشنيعة التى ارتكبها زعماء حزب الهويج ، وقد بلغت قممها بتأييد هؤلاء الزعماء لمفريات Titus Oates كانت هذه الأخطاء وحدها هى التى قدمت لشارل فرصة انتهازها ببراعة فائقة لحل البرلمان فى عام ١٦٨١ .

مات شارل عام ١٦٨٥ . وخلفه على العرش جيمس الكاثوليكي المتحمس المجاهر بعقيدته . وكانت خطته تهدف إلى توفير التسامح قانونياً لأبناء دينه وذلك عن طريق حشد البرلمان بمؤيديه ، وإعفاء الكاثوليك من العقوبات التى كانوا يتعرضون لها بمقتضى قوانين البلاد — ولن تجد سياسة من الناحية الدينية أو الدستورية يمكن أن تعافها النفس فى بلد بروتستانتي دستوري كتلك السياسة ، وخاصة عندما أصبح من الواضح أن النجاح فى تنفيذها يتوقف على مساعدة فرنسا وأيرلندا وقوة عسكرية دائمة ، وكلها عوامل من شأنها فى الجو الذى ساد البلاد عندئذ أن تقضى على أى تفاهم مع الشعب الإنجليزي .

كان جيمس لازماً للويس كما كان لويس لازماً لجيمس تقريباً إذ أن المناوئ الحقيقى لجيمس فى إنجلترا لم يكن دوق منموث Monmouth البروتستانتي الذى قضى على ثورته المشثومة فى سيدجمور Sedgmoor ولكن المناوئ الحقيقى لجيمس كان وليم أورانج الذى تزوج فى ١٦٧٧ من الأميرة ماري الابنة البروتستانتية للملك إنجلترا . كان أمراً بالغ الأهمية لإذن للويس أن يظل الملك الكاثوليكي على عرش إنجلترا وأن يتعلم رعاياه المشاكسون — وهم لا يحصون عدداً — احتمال نيره فى رصانة ، وطالما بقى جيمس على عرش إنجلترا ، فليس ثمة ما يدعو للخوف من مضايقات الأسطول

الإنجليزى لمستعمرات جزائر الهند الغربية ، التى كان لكولبير الفضل فى تنميتها ، أو من اشتراك الجيش الإنجليزى فى العمليات الحربية ضد فرنسا فى القارة الأوربية . على أن وليم أورنج كان أشد أعداء فرنسا كافة اسماته وعناداً . وكان اتحاد إنجلترا وهولندا تحت قيادته من شأنه أن يثير متاعب خطيرة أمام لويس الرابع عشر .

وحدث عندئذ ، فى الوقت الذى كان من الأهمية البالغة بمكان لنجاح السياسة الفرنسية فى أوروبا بصفة عامة أن تظهر فرنسا تسامحاً لإزاء رعاياها البروتستانت أن ألغى لويس مرسوم نانت (١٦٨٥) . فعلى الرغم من رغبته فى تأمين التسامح للكاتوليك من الإنجليز فإنه استرد ذلك التسامح الدينى الحكيم الذى منحه جده للبروتستانت الفرنسيين ، فحرم عليهم العبادة وطرد قسيسيه ، وحطم كنائسهم ، وأغلق مدارسهم وهكذا دفع حوالى مائتى ألف من خيرة الصناع المهرة إلى مبارحة مملكته إلى بلاد أجنبية حيث أقاموا صناعات نافست الصناعات الفرنسية ، وأثاروا حقداً لا يهدأ ضد فرنسا . ولعل خير ما يمكن أن يعتذر به عن هذا التصرف الجنونى الذى لا مسوغ له أنه لم يجرئ نتيجة لتأثير مشورة مدام دى منتنون Madame de Maintenon وهى السيدة العجوز البصيرة الورعة التى تزوجها الملك سرّاً عام ١٦٨٣ ، وإنما لأنه أَرْضَى رجال الدين والدنيا فى فرنسا . فى القرن السابع عشر كان بوسع الرجل الفرنسى العادى أن يكون كاثوليكياً مخلصاً لعقيدته وفى الوقت نفسه خصماً لسلطان الكنيسة : فهو جاليكاني^(١) وليس بابوياً ؛ وهو كاثوليكى وليس پروتستانتيّاً ولم يكن ثمة ما يحيفه أكثر من تجدد الحروب الدينية التى قضت على كثير من البيوت ، ومررت حياة عدد كبير من الأسر ، وخلفت وراءها سلسلة طويلة من الذكريات الأليمة التى فرقت بينهم . ولقد كان من الواضح لصاحب الإدراك الهادئ الرزين أن « كنيسة الإصلاح » - كما كانت تسمى - لم تعد منذ أيام ريشيليو تمثل خطراً سياسياً . إذ لم تعد تملك استحكامات ولا جيوشاً . وقد بقيت هادئة أثناء

(١) جاليكاني Gallican أى من أنصار حرية الكنيسة الفرنسية ؛ وهى التى أعلنها مجمع دىنى عقد عام ١٦٨٢ من رجال الكنيسة الفرنسية لتأييد لويس الرابع عشر فى ادعائه الخاص بسيطرة الدولة التامة على الكنيسة ؛ فاحتج البابا إنوسنت الحادى عشر على محاولة ملك فرنسا اغتصاب حقوق البابا فى الإشراف على جميع شئون الكنيسة الدينية والدنيوية على السواء .

ثورات الفروند . وخدم أعضاؤها الدولة في الجيش والبحرية والقضاء وكسبوا لأنفسهم مكانة سامية في عالم المال والتجارة والصناعة ؛ على أن فرنسا لم تشعر بالاطمئنان طالما بقي يعيش فيها مايون من الهيجونوت بمجالسهم الكنسية ومدارسهم ، وقسوسهم أصحاب الملابس السوداء وطقوسهم الدينية الخاصة . لم يكن الجمهور الفرنسي راضياً عن هذه الطائفة التي كانت لها خطورتها في الماضي ، وقد تعود لها خطورتها لإقبال الناس عليها بسبب ما تبيحه من زواج القسس . وكان ثمة من يغبط الهيجونوت على ثرائهم كما كان ثمة من ينفس عليهم نشاطهم ، ومن الناس من ساءه عنفهم ، ومنهم من ساءه تعصبهم ضد جيرانهم الكاثوليك في البلاد التي سادت فيها الكنيسة البروتستانتية . وتساءل الناس كيف يسمح لهذه الطائفة العنيدة المناهية للعقل ، الطائفة التي هجرت ديناً جديراً بأن يعتنقه ملك فرنسا وانتمت لكنيسة تشكلت بالطابع الجمهوري ، كيف يسمح لها أن تقيم لنفسها كياناً خاصاً منبوذاً في بلد كاثوليكي ملكي . وأخذ مجلس الكنيسة في فرنسا يقدم الالتماس عاماً بعد عام للقضاء على هذه الهيئة الأجنبية . وخضع لويس لذلك الضغط مع أنه لم يكن بطبيعته متعصباً . وفرضت عمداً مختلف الوسائل القاسية الظالمة لتجعل مركز الهيجونوت في فرنسا أمراً لا يطاق بحيث يضطرون إلى اعتناق العقيدة الكاثوليكية . ونجحت هذه السياسة البغيضة إلى حد بعيد . على أن ألوفاً من الهيجونوت الذين ظالوا محتفظين بديانتهم خلال عشرين عاماً قاسوا فيها من مضايقات الاضطهاد ، وإن كانت أقل شأنًا مما كان ينتظرهم على عهد لويس ، بارحوا البلاد عندما احتلت مساكنهم جنود لوفوا Louvois من الدراغون (١٦٨١ - ١٦٨٥) ، وأصبح الساب والقتل والاعتصاب جزاء من يتمسك بعقيدة آبائه . وعندما ساد الاعتقاد بأن الإرهاب قد أدى غايته ، وأن مقاومة هذه الطوائف العنيدة قد تحطمت ، وأن من اليسير تحويل البقية البائسة عن عقيدتهم ، ألغى مرسوم نانت وتعاليت أناشيد التسبيح تحمداً لهذا البطل من أبطال المسيحية الذي استطاع في النهاية أن يتغلب على أوهامه ويعني عناية جدية بخلاص روحه ، فبارى بذلك فعال الأباطرة قسطنطين وتيودوسيوس وشرلمان . وقال له بوسويه Bossuet واعظ البلاط : « إن هذا هو أثمن ما قمتم به في حكمكم من جلائل الأعمال وإنه المميز الصادق لحكمكم ، فبفضلكم

لم يعد للزندقة وجود ، وإن الله في عاياه سمائه قد أنزل هذه الآية . ولكن مهما بلغ من سرور الفرنسيين الكاثوليك بإلغاء مرسوم ناننت ، فإن هذا العمل لم يكن قط السيلة التي يحصل بها جيمس الثاني على رضى شعبه في لندن التي سادها المذهب الپيوريتانى .

وعجلت رعونة جيمس بمحاولته فرض الكاثوليكية على مواطنيه بوسائل غير دستورية بوقوع « الثورة المحيطة » في ١٦٨٨ ، تلك الثورة التي نصبت وليم الثالث ملكاً على إنجلترا . كانت ثورة مجيدة لأنها اتسمت بالتسامح ، وترنعت عن اضطهاد الفريق الذى غلب على أمره . كانت أيرلندا المسرح الرئيسى للحرب البرية ، وبفضل انتصار بوين Boyne الشهير (٣٠ يونيو ١٦٩٠) ، واستسلام ليريك Limerick بعد ذلك بعام واحد ، قويت القبضة السياسية لإنجلترا البروتستانتية على الكاثوليك في أيرلندا لمدة قرنين واثنين وأربعين عاماً (١) ، وفى خلالها أسفر التنافس الطويل على السيطرة الاستعمارية بين فرنسا وإنجلترا عن نتائج .

لم يتوقع لويس أن تقدر إنجلترا على القيام بهذه الثورة البيضاء ، بل إنه خرج منها أقوى بكثير عن ذى قبل بفضل انتصار مبادئ البرلمانية . كما أن هذه الثورة تعارضت بشدة مع الفلسفة السياسية السائدة عندئذ فى القارة . ولوقد بذلت فرنسا بعض الجهد لاستطاعت أن تمنع وليم من النزول فى ترابى Torbay . ولكن لويس بدلا من أن يستخدم جيشه لإثارة المتاعب لوليم فى الأراضى المنخفضة ، أرسله إلى إقليم البلاتين حيث حيل بينه وبين التأثير فى مجرى الحوادث . وتفسير ذلك أن لويس اعتمد على حرب أهلية طويلة الأمد تشل حركة إنجلترا ، وتطاع فى صبر وهدوء إلى توقع حدوث شقاق بين خصميه الرئيسيين إنجلترا وهولندا .

ولا حاجة بنا إلى الدهشة لأنه أخطأ التقدير ، فإن مبادئ حزب المويج فى إنجلترا ، ذلك الحزب الذى وضع تسوية ما بعد الثورة ، لم تكن كفاية بأن تبعث على

(١) استقلال إيرلندا : - بمقتضى المعاهدة التى أبرمت فى ١٩٢١ بين بريطانيا والولايات الجنوبية الإيرلندية صارت إيرلندا (ما عدا الولايات الست الشمالية التى تقع فى الشمال الشرقى من إيرلندا) التى رغبت فى إبقاء علاقاتها مع بريطانيا) تتمتع بمثل ما تتمتع به كندا من حرية واستقلال ذاتى . ونالت حريات أوسع بمقتضى قانون وستمنستر (١٩٣١) .

الثقة فى الاعتدال وضبط النفس . ففى كفاحهم — رجال الهويج — لإقصاء جيمس عن العرش كادوا يلجأون إلى العنف فى معاملة خصومهم من الطوائف الأخرى ، فأيدوا المفتريات الشنيعة التى كان يروجها « تيتاس أوتس » Titus Oates والتى لم يكن لها أساس من الصحة ضد الكاثوليك ، كما عضدوا الثورة المسلحة التى قام بها مونموت Monmouth ضد جيمس — وقد تلقى بعضهم مالا من فرنسا ولكنهم استمعوا إلى صوت الاعتدال أثناء أزمة ١٦٨٨ ، وكانوا تحت زعامة هاليفاكس Halifax المنظم (The Trimmer) وهو أحد عظماء المصلحين فى إنجلترا. ولم يكن لويس ليستطيع أن يتنبأ بذلك ، ولا أن يتنبأ بأن رجل الحرب والسياسة ذلك الهولندى الرابض الجأش الذى استدعاه الهويج لإنقاذ الدولة سيشق طريقه فوق أحقاد الانتقام الحربى ، وينجح فى مهمته غير العادية ، مهمة جعل إنجلترا دولة متحدة العناصر وإن كانت آخذة بالنظام البرلمانى .

وفى أى مقارنة بين القوى البشرية فى فرنسا وفى الدولتين اللتين قد اجتمعتا تحت حكم وليم الثالث نجدهما دون فرنسا بدرجة كبيرة . فعلى حين كان عدد السكان فى إنجلترا حوالى خمسة ملايين ونصف المليون ، وسكان الجمهورية الهولندية حوالى مليونين ونصف المليون ، كان عدد سكان فرنسا حوالى تسعة عشر مليوناً أو عشرين مليوناً . على أن إنجلترا كانت تتميز عن فرنسا بميزتين : الأولى أن البحارة الإنجليز على إثر الانتصار البحرى الذى أحرزوه فى لاهوج La Hogue (١٦٩٢) وطردوا تفوقهم الحاسم على البحرية الفرنسية ، التى كانت قد فقدت عندئذ إدارة كولبير العظيم الفريدة — أما الميزة الثانية ولعلها أهم من الأولى ، أن شكل الحكومة التى كسبتها إنجلترا فى ثورة الهويج كانت أكثر ملاءمة من الحكم الاستبدادى فى فرنسا لمواجهة الضيق المالى والتغيير الاجتماعى . أما لويس فقد نبذ كل سلطة دستورية من شأنها أن تحد من سلطان الملك ؛ فرفض أن يستدعى مجلس طبقات الأمة وقصر مهمة البرلمانات على ممارسة وظائفها القضائية . وأدار حكومة البلاد عدد من الوزراء والمجان يعملون مع الملك ، على حين باشر شئونها فى الأقاليم مفتشون يمثلون فى العهد الحديث رؤساء البلديات ، وتركت دون مساس الامتيازات المالية التى اختص بها النبلاء الذين كان أكثرهم يعملون فى الجبهة أو ملحقين بوظائف البلاط — وعلى الرغم من

استنزاف الحروب المستمرة للأموال والسلطان العريض الذى كان يتمتع به الملك ، لم يبذل أى جهد لعلاج نظام يقوم على أن الجانب الأكبر من أعباء الدولة المالية تقع على عاتق أفقر طبقات المجتمع ، على حين تضاعفت للغاية مساهمة النبلاء ورجال الدين ، وهم الأثرياء إذا قورنوا بتلك الطبقات ، ولم يكن بوسع حكم أوتوقراطى يعمل فى الخفاء أن يستمر إلا فى حالة واحدة وهى أن يقضى على الظلم الاجتماعى . ولما كان هذا الحكم الأوتوقراطى قد أخفق فى ذلك ، ولما كان قد فقد روحه المحركة وكفاءته بموت أقدر وزراء الملك وتدهور نفوذ الملك الشخصى ، فإن ماركيز لويس الرابع عشر تركت فرنسا فى حالة شنيعة من البؤس كما لو كانت انتصاراتها قد استحالت إلى هزائم .

على أن نظام الحكومة الفرنسية فى عام ١٦٨٩ كان أعظم ما يكون جلالاً فى أوروبا ؛ على حين عرف البرلمان الإنجليزى خاصة بتحزبه وتقلب أهوائه وارتشائه وعجزه — كما يبدو — عن التوجيه الثابت ، وفسر انتقال السلطة من الملك إلى البرلمان على يد الثورة على أنه علامة أكيدة على الضعف ، أولئك الذين فاتهم أن يدركوا أن البرلمان خلال القرن ونصف القرن التالى ستحكمه أرستقراطية زراعية وتجارية ، لا تفتقر إلى الخبرة بشئون الحكم ، ولا يعوزها الاهتمام بالصالح العام ولا تنقصها الشجاعة والحكمة التى تلزم لتكوين رجال الدولة . وكان الحكم البرلمانى شيئاً جديداً لم يجرب بعد . وقد أظهر دوق مولبرا للعالم فى واقعى بلنهام Blenheim وراميللى Ramillies أن مثل هذه الحكومة فى مقدورها أن تقود حرباً أوروبية ، وأن تنزل إلى الميدان قوات استطاعت أن تهزم القوات الفرنسية فى نزال عادى . وبذئوع هذه الانتصارات الباهرة يبدأ الإعجاب بالنظم الإنجليزى ويصبح أمراً ملموساً وينتشر على نطاق واسع فى القارة الأوروبية خلال القرن الثامن عشر . وبرهن هذا الشعب المدنى الذى أكد فى قانون الحقوق عدم شرعية الجيوش القائمة وقت السلم ، وبرهن على كفاءته لمواجهة كل مطالب الحروب المضنية — بل إنه بز خصومه جميعاً فى مسائل الاقتصاد وأعمال البنوك والتجارة وعلم الرقابة على أموال الدولة وفنه .

وهكذا واجه لويس ، فى الحرب التالية التى شنها لتوسيع رقعة فرنسا واجه إنجلترا ،

التي لم تعد منافساً صديقاً بل غدت عدوًّا نشطاً . فكان صراعاً باهراً دار حول قضايا خطيرة ، واستمر عشرة أعوام (١٦٨٨ - ١٦٩٧) ، وتميز بانتصارات عديدة ، على أنه انتهى بإيقاف جدي لفرنسا عند حدها . وقد بدا أن لويس قد لقن أوروبا مزيداً من فن التحالف ، فقد أعقب التحالف الثلاثي ، حلف أوجز بوج ١٦٨٥ ، وإنها لمخالفة جائلة القدر ، أيدها البابا سرّاً ، وانتظمت الإمبراطور والإمبراطورية وهولندا وإسبانيا وسافوى وإنجلترا والسويد ، ولكنها مخالفة أظهرت الحقيقة عن المحالفات المعروفة وهي أنها يندر أن تكون فعالة في العمل فعاليتها على الورق ، فحلت بقوات الحلف سلسلة من الهزائم المخزية على يد أفضل جيوش قادها أمهر قواد عرفتهم أوروبا إذ ذاك . استولى كاتينا Catinat على نيس ، واجتاح سافوى ، كما أحرز لكسمبورج الانتصار تلو الآخر على وليم الثالث في الأراضي المنخفضة ، ووقع إقليم البلاتين مرتين فريسة لعمليات تخريب لا رحمة فيها ، ولا تزال ذكرها من عوامل النفور بين الشعبين الفرنسي والألماني . ومع ذلك فإن معاهدة رزويك Ryswick التي أنهت الصراع كانت هزيمة للويس . ففي سبيل الوصول إلى الصلح مع أعدائه العنيدين الذين لم يصبرهم الإجهاد بعد ، اضططر ملك فرنسا أن يتنازل عن فتوحاته ، وأن يسلم للهولنديين بحق تحصين المدن الواقعة على حدود الأراضي المنخفضة الإسبانية ، وأن يعترف بملك إنجلترا الملحد ، وأن يوافق على أن تخلفه على العرش أميرة ملحدة . إن المواقع المتفرقة لا يتوقف عليها كل شيء في الحرب ، وإنما يكون النصر النهائي للفريق الذي يستطيع أن يصمد أطول مدة . وكانت هذه الميزة . بفضل ثبات ذهن وليم الثالث البروتستانتي ، في جانب أولى المحالفات الأوربية العظمى .

كتب يمكن الرجوع إليها

- Macaulay : History of England (1858-62).
- Voltaire : Le Siècle de Louis XIV. (1753).
- G. Hanotaux : Etudes historiques sur le XVIe et le XVIIe siècle en France (1886).
- D. Ogg : Europe in the Seventeenth Century (1925).
- D. Ogg : Louis XIV. Home University Library (1933).
- D. Ogg : England in the Reign of Charles II. 2 Vols. (1934) .
- E. Lavisse : Histoire de France, Vol. VII.
- P. Clement : Histoire de la Vie et de l'Administration de Colbert (1846).
- J.J. Jusserand : Instructions données aux ambassadeurs de France depuis les Traités de Westphalie. Angleterre.

الفصل الحادى والعشرون

الوراثة الإسبانية

الوراثة الإسبانية - معاهدات التقسيم - اعتراضات النمسا وإسبانيا على التقسيم - لويس يقبل الإرث كله صحيحاً - المحالفة العظمى - روح المقاومة الإنجليزية - حرب الوراثة الإسبانية - طابعها وأمدتها - إسبانيا مظهر جانبي - معاهدة يوترخت - السيطرة البحرية تنتقل إلى إنجلترا - الجسنتست والجزويت في فرنسا - إسكال Pascal المرسوم البابوي الفريد في نوعه The Bull Unigenitus - استمرار النضال في القرن الثامن عشر - ضعف البواغث الدينية والأسرية . القرن السابع عشر - زعامة فرنسا الروحية .

وفي تلك الأثناء كان ثمة مشكلة على جانب عظيم من الأهمية مست خاصة مصالح هولندا وإنجلترا في طريقها لإحداث أزمة عاجلة . ماذا يكون مصير الإمبراطورية الإسبانية عند موت ملكها شارل الثانى ، الذى كان متوقعاً منذ أمد بعيد ، وقد تأخر طويلاً ؟ كان ذلك المريض المعنوه الذى لا أمل في نسل يخلفه يحكم إسبانيا منذ ١٦٦٥ . ولم يكن مما يسلم به في فلسفة ذلك العصر السياسية أن يكون للشعب الإسباني حق لإبداء رأيه في هذه المسألة التى تتعلق بمصيره . فلا زالت المملكة تعتبر كما لو كانت ملكاً خاصاً للأسرة ، تسوى أموره بوصية أو يقتسم بين ذوى القربى باتفاقهم . ولكن هذه الإمبراطورية ما كان أعظمها من ملك للأسرة الحاكمة ! فالممتلكات الأوربية وحدها التى يملكها الفرع الإسباني من أسرة الهابسبورج كانت تكون إمبراطورية شاسعة انتظمت ميلان ونابلى وصقلية وسردينيا وجزائر البليار وكذلك الأراضي المنخفضة الإسبانية وإسبانيا نفسها - على أن الأملاك غير الأوربية كانت كذلك أكثر روعة وهى جزائر الفيليبين والكنارى وكوبا والمكسيك وفلوريدا وكاليفورنيا وبما ، وكذلك أقاليم أمريكا الجنوبية باستثناء جيانا والبرازيل البرتغالية . وكانت هذه الإمبراطورية من الضخامة بحيث لم يحتملها سلام العالم ومن الاتساع بحيث استعصت على الحكم القوى الناجح . لذلك كان أمر تقسيمها سواء بوصية من الملك أو بالاتفاق الودى مسبقاً بين الأطراف المعنية كان أمر تقسيمها أمراً مرغوباً فيه من جميع النواحي باعتباره الوسيلة الوحيدة أصول التاريخ الأوربي

لتجنيب أوروبا ويلات حرب عالمية .

كان من المحتمل أن يطالب بالإرث الإسباني في ١٦٨٩ ثلاثة من الشبان :
فيايب دوق أنجوحفيد لويس الرابع عشر ، وشارل الابن الثاني لإمبراطور النمسا
ليوبولد الثاني ، وجوزيف فرديناند أمير بشاريا المنتخب وابن أخ ملك إسبانيا .
ولما كان الأمير البقارى أقل هؤلاء الثلاثة بأساً فقد كان من المرجح أن المفضل من
تكون الدول المهتمة بالأمر أكثر استعداداً لقبول المفضل من بينهم لأنه يقدم لها أقوى
الضمانات للمحافظة على التوازن الأوربي^(١) . وبناء على ذلك وقعت فرنسا وإنجلترا
والأراضي المنخفضة معاهدة لتقسيم الممتلكات الإسبانية وقد خصت أمير بشاريا
الشاب بنصيب الأسد من هذه الإمبراطورية (وهو إسبانيا ومستعمراتها) ، على حين
أرضت النمسا وفرنسا بالجزء الباقي منها لإرضاء جوهرياً . وعلى أى حال فإن هذه
التسويات الحكيمة قد أوقفها في العام التالى موت الأمير البقارى فجأة ، وتطلبت
المشكلة علاجاً من جديد ولكن في ظروف أقل ملاءمة بكثير من ذى قبل .

فطالما كان هذا الأمير البقارى بشخصيته الضعيفة التى لا تثير جدلاً على قيد
الحياة ، كان بوسع جميع الأطراف المعنية بالأمر قبول خطة عامة . ولكن موته
جعل المشكلة تكاد تستعصى على الحل . حقيقة أنه قد وضعت تسوية ملائمة
لكل من لويس والدول البحرية : إذ تقرر بمقتضى معاهدة التقسيم الثانية أن
تؤول إلى النمسا الأراضي المنخفضة (وكانت هذه مسألة جوهريّة بالنسبة للدول
البحرية) ، وكذلك إسبانيا والمستعمرات بينما تأخذ فرنسا ناپلى وصقلية وميلان التى
تستعيص عنها باللورين . وإن قبول لويس هذه التسوية لدليل فريد على اعتداله
في تلك الفترة .

ولكن لسوء الحظ كانت هناك دولتان : إسبانيا والنمسا ، لا ترضيان مطلقاً
عن فكرة التقسيم على أى أساس . كان طبيعياً أن يستنكر ملك إسبانيا وأعيانها
فكرة تقطيع أوصال الإمبراطورية الإسبانية ، ولكن ليوبولد إمبراطور النمسا بسبب
رغبته في ميلان رفض العروض العظيمة التى تتيحها له معاهدة التقسيم الثابتة ، وكان
ذلك خطأ لا يقوّه في سجل الحماقات التى كلفت النمسا الشىء الكثير سوى الإنذار

(١) انظر ثبت الأنساب (د) .

النسوى إلى الصرب في يوليو ١٩١٤^(١). وأمام هذه البعثات قضى بالفشل على سياسة التقسيم الحكيمة التي بذل فيها وليم الثالث ولويس الرابع عشر مهارة دبلوماسية فائقة . وعندما مات ملك إسبانيا في نوفمبر ١٧٠٠ ، اتضح أنه ترك وصية تورث إمبراطوريته كاملة لفيليب الأمير الفرنسي ؛ فإذا لم يقبل الإرث كله آل إلى الأمير النسوى شارل .

كان من المتعذر على لويس أن يرفض تسلم الإرث . حقاً إنه كان قد وقع لتوه معاهدة التقسيم الثانية التي كانت تمنح النمسا قلب الإمبراطورية الإسبانية ؛ ولكن النمسا لم تكن قد قبلت هذه المعاهدة ؛ كما أنه لم يكن ممكناً الاعتماد على إنجلترا وهولندا لمساعدة فرنسا على تنفيذ تلك المعاهدة . وفي حالة رفض لويس تسلم الإرث لحفيده كانت جميع الأملاك تؤول لشارل ، ولن يلوم أحد لويس إذا هوأحجم عن قبول انتقال كافة الأملاك الإسبانية إلى منافسه النسوى . ولو قد كانت النمسا على شيء من التعقل لاذن لحقت زيادة كبيرة في قوتها دون الالتجاء إلى حرب عالمية . ولو قد كانت إسبانيا على شيء من الحكمة لتفادت الغزو الأجنبي في نظير بقاء التنازل عن بعض الأملاك . ولكن لما كانت كل من النمسا وإسبانيا لا ترضى بأقل من الملك كله ، ولما كانت إسبانيا قد قدرت بحق أن فرنسا كدولة معادية أكثر خطورة من النمسا البعيدة وكدولة صديقة أكثر نفعاً منها ، فقد وجد لويس نفسه مضطراً ليتوقى عواقب أكثر سوءاً — أن يقبل الوصية . وهكذا تسنى لكاردينال إسباني كان يهيمن على الملك وهو على فراش موته يكاد لا يحس بشيء أن يحول ملك فرنسا من نصير للتقسيم إلى درع واق لإسبانيا الموحدة .

ومن ثم أصبحت مهمة المحافظة على السلام عسيرة . ومع ذلك فإن الأمر الذي جعل من الحرب شيئاً لا مناص منه ، لم يكن قبول لويس للوصية بقدر ما كان طغيان روح الجشع الجديدة التي أثارها الوصية في ذهنه . فضى لساعته في سلسلة

(١) الإنذار النسوى إلى الصرب في يوليو ١٩١٤ . عند ما قتل ولي عهد النمسا فرانسوا فرديناند في ٢٨ يونيو ١٩١٤ على يد طالب صربي في سراجيفو وجهت النمسا إنذاراً إلى الصرب في ٢٣ يولية مطالبة فيه بعدة مطالب قبلت الصرب معظمها ولكن النمسا كانت مصرة على الحرب فأعلنتها في ٢٨ يولية .

من عمليات الاعتداء الطائشة . وقد دبرت بشكل يشعل عداء الدول البحرية : فتدفقت جيوشه في الأراضي المنخفضة الإسبانية ، واحتلت مدن الحدود الهولندية . ثم ألزم لويس الإسباني أن يمنحوا فرنسا حق الأسيتو ، أى حق الاتجار في عبيد أفريقيا مع جزائر الهند الغربية الإسبانية . وإزاء مثل هذه الأعمال شعر الإنجليز والهولنديون بضرورة القتال في سبيل المحافظة على كياناتهم التجارية ؛ بل إن البرلمان الثورى دعا الملك وليم (فبراير ١٧٠١) لبدء المفاوضات مع الإمبراطور والدول الأخرى لكبح جماح الفرنسيين . وفي عام ١٧٠١ ، كما حدث بعد ذلك في عامي ١٧٩٣ ، ١٩١٤ ، أشعل اجتياح لإحدى الدول العظمى لبلجيكا نيران الحرب في نفوس الشعب الإنجليزي .

وقد وضع دوق مولبرا Duke of Marlborough ، الذى أثبت وليم بعد نظر في إرساله إلى لاهاي لمفاوضة هنسيوس (كبير عمد المدن الهولندية Pensionary Heneisus في هولندا - وضع أسس المحالفة العظمى التى شنت على فرنسا حرب الوراثة الإسبانية . كانت أهداف المحالفة عملية ، كما حددت منذ البداية ، لدرجة أن أكثرها قد تحققت في معاهدة يوترخت (١٧١٣) بعد مضي اثني عشر عاماً انقضت في نضال باهظ التكاليف . وكان وليم راضياً عن حكم فيليب لإسبانيا ومستعمراتها في العالم الجديد طالما أن الأراضي المنخفضة وإيطاليا وجزائر البحر المتوسط قد انتقلت من حوزة إسبانيا إلى النمسا - وقد دعت إلى ذلك عوامل قامت على أساس الحاجات البحرية للشعبين الإنجليزي والهولندي . فعلى نقيض فرنسا ، لم تكن النمسا خطراً في البحر ولا منافساً في التجارة ، وعلى ذلك يستطيع تجار لندن وأمستردام أن يثقوا فيها ويأمنوها على الممتلكات التى تقع على امتداد الطرق التجارية العظيمة إلى بحر البلطيق والشرق .

ولم تتغير السياسة الإنجليزية بموت وليم الثالث الذى كان في الجليل الذى عاش فيه روح كافة الجهود الأوربية ضد فرنسا ؛ فإن جميع خططه الواسعة من محالفة عظمى وحرب ضد فرنسا ، وانتزاع قواعد بحرية في حوض البحر المتوسط ، وقصد وراثة العرش الإنجليزي على البروتستانت قد أخذت بها جميعاً - كما يذكر لنا الأستاذ ترفليان Trevelyan - الملكة آن Anne ابنة جيمس الثانى ووريثه الكنيسة

الرفيعة ، الفتاة البليدة الورعة التي بفلتة من فلتات الحظ اقترن اسمها بمعهد عظيم . وعلى الرغم من إطلاق الحرية للصحافة في ١٦٩٥ ، وبلوغ الروح الحزبية مبلغاً عظيماً من العنف والحدة ، فقد كان في السياسة الإنجليزية من روح التوفيق ما يكفي النظم البرلمانية لتعمل . وكان تجديداً موفقاً عندما وضعت النواة الأولى لإدارة مدنية عظيمة واستمر الخبراء الماليون يتابعون عملهم من وزارة إلى أخرى . وغلب كل من حزبي الهويج والتوري بدوره مصلحة البلاد . فأتم حزب الهويج الاتحاد بين إنجلترا وأسكتلندا . كما أصدر التوري قانون وراثة العرش Act of Settlement الذي أدى في النهاية إلى استدعاء منتخبي هانوفر البروتستانت إلى عرش إنجلترا وعلى حين موّل الهويج الحرب التي كللت بالنصر ، أنجز التوري الذين تبوءوا مقاعد الحكم في ١٧١٠ الصلح الذي رحب به الناس ، ومن الأمور الأساسية أن البلاد أصبحت رجلاً واحداً ، إذ اندمل الجرح الفظيع بإقرار التسامح الديني في عام ١٦٨٩ للمخالفين للعقيدة الرسمية . ثم إن الوفاق بين مولبرا والملكة ، ومهارة مولبرا السياسية وانتصاراته البراقة ، مقترنة بالسخط الذي ساد قلوب كل الإنجليز البروتستانت عندما اعترف لويس بالمطالب القديم بالعرش ملكاً باسم جيمس الثالث ، كلها كانت أسباباً كافية للإبقاء على الروح الحزبية مشتعلة في البلاد . إذ تعرض للخطر أمن البلاد وتجارها وقصر توريث عرشها للبروتستانت . وإذا كان أعيان الريف قد جزعوا لضريبة الأرض البالغة أربعة شلنات ، وهي الضريبة التي كانت عماد سياسة جودلفين Godolphin لتمويل الحرب ، فقد أدوها حتى نهاية الحرب . وهكذا كانت الروح الإنجليزية . أما الهولنديون وقد انتزعت منهم مدن الحدود العزيزة عليهم في الأراضي المنخفضة الإسبانية ، فإن الحرب كانت بالنسبة لهم مسألة حياة أو موت .

لم تكن الحروب في النصف الأخير من القرن السابع عشر اللعنة المدمرة كما أصبحت اليوم نتيجة لتضافر العلم والتجنيّد العسكري . كانت حروباً تشنها قوات صغيرة من الجنود المرتزقة ، يتف نشاطها طوال فترة الشتاء وهي مدة نصف عام ، وأثناء فصل المعارك القصير ، لم تعد تعيش — كما كان الحال في حرب الثلاثين عاماً — على ما تأخذه من البلاد وإنما على إدارة حكومية منتظمة . وكانت

الحركات الحربية عرضة للبطء والحذر لتلائم عهداً كان فيه أمراء البحر يلبسون الشعر المستعار الطويل ، وكانت عمليات الحصار المنسقة تعد أهم الفنون الحربية . ولما كان القواد مدركين لصعوبة سد النقص في جيوشهم فقد كانوا يسعون إلى تحاشي المعارك القاسية من أن يرحبوا بها . ويستثنى من ذلك مولبرا ؛ فإن ذلك الأمير الإنجليزى الجذاب الذى لولا التعويقات التى جاءت من الهولنديين ، لاستطاع أن يطرد الفرنسيين من الفلاندر فى خلال العامين الأولين من الحرب ، كان توافاً إلى اجتذاب غريمه إلى المعارك بقدر ما كان هذا الغريم راغباً عن ذلك .

كانت ضربات مطرقته حاسمة ، وكان فى وسع الحلفاء على إثر واقعى بلنهام Blenheim وراميللى Ramillies (١٧٠٤ - ١٧٠٦) أن يوقعوا صلحاً مع لويس يؤمن لهم جميع أهداف الحرب الأساسية التى فرضتها المحالفة العظمى . فقد اكتسحت معركة بلنهام الفرنسيين من بقاريا ، كما وضعت موقعة راميللى معظم بلاد الفلاندر فى قبضة مولبرا . ووطد يوجين القائد النمساوى الرائع سيطرة القوات النمساوية فى شمال إيطاليا بمساعدة بعض المعونة من فيكتور أماديوس Victor Amadeus صاحب سافوى ؛ ومع ذلك فقد تأجل عقد الصلح سبع سنوات .

وإن السبب فى إطالة أمد الحرب دون داع لذلك يمكن إرجاعه فى النهاية إلى جمال ثغر لشبونة وملاءمته كميناء لرسو وإصلاح السفن الإنجليزية المكلفة بمهمات فى البحر المتوسط وكانت إنجلترا فى سعيها للحصول على بعض الموانى فى ذلك البحر فى حاجة إلى التحالف مع البرتغال . ولكن كيف يتأتى للبرتغال ، تلك الدولة الصغيرة ، أن تدخل فى قائمة المتحالفين ضد فرنسا إلا إذا اتجه المرشح النمساوى إلى إسبانيا وجمع أعوانه . وطرد غريمه الأمير الفرنسى بمعونة الهولنديين والإنجليز والبرتغاليين ، وثبت أقدامه فى مدريد ؟ وقد أمر بطرس الثانى ملك البرتغال فى معاهدات ميثوين Methuen (١٧٠٣) كشرط لتحالفه مع إنجلترا ، أن يعلن شارل - مؤيداً التأييد المناسب من الحلفاء - عزمه على السعى للمطالبة بتاج إسبانيا . وتمت الصفقة . واتسعت أهداف الحلفاء من الحرب فأصبحت تتضمن غزو إسبانيا لحساب شارل ، وحرباً فاشلة فى شبه الجزيرة الإسبانية امتدت ما يقرب من عشر سنوات ، فكانت الثمن الذى دفعته إنجلترا لكى تحصل على حق استخدام

ميناء لشبونة ، الذى لولاه لما استطاعت أن تحصل من إسبانيا على صخرة جبل طارق ولا أن تنتزع منها بورت ماهون Port Mahon (فى منورقة Minorca) ولم يفتن ساسة الإنجليز إلا تدريجياً وببطء وبعد إحجام إلى أن المسألة الإسبانية (الجاهلية) لم تكن إلا مغامرة يائسة ، وأن شعب إسبانيا الذى هو أكثر شعوب أوربا أنفة لن يقبل مطلقاً ملكاً نمسويّاً تفرضه عليهم دول شالية ماحدة وكرهية ولا البرتغاليون الذين يفوقونهم كذلك بشاعة . وإذا كان القطلونيون قد دمغهم ناركراهيته المتأججة لقشتالة ، كما شجعهم استيلاء «بيتربرا Peterborough» الباهر على برشلونة على تأييد الأرشيدوق شارل بالفعل ، فإن قطلونيا لم تكن قط جزءاً لا يتجزأ من إسبانيا . إذ لم يكن ثمة رابطة مشتركة من اللغة والعادات والمزاج يجمع بين سكان أراجونة ، الإقليم البحرى وسكان الجزء الداخلى من الهضبة إلا بقدر ضئيل . لذلك لم يكن اكتساب شارل القطلونيين المستقلين إلى جانبه الطريق إلى قلوب الشعب الإسبانى . وظلت الغالبية العظمى من الشعب الإسبانى منذ البداية إلى النهاية تؤيد فيليب الخامس .

ويرجع تاريخ سيطرة النمسا على إيطاليا ، تلك السيطرة التى لم تنتزع نهائياً إلا فى عهد كافور وغاريبالدى ، ترجع إلى معاهدة يوتريخت Utrecht (١٧١٣) التى أنهت حرب الوراثة الإسبانية . فقد فشل الإمبراطور فى خطته الإسبانية ، ولكنه عوض فى لمبارديا وسردينيا ونابلى . وبذلك آلت السيطرة على شئون إيطاليا التى خصت إسبانيا منذ أيام شارل الخامس ، إلى حكومة تيوتونية لم تجعلها مواهبها الراسخة فى التنظيم والكفاءة مستساعة للإيطاليين بسبب افتقارها إلى بعض الصفات التى من شأنها أن تجذب عواطف الشعب اللاتينى . ومن العجيب أن يرى المتبصر فى الحوادث مدى توقف مصير إيطاليا على عقائتين إنجليزيتين : عقلية جودولفين Godolphin المالى ، وموليرا الجندى اللذين لولاهما ، بالرغم من دراية الأمير يوجين العسكرية ، لما تغلبت مطلقاً قضية الحلفاء .

وكان من أعظم الأمور ملاءمة للدول البحرية استدعاء الإمبراطور ليحكم الأراضى المنخفضة الإسبانية ، حيث منح الهولنديون صفّاً من استحكامات الحدود ، وتعهدوا بالدفاع عن هذا الإقليم الهام ضد أطماع فرنسا ، وألا يقوم

بذلك الهولنديون وحدهم وإنما تكون إلى جانبهم إحدى الدول العظمى في القارة^(١) . وكانت إسبانيا - وهي الجائزة الأولى التي دارت عليها المباراة - من نصيب لويس . فإن فيليب الخامس الذي كان أثناء الحرب قد طرد مرتين من مدريد ثم أعيد إليها مرتين ، قد عاش ليؤسس أسرة مالكة من البوربون في إسبانيا ، عاشت بعد الثورة الفرنسية والإمبراطورية ، وإذا كانت تعيش في المنفى الآن ، فإنها لا تزال تأمل في عودة الحكم الملكي إلى إسبانيا . وعلى الرغم من الفصل بين التاجين الإسباني والفرنسي فصلاً نهائياً ، فقد كان الارتباط السياسي الوثيق بين دولتي البوربون من معالم الحياة السياسية في القرن التالي ، وكانت له دلالة خاصة عندما عاونت فرنسا وإسبانيا المستعمرات الأمريكية للخلاص من الحكم البريطاني . فكان تسليم البريطانيين في « يوركتون » Yorktown (١٨٧١) رداً على موقعي بلنهام وراملي . كما كان حلقة في سلسلة تلك الانتصارات في « ألانزا » Almanza (١٧٠٧) و « بريهوجا » Brihuega (١٧٠١) وهي الانتصارات التي بفضلها وضع بروريك Berurich وفندوم Vendome أساس الحكم الفرنسي جنوبي الألباس .

وهكذا لم ينته عهد لويس الرابع عشر الطويل بالفشل على الرغم من البؤس الذي عاناه الشعب في السنوات الأخيرة من حكمه . فتحقق وسام Clausa Germanis Gallia « تمجيد لإغلاق بلاد الغال في وجه الجرمان » ؛ كما تحقق كذلك ، ولكن بدرجة دون ذلك حرفية ، القول المأثور الآخر من أقوال الملك الشمس « من الآن فصاعداً لن تكون ثمة برانس » . وإذا كانت فرنسا قد نجت من الغزو حتى أيام نابليون ، فإنما مرجع ذلك جزئياً إلى التحسينات التي تمت في تحصيناتها الشرقية منذ بداية حكمه وظلت مصونة حتى نهايته .

وخرجت لإنجلترا من النضال وقد حققت ليس فقط الأهداف الأصلية التي أرادها ولیم الثالث من الحرب وإنما كسبت أيضاً ميزة لم يتوقعها أحد . ففي أثناء^(٢) اشتراكها في الحرب الطويلة مع هولندا قد جعلت من البحر مجالها الخاص ، بينما قام حلفاؤها بتقديم الجانب الأكبر من القوات البرية التي حاربت تحت قيادة مولرا . وكلما تقدمت الحرب أخذت البحرية الإنجليزية في النمو بينما أخذت البحرية

(١) يقصد المؤلف الإمبراطورية ، أي النمسا .

الهولندية ، إذا قورنت بها ، في التدهور . وهكذا أحرزت إنجلترا في نهاية حرب الوراثة الإسبانية السيطرة البحرية التي كانت موزعة بالتساوي بين الدولتين في منتصف القرن السابع عشر . كما حصلت إنجلترا في تلك الأثناء على قواعد جديدة ومراكز للنفوذ والاستعمار في كل من العالمين القديم والجديد : جبل طارق وپورت ماهون ، ونيوفونلاند ونوفاسكوشيا ، وكان من الأمور العقيمة بالنسبة إلى فرنسا وميزان القوة البحرية على ما أصبح عليه في ١٧١٣ أن تحارب في سبيل هذه الأقاليم . فقد آلت إلى إنجلترا في معاهدة يوترخت بالإضافة إلى الحق الثمين المعروف بالأسيتو وهو حق الاتجار في عبيد أفريقيا (وبعض السلع الأخرى) في المستعمرات الإسبانية .

على الرغم من أن ضريبة الأربعة شلنات كانت موضع حقد أصحاب الأرض ، فإن إنجلترا قد تحملت جهد الحرب بأحسن مما فعلت أية دولة أخرى محاربة ، إذ أن اتساع نطاق التجارة فيها وراء البحار قد قدم جواً من الثقة مكن الأفراد من تقديم القروض ، والحكومات من الاستدانة ، واستطاعت إنجلترا أن تحول حلفاءها عن طريق بنك إنجلترا والقرض الوطني ودقة العمل في وزارة الخزانة . واعتمد التحالف الأوربي كما حدث في حربيين آخرين أقرب عهداً على سلطان المالية الإنجليزية .

وكان مظهراً آخر من مظاهر قوة إنجلترا حصولها على اعتراف من لويس الرابع عشر بأن لا يتولى عرش إنجلترا إلا بروتستانتى ممثلاً في اعتلاء أسرة هانوفر العرش . وهكذا اضطّر الملك العجوز الذي اضطهد الهيجونوت أن ينجي في ساعاته الأخيرة مدينة لندن المارقة التي لم يكن فيها ما يخشى أن يؤثر على رموس الأموال مثل استئناف الصراع القديم العنيف بين الكاثوليك والبروتستانت في إنجلترا .

بينما أقرر إلغاء البروتستانتية في ١٦٨٥ الحياة الدينية في فرنسا بدرجة عظيمة ، وفشل في توحيدها كلية . فعلى الرغم من انتصار الجزويت وتسلطهم الكامل على البلاط ، فإنهم لم يكونوا الفرقة الوحيدة في الميدان . ففي داخل الكنيسة الكاثوليكية نفسها قامت حركة تستمد أصولها من نفس الأسس الروحية للبيوريتانية ، وفي بعض النواحي من مصدرها الديني ذاته ، وقد تحدثت عقيدة فرساي المألوفة ، وعاونت بقوة في النصف الأول من القرن الثامن عشر على إعداد حركة مقاومة

سياسية للعرش . وقد استمد الجانسنست Jansenists اسمهم من جانسن Jansen أسقف « إيبير » Ipres (١٥٨٣ — ١٦٣٨) ، وهو مؤلف ثلاثة مجلدات خطية عن القديس أوجسطين St. Augustine ، أدانها البابا في عام ١٦٤٢ — والذين قرءوا المؤلفات العلمية لهذا الكاثوليكي الهولندي قلة ، وكان أقل من هؤلاء كذلك من استطاعوا أن يتنبأوا بأن فيضاً من النشاط الروحي سيهبط على فرنسا من ذلك المصدر . وإن البون ليبدو شاسعاً بين حذقة جانسن Jansen وفصاحة أرنولد Arnauld وسخرية يسكال Pascal الشائعة وجمال شعر راسين المصقول المليء بالتأمل . ومع ذلك فقد كان أرنولد ويسكال وراسين أزهاراً في شجرة واحدة هي أوجسطين نفسه ، وقد ترعرعوا على عقيدة الغفران ، التي اهتدى إليها مارتن لوثر في القديس أوجسطين ، والتي على ضوءها انساق كثيرون نحو الاعتقاد في القضاء والقدر ، ونحو الورع الشخصي الخالص ونبذ جميع الوسائل السهلة السطحية لخلاص الروح .

وقد كان ظهور رسالة أخلاقية كتبها قسيس فرنسي شاب في عام ١٦٤٣ مهاجماً الوهم السائد بأن الإكثار من تناول القربان المقدس يكفر عن الحياة الشريفة المستمرة بمثابة حلقة الاتصال بين جانسن الأسقف الهولندي والتمدينين من أفراد الشعب الفرنسي . إن لرسالة « أنطوان أرنولد » Antoine Arnauld عن « تكرار القربان المقدس » De la Frequent Communion فعل السحر في نفوس المخلصين . ففي عهد انتشر فيه الرضا بالتهتك كان ظهور ذلك الثوران المتهب في أسلوب بامغ مؤمن يمثل نكوص الضمير المسيحي عن التعاليم الدنيوية التي كاد يعظ بها الآباء اليسوعيون ، الذين جعلوا مذاق الدين مستساغاً لذوى المشارب الدنيوية أثناء محاولتهم استرجاع كافة الأفراد على اختلاف طبقاتهم وميولهم إلى حظيرة العقيدة . وكان قد ترعرع منذ أمد بعيد نوع صارم من الورع الكاثوليكي في بعض المجتمعات الدينية ، وخاصة في دير للراهبات بپور رويال Port Royal على مقربة من فرساي ، وقد شاع في العاصمة بين أفراد الأسر القضائية الوقورة . ولمثل هؤلاء كانت رسالة « التكرار » De la Frequent بمثابة صيحة النداء تدعو لمقاتلة قوات الانحلال والرديلة .

وعلى ذلك كان الجانسنست پيوريتان الكنيسة الكاثوليكية في فرنسا ، وهم في

روعة أخلاقهم واستقامتهم ، وشدة غيرتهم على المبادئ وهو أمر واضح في كل مظاهر العبقرية اللاتينية ابتداء من لوكريتيوس Lucretius إلى كوندورسيه Condorcet ، قدموا بمعيشتهم وبكتاباتهم كذلك أبلغ التعنيف لعهد اتصف بالفجور . وذهب بعضهم إلى أقصى أنواع التطرف . فأدانوا الشعر والفن وفضلوا هزال الحريف الحزين على حيوية النمو في الربيع . وأراد جميعهم العودة بالكنيسة إلى حالتها الأولى كما خشوا تقدم العلوم . وإذا قورن الحانسني باليسوعي المرن الذي يعلم أن الكنيسة لا يمكنها أن تحيا إلا إذا وفقت بين تعاليمها والأحوال المتغيرة لعالم متغير بدا الحانسني في صورة الطائفي الخطير غير العملي . وعلى حين عد الحانسني اليسوعي رخواً أكثر مما ينبغي رأى فيه اليسوعي ضيق أفق أكثر مما ينبغي أيضاً : ففريق (هم اليسوعيون) يرون أن ليس في استطاعة البشر على الإطلاق أن يرقوا إلى عرش الرب عن طريق الفضيلة القاسية المجدبة ، وفريق آخر (هم أتباع جانسن) يصرون على أن الرب لن يتقبل على الإطلاق تحالفاً يقوم على الدهاء مع الرذيلة . فريق يسعى ليجعل الطريق إلى السماء سهلة معبدة لكثيرين ، وفريق يصبر على أن هذا السبيل يجب أن يكون صعباً على الدوام ومقصوراً على الصفوة .

وقد أسفر التصادم في الرأي عن ظهور مؤلف بسكال « الخطابات الإقليمية » Lettres Provençales (١٦٥٦ - ١٦٥٧) . وفي هذه الرسالة الجدلوية المشهورة استخدمت كافة أساليب السخرية الحفيفة والجلد الحار لمهاجمة الفتاوى التي اتهم اليسوعيون باستخدامها لتبهم التمييز الواضح بين الصواب والخطأ . وقد زاد في أهمية هذه الرسالة أن مؤلفها لم يكن من رجال الدين المحترفين ، وإنما كان رياضياً عبقرياً تمتع بذكاء مبكر يبعث على الدهشة ، وخصوبة في الابتكار . (جمع بين وضوح الذهن العلمي الممتاز وقوته وشبهات سقيم ورع متحمس ودقة أحاسيسه الرائعة . واستطاع بسكال بإحساسه العميق (فقد تحول عن دينه مرتين) ، وأسلوبه السهل البسيط الذي خلص النثر الفرنسي من التكلف ، استطاع أن يستخرج محصولاً وافراً من الأخلاق الدينية من مكمنها على مرأى من الجميع ، وأن يعرضها في ضوء النهار وفي وضوح لا يعرف رحمة ٥

ولم يعيش اليسوعيون ألبتة على إثر هذا الهجوم العنيف ، وإذا كانت صفة

(يسوعى) لا تزال باقية على ألسنة الناس رمزاً للتحايل المقنع الكبير على الغش والاحتيايل ، فإن هذا يرجع لدرجة كبيرة إلى « الخطابات الإقليمية » التي جعلت للجانسنية تأثيراً أقوى وأوسع مدى على الحركات العسكرية والأخلاقية لذلك العصر كما وصمت طائفة الجزويت بطابع الخط من قدر آداب المعاملة في العالم المسيحي .

ومع ذلك فإن طائفة الجزويت لا طائفة الجانسنست هي التي كانت رهن إشارة العرش خلال حكم لويس الرابع عشر الطويل ، وساعدت على تشكيل سياسة الدولة ؛ إذ كان الجزويت أصدقاء الملك أما الجانسنست فقد كانوا موضع رية الملك منذ ارتباطهم غير الموفق في وقت مبكر ببعض الأعضاء البارزين أيام حرب الفرونند. فكان نصراً للجزويت عندما أدان البابا أنوسنت العاشر في عام ١٦٥٣ خمسة مقترحات يشك في أنها جاءت في كتاب جانسن عن أوغسطين (Augustinus) ثم كان نصراً آخر للجزويت عندما أحرقت علناً الرسائل الإقليمية في عام ١٦٦١ . وأخيراً تصالح جماعة الجانسنست مع البابا في سنة ١٦٦٩ ، وتمتعوا بفترة حصانة نسبية من الاضطهاد . ولكنهم ظلوا مع ذلك بعيدين عن قلوب الناس وعن أى نفوذ سياسى . وما يشرف الجانسنست أنهم أثناء النضال العنيف الذى دار بين لويس الرابع عشر وأنوسنت العاشر ، وهو النضال الذى حدث نتيجة لمطالبة الملك بريغ أملاك الأسقفيات الشاغرة ، أنهم أخذوا جانب الكنيسة الرومانية في مقاومتها سوء استخدام الملك لسلطانه دون مسوغ ، ولم يكن ذلك مما يرضى عنه الشعب الفرنسى . إذ كان يثار الشعور القوي الجارف في فرنسا مع الملك في تصديه للدفاع عن حرية الكنيسة الفرنسية ضد تدخل البابوية .

أما أهمية الجانسنست من حيث تأثيرهم السياسى فكان وقتها لم يحن بعد ، إذ تميزت السنوات الأخيرة من حياة الملك بظلال عميقة من الكوارث في خارج البلاد والورع الحزين في داخلها ، فقد اختلت الأحوال المالية منذ موت كولير . واستبدل بالقروض القصيرة الأمد التي عقدت لتمويل الحرب نظام من الاقتراض غير المباشر ، ثم حل محل هذا النظام بدوره ظهور طبقة جديدة من التجار الوسطاء الذين غدروا بالدولة وأدخلوا في جو البلاط سمّاً جديداً . لم يكن لويس رجل تدين ،

ولكنه كان يؤمن بالخرافات إلى أقصى درجة ، لذلك قرر أن يشن هجوماً جديداً على الآراء المخالفة للكاتوليكية حتى يخفف من غضب الآلهة ويبدل من سوء طالع جيوشه . ولما كان قد كسر شوكة البروتستانت فإنه كان على استعداد حينئذ ليستمع إلى نصيح كاهنه اليسوعي الذي كان يتلقى اعترافه وأن يتخذ الإجراءات ضد الجانسينيين . وإن الوحشية التي لا مثيل لها التي وجهت بها هذه المعركة لصفحة سوداء في تاريخ التعصب الديني : إذ طردت الراهبات من ديرهن في Port Royal de Champs « بور رويال دى شان » ، وهدم الدير ، وانتهكت حرمة مقابره ، وتركز الهجوم على ترجمة فرنسية للعهد الجديد ، كانت قد نشرت في ١٦٧١ مصحوبة بتعليق متقن « لپاسكييه كوزينال » Pasquier Guesnal أحد البارزين من جماعة الجانسينست . ولما لم يكن ثمة ما هو أيسر على يسوعي من اتهام كتاب مخالف له بالكفر أو الحصول على إدانته من روما ، فقد أصدر البابا قراراً بمصادرة مؤلف الزعيم الجانسيني . وعلى الرغم من احتجاج خمسة عشر أسقفاً والمعارضة القوية التي أبدتها برلمان باريس صدر مرسوم بابوي فريد في نوعه Bull Unigenitus بعد ١٠١ مسألة منافية لأحكام الدين في ذلك الكتاب الذي تعب في إخراجه قديس مسيحي ؛ واعتبره أغلب إقرائه أثراً خالداً لقداسة الإنجيل .

وعندئذ حان دور الجانسينيين ليسيروا إلى جانب الجاليكانيين (أنصار حريات الكنيسة الفرنسية ^(١)) ضد ادعاءات السيطرة البابوية ، وقد أضاف تحالف هاتين الطائفتين الدينتين معاً إلى تزمت أنصارهما في التمسك بالفضائل المسيحية ، أضاف إليهم مركزاً شرعياً وفخاراً وحماساً . وفي مقابل فرنسي واحد تأثرت عقائده الدينية بتعاليم جانسن كان هناك عشرة يأنفون من تدخل البابا أو ينقمون على جماعة اليسوعيين سلطانهم ، ونشأ الصراع عقب موت لويس الرابع عشر وأثيرت فيه مشاعر وآراء كثيرة منها ما كان متأثراً بالجانسينيين ، ولكن أغلبها كان متأثراً بالجاليكانية . وقاد المعارضة برلمان باريس وأيده اثنا عشر برلماناً في الأقاليم ضد التحالف القائم بين الملك وطائفة اليسوعيين . وكان النضال طويل الأمد وعنيفاً أثيرت أثناءه كل

(١) الحرص على حريات الكنيسة الفرنسية - حريات الكنيسة الغالية (الفرنسية) (انظر الهامش

الآراء السياسية تقريباً التي أدت بعد ذلك إلى إقامة حكومة ديمقراطية في فرنسا .
 فقبل ظهور العقد الاجتماعي ١٧٦٢ بأمَد بعيد وقع النزاع بين الملك و برلمان باريس -
 ذلك النزاع الذي كان يرجع في أساسه إلى مصادرة البابا لرسالة جانسنية ،
 فعود الشعب الفرنسي على فكرة الحكومة الدستورية والملكية القائمة على رضا
 الناس - وعندما طردت طائفة الجزويت من فرنسا عام ١٧٦٤ أصبح المسرح
 مهيباً للحركات التي أدت إلى الثورة الفرنسية ، وإلى ذلك الأفول الملحوظ في
 سلطان البابوية وهيبتها ، ذلك الأفول الذي هو أحد المظاهر البارزة لعصر الثورة .

وفي التاريخ لا يقف شيء عند حد معين . على أنه قد يكون من الملائم أن
 نتخذ من صلت يوترخت نقطة مميزة ، ضعفت بعدها بدرجة محسوسة أهمية الدوافع
 الدينية والأسرية التي لعبت من قبل دوراً عظيماً للغاية في تشكيل سياسات الدول ،
 وحل محلها الصراع على المستعمرات والأسواق - فالصراع الطويل بين إنجلترا وفرنسا على
 السيطرة الاستعمارية وهو الصراع الذي يميز القرن الثامن عشر ليست فيه ذرة من
 المصالح الدينية أو الأسرية . فقد تقدمت الصفوف طبقة جديدة لم تكن تهتم بشيء
 من هذا ، وامتلكت حينئذ من القوة ما يمكنها من التأثير في سياسة الدول .

وفي ذلك الوقت أخذت العلوم كذلك تستكمل كيائها حتى تستجيب بدرجة
 كبيرة للحاجات المادية للحضارة النامية . ولما كانت الجامعة في العصور الوسطى
 أداة تثقيف الكنيسة الكاثوليكية ، فقد ظلت تعمل في نطاق الحدود الصارمة للتعالم
 الكنسية . وترتب على تبجيل السلطة الدينية تحريم البحث الحر . وساد الاعتقاد
 بأن النصوص المقدسة للإنجيل ومؤلفات أرسطو التي ما كانت لتقل عنها كثيراً
 في الأهمية قد احتوت على كل ما تلزم معرفته ، وعلى كل ما من السلامة الإيمان
 به . فكل ما جاء في هذه المؤلفات الكنسية صحيح وكل ما لم يبيح فيها غير ذي
 أهمية ، وكل ما تعارض معها باطل . فعندما دعا « كرشر » Kircher أستاذاً يسوعياً
 في بداية القرن السابع عشر إلى التطلع خلال مجهره إلى البقع التي اكتشفت حديثاً
 على الشمس أجاب الأستاذ : « يا بني ، هذا عبث ، لقد أنجزت قراءة أرسطو
 مرتين فلم أجد شيئاً عن البقع الشمسية . ليس هناك بقع على الشمس » . كان من
 الإلحاد إذن الاعتقاد في نظرية كوپرنيكوس عن الكواكب ، ومن الكفر إنكار خلق
 الكون منذ نحو أربعة آلاف سنة قبل المسيح ، ومن الإلحاد تعطيل بعث المرء

بتمزيق جثته . وعلى هذه الصورة كانت القيود الثقيلة التى كبلت التعليم فى كليات العصور الوسطى .

ولكن العالم كان أوسع من الجامعات . فالملاحون يهتدون بالنجوم فى تسيير سفنهم ويلاحظون ذبذبات البوصلة : والمهندسون البحريون ، إذ يرقبون حركات المد والجزر ، والمعدنون إن يصارعون الاختناق الناتج عن الغاز أو الماء فى باطن الأرض ، وصانعو الأسلحة إذ يعنون بمئاته بنادقهم ومدافعهم ، كل أولئك كانوا ينشئون بالتدريج مادة للمعرفة بعضها فى وبعضها علمى ، وكلها بعيدة عن مناهج الدراسة بالجامعة ، ولم تتأثر قط بما انهمكت فيه الجامعة من العلوم ، واستلزمت الملاحظة دراسة علم الفلك ، وأدت إلى الدراسات البصرية ، وعن طريق البوصلة توصلت إلى دراسة الجذب المغناطيسى . ولوضع جداول خطوط الطول ، كان من الضرورى التأكد من القوانين التى تتحكم فى حركة القمر ؛ كما أدى تحديد خطوط العرض إلى وضع مصور للأجسام السماوية . ونظراً للصراع الدائم بين اليابسة والماء فى الأراضى المنخفضة ، كان طبيعياً أن يكون أول تقويم علمى لتاريخ حركات المد والجزر وتسلسلها (١٥٩٠) من عمل مهندس هولندى يدعى ستيفن Stevin . وعندما أصبح فن الحرب يعتمد بصورة متزايدة على المشاة ، فإن تعدين الحديد والنحاس قد أصبح له دافع جديد ، ونتائج ذات أهمية تزداد على الدوام .

والتعدين هو الأصل الذى أثمر كثيراً من العلوم والفنون التطبيقية (التكنولوجيا) . فقد تبين منذ القرن السابع عشر أن مهندس التعدين المثقف ينبغى أن يعرف علم تقسيم الأراضى بواسطة علم مساحة المثلثات ، وهندسة إقليدس ، واستعمال البوصلة . وصناعة أجهزة التهوية وأجهزة نزع الماء ، كما فرضت مشاكل متنوعة نفسها عليه وهى تتعلق بعلم توازن الهواء والسوائل المرنة ، ومشاكل علم السوائل المتحركة ، والمشاكل الميكانيكية ، وبالمثل كانت سلامة المعدن ونتاج المنجم يتوقفان على قوانين العلوم الطبيعية .

ولا يكاد يقل عن ذلك أهمية تطور التفكير العلمى والاختراع الذى ابتدأ بالتطورات الحديثة فى فن الحرب . فنذ وقت مبكر منذ عام ١٥٣٧ كان « تارتاليا » Tartaglia يعمل فى دراسة مسير الرصاصة فى اندفاعها . وقد أثار

علم حركة المقذوفات أعوص المشاكل في علم الطبيعة بأسره . منها مقاومة الهواء لكرة تخترقه ، مسير الكرة في الفضاء ، سقوط الأجسام تلقائياً بتأثير جاذبية الأرض ولذلك كان افتتاح جاليليو براهينه الرياضية بتوجيه كلمة شكر إلى دار الأسلحة بفلورنسا أمراً له دلالة. إذ كانت الدار مسرحاً لكثير من النشاط ، ومستودعاً عظيماً لكثير من المواد التي أفادت البحث العلمي .

وفي تلك الأثناء كانت الاضطرابات الدينية والسياسية لذلك العصر تعمل عملها في إضعاف الدعامات القديمة التي تقف في وجه المعرفة الجديدة . فلم تعد أوروبا موحدة العقيدة ، كما أن الملكية لم تسلم من التحدى . وإن الاكتشافات الثورية المثيرة لحقيقة طبيعة القشرة الأرضية قد مهدت الجو الملائم للتجديدات الفكرية وحقرت من شأن التقاليد القديمة . ولم تعد الحياة العقلية الراقية مقصورة على الجامعات وإنما وجدت أدوات ملائمة لسد حاجياتها في هيئات جديدة مثل كلية في فلورنسا يطلق عليها Academia del Cimento ، والجمعية الملكية في إنجلترا ، وقد أنشئت كلاهما في منتصف القرن السابع عشر ، وكرست جهودهما للكشف والتجربة . وكان Provere et reprovare الإثبات ثم الإثبات مرة ثانية شعار أهالي فلورنسا ، أما شعار الإنجليز فكان (Nullius in verba) « لا شيء مكتوب » .

وقد أظهر ذلك أن الروح العلمية الصحيحة التي كانت قد اختفت من أوروبا منذ تدهور جمهوريات المدن اليونانية ، قد استردت مكانتها بين الشعوب اللاتينية والنيوتونية .

وشهد القرن السابع عشر تأليف هاملت Hamlet وتارتوف Tartuffe ، الفردوس المفقودة Paradise Lost ، كما شهد Principia لنيوتن . وكان ذلك هو العصر الذي عاش فيه رامبرانت Rembrandt وروبنز Rubens ، وفاندليك Van Dyck ، وهوبما Hobbema ، ورويزدايل Ruysdael ، وفرانز هالز Franz Hals . كما سمعت فيه كذلك الأنغام الأولى للأوبرا الإيطالية ؛ وسمعت فيه لأول مرة ألحان بورسيل Purcell الموسيقية وأوتار كمان ستراديفاريوس Stradivarius . وفي هذا العصر تزود البحارة بالبوصله والبارومتر ، ورجل العلوم بالمنظار المكبر والمجهر ، والطبيب بالكينا (دواء الحمى) ومقياس الحرارة (الترمومتر) ، والرياضي بالبندقية ذات الأعيرة

النارية . وزادت وسائل الراحة في الحياة اليومية باختراع ساعة اليد والحاظ ، وأدى تعميم استعمال الشوكة (لاقطة الطعام) إلى حرمان الشرهين من نصف كميات طعامهم الضخمة ، لقد كان هذا العصر عصر ازدياد في الثروة واتساع في نطاق التجارة الدولية في الكماليات : فالعصر الذي عاش فيه البيوريتان والجانسنست قد تميز باكتشاف الثلجات والشمبانيا ، واستيراد ما هو أنفع ألا وهو الشاي والبن ، وباستخدام الشموع في قاعات فرساي الفاخرة ، وكانت إذ ذاك أجمل وسائل الإضاءة . وفي النصف الثاني من القرن السابع عشر ظهر أول بستانى رسمى وأول إخصائى وأول امرأة احترفت مهنة التمثيل على المسرح . على أن هذا العصر الذى شهد نشاطاً في هذه وغيرها من أسباب الحياة السعيدة ، مثل إضاءة الشوارع ، والتأمين البحرى ، وتعريفه بريد لندن ، كان رغم حضارته المعقدة المتقدمة عصر حروب لا تكاد تهدأ . على أن أحداً لم يلق بالا لشعور الناس لا في السياسات التى أثارت الحروب ولا في التسويات التى أصلحت بين المتخاصمين . فالنظريات الديمقراطية لم تكن موضع نظر ، كما لم تكن موضع تنظيم . وكانت الصحافة لا تزال في مهدها . وبعد اضطرابات الفروند والثورة العظمى اتجهت دول القارة الأوروبية — كما لو كانت تبحث عن أمنها — إلى حكومات تزايدت نزعتها الأوتقراطية . وضرب لويس الرابع عشر في علم الاستبداد الوراثى وفنه مثالا بهر أنظار كل إسكندناوة وألمانيا بحيث لم تقويا على مقاومته . على أن أوربا القرن السابع عشر قد تماسكت على الرغم من الحرب المستمرة ؛ فإن الشعور بحضارة مشتركة ومصالحة أوروبية عامة في الاحتفاظ بالتوازن الدولى كان أقوى من أن يمحوه نشاط جيوش مرتزقة غير متجانسة في فصل الصيف . وقد أثبتت تسعة مؤتمرات سياسية كبيرة بدأت بوسفاليا وانتهت ببيوترخت قوة العمل الدولى المتزايدة وانصرام تلك الحقبة من التاريخ الأوروبى حين كانت الشعوب المسيحية كلها مجمعة على أن تعترف للبابا بدور الوسيط الدولى .

ومما تجب ملاحظته كذلك أن الحروب التى شنت ضد فرنسا ولأت عصر لويس الرابع عشر ، لم تشن عليه مطلقاً بروح معادية للثقافة الفرنسية . فالمكانة الفكرية والاجتماعية للملكية الفرنسية بدلا من أن تحط منها أطماع لويس الرابع عشر أصول التاريخ الأوروبى

الحربية في نظر أعدائها قد لقيت منهم تمجيذاً مضاعفاً . فالكتب الفرنسية لم تصبح أقل تداولاً بين الأفراد ، ولا العلوم الفرنسية أقل احتراماً ، ولا الأزياء الفرنسية أقل انتشاراً بسبب اتحاد نصف أوروبا ضد الملكية الفرنسية . فقد هيمنت الحضارة الفرنسية المتمثلة في براعة مؤلفيها وعلمهم الغزير . فرسمت معالم كل مجتمع توافى إلى الحصول على أقل قدر من خلاصة الحضارة فيما بين الحدود الروسية والمحيط الأطلنطي . وليس ثمة ما هو أوضح دلالة في التمييز بين حروب الملكية في ذلك العصر والنضال القوي في أيامنا من استمرار تفوق فرنسا في أوروبا على الرغم من المقاومة السياسية المرة التي أثارها أطماع ملك فرنسا وحبه للسيطرة .

كتب يمكن الرجوع إليها

- Macaulay : History of England (1858-1862).
- G.M. Trevelyan : England under Queen Anne (1932-1934).
- J.R. Selley : Growth of British Policy. 2 vols. (1895).
- E. Lavisse : Histoire de France, Vol. VIII.
- W. Coxe : House of Austria (1847).
- Winston Churchill : Life of Marlborough (1934).
- C.T. Atkinson : Marlborough and the Rise of the British Army (1921).
- Sainte-Beure : Histoire du Port Royal. 5 vols. (1840-1859).
- E. Bontoux : Pascal. Tr. E.M. Creak (1902).

الفصل الثانى والعشرون

القرن الثامن عشر فى إنجلترا وفرنسا

نفوذ إنجلترا بعد عام ١٧١٤ - جون لوك - فولتير - مونتسكيو - طبيعة الفلسفة الفرنسية - الفيزيكرات (The Physiocrats) - الحكومة الإنجليزية فى القرن الثامن عشر - عصر جورج الثانى - الاضطرابات فى فرنسا - العقبات فى سبيل الإصلاح .

كان للثورة الإنجليزية التى قامت عام ١٦٨٨ . وما أعقبها من تولى أسرة هانوفر العرش وتثبيتها . تأثير عظيم فى الفكر الأوروبى . مضت مشاهدتها بيضاء لم ترق فيها دماء ، ولم يصحبها من المساوى ما كان الناس يظنونونه منذ الاضطرابات المشؤومة التى وقعت فى عام ١٦٤٨ أمراً لا محيص عنه . ثم هى بعد ذلك قد حققت من المنافع الدينية ما اتضح أثره فى التسامح الدينى ، وحرية الصحافة ، وإقامة الحكم النيابى ؛ كل أولئك قد أوجد شعوراً عاماً قوياً من الدهشة والإعجاب ؛ إذ أضحت إنجلترا - رغم ثورتها - وقد توافر لها من أسباب القوة والثراء ما لم يكن لها به عهد من قبل ، ثم هى فى البر والبحر قد كانت الروح المهيمنة للحلف الدولى الذى كبح جماح لويس الرابع عشر ، وهى قد أصبحت قادرة على أن تشن الحرب وت عقد الصلح وتشق طريقها وسط التيارات الدقيقة التى لا بست تغيير الأسرة الحاكمة دون أن تعثرها انقلابات داخلية ؛ كما استطاعت فوق ذلك أن تدعم مركزها الداخلى تدعيماً قوياً باتحادها مع إسكتلندا فى عام ١٧٠٧ .

وإذا صح أن تكون هناك فلسفة تبررها الأحداث ، فإن الأحداث قد بررت فلسفة الهويج التى ظهرت الثورة الإنجليزية ، وكان رسولها العظيم وصاحب وحيها جون لوك ؛ فى رسائل هذا العالم الرزين الخير من أبناء جامعة أكسفورد يلتمس جوهر الفكر فى عصر الاستنارة ؛ فهو صاحب المذهب القائل بأن الفكر ليس فطرية نابعة من الغريزة وإنما هى انعكاس لصدى الأحاسيس (رسالة فى الفهم البشرى ١٦٩٠) - (Essay on Human Understanding, 1690) - وهو صاحب المذهب القائل بأن الحكومة المدنية ينبغى أن تكون قائمة على رضا المحكومين ، وهو صاحب

الرأى بأن الملكية الخاصة حق لا يكسبه غير العمل ، ويؤمن بالتسامح الديني وتنشئة الشباب تنشئة عقلية ، وعنه وعن معاصره العالم العظيم « إسحق نيوتن » بوجه خاص ، وعن « هنرى سانت جون » ، و « لورد بولنجبروك » بوجه عام ، تسربت إلى فرنسا طائفة من المذاهب العقلية . ومن ثم أخذت تنتشر وتنمو بحيث غدا ما عداها هناك رقيقاً بالياً يكاد يكون من سقط المتاع .

ولقد كان « فولتير » داعى الدعاة لترويج وتصميم المذاهب الإنجليزىة الجديدة فى فرنسا ، وكان من أنشط الكتاب فى زمانه ، وألمعهم ذكراً ، وأطولهم عمراً ، وأبعدهم أثراً ، وألمعهم شخصية بحيث أضحت إمامهم فى أوربا ؛ ذاق مرارة الظلم الذى ساد زمانه فى فرنسا واكتوى بناره ، فزج به فى سجن « الباستيل » دون محاكمة ؛ لأنه تحدى أحد النبلاء . كما زار إنجلترا عام ١٧٢٦ وبقي بها حتى عام ١٧٢٩ . وهناك أعجب بما رأى من حرية الشعب وما هو عليه من حيوية وثقافة . ثم مثل بعد ذلك أمام البابا ، وقرأ مؤلفات « أديسون » ، و « سويفت » ، و « بيكون » ، و « لوك » ، و « نيوتن » ، و « شكسبير » . وقد أوضح لمواطنيه فى مؤلفه « رسائل عن الإنجليز » (Lettres sur les Anglais 1733) الذى نشر عام ١٧٣٣ ، معالم ذلك المجتمع السعيد الباهر ، حيث يستطيع الفرد أن يقول وينشر ما يريد ، وحيث لا تعذيب ، ولا حبس بغير حق ، وحيث يتاح لمختلف المذاهب الدينية أن تتردده ومن بينها المذهب المعروف باسم الكويكر (مذهب الأصدقاء) ؛ وقد بلغت بهم الجراءة أن أعلنوا أن الحرب عمل يخالف مبادئ الدين المسيحى . و « الإنجليزى » فى رأيه « لا يسلك إلى النعيم إلا السبيل التى يرضاها لنفسه ، ولا عسف ولا تحكم فى فرض الضرائب ولا يعنى نبيل ولا كاهن من دفع ضرائب معلومة ، والفلاح يستمتع بالخبز الأبيض واللباس الحسن ، وهو آمن على ما يدخر ، لا يخشى إن أضاف إليه زيادة فى الضريبة فى العام التالى » . وبعد ذلك بقليل زار إنجلترا عظيم آخر من عظماء فرنسا ، هو منتسكيو الذى جاء إليها بين عامى ١٧٢٩ ، ١٧٣١ ليفيد من الإطلاع على أحوال أهالى الجزيرة البريطانية . ولم يكن فى حديثه عنهم أقل حماسة من سلفه . جاء فى مذكرات كتبها عن رحلاته Travel Notes « أن إنجلترا أكثر دول العالم حرية ، لا تكاد تنازعها فى ذلك جمهورية واحدة ، وفى رأى أنها

حرة لأن ملكها مقيد السلطان ، لا يملك لفرد من الأفراد ضراً محسوساً . على أنه في كتابه « روح الشرائع » Esprit des Lois الذى ظهر عام ١٧٤٨ وضع فلسفة للتاريخ لقيت من الرواج ما جعل لها في الناس أعمق الأثر ورأى فيها—مخطئاً— أن السر الحقيقي في حرية الإنجليز كامن في الفصل بين سلطات الحكم الثلاث: القضائية والتنفيذية والتشريعية .

وظاهر أن أبرز ما ميز الحركة الفكرية التي بدأت في فرنسا هو الاهتمام الشديد بتجديد المجتمع . فإن التأمل الميتافيزيقي كان أناقة لا ترضى ذهن فولتير العلمى الواضح ، ولا أذهان معاصريه من رجال الفكر الفرنسى ؛ وكانت فلسفة لوك وتلميذه الفرنسى « كوندياك » فيما وراء الطبيعة ؛ كافية لتحقيق هدفهم وهو تطبيق الفكر الإنسانى دون تهيج ودون الرضوخ لأى قيد من قيود الدين للتحرر من أضغاث العصور الوسطى وإصلاح حالة الفرد ، وازدهرت في فرنسا تبعاً لذلك طائفة من ألوان الأدب الفلسفى والإنسانى من الرسائل والبحوث التاريخية إلى جانب البحوث الفلسفية والتربوية والتشليليات بين تراجيدية وهزلية . وتوجب هذه الحركة بظهور دائرة المعارف الكبرى في أربعة وثلاثين مجلداً بين عامى ١٧٥١ - ١٧٧٢ . ولم يقتصر تأثير هذه الحركة الخطيرة على فرنسا ، بل تعداها إلى سائر الأقطار الأوروبية فأدت أجل خدمة بما حملت من نعى على العنف في شتى صوره وعلى الاعتقاد في الخرافة ، والأفكار البالية ، والظلم ، وعدم التضامن بين الطبقات في بناء المجتمع الأوروبى ، وهجوم على ما كان شائعاً فيه من معتقدات دينية واجتماعية . وقد نعت بعض كتاب العصر بالإلحاد الصريح الصارخ ، وكان فولتير وروسو—وهما ألمع كتاب عصرهما—من أئمة المفكرين المناهضين لرجال الدين .

وعن طريق اللغة الفرنسية التي حلت محل اللاتينية باعتبارها لغة الثقافة الأوروبية، أخذت هذه التأليف طريقها إلى البلاد الأخرى حيث كان لها تأثير لا يقلل من أهميته إن لم يكن ثمة بلد أوروبى واحد— باستثناء إنجلترا— إذ ذاك من النضوج بما يؤهله لممارسة النظم البرلمانية، فذاعت آراء فولتير وروحه في بلاط الملوك المستبدين بين برلين وڤينا وسان بطرسبرج ، ومدريد . وكان العصر يومئذ عصر الملوك المستبدين من أمثال فردريك الثانى ملك بروسيا، وكاترين الثانية قيصرة روسيا ، وجوزيف الثانى

لإمبراطور النمسا ، الذين كانوا يرون أن السلوك الأبوى للحاكم المطلق هو وحده الوسيلة الكفيلة لتحسين أحوال المجتمع ، وإعلاء شأنه ، وليس ثمة حاجة إلى وسائل أخرى .

لم يكن الفضل إذن في انتشار آراء المفكرين من فلاسفة فرنسا وإعطائها لواء الزعامة يومئذ مبعثه مظاهره الحكم الديمقراطي ، فقولتير لم يكن ديمقراطى النزعة ، ولم يكن يهمه أو يهم المفكرين من أمثاله تقرير أداة الحكم وضبطها ، وإنما كانوا يرمون إلى تحقيق الحرية في أوسع معانيها : حرية الفكر ، وحرية القول ، وحرية النشر ، وحرية الفعل . والحرية في رأيهم هى العلاج الناجع في شتى أنحاء العالم ، فقد كان من مبادئ المفكرين الفرنسيين التى اتسع ذبوعها — دون أن تعم أنحاء العالم — أن طبيعة البشر من عجينة واحدة في كل زمان ومكان . فعلى الرغم ، مما سجله كل من قولتير وجييون من أحوال الماضى ، ظلت الفروق بين الماضى والحاضر غير واضحة حتى وجدت الأجيال التالية في قصص ويثربلى (Waverle Novels) تصويراً لمجتمعات تخالف تماماً ما عرفوا في مجتمعاتهم .

ولقد كانت النزعة العامة للفكر الفرنسى في القرن الثامن عشر وهى التجريد والمنطقية والعالمية معاً ، والتأثير الشديد بما استحدثه العلم من جديد شائق ، وبما توقعه الناس من تحقيق السعادة للفرد كنتيجة لتطبيق الإدراك السليم دون أى قيد .

وطغت على القرن الثامن عشر موجة عاتية من العداء لرجال الكنيسة . مبعثها اتجاه الفلاسفة الفرنسيين جميعاً — كما آمن بلاشفة الروس المكافحون — بأن سلطان الكنيسة بما فيه من عتو وإيهام قد وقف حجر عثرة في سبيل كل تقدم فكرى واجتماعى . وليس من شك في أن حملات قولتير على العيوب الظاهرة في حياة الكنيسة قد أفادت المسيحية في فرنسا . وليس من شك أيضاً في أن النقد الذى صدر عن فلاسفة فرنسا — وإن اتهمه الكثيرون بعدم العمق وقلة الإنصاف — قد كان في موضعه ؛ وكان له ما يبرره فيما أصاب الكنيسة الفرنسية من فساد خطير . على أن وسائل الفلاسفة الفرنسيين فيما تصدوا إلى تحقيقه من أهداف لم تكن سلبية ، وإنما كانت إيجابية . وقد تحقق كثير من تلك الأهداف في النظم التى أخذت بها أكثر بقاع أوروبا استنارة ، حتى إن الكتب التى أصدرتها في أول الأمر دور الطباعة بدافع

من قوة الإلهام تبدو للقارئ الحديث ملأى بنظريات لا تستحق من أحد عناء البحث . ولكن ثمة حقيقة واحدة تميز هذه الذخيرة الكبرى من الأدب الفرنسى وتحفظ لها خصائصها من العذوبة والفتنة وتعيننا على إدراك ذلك السحر الذى ملك على نفوس أكثر الأوربيين فى ذكاء ذلك العصر . وتلك الصفة هى ما يسميه الألمان « أدب البيان » (Aufklärung) وهو أدب الثقة والأمل .

وإذا كان الفلاسفة يومئذ قد فقدوا إيمانهم بتعاليم الكنيسة فإنهم قد ملثوا إيماناً بكرامة الفرد وقابليته للكمال . وساد الأدب السياسى فى فرنسا إبان القرن الثامن عشر روح من التفاؤل ، حتى اعتقدت طائفة كبيرة من الناهيين فى فرنسا ، وهى إذ ذاك أذكى بلاد أوربا، أنه إذا أمكنهم إزالة سخافات العصور القوطية فإن الإنسان — وهو بطبيعته خير ولا حد لقدرته على تحسين نفسه — لا بد منطلق فى طريق القوة . ففى رأى ديدرو أنه « إذا صحت القوانين صحت الأخلاق » . ولم يكن أحد مستعداً ليضع حدوداً تحد من سلطة المشرع فى عمله لتحسين الطبيعة الإنسانية إلى أبعد الحدود . ؛ ففى رأى هلفسيوس « أن المشرع الصالح إنما يخلق المواطن الصالح » .

وقد اتجهت طائفة من تلك التآليف الحماسية الفياضة التى صدرت عن فلاسفة القرن الثامن عشر إلى نقد المبادئ الاقتصادية القائمة على التدخل الحكومى وهى التى ورثتها فرنسا من حكم كولبير . فقد كان المفكرون من أصحاب المذهب الطبيعى Physiocrats يؤمنون بأن قوة الطبيعة كفيلة ، إذا تركت وشأنها ، بأن توفر للناس من أسباب الرفاهية ما لم يكونوا يحلمون بتحقيقه فى ظل نظام قائم على قيود من عمل الدولة أو السلطات المحلية . وقد أصاب هذا المبدأ نفوذاً كبيراً ، إلا أنه رغم ما اشتمل عليه من حقائق هامة لم يخل من ضلال بعيد ؛ فرجال الاقتصاد فى فرنسا آمنوا بأن الأرض هى وحدها مصدر الثروة ، ورتبوا على ذلك أن حاجات الدولة يمكن كفالتها بضريبة واحدة على الزراعة وحسب . وفى ذلك خطأ واضح فإن الأرض ليست إلا مصدراً واحداً من المصادر المختلفة للثروة ، وليس فى الإمكان أن تكفى ضريبة واحدة — مهما بلغت من العدالة لسد الحاجات المشروعة للدولة ، غير أن أولئك الاقتصاديين أصابوا وجه الحق حين قالوا إن

التجارة ليست لإتبادل عروض ومنافع ، وأن ما تضعه الدول من قيود مصطنعة حول انتقال الموارد من إقليم إلى آخر ومن دولة إلى أخرى معطل للرخاء . وكان من أثر المبادئ التى نادى بها أصحاب المذهب الطبيعى فى فرنسا أنه ما إن قامت الثورة فيها حتى ألغيت الضرائب الداخلية فيها ، تلك الضرائب التى أجاد وصف آثارها السيئة الرحالة الإنجليزى البصير « آرثر يونج » . ثم تبلغ تلك المبادئ بلاد الإنجليز . إذ أخذها أستاذ شهير من أساتذة جلاسجو وهو آدم سميث عن كسنى طبيب لويس الخامس عشر ؛ فإذا هى بين يديه تحقق نتائج أبعد أثراً ، ثم تنتهى بإنجلترا آخر الأمر إلى الأخذ بمبدأ حرية التجارة ، ذلك المبدأ الذى ثبت نفعه للإنجليز فى أيام الرخاء والشدة على السواء .

قلنا إن ذلك اللون من التأليف قد امتاز بطابع التعقل والتفأول . وبقي بعد ذلك نداع قوي يبدو فى النهاية أنه فاق غيره من أصوات ذلك العهد فى قوة تأثيره وهو ما صدر عن « جان چاك روسو » . لم يكن فرنسى الأصل ، وإنما يرجع أصله إلى جنيف ، ولم يكن صاحب فلسفة ولا هو من الدهريين . ولكنه كان صاحب خيال مرهف . كان ذهنه صافياً ، وإنما غذاه ما نبع من غرائزه الطبيعية العميقة أو صدر عن مشاعره العاطفية — ولم يكن من التقدميين ، ولم يكن من أنصار توزيع العمل ؛ ولم يؤمن بقدرة الوسائل المادية والآلية على تحسين حظوظ الفرد ، وإنما كان يرى العالم تغشاه القسوة ، ويعمه الفقر والدمار ، ويرى الحضارة الأوربية الباهرة حشداً من ألوان الفساد والظلم ، فنذر نفسه لرسم معالم المجتمع الذى ينبغى أن يعيش فيه الرجل الصالح ؛ ولهذا الغرض كتب كتابه « العقد الاجتماعى » الذى أخرجه عام ١٧٦٢ ، فكان للفرنسيين بمثابة إنجيل جديد .

يرى روسو أن العلاج الأساسى للإنسانية من أدرانها بسيط للغاية ؛ يراه فى التماس الفضائل ، فالدولة الصالحة فى رأيه هى ما تعهد فيها الفرد — وقد أعد إعداداً طيباً للحياة المدنية — على أن يجعل إرادته مطابقة للصالح العام . والمجتمع لا يكون صالحاً فى رأيه إلا حيث يرمى فيه أفراد الفضائل ، كل امرئ يعامل الآخر بما يجب أن يعامل به ، ويخضع مختاراً لكل ما يسن من القوانين العامة التى يؤمن بأنها وضعت لخدمة الصالح العام دون الصالح الخاص . ذلك هو أساس العقيدة السياسية عند

روسو . فالدولة الصالحة لديه لا تقوم على أساس من القوة أو الطمع ، وإنما تقوم على الإرادة الخيرة عند جميع أفرادها .

لقد كان في كتاب روسو—على إيجازه—فصاحة وبيان . بل كان له في الناس فعل السحر . وإن في فاتحته وحدها تحد للحضارة « وُلد الإنسان حراً ولكنه صُفد بالأغلال في كل مكان » . أى شئء يمكن أن يكون أكثر إغراء للبائس والمحروم من أن يتخيل مجتمعاً يقوم على المشيئة العامة؟ ومن أجل ذلك جاءت عبارة روسو هذه فأطلقت سيلاً دافقاً من الشعور الثورى . غير أنه طالما غمَّ على الناس أن سيادة المشيئة العامة عند « روسو » لم تكن شيئاً آخر غير حكم الفضيلة نفسها .

وفي رأى « مدام دى ستايل » أن « روسو » —وقد ألهب كل شئء—لم يأت بجديد من الأمر ؛ وقولها إنه ألهب كل شئء يشير إلى حقيقة هامة ، وأنه استطاع بجرارة مشاعره وأحلامه أن يوجج فرنسا إلى درجة تثير الدهشة . أفتراه حقيقة لم يأت بجديد؟ إنه نادى بالفضائل كما آمن بكفاية الفرد العادى فى ذلك المجتمع الأرسقراطى ، مجتمع القرن الثامن عشر .

* * *

كان الدستور الإنجليزى فى القرن الثامن عشر يفوق سائر النظم فى القارة الأوروبية ، ولكنه مع هذا لم يكن فى ذلك الأنموذج المثالى المستنير الذى تصوره فلاسفة الفرنسيين فى حماسهم المتقدمة ، لقد كانت فيه عيوب بينة ؛ فالنقص واضح فى أساليبه الخاصة بالتسامح الدينى ، وواضح أيضاً فى نظامه البرلمانى . فالدولة فيه وقف على الكنيسة الأنجيلكانية . حقاً إن البروتستانت كانوا أحراراً فى ممارسة شعائرهم الدينية علانية، ولكن المخالفين للعقيدة الرسمية كانوا محرومين من أى نصيب من السلطان وتحمل المسئولية، بل كانوا محرومين من التمتع بأحسن فرص التعليم — لقد بلغ من إصرار الفرسان ورجال الدين الأنجيلكان على التثبيت بنفوذهم أن ظلت أبواب البرلمان موصدة فى وجوه البروتستانت المخالفين للعقيدة الرسمية حتى عام ١٨٢٨ ، كما حرموا حق التعلم فى جامعتى أكسفورد وكمبردج حتى عام ١٨٧١ ؛ بل ودَّ أعضاء حزب التورى أيام الملكة آن أن يذهبوا فى العنت إلى أبعد من هذا المدى عندما أرادوا بالقانون التالى (Occasional Conformity Act)

أن يحرموا أولئك المخالفين حق التمتع بعضوية النقابات في المدن، وعندما أرادوا بمقتضى « قانون مخالفة المذهب الرسمي » (Schism Act) إلغاء مدارسهم والقضاء على تربيتهم وتعليمهم . ولقد كان من حسنات العهد الذى ارتقت فيه أسرة هانوفر عرش البلاد أن استطاع حزب الهويج القضاء على تلك السياسة المفجعة ، وفى هذا العهد أبطل قانون مخالفة المذهب الأنجليكانى (Schism Act) وصدرت قوانين التعويض السنوى Indemnity Act ، تلك التى أنقذت الخارجين على المذهب الرسمى من الغرامات القانونية التى كانوا يؤدونها لها إذا هم تولوا منصباً فى الإدارة البلدية .

على أن نغمة التسامح هذه لم تتسع حدودها لتشمل أصحاب المذهب الكاثوليكي ، فهم ظلوا لا يتمتعون بممارسة شعائرهم الدينية علانية حتى عام ١٧٧٩ — أما فى أيرلندا — حيث قد يخشى خطرهم فى الناحية السياسية . فقد أخذوا بألوان خاصة من العنف باتوا أمامها فى عجز تام .

بقى الحكم أيام العاهلين الأولين من أسرة هانوفر بأيدي الطبقة الأرستقراطية ؛ فأسر الهويج العريقة كانت مهيمنة على مجلس اللوردات ، كما نجحوا فى الحصول على أغلبية فى مجلس العموم لأنصارهم ، وذلك عن طريق استخدامهم المال فى المقاطعات التى كانوا يمثلونها . أما أعضاء حزب التورى فقد كانوا فى الغالب أكثر فقراً وأقل مالا . ولكنهم باتوا — بسبب مشاركتهم المربية فى قضية حزب يعاقبة — يقاسون مرارة الجزاءات المتصلة بالمعارضة البرلمانية مدة خمسين عاماً أو يزيد . على أن خاصة الحزب التورى قد استطاعوا بعيداً عن البرلمان أن يمارسوا نشاطهم الاجتماعى والسياسى فى أوسع الحدود عن طريق الحكومة المحلية وهى فى الحق حكومة البلاد الفعلية ممثلة فيما كان يقوم به قضاء الصلح (Justices of the Peace) فى (Quarter Sessions) وفى (Petty Sessions) . لقد كان هؤلاء هواة غير مأجورين وقد وجدوا فى تنفيذ قوانين الصيد ، وفى إعدام المخالفين له ، وفى معاقبة الصعاليك ، وجدوا فى كل ذلك المجال لإشباع شهوتهم فى الظهور وفى الإسهام فى النفع العام . وهكذا أخذوا إلى السكون راضين مطمئنين على حين بقى الهويج يديرون دفة الأمور من (St. Stephens) .

ولقد وقع نتيجة لحادث لم يتوقعه أحد فى عهد وليم الثالث والملكة آن أن وقعت السلطة التنفيذية العليا أيام العاهلين الأولين من أسرة هانوفر فى يد مجلس وزراء مسئول

أمام البرلمان وينتمي أعضاؤه إلى حزب واحد ، ولما كان جورج الأول يجهل الإنجليزية فقد أخفق في محاولة تدبير شئون الدولة مع وزرائه باللغة الفرنسية ، وكان من جراء ذلك أن انقطع عن حضور اجتماعات مجلس الوزراء . وكان للحكمة التي أبداهها ؛ « سير روبرت والپول » Sir Robert Walpole أثناء العهد الطويل الذي مارس فيه الحكم (١٧٢١-١٧٤٢) أثرها الواضح في تأييد سلطان حزب الهويج وتوكيد سلطة مجلس الوزراء ، ودعم مركز رئيسه . وهكذا استقر ذلك المبدأ الحق : مبدأ المسؤولية الوزارية ، أى مسؤولية الحكومة ممثلة في وزرائها أمام البرلمان الذي عدّ بدوره مسئولاً أمام الناخبين .

وهذا التوفيق في تأسيس نظام مجلس الوزراء قد يرجع إلى حادث تاريخي آخر ، فقد كان كل من وليم الثالث والملكة آن يؤثر أن يكون مجلس الوزراء من مختلف الأحزاب ؛ إذ أن في اختيار الحاكم مستشاريه من رجال الأحزاب المختلفة إعلاناً بكونه فوق الأحزاب ، وتعظيماً لشأن التاج . على أن تلك التجربة في تكوين الحكومة الائتلافية لم يكن في الإمكان تحقيقها في عهد هذين الحاكمين إلا بين الفينة والفينة ؛ ثم انتهت عندما تولى جورج الأول ونبأه الهويج أن أعضاء حزب التورى يأتمرون به مع اليعاقبة ليخرجوه من إنجلترا . ومنذ ذلك الوقت أصبح مجلس الوزراء يتكون من حزب الهويج وكذلك الأغلبية البرلمانية . وهناك قام العرف على أن يكون أعضاء مجلس الوزراء من لون سياسى واحد ، وأن يحكم المجلس الدولة حكماً فعلياً . لقد كان هذا حدثاً ، كان حدثاً سعيداً على كل حال . وفى خلال العشر السنوات (١٧٧٠ - ١٧٨٢) التي استقل فيها جورج الثالث بالحكم ، وبهت سلطان مجلس الوزراء فلم يبق منه غير ظله ، حلت بإنجلترا أخطر كارثة في تاريخها حين فقدت مستعمراتها في أمريكا .

ومع ذلك فإن الحكم النيابى أيام أسرة هانوفر بما ضرب عليه من سلطان طبقة موسرة من الإقطاعيين لم يستطع أن يتسم بطابع العدل الاجتماعى ، ومن ذلك أن قوانين العقوبات التي ظلت قائمة في بريطانيا إلى أن أصلحت بفضل جهود روملى Romilly وصحبه في القرن التالى ، قد كانت وصمة في جبين شعب عرف بإنسانيته وطبيعته الطيبة . ولم تبذل الدولة أى جهد لنشر التعليم العام ، كما ظلت

حكومات المدن فاسدة ، مكروهة ، تغشاها أفكار العصور الوسطى حتى قامت حركة التطهير بإصدار قانون الهيئات البلدية Municipal Corporations Act عام ١٨٣٥ . والواقع أن الغرض الأساسي الذي قامت من أجله الثورة المجيدة The Glorious Revolution هو حماية التقاليد القديمة ، والامتيازات التي كانت تتمتع بها المدن ، إلى جانب المحافظة على حقوق البرلمان وصيانتها من البدع والاعتداءات التي حاولها جيمس الثاني ؛ كل أولئك كان من شأنه أن يدعو إلى مذهب المحافظة . وفي غمرة الابتهاج بنتائج الثورة Revolution Settlement بات جماعة الهويج يعتقدون أن كل شيء قد استقر في مكانه وأن الأمور قد استقامت لهم . وقد كانوا في ذلك واهمين ، ذلك لأن البرلمان بوجه خاص كان أبعد ما يكون عن الكمال . ولكن الهويج الذين باتوا يرون البرلمان مثلاً أعلى قد كانوا أبطأ إدراكاً من أن يلمسوا حقيقة واقعة وهي أن هيئة تشريعية ينتخب أعضاؤها ملاك في الريف Counties لا تقل ضريبة دخلهم عن أربعين شلناً ، وأقليات صغيرة في المدن ، إن مثل هذه الهيئة لا يمكن أن تكون مرآة صادقة كافية لتمثيل المصالح القومية والرأي العام حتى إن « بيرك » Burke ، وهو وإن كان يرى الحد من سلطان الملك على البرلمان إلا أنه لم يجذب توسيع نطاق التمثيل البرلماني . ومن ذلك نرى أن الاتجاه العام أيام القرن الثامن عشر كان يهدف إلى إبعاد الجانب الأكبر من الطبقة الوسطى والفقيرة عن الحرم المقدس للنظام البرلماني .

وكذلك كان فساد الحكم النيابي شراً آخر لم يظن إليه المفكرون الفرنسيون الذين أعجبوا بالنظم الإنجليزية ، وهو فساد تغاضى عنه البرلمان وتغاضى عنه الناخبون في دوائرهم على الرغم من احتجاجات المعارضين ، فالرشا كانت شائعة يقبلها الناخبون والمنتخبون على السواء . وإذا كان هناك من الأسباب ما يحملنا الآن على أن نظن في نقاد ذلك العصر روح المبالغة في وصف هذا الشر ، فلا شك مطلقاً في أن الرشوة قد كانت قائمة حقاً . لقد كان من المتوقع أن لا يفوز بالحصول على منصب أو مرتب إلا عدد قليل من الناخبين الذين يدلون بأصواتهم في الانتخاب ، ولكن هذا التوقع كان له تأثير كبير يتعدى أولئك الذين دفعت لهم تلك المكافأة ؛ على أن الأمة كانت — على الرغم من كل تلك النقائص — في يسر وسعادة .

فالكنيسة الأنجليكانية التي خيم عليها النعاس ، والجامعات في خمولها وجهالتها ، ونبلاء القوم الأصحاء من اللاهين بصيد الثعالب ، وأصحاب السلطة التشريعية في البرلمان من ذوى الأحذية العالية والمسرفين في الشراب ، كل أولئك قد لاءمتهم تلك الحياة الوئيدة الخطى في ذلك المجتمع الزراعى القديم . ذلك لأن هوة الخلاف لم تكن سحيقة بين الطبقات ، ولم تكن ثمّ مشاكل اقتصادية عويصة تثير أعضاء البرلمان ، والثورة الصناعية لم تكن قد بدأت بعد في خلق تلك الطبقة الجديدة من الناس في شمالي إنجلترا من عمال المصانع الذين انطوت نفوسهم على المرارة وعاشوا في مجموعات غير متناسقة من البيوت التي لم تتوافر لها أسباب الصحة . والمدن كانت لا تزال صغيرة والناس بوجه عام كانوا لا يزالون يستمتعون بالرياضة وألوان الترفيه في جنبات الريف ، والبلاد قد غشيتها نسائم الدعة والاستقرار ممثلة في تلك الدور من المناطق الجبلية عام ١٧٤٥ ، التي كانت لا بد ملقبة البلاد في بحر من القوضى إذا قدر لها النجاح الثانى . لولا هذه الإغارة المريعة لكان من الممكن أن يشعر الناس ممن لم يعضهم الفقر بنابه أن بلادهم في عهد جورج الثانى قد بلغت حظها من الاستقرار والهدوء الداخلى . فقد كان المجتمع الإنجليزى مجتمعاً فريداً تجرد أفراده من نزعات الشك وما تثيره في النفس من قلق وعذاب ، مجتمعاً لم تكدر صفوه مشكلات اجتماعية ، ولم يطلب من برلمانه برامج واسعة . ولكنه مضى راضياً بما قسم له في كل سنة من قدر بسيط من التشريع المحلى . ذلك لأن عصر الخيال والعواطف الحاملة لم يكن قد طلع بعد على ذلك المجتمع المتروى الحكيم حيث كان الناس لا يطلبون من حياتهم ؛ أكثر مما تعطى ، ذلك المجتمع الذى ساده الاستقرار والانسجام ، فما أغرته الخرافة ولا هزته العاطفة وإنماملأته الثقة ، فاستطاع أن يتجنب جنون الحماسة والتعصب حتى غدا مجتمعاً منقطع النظر لم تعرف أوروبا له مثيلاً منذ أيام Antonines^(١)

واتسم التأليف السياسى في إنجلترا أيام القرن الثامن عشر بذلك الطابع من

(١) : Antonines عهد الأباطرة الرومان الذين عرفوا بهذا الاسم وهم هادريان (١١٧ - ١٣٧) وأنطونينوس الورع (١٣٨ - ١٦١) ، وماركوس أوريليوس (١٦١ - ١٨٠) وكان عصرهم من أزهى المصور في تاريخ أوروبا .

الهناء والغبطة . في الحق إنه لم يخل من روح الجدل والحماسة وإن لم يجادل في الأصول . فلا « سويفت » Swift ، ولا « ديفو » Defoe ولا « أديسون » Addison ولا « ستيل » Steele ، ولا « بلنجبروك » Bolingbroke ولا « هنرى وليام » Hanbury William شجعوا مواطنهم على التفكير في أنهم يعيشون في ظل نظام لا يحتمل من الظلم والمهانة ؛ فالخلافاً في إنجلترا خلافاً برلمانية والمنازعات قائمة بين الجماعات السياسية من الأحزاب التي في الحكم والأحزاب التي في خارج الحكم . فهذا و « ويلكز » Wilkes نفسه ، وقد كان متطرفاً في آرائه بحيث استطاع في السنوات العشر الأولى من حكم جورج الثالث أن يفتح للنضال ميداناً جديداً ، لم يذهب إلى حد أن ينال من روعة الثورة الكبرى أو قيمة المبادئ التي قامت عليها ، على حين اختلف الأمر في فرنسا حيث تجمع السخط من جراء اضطهاد الكنيسة وتعصبها وطغيان الدولة وتقلب أهواء القائمين عليها مما أدى إلى خلق لون من الأدب اللاذع الساخر .

كانت المشكلات الداخلية التي واجهت فرنسا والتي أخذت تسترعى انتباه المفكرين من الفلاسفة منذ الأعوام الأخيرة من حكم لويس الرابع عشر مشكلات مالية قبل كل شيء ؛ إذ لم تجرؤ أى حكومة في فرنسا على أن تضع نظاماً للضرائب موحداً وعادلاً على جميع طبقات الشعب . لقد كانت كل حكومة تسعى جهدها لتتألف لها أنصاراً من هنا وهناك ، فكانت تعفيهم من بعض الضرائب ، فالنبلاء والإكليروس ، وطائفة كبيرة من الطبقة الوسطى أعفوا من ضريبة العقار ، أى ضريبة الملكية الزراعية ، كما تمتعت كثير من المقاطعات الهامة في فرنسا تمثل هذه الامتيازات ولا سيما ما ضم منها حديثاً إلى أملاك التاج ؛ ولقد طبق مبدأ الامتياز الضريبي في أوسع الحدود وأصبح مرتبطاً بكثير من النعرات الطائفية وتقاليد الحكم الذاتي والعزة الإقليمية حتى غدا اقتلعه من أشق الأمور في فرنسا . ووضح أنه لن تستطيع القضاء على تلك المصالح المكتسبة الكثيرة التي سيتضافر أصحابها للدفاع عنها إلا حكومة قوية تظاهرها قوة كبيرة من الرأي العام . ولم تكن الملكية الفرنسية القديمة ، رغم احتفاظها بهيئة سلطانها ، بقادرة على أن تضطلع بهذا العبء .

ولم يكن أمام الفرنسيين إلا إحدى وسيلتين : إما وسيلة الإصلاح الدستوري ،

أو العمل الفردي . فأما الوسيلة الأولى فقد كانت غير قابلة للتطبيق إذ أن التقاليد الفرنسية لم تعرف ذلك النوع من المجالس التشريعية المسئولة أمام هيئات شعبية من الناحيين . ولا نذكر أن واحداً ؛ من ساسة فرنسا قد اقترح إنشاء مجلس تشريعي من هذا النوع . ولو قد فعل لما وجد من ملوك فرنسا من يقبل اقتراحه . ولم يكن في استطاعة أى حكومة أن تنشئه دون أن تعرض البلاد لهزة عنيفة ، وذلك أثر من آثار عهد لويس الرابع عشر وحكمه المطلق الطويل الذى عطل كل تفكير منتج في حل المشكلات الدستورية حتى إذا أظلمت الأيام في أواخر عهد ذلك الملك المغرور وأخذ فنلون Fenelon وغيره من الكتاب يناقشون قيمة الحكم الاستبدادى ، جرت أفكارهم إلى وراء ، إلى عهد النظم الأرستقراطية القديمة في فرنسا ، وراحوا يحلمون بنظام يسهم فيه أكبر عدد من النبلاء في حكم البلاد ، وداعت خيالهم فكرة إحياء مجلس طبقات الأمة ، ذلك المجلس الذى يرجع إلى العصور الوسطى والذى لم يدع إلى الاجتماع منذ عام ١٦١٤ . تلك الهيئة الثقيلة المضطربة التى فقدت كل نظام وكل سلطة تنفيذية ، وكل ترابط اجتماعى بين أعضائها وكل خبرة بمعالجة الأمور ، إن التفكير في بعث تلك الهيئة قد سد كل طريق للإصلاح الدستورى . وآية ذلك أن اجتماع تلك الهيئة في عام ١٧٨٩ لم يكن بداية حكم جديد في فرنسا ، وإنما كان إيذاناً بالفوضى .

فالحكم المطلق كان قد بقى قائماً - على الأقل - في التقاليد السالفة ، ولكن لم تتح له حرية العمل ، ذلك لأن برلمان باريس الذى أعاده فيليب أورليان ، وأزرت برلمانات الأقاليم الاثنا عشر قد ملأ طريق الإصلاح المالى بعقبات لا يمكن تذليلها . فلقد كانت الضرائب الحديدية والآراء الحديدية مصدر فرع لهؤلاء المشرعين حتى باتوا يحرقون الأسفار الفلسفية ، ويرفضون كل اقتراح معقول للحصول على المال من الناس وعلى الرغم من تأييدهم للضغط على الفكر وطمس المعرفة ومظاهرتهم مبدأ التمييز في فرض الضرائب ، فقد تمتعوا بقسط وافر من محبة الشعب ، على اعتبار أنهم كانوا وحدهم اللسان المعبر عن روح السخط على بلاط خليع مستهر . . وقد تطلب أمر إلغاء البرلمانات شجاعة فائقة من رئيس وزراء الملك «موبو» Maupeau . ولكن ما كاد الأمل يبدو عندما تعهد الملك بالقيام

بإصلاحات شاملة حتى قد خبا من جديد . ففي عام ١٧٧٤ أعاد البرلمانات الفرنسية ملك جديد تواق إلى كسب حب رعاياه . وإن كان امتثال لويس السادس عشر لشعور العامة مفهوماً ، فقد كان وبالا عليه ؛ إذ كان من الموثوق به أن تقاوم الأقلية صاحبة الامتيازات من رجال القانون ممن يتوارثون عضويتهم في البرلمان مقاومة شديدة ومزعجة أى إصلاح سديد وشامل للدولة الفرنسية .

كتب يمكن الرجوع إليها

- Lecky : History of England in the Eighteenth Century (1878).
- G.M. Trevelyan : History of England (1926).
- J. Locke : Essay on Human Understanding. Ed. A.C. Fraser (1894).
- Churton Collins : Bolingbroke, a historical study, and Voltaire in England (1886).
- John Morley : Voltaire (1921).
- H. Higgs : The Physiocrats (1897).
- Leslie Stephen : The History of English Thought in the Eighteenth Century. 2 vols (1902).
- A. Sorel : Montesquieu (1887).
- A. De Tocqueville : L'Ancien Régime et la révolution (1860).
- H. Taine : L'Ancien Régime (1876).
- F. Rocquain : L'Esprit révolutionnaire avant la Révolution (1878).
- Aubertin : L'Esprit public au Dix-huitième siècle (1889).
- The Political Writings of J.J. Rousseau. Ed. C.E. Vaughan (1915).
- Voltaire : Dictionnaire philosophique (1795).
- Voltaire : Lettres écrites de Londres sur les Anglais (1734).
- Lavisce : Histoire de France, Vol. IX.

الفصل الثالث والعشرون

شهاب من السويد

عهد كريستيانا - فتوح شارل العاشر - الإبقاء على بولندا والدانمرك - الحرب الشمالية (١٧٠٠ - ١٧٢١) - بتكال والاتحاد ضد السويد - شارل الثاني عشر وبطرس قيصر روسيا - بلطاوة - سقوط السويد .

أعقبت انتصارات چستاف وقواده التي رفعت السويد إلى أوج شهرتها الحربية عشر سنوات من تاريخ السويد أقل أهمية في الواقع ، وإن كانت لا تكاد تقل اجتذاباً من تلك القصة الطويلة التي سبقتها: قصة الحملات العسكرية وقصة الحملات المضادة وقصة المعارك وعمليات الحصار . وكانت كريستيانا كأبيها چستاف مخلوقة عبقرية . وقد ظلت هذه السيدة الشابة المدهشة المتقلبة الأطوار تهر أنظار أوروبا عشر سنوات (١٦٤٤ - ١٦٥٤) ، تبسط يدها بطعاياها في إسراف ، وتبدى من ضروب الاحتمال البدني ما قد يثير إعجاب أقوى رجال جيش أبيها وأشدهم خشونة ، وتسحر بحب استطلاعها الوقاد نخبة مختارة من الفلاسفة والأدباء اجتذبهم إلى استوكهلم عطفها وحظوتها وبذها المال لهم بسخاء . ثم لم تلبث إلهة الشمال The Pallas of the North أن تنازلت عن عرشها لابن عم لها ، مدفوعة في ذلك إما بعاطفتها نحو الكنيسة الكاثوليكية التي أصبحت تنتمي إليها ، أو نتيجة لما أصابها من ملل مفاجئ وكراهية للعمل الروتيني ، أو رغبة منها في إحداث تأثير يلفت الأنظار . وكان شارل العاشر شيئاً خطراً ، إذ لم يكن إلا مجرد جندي . كان شغفه بالمعارك عاطفة غلبت عليه ، ويعتبر مسئولاً عن الحرب الأولى من حربي الشمال الكبيرين اللتين أنزلتا الدمار بالسويد ، ورفعنا براندنبرج إلى مركز التفوق في شمال ألمانيا ، وفتحنا الطريق للدب الروسي الهائل نحو غرب أوروبا .

وقد راح هذا الرجل المتهب يبحث عن أعداء فوجد في بولندا والدانمرك هدفاً واضحاً للهجوم . فالأولى بلد كاثوليكي يحكمه الفرع الأكبر الكاثوليكي من أسرة « فازا » Vasa السويدية التي لم تكن قد تخلت بعد عن عرش السويد ؛ أما الثانية فهي العدو التقليدي القديم التي حكم يوماً ما إسكندناوة بأكملها ، وكان لا يزال

يضم الترويج والولايات الثلاث الجنوبية من السويد ، ويستطيع أن يتحكم في تجارة بحر البلطيق بحكم موقعه شمال السوند Sound وجنوبه . بدأ شارل بالهجوم على بولندا فاجتاحها ثم ثنى بالدانمرك . وقد وصل الجيش السويدي سواء في حربه في هولندا أو في الدانمرك إلى نقطة بدت فيها انتصاراته العسكرية كاملة لا مثيل لها . ومع ذلك فجدير بالملاحظة أنه عندما عقد الصلح في «أوليڤا» Oliva وكوبنهاجن Copenhagen (في عام ١٦٦٠) وتوقفت المتاعب بموت شارل في سن مبكرة (١٦٧٢) ، لم تبقى بولندا ولا الدانمرك تابعتين للسويد ، كما أن المكاسب الهامة التي ترتبت على الحرب البولندية لم تكن من نصيب السويد التي بذلت جهوداً عظيمة ، وإنما كانت من نصيب منتخب براندنبرج الذي حصل على سيادة تامة على دوقية بروسيا ثمناً لوعده بمساعدة البولنديين دون أن يبذل أى جهد مضمّن .

ولو أن شارل قد حرر أرقاء الأرض البولنديين لربما عادل بذلك الأذى الذي نشأ في نفوس الأهالي الكاثوليك الوريثين بسبب سلوك قواته اللوثرية الدنس . على أنه لم يكن من الفطنة بحيث يسبق نابليون في ذلك . ولما لم يكن عنده ما يقدمه للبولنديين سوى الصفعات والإهانات والعقيدة البروتستانتية فقد قامت ضده ثورة وطنية وأطاحت به من بولندا بمؤازرة النمسا . ومن الأهمية بمكان أن نلاحظ ما قامت به النمسا ، فإن هذه المملكة الكاثوليكية العظيمة لم تكن تطيق أن ترى بولندا الكاثوليكية تقع تحت سلطان السويد اللوثرية .

وكما كان الإبقاء على بولند أمراً يهم النمسا ، كذلك اهتمت هولندا وإنجلترا وفرنسا بتخليص الدانمرك من مخالب السويد . فأُنقذ أسطول هولندي كوبنهاجن ، وأوقع جيش مشترك من الهولنديين والدانمركيين والبولنديين والنمساويين الهزيمة بالسويديين في «فونن» Fünen . فكلما لاحت فرصة طمس معالم الحدود القديمة المألوفة للملكة الدانمركية على أيدي العسكرية السويدية ، تدخلت قوى الدول البحرية المتحدة لدفع ذلك الطوفان . وذلك لما للتجارة في بحر البلطيق من أهمية دولية . وإذا كانت الدول البحرية قد رضيت تماماً باستيلاء السويد على الولايات السكانية Scanian (في جنوب السويد) وجزيرة «برنهولم» Bornholm ، فإنها

كانت ترى الحفاظ على استقلال الدانمرك جنوب « السوند » Sound مسألة ذات ضرورة عالمية .

وتتوسط خمسون عاماً من السلام العهد بين صلح « أوليفا » Oliva وبداية الحرب الشمالية العظمى الثانية (١٧٠٠ - ١٧٢١) التي قدر لها أن تختم مصير السويد كدولة من الدول العظمى . بدأت روسيا نهضتها ، كما درّبت أسرة الهوهنزولرن Hohenzollern جيشاً مروعاً في « براندنبرج » ، أما السويد فحافظت على مركزها بفضل تأييد فرنسا الدبلوماسي القوي لها . وبلغت مكانة أسرة فائزاً درجة من القوة مكنت شارل الحادي عشر ، بعد أن ظل تحت الوصاية اثني عشر عاماً ، من كسر شوكة النبلاء وإقامة حكم أوتقراطي اعتمد فيه على تأييد سكان المدن والفلاحين . كان ذلك الملك صموتاً جافاً ثقیلاً الظل ولكنه كان شجاعاً مدركاً لواجبه كما كان بطل النصر على العدو الدانمركي التقليدي . وعند موته في ١٦٩٧ خلف هذا الملك الغامض ، وإن كان موفقاً ، جيشاً ودخلاً وإمبراطورية . حكمت السويد في فنلندا ، وأقامت من نفسها حارساً على خليج « بثلنيا » Bothnia ، ورفرف علمها على الثغرين الهامين « ريفال » Reval و « ريجا » Riga . وأنكر على براندنبرج أن تأخذ يوميرانيا الغربية ، وهانوفر « بريمن » Bremen و « فُردن » Verden ، وأنى على الدانمرك أن تضم الولايات السكانية Scanian أى الولايات السويدية الجنوبية . واستولى على جزيرة صغيرة في نهر « نيفا » Neva وهى الجزيرة التى لن يلبث بطرس الأكبر أن يقيم عليها ١٧٠٣ بجهود أرباب السجن السويدي تصميم « نفسكى » The Nevsky Prospect فى عاصمته سان بطرسبرج St. Petersburg .

كان المحرك الرئيسى لتفكك السويد أحد نبلاء البلطيق الذين كانوا يشاركون طبقة ملاك الأراضي فى الحجر فى كونهم أشد الطبقات الأرستقراطية فى أوربا غروراً وصلابة . كان « يوحنا رينهولد بتكال » Johan Reinhold Patkul من « ليثونيا » Livonia يطوى صدره على حقد شخصى شديد للحكومة السويدية ؛ إذ اعتدى على أملاكه الخاصة وكذلك على أملاك أفراد آخرين من الطبقة التى كان ينتمى إليها ، تنفيذاً لإجراء شامل قصد به استرداد التاج لأملاك كانت له . فقاوم مقاومة شديدة وحكم عليه غيابياً بالموت بتهمة الخيانة . ومنذ تلك اللحظة ندب هذا الرجل

الليقونى الشرس نفسه على أن يعمل ليهوى بالإمبراطورية السويدية إلى الحضيض . فراح يتنقل بين العواصم يحيك خيوط عصابة لمحاربة السويد . فأوقع فى شبابه أوغسطس صاحب سكسونيا الذى كان قد انتخب ملكاً على بولندا ، وكان يطمع فى ليشونيا Livonia وضم لحركته بطرس قيصر روسيا الذى كان قد فشل فى الحصول على مساعدة الغرب فى حروبه ضد تركيا فأخذ يتطلع إلى ساحل البلطيق . وقد كانت مهمة بتكال فى اجتذاب فردريك ملك الدانمرك أسهلها جميعاً ؛ إذ رأى فردريك فى الزيجة الحديثة التى تمت بين أميرة سويدية وجوتورب دوق هلشتين Holstein Gottorp خنجراً مصوباً نحو الجزء الثمين من الأملاك الدانمركية . أما منتخب براندنبرج الحذر فقد رفض أن يقع فى الشباك . على أن التحالف كان بدونه قوياً . وفى مايو ١٧٠٠ أغار السكسون على ليقرنيا وبدعوا الحرب الطويلة المدى التى بدلت من موازين القوة فى دول الشمال ٥

وبدت الفرصة مواتية إذ كان شارل الثانى عشر ملك السويد عام ١٧٠٠ صبيّاً لا تجارب له ، لم يعرف عنه إلا أنه قد طالب بالحصول على سلطان أبيه الأوتقراطى ، وحصل عليه . لم يكن فى الحسبان حينئذ أن ذلك الصبى المديد القامة الصارم الراجح العقل سيميط اللثام عن مناقب بطل من أبطال التاريخ الإسكندناوى فى ساعة تعرضت فيها بلاده لأشد الأخطار هولا ؛ ويبرهن على أنه قائد موهوب لا يقهر ، وأن سرعة بته فى القرارات لا يعدلها إلا إرادته الحاسمة وشجاعته الفائقة ؛ وأنه لا يرى فى أى مغامرة تهوراً أو بأساً ، ولا فى أى جهد عملاً شديداً الوطأة ؛ وقد هاجم بنجاح كلا من الدانمرك وسكسونيا على التوالى ، ثم لفظ بهما خارج النزال بعد أن أوقع بهما سلسلة من الضربات القاضية ، وسير عليهما الحملات الباهرة ؛ وفى أول اشتباك له مع جيش بطرس الأكبر الذى شنه فى يوم عاصف من أيام نوفمبر أمام أسوار « نافارا » Navara ، حاز نصراً حاسماً خالداً فى سجلات الحروب حتى ولو أسقطنا من اعتبارنا أنه قد حاز ذلك النصر أمام جيش يبلغ أربعة أمثال جيشه . كانت هذه أشياء جديدة استعصت على كل تقدير ولاح أنها تنذر بتطور فى أوربا . وفى سرعة تبدو من المعجزات ، اقتحم الفقى السويدى حلقة أعدائه ، وأوقع بهم الهزيمة فى كل جبهة حتى إن مرلبرا Marlborough ذاته ما كان يتحرج عن أن يقدم

إليه شعائر التعظيم كأستاذ عظيم في فن الحرب .

على أن من المؤسف أنه كان مفتقداً للاتزان النفسى : فبينما كان مولباً على الدوام بارد الطبع كالثلج ، كان شارل شعلة دأمة من الهياج والغضب . وفى مثل هذه الشخصية ذات الطبيعة الشرسة الحادة المزاج كانت العادات التى يولدها الحكم الفردى نقمة على صاحبها لا نعمة ، ذلك لأنه إذا حاد عن جادة الصواب فما من قوة تستطيع أن تردده عن ذلك إلى الصواب : ولم يكن للفشل أو الشدائد أو الهزائم أو الإذلال تأثير على جرأته الوحشية أو معين نشاطه الذى لا ينضب . بل جعله الإيمان بالقضاء والقدر الذى ولد له عند النجاح المبكر ، يقتحم فى خفة وطرب كل ما يحل به من صروف الدهر ؛ بينما كانت السويد تستنزف دماءها بسبب أطماعه الحارة وتهاوى مسرعة فى ميزان القوة حتى فقدت إلى الأبد مكان الزعامة ؛ وقيمتها فى شئون أوربا . كانت غلظته الكبرى أنه استهان بالروس ، فقد اعتقد بعد أن هزم جيشاً من ٤٠,٠٠٠ جندى غير مدربين فى « نارفا » Narva أن الجنود المسكوفيين لا يستحقون إلا الاحتقار وأن فى وسعه أن يتخلص منهم وقتما يشاء . وهكذا بدلاً من أن يعمل على تقوية الاستحكامات السويدية فى ولايات البلطيق ، كرس ست سنوات حرجة لإزاحة عدوه منتخب سكسونيا من الطريق ومعاقبته العقاب الذى يستحقه وتنصيب مرشح من قبله على عرش بولندا . إن ما حققه شارل لعجيب . على أنه بينما كان يسقط المدن البولندية أو ينقل الحرب إلى سكسونيا كان بطرس قيصر روسيا ، وقد أعاد تنظيم جيشه واكتشف فى « شرميتيف » Sheremetief القائد الماهر ؛ يستولى على ولايات البلطيق المهمة (١٧٠١ - ١٧٠٤) . وقد ذهب بعض النقاد الحكماء إلى أن شارل لو قبل عرض سكسونيا الصلح عقب انتصاره فى « كليسوف » Klissow فى يولية ١٧٠٢ لأنقاذ فى ذلك الوقت على الأقل تلك المنطقة العظيمة الأهمية من الإمبراطورية السويدية .

ومهما يكن من صحة ذلك رأى فما لاشك فيه أن شارل منذ فقد مقاطعات البلطيق سلك لاستردادها مسلكاً همجياً للغاية ، لا يرجى منه أى أمل ؛ إذ عندما سوى أموره مع بولندا وسكسونيا ، وألزم النمسا بتقديم الترضية لرعاياها البروتستانت

فى سيليزيا ، توغل فى قلب روسيا ليخلع القيصر عن عرشه . وهناك وسط البقاع الشاسعة المحرومة من الطرق المليئة بالمستنقعات والأحراش ، وفى شتاء روسيا القارس الذى لا يرحم ، اشتبك جيشه الصغير المكون من أروع المحاربين بعدد هائل فاق فى خطره كثيراً الحرس الروسى . ولم يكن السويدون مزودين بما يرد عنهم غائلة الصقيع ، وقد تقلصت قوتهم إلى نصف ما كانت عليه أصلاً بفعل الأمراض والحرمات ، وخابت آمالهم فى الإمدادات القوقازية العظيمة التى كانوا ينتظرونها فى الجنوب . فحاضوا ضد عدو فاقهم عدداً معركة « بلطاوة » Poltava فى ٢٨ يونية ١٧٠٩ حيث أيدوا عن آخرهم . وصاح القيصر عندما تبين له الأثر الناجع للمدافع الفرنسية فى إبادة صفوف أعدائه : « الآن بمعونة الله تم بأمان وضع أساس مدينة سانت بطرسبرج مدى الزمان » .

وقد كان القيصر على حق ، فقد أمن فى واقعة بلطاوة منفذاً لروسيا تطل منه على الغرب . أما شارل ، وقد أعجزه جرح أصابه عن توجيه المعركة ، فقد فر إلى « بلندر » Blender فى تركيا ، ثم بقيت أمامه تسع سنوات أخرى مليئة لإثارة الرومانسية . ومع أنه حرص الأتراك ليشنوا حرباً على روسيا (١٧١١ - ١٧١٣) ، ثم عاد فى النهاية إلى وطنه ، فإنه وهو على ما هو عليه من الجرأة وصلابة رأيه المعهودين ، لم ينجح على الإطلاق فى تغيير ما قرره موقعة بلطاوة . فقد أسدلت هذه الموقعة الستار على الإمبراطورية السويدية . ورُدت بولندا لأغسطس صاحب سكسونيا Augustus of Saxony . ووضعت براندنبرج يدها على الجزء الأكبر من بوميرانيا السويدية . وأضاف بطرس « ريجا » Riga ، و « ريفال » Reval إلى فتوحاته على بحر البلطيق . كما نجح جيش التحالف القوى المكون من هانوفر وروسيا وسكسونيا وروسيا والدانمرك فى إسقاط « سترالسند » Stralsund (فى ٢٣ ديسمبر ١٧١٥) بعد مقاومة طويلة ومجيدة . وكانت آخر ما تبقى للسويد من معاقل على ساحل ألمانيا ، ومع ذلك فإن شارل وقد فر إلى السويد ما زال يحلم بالنصر . فعزا الترويع على أمل الحصول على فتوحات جديدة يساوم بها أعداءه . وهناك أثناء حصاره لقلعة مظلمة ، لقي ذلك الرجل الشرس مكشوف الرأس ذو الحذاء العالى الذى اكتسح أوروبا كما لو كان إعصاراً داعياً السويديين إلى التضحية تلو الأخرى ، دون أن يفقد قط

تأييدهم وإخلاصهم ، لقي شارل الثاني عشر حتفه كجندى ، وبعد مرور ثلاث سنوات قبلت السويد في صلح نستاد Nystad (في ٣٠ أغسطس ١٧٢١) انتقال ولايات البلطيق إلى روسيا ، وكانت الجائزة الأولى التي دار حولها ذلك الصراع الطويل .

كتب يمكن الرجوع إليها

- R. Nisbet Bain, Christina of Sweden (1890).
- R. Nisbet Bain, Charles XII & the Collapse of the Swedish Empire (1895).
- Voltaire, Histoire de Charles XII roi de Suede (1732). Tr. W. Todhunter, Everyman's Library (1908).
- Hallendorff & Schuck, History of Sweden (1929).
- D. Ogg, Europe in the Seventeenth Century (1925).

الفصل الرابع والعشرون

بطرس قيصر روسيا

روسيا في القرن السابع عشر - تقديس مبدأ الوراثة - الأسرتان المالكتان - قيام أسرة رومانوف Romanoff - المنافسة مع بولندا - التأثيرات الغربية المبكرة - بطرس الأكبر - « آزوف » - بطرس يتحول نحو الغرب . تأسيس مدينة « سان بطرسبرج » . إصلاحات بطرس - روسيا تشارك في سياسة الغرب .

بينما كان المعاصرون للويس الرابع عشر في باريس ولندن ينعمون بمباهج المجتمع الراقى ، كان رعايا قيصر مسكوفيا غارقين في همجية الشرق وظلامه . واقتصر التعليم على بعض مدارس الأديرة . ولم يعترف أحد بحرية الفكر في ذلك النظر الذي عمته الأمة ، وعرف فيه رجال الدين بالجهل والكسل والتعصب ؛ فأسرعوا للقضاء على البصيص الأول من حب الاستطلاع العلمى بدلا من تخصيص جانب من ثرواتهم الواسعة لتقدم المعرفة . على أن كافة الشعوب الآسيوية كان لها بعض أنواع التسلية البدائية . كذلك كان الأمر بالنسبة إلى الروس كذلك . فقد كانوا يطربون لسماع القصص الشعرية والأناشيد ينشدونها الموسيقى الأعشى أو يتشددق بها القصاص المتجول ؛ كانوا يتهجون للرقص والمزاح والقصائد التي تحكى سير أبطالهم . ولكنهم اختصوا أنفسهم بتسلية أخرى لم يعرفها أهل الشرق . فما من مكان آخر كانت تمارس فيه عادة السكر البهيمية على مثل هذا النطاق الواسع أو بمثل تلك العلانية ، يستوى في ذلك النساء والرجال : رجال الدولة والفلاحون ، والرهبان والقسيسون ، لا يقلون في ذلك عن العلمانيين . ولما كان النساء يعشن في عزلة تامة ، فقد خلت حياتهن من البهجة الاجتماعية فيما عدا حى الأجانب في موسكو ، وتستطيع أبسط صبية في معمل للألبان في بريتانى أن تزهو بنفسها أكثر من زوجة ثرى روسى ، زركشت الأصباغ الكثيفة وجهها ، وسلخت السياط ظهرها ، على عادة الزوج الروسى يقوم بها منشرح الصدر ، وتتقبلها الزوجة في استسلام .

كان القيصر هو المالك للأرض والشعب . ولم يكن ثمة برلمان ولا مدن حرة

ولا نقابات حرف منذ استؤصلت الحرية الجمهورية في « پسكوف » Pskoff ،
و « نغجورود » Novgorod في نهاية القرن الخامس عشر على نحو يدعو إلى الأسف ،
كما لم يكن هناك أى نظام للطبقات الاجتماعية . وكانت العدالة تشتري وتباع
علانية . وتأصل وباء الفساد الذى يرجع تاريخياً إلى أن أدواق روسيا العظام لم يصلوا
إلى السلطان بقوة السلاح وإنما برشوة الموظفين التتار ، تأصل هذا الوباء في عادات
الأمة لدرجة جعلت كافة الجهود لاستئصاله غير مجدية . ولم تكن الضرائب إلا لونا
من اللصوصية ، وقد بلغ من تأخر البلاد في المجال الاقتصادى أن الجانب الأكبر
من صناعاتها وتجارتها كان في يد القيصر . ويصور الرحالة الغربيون الذين زاروا
روسيا في القرن السابع عشر المجتمع الروسى في صورة عنيفة مستهترة لا نظام لها ،
حريصة على اعتزال الأجانب ، ولا يؤلف بينها إلا حكم هيجى . فكان القيصر يجلد
أتباعه كما كان هؤلاء وملاك الأراضي يجلدون خدامهم من العبيد ورقيق الأرض ،
وكان الأسقف يجلد القساوسة ، ورئيس الدير الرهبان ، والزوج زوجته ، والأب
أولاده . وكان الفرق يبدو واضحاً بين روسيا والغرب في كل شيء : في الملبس
والسلوك والعادات والقوانين . كان الذكور يلبسون الأردية الطويلة ويرسلون لحاهم
طويلة . وقد قال « إيثان الرهيب » Ivan the Terrible : « إن خلق الذقن خطيئة
لا تقوى على محوها دماء جميع الشهداء ، أليست عملية يشوه بها الإنسان خلقه
الخالق ؟ » واقترنت القسوة في أبشع صورها وألوان الرذيلة التى لا يمكن وصفها ،
اقترنت بأغلظ الخرافات وصاحبها كراهية راسخة لكل ما هو جديد آت من الغرب
مهما انعدم ضرره ، وقد شجع على ذلك الرهبان بملابسهم السوداء ، والقسس بملابسهم
البيضاء . ومما يدل على العقلية الروسية في ذلك العهد أن الاضطراب الروحى الوحيد
الذى حرك ركودها الجامد لم يكن مظهراً من مظاهر التقدم وإنما كان آية على
الجهل ، فإن حركة راسكول Raskoll^(١) (١٦٦٨) التى أصابت انتشاراً واسعاً

(١) حركة راسكول Raskoll (١٦٦٨) Russian non-conformists Raskolnisi :

حركة دينية انفصالية روسية ؛ كانت نتيجة لموقف البطريرك نيكون (١٦٥٢ - ١٦٥٨) من الكنيسة
والقيصر - حظا نيكون بعطف القيصر الكسيس الذى أطلق يده في إصلاح الكنيسة . على أن جهوده
ومحاولاته لاقت معارضة قوية بسبب عدم كياسته ومحاولته السيطرة على القيصر نفسه . وبدأ الصراع بين
معتنقى العقائد القديمة Raskolniks والمستحدثة على يد نيكون Niconianism على أثر انقضاء ذلك
المجلس (١٦٦٧) الذى أعلن حرمان المنشقين على الكنيسة من رحمتها .

وتأثيراً كبيراً قد رفضت بعض تغييرات طفيفة وإن كانت معقودة في الطقوس الدينية ، أدخلها البطريرك (نيكون) Nikon .

كانت روسيا حينئذ الشرق بعينه . وقد بلغ من إنكار اعتبار الشعب الروسى جزءاً لا يتجزأ من الجماعة الأوربية أن من بين الاقتراحات التى بحثت فى بلاط هنرى الرابع ملك فرنسا مشروعاً لقيام الغرب بحركة صليبية واسعة النطاق لطرد المسكوفيين والأتراك من الأراضى الأوربية. كذلك لم يكن طيباً الحكم الذى ذهب إليه أورلياريوس Orlearius أحد نجباء الألمان عندما زار موسكو عام ١٦٣٦ فقال : « إذا تمنع الفرد فى طبيعة حياة المسكوفيين وأساليبهم اضطر للتسليم بأنه لن يجد شيئاً آخر يفوق ذلك الشعب الروسى همجية . لأنهم لا يتعلمون أى فن أو علم أو يأخذون أنفسهم بأى لون من ألوان الدراسة ، وعلى النقيض من ذلك بلغ بهم الجهل أنهم يظنون أن ما من إنسان يستطيع أن يضع تقويماً إلا إذا كان ساحراً أو يتنبأ بدورة القمر وحركة الكسوف والخسوف إلا إذا كان على اتصال ما بالشياطين » .

وقد حكمت هذا الشعب المشاغب ولكنه المحافظ فى الوقت نفسه ، حكمته فى وقت امتد أكثر من ألف عام أسرتان : أسرة « روريك » Ruric وهى سويدية الأصل وأسرة « رومانوف » Romanoff التى نالت حقها فى العرش عن طريق اتصال نسبها بالأسرة السابقة ، وإنه لدليل فريد على اعتياد الروس تبجيل مبدأ الوراثية ، عندما قتل سراً المعتصب القدير « بوريس جودونوف » Boris Godounof ديمترى الابن الثانى لإيقان الرهبان (١٥٩٨) ، وهو آخر من أنجبته الأسرة التى أنشأت الدولة الروسية الأولى على نهر « الدنيبر » Dniepper ، ونقلت إليها المسيحية عن الدولة البيزنطية ، وأنشأت دوقية موسكو العظمى ، ثم خلصت روسيا من نير التتار . وأبى الناس أن يصدقوا موت ديمترى ، إذ كيف يتأتى لأسرة حكمت منذ القرن التاسع أن تختفى هكذا فجأة ؟ فظهر شخصان مزيفان انتحل كل منهما اسم ديمترى : الأول راهب ارتد عن دينه ، وتحول إلى الكاثوليكية وتزوج من كاثوليكية ، والثانى لص ، وقد اجتذبا حماسة الفلاحين والقوزاق وهددا - اعتماداً على مساعدة بولندا والسويد - بحل الدولة وإرجاعها إلى أصلها الهمجى .

ولكن في تلك الأثناء أى في عام ١٦١٢ ، وفي أحلك الأوقات عندما كان سيجسموند Sigismund الثالث ملك بولندا في « سمولنسك » Simolensk والسويديون في « نيجورود » Novgorod ، والبولنديون في الكرملين Kremlin وقع حادث لا ينسى في تاريخ روسيا وهو مميز لشعبها العاطفي المتدين ؛ والثابت أن روسيا كان يتحتم عليها أن تقرر ما إذا كانت ستقبل الخضوع لقيصر بولندي الأصل لا يقدم إلا ضمانات ضئيلة للمحافظة على العقيدة الأرثوذكسية وهو الأمر الذي كان متوقعا ، ومن دير « توريتزا » Toritza وجهت الرسائل لعرض الأمر على المدن . وهبت الأمة لتدلى برد قاطع . وكان زعيما ذلك الشعور القومي العظيم المتفجر رجلين : قصاب وأمير : أما القصاب فهو « منين » Mininne من نيشنى نوفجورود Nischni-Novgorod ، والأمير بوزهارسكى Pozharski ٥ . وإليهما يعود فخر تكوين جيش وطنى ، طرد البولنديين من موسكو ، وترتب على ذلك موافقة المجلس الوطنى على اعتلاء ميخائيل رومانوف ابن البطريرك « فيلاريه » Phileret عرش الإمبراطورية . (١٦١٣) .

كان ميخائيل صبيًا غرًا في الخامسة عشرة من عمره ، ولكنه كان ينتمى لأسرة محبوبة من الشعب ، قوية المركز بسبب مباركة الكنيسة لها . ومن ثم استقر عزم نبلاء موسكو على تأييد صبي لا خبرة له ؛ كما قرر الشعب أن يقدم له ولأهله البسيط العميق معاً ، مفضلاً ذلك على أن يخضع لمدع على العرش حملته إليه سواعد الجيش البولندى ، أو يشهد تعرض الكنيسة الأرثوذكسية للخطر باعتلاء ملك بولندى على العرش . وهكذا تحول إعجاب الشعب من أسرة روريك إلى أسرة رومانوف . فالقيصر مصطفى الله ، وهو الأب الصغير لشعبه ، وشافيه من همومه ، وثبت مركز الأسرة ونمت . فأنجبت بطرس الأكبر وإسكندر الثانى ، وغيرهما من الشخصيات الأقل فخامة ، وقد تألقوا في الصفوف الأولى من ميدان الشئون العالمية . ثم فجأة تلاشت أسرة رومانوف كما ظهرت فجأة وسط عواصف الحرب والثورة بعد سلطان دام ثلثمائة عام . فعزل القيصر البرىء نيقولا عن عرشه وذبح (في عام ١٩١٧) في حفل دموى أقيم احتفاء بانتصار البلشفية . وكان نيقولا أطيب القياصرة وأضعفهم وأكثرهم إنسانية . بل هو السيد الكامل الوحيد في قائمة حكام روسيا منذ القرن التاسع .

ورثت الأسرة الحديدية فيما ورثت الحرب ضد البولنديين ، تلك الحرب التي أصبحت مزمنة منذ القرن الخامس عشر . ويعزى عدااء الروس الشديد للبولنديين إلى عاملين : عقيدتهم الرومانية الكاثوليكية ؛ واتحادهم السياسى (وقد وطدته معاهدة « لوبلن » Lublin في ١٥٦٩) مع دوقية « لتوانيا » العظمى Lithuania . وكانت على خلاف لتوانيا الصغيرة الحالية تتكون من مساحات شاسعة من الأراضي التي كانت يوماً جزءاً من روسيا ، وبعد أن سكنها الروس البيض والروس الصغار التابعون للكنيسة الأرثوذكسية أصبح ممكناً أن تعود إلى روسيا من جديد . ومجمل القول أن الروس رأوا في البولنديين جماعة من الملحدون المغرقيين في إلحادهم وعصاة جد خطيرة من اللصوص الذين أتوا ليسرقوا في غير أرضهم . فلم يكن البولندي - في نظر الروس - كاثوليكيّاً فحسب ، بل كان كذلك كاثوليكيّاً باغياً . لقد كان امتلاك بولندا لتوانيا وحده كافياً لتسوء العلاقة بينها وبين روسيا ، ولكن أسوأ من ذلك أن يحاول اليسوعيون البولنديون رد اللتوانيين دفعة واحدة إلى حظيرة الكنيسة الكاثوليكية حتى إذا فشلوا في ذلك حاولوا خداعهم بسياسة جديدة تقوم على التراضي وذلك بإقامة كنيسة موحدة (Uniate) وهي كاثوليكية في عقيدتها ، سلاقية في طقوسها ، هذا إلى تمادى البولنديين في تعاليهم ووقاحتهم التي لا تقف عند حد . وعندما كانت روسيا تعاني بعض الاضطرابات لم يتورع البولنديون من استغلال تلك الشدة . فأيدوا المدعين على العرش ، ونصبوا أنفسهم سادة على موسكو ؛ وأحرقوا جزءاً من المدينة ، وطلبوا بعرش روسيا (١٦١٠) . وكان البولنديون أمهر من الموسكوف وأعظم ثقافة ؛ فسهل عليهم أن يقتبسوا عن خبراء العسكريين في الحروب الألمانية . ولكن نبلاءهم كانوا معروفين بحدة الطبع . وقد ضعفت الدولة البولندية ضعفاً شديداً عندما أصبحت الملكية انتخابية في ١٥٧٢ ؛ عند انقراض الذكور في فرع ياجلو Jagello . كان ثمة خبرة من العنف تهيج ذلك الشعب الحاد المزاج فتدفعه إلى معالجة أهداف متعارضة بحيث لا يمكن الجمع بينها ، فبينما نراه يشن هجوماً في اتجاه نهر الدنيبر نراه يشن هجوماً آخر نحو البلطيق ، ناهيك باندفاع جرىء في قلب روسيا نفسها . وقد كان من الخدمات الأولى لأسرة رومانوف كبح جماح قوة بولندا ، ولتوانيا المتزايدة . ففي عام ١٦٦٧ بعد حرب دامت خمس سنوات ، استردت مسكوفيا

روسبا الصغرى ومدينة « كييف » Kieff المقدسة .

وقد بدأ أدواق موسكو العظام يمتنون سلم النفوذ كجباة للضرائب لدى حكام التتار . أما الأسلوب الذى مكّنهم من أن يحرروا التتار أنفسهم من حكم سادتهم الآسيويين ، وينشطوا للعمل خارج عاصمتهم ذات الغابات ، ويتقدموا نحو بحر قزوين والبحر الأسود وبحر البلطيق ، وإن لم يشعر بهم أهل الغرب إلا قليلا حتى بدأ نجم بطرس الأكبر يلمع فى الأفق . كان هذا الأسلوب يعتمد دائماً على تطبيقات نشاط الغرب وعلومه ، فإن إيفان العظيم الذى تزوج من « صوفيا بليولوجوس » Sophia Paleologus ابنة أخ آخر أباطرة الدولة البيزنطية ١٤٦٢ ، وضاعف من مساحة إمارة موسكو الكبيرة ، قد اجتذب المعمارين والمهندسين اليونانيين والإيطاليين إلى بلاطه ، وإنه ليدين بكثير من نجاحه لقائد مدفعيته الإيطالى « فيورافانتى ألبرتى » Fioravanti degli Alberti ثم إن انتصار كازان Kazan التاريخى الذى ألحق بالتتار أشنع هزيمة فى ذلك القرن ، وأوصل ممتلكات إيفان الرهيب (وكان أول من أطلق على نفسه لقب قيصر من بين الأدواق العظام) حتى حافة بحر قزوين ، ثبتته المساعدة التى كان لا غنى عنها والتى قدمها مهندس ألمانى . وكان افتتاح طريق التجارة فى البحر الأبيض (١٥٥٤) من عمل مغامرين من الإنجليز . كان بطرس الأكبر بعقريته ونشاطه أعجوبة زمانه — على أنه لولا تجاربه الغربية التى اكتسبها فى شبابه أثناء اجتلائه بأصدقائه من السويسريين والهولنديين والأسكتلنديين فى الحى الأجنبى بموسكو لما أدرك على الإطلاق مطامعه العظيمة ، ولأصبح فيما بعد عاجزاً عن تحقيق تلك المطامع إذا لم يقدر له عون الخبراء الغربيين والمدافع الغربية فى حينه . إن القوى المحلية الواسعة لدى الشعب الروسى كانت فى حاجة لكى تنطلق وتنظم ، إلى مؤثرات عقلية من جانب العرب .

وفى عام ١٦٨٩ قبض بطرس على السلطة بعد أن أزاح فى عنف أخته صوفيا الوصية عليه — وكان إذ ذاك قد بلغ من العمر سبعة عشر عاماً — كان هائلاً فى قواه الجسمية وقد ملك كافة المواهب بما فى ذلك شراسة عنيفة مرعبة شديدة الاندفاع متقلبة الأهواء وإن كانت ضرورية لفرض تجديدات غير مستساغة على الشعب الروسى . وإن مزاجه الذى تميز بخصوبة تدعو إلى الدهول قد دفعه إلى كل أنواع

التطرف من السخرية الخيالية إلى الكتابة المظلمة. فقد رأيناه في السنوات الست الأولى من حكمه يرحب بترك مهام الحكومة السخيفة للآخرين، بينما راح هو يقيم المساحر (الكرنفالات) بصحبة رفقاته المرحين في « سلوبودا » Sloboda وهو حى الأجانب في موسكو، ويعد الألعاب النارية (الصواريخ)، ويغنى في الطرقات، ويبنى السفن، وينظم قتالا صوريًا، ويداعب أصدقائه، وحتى عندما بدأ يتناول الأمور بطريقة أكثر جدية لم يجزم أحد مطلقاً إلى أى حد سيكون جاداً في عمله. وقد صحبه حتى نهاية حياته ذلك المزاج الهمجي المشوش الذى كان أشبه ما يكون بمزاج التلميذ المستهتر مما دفعه حتى وهو فى سن الخمسين إلى أن يجعل من بطرسبرج كذبة أبريل. وإذا استثنينا نشاطه وتطلعه الدائب إلى المعرفة لم تكن عاداته الشخصية سوى عادات عامل مسكووى سكير قذر، يجد السعادة فى رفقة أصحابه الخشنيين وفى أشق الأعمال وأبشعها. ولهذا أدى - وفى أعظم لذة - أعمالاً كثيرة مختلفة كلما سنحت له الفرصة. فاشتغل مدفعيةً وبحاراً وصانعاً للسفن وجلاداً، ناهيك عن الحرف الأخرى الأكثر تهذيباً كطبيب أسنان ونقاش وجراح؛ ولم يردعه عن أى عمل رادع أدبى أو دينى أو اجتماعى. فقد حبس شقيقته وطرده زوجته الأولى ونبش قبر عمه ودنس بجثته. ولما خشى أن تنقض سياسته فى الاقتباس عن الغرب قتل ابنه الذكى الرجعى بعد أن أنزل به ضرباً من التعذيب البشع. حقاً إنه كان يكره انحناء الناس - كما لو كانوا عبيداً - فحرمه. ولكنه كان قليل الاهتمام بكرامته الشخصية، فلم ير فى أى عمل أو موقف شيئاً يحط من قدره سواء أكان ذلك عن كبرياء معكوسة أو بساطة شعبية حقيقية. فلم يحط من قدره فى أعين شعبه أن زوجته الثانية كانت خادمة عادية من ليفونيا Livonia، أو أن تهتكه كان لا حياء فيه، أو أنه كان يقضى أياماً سوية عاجزاً عن العمل، صريع الشراب؛ كان بطرس يمثل خلاصة قومه وبما عرفوا به من تناقض فى العمل ومزاج حاد وشهوات جارفة، وألفة كريمة. ومع ذلك فعندما مات وهو فى سن الثالثة والخمسين كان الشعور بالارتياح عاماً كما صوره أديب صاحب دعابة: مثل ذلك مثل الفئران تنظر فى سرور إلى جنازة القط.

لم يكن هناك ما هو أشد إغراء لحاكم شاب تواق إلى القوة البحرية والتوسع

التجارى من آزوف Azoff الحصن التركى العظيم عند مصب نهر الدون الذى يمكن الوصول إليه مائتاً من موسكو. وهناك أمام أسوار آزوف كسب بطرس تجاربه الحربية الأولى (١٦٩٥) ، وهناك بمساعدة الأسطول — وقد أدخلت عليه بعض التحسينات الهامة بعد محاولة فاشلة فى البداية — جنى بطرس ثمار صبره وسعة حيلته . وقد استحق استيلاؤه على آزوف (١٦٩٦) المديح لأنه كان أول انتصار تحرزه القوات الروسية على الأتراك . ولكن القيصر الشاب الذى كان واقعياً لم يدر النصر رأسه .

وقد تكتشفت مشاكل البحر الأسود عند تمحيصها عن صعوبات هائلة لا يمكن حلها إلا بالاستعانة بحليف من الغرب ، وأخذ بطرس يحوب الغرب باحثاً عن هذا الحليف ، ولكنه عاد من أسفاره بخفى حنين ، فأثر أن يبدأ ببحر البلطيق ثم بالبحر الأسود فى قائمة أهدافه الحربية . فقد كان أهون عليه أن يؤسس مدينة سانت بطرسبرج من أن ينتزع بمفرده شبه جزيرة القرم من التتار والترك . وهكذا أبدى القيصر — بقراره الخطير الذى قضى بالتحول الحاسم عن المسرح البعيد الذى شهد انتصاره المبكر — أبدى من سداد الرأى ما هو جدير برجل الدولة .

ومنذ الضربة التى وجهها إلى السويد حتى مماته فى ١٧٢٥ ظل بطرس فى حرب تكاد تكون متصلة . وعلى ضوء هذه الحروب التى شنها ضد السويد والأتراك والفرس يجب النظر إلى سياسته الداخلية . وكان أكثر ما يشغل ذهنه المتقلب أن ينشئ جيشاً كفوّاً كالجيش النمساوى وأسطولا يعدل الأسطول الهولندى ، وإدارة حكومية تضارع نظيرتها فى السويد ، وأن ينتزع من الفلاحين الذين أخضعهم بقيود الرق على نحو أقوى من ذى قبل الموارد اللازمة لمواصلة حروبه . ونحلت سياسته مما من شأنه أن يخفف عن الفقير أعباءه أو يحقق أهداف العدالة الاجتماعية . فكل ما أراده لشعبه هو العلم والسلطان ، والمتع المادية فى حياة الغرب .

أما العمل العظيم الذى أنجزه بطرس فهو أنه — وقد تفهم بجلاء تفوق الغرب — وفق بعد مجهود دائب استغرق حياته بأكملها ، وفى مواجهة آراء قوية سابقة فى رفع بلاده بصورة ملموسة إلى مستوى أرقى من الحضارة . ومن المرجح أنه كان يدين لنديم صباه « ليفورت » Lefort ، وهو سويسرى من جنيف ، وكان بيته فى الحى

الألماني مسرحاً لألوان من العبث غير المذهب ، كان يدين له بأول تدريب تلقاه في أساليب الغرب . ومن المؤكد أن « ليفورت » هو الذى اقترح عليه رحلته إلى الغرب عام ١٦٩٧ ، وكان ذلك حدثاً فاصلاً في تاريخ روسيا . ومن ثم لم يكن محتملاً على الإطلاق أن ينسى بطرس الدروس التى لقيته إياها في البحرية أمستردام ودفورد Deptford ولا ما اكتسبه من فيينا — وهو بعد لا يزال تلميذاً مبتدئاً — من العلوم الحربية . كان أهل الغرب على علم تام بفن الحياة وأسرار القوة . كان في وسعهم أن يبنوا السفن ويصنعوا المدافع والآلات ، كما أنهم خبروا مسائل المال ووسائل الراحة والمتعة المعقولة ، وعرفوا القراءة والكتابة ، واختلطوا بالنساء في حرية . وأقاموا لأنفسهم في مدنهم ذات الشوارع الممهدة المضاعة معيشة لا هى بمعيشة الهمج ولا بمعيشة الرهبان المنعزلين . فاستقر عزم بطرس على أن ما أمكن عمله في الغرب من المستطاع — بل من المحتم — أن يعدل في روسيا كذلك .

وكان بطرس أول من تبنى من مواطنيه أهمية إقامة عاصمة لروسيا على بحر البلطيق وأصبحت مدينة سان بطرسبرج التى غنمها روسيا نتيجة حرب طويلة الأمد ، شنت بسرعة ، خير ضمان لعدم انقطاع هذا الاتصال الثمين بالغرب ، ولأن يصبح نفوذ روسيا ملموساً في شئون السياسة الغربية . وكانت تعنى شيئاً أكثر من مدينة ، إذ أصبحت رمزاً ؛ فقامت تمثل في الحياة الروسية ذلك الاتجاه نحو الترحيب بالغرب وقبول مجرد حضارته ضد الفلسفة القومية الأخرى وهى الميل نحو السلافية في القرن التاسع عشر والشبيوعية في القرن العشرين ، تلك الفلسفة ترى الحضارة الروسية — أمراً يختلف كل الاختلاف عن حضارة أوروبا ، فهى لا تفيد من الاختلاط بها ، وتعتبر موسكو القلب الحقيقي للدولة الروسية والمركز المناسب لحكومتها . وقد بدت مدينة بطرس على نهر « نيفا » Neva لهذا الفريق من الناس لا تفضل كثيراً مركزاً اجتماعياً لبارونات البلطيق وقاعدة أمامية لألمانيا في الأرض الروسية .

قام الحرس الروسى البريتورى (سترلى أو المسلحون بالبنادق) بحركة تمرد (١٦٩٨) قمعت بسهولة ولكن بعد عقاب صارم ، وقد خلق ذلك في البلاد منذ البداية جواً من الرعب كان يحتاج إليه القيصر المصلح لتنفيذ إصلاحاته .

وببصيرته النافذة وجه بطرس ضرباته بشدة إلى عناصر الحياة الاجتماعية في روسيا المتأصلة في تقاليد كذقون الرجال وأرديتهم وعزلة النساء وثروات الرهبان القسيسين وسلطانهم المستقل ، بل إنه ذهب إلى حد إلغاء بطريكية موسكو ثم وضع شئون الكنيسة في يد مجلس ديني مقدس يمثل فيه القسيسون والأساقفة .

وبعد أن قام بتغييرات بمثل هذه الثورة (١٧٢١) سهل عليه نسبياً إنشاء المدارس المهنية ، وإصلاح العملة والتقويم ، وحذف ثمانية أحرف من الأبجدية ، وإنشاء مجلس للشيوخ ، ونظام للوظائف العامة ، وبناء أسطول . وعلى الرغم من أن بطرس شفا غليله بشنق حاكم مرتش لسبيريا ، فإن الرشوة المتأصلة في دنيا الوظائف بقيت تتحدى بطرس . وكانت زوجة بطرس الثانية كاترين البقونية لا تتورع عن ابتزاز الأموال بطريق التهديد .

ولاشك أن تحضر أمة قد هوت إلى أعماق الفساد كان عملا يفرق بجهد أى حاكم بمفرده ، ولم يكن بطرس يملك المال اللازم «لخدمات الاجتماعية» ، ومشروعاته التربوية — على طموحها على الورق — لم ينفذ منها إلا القليل فعلا . لم يكن لديه المال ولا هيئات التدريس ، كما لم يكن الميل للتعليم منتشرًا ، ولا يمكن بدونه أن يتحقق أى تقدم تربوي كبير . فالشعوب لا تصنع أذواقاً جديدة تحت الطلب . والتعليم للروس — كالبحر — أمضوا وقتاً طويلاً قبل أن يملكوا ناصيته . ولم يكن بطرس الذى كان صريع الشراب في غيبوبة عما حواليه ، بينما كانت معركة بلطاوة في أخرج أوقاتها ، بالرجل الذى يستطيع أن يمنح الشعب الروسى حاسة التدبير والإدارة ، ولرقد أخذ بطرس من شارل الثانى عشر أو نابليون القصد في الشراب ، فما أجل الفعال التى كان قسبياً بتحقيقها ! على أن بطرس قد أنجز دون شك عملاً عظيماً عندما منح الروس المقومات الرئيسية الثلاثة للدولة الحديثة : الجيش والأسطول والإدارة المدنية . وعلى الرغم من أن المؤثرات الغربية قد دخلت البلاط المسكر فى منذ عهد إيفان الثالث ، فإن بطرس كان أول من فتح للروس نافذة الغرب على مصراعها . فظلت مفتوحة منذ عهده ، وإليه يعود أيضاً فضل صدور أول جريدة روسية وإنشاء أول مستشفى روسى وأول متحف روسى .

وعلى الرغم من أنه لم يتخذ أى خطوة لتأمين المستقبل فإن عمله ظل باقياً أصول التاريخ الأوروبى

يقاوم الأهواء والآراء القديمة في جزرها ومدها . وقد خلفه على التوالي أرملة فحفيدة ثم ابنة أخيه ثم ابنته (١) .

وقد قامت وراء هذه الشخوص بعض الشخصيات الألمانية القديرة أمثال أوستermann الذي ظل وزيراً للخارجية سبع عشرة سنة ، وميونخ Munich قائد الجيش الروسي في عهد القيصرية آن كورلاند Anne of Courland أو بعض الروس ممن تربوا في مدرسة بطرس مثل بسترشيف Bestuchief المستشار الأول لإليزابيث . لقد انقضت أيام العزلة الاجتماعية والسياسية القديمة . وكان التحالف الوثيق مع النمسا حجر الزاوية في السياسة الروسية حتى موت إليزابيث في عام ١٧٦٢ .

وهكذا بفضل عبقرية فنان همجي دخلت روسيا في نظام أوروبا السياسي ، حيث أخذت تحتل مركزاً لا يختلف كثيراً عن مركز إنجلترا من حيث كونها جزءاً من القارة الأوروبية ، ومع ذلك تجتنبها مصالح بعيدة لا تعني أوروبا في شيء . فعند بابها الخلق تقع آسيا وما هو إلا صف منخفض من التلال المنحنية المكسوة بشجر الصنوبر ، كان « يرمك » Yermack أول من عبرها عندما كان شكسبير لا يزال صبيها ، يفصل روسيا عن غابات سيبيريا ومجاريها المائية ومراعيها ، حيث تبدو الطبيعة فيأجدا اتجاه الأنهار من الجنوب إلى الشمال—وكأنها تكرر على أرض آسيوية التجربة التي منحت كندا سحرها وقوتها . ولكن لما كان الوصول إلى إمبراطورية روسيا الاستعمارية لا يتطلب منها ازتياد البحار ، وإنما كانت ماثلة أمامها لا تحتاج إلا لمد يدها لأخذها ، فإن انجذاب السياسة الروسية نحو آسيا لم يتضح ولم يكن قوياً منذ البداية ، ولم يظهر إلا في القرن التاسع عشر عندما أصبح الموسكوف وجهاً لوجه أمام بريطانيا واليابان : عندئذ أصبحت جاذبية آسيا عاملاً عظيم الأهمية في السياسة الروسية ؛ ولم يكن الشرق في القرن الثامن عشر بقدر ما كان الجنوب والغرب عامل اجتذاب المرجهين للسياسة الروسية . فالغرب قدم لروسيا خبراه وفلسفته في الحكم القائمة إذ ذلك على الاستبداد المستنير ؛ وقدم الجنوب لروسيا الفتوحات المغرية واحدة تلو أخرى . فثمة حدائق السهول في

(١) كاترين الأولى ، بطرس الثاني ، آن أوف كورلاند ، وإليزابيث .

القوقاز، وشبه جزيرة القرم بإساحتها المشمس كأنه الريشيرا، وهذاك البسفور أكثر الممرات المائية سحرًا وجاذبية ، وهو المعبر من مياه البحر الأسود الباردة إلى مياه القسطنطينية الدافئة ومنها إلى جزائر اليونان فالأراضي المقدسة . ومن السهل أن ندرك قوة تأثير مثل تلك المطامح في الشعب الروسى . وقد أرادوا الثغر ذا المياه الدافئة والمخرج إلى بحر إيجه ثم السيطرة على المدينة الإغريقية القديمة التى اعتقدوا أنهم أصحاب حق فيها باعتبارهم ورثة للإمبراطورية البيزنطية، فاضطربهم ذلك إلى النظر إلى الأتراك على أنهم الدولة التى تحول بين روسيا والشمس وأن يسووا كافة علاقاتهم السياسية بما يتمشى وتلك الحقيقة . فأصدقاء الأتراك أعداء لهم، وأعداء الأتراك أصدقاء لهم . وقد أدركت ذلك كاترين الثانية، أعظم خلفاء بطرس على الرغم من أنها ألمانية الأصل وفرنسية التربية . ففى اعتبارها أيضاً كانت مشاكل الجنوب مقدمة على غيرها . وفى عهدها وكخطوة لتحقيق سياسة الجنوب ، قسمت بولندا ، وضمت شبه جزيرة القرم لروسيا عام ١٧٨٣ وبذلك ثبت العلم الروسى على سواحل البحر الأسود .

كتب يمكن الرجوع إليها

- Kluchevsky : History of Russia. Tr. C.J. Hogarth (1911-1932).
- Rambaud : Histoire de la Russie (1884).
- A. Brückner : Peter der Grosse (1878)
- A. Toynbee : A Study of History, Vol III. (1934).
- Macaulay : History of England (1858-1862).
- R. Nisbet Bain : Pupils of Peter the Great (1895).
- R. Nisbet Bain : Slavonic Europe (1908),
- K. Waliszewski : Pierre le Grand (1897).

الفصل الخامس والعشرون

الترك والعالم المسيحي

قوة الجيش التركي - سليمان العظيم - عهد التوسع العثماني - معاهدة توروك Torok ١٦٠٦ -
طنينان الحكم التركي وتسامحه - انقسام العالم المسيحي - ضعف الترك ثم انتعاشهم - النمسا الحصن
الأماني للمسيحية - بولندا ، ضعفها الداخلي وأعدائها في الداخل - جون سوبيسكي John Sobieski
المقاومة الفرنسية - انتصارات المسيحية ١٦٨٣ - ١٦٩٩ - غزو البنادقة للمورة - القوية
المسيحية - العدو الحقيقي للإمبراطورية التركية - مشكلة النمسا الداخلية وخدماتها لأوروبا .

لم يكن محتملا أن يغرب عن أذهان السلاطين الذين خلفوا السلطان محمد الفاتح
مباشرة كيف أن قبيلة شرقية صغيرة غليظة الطبع جاءت من قلب آسيا وقدر لها
بجهداتها الدائب وجراتها واحتلالها أن تسيطر على إمبراطورية امتدت من بغداد
إلى حدود المغرب ، ومن الخايج الفارسي إلى شبه جزيرة القرم ونهر الدانوب ؛
إذ مكنتهم تفوقهم الحربي من هذا الملك العريض ومكنتهم حكمتهم من أن يدركوا
أن لا بقاء لإمبراطوريتهم إلا بهذا التفوق الحربي . ومن ثم كان الجيش أهم
ما عنوا به . وقد بقي السلطان سنوات طويلة . يملك الجيش الثابت النظامي الوحيد
الذي له اعتبار في أوروبا . وبفضله استطاع الأتراك أن يكونوا قوة رهيبة في أعين رعاياهم
وجيرانهم . وكانت منشآت السلاطين العسكرية في المدفعية والشتون الهندسية
والإمدادات والتموين فوق مستوى عصرهم . كما لم يكن في وسع أي دولة من دول
غرب أوروبا أن تقاوم فرق السباهية والانكشارية التي تكونت على أساس ضريبة
الدم من الأطفال المسيحيين بقوات تعدلها في حماسة روحها أو قسوة مرانها وطول
أمدته . وظل السلاطين أكثر من قرن ينجون ثمار حميتهم العسكرية وانشغالهم
بالجيش ، وقد قوى من حرارة ولائهم لأمير المؤمنين حماسهم وطاعتهم العمياء لدينهم .
وبهذه القيادة وباستغلال الانقسام في العالم المسيحي اطراد نمو الإمبراطورية
التركية . ففي عهد السلطان سليمان العظيم ، الفارس المثقف الذي حكم من ١٥٢٠ إلى

١٥٦٦ ، انتزع الأتراك - كما بينا من قبل - رودس من فرسان الاسبتارية ، وفرضوا الجزية على ترنسلفانيا وملداقيا ، واغتصبوا من النمسا سبعة أعشار المحر - وأثارت تلك الانتصارات البحرية والبرية على حراس العقيدة المسيحية رعدة قلق في أوروبا . وبلغت الإمبراطورية العثمانية في عهد هذا السلطان الممتاز أوج قوتها على الرغم من أن العثمانيين قد انتزعوا بعد ذلك بقرن من البنادقة كاندية ، وكنينيك Kameniek القلعة الفريدة الموقع من البولنديين . كان سليمان يجمع بين المهمة العسكرية وموهبة التنظيم الحكومي والميل الطبيعي للفنون والآداب . وبعده أخذت تظهر نذر الانحلال الأولى . خلفه على العرش عدد من السلاطين الضعفاء المتهتكين وترتب على حكمهم من المصائب ما لا يمكن تجنبه في دولة تعتمد في كل شيء على شخصية حاكم مستبد . فاجتاح الفساد الحكومة ، وعمت الفوضى الجيش ، وسمح للانكشارية والفرق السباهية بالزواج ، وبدأ التساؤل في جباية ضريبة الأطفال المسيحيين ، ثم ألغيت تماماً في القرن السابع عشر . وإن معاهدة توروك Torok في عام ١٦٠٦ وهى المعاهدة التى خلصت النمسا من الجزية المهيمنة ، وعينت الحدود بين الأراضى التركية والنمساوية لتشير إلى النقطة التى توقفت عندها الفتوحات التركية في أوروبة ، وكيف أن الأتراك في مساوتهم مع أعدائهم قد اضطروا إلى قبول التنازل لهم عن بعض المزايا .

بلغت الإمبراطورية البيزنطية قبل الغزو العثماني مبلغاً من البؤس بحيث إن عدداً كبيراً من الرعايا المسيحيين للباب العالى كادوا يعتبرون حكم الأتراك القوى نعمة . حقاً كان المسيحيون مبعدين عن النفوذ السياسى ، يخضعون لضريبة خاصة ، كما تعرضوا في أكثر من مناسبة لخطر الاستئصال المنظم . على أنهم تمتعوا على الرغم من عيوب حكاهم ومضايقاتهم بالضمانات التى لا غنى عنها لتوفير حياة محتلة : كان التركي قاسياً ولكنه كان كسولاً ، صلفاً ولكن غيبياً . ولما كان لا يصلح للعدل في الصناعة أو التجارة فقد رضى بالسماح للمسيحيين بممارسة التجارة والصناعة ؛ ولما كان لا يملك ثقافة خاصة به يلقنها للآخرين فقد عاش اليونانيون والبُلغار والصرب تحت الحكم العثماني المترخى غير المنتظم ، يمارسون شعائهم الدينية ، ويحتفظون بعادات أجدادهم ، ويواجهون القرآن في حماية بطارتهم بمقاومة هادئة وإن كانت صلبة .

هناك إذن أمران ميزا الحكم التركي في أوروبا : طغيانه وتساهله : أبدى الأتراك عدم مبالاة بل احتقاراً شديداً للمنازعات القائمة بين الكنائس المسيحية . وما إن أقبلوا عن نية تحويل العالم إلى الإسلام حتى قنعوا بترك غير المؤمنين يصلون نار شقاوتهم . ولم يكن ثمة مسلك خيراً من هذا ملازمة لمصالح الأتراك . فقد آثر الكثيرون من پروتستانت ترنسلقانيا والمجر العيش تحت لواء الملل على أن يقعوا في قبضة الجزويت . وفي أثناء التنافس للحصول على معونة المجر ، ذلك التنافس الذي ميز الحروب الدانوبية في النصف الثاني من القرن السابع عشر ، لم يكن هناك عامل أكثر ترجيحاً للغة الأتراك من سجية التسامح الديني ، وأكثر معاكسة للمسيحيين من اضطهادهم الذي قضى من قبل على پروتستانت بوهيميا ، وأصبح عندئذ يهدد أرواح وأملاك إخوانهم في الدين من أهل المجر .

كان لهذه الإمبراطورية المتسعة الأرجاء التي نظمت بدقّة لخدمة أغراض الحرب عدوّان رئيسيان : شاه فارس وقرى أوروبا المسيحية المضطربة المشاغبة . وقد اهتم الأتراك خلال تاريخهم الطويل بإعداد أسباب الدفاع في هاتين الجبهتين المنفصلتين المتباعدتين .

وقد يكون جهدهم فرق ما يطبقون أولاً مسألة واحدة وهي أن العالم الأوربي لم يكن قادراً على توحيد جهوده . فالانقسام بين الكنيستين الإغريقية واللاتينية هو الذي تسبب في قدوم الأتراك إلى القسطنطينية . وقد مكّنه الانقسام الديني في العالم المسيحي اللاتيني ، مضافاً إليه الخصومة بين فرانسوا الأول وشارل الخامس . مكّن الأتراك من تثبيت مركزهم وتوسيع رقعة فتوحهم ؛ كما أن العداء بين الأسرتين المتنافستين أسرقى هابسبورج والبوربون وما اتصل به من مشاعر متضاربة من الولاء والعطف في الدول الأوروبية ، قد فتح أمام العثمانيين في النصف الثاني من القرن السابع عشر مجاًلاً جديداً لزحف موفق على الأراضي المسيحية .

ولحسن حظ أوروبا أن وافقت حرب الثلاثين عاماً ، التي حول فيها البروتستانت والكاثوليك ألمانيا إلى مجازر بشرية ، نوبة من نوبات الوهن الخلقى التي كانت تتتاب العثمانيين بين وقت وآخر . وكان آل عثمان لإحدى الأسر العظيمة التي حكمت العالم في شجاعتها الفائقة وذكاها القاسي . ولكن حلت بها فترات من الوهن باعدت

بينها وبين التفوق . امتدت إحدى هذه الفترات حتى شملت النصف الأول من القرن السابع عشر . على أن الأتراك كان لديهم معين من القوة يستمدون منه ما يعينهم على الإبلال من تلك الفترات ، مما أذهل أعداءهم المرة تلو الأخرى . وهكذا أعقب نصف القرن من الفساد والفوضى عصر من الانتعاش الواضح في قوة الدولة ونظامها . استدعى أحد الألبانيين المسنين ليصبح صديقاً أعظم في عام ١٦٥٦ أثناء الحكم الطويل للسلطان محمد الرابع الغريب الأطوار . وألبانيا قطار صغير ولكنه غني بطباع أهله الذين لا يقلون صرامة وسيطرة عن جبالهم الجرداء . كان إسكندر بك ألبانياً كما كان محمد علي مؤسس مصر الحديثة . وفي تلك الظروف عندما بلغت أحوال تركيا مبلغاً خطيراً للغاية من الفوضى ، استطاع محمد كوبريللي الألباني بصرامته العنيفة أن يوثق عرى الإمبراطورية من جديد . وفي خلال فترة تربو على العشرين عاماً تمكن وزراء من أسرة كوبريللي العثمانيين مرة أخرى من القيام بدور عنيف هدد الدول في جنوب شرق أوروبا ، وأنهك خطوط دفاع العالم الغربي .

وقد وقع عبء الدفاع عن أوروبا إزاء الخطر العثماني أصلاً على عاتق أسرة هابسبورج الكاثوليكية . وإن دور النمسا الخطير في التاريخ الأوربي وهو أحد المبررات الرئيسية لوجود الإمبراطورية النمساوية لية ثل بالذات في صمود هذه الإمبراطورية قروناً عدة وراء الحدود الجنوبية الشرقية لأوروبا تدافع عن الحضارة اللاتينية والألمانية ضد الإسلام على أنه بينما كانت قوات السلطان موحدة ومتناسكة كان لبوهرلد إمبراطور النمسا عاجزاً حتى عن السيطرة على ممتلكاته الموروثة . وكان سلطانه يلقى في الحرج خاصة أشد مقاومة من جانب هيئة النبلاء الذين كانوا يكرهون الجيوش الألمانية ويخشون توقع الضرائب الألمانية - وأكثر من ذلك جميعاً يستنكرون تعصب الكنيسة الكاثوليكية ؛ وكانوا على اتصال وثيق بأعداء الإمبراطورية . وإذا كانت النمسا قد أخذت فعلاً أنفاس بوهيميا ، فإن جمع قوات من ألمانيا - إذا استدعى الأمر - لا يكون إلا بعد موازنة أمراء الدايت ، ومواجهة سياسة فرنسا العدائية . ومع ذلك فقد كان لعواطف العصور الوسطى بعض اعتبارها حتى في منتصف القرن السابع عشر . ففي الوقت الذي تعرضت فيه العقيدة الكاثوليكية لأزمة حقيقية ، استطاع أرشيدوق النمسا - باعتباره إمبراطوراً للإمبراطورية الرومانية المقدسة - أن يستنجد بما تبقى من

الروح الصليبية في أوروبا ، باعتباره رأس العالم المسيحي اللاتيني . كان له أن يتوقع الحصول على معونة الفاتيكان ، ودعوات الكنيسة ، ومساعدة جيش صغير مختلط جمع ارتجالاً .

وكانت جمهورية البولنديين الشاسعة الأرجاء المضطربة القلقة . أقرب حليف للهاينسبرج وقد تبينوا أن ما قام به لويس الرابع عشر من إغراءات مالية كان عديم الأثر في وارسو . ومنذ عام ١٥٧٢ أصبحت الدولة في حالة تفكك تام من الناحيتين الخلقية والسياسية عندما رفض النبلاء البولنديون الخضوع بعد ذلك للحكومة قوية وأصرروا على أن لا يتقصد التاج إلا ملك منتخب ، ففقد الملك كل نفوذ ، فلم تعد له أداة لحماية الضرائب ولا جيش قائم ، ولما كان من حق أى عضو في الدايت البولندي أن يعطل تماماً أى إجراء للدايت (حق الفيتو) بأى حجة مهما كانت تافهة ، لم يعد الملك يملك أى وسيلة لإحداث تغيير دستوري ناجع أو تزويد بلاده بأى تشريعات عادية جديدة . وكانت مدة انعقاد الدايت سنتين ؛ إلا أنه كان يفتقد الخصائص التى تجعل منه برلماناً قوياً إذ كان يتكون من النبلاء المساحين ، يتقاضى بعضهم أجوراً من النمسا والبعض الآخر من فرنسا ، ولا يكاد ينفذ لهم اجتماع دون اضطراب أو إراقة دماء . ولم يكن في أوروبا من النبلاء من فاق نبلاء بولندا في صلابة معدنهم ، ولا من الفرسان من خاض المعركة في أبتهام ومباغتتهم في الاستعداد للحرب . على أن المظاهرة كانت براقة ولكن النظام كاد أن يكون منعماً ، فقد كان الجيش البولندي يعتمد في عدده وتكوينه في أى وقت على استعداد النبلاء ، أو أى طائفة منهم للنزول إلى ميدان القتال مع أتباعهم . وكان مبدأ التطوع هذا نفسه هو الذى هدم من قوة الجيش البولندي وكفاءته ؛ بل كان مقياس الطاعة في أثناء المعركة هو الهوى ، فقد يجد أنجح القواد نفسه ضعيفاً بسبب انسحاب الجند من تلقاء أنفسهم ، إما عن انفعال أو تعب أو دسائس سياسية . فكان اللوثانيون والبولنديون على طرفي نقيض ، كما كان البولنديون كذلك فيما بينهم ؛ وكانت طبقة الفلاحين من عبيد الأرض والطبقة الوسطى من اليهود تقف خارج أحكام الدستور ، لا تلقى إلا الاحتقار والبغضاء والظلم .

ولم تلبث أن نزلت بهذا الشعب التعس مصيبتان كبيرتان بمجرد أن تخلى في

غير حكمة عن نظام الملكية الوراثية القديمة . فإنهم بدعوتهم سيجسموند من آل فازا Sigmund Vasa ليتولى العرش البولندى فى عام ١٥٨٧ - وقد اعتنق الكاثوليكية بناء على ذلك - عرضوا أنفسهم لعداء السويد البروتستانتية . فجلبوا على أنفسهم مسئولية خطرة فقد كان النضال مع أقوى الدول الحربية فى الشمال يكاد يكنى فى حد ذاته لإنهاك دفاع البولنديين . ثم كانت تنتظرهم مصيبة أخرى .

كان روح السخط والقلق ينمو فى نفوس القوزاق فى أوكرانيا طوال النصف الأول من القرن السابع عشر ، حيث دأب المبشرون اليسوعيون على مهاجمة العقيدة الأرثوذكسية ، واستخدم الملوك البولنديون المتغيرون عن أراضيهم طائفة من اليهود الأديناء ليجمعوا لهم إيجاراتها . وفى عام ١٦٤٨ لم يطق القوزاق صبراً على ذلك . فثاروا تحت زعامة « بوجدان كلميتزى » Bogdan Kelmnitzى أحد قوادهم (١) وبمعونة الروس والتتار والسويديين (بفضل ظروف مواتبة طارئة فى السويد) ، تسنى لهم زعزعة الدولة البولندية من أساسها . فإذ حل عام ١٦٥٠ حتى ظهرت مشكلة الإبقاء على بولندا ، وعرض على بساط البحث أكثر من مشروع لاقتسامها . على أنه على الرغم من كثرة جيران الجمهورية البولندية المتطلعين لاقتسامها ، فقد كان مما يتفق ومصلحة العالم المسيحى فى ذلك الوقت أن تبقى بولندا ، طالما كانت من الضعف بحيث لا تسبب أى متاعب للنمسا ، ومن الفساد بحيث تباع وتشترى لخدمة أغراض فرنسا .

تمتد مساحة واسعة من الأرض معروفة باسم بودوليا Podolia على امتداد خط تقسيم مياه الدنيستر Deniester والبوج Bug ، وهى بمثابة أرض حاجزة بين ولاشيا Wallachia وبولندا البولندية وليس فى وسع جيش بولندى أن يسير متجهاً جنوباً بشرق لمهاجمة الأتراك إلا إذا اخترق بودوليا وكذلك كان التتار والترك يتقدمون فوق خيرهم لمهاجمة البولنديين على امتداد ذلك الشريط من التربة السوداء التى تخترق سهل بودوليا الشاسع . وفى هذا الميدان المألوف للقتال حيث لا تزال تقوم حصون خربة مبعثرة منذ أيام حروب التتار فى القرن السابع عشر ، قفز فجأة إلى الشهرة كفائد عظيم اسمه « جون سوبييسكى » John Sobieski ،

(١) Hetman وهو لقب قديم لقائد القوزاق .

وهو نبيل بولندي ينتمى لإحدى الأسر القديمة .

إن من الأحداث القليلة الجديرة بالافتخار حقاً في التاريخ البولندي اختيار هذا الجندي العظيم في عام ١٦٧٤ لكي يكون ملكاً على بولندا بناء على انتصاره اللاحق في العام السابق في واقعة « كوكزيم » Khoczim من أعمال بودوليا على جيش قوى كان يقوده « أحمد كوبريللي » . ففي لحظة حرجية من تاريخ البولنديين ، نفضوا عن أنفسهم دسائس الفرنسيين واختاروا أفضل رجل ليقود الدولة فكان وميضاً نادراً من الحكمة لم يتكرر إلا عند تنصيب بدرفسكي M. Paderevski رئيساً لوزارة جمهورية بولندا التي بعثت في أحقاب الحرب العالمية الأولى . عندئذ استدعى البولنديون للمرة الثانية أعظم رجالهم وأكملهم لترجيح مصائر الدولة .

وما يذكر « لسوبييسكي » Sobieski أنه كان كاثوليكيّاً ، ملأت قلبه محبة وطنه — وإن أخذ عليه شيء من التقلب : فقد حارب في شبابه بني وطنه لحساب السويد . وكان كل شيء فيه ضخماً : ضخامة بدنه المفرطة ، ثقافته الواسعة ، نشاطه في العمل ، ترفعه عن الأحقاد والدسائس الحقيرة ، بشاشته وخضوبة مزاجه . كان أحد قواد عصره القلائل الذين كانوا يسدون ضرباتهم بشدة ، ويضربون دائماً ويجلبون النصر إلى بلادهم . فكلما ظهر ملك بولندا في الميدان قاد البولنديين إلى النصر . ففي عام ١٦٧٥ ألزم الأتراك بالتنازل لبولندا عن بودوليا كلها (فيما عدا قلعة كامنيك Kameniec) ، وعن ثلثي أوكرانيا . ولكن كان هدفه أعظم بكثير من انتصار محلي أو فوز يحرز في بودوليا ، إذ كان يحلم بحرب صليبية لطرد الأتراك من أوروبا « ليديق البرابرة » كما قال « غزواً بغزو » ، وليتابع النصر عليهم تلو النصر على نفس الحدود التي لفظتهم إلى أوروبا ، وفي كلمة واحدة لا يكتفى بغزو هذا الوحش وإخضاعه وإنما يقذف به بعيداً إلى الصحراء ، ويستأصله تماماً . وعلى أنقاضه يعيد بناء الإمبراطورية البيزنطية . إن هذا العدل هو وحده العدل الشريف ، وإنه وحده العدل النبيل الحكيم الحاسم .

ولكن أوروبا لم تكن كلها معه في هذا الرأي . فبينما كان سوبييسكي يعمل على تحريض الأعداء في كل مكان على الأتراك ، كان لويس الرابع عشر يستخدم كافة الحيل ليضمن حياد بولندا في النضال الذي كان معلوماً أنه حلي وشك الوقوع .

ولكنه أخفق في هذه المحاولة . على أن الخصومة التقليدية بين باريس و فيينا كانت إحدى الظروف التي ساهمت في قيام الأتراك بهجوم واسع النطاق هدفه المباشر فيينا والنهائي روما .

وإن ردّ قره مصطفى القائد غير الكفء للقيادة عن أسوار فيينا في ١٦٨٣ ليؤرخ بداية ذلك العهد الطويل من الضعف الذي ألم بتركيا ثم أكدته معاهدة لوزان في عام ١٩٢٣ . ومهدت الضربات الأولى لسوبويسكي السبيل للحرب كان الغرض منها التحكم في أواسط الدانوب ، وقد تميزت بمسلة من الانتصارات أحرزتها قوات الإمبراطورية إذ نجحت الإمبراطورية النمسية العجوز باستخدامها لقوات من ألمانيا وسافوى ، في إلزام الأتراك بالارتداد عبر الدانوب . وفي هذه المعارك بزغت شهرة الأمير يوجين Eugene حليف مولبرا Marlborough ، وحبيب بريطانيا البروتستانتية . وقد أدى انتصاره الأخير في « زنته » Zenta الذي توج به سلسلة انتصاراته إلى صلح كارلوفتر Carlowitz (١٦٩٩) ، وبمقتضاه نزل الأتراك للنمسا عن كل المجر وترنسلفانيا ولبولندا عن كل بودوليا وأوكرانيا .

على أن أحد الفتوحات المسيحية التي سجلتها هذه المعاهدة التي تؤرخ عصرًا جديدًا كان سابقاً لأوانه ، ذلك أن البنادقة وقد حرّضهم البابا وشجعهم ارتداد الأتراك ، بدعوا حرباً لاسترداد بلاد اليونان وبمساعدة مرتزقة من الهنوديين وذيردم من الألمان ، استعادوا دلماشيا وطرّدوا الأتراك من المورة ، وعندما أطلقوا نار مدافعهم على أثينا أنزلوا بالبارثون ضرراً بالغاً لا يمكن إصلاحه . وفي صلح « كارلوفز » سمح لهم بأن يحتفظوا بما حصلوا عليه من أسلاب . ولكن لم يكن مقدراً لليونان أن تكون مستعمرة للبنادقة ؛ فبعد تسعة عشر عاماً (١٦٩٩ - ١٧١٨) في ظل أسد القديس مرقس استعاد الأتراك حكم المورة ذلك أن البنادقة الذين كانوا تحت زعامة « فرنشيسكو موروسيني » Francesco Morosini من القوة بحيث استطاعوا أخذ المورة لم يتمكنوا من الاحتفاظ بها . ليس هناك من اليونانيين من يحب الإيطاليين ، كما أنه ليس هناك يوناني أرثوذكسي يحب كاثوليكيًا رومانيًا ، وكذلك لم يرحب تجار بحر « إيجه » بقواعد الاحتكار الصارمة التي فرضها البنادقة . وانتهى حكم جمهورية البندقية الضعيف في اليونان غير مأسوف عليه ؛ إذ أخفقت في إثارة

حماسة شعب قد هوت به قرون طويلة من الظلم لنداء العقل اللاتينى ، شعب كان قانعا تماماً باعتبار السلطان رئيسه الزمنى وبطريق القسطنطينية رئيسه الروحى :

ولم تكن دعوة الفاتيكان هى التى ردت جيوش الإسلام فى القرن الثامن عشر والتاسع عشر والعشرين . فقد كان « جون سوبييسكى » هو آخر من نفخ فى بوق جودفرى بويون Godfrey de Bouillon ^(١) ، هذا بينما كانت الشيع الكاثوليكية والبروتستانتية تتناحر على السلطان فى بلاط شارل الثانى ملك إنجلترا ، ولويس الرابع عشر يغزو الأراضى المنخفضة الإسبانية ، ويمد السلطان بالمال . أما القوة الحقيقية التى فجرت الإمبراطورية العثمانية العجوز فلم تكن قوة رومانية بل يونانية ، لم تكن قوة عالمية بل قومية . كانت هذه القوة هى تصميم الشعوب المسيحية المغلوبة على أمرها فى شبه جزيرة البلقان من يونان وصرب وبلغار ورومانيين على خلع نير الاستبداد التركى والتمتع بحياة قومية مستقلة . أما كيف فضج ذلك الشعور بطيناً بين شعوب البلقان وكيف حصلوا على تأييد الكنيسة الأرثوذكسية فى روسيا تأييداً مستمراً وكذلك تأييد دعاة الجامعة الصقلية ، وشجعهم مطامع القيصرية فى التوسع حتى أدت القومية الصربية فى النهاية تؤيدها روسيا وتصبح خطراً يهدد بنسف الإمبراطورية النمساوية ، أدت إلى الحرب العالمية الأولى فى ١٩١٤ ، أما كيف حدث ذلك فهذه كلها أمور سنقص نبأها عليك فيما بعد . وعندئذ ستلاحظ كذلك أنه عندما يسقط قيصرية أسرة رومانوف وتشغل روسيا بالثورة تعود فرنسا إلى سياستها التقليدية القديمة فتعاون الأتراك على الاحتفاظ بالقسطنطينية .

فى تلك الأثناء خلقت انتصارات الأمير يوجين . التى أعادت كافة بلاد المجر إلى النمسا — لأباطرة الهابسبورج مشكلة من أعوص مشكلات الحكم الداخلى لم تكن لتحتل — على غرار المسألة الإنجليزية الأيرلندية — أى حل سهل مرض . لى أرشيدوق النمسا فى مملكة المجر الانتخابية طبقة نبلاء متعجرفة يسيطرون على رعايا شعب أجنبي ،

(١) جودفرى بويون : حوالى (١٠٥٨ - ١١٠٠) دوق اللورين السفلى وأحد قواد الحملة الصليبية الأولى . انتزع بيت المقدس من المسلمين وانتخب ملكاً على مملكة بيت المقدس فى يولية ١٠٩٩ ، على أنه آثر أن يلقب « بحامى القبر المقدس » . وخلفه فى الملك عند وفاته أخوه بلدوين .

وتتكلم لغة لا يعرفها إلا القليل من الألمان وتعزز بعادات لا يشاركها فيها أى ألماني ؛ ومنهم أسر كثيرة پروتستانتية ، منهم كثيرون وقفوا أجيالا عديدة إلى جانب الأتراك ، فهم أرستقراطيون من ملاك الأرض المحاربين ، غلاظ الطبع ، نصف شرقيين ، أقرب في طباعهم إلى البولنديين منهم إلى الألمان ، لا انسجام بينهم وبين أوساط فيينا الموسيقية والفنية . فكيف يتأتى للإمبراطور أن يعامل ذلك الشعب العصي المتوقد حماسة نصف الوثني ؟ وكيف يرتب علاقاته مع التوتون والسلاف ؟ كيف يتأتى له أن يجعل من هذه الأجناس المتنوعة المتناقضة دولة ملكية كاثوليكية وطيدة الأركان ؟ هل من الممكن أن يجمع كل هذه الشعوب تحت سلطة مركزية عليا ويؤلفها جميعاً على غرار ما فعل في بوهيميا ؟ أكان من الممكن إقامة نظام اتحادى يشارك فيه كل جنس بنصيبه العادل من السلطان ؟ أم كانت الوسيلة العملية المثلى أن يضع السلطة فى أيدي الألمان والمجيار بوصفهم أكثر الشعوب رجولة وقدرة على الحرب ، ثم يترك لكل منهم حكم رعاياهم المتبربرين ؟

حاولت الإمبراطورية النمساوية العجوز حل تلك المشاكل فى القرنين الثامن عشر ، والتاسع عشر ، ثم كان شأنها شأن الإمبراطورية العثمانية فتفككت بعد الحرب العالمية الأولى بقوة انفجار الروح القومية فى داخلها . وقد كان للإمبراطورية النمساوية كثير من المعجبين ممن تلمسوا لها الأعداء من بين أولئك الذين يعتبرون القومية أفظع لعنة سياسية نزلت بالجنس البشرى . وكان مثل هؤلاء شديدي الإعجاب بهذه الدولة الكاثوليكية التى وجه اليسوعيون سياستها الدينية التى نشرت بين رعاياها رسالة الدين والتهذيب ، وقد كان الكثيرون منهم فى بداية القرن الثامن عشر لا يزالون أنصاف برابرة وأنصاف وثنيين ؛ وهم يرون فيها محاولة لتحقيق المثل الأعلى لمجتمع مسيحى ينتظم كافة الأجناس واللغات على نطاق ضيق ، وكان هذا الهدف الذى اشرأت لتحقيقه الكنيسة على الأرض . وهم فى السلام النمساوى كما فى السلام البريطانى ، فإنهم إذا كانوا من الكاثوليك فإنهم سيفضلون سلام النمسا على بريطانيا ، يتطلعون إلى لون من ألوان الحكم يعلو على الدولة القومية لأنه يستمد من القومية بعض مبادئها الداعية إلى اتحاد البشر على مستوى أعلى وأرحب وهم يقدرّون الصعاب التى كانت للإمبراطورية النمساوية العجوز تعمل تحت وطأتها

والمظالم التي ارتكبتها ، وكراهة الشعوب لها كراهة ذهبت مثلاً . ولكنهم مع ذلك يأسفون لاختفائها . كانت الحكومة النمساوية - كما بدت - تبدو غالباً ثقيلة ، عاتية ، بجاهلة ولكنها مع ذلك ظلت تجمع في رقعة واسعة وعرة من أوروبا شعوباً متباينة ، سريعة الالتهاب ، تضيء عليهم مسحة من حضارة الغرب اللاتينية والتيوتونية .

ولو قد قامت الإمبراطورية النمساوية على غرار الولايات المتحدة الأمريكية على أساس الارتباط الحر لولايات تتمتع بالحكم الذاتي لتمكنت من تحدى عواصف الزمن بأمان . ولكن لم يتوافر لها أساس القبول الذي لا بد منه . فكانت الدولة نتاجاً عارضاً لزيجات أسرية لم تتضمن ما هو أسمى من مجرد الولاء للأسرة الحاكمة ، ولا تعتمد على أى أساس من العادات المشتركة ، وأقامت وحدتها الدينية على أساس الاضطهاد . وهكذا راح اليسوعيون والجنود ورجال البوليس يشدون هذا البناء بعضه إلى بعض ، ولولا هذه الروابط المصطنعة (الميكانيكية) لانحل البناء إلى عناصره . وقد عاش الناس في الإمبراطورية النمساوية القديمة عيشة مريحة ، سعيدة ومشورة ، لقد كانت دولة كاثوليكية وملكية في نظامها ، أقامت معتقداتها على العرف ، استمتع الناس فيها استمتاعاً كاملاً ورائعاً بالفنون والعلوم التي يمكن العثور عليها بسهولة حيث يكثر اليهود ، على أن الإمبراطورية كانت تفتقر إلى الروح السياسية ونسبات الحرية .

ولكن ذلك كان أمراً سابقاً لأوانه . فقد كانت النمسا في النصف الأول من القرن السابع عشر على رأس الحربة لحركة الإصلاح الكاثوليكي والقضاء على حريات الشعب البوهيمي . ثم قدمت بعد ذلك خدمتين لأوروبا لقيتا ترحيباً من الروح السائدة في إنجلترا إذ ذاك بقدر ما كانت أعمالها الأولى كريمة وهما دفع الخطر التركي عن الحدود الشرقية ، وما قدمته في الغرب من مساعدة صادقة كان لا غنى عنها للدولتين البحريتين البروتستانتيتين خلال صراعهما العنيف ضد فرنسا الكاثوليكية . ولعل الاستدلال على سياسة الدولة بناء على معتقدات أبنائها الدينية أمر ضئيل الأهمية لدرجة أن دعم استقلال الجمهورية الهولندية وتقسيم الإرث الإسباني العريض وتوطيد وراثة العرش الإنجليزي للبروتستانت ، كل هذا يعزى بدرجة كبيرة إلى الجهود الحماسية التي بذلتها الدولة النمساوية القديمة التي سيطر اليسوعيون على

مصائرهما ، تلك الدولة التي لفظت آخر أنفاسها بهدوء في معاهدتي سان جرمان
St. Germain وتريانون (١٩١٩ - ١٩٢٠) .

كتب يمكن الرجوع إليها

- W.R. Morfill : Poland (١٨٩٣).
- Dyboski : Poland (Nations of the Modern World), (١٩٣٣).
- N.A. de Salvandy : Histoire du Roi Jean Sobieski 2 vols. (١٨٧٦).
- J.B. Moston : Sobieski, King of Poland, (١٩٣٢).
- W. Coxe : House of Austria (١٨٤٧).
- C. Finlay : History of Greece. Ed. H.F. Tozer (١٨٧٧).

الفصل السادس والعشرون

السلام وبروسيا

عصر الامتنارة - الصداقة الإنجليزية الفرنسية - الخطر الإسباني - شارل السادس والضمان الوراثي .
حرب الوراثة البولندية - فرنسا تحصل على اللورين - والبول Wolpole وفليرى Fleury .
خصائص حروب القرن الثامن عشر - نهوض بروسيا - التوزيع الجغرافى للدولة البروسية - أسرة
هوهنزولرن Hohenzollern - طبائع البروسيين - فردريك وليم الأول .

أعقب حرب الوراثة النمساوية فترة من الهدوء النسبي نادرة الحدوث فى تاريخ أوروبا وبعبارة الأثر فى تقدم حضارتها . ذلك أن معاهدة يوترخت Utrecht ١٧١٣ التى قامت على أساس مجموعة من الموافقات الحكيمة ، لم تخلف إحناً تدعو إلى مشاحنات عاجلة . فعلى الرغم مما منيت به النمسا وإسبانيا من خيبة الأمل . فالواقع أن سائر الدول المتحاربة قد أفادت من تقسيم الإرث الإسباني . وكان السلام شرطاً جوهرياً لضمان سلامة حكومتى فيليب أورليان الوصى على عرش فرنسا وجورج الأول ملك إنجلترا وقد كانتا حكومتين ضعيفتين غير مستقرتين .

ومن الأمور الملائمة أن بجاء عصر العقل بشيراً بإيدان عهد غير مألوف من التحالف السياسى بين إنجلترا وفرنسا ، وقد كان التعاون الفكرى بين الأمتين أهم معالم القرن الثامن عشر . وقلما أخفقت الجيوش الإنجليزية والفرنسية المتحالفة منذ أيام يوليان الصابئ حتى انتصارات هييج Haig و فوش Foch . وكذلك انتصرت دبلوماسيتهما المشتركة ؛ فأنقذت أوروبا من اندلاع حرب عامة مدى خمسة وعشرين عاماً (١٧١٣ - ١٧٣٩) . حقاً إن أوروبا لم تستطع تجنب الحرب تماماً ، فقد حدث صدام بين إسبانيا والنمسا ، وبين إنجلترا وإسبانيا ، وأخيراً دارت حرب حول مسألة الوراثة البولندية بين فرنسا وقوات إسبانيا وسافرى من بجانب والقوات

(١) انتصارات هييج وفوش : هى الانتصارات التى أوقفت الهجوم الألماني الأخير الذى دبره لودندورف فى ١٩ ١٨ لكسب الحرب فى الجهة الغربية ؛ وكانت خطته تقضى بفصل القوات الفرنسية عن القوات الإنجليزية وضرب كل منها على حدة .

النمساوية والروسية المشتركة من الجانب الآخر . على أنه يبدو أن تلك الحصومات قد خلت من عنصر الاستمرار الوحشى . كره كل من فليرى الشحيح المتعصب والبول الاقتصادى الضليع ما تقتضيه الحروب من نفقات وسرف زائد . فإذا كان لا مفر من الحرب ، ولم يكن فى وسعهما تحاشيها تماماً ، فقد صمما على أن تكون معتدلة النفقات ، محدودة المجال ، على أن يعملوا على إنهاؤها فى أول فرصة مواتية .

وقد يبدو غريباً لأولئك الذين قدروا العوامل الكثيرة التى من شأنها أن تجمع بين فرنسا وإسبانيا ، كميثاقهما المشترك للتقاليد اللاتينية الكاثوليكية ، وتعرض مستعمراتهما لمنافسة الإنجليز والهولنديين ، وخضوعهما المشترك لأسرة البوربون ، واستبعاد عامل الخلاف الوحيد الذى سبب العلاقات بينهما مدة طويلة — ألا وهو انتقال الأراضي المنخفضة من حكم إسبانيا إلى النمسا بمقتضى معاهدة يوترخت ، وقد يبدو غريباً فى نظر أولئك أن فرنسا آثرت محالفة إنجلترا على إسبانيا فى أى وقت تلا ذلك التاريخ . على أن العلاقات بين الدول غالباً ما تتأثر بالأحداث الشخصية . إذ ترك لويس الرابع عشر على عرش فرنسا طفلاً بلغ من الضعف درجة جعلت من المشكوك فيه أن يبلغ مبلغ الرجال ، ولم تؤمن وراثة العرش فى الفرع المباشر للأسرة إلى أن أنجب لويس الخامس عشر ولياً للعهد فى عام ١٧٢٩ والملاك كان متوقفاً فى تلك الفترة أن يطالب فيلب الخامس أول ملوك البوربون فى إسبانيا بعرش فرنسا على الرغم من تنازله عنه رسمياً . ولم يكن أحد فى باريس يؤيد فيلب وكان احتمال استبداله فرساي بمدريد — هذا الاحتمال الذى لم يرحب به أحد — كان كافياً لأن يبذر بذور الشقاق بين دولتى البوربون لسنوات كثيرة ويدعم الصداقة التى لم تزل مخوفة بالمخاطر بين إنجلترا وفرنسا .

وكانت مطامع إيليزابيث فارنيز Elizabeth Farnese مصدر الخطر الأول الذى تعرض له أمن أوربا ، وهى الزوجة الثانية لفيليب الخامس ملك إسبانيا ، وكانت لا تتورع عن إشعال نار الحرب فى أوربا لتحصل على دوقية بارما Parma ، وتسكانيا Tuscany كصداق لأولادها . وقد لاقت إرادة هذه المرأة العنيفة المسيطرة تأييداً من إيطاليا من أحد أبناء منظمى الكروم كان ذا دهاء متألئ ، وقد ظلت ذكرى نشاطه العظيم ووجيه ماثلة طويلاً فى نفوس الناس فى البلد الذى اتخذته وطناً له (إسبانيا) على

الرغم من مظهره الخشن . ولو كانت أحلام الكاردينال ألبروني قد تحققت كلها [لطرده النمساويين من إيطاليا ، وأسرة هانوفر من إنجلترا ، والرسى على العرش من فرنسا ، وانضمت هذه الأقطار الثلاثة تحت لواء إسبانيا ، وقد بعثت من جديد . ولكن أحبط هذه الخطط البعيدة المدى الاتفاق الفعال بين حكوتي فرنسا وإنجلترا . فدمرت البحرية الإنجليزية أسطولاً إسبانياً تجاه ساحل صقلية ، كما مزقت العواصف أسطولاً آخر في خليج بسكى كان يحل المساعدات إلى اليعاقبة في أسكتلندا .

وكشفت مؤامرة دبرت لاختطاف الرسى في باريس . واضطر الكاردينال الجرىء الذى لم يتورع عن مهاجمة النمساويين ، بينما كانوا مشتبكين بتشجيع من البابا في حرب ضد الأتراك ، اضطر بضغط مشترك من إنجلترا وفرنسا إلى اعتزال خدمة إسبانيا .

وهكذا أخفقت خططه كلها وبسقوطه عام ١٧١٩ نشلت أول محاولة لتعديلات نسوية يرتخت تعديلاً أساسياً ، ولكن إليزابيث فارنيز التي لم تردها الأحداث لم تشف من أطماعها ، فثابتت في خططها لصالح أبنائها . فالغايات التي كان ألبروني يأمل في تحقيقها بمهاجمة النمسا هجوماً مباشراً ، حاول ريبردا Ripperda الهولندى وهو وزير خارجية آخر دخل في خدمة إسبانيا مرة أخرى (١٧٢٥) حاول تحقيقها بتفاهم وثيق مع بلاط فيينا وأصبحت أوروبا على شفا حرب عامة . وبذلك أطل برأسه شبح سيطرة النمسا وإسبانيا ، كما هدد أسرة هانوفر اتفاق سرى بين حزب اليعاقبة وأعداء إنجلترا من الأجانب — على أنه للمرة الثانية أنقذ السلام في أوروبا تفاهم ودى بين حكوم فرنسا وإنجلترا القلاء .

كان يحكم النمسا عندئذ ذلك الرجل الذى حاولت إنجلترا عبثاً أن تضعه على العرش الإسباني ، وأنفقت في سبيل ذلك كثيراً من الدماء والمال . خلف شارل السادس على غير توقع أخاه جوزيف في فيينا ، وقد كان من أصلب أفراد أسرة هابسبورج عرماً ، أبدى إنكاراً لحسبيل الإنجليز الذين ساعدوه في الماضي ولكنه تشبث في عناد بادعاءات الماضي ، وكان من الغباء بحيث إنه لولا ظرف واحد كاد يثير في أوروبا من المتاعب ما يعدل ما فعلته إليزابيث فرنيز ، لم يقب إلا بتناً واحدة

ووفقاً للقانون السالى (١) لا حق لها فى وراثة العرش النمسى ، فاضطر أن يناشد دول أوربا الكبرى قبول قرار أسرى عرف باسم الضمان الوراثى ، الذى رتب - على الرغم من العوائق القانونية - لما ربا تريزا وراثة دولة المايسبرج كاملة دون تقسيم . وإن عاهلاً يجرى وراء معروف سياسى من آخرين لن يكون فى أنضل مركز للحصول على مزايا . ولم يبطئ الساسة الأذكىاء فى لندن وباريس فى وضع الصنفة مريض المساومة التى وضعتها الأقدار فى أيديهم . فكان الثمن الذى طلبه غالباً . أرضى شارل والدول بإلغاء شركة الهند الشرقية فى أرستند التى كانت تهدد مصالح إنجلترا فى المحيط الهندى . أما الفرنسيون فقد بالغوا فى الثمن فكانوا أكثر تزيقاً ، نقد استنل الكاردينال فلورى رئيس وزراءهم المحنك حاجة الإمبراطور فانتزع منه إعادة الدوقية اللورين إلى فرنسا .

وقد أتاحت الفرصة لهذا التنازل الأخير حرباً من تلك الحروب المحدودة القصيرة التى ميزت هذه الفترة التى اتسمت بالأطماع الدبلوماسية المعتدلة ، والتقدم المادى ، وهى حرب الوراثة البولندية ، وقد نشأت من أن لويس الخامس عشر الذى كان متزوجاً من ماري ابنة « ستانلاس لينزسكى » Stanislas Leszczinski أراد - معتمداً على عرادل سياسية وأسرية - أن ينصب حماء ملكاً على العرش البولندى . وكانت سياسة حقاء كما رآها فليرى لأن روسيا كانت تعضد النمسا فى مؤازرة أغسطس المرشح السكسرى ، كما كانت تملك جيشاً ، على حين كان الفرنسيون على بعد فراسخ من مسرح الحوادث البولندية .

كان أمراً حقيماً أن تفترض أن فرنسا تستطيع أن تحقق أهداف الحرب بعمليات فى سهول بولندا البعيدة ، إذ كانت أملاك الإمبراطورية فى إيطاليا وعلى نهر الراين بالنسبة إلى فرنسا تقدم أهداناً أقرب وأكثر عملية ، ولذلك كانت إيطاليا المسرح

(١) القانون السالى : قاعدة فى نظام الوراثة عند بعض الأسرات المالكة والنبيلة فى أوربا وتقضى بمنع الإناث وأخلافهن من وراثة العرش أو بعض المناصب الهامة . سمى بالسالى نظراً لافتراض خاطئ يقرل إنها كانت جزءاً من قانون الفرنجة السالين . وكان معمولاً بهذا القانون فى فرنسا وإسبانيا وبروسيا . وكان ذا أهمية خطيرة فى حقب من تاريخ هذه الدول .

الذى شنت فيه حرب الوراثة البولندية القصيرة (١٧٣٣ - ١٧٣٨) . وهناك نجحت فرنسا بمساعدة قوات إسبانيا وسافوى غير المتجانسة أن تنزل بأعدائها على الرغم من تقلبات الحظ ضربة سريعة المفعول : فطرد جيش إسباني تحت قيادة الجنرال «مونتار» Montemar النمساويين من نابولي . وأقام هناك فرعاً من أسرة البوربون ، ذلك الفرع النابولي المنكود الطالع الذى أثار بطغيانه سخط جلاستون Gladstone واحتقاره والذى قضى عليه جيش غاريبالدى من ذوى القمصان الحمراء .

وكان الاستيلاء على مملكة نابولي أهم ضربة فى هذه الحرب التى شنت بهمة فاترة على نطاق ضيق وفى تقدير شديد ، وانتهت عند أول فرصة سنحت بانتهائها . وقد كان من الطبيعى أن يثور الإمبراطور لرفض لإنجلترا وهولندا التدخل فى النزاع ، ولما كان نجاح القوات الإمبراطورية فى بولندا قد قابله فشلها فى إيطاليا ، أظهرت فيينا استعداداً لمبحث عروض فليرى للصلح . وتعتبر هذه المعاهدة المعروفة بمعاهدة فيينا الثالثة (١٧٣٨) التى أنهى بها الكاردينال العجوز المسألة البولندية أنموذجاً جسيلاً للدبلوماسية الفرنسية . ومع أن الكاردينال قد أنفق القليل وجازف بالقليل ، فقد استطاع أن يحصل على نفع عظيم من حرب غير منطقية لم يرحب بها أحد . فقرر أن يتزوج فرانسوا دوق اللورين من ماريا تريزا ، وارثة العرش النمساوى وأن يتولى عرش تسكانيا عند موت آخر حكامها من أسرة مديتشى . وفى مقابل هذه الآمال البراقة تم الاتفاق على أن يتنازل فرانسوا لستانسلاس عن اللورين وأن تؤول المقاطعة إلى فرنسا عقب موت ملك بولندا العجوز . ولم يتوقف المؤرخون الفرنسيون قط عن تهنته أنفسهم على تلك المهارة التى بفضلها استخرجت فرنسا وسط مرارة فشل آمالها فى بولندا إقليم اللورين بعمل براق لم يكن متوقعاً من أعمال الشعوذة وخفة اليد . ولكن كان من المتعذر أن تتم هذه المعجزة لولا أمرين : حاجة شارل إلى موافقة فرنسا على الضمان الوراثة ، وتصميم البول على المحافظة على السلام . وهكذا انتهت الحرب البولندية ولم تتعد بعض المعارك وأعمال الحصار ، وكان من الممكن أن تجلب الخراب على أوروبا . وإذا استثنينا حلول ملك بوربونى فى نابولي محل ملك هابسبورجى ، وأن فرنسا قد ضمنت الاستيلاء على اللورين ، فيما عدا ذلك لم يحدث فى الواقع تغيير فى خريطة أوروبا السياسية . وقد نشطت الدبلوماسية فى

العمل خلال هذه الأعوام الخمسة والعشرين : فكان عهداً حفل بالمؤامرات والمخالفات الثلاثية والرباعية والإنذارات بخطر الحرب والمؤامرات والدسائس من كل نوع . على أن وراء هذه الحركات التي لا تنتهى كان يكمن - لحسن الحظ - فى لندن وباريس عزم صادق على المحافظة على السلام ، يوجه أعمال الشخصيات الهامة . إن التفاهم الفرنسى الإنجليزى الذى بدأه ستانهورب Stanhope السيد الإنجليزى المهنذب بالاتحاد مع « ديبوا » Dubois المحتال الفرنسى الماهر قد أكمله ووطده سياسيان أعظم منهما بكثير واصلا عملهما . قد يكون من الصعب أن نتصور تبايناً أحد من ذلك الذى كان بين الكاردينال « فليرى » رئيس وزراء فرنسا حين كان بين الرابعة والسبعين والتسعين من عمره وبين سير « روبرت والبول » الذى سيطر على مسرح السياسة فى إنجلترا مدة أطول من هذه . فالأول مفكر نحيل ، عاقل ، صبور ، رصين ، لا نظير له فى مهارته الدبلوماسية ، نزه نفسه عن العواطف الجارفة وردائل العالم ؛ أما الآخر فهو سيد من نورفولك خشن الطبع ومحب للهو ولكنه كان أفضل اقتصادى وبرلماني فى عصره . على أنه بقدر ما يمكن أن يكون فى وسع أى رجلين عمله لإخماد غرائز الحرب فى أوروبا وهب هذان الخليفان العجيبان تلك الميزة . فكل منهما فى سعيه لإدراك مصالح أمته اضطّر أن يسلك نفس الطريق الذى سلكه زميله ، وهو الطريق إلى السلام العالمى (١) .

لم تكن حروب القرن الثامن عشر نتيجة حركات شعبية أو عنصرية واسعة النطاق ، تؤيدها وتشجعها صحافة قوية . على أنه قد حكم على الشعوب بصفة عامة أن تحتل نفقات حروب لم يكن لها يد فى إثارتها ولم تكن تهنها إلا قليلا . وليس معنى ذلك أن حكومات القرن الثامن عشر فى سعيها لتحقيق أهدافها التى كانت غالباً أهدافاً أسرية لم تكن بعيدة تماماً عن الرأى العام خارجها . فكان ملك فرنسا يستمع لنبلائه سريعى الغضب ، وربما كان فى وسع الملكية الإسبانية أن تعتمد دواماً على تأييد عواطف شعبها فى محاولة طرد الإنجليز من جبل طارق .

على أن العداوات التقليدية الكبيرة على الرغم من مخالفتها للعقل وعدم ملائمتها

(١) و يتفق مع هذا قيام قدر كبير من الاحتكاك الدبلوماسى بين الدولتين بعد عام ١٧٣١ .

للظروف (كالحصومة بين فرنسا والنمسا ، وبين إنجلترا وفرنسا) قد تغلغت في الشعور القومي تغلغلا بعيد المدى حتى عز اقتلاعها على جيل من الدبلوماسية الأصيلة . وقد بذل كل من والدول وفليرى فيما بينهما الجهود للإبقاء على خريطة أوروبا كما رسمتها معاهدات الصلح في يوترخت Utrecht ورشتاد Rastadt . على أن عبر التاريخ الأوربي تشير إلى أن أوروبا لم تعرف مطلقاً الاستقرار بل كانت دائماً غير مستقرة وقائمة . وفي السنوات الأخيرة من حياة كل من والدول وفليرى انبعثت على مسرح الحوادث قوة جديدة مروعة لا حد لقدرتها . فأقحمت القارة في حرب عامة مدمرة . وكانت هذه القوة هي بروسيا في عهد فردريك العظيم .

وعلى حين كانت إنجلترا تنمو ، كانت بروسيا « تصنع » . ولم يبد على الملامح السياسية لألمانيا حتى النصف الثاني من القرن السابع عشر ما يعلن عن ظهور هذه الدولة القوية حتى أنجبت أسرة هوهنزرن التي كانت تحكم براندنبرج Brandenburg منذ عام ١٤١٧ قد أنجبت للمرة الأولى رجلاً عظيماً بمعنى الكلمة . وهو فردريك وليم المعروف بالمنتخب الأعظم . انتصر على السويديين في معركة « فهربلن » Fehrbellin سنة ١٦٧٥ ، وإن كانت شيئاً ضئيلاً في حد ذاتها إلا أنها كانت إرهاباً للعظمة الآتية في قابل الأيام . وأظهر فردريك حقب انتصاره هذا إدراكاً لما ينبغي أن تكون عليه الحكومة التقديرية أوضح مما كان شائعاً في عصره . وقد ورث فردريك ملكاً قليل السكان مقسماً ، لا يبشر بخير ، ومن هذا الإرث صنع فردريك وليم نواة دولة حديثة بتشجيعه الدائب على الهجرة وإصلاحاته الإدارية والعسكرية (إذ كان يعتبر شعبه مادة يشكلها ويتصرف فيها على هواه) . ذلك لأن فردريك وليم لم يترك شيئاً للهواية أو الصدفة . وقد أبان عن طبيعة طمرحه بما تطلع إليه من إقامة جيش وأسطول وإدارة مدنية وبريد منتظم ونظام متدرج للضرائب بل مستعرة في أفريقيا . على أنه لم يكن من الممكن تحقيق كل ذلك : فالمستعرة انهارت أمام منافسة الهولنديين القوية ، والأسطول كان عليه أن ينتظر حتى أيام « ترپتز » Tirpitz والقيصر وليم الثاني ، غير أن مطامع بروسيا الكبيرة قد ظهرت .

لم يعد لقب منتخب يكفي لخليفة فردريك وليم . وحصل فردريك (١٦٨٥-١٧١٣)

في عام ١٧٠١ من الإمبراطور نظير مساعدات سيقدمها له على حق تتويجه ملكاً على بروسيا . وقد استنكر الشعور الديني في أوروبا تتويجه لنفسه في كاتدرائية كرونزبرج Königsberg . وتوددت الدول الأوروبية بحماسة للمملكة البروتستانتية الجديدة لتحصل على تحالفها . وقامت الجيوش البروسية بدورها في حروب مولبرا وروت بدمائها مواقع بلنهام Blenheim ، وراميللي Ramillies ، وأودينارد Oudenarde .

ولكن ضعف الدولة البروسية كامن في تشتتها الجغرافي : فهي مقسمة إلى ثلاثة أقسام : فبراندنبرج تقع في الوسط وهي الثغر الأمامي (March) «لهنرى الصياد» Henry the Fowler أمام هجمات الوند Wends ؛ على حين تقع دوقية بروسيا بعيداً جهة الشرق عبر كتلة من الأرض التي كانت رديحاً من الزمن ألمانية ثم أخضعها بولندا لحكمها في الفترة بين ١٤٦٦ ، ١٦٦٠ ؛ بينما تقع بعيداً جهة الغرب في منطقة الراين الدوقيات الصغيرة «كليف» Cleves ، و «مارك» Mark ، و «رافنزبرج» Ravensberg . وقد بسط عليها المنتخب الأعظم سيادة تامة معترفاً بها منذ عام ١٦٦٦ . ولم يكن ثمة ما يحتم قيام صلات بين هذه البقاع المتفرقة التي لم يكن أحد يظن أن ستقوم منها دولة واحدة ، وإنما هي الصدفة التي جمعت بينها تحت حكم ملك واحد . وكذلك الصدفة قد تكرر بفضل المشاركة القائمة بينها : إذ سار تاريخ دوقية بروسيا أو بروسيا الشرقية في طريق على حين سار تاريخ براندنبرج في طريق آخر . كانت بروسيا الشرقية جزءاً من أراض يسكنها في الأصل شعب بدائي وثني غير ألماني دفعته إلى الدخول في المسيحية الإرادة الحديدية لطائفة الفرسان الألمان الذين حكموهم مدة قرنين ، إلى أن ضعفت الطائفة بسبب نمو قوة بولندا العسكرية ، ومن ثم أصبحت بروسيا الشرقية مقاطعة تابعة للتاج البولندي . ولم يكن تاريخ براندنبرج المبكر خيراً من ذلك كثيراً . فلم تتخلص هذه المنطقة من الاضطراب الذي تعرضت له كل الأراضي الألمانية بالتقسيم تارة وإعادة التقسيم تارة أخرى ، والرهن تارة ثالثة ، إلا بقدم أسرة هوهنزلرن . وهي إحدى الأسرات القديرة في أوروبا . وعندما كانوا Burgraves في نورمبرج Nuremberg عاشوا في كنف الرعاية الإمبراطورية ، على إيراد الرسوم المقررة في تلك المدينة المزدهرة . قد استخدموا سلاح المدفعية في براندنبرج عندما كان لا يزال حديث

العهد ، واعتنقوا اللوثرية عندما ثبتت ثم الكلفنية في الوقت المناسب حين فتحوا أحضانهم مرحبين بالهيجونوت الملحدين اللاجئين من فرنسا ، وفرضوا على رعاياهم اللوثرين سياسة حكيمة ومجدية تقوم على التسامح الديني تجاه المذاهب البروتستانتية المخالفة لمذهبهم . ومع ذلك فقد أعوزهم فن واحد . هو أن أهالي براندنبرج عجزوا عن كسب ود البروسيين . فما تجدر ملاحظته أنه في كلا المرتين في عام ١٦١٧ عندما اعترف ملك بولندا « بجون كازيمير » John Casimir حاكماً على تلك المقاطعة البولندية ، وفي عام ١٦٦٠ عندما حاز المنتخب الأعظم السيادة التامة على الدوقية ، أبدى أهالي بروسيا انزعاجاً شديداً . والحق أن القوة وحدها كانت السبيل للتغلب على معارضة الدايت في بروسيا الشرقية في ذلك العام .

والبروسي طابع أوربي خاص به . فجوته Goethe الذي عاش في فيمار Weimar والذي يمكن اعتباره ممثلاً لوجهة نظر الألمان من الطبقة الوسطى يتكلم عنهم كأنهم من المتبربرين . فقد كان في هذا الشعب العجيب حيوية وخشونة عجيبة ، اختلفت تماماً عن الإحساسات الرقيقة التي تميز بها السكسونيون والفرانكونيون وأهالي بلاد الراين ، فها هي العوامل التي تعزى إليها خصائص الجنس البروسي ؟ تعزى إلى الدم السلافي الذي يجري في عروقهم أم إلى المناخ القاسي في شمال ألمانيا ، أم إلى التقاليد العسكرية الصارمة التي تفرضها الطبيعة على دولة لا تحميها حدود جغرافية ، أم تعزى إلى هذه العوامل جميعاً ؟ وبأى نسبة ؟ كل هذه أسئلة لا سبيل إلى الإجابة عنها لإجابة حاسمة . ويكفي أن نذكر أنه قبل أن يتصف القرن الثامن عشر أدرك العالم أن هذا الشعب الحى المسيطر الذى لم يتزود إلا بالقليل من متع الحياة قد أصبح بما عرف عنه من القصد والاعتدال والنظام والمهارة في استخدام السلاح والقدرة البطولية على التضحية ، أصبح يمثل مشكلة جديدة خطيرة بالنسبة إلى ساسة أوروبا .

وبما يميز البروسيين عن سائر الألمان إدراكهم الدقيق للواجب نحو الدولة . فقادتهم لم يكن بوسعهم أن يعتمدوا على قدرة البروسيين على وزن الأمور ، فإن هذا الشعب الصلب لم يفكر قط في شئون السياسة ، ولكنهم اعتمدوا على طاعة البروسيين طاعة عمياء دون تذمر لأوامر القيادة كما اعتمدوا على إيمانهم بأن كل عمل ينبغي

أن يؤدى بأمانة . فبروسيا أرض الأوامر القاطعة — وليس ذلك فقط. لأن عمانوئيل كانت Emmanuel Kant صاحب نظرية الواجب لمصلحة الواجب — كان بروسيًا لحماً ودمًا ، ولكن كذلك لأنه ما من مكان آخر فرض فيه احترام الواجب بمثل هذه القسوة والتوفيق . وفي هذا الصدد ضرب الملك فردريك وليم الأول أبو فردريك الأكبر مثلاً واضحاً — وما من دولة كانت تستطيع أن تطلب ملكاً أكثر منه اقتصاداً أو أكثر منه تمثيلاً لأفضل خصائص شعبه في بساطته وتقديره للواجب وحياته المتقشفة .

وإن بروسيا لتدين بالشىء الكثير لحكم هذا الملك حسن العشرة غريب الأطوار ؛ تدين له بجيش عظيم مدرب أحسن تدريب وإدارة مركزية ونظام قويم لتعليم الشعب ، ونظام دقيق لجباية الضرائب ووضع الميزانية ، وخزانة عامرة . ومع ذلك فإن الرجل كانت له عقلية مدبرى العساكر كما كان جلفاً ، وحشى الطباع جمع جيشه من العمالقة (المردة) كما يجمع تاجر الرقيق عبيده . وقد حطمت هتاعة بيته ثورة عاصفة لم تخل من الجنون . وما يدل على الإرهاق الوحشى الذى ارتبط لدى فردريك وليم بأخلاق العهد القديم أنه عندما تشاحن مع ابنه الموهوب الذى لم يكن يفهمه أحد وقع عليه عقوبات منها أنه ألزمه بأن يشهد قطع رأس رفيق صديق عزيز لديه .

ولكن ذلك لم يمنع فردريك في مغرب حياته من أن يعترف — اعتراف المؤرخ — بالفضل لذلك الأب الذى حطم استبداده الوحشى هتاعة شبابه فكتب : « فى عهد فردريك الأول أصبحت برلين أثينا الشمال ؛ وفى حكم فردريك وليم الأول غدت إسبرطة الشمال ، إذ غمت الروح العسكرية حكومتها كلها . وأصبحت العاصمة قلعة للحرب (قلعة مارس) . فازدهرت كافة الصناعات التى تخدم أغراض الجيوش . فأقيمت فى برلين مصانع البارود ومسالك المدافع ، ومصانع البنادق وما إلى ذلك . ولم يحفل فردريك وليم الأول بإنشاء صناعات جديدة قدر اهتمامه بالقضاء على النفقات التى لا فائدة منها . فقديماً كانت المآثم تكلف غالباً لدرجة تجلب الخراب . إذ كانت الجنازات تشيع فى احتفالات باهظة التكاليف ، فألغى هذا الإفراط وأبطل استخدام العربات والحيل المشحنة بالسواد ، كما أبطل

تزيي الخدم بلباس رسمي خاص . ومنذ ذلك الوقت لم يكلف موت الناس إلا القليل .
وأثرت الصفة العسكرية للحكومة على العادات والأزياء . فاتخذ المجتمع طابعاً
عسكرياً . ولم يعد هناك من يستخدم أكثر من ثلاث أذرع من القماش لصنع
معطف لنفسه . انتهى عهد الرقة . وأصبحت السيدات يتجهن مجتمعات الرجال .
واستعاض الرجال عن ذلك بمعاورة الخمر والتدخين والمجون » .

كتب يمكن الرجوع إليها

- W.E.H. Lecky : History of England in the Eighteenth Century 8 vols. (1878-1890).
- B. Williams : Stanhope (1932).
- John Morley : Sir Robert Walpole (1921).
- E. Armstrong : Elizabeth Farnese (1892).
- T. Carlyle : Life of Frederick II of Prussia 6 Vols. (1858-1865).
- E. Lavisse : Histoire de France. Vol. VIII.
- F.S. Oliver : The Endless Adventure (1930-31).
- Oeuvres historiques de Frédéric le Grand; nouvelle édition. (1830);
II, Histoire de Mon temps.
- A. Sorel : L'Europe et La Révolution Française (1885-1903).
- P. Vaucher : Sir Robert Walpole et la politique de Fleury (1924).
- R. Lodge : Great Britain & Prussia in the Eighteenth Century (1923).

الفصل السابع والعشرون

الحرب في أوروبا (١٧٤٠ - ١٧٦٣)

التطاحن على سيليزيا - التنافس البحري الاستعماري بين إنجلترا ودول البوربون - فردريك الثاني وماريا تريزا - حرب الوراثة النمساوية - تدخل إنجلترا ودخول بروسيا الحرب من جديد - حركة ١٧٤٥ في إنجلترا - صلح «إكس لاشابل» - الانقلاب الدبلوماسي - غفلة فرنسا - حرب السنوات السبع - «وليم بت William Pitt» - عام المعجزات بالنسبة إلى فردريك - عوامل انتماش بروسيا - مكاسب إنجلترا الاستعمارية - كندا - الهند - عبقرية «كلايف Clive» - السلام في بروسيا - مقارنة نتائج الحرب بالنسبة لكل من إنجلترا وبروسيا .

تتميز سنوات منتصف القرن الثامن عشر بنضال جبار دار - سواء في بدايته أو في نهايته - حول خصومتين دوليتين كبيرتين : إحداهما بين بروسيا والنمسا ، وقد خطفت الأبصار بجدتها ، أما الأخرى فكانت من بين كل الخصومات الدولية أكثرها شيوعاً . وقد انبعثت كل من حرب الوراثة النمساوية وحرب السنوات السبع من مصدر مشترك . ففي عام ١٧٤٠ امتشق فردريك الثاني حسامه لأنه صمم على أن يكون حديث العالم بغزوه سيليزيا . وفي عام ١٧٥٦ شن حرباً ثانية خروناً من أن تغتصب منه سيليزيا . وهكذا في خلال ثلاثة وعشرين عاماً ألفت سيليزيا الغنيمة بصناعاتها الكتانية وحديداتها الخام الذي لم يستغل بعد ومساكنها المائية التجارية البديعة ، ألفت بدولة النمسا الكاثوليكية في كفة وقوة بروسيا البروتستانتية الحسنة الناهضة في كفة أخرى وما كادت النار تشتعل حتى انتشرت على نطاق واسع . إذ أثرت كل الشهوات السياسية ، فتحدثت أكثر الحدود السياسية ثباتاً ، واشتبهت كل دول أوروبا تقريباً في نزاع سالت فيه الدماء والأموال ، وتداولت فيه الأقدار والحظوظ : في لحظة من اللحظات لاح أن النمسا ستجثو على قدميها ، وفي لحظة أخرى بدا أن فرنسا مآلها إلى التفكك ، وفي لحظة ثالثة أن هولندا والأراضي المنخفضة ستضممان إلى فرنسا ، وفي لحظة رابعة أن روسيا والنمسا ستقضيان على بروسيا . ومع ذلك فإنه على الرغم من تلك اللذذبات العنيفة ، فإنه لم يطرأ على خريطة أوروبا السياسية إلا تغيير ضئيل ، بعد حرب شديدة استمرت خمس عشرة سنة ، فيما عدا حصول ملك بروسيا

على سيليزيا ، وهي غنيمة انتزعتها بروسيا عند مطلع الحرب الأولى بخيانة غاية في القذارة ، ولكن دافعت عنها عبقرية جندي عظيم وعناده أمام حشد من الأعداء .

وفي تلك الأثناء ظهر من مصدر مختلف وبنتائج أهم - نزاع بين إنجلترا ومنافستها في عالم التجارة والبحر : فرنسا وإسبانيا . وإن الحرب بين إنجلترا وإسبانيا التي اندلعت بسبب مزاوله إسبانيا حق تفتيش السفن عام ١٧٣٩ والتي لم تلبث أن اندمجت في النضال الأكثر خطورة بين إنجلترا وفرنسا ، لم تكن من صنع الساسة في لندن وباريس ومليد . إذ حينما قابل إنجليزى إسبانياً أو فرنسياً في عرض البحر رأى فيه منافساً وعدواً . فلم يكن ذلك نزاعاً بين بلاطين أو حكومتين ، وإنما كان نزاعاً بين الأفراد في مسرحه ، وبين الملاحين والتجار والمهربين والمغامرين ، وقاطعي الأخشاب والمستعمرين والتجار الأحرار والشركات التجارية المتنافسة ؛ فهم يتشاجرون ويتنازعون إما في البحر الإسباني أو أكاديا ونيوفونلاند أو على طول شواطئ نهرى الأهميو وسانت لورانس ، أو تحت سماء الهند المحرقة بين حقول الأرز في ساحل الكرنات ؛ أو حقول قصب السكر وأشجار المانجو في البنغال . فكان لا مناص من أن تؤدي المنافسة المطلقة على التجارة والاستعمار ومحاولة السيطرة في آسيا وأمريكا إلى اصطدامات لا حصر لها بين الأنجلو سكسونيين ومنافسيهم من اللاتين . واستفحل أمر المشاحنات غير الرسمية ، فأصبحت حروباً غير رسمية ، وقد حاول سير « روبرت والپول » Sir Robert Walpole عبثاً أن يتجنب الاشتباك في نزاع بسبب مزاوله إسبانيا حقها في تفتيش السفن عام ١٧٣٩ . ولكن صوت الرأى العام الذى رددت صدهاء وعززتها في البرلمان معارضة فصيحة قد أجبرته على دخول الحرب . فكان يكفي لإثارة الإنجليز أن تقوم سفن الحراسة الإسبانية في خشونة بتفتيش سفن إنجليزية تتاجر مع « البحر الإسباني » بحثاً عن تجارة مهربة ، وأن يودع بحارة إنجليز مثقلون بالأغلال سجون إسبانيا القذرة . وقد وجدت شكاوى البحارة والتجار آذاناً مصغية على الدوام في إنجلترا . وأثارت قصة الإسباني الشرير الذى انتزع من الكابتن چنكينز أذنه موجهة من السخط في إنجلترا ، ولم يخفف من حدتها إلا إعلان الحرب مهما بلغ هذا العمل من سوء السياسة والتجنى على الحق .

وهكذا استمر النزاع البحري والاستعماري الذي بدأ هكذا على الرغم من أصالة رأى أعقل ساسة إنجلترا ، استمر تتخلله فترات قصيرة من الهدنة حتى صلح باريس في عام ١٧٦٣ (إذ أنه على الرغم من توقف الحروب الرسمية في بعض الأحيان كان القتال غير الرسمي المحلي مستمراً) . وعندئذ تبين أن صولجان النفوذ الاستعماري قد انتقل من فرنسا إلى إنجلترا . وبفضل انتصارات « كلايف » Clive و « وولف » Wolfe تفوق النفوذ الإنجليزي في الهند وكندا وأصبح لا منازع له .

وإن هذا التغيير في ميزان القوى الاستعمارية الذي يكون - وإن استصغرت قيمته الحقيقية عندئذ - انقلاباً من أخطر الانقلابات في تاريخ البشرية ، لم يكن حدوثه ممكناً دون قيام حرب أوروبية . كانت السفن الإنجليزية سواء منها التجارية أو التابعة للأسطول الملكي أكثر عدداً من السفن الفرنسية والإسبانية ، ذلك لأن المصالح البحرية والاستعمارية كانت تأتي دائماً في المقام الأول في إنجلترا . وإن لم يكن ذلك صحيحاً بالنسبة لجورج الثاني ، بينما كان الاهتمام بالجيش في فرنسا وإسبانيا يطغى على الاهتمام بالبحرية وما من خطأ في تاريخ فرنسا كان أشد شؤماً من القرار الذي اتخذته الحكومة الفرنسية في عام ١٧٤٠ بالاشتراك مع فردريك ملك بروسيا في الهجوم على ماريا تريزا . تورطت فرنسا بهذا القرار في حرب أوروبية مرهقة ، قدمت لها كثيراً من المغريات وعرضتها لكثير من المخاطر كما تطلبت منها من التضحيات ما صرفها عن التفكير في مستعمراتها المبعثرين عبر البحار فأهملت البحرية الفرنسية تبعاً لذلك ، ولم تصالح فرنسا خطأها إلى أن انتقلت كندا والهند إلى أيدي بريطانيا . ولأنها لسخرية من سخریات التاريخ أن الخطأ الذي ساعد إنجلترا على أن تصبح سيده على البحار قد ساهم أيضاً في تأمين تفوق بروسيا في ألمانيا .

لم يكن ذلك خطأ فحسب بل كان جريمة . إذ أن فرنسا قد وافقت رسمياً على الضمان الوراثي الذي أمنه لماريا تريزا وراثة العرش النمساوي . على أن الحكومة الفرنسية كانت دائماً عرضة لتجرفها في تيار الحرب أهواء أرستقراطية عسكرية جاحمة تمت لها الغلبة على حكمة الملك والكاردينال فليوري Fleury . فإن الأمل في الانتقام لثارات فرنسا من عدوتها القديمة في وقت بدت فيه لا حول لها ولا قوة ولا صديق لها

إن هذا الأمل لدى المارشال بليل Belleisle وأعوانه الملتهمين حماسة من أصحاب الألقاب تغلب على كل هاجس للضمير وبعد النظر فتساءلوا : « ما فائدة التزام ما إذا قورن بفرصة متاحة ؟ » على أن من النادر أن تجد إثمًا ارتكب في حق الشرف الدولي قد جوزى مرتكبه بأشد مما جوزيت به فرنسا في هذا العدل .

أما فردريك الثاني (١٧٤٠ - ١٧٨٦) فلم يحجب بصيرته الصافية أى غيم من الأحقاد القديمة . كان هذا الشاب واقعياً رزيناً ، ألمانياً سنياً وإن كان بروسياً صالحاً لا يحبل أى ضغينة ضد النمسا ، كما لم يكن رعاياه السلبيون وهم أشد الناس بعداً عن السياسة ، يطمحون إلى التوسع . ولكن كان الميدان فسيحاً لذوى المطامع . وكان هذا الملك الموهنزلرنى بجيشه القوى ، وخزائنه العامرة ، وشعبه المطيع ، صاحب الكلمة العليا في تقرير مصيره ولم يقيد حريته أى ولاء ، فهو مستعد لامتناع حسامه تارة في هذا الجانب وتارة أخرى في الجانب الآخر وفقاً لما تتطلبه مصالح بروسيا . وكان تصرفه في معالجته للمؤثرات السياسية دون عائق من دين أو فروسية أو احترام للعهد ، أو عاطفة نحو الجيش الألماني ، الطابع المميز لحكمه والمساعدة المشكوك في قيمتها التي قدمها للحياة العامة لألمانيا . كان فردريك يرى نفسه والعالم على حقيقتهما . عاش حياته كادحاً مزدرياً مباهج الحياة معتبراً نفسه الخادم الأول للدولة البروسية . وقد ملك موهبة القيادة في الحرب والسلام لدرجة تكاد تكون منعقدة النظير . وكل هذه صفات ألزمت العالم بالإعجاب به . قد يجد الألماني عيباً في ذلك الملك الذي لم يحرص مطاقاً على إخفاء ازدرائه للغة وطنه وآدابها ، على أن البروسيين على حق في اعتبار فريتز العظيم (كما كانوا يدعونه) أحد البنائين الرئيسيين لدولتهم . وفي بهر خدماته الرفيعة كانوا مستعدين للتجاوز عن حقيقة كونه ملحقاً في العقيدة ودينياً في السياسة ، وأنه كان في فكرته عن الحياة تلميذاً لقولثير . رأوا فيه العادل الذي جعل جيش بروسيا مرهوباً في أوربا ووضع أسس شهرة بروسيا كدولة عسكرية وأضاف إلى إرثه البروسي مقاطعات جديدة مهمة . فجذوه قائداً ، كان النصر حليفه بصفة عامة ، ولكنه لم يكن مطاقاً أعظم ولا أشد دهاء مما كان في أحلك ساعات الهزيمة ، وبجوده ملكاً سار بدولته وسط محن كبيرة نحو السلام والأمان ورفعها إلى مكان الزعامة في

ألمانيا ، وردوا على ذوى الضمائر الرقيقة ممن نفروا من قائمة الأعمال الحربية التى بدأت بانتزاع سيليزيا الغادر ، وانتهت بالتقسيم الأول لبولندا الذى حقق به فردريك غاياته ، وردوا بأن مثل هذه الأعمال كانت مما تبيحه الأخلاق الدولية فى ذلك العصر وأن عاهل الهوهنزولرن لم يكن أسوأ من معاصريه ، وإن المبدأ المقاتل بأن الغاية تبرر الوسيلة هو جانب لا بد منه فى اعتذار البروسيين عن سلوك فردريك الثانى .

كانت مطامعه عظيمة ولكن باهظة الثمن . كان يتطلب الكثير من شعبه ولكن كان ذلك دائماً لخدمة أهداف عملية لبروسيا ، وإن لم يهمل مزايا المحافظة على التوازن الدولى . فإن أوروبا التى حارب لإقامتها هى أوروبا التى تقوى فيها بروسيا بضم سيليزيا إليها لتواجه النمسا بعد أن قصت أطرافها . وهذه هى أوروبا التى قدمها له صلح « إكس لاشابل » Aix-la-Chapelle فى عام ١٧٤٨ . وهكذا حقق فردريك غرضه باستخدام الجيش البروسى أداة دبلوماسية . فتارة يلقى به فى المعركة . وتارة أخرى يسحبه فجأة ، وتارة ثالثة ينزله إلى الميدان ضد عدوه القديم . فأنقذ على التوالى النمسا من فرنسا بمعاهدة ، وفرنسا من النمسا بهجوم . وفى كل مرة كانت عمليات تدخله وانسحابه حاسمة ، حتى إن فردريك خلال الثمانى سنوات كان له وحده من بين جميع المحاربين ما يدعو إلى الرضا . فعلى حين لم يستفد جميع الآخرين ظفر فردريك بسيليزيا . على أن الأمر لم يكن هيناً ، فقد كان على أوروبا أن تخوض حرباً طويلة أخرى قبل أن تروض ماريا تريزا الأبية نفسها على قبول خسارتها .

عندما مات الإمبراطور شارل السادس فى أكتوبر ١٧٤٠ دون وريث ذكر قدم للأوربيين فرصة ليظهروا أن مبادئ الشرف والفروسية وحفظ العهد لم تختف تماماً من العلاقات الدولية . كانت ابنته ماريا تريزا سيدة فتية متزوجة لا تجارب لها فى شؤون الحكم وكانت خزانة خاوية وجيشها ضعيفاً . وقد اعترفت كافة الدول الهامة فى أوروبا (فيما عدا بشاريا) بأحققتها فى أن تخلف أبائها على الإرث الكامل لأسرة هابسبورج النمساوية ، وتم ذلك الاعتراف فى معظم الحالات لقاء ثمن دفع ، ولكن لم يفدها (وهى ملكة المجر)^(١) كونها سيدة ولا قلة تجاربها ولا الضمانات

(١) كان هذا هو لقبها لأنها لم ترث أبائها فى عرش الإمبراطورية .

ففي خلال عام من توليها على العرش استدرجت إلى خوض
، أجدادها من أطماع حلف ضار تزعمته نفس الدول التي
٤. باحترام ذلك الإرث .

٥. الثاني الضربة الأولى دون ما إثارة فانقض على سيليزيا وأبان للعالم
سها في موقعة « ملوويتز » Mollowitz بفضل ما أبدته فرق المشاة
ية من الثبات ورسوخ القدم . كان من العبث بعد تلك النكبة التي حلت
بالحس أن يظن أحد أن بالإمكان حصر النزاع وإبقائه محلياً . ومن ثم أقبلت النشور
أفواجا من كل مكان لتنفض على الفريسة . ففرنسا رغبت في أن تسلب النمسا
الأراضي المنخفضة ولكسمبرج . وبقاريا تطلعت إلى التاج الإمبراطوري وتوسيع
حدودها شرقاً . أما منتخب سكسونيا فكان كذلك ملكاً على بولندا فقد كان يترق
إلى المطالبة بنصيب من إمبراطورية أصبحت مهددة بالانحلال . وقامت فرنسا العدو
القديم لأسرة هابسبورج بدور الطليعة في التحالف المعادى للنمسا ، معتقدة أن الوقت
قد حان لتفرض بصفة نهائية تفوقها السياسي في أوروبا بمساعدة القوة البروسية الجديدة
التي لم يتنبأ بها أحد . ومضى بعض الوقت وكل شيء يجري على هواها . توغل جيشها
في بوهيميا واستولى على براغ ، بينما هدد البقاريون فيينا ودبر انتقال التاج
الإمبراطوري الذي ظل حكراً لأسرة هابسبورج أكثر من ثلثمائة عام إلى شارل ألبرت
ملك بقاريا الذي نازع ماريا تريزا أحقيتها فيه ، وصمم على أن يغير على أملاكها .
ولم يحدث مطلقاً في تاريخ النمسا الطويل المعقد حتى السنة الأخيرة من الحرب
العالمية الأولى أن هوت النمسا إلى ذلك الدرك كما حدث في أوائل الصيف من
عام ١٧٤١ .

ولكن لم يلبث أن تلا ذلك انقلاب ملحوظ في الأقدار . ففي ساعة محنتها
ناشدت ماريا تريزا ولاعراياها المحجرين ، فاقمت استجابة نارية لدى هذه
الأرستقراطية التي تملؤها روح الفروسية وحب الحرب . فطرد البقاريون من ميونيخ
والفرنسيون من « براغ » . وهكذا اضطرت سخرية من سخریات القدر

شارل ألبرت الإمبراطور الجديد أن يوقع معاهدة يتخلى فيها عن ادعاءاته في الإرث النمساوي ، ويتنازل عن أملاكه الوراثية للملكة المجر وذلك ريثما يتم إبرام الصلح العام . وهكذا لم يقبل صيف ١٧٤٢ حتى كانت عجلة القدر قد أتمت دورتها كاملة ، فانقلبت سياسة فرنسا العدوانية عليها ؛ واضطرت وهي المهاجمة في بوهيميا أن تنصرف إلى الدفاع عن الألزاس واللورين . وألقت إنجلترا وسردينيا بثقلهما إلى جانب النمسا ، وشجعت موقعة « ديتنجن » Dettingen الموقعة ، (يونيو ١٧٤٣) وهي آخر معركة امتشق فيها ملك إنجليزي الحسام ، ففكرة أن غزو فرنسا يمكن أن يتحقق على يد جيشين يتقدم أحدهما من منتصف الرين والآخر من أعاليه .

أما السبب الرئيسي لذلك الانقلاب المفاجئ في الأقدار فيعزى إلى حركات الملك البروسي . كان فردريك ينوى الاحتفاظ بسيليزيا ، على أنه لم يكن على استعداد لتبديد مال بروسيا ودماؤها في سبيل الحصول عليها إلا بقدر ما تدعو إليه الحاجة . لذلك كان في كل وقت تواقاً إلى الاتفاق مع ملكة المجر على أن يضمن لنفسه دائماً الاحتفاظ بسيليزيا . وعلى هذا الأساس خرج من الحرب في أكتوبر ١٧٤١ ، وعلى هذا الأساس خرج مرة ثانية من الحرب في يولية ١٧٤٢ آخذاً معه في هذه المرة سكسونيا من بين صفوف أعداء النمسا . ولكن ماريا تريزا وقد تخلصت في صلح برلين (يولية ١٧٤٣) من أقوى خصومها ، وقد أجهت انتصارات مدهشة متتالية أحرزتها قواتها ، صممت على استغلال نجاحها إلى النهاية ، فراق لحياها المتوقد أكثر الاحتمالات بهراً للأنظار : وهي ضم بشاريا وغزو الألزاس واللورين واسترجاع نابولي وسيليزيا . وهكذا تحولت الحرب التي بدأت بنخطة لتدمير النمسا ، إلى حرب لتجزئة فرنسا . ذلك أن ملكة المجر في سورة غضبها وبهجة انتصاراتها ازدرت نداء السلام .

وفي هذا الموقف العنيد الذي وقفته ماريا تريزا أصبحت إنجلترا أذنيها عن نصيحة أحكم سياسى منها فأخذت جانب الملكة ؛ فإن والدول الذي اعترض على الحرب ضد إسبانيا لم يكن أقل كراهية لما يدعو إلى قطع العلاقات مع فرنسا ، لأنه كان يتنبأ بأن أول نتيجة لمثل هذا الاشتباك قيام ثورة يدبرها اليعاقبة ، قد تزعزع مركز أسرة هانوفر من أساسها . ولكن السلام لم يعد أمراً مرغوباً فيه فأقصى والدول عن أصول التاريخ الأوربي

الحكم ليفسح الطريق لمستشارين يكونون أكثر تجاوباً مع المزاج المتهيج الذى كان يسود البلاد والملك . وتولى كرتريت Carteret زمام الحكم (فبراير ١٧٤٢) وهو من أكثر الرجال حنكة وإن لم يكن من أشدهم حذراً، فورط البلاد فى حرب فى القارة بالاشتراك مع مولا ه الذى كان قبل كل شئ هنوفرياً . فعقدت معاهدة « ورمز Worms » (ديسمبر ١٧٤٣) بين إنجلترا والنمسا وسردينيا وفيها بعث مشروع مخالفة عظمى تعززها الأموال الإنجليزية ضد مطامع فرنسا .

وهكذا اتفق الحلفاء جميعاً دون أن يلقوا بالا لفرديريك . راقب ذلك الملك الفطن بقلق متزايد انتصارات النمسا فى الغرب ولاحظ « إنه لخطأ فاحش فى السياسة أن تأتمن عدواً قد تصالحت معه » . ولم يكن فرديريك ليطمئن لنوايا ماريا تريزا . فبدلاً من أن يصدق أن الملكة قد تصالحت معه حقاً فى صلح برلين ، كان مقتنعاً بأنها إنما تدبر خطة للانتقام . وعلى ذلك فبينما كان أحد الجيوش الإمبراطورية بقيادة شارل أمير اللورين منشغلاً فى الألزاس ، نقض فرديريك الصلح ضارباً بالمبادئ عرض الحائط ، وغزا بوهيميا ووضع يده على براغ (١٦ سبتمبر ١٧٤٤) . وسرعان ما تبدلت أوضاع الحرب كلها . فقد وضع دخول فرديريك الحرب من جديد النمسا موضع المدافعة عن نفسها مرة أخرى ، وخلص فرنسا من خطر بليغ . وعندئذ لاحت سلسلة من المغريات الفاتنة أمام حكومة لويس الخامس عشر تدعوها للتدخل : غزو بلجيكا ، وخلع الملك جورج عن عرش إنجلترا ، وإقامة أسرة كاثوليكية على عرش إنجلترا فدخل أحد الجيوش الفرنسية بقيادة الأمير موريس ساكس Maurice de Saxe القديرة الأراضى المنخفضة النمسية ، واضطر الإنجليز للرضوخ للهزيمة مرتين (إحداهما فى فونتنوى Fontenoy ١١ مايو ١٧٤٥ ، والأخرى فى لوفلد Lauffeld فى ٢ يولية ١٧٤٦) .

ويرجع فساد الخطة الفرنسية الكبيرة إلى رجحان القوة الإنجليزية بجرأ واستمرار الشعب الإنجليزي فى تعلقه بقضية البروتستنتية . ففرقت عواصف بحر المانش شمل أسطول مهاجم . وقضى المغامرون الإنجليز على التجارة الفرنسية . وقدر لشارل إدوارد الذى رفع علم أسرة استيوارت فى مرتفعات أسكتلندا عام ١٧٤٥ أن يواجه الحقيقة المرة وهى أن ملكاً هنوفرياً غير محبوب لا يزال فى وسعه أن يعتمد على

تأييد سلمي من شعبه الذى وإن كان بليداً ، كان شديد التمسك بمذهبه البروتستانتى .
 وفى ساحة « كولودن » Colloden (١٦ أبريل ١٧٤٦) انهارت قضية اليعاقبة التى
 أثارت كثيراً من ضروب الآمال والولاء . ولكنها باتت فى خطر محقق منذ اللحظة
 التى اتضح فيها أن الإنجليز لم يكونوا على استعداد للانضمام إلى الأمير « شارلى »
 Prince Charlie عندما أخذ يتقدم جنوباً من « كارليل » Carlisle إلى « دربى »
 Derby . ومهما كان ضئيلاً نصيب جورج الثانى من محبة رعاياه فإن عرشه قد توطد
 على دعائم راسخة بحيث لا يقوى على قلبه جيش صغير من الغالين ^(١) ، من حملة
 السيوف المتوحشين أتوا من مرتفعات أسكتلندا . وإن المخاطرة الطائشة التى مجدها
 عبقرية سير ولتر سكوت Sir Walter Scott ^(٢) قد عاونت على تقوية مركز الملكية
 البروتستانتية ، وبسط نفوذها على كثير من الوهاد البرية المنعزلة حتى الطرف الشمالى
 لكينثيس Caithness ^(٣) . وكان إخضاع إقليم المرتفعات فى أسكتلندا من النتائج
 الراسخة والدائمة لحركة ١٧٤٥ . ثم جاءت الطرق التى أنشأها المارشال « ويد »
 Marshal Wade ، وفرق رجال المرتفعات التى كونها « بت » Pitt فأكملت قانون
 الاتحاد ، وفتحت أمام سكان شمال أسكتلندا الكاثوليك فرصة الاستفادة من الموارد
 الوفيرة والإمكانات المتنوعة لإمبراطورية عظيمة .

وفى الميدان الشرقى للحرب لم يحقق أى فريق كسباً حاسماً . وإن كان فردريك
 قد اضطر إلى أن يرخى قبضته عن بوهيميا ، فإنه كان لا يزال فى مركز يمكنه من أن
 ينزل بعده فى « هوهنفريدبرج » Hohenfriedberg وفى « سوهر » Sohr من الهزائم
 ما أدى — بالإضافة إلى قوة هذه الانتصارات الشخصية والنصر القيم الذى حصل

(١) Gaelic : الغالى . وهى صفة تطلق على أحد فروع اللغة الكلتية ، الإيرلندية الموجودة
 فى مرتفعات أسكتلندا ، وفى جزيرة (ايل أوف مان) .

(٢) Sir Walter Scott (١٧٧١ - ١٨٣٢) . شاعر وروائى أسكتلندى الأصل كتب
 عدداً من الروايات الرومانسية وهدداً من الروايات التاريخية من أشهرها ويفرى ، اليوريتان ،
 إيفانهو ، روب روى ، سجن أدنبره . وتعكس كتاباته روح البطولة الإنجليزى والأسكتلندى فى عهد
 الفروسية .

(٣) Caithness مقاطعة فى شمال أسكتلندا مشهورة بالزراعة وصيد الأسماك .

عليه حلفاؤه السكسونيون — إلى قبول النمسا توقيع صلح في درسدن ضمن له امتلاك سيليزيا وجلاتز Glatz (ديسمبر ١٧٤٥) .

وعلى هذا النحو من الوحشية وعدم الحسم كان الصراع الدامي للسيطرة الذي وقع جنوبي الألب حيث انضمت النمسا وساقوى ضد مملكتي البوربون . وكما حدث في ألمانيا اضطّر النمسيون في النهاية إلى التنازل عن موضع لأعدائهم . فصلح « إكس لاشابل » (١٧٤٨) الذي أنهى الحرب ، منح دوقية بارما لدون فيليب الإسباني .

لم تحصل أى دولة في هذه الحرب التي اقترنت بتقلبات حادة انتصارات دون أن تقابلها هزائم خطيرة ، وأخيراً جاءت النهاية وقد أدى إليها الغضب أكثر من الرضا . والحق أن صلح « إكس لاشابل » لم يسو شيئاً ، لم يسو الصراع البحري والتجاري بين إنجلترا وممالك البوربون ، ولا الصراع على سيليزيا بين النمسا وبروسيا ، كما أنه لم يحسم مسألة الصراع للسيطرة على إيطاليا ، ولم يقرر مصير الأراضي المنخفضة ؛ وإذا كان الصلح قد نص على إرجاعها إلى النمسا فلن تلبث أن تستولى عليها من جديد جيوش فرنسا الثورية . أما في الهند فقد تكبدت إنجلترا خسائر كثيرة قبل أن يمضي وقت طويل حتى تستعيز عنها بالانتصارات الباهرة . وعند مدخل كندا وضعت إنجلترا يدها على ثغر لويزبرج الحصين ، وهي قاعدة في جزيرة « كيب برتون » Cape Breton ، وقد أبان الاستيلاء عليها عن خطط تالية .

لم يكن الإنجليز قط حُبّاً كبيراً لحرب الوراثة النمساوية ، فأرعدت المعارضة وعلى رأسها « وليم بت » William Pitt الخطيب الناري الشاب الذي سيغدو وزيراً عظيماً للحربية ، منتقدة المساعدات المالية التي قدمت لفرق هانوفر وهس ، واحتجت — وهو احتجاج لا يخلو من أساس — أن دفعة السياسة البريطانية تسيرها أيد هانوفرية ، وبدا أن قوة المال البريطاني قد أسء استخدامها بتمويل حرب في القارة كان يشك في أن غرضها الأساسي هو حماية هانوفر ، وكانت نتيجةها الرئيسية اجتياح الفرنسيين للأراضي المنخفضة وغزو رجال مرتفعات أسكتلندا لإنجلترا . كما أن فرنسا لم تكن راضية عن انهيار تجارتها الخارجية نتيجة لنهب القراصنة الإنجليز والكوارث التي نزلت بأسطولها ، وفشل حركة العاقبة التي دبرتها في إنجلترا ، ووفرة أموال الإنجليز

الذين كانوا مستعدين عندما نزلت الهزيمة بجيوشهم مرتين في سهول الفلاندر - لاستئجار جيش روسي لإعادة التوازن . ولكن الحكومة الفرنسية آثرت أن تنجح إلى الصلح على أن تواجه هذا الجيش الروسي وتعدده ثلاثون ألف مقاتل ، وقبلت سحب جنودها من هولندا والأراضي المنخفضة في مقابل استرجاع لوزيربرج .

إن الدبلوماسية تتميز عن سائر الفنون العملية بأنها أكثر محافظة . ففي حرب الوراثة النمسية أدى الولاء لتقاليد قديمة إلى وقوف إنجلترا حليفة للنمسا وفرنسا عدوة لها . وجرياً على ما كان في الماضي كان يظن أن الأمر يجب أن يكون كذلك دائماً . فذكريات الحصار القديم عندما اختبر « تورين » Turenne و « كونديه » Condé قواتهما ضد الجيوش الإمبراطورية . أو عندما واجه « مولبرا » و « يوجين » Eugene ماريشالات لويس الرابع عشر ، قد لونت أخيلة رجال الدولة ، وشكلت سياستهم . على أنه عندما تبين أن الحرب الطويلة الطائفة التفقات التي شنت وفقاً لهذا النموذج الدبلوماسي لم تؤد إلى أى نتيجة حاسمة ، تساءل الناس بطبيعة الحال عما إذا كان هناك خطأ تاريخي في هذا النموذج الدبلوماسي ؟ ماذا جنت النمسا من تحالفها مع إنجلترا ؟ وما السبب الذي جعل فرنسا ترحب بتوسع بروسيا ؟ وأى الدولتين : النمسا الكاثوليكية أم بروسيا البروتستانتية بقيادة ملكها الجندي تكون أكثر نفعاً لإنجلترا في صراعها الوشيك الذي لا مناص من وقوعه مع فرنسا على التوسع الاستعماري . ومن هذه الشكوك وهذا التبرم نشأ انقلاب دبلوماسي ، فمنذ تاريخ مبكر منذ عام ١٧٥١ كانت ماريا تريزا تبعث برسائلها إلى : « سيدتي ، أختي العزيزة جداً » محظية ملك فرنسا صاحبة الأمر والنهي .

والشخصية عامل له أهميته على الدوام في العلاقات الدبلوماسية . كان فردريك يكره النساء وقد وجد في السيدات الثلاث صاحبات الأمر والنهي في أيامه مجالا دائماً للنكت البديئة التي كانت تلقى رواجاً كبيراً . ماريا تريزا الإمبراطورة الوريعة الحقود ، ومدام بومبادور Pompadour خلية لويس الخامس عشر صاحبة النفوذ ، وإليزابيث قيصرة روسيا الداعرة ، محتسية النفودكا ، وقد أفسحن المجال للسخرية القارصة التي انتشرت في أرجاء أوروبا . وأثارت موجة من السخط الشديد في بلاطات فيينا وفرساي وسان بطرسبرج . وإذا كانت الإهانات الطائشة التي قذف بها

فردريك : « الحيزبون الرسولية » (يقصد ماريا تريزا) و « الأنسة سمك » Melle Poisson (إذ قيل إن مدام بومبادور كانت ابنة امرأة من السوق) لم تصنع الانقلاب الدبلوماسي فإنها على الأقل قد ساعدت على تمهيد الطريق له . كانت القيصرية إليزابيث صلبة ، ومع ذلك فلا بد أن يكون قد أثارها في فترات صحوها الاسم التهمى الذى نعتها بأحط صفات البهيمية والفجور والرذيلة .

لم يرض الجمهور الفرنسى منذ البداية عن المحالفة مع النمسا التى تعارضت بشدة مع تقاليد فرنسا الدبلوماسية ؛ ولما كانت سبباً فى إحداث الاضطراب ، فإنها وسعت شقة الخلاف بين الملكية والأمة . ومع ذلك فليس هناك ما يبعث على الظن بأن المعاهدات التى عقدها فرنسا مع النمسا جاءت نتيجة خيلاء بجريحة لامرأة جميلة . فإن الأسس التى قامت عليها المحالفة الفرنسية النمسية كانت سليمة بما فيه الكفاية ، فإن من الأمور المعقولة أن يظن أن دولة ألمانية بالقوة التى ظهرت بها بروسيا فى عهد فردريك قد تبلغ من القوة بحيث تهدد صفو فرنسا .

ومهما يكن من شئ فإن الأمر الذى تعرض للنقد لم يكن المعاهدة الفرنسية النمسية الأصلية (أغسطس ١٧٥٦) التى كانت دفاعية فقط ، ولكن الوثيقة التالية التى تعهدت فرنسا بمقتضاها بعقد محالفة هجومية دفاعية مع ماريا تريزا . ولا شك أن مصالح فرنسا - فى هذا الموقف الفاصل من التاريخ - قد أسىء إليها فى هذه الحرب الأوروبية الثانية ؛ إذ كان مواطنوها يناضلون فعلاً ضد عدوهم القديم فى غابات أمريكا الخلفية . وفى سهول الكارانات ؛ لذلك كان من الأوفق لها أن تركز جهودها للدفاع عن أملاكها فيما وراء البحار التى كان يهددها فعلاً النشاط الهائل الذى كان يبدیه منافسوه الإنجليز . ومع ذلك فما هو جدير بالاعتبار أن رأى العام الفرنسى كان قليل الإدراك لطبيعة الحرب الحقيقية التى كان ساسة فرنسا يقودون الأمة إليها . فإن الأقلية من الفرنسيين التى كانت تهتم بالسياسة بدلا من أن يوجهوا اهتمامهم بمصير الهند أو كندا أو جزائر الهند الغربية ، استغرق اهتمامهم الشقاق بين الملك والبرلمانات ، بين المبادئ الحرة لجماعة الجانسنست والمعتقدين فى وجود الله ، ومبادئ طائفة الجزويت القائمة على الاضطهاد الكاثوليكي ، كما استغرق اهتمامهم أيضاً تلك المشاكل الدستورية المعقدة التى أثارها المقارنة

بين النظم الحرة في إنجلترا ونظام الحكم الأوتوقراطي السرى الذى كان يقوم فى فرنسا . وبلغ من شدة استياء الفرنسيين من الملكية وكرههم لرجال الدين واشتداد روح النقد والثورة أن عدداً من مهرة المراقبين من أمثال «دارجنسون» Marquis d'Ar-genson و«لايرل شستر فيلد» Earl of Chesterfield ممن كتبوا فى منتصف القرن الثامن عشر حذروا بواذر الثورة الوشيكة . لذلك لم يكن منتظراً فى مثل هذا الجو أن توجه تلك الحرب الكبرى توجيهاً قوياً واعياً . فبينما كانت طبقة الأدباء مشغولة بخوض غمار معركة التسامح والحرية ، كان رجال القانون فى برلمان باريس يقاومون مقاومة عنيفة كل محاولة لتوسيع الأساس الذى يقوم عليه فرض الضرائب . وكان هؤلاء القانونيون اللامعون — وإن كانوا قصار النظر — يعوزهم تماماً تصور أغراض الحرب والاستعداد لتحمل أعبائها ، والقدرة على منح الشعب الفرنسى وحدة التوجيه التى يحتاج إليها المجهود الحربى فى أى حرب كبيرة ؛ فإن ما أنهمكوا فيه من صنوف الجدل الحاد قد حجبت عنهم قضايا العصر الأكثر أهمية .

إن تقدم روسيا فى سكسونيا (سبتمبر ١٧٥٦) الذى بدأت به حرب السنوات السبع قد شبه بغزو الألمان لبليجيكما الذى أشعل لهيب صراع أكبر . وإن كانت المقارنة غير دقيقة لأن سكسونيا وإن كانت فى الظاهر بريئة ، لا يمكن تبرئتها من سوء التدبير . وإن يكن حقاً أن العمل الذى أقدم عليه فردريك بتسيير قواته فجأة تندفع فى أراضى دولة مجاورة له مسالمة ، ووضع يده على عاصمتها وخزintها ، وضم جيشها عنوة إلى جيشه قد بدا لمعاصريه انتهاكاً فاضحاً للقانون الدولى ، بل إن اكتشاف أصول حلف معاد لروسيا فى درسدن لم يكن له أثر فى التخفيف من الحقيقة الواضحة وهى أن ملك روسيا كان أول من هدم السلام . فحرمه مجلس اللاهوت Aulic Council ^(١) فى فيينا من أملاكه وألقابه ودعا البدايت الألمانى لبيعته بجيش يقوم بتنفيذ الحكم ضد المجرم .

(١) Aulic Council : جهاز من أجهزة الإمبراطورية الرومانية المقدسة استمر من ١٤٩٧ - ١٨٠٦ ، مهمته الأصلية تنفيذية ، ولكن أصبحت له سلطات قضائية ؛ إذ أصبح يتلقى الالتماسات الموجهة للملك فأصبح بذلك بمثابة محكمة قضائية عليا . وهو يقابل مجلس الملك فى إنجلترا فى العصور الوسطى . وبوصفه من أجهزة الحكم الإمبراطورى ، حددت معاهدة وستفاليا ١٦٤٨ طريقة تكوينه واختصاصاته . وثبت عندئذ أن سلطاته تنفيذية وقضائية .

وكانت الأخطار والصعاب التي واجهت فردريك إذ ذاك هائلة . فهناك حلقة من الأعداء الأشداء كانت تهدده من كل جانب : ففي الجنوب النمسيون ، وفي الشرق الروس ، وفي الغرب الفرنسيون والإمبراطوريون وفي الشمال السويديون . كان فردريك الأكبر في مركز بالغ الخطورة إزاء هذه التجمعات التي كانت تستمد قوتها من موارد بشرية لا تكاد تعرف حدوداً . فهي قادرة في التو على أن تبعث إلى ميدان المعركة جيوشاً تبلغ ضعف عدد جيوشه . فبينما كان في وسع الروس والنمسيين أن ينزلوا جيشاً جديداً مكان جيش يتحطم في المعركة ، لم يكن في وسع فردريك أن يعوض خسائره من الجند .

ووسط هذا الحشد من الأعداء ، وجد فردريك في إنجلترا حليفاً . وقد قال عنه جورج الثاني : « إن ملك بروسيا شرير خبيث ، صديق مؤذ ، حليف سيئ » ، قريب طالح ، وجار سوء ، وهو في الحقيقة أخطر أمير في أوروبا وأخبثهم طوية » . على أن جورج الثاني لم يكن عندئذ الموجه لسياسة إنجلترا وإنما كان وليم Pitt الذي استحال ملك بروسيا في خياله الملتهب بقدرة ساحر إلى بطل من أبطال الحرية في أوروبا ، دعاة العقيدة البروتستانتية . لم يرسل « Pitt » جيشاً إنجليزياً في الجهة الشرقية للحرب ، ولكنه أمد الحرب في القارة بالمعونات المالية الإنجليزية ، بينما عاونت الغارات الإنجليزية على شواطئ فرنسا ، ومعونة الإنجليز وهانوفر لفرديناند أمير « برزويك » Ferdinand of Brunswick الذي كان يدافع عن قضية فردريك في غرب ألمانيا — أعاونت إلى درجة بعيدة في تخليصه من الضغط الذي كانت فرنسا — لولا ذلك — قامت به على حدوده الغربية .

على أن فردريك ، وفردريك وحده هو الذي أنقذ بروسيا من الفناء : فالجيش البروسي على الرغم من أن غالبية كانت من الأجانب ، قد صاغ منه قائده الملحد وحدة تدربت على أن تبذل في إيمان بكل تضحية . وحين كان الجند يسرون إلى الحرب وقد شدت عزائمهم فصاحة مليكهم الملهم الذي صنعهم على يمينه وملأهم حماسة موسيقى التراتيل اللوثرية اعتقدوا أنه إله البروتستانت إنما يحارب معهم . ولما كانت أفدح الحسائر قد عجزت عن النيل من الأهداف الحديدية التي رسمها ، فقد فشلت في تثبيط عزائم الجنود والشجعان الذين وقعوا تحت تأثير سحره . وعلى

الرغم من أن جيش فردريك قد هبط إلى ثلث قوته الأصلية بعد صراع العام الأول العنيف، فقد استمر يدافع عن حق الأمة البروسية في البقاء ضد قوات هائلة. لم يلق البروسيون بالالتهب برلين إثر إغارة الأعداء عليها ١٧٥٧، وللاعمال الجيش الروسى الوحشية التي اشتهر بها خلال شهور عديدة في سنوات الحرب التالية. فإن الروح البروسية لم تتعلق بمكان وإنما كانت متركزة في رجل كان وراء مواهبه السطحية وأفضاله وثقافته وألحانه وأشعاره الفرنسية وتأملاته الفلسفية كان يخفى الإرادة الصلبة التي عرف بها شعبه المحارب من قديم. لم يبد فردريك قط من المقاومة الباهرة في القتال ما أبداه في العام الأول من الحرب. انتهى غزوه لبوهيميا بكارثة وانتصر في براج ولكنه هزم في « كولن » Kollin، واضطر إلى سحب فلوك جيشه بعد أن أصابته هزيمة فادحة إلى شمال « إربز جبرج » Erbzb Gibirge. وعندما حاطت به شبكة من الأعداء، من الفرنسيين والإمبراطوريين والنمساويين والروس والسويديين في أواخر الصيف من تلك السنة، فكر في الانتحار مع أخته العزيزة. ولكن عندما جد الجلد انقشعت حالة اليأس من نفسية الرجل المتقلب المزاج. فأسرع غرباً متوغلاً في أراضي سكسونيا لمقابلة الفرنسيين، ففاجأ جيش الأمير سويس Soubise في روسباخ Rossbach (نوفمبر ١٧٥٧)، وهناك أنزل به هزيمة ساحقة، ذلك هو الانتصار الذي احتفل به — بحق — الواعظ المفوه لكنيسة « الميثوديست » Methodist السيد « وايتفيلد » Mr. Whitefield بوصفه الانتصار الذي توج القضية البروتستانتية. وفي تلك الأثناء كان القائد « دون » Daun في سيليزيا، وهناك في موقعة « لوثن » Luthen الحامية الوطيس (ديسمبر ١٧٥٧)، في جو ديسمبر القارس البرودة، دحر فردريك قوات ذلك القائد النمساوي القدير الذي كان قد اضطره إلى قبول الهزيمة قبل ذلك ببضعة شهور.

وقد أثارت إعجاب العسكريين في كل العصور التالية همة فردريك ومهارته في طرد أعدائه من سكسونيا وسيليزيا في معارك ذلك الحريف العجيب بجيش ضعضعته ونالت منه هزائم سابقة، وقد عد نابليون وهو أعظم العسكريين قاطبة — عد « لوثن » بحركاتها ومناوراتها وتصميمها عملاً فنياً خالداً. وتلك وحدها شهادة كافية لكي تضع فردريك في مصاف القواد ذوي الشهرة الخالدة.

على أن هذه الانتصارات لم تغير الطابع الأساسى لمشاكل الحرب فى الشرق .
 إذ لم يكن فى الإمكان أن تأمل بروسيا أن تحمى نفسها حماية فعالة من الغزو
 الأجنبى ؛ فقد كانت حدودها عرضة للهجوم بدرجة كبيرة . فكانت المشكلة
 الوحيدة هى ما إذا كان فى وسع الملك فردريك صاحب هذه الدولة الصغيرة
 الغفيرة القليلة السكان أن يحتفظ بجيش قائم ضد القوى المتحدة لإمبراطوريتين
 عظيمتين ، فى استطاعة كل منها أن تنزل إلى الميدان جيشاً يفوق جيشه عدداً
 ومرونة . وإذا كان فردريك قد استطاع ذلك فإن ذلك لا يرجع فقط إلى عبقريته
 العسكرية التى مكنته مرة بعد أخرى كما فى واقعة « ليغنيتز » Liegnitz (فى
 ١٤ أغسطس ١٧٦٠) وفى « ترجاو » Torgau (٣ نوفمبر ١٧٦٠) ، وفى « شفیدنتر »
 Schweidnitz (٩ أغسطس ١٧٦٢) من مهاجمة عدوه وهزيمته ، وإنما يرجع
 أيضاً إلى عدم اتحاد خصومه من الروس والنمساويين اتحاداً كاملاً ، والأحقاد
 المتبادلة بينهما ، وكذلك إلى بعض الشوائب الخاصة التى استطاع أن يستغلها تماماً ؛
 فلو كانت القوة المعنوية عند الروس تعادل قوة جيوشهم ، لو أن فرمور لم يتجه شرقاً
 بعد موقعة « زورندروف » Zorndorf المتعادلة (١٧٥٨) ، حيث حقن عدداً كبيراً
 من أرواح البروسيين ، ولو أن « سلتيكوف » Soltikov لم يستسلم للعبث بعد
 انتصاره الساحق فى « كنزردورف » Kunersdorf (١٧٥٩) ، ولو بادر النمساويون
 بقيادة « دُن » Daun إلى استغلال هذا النصر الروسى النمساوى الرائع لكان لا مناص
 لفردريك من تناول تلك الجرعة المهلكة - جرعة الانتحار - التى كان يدخرها
 بديلاً لصلح شائن . على أنه يبدو أن فى الخلق الروسى نقصاً فطرياً فى القدرة على
 المثابرة . فى حرب السنوات السبع توغل الروسون المرة تلو الأخرى فى الأراضى
 البروسية . فوضعوا أيديهم على « كولمار » Colmar واستقروا فى « بوميرانيا » البروسية
 Prussian Pomerania وتوغلوا حتى فرانكفورت على الأودر Frankfort-on-Oder ،
 بل حتى برلين كذلك وحاربوا البروسيين فى ثلاث معارك وحشية وأنزلوا بهم خسائر
 فظيعة . ولكنهم لم يحافظوا قط على ثمرات انتصاراتهم . وعندما توفيت القيصرة إليزابيث
 فى ٥ يناير ١٧٦٢ ، كان لا يزال يهم بين تلال سيليزيا قائد قصير القامة ،
 هزيل ، قدر الوجه ، يرتدى ملابس قديمة ملوثة بالشحم والنشوق الإسباني ، ولكنه

مع ذلك كان يجد فراغاً من الوقت للنأي والشعر الفرنسي . كان قادراً — كما أثبت في واقعة « شفايدنتز » Schweidnitz على توجيه الضربات الوحشية نحو خصومه ، كان لا يزال يهيم بين تلال سيليزيا يتبعه عدد من المحاربين المحنكين ، وقد نالت منهم الحرب ، ولا يقلون عنه قنوطاً وراثاً . وكان في موت إليزابث خلاص فردريك ، فقد خلفها على عرش روسيا صديق له . كان بطرس الثالث شديد الإعجاب بالملك . أما وقد انسحبت القوات الروسية ، وأمام تهديد الأتراك لحدودها الشرقية ، اضطرت ماريا تريزا في النهاية أن توقع صلح « هوبرتسبرج » Hubertsburg (١٥ فبراير ١٧٦٣) . وهكذا ظهر أن فكرة إمكان الحكم على بروسيا بالزوال على يد مجمع ديني Aulic Council حتى إن أيدته جيوش أعظم ثلاث دول في أوروبا كانت أضغاث أحلام .

أما في الميدان الغربي والبحري فإن إنجلترا البحرية بتوجيه من عبقرية وليم پت قدر لها أن تضمن للتحالف البروتستانتي انتصاراً عظيماً . وعلى حين اتسمت النتيجة الرئيسية في الميدان الشرقي — أي في حروب القارة — بروح المحافظة ، كانت نتائج الصراع الكبير بين فرنسا وإنجلترا ثورية لدرجة فاقت كل ما كان متوقعاً . لقد حال فردريك بجهوده العظيمة دون إحداث تغيير عنيف في توازن القوى في ألمانيا . فأنقذ بروسيا من الهلاك واحتفظ بسيليزيا ، ولكن إنجلترا كسبت إمبراطورية جديدة في الشرق وفي الغرب . وهنا كان التبدل العظيم في معايير العالم وموازينه . ففي نهاية الحرب أمن الأنجلوسكسون لأنفسهم التوسع في قارة أمريكا الشمالية والحكم في الهند . فالفرنسيون الذين هددوا المستعمرين الإنجليز بالوقوف سداً دون تقدمهم غرباً في أمريكا الشمالية قد طردوا من مواقعهم على امتداد نهر الأهيو Ohio ؛ ورفرف العلم البريطاني على قلعة كومبيك ، وهكذا تقرر مصير قارة ضخمة . وفي الهند وضع « كلايف » Robert Clive وهو ضابط شاب في خدمة شركة الهند الشرقية ، أسس ذلك النظام الحكومي العجيب الذي جمع تحت لواء التوجيه السياسي لشعب بروتستانتي من شعوب الشمال أكثر من ثلثائة مليون شرقي قدموا بما بينهم من فروق لا حصر لها في الجنس واللغة والدين لسادتهم المحايدون فرصة للعمل ومشكلة للحل .

في بداية الأمر سارت الأمور سيراً سيئاً بالنسبة للإنجليز ، فقد فاز الفرنسيون في كندا وحلفائهم من الهنود الحمر في الأعمال الحربية الأولى . ففي البحر المتوسط فقدت إنجلترا منورقة (يولية ١٧٥٦) مما ألهب نار الغضب والعار في هذا الشعب الذي لم يعتد كثيراً على الهزائم البحرية . ثم سقطت كلكتا في أيدي أعدائهم ، وأصيبوا بالهزيمة أمام « روشفور » Rochfort كما أعجزت العاصفة أسطولا بريطانياً أمام لويز برج Louisburg . ولكن حينئذ ، وكما يحدث غالباً عندما تدخل إنجلترا الحرب ، أخذ احتياطها من القوة المعنوية والمادية في التكتل ، وبدأت النتيجة تبدو بفضل جهود قائد عظيم .

وبدأت عمليات الهجوم الواسعة المشتركة ضد فرنسا في كافة أنحاء العالم تؤتي ثمارها . فسقطت في أيدي الإنجليز لويزبرج مفتاح كندا . وحصن « دوكين » Duquene (المركز الأمامي للجيش الفرنسي على نهر الأهيو ونقطة الوصول بين كندا الفرنسية ولوزيانا الفرنسية ونواة الإمبراطورية الفرنسية المحتملة في الغرب الأوسط من أمريكا الشمالية) . وكذلك استولت إنجلترا على جوريه Goree ومعها تجارة العبيد الفرنسية في غرب أفريقيا . كما أرسلت إنجلترا معوناتها المالية وجنودها لمساعدة الدوق « فرديناند برنزويك » Duke Ferdinand of Brunswick الذي كان يدافع عن القضية الهولندية في منطقة هانوفر ؛ وقد سهلت مهمته كثيراً الغارات البحرية التي نشط الأسطول البريطاني للقيام بها على ساحل فرنسا . وكان الانتصار الحاسم على جيش فرنسي أكثر عدداً في كريفلت Crevelt (٢٣ يونية) إعلاناً بأن موهبة عسكرية جديدة من نوع ممتاز قد جندت لخدمة القضية البروسية الإنجليزية . وكانت أمريكا الهدف الرئيسي للجهود « بت » . وإن أعظم أمجاده كرجل دولة أنه فطن إلى أهميتها واعتبر سائر عمليات الحرب عاملاً مساعداً للاستيلاء عليها . لقد كانت « بنوع ثروتنا ، وعصب قوتنا ، ونواة قوتنا البحرية وقاعدتها » .

كانت خطة بت العظمى لتحطيم النفوذ الفرنسي في كندا تتلخص في هجوم ثلاثي يوجه من الغرب والجنوب والشرق ؛ وعلى الرغم من أنه لم يكن من المستطاع تنفيذ هذه الخطة كاملة فقد دلت على تفكير ارتفع إلى مستوى الهدف الذي ترمى إليه . والواقع أن التوفيق كان حليفها ؛ فلم يقع ما ينقض الانتصار الذي أحرزه وولف « Wolfe » في « مونتكالم » Montcalm على مرتفعات « أبرهام » Abraham

(٣ سبتمبر ١٧٥٩) . وانتقلت إلى حكم الإنجليز كندا الفرنسية التي ظلت دوماً ممتنعة على عقيدة الإنجليز ولغتهم ونظرتهم إلى الحياة انتقلت إلى القيادة الإنجليزية ، حطاماً من فرنسا القديمة مطموراً في جليد الشمال . وحافظت إنجلترا بقواها البحرية على هذا الفتح .

ولما كان ميزان القوة البحرية في ذلك الوقت أمراً معروفاً فإنه لم يكن من المستطاع أن تجيء نتيجة الحرب في الميدانين الغربي والشرقي مخالفة لذلك . فعلى الرغم من أن سكان كندا الفرنسية كانوا مدربين للحرب أعظم تدريب ، فقد كان يفوقهم عدداً سكان المستعمرات الإنجليزية الثلاث عشرة المزدهرة الممتدة على طول المحيط الأطلسي . فليونان من الأنفس لهم ميزة التفوق على خمسين ألفاً ، وهى ميزة كان لا بد لها أن تؤكد وجودها في النهاية . على أن المستعمرات الإنجليزية لم يكن يعوزها الشجاعة أو الإقدام وإنما قوة الاتحاد . كان للإنجليز أسطول وكان لهم جيش ، وكان لديهم خطة للحرب ، استغلت موارد كانت موجودة منذ أمد بعيد ومكتنبا من إظهار تأثيرها الحق .

وإلى البرلمان الإنجليزي يعود نصيب من الانتصارات البحرية والاستعمارية الكبرى التي أحوزتها إنجلترا في ذلك العهد ، فقد أفسح المجال للاستماع إلى مشاعر الملاحين والتجار والمستعمرين والإصغاء إلى أطماعهم ومظالمهم . فاستحال على لندن ، ولكن لم يكن من غير المستحيل على باريس إهمال حاجيات المواطنين فيما وراء البحار .

ثم إن الدوائر الانتخابية في إنجلترا كان لها مصالح وفروع استعمارية : فمثلاً كان أعضاء « بول » Poole أبطال الاستعمار في نيوفوندا لاند Newfoundland ؛ أما منطقة « ديفيزز » Devizes فكانت تضع نصب عينيها مصالح مستعمرتي كارولينا . أما في باريس فلم يكن ثمة شيء من هذا ، إذ كان يعوزها مثل هذه الأداة لتركيز أصوات المستعمرين عبر البحار ، فبقيت إدارة البحرية الفرنسية تحت رحمة أفضال البلاط . ومن ثم قدر لوزراء أكفاء أمثال ماشو Machault أن يسقطوا دون أن يرتفع صوت للاحتجاج ، كما قدر لوزراء طالحين أمثال « مورا » أن يبقوا في الحكم دون معارضة . ففي سنة ١٧٥٩ الحرجة عرقل « بسكوين »

سير أسطول البحر المتوسط الفرنسي في « لاجوس » Lagos ودمر « هوك » Hawke في خليج « كويرن » Quiberon جزءاً كبيراً من أسطول المحيط الأطلسي الفرنسي . حتى وإذا افترضنا فشل الحرب التي خاضها « وولف » Wolfe فقد كان في هاتين المعركتين البحريتين الكفاية لتقرير مصير الحرب الأمريكية .

أما في الهند حيث أفسح انحلال الإمبراطورية المغولية مجالا واسعا للمطامع الأوروبية ، فقد حالف الحظ فرنسا في البداية ثم تخلى عنها بعد ذلك لأسباب مماثلة . وإذا قارنا موقعاً بموقع فإن مواقع الإنجليز كانت تمتاز على مواقع خصومهم : فومباي Bombay كانت ثغراً أصحح من ماهيه Mahé ، ومدراس Madras أكثر توسطاً من « بند تشيرى » Pondicherry ، وكلكتا أكثر ملاءمة للتجارة من المحطة الفرنسية في « شندرناجور » Chandernagor ؛ على أن الفرنسيين تفوقوا أولاً في السباق على النفوذ والسلطان السياسى . ففي أثناء حرب الوراثة النمساوية (١٧٤٠ - ١٧٤٨) كان النفوذ الفرنسي مهيمناً في جنوب الهند في وقت كان « لابوردونيه » La Bordonnais يتولى قيادة الأسطول الفرنسي ، ودوبليه Dupleix يعمل في « بند تشيرى » على تكوين إمبراطورية . عن طريق التحالف مع الهنود وجيش من السباهية Sepoy ، و « بسى » Bussy اللامع الملم باللغات الشرقية يحيك المؤامرات السياسية في « حيدر آباد » بل أن مدراس نفسها انتقلت لحكم فرنسا لبضع سنوات .

ولكن الأوضاع انقلبت بعد صلح « إكس لاشابل » Aix-la-Chapelle فغدت شركة الهند الشرقية الإنجليزية أقوى في التجارة والمال بدرجة فائقة من شركة الهند الشرقية الفرنسية . كان لإنجلترا في ميدان العمل رجال أصحح ، كما كانت على استعداد لتقديم لهم من وطنهم تأييداً ومساعدة أكبر . واستدعت فرنسا « لابوردونيه » و « دوبليه » بينما اكتشفت إنجلترا « روبرت كلايف » Robert Clive و « سترينجر لورنس » Stringer Laurence ، و « إيركوت » Eyre Coote . وعلى حين امتنعت السفن الفرنسية عن عبور المحيط الهندي من قاعدتها البعيدة في جزائر موريس Mauritius في فصل الرياح الموسمية ، كانت المساعدات البحرية حاضرة لتأييد المصالح البريطانية في كل فصل من فصول السنة . ثم إن فكرة إمكان حفة من الفرنسيين الطموح إلى التحكم في إقليم « الدكن » Deccan كانت تبدو لرجال

السياسة في باريس ضرباً من الجنون بينما اندفعت حفنة من الإنجليز بقيادة روبرت كلايف ونجحت في البرهنة على أنه من الممكن فعلاً تحقيق خطة لبسط السيطرة السياسية أكثر جرأة وعلى نطاق أوسع . وإن سيرة روبرت كلايف (١٧٢٥ - ١٧٧٩) وهو ابن أحد أعيان الريف ممن أحنى عليهم الدهر ، وقد بدأ حياته كاتباً لحسابات أحد التجار في خدمة شركة الهند الشرقية ، ثم أصبح مؤسساً للإمبراطورية ، تكون إحدى قصص العالم الخيالية . ومات كلايف بيده ^(١) في سن التاسعة والأربعين . ولا تتعدى كل المدة التي قضها في خدمة بلاده في الهند ، وقد تخللها زيارتان لإنجلترا الاثني عشر عاماً . ففي الدور الأول جعل إنجلترا تتفوق في الكرناات وفي الدور الثاني استرد كلكتا من سراج الدولة ^(٢) (سلطان المغول) Suraj-ud Dawlah ، فهزم جيشه في « بلاسي » Plassey ، وهزم الهولنديين وطرد الفرنسيين من البنغال وشمال « سركار » Circare ، وقضى على نفوذهم في حيدر آباد وأقام النفوذ البريطاني في وادي نهر الكنج Canges . وفي الدور الثالث ولم يكن أقل أدوار خدماته العامة مجداً ، نظم إدارة البنغال المدنية وطهرها . وقد تميزت عملياته الحربية بجرأة غير عادية . ففي سن السادسة والعشرين قاد خمسمائة رجل إلى « أركوت » Arcot عاصمة الكرناات حيث احتفظ بقلعة متداعية أمام عشرة آلاف من الهنود تؤيدها قوات فرنسية لمدة خمسين يوماً (١٧٥٧) وفي قلعة « بلاسي » Plassey الحاسمة قاد ثلاثة آلاف جندي ، منهم تسعمائة فقط من الأوربيين ، ضد قوة من أربعين ألفاً من المشاة وخمسة عشر ألفاً من الفرسان ، وهي قوات أعدائه متكبداً بخسارة تقل عن مائة نفس .

(١) موت كلايف : قائد وسياسي بريطاني . التحق بخدمة شركة الهند الشرقية البريطانية وبرز نفسه في خدمتها وأحرز انتصارات باهرة على الفرنسيين في الهند وأهمها انتصاره عليهم في معركة بلاسي (١٧٥٧) . ولكنه أتهم عقب عودته إلى بريطانيا في ١٧٦٧ بقبوله رشاً وهدايا كبيرة . ومع أن البرلمان أبرأه من هذه التهم بعد محاكمة مثيرة ، إلا أنه انتحر (١٧٧٤) .

(٢) سراج الدولة مهراجا البنغال ، استحوذ على أملاك الإنجليز في كلكتا سنة ١٧٥٦ ووضع أسراهم منهم البالغ عددهم ١٤٦ في السجن ووضعهم في حجرة مساحتها ١٨ قدماً مربعاً فأت عدد كبير منهم اختناقاً نتيجة فساد الهواء حتى عرف السجن باسم « حجر كلكتا الأسود » . وقد ألحق كلايف بسراج الدولة هزيمة ماحقة .

وقد تكشف له أسرار عظمة حكم بريطانيا السياسى فى الهند باستثناء سر واحد . لقد رأى أن قائداً أوروبياً يقود قوات هندية يستطيع أن يصنع المعجزات بمساعدة رجاله إذا كان على استعداد لتعريض شخصه للمخاطر البالغة ؛ كما تحقق من أنه لا يمكن الحصول على نتائج سياسية عظيمة دون التعاون مع الهنود ومخالفتهم ، وركز جهوده لمحاربة الفساد وناضل لجمع شمل كافة ممتلكات شركة الهند الشرقية المبعثرة يوماً ما تحت حكم سياسى واحد . وإن الوصمة الكبرى التى لطخت شهرة ذلك الرجل الجسور البارد الطبع أنه قد غدر بأحد الهندوكيين النصايين . كان أوميشند Omichund محتالاً ، ومع ذلك فإنه لم يكن من الواجب أن يتسبب محتال فى إقامة دليل واحد على الغدر البريطانى .

وفى أبريل ١٧٦١ لم يبق للفرنسيين شىء من إمبراطوريتهم فى الهند . وكان آخر حاكم لها أيرلندى الأصل ، حارب فى صفوف اليعاقبة — فى حركة ١٧٤٥ فى إنجلترا ؛ وكان لا يزال لديه من رصيد الكراهية ضد الإنجليز ما يصبه عليهم . كان « تولندال » Lally Tolendal كسائر أبناء جنسه شجاعاً فى غير أناة ولكنه أساء إلى شعور الجميع وارتكب كافة الأخطاء ، إذ لم يعرف شيئاً عن الهند أو عن شعبها ، كما أنه كان حاد المزاج وكثير الظن . فكان مثل ذلك الإيرلندى قادراً على القضاء على أية قضية . فتسبب « لىلى » التعس فى فقدان الهند فى موقعة « ونديواش » Wandewash الحامية الوطيس . حقاً لا يمكن الطعن فى شجاعته أو ولائه ولكنه وجد فى « إيركوت » Eyre Coote جندياً لا يكاد يفوقه إلا كلايف نفسه بقليل . ولما لم تكن السباحة إزاء الكوارث من فضائل الفرنسيين ، رأينا فى عام ١٧٦١ ، أى بعد مرور ست سنوات على سقوط بندشيرى ، جمهوراً متوحشاً يتجمع فى ميدان « لاجريف » La Grève ، ليمتع أنظاره بالزعات الأخيرة بوجودها هذا القائد الحاد الطبع ابن « إيرن » Erin تحت بلطة جلاد باريس الثقيلة . حيث كفر عن فشله فى القيام بوظيفة الحاكم . أما كلايف فقد كرمته بلاده المعرفة بفضله المنتقدة لبعض أعماله بوسام وتمثال وورثة نبيل إيرلندى .

وعندما وضعت الحرب فى النهاية أوزارها بصلح باريس ١٧٦٣ منحت شروط الصلح (على الرغم من أنها جاءت أقل مما كان يرضى پت) إنجلترا ومستعمراتها

ممتلكات من الاتساع بحيث تغير مجرى تاريخها . أخرجت فرنسا من الهند ، ولم يبق لها إلا بعض المراكز التي كانت في يدها في يناير ١٧٤٩ . كما انتقلت كندا والسنغال إلى إنجلترا ، واستردت إنجلترا جزيرة منورقة — وتنازلت لها إسبانيا عن فلوريدا . وازدادت مجموعة جزائر الهند الغربية الإنجليزية بإضافة كل من الجزائر الآتية : سانت فنسان St. Vincent ، وتوباجو Tobago ودومينيكا Dominica وجرنادين The Grenadines . كان صلحاً عظيماً بالنسبة لإنجلترا على الرغم من سماحه للفرنسيين بالاحتفاظ بحقوق الصيد على شواطئ نيوفونلاند ونهر سانت لورانس واستعادتهم لبعض جزائر الهند الغربية القيمة . وقد كان أحد المعاصرين محقاً عندما نعته بأنه « أشرف صلح عقدته هذه الأمة » .

وقد مكن إنجلترا الازدياد العظيم في رفايتها التجارية من تحمل أعباء حرب طويلة كثيرة النفقات دون كلل ، وفي نهايتها — كما قال آدم سميث Adam Smith بعد ذلك : « ازدهرت الزراعة فيها ، وتقدمت الصناعة ، واتسعت التجارة على نحو لم تعرفه من قبل » . وعلى نقيض ذلك تماماً كانت أحوال حليفة إنجلترا في أوروبا . فكتب فردريك : « إن سكان بروسيا قد نقصوا بمقدار ٥٠٠,٠٠٠ نسمة خلال حرب السنوات السبع وإن هذا لنقص فادح بالنسبة لمجموع السكان البالغ ٤,٥٠٠,٠٠٠ نسمة . لقد نهب النبلاء والفلاحون وفرضت عليهم القندية على أيدي جيوش متعددة حتى لم يبق عندهم شيء سوى الخرق البالية التي تستر عريهم . لم يبق لديهم من المال ما يكفي حاجاتهم اليومية . ولم يعد هناك بوليس للمدن ، فحلت الفوضى والمصالح الخاصة محل سيادة روح العدل والنظام . وتخلت القضاة وعمال الضرائب عن أعمالهم بسبب توالى هجوم الأعداء ، ووقف حكم القانون وحل محله روح عدم المبالاة والغضب وقد رفع النبلاء والتجار والفلاحون والعمال والصناع أجورهم وأثمان منتجاتهم لأقصى درجة . ولاح وكأن كل شخص مكلف يخراب الآخر بابتزاز ماله . تلك كانت بعد انتهاء الحرب الحالة الفظيعة التي سادت أقاليم كانت مزدهرة جداً قبل ذلك . فكانت حال الأقاليم تشبه أحوال برندنبرج عقب انتهاء حرب الثلاثين عاماً » . وإن الإرادة البروسية ، وقد صهرها لهيب الضراء ، قد باتت في صلابة الصلب وتطلعت إليها بلاطات ألمانيا الأكثر ترفهاً حيث ازدهرت

الفنون كبلد بربرى متأخر ينذر بالخطر .

وإذا قورنت توضحيات إنجلترا فى حرب السنوات السبع بالتوضحيات الهائلة التى دفعها البروسيون ثمناً لسيلازيا بدا للألمان بصورة واضحة البون الشاسع فى حظوظ المتحاربين . فلم يسقط من الأوربيين إلا عشرون فى معركة « بلاسى » Plassey ومائة وأربعة وتسعون فى « فاندواش » Wandewash ، ثم إن تكاليف غزو كندا ، وفتماً لتقدير ريت ، لم تتجاوز ألفاً وخمسمائة من الأرواح . وإن الأرواح التى فقدتها بروسيا فى معارك فردريك الكبرى لتزيد على خمسة أضعاف ما فقدته إنجلترا فى الحصول على هاتين الإمبراطوريتين العظيمتين . على أنه إذا كان الثمن المبدئى الذى أدته إنجلترا — إذا قيس بعدد القتلى — منخفضاً فقد كانت تنتظرها اضطرابات كثيرة . فبعد بضع سنوات انفجر فى الأراضى الأمريكية ذلك النضال الهائل بين الوطن الأم والمستعمرين الإنجليز وأدى فى النهاية إلى تأسيس الولايات المتحدة الأمريكية .

كتب يمكن الرجوع إليها

- T. Carlyle : Life of Frederick II of Prussia (1858-65).
- B. Williams : The Life of William Pitt, Earl of Chatham (1914).
- J.R. Seely : The Expansion of England (1885).
- A. duc de Broglie : Frédéric II et Marie-Thérèse. 2 Vols. (1883).
- A.G. Bradley : The Fight with France for North America (1900).
- A.C. Lyall : Warren Hastings (1889).
- A.C. Lyall : The Rise & Expansion of the British Dominion in India (1907).
- Macaulay's Essays (Clive, Warren Hastings, Chatham), (1852).
- L.B. Namier : The Structure of Politics at the Accession of George III. 2 Vols. (1929).
- J.S. Corbett : England in the Seven Years' War (1907).

الفصل الثامن والعشرون حرب الاستقلال الأمريكية

نتيجة الاستيلاء على كندا - المستعمرات الإنجليزية في أمريكا الشمالية - القيود على التجارة - الضرائب المباشرة - عناد الملك جورج - حفلة الشاي في بوستن - مؤتمر فيلادلفيا - سوء قيادة القوات البريطانية في أمريكا - جورج واشنطن - دخول فرنسا وإسبانيا الحرب - إنجلترا تواجه الأخطار - الأوهام الناتجة عن هزيمتها .

من الأسباب الرئيسية لحرب الاستقلال الأمريكية تلك الانتصارات ذاتها التي تم لبريطانيا الحصول عليها في غير عناء كبير . إن طرد الفرنسيين من كندا والإسبانيين من فلوريدا خلص المستعمرين من هذين الجارين الخطيرين ولكنه أضعف اعتمادهم على الوطن الأم . فغدا المستعمرون - وقد قلت حاجتهم للمعونة الإنجليزية عن ذي قبل - أكثر استعداداً لتحدى ادعاءات إنجلترا . لقد حمل الكثيرون منهم السلاح بمحض رغبتهم أثناء تلك الحرب الكبرى ضد فرنسا . ولكن قليلين منهم قبلوا المشاركة في تصفية المشكلات المالية التي ترتبت على تلك الحرب . وعندما اقترح جورج جرانفيل فرض ضريبة التبغ لوفاء جانب من تكاليف الجيش الذي استخدم لحماية المستعمرات نهضت لمقاومتها دوافع مختلفة منها ما قام على العناد والحرص وضيق الأفق ، ومنها ما كان يتصل بأحسن ما ورثه الجنس الأنجلوسكسوني من تقاليد سياسية .

كانت المستعمرات الإنجليزية الثلاث عشرة في أمريكا الشمالية أوفر المستعمرات الأوروبية في العالم الجديد حظاً من الحرية . فعلى الرغم من تبعيتها للتاج البريطاني والبرلمان ، فقد تمتع لها في الواقع بتدبير شئونها الخاصة دون تدخل كبير من البرلمان البريطاني باستثناء مسألة معينة . فقد كان الاتجار مع المستعمرات خاضعاً لنظام روعي فيه أن يحقق فائدة متبادلة للوطن الأم ومستعمراتها . إن « التخطيط الاقتصادي » على نطاق واسع لا يتوقع له النجاح على الإطلاق خلال فترة قصيرة

من الزمن : ويقدم لنا نظام الاستعمار الإنجليزي القديم مثلاً طيباً للاحتكاك الذى يمكن أن ينشأ عن محاولة سليمة القصد لتنظيم الحياة التجارية والصناعية لمجتمعات مبعثرة من قاعدة بعيدة عنها . حرم على سكان المستعمرات أن ينشئوا صناعات قد تنافس صناعة الدولة الأم ، كما ألزموا بشحن صادراتهم على سفن بريطانية أو سفن للمستعمرات على أن يكون ثلثا رجالها من البحارة البريطانيين أو بحارة المستعمرات ، ووضعت قائمة طويلة من سلع معينة . ومنها سلع من منتجات المستعمرات وألزموا ألا يتزولوها إلا فى ثغور بريطانية . ومن ناحية أخرى حرم على الإنجليز أن يدخلوا إلا تبغاً مما تنتجه أمريكا وبرموده . كما منحت مساعدات مالية لقطاع الخشب فى نيوزيلند لتشجيع صناعة المعدات البحرية .

ولم تكن هذه التنظيمات ثقيلة الوطأة ، أو مما لا يحتمل فى مرحلة النمو الاقتصادى الذى بلغته المستعمرات الإنجليزية فى بداية حكم جورج الثالث (١٧٦٠) ولم يكن الوقت قد حان بعد لتقدم الصناعة فى المستعمرات . وطالما كان أهل المستعمرات على استعداد للسماح للدولة الأم بتزويدهم بالبضائع المصنوعة ، فلم يكن مما يشق عليهم أن يشحنوا المواد الخام إلى الموانئ الإنجليزية للحصول فى مقابلها على منتجات المصانع الإنجليزية .

ومع ذلك كان هناك قيد واحد سبب حنقاً عظيماً للغاية . وإذا كان ورع سكان نيوزيلند قد قام مستمداً من الإنجيل ، فإن رخاءهم كان يقوم بدرجة كبيرة على تجارة الروم . وقد صدر قانون العسل الأسود Molasses Act فى عام ١٧٣٣ . وقد حرم استيراد السكر المزروع فى مزارع فرنسية ، كما منع استيراد العسل الأسود والروم لخدمة مصالح أصحاب المزارع الكبيرة من البريطانيين وقد أصاب هذا القانون معامل التكرير فى نيوزيلند بضربة بالغة ، ولولا نشاط حركة التهريب فى المستعمرات لكانت هذه الضربة فى حد ذاتها كافية لإحداث القطيعة بين إنجلترا ومستعمراتها . ولأنه لأمر غريب يدعو إلى التأمل ، أنه لولا نشاط مهربي الخمر (١)

(١) Bootleggers : اصطلاح يطلق على مهربي الخمر المحرمة قانوناً . وهو اسم قديم يرجع إلى العصر الذى كانت الخمر تهرب فيه فى الأحذية الواسعة التى كان يستعملها المهربون . وأعيد استعمال هذا الاصطلاح فأطلق على مهربي الخمر فى الولايات المتحدة فى السنين التى حظرت احتساؤها (١٩٢٠ - ١٩٣٠) .

فى القرن الثامن عشر لأصبح الدافع الأول الذى أدى إلى تأسيس الجمهورية الأمريكية هو القيد الذى فرضه محتسو التبىذ من رجال البرلمان الإنجليزى على متاجرة الأمريكبيين فى الروم مع الأهالى الهنود .

ولكن القطيعة وقعت بسبب الضرائب المباشرة . لقد تشاجر الإنجليز دائماً بسبب المال . وإن المستعمرين الإنجليز فى أمريكا (إذ كان العنصر الأيرلندى عندئذ لا يذكر) الذين قاوموا ضريبة التبعة التى فرضها « جرانفيل » Grenville كانوا أوفياء لتقاليد أجدادهم . وعلى أساس النزاع القديم المعتاد وهو « لا ضرائب دون تمثيل » احتجاجوا على ضريبة كانت صغيرة فى حد ذاتها ، ولكنها كبيرة بالنسبة لميزانيتهم الشحيحة . وهكذا كانت قضية إنجليزية انقسم بشأنها الإنجليز على جانبي المحيط الأطلنطى . بل وجد فى أمريكا أنصار لحزب التورى أو الموالون للدولة الأم ؛ بينما وجد فى إنجلترا أنصار للأمريكيين أو حزب الهويج . وقد اعترض أعظم الساسة البريطانيين الثلاثة فى ذلك الوقت وهم « تشاتام » Chatham « وبرىك » Burke وفوكس Fox على إلزام المستعمرات بدفع الضرائب وأيدهم فى الرأى فريق لا يستهان به من الطبقة الوسطى البريطانية . كانت طبيعة هذا النزاع فى مراحله الأولى أهلية ، حتى إن ضباطاً فى الجيش الملكى والبحرية الملكية آثروا الاستقالة من الخدمة العسكرية دون أن تلحق بهم وصمة عار على أن يحملوا السلاح ضد معارفهم وذوى قرباهم فى الجانب الآخر من المحيط .

ويسلم المؤرخون الأمريكيون اليوم بأن جانب الإنجليز فى القضية كان له من الحجج أكثر مما سلم به أسلافهم بصفة عامة . فإن مستقبل أمريكا الشمالية لم يؤمن بعد ؛ إذ كان خطر الهنود ماثلاً على الدوام . ونظراً لاعتقيدات السياسة الأوروبية فقد كان هناك احتمال لمعاودة فرنسا وإسبانيا الهجوم عليها . ومن ثم بدا أن تكوين قوة للدفاع عن المستعمرات ، كيفما كان أعدادها أصوب ضمان ضد مخاطر كثيرة ليست فى الحسبان . وظل تمويل ذلك المشروع أمراً غير ممكن حتى ذلك الوقت بسبب الأحقاد المتبادلة بين المستعمرين . ولم يكن ثمة ما يدعو إلى الظن بأن محاولة الفرنسيين التى فشلت فى عام ١٧٤٥ عندما كان الخطر الفرنسى فى أعلى درجاته قد تنجح بعد ذلك بعشر سنوات عندما طرد الفرنسيون بصورة حاسمة من الميدان .

أكان إذن أمراً مثيراً للحنق أن يمارس البرلمان البريطاني حقوق سيادته فيفرض ضريبة على المستعمرين لتتفق في المستعمرات على تكوين جيش لا غرض منه إلا الدفاع عنها؟

وفجأة واجهت المشرعين من رجال الطبقة العليا في بريطانيا الحالي البال المترفين تلك المشكلة الغريبة، مشكلة حكم إمبراطوريات نائية . ولم يكن لديهم من المؤهلات ما يكفي لفهم تلك الديمقراطية الصلبة التي كانت لا تزال عبر المحيط الأطلنطي تعتز في حماسة بالمثل العليا التي عرفتها إنجلترا أيام كرمويل؛ وأخطر من ذلك عدم إدراك الملك للموقف عندما ظن أنه قد جعل من نفسه صاحب الكلمة العليا في مجلس الوزراء والبرلمان . ونظراً للاحتجاج الصارخ الذي قوبلت به ضرائب جرانفيل ، فإن أبسط أنواع الحذر كانت تقضى بالتخلي عنها والتنازل عن أى أمل في الحصول على موارد مالية من المستعمرات إلا ما توافق عليه مجالس المستعمرات بمطلق حريتها . أما جورج الثالث فكان لا يرى إلا وسيلة واحدة لمعاملة المستعمرين الثائرين . وهى وسيلة القوة . فلم يكن على الإطلاق مستعداً للتنازل في مسألة كان يعدها مسألة مبدأ . فأرفق سحب ضريبة التتعة في عام ١٧٦٥ بإعلان من البرلمان ينص على أن لبريطانيا الحق المطلق في فرض الضرائب على مستعمراتها ، وفي الوقت نفسه قررت الحكومة البريطانية بعض الضرائب التافهة على الزجاج والرصاص والورق والشاي وقد فرضها « شارل تاونسند » Charles Townshend في عام ١٧٦٧ والغرض منها تأكيد المبدأ أكثر من تحصيل دخل ذي قيمة . ولكن ذلك أثار سعي السخط في المستعمرات فوصل إلى أعلى درجات الهياج . وقد أبى الملك أن يتنازل عن مبدئه حتى عندما اتضح بجلاء أن نفقات جباية الضرائب الجديدة كانت تزيد بكثير على قيمتها ، وأنها كانت تدفع ولاية « ماساشوزتس » Massachusets . بسرعة نحو الثورة . فقررت وزارة لورد نورث Lord North بأغلبية صوت واحد أن تستبقى ضريبة الشاي بعد أن تخلت عن ضرائب تاونسند الأخرى . ومن الصعب أن نتصور عملاً أكثر خرقاً من ذلك . فقد قدر أن أقصى ما يمكن تحصيله من هذه الضريبة هو ١٦,٠٠٠ جنيه سنوياً ؛ وأعلنت الوزارة عمداً في مايو ١٧٦٩ بغية استرضاء الرأي العام أنها لن تقترح فرض ضرائب أخرى على أمريكا بقصد تحصيل إيراد . فكان

رد الأمريكيين تلويحاً بالحرب . وفي ١٦ ديسمبر ١٧٧٣ تسلمت مجموعة من الرجال المتنكرين في زي الهنود الموهوك Mohawk Indians ثلاث سفن في ميناء بوستن ، وألقوا بكل حمولتها من الشاي في الماء . وقابل مجلس الوزراء البريطاني ذلك العمل بالمثل ، فأغلق ميناء بوستن وأعاد تشكيل دستور مساشوزتس وأصدر قانوناً يخول للمتهمين بجرائم كبيرة في هذه الولاية أن يحاكموا في مستعمرة أخرى أو في بريطانيا إذا تبين أنه لا يمكن محاكمتهم محاكمة عادلة في ولايتهم .

وتجمعت المستعمرات حول مساشوزتس في مقاومتها لهذه الإجراءات التأديبية . فتكون تحالف وميثاق مقدس يلزم المشتركين فيه بالامتناع عن تبادل التجارة مع بريطانيا إلى أن تبطل أوامرها البغيضة . وفي ٥ سبتمبر ١٧٧٤ تقابل ممثلون للثلاثي عشرة ولاية في مؤتمر فيلادلفيا Philadelphia ليتفقوا على إجراءات المقاومة ضد التاج البريطاني . وأخذ كل جانب يقدر أوجه الضعف والانقسام في الجانب الآخر .

ولم تكن إدارة بريطانيا للحرب أكثر توفيقاً من تلك السياسة التي جعلت الحرب أمراً لا معدى عنه . وكان في المستعمرات جماعة ذات شأن تحبذ بصورة فعالة الإبقاء على الارتباط ببريطانيا ، بينما كان هناك كذلك فريق أكبر من المستعمرين لا يكتفون بالموقف ولم يكونوا لنفسه رأياً ثابتاً بعد ؛ كذلك كان يتحتم على السياسة البريطانية أن تجعل أحد أهدافها الأساسية كسب هؤلاء الأصدقاء أو المترددين ، واحترام ممتلكات كل صديق أمريكي ، وتشغيل الموالين من الأمريكيين في مهام الحكومة المدنية كلما أمكن ذلك . ولكن لم يحدث شيء من هذا . ومن سوء الطالع أن البريطانيين طلبوا معونة الهنود ، ولكن هؤلاء نفروا كل رجل على الحدود باعتداءاتهم ، هذا بينما كان جيش اللورد « هاو » Howe ، وغالبية جنوده من هس وهانوفر يهذب بيوت الناس دون تفرقة بين عدو وصديق . ويكفي لتفسير سلوكهم المؤسف أنه لم يتقدم من الموالين للتطوع في صفوف القوات البريطانية أكثر من ٢,٥٠٠ طوال الحرب .

ومع ذلك فإنه لولا دخول فرنسا وإسبانيا الحرب إلى جانب الأمريكيين لخسر سكان المستعمرات الحرب . إذ لم يكن في استطاعة جورج واشنطن العبقرى

نفسه—وكان أعظم الرجال شأنًا في كلا الجانبين — أن يجنب الثورة الأمريكية سلسلة هزائم ساحقة . فكانت مواقع «لونغ آيلند» Long Island ، وترنتون Trenton ، وبراند يواين Brandywine أياماً حالككة في التاريخ العسكرى «لأبناء الحرية» . وليس في ذلك ما يدعو إلى التعجب ، فالدولة الأمريكية كانت في طور التكوين . ففي فيلادلفيا عاصمة الاتحاد الغني حيث كان كل شيء فجئاً ، وفي مرحلة التجربة ، وحيث لم يكن قد تكون بعد الإحساس بالدولة ، والولاء للدولة ، وتماسك الدولة ، لم يكن في مقدور المدنيين أن يلقوا دروساً على الجنود . وقد كان واشنطن وحده هو الذي استطاع في معسكر «فالى فورج» Valley Forge وسط مشقات الشتاء الفظيع القارس أن يجعل من جيش سيئ الإعداد غاية في الاضطراب جيشاً على قدر من الكفاءة والتدريب ، وأداة من أدوات النصر . ما كانت الثورة — إلا في القليل — من صنع شعب متحد مقتنع بها ، ولا أدل على ذلك من أن جيش واشنطن لم يزد تعداده على عشرين ألف جندي في أى وقت طوال الحرب .

وفي ١٧ أكتوبر ١٧٧٧ أجبرت قوة إنجليزية تحت قيادة الجنرال «برجوين» Burgoyne أثناء تقدمها جنوباً نحو نيويورك على التسليم في «سراتوجا» Saratoga . وقد أثار فرنسا «الملكية» ذلك الخبر الذى دوى في جنبات العالم ، فدخلت الحرب لتأسيس «جمهورية» أمريكية تدفعها عوامل الغيرة الوحشية وحب الانتقام والحماسة .

ولن تجد سياسة كتلك أكثر مجازفة بالنسبة للويس السادس عشر ومارى أنطوانيت وأتل بصرًا بالعواقب ؛ ذلك لأن الحرب الأمريكية لم تدفع الصرح المتداعى للمالية الفرنسية دفعته الأخيرة فحسب ، بل إن انتصار الديمقراطية وخلع حكم الملكية فيما وراء المحيط الأطلنطى قد أضاع في كافة الأذهان التقدمية في فرنسا صورة أوروبا . وقد سويت خلقاً جديداً على نمط النموذج الأمريكى أى على أساس الحرية الجمهورية . ثم إن إتمام تحرير المستعمرات الأمريكية بمساعدة فرنسا قد تسبب في إحداث تغيير كبير في شعور الناس نحو ذلك النضال على جانبي المحيط الأطلنطى . لم تعد الحرب الأمريكية نزاعاً محلياً وإنما أصبحت نزاعاً عالمياً . إذا استنجدت المستعمرات بأعداء إنجلترا وحصلت على مساعدتهم . وإن ثورة

المستعمرات التي اعتبرت في أساسها نزاعاً داخلياً صغيراً ، لم تلبث أن تحولت إلى تحالف رهيب أرقى موارد بريطانيا في كل ركن من أركان العالم . وكأن بريطانيا لم تكفها عداوة دول البوربون الملكية فانضم الهولنديون ضد منافسيهم القدماء في ميدان التجارة ، وتكون تحالف من الدول الشمالية المحايدة ، على رأسه كاترين قيصرية روسيا ، وكان يهدد بالتدخل ضد الأسطول البريطاني إذا استمر في مضايقة تجارة الدول المحايدة في البحار . ولم تتعرض بريطانيا مطلقاً في كل تاريخها لعزلة أو خطر أشد مما تعرضت له إذ ذاك . فإذا كانت قد اضطرت أن تحارب الهولنديين على ساحل كرومندل Coromandel وفي سيلان : وفي سومطرة وإذا كان حيدر علي قد غمر إقليم الكرنات في الدماء ، وإذا كانت إنجلترا قد خسرت ثمانية من جزائر الهند الغربية على أيدي الأسطول الفرنسي الذي ارتفعت كفاءته إلى درجة بعيدة ، وإذا كانت « مينورقا » و « فلوريدا » قد انتزعتا من الإنجليز فإن السبب الرئيسي لهذا كله هو عناد أبنائها المستعمرين أنفسهم . لم يكن تشاتام Chatham الصديق البريطاني الوحيد للقضية الأمريكية ، الذي شعر عندما ناشد الثوار معونة الدولة الأجنبية بأنه لن يكون — منذ الآن — شمة مجال للإذعان .

والحرب ميدان خصيب ترتع فيه الأوهام . فالفرنسيون يرون الكمال في جمهورية مالكة للعبيد دون أن يفهموا معنى الحرية والمساواة ؛ والأمريكيون يرون في الفرنسيين — وقد كانوا يختلفون عنهم بدرجة كبيرة في كل النقاط الأساسية خلقاً وطبعاً — فرساناً مغاوير و يرونهم أقرب إليهم وأكثر تعجاساً معهم من الإنجليز الذين ناصبهم العداء والذين استقى المستعمرون منهم أصلهم ولغتهم وآدابهم ودستورهم . وثمة وهم آخر كان له نتائج أخطر — فإن هزيمة إنجلترا في الحرب الاستعمارية قد ولدت اعتقاداً عاماً بأن تاريخ إنجلترا قد أشرف على نهايته ، وقرن بولان وستينستر بدايت وارسو ، وقرنت الأحزاب السياسية في إنجلترا بالشيوع الهدامة في پولندا .

وكان الظن بأن نجم إنجلترا قد أفل اعتقاداً راسخاً لدى حكام على قدر كبير من القوة والذكاء من أمثال فردريك ملك بروسيا ، وكاترين قيصرية روسيا ، وچوزيف إمبراطور النمسا ، وأن مكانة إنجلترا التي بلغت مبلغاً عظيماً في عام ١٧٦٣ ، قد

هبطت إلى الحضيض - فوق ما تستحق - عند تسليم يوركتون Yorktown بعد ذلك التاريخ بثمانية عشرة عاماً . وقد كان قياس مبلغ قوة إنجلترا دائماً من الأمور العسيرة .

ولما كانت فرنسا الثورة - مثلها في ذلك مثل ألمانيا الإمبريالية في أيامنا الحالية (١) - قد بدأت نشاطها متأثرة بتقدير خاطئ لقوة خصومها ، فقد قدر لها أن تصدم صدمة عنيفة .

حَقّاً كان هناك ما يؤيد هذا التقدير الخاطئ من وجهة النظر السياسية البحتة . فقد كانت الحكومة الإنجليزية (١٧٧٠ - ١٧٨٢) التي أضاعت المستعمرات الأمريكية عاطلة عن كل عمل مجيد أو كفاءة متواضعة . لم يكن لورد نورث North رئيس الوزراء يؤمن بالحرب ولكنه سمح للملك بأن يسيطر على إرادته . فتحطم نظام مجلس الوزراء وأصاب الانحلال حزب الهويج . وهوى إلى الأبد عام ١٧٧٨ نجم تشاتام بعد صعود وهبوط . ولم يتأق في الأفق بعد عقلية ابنه الجبارة الرصينة . أدبرت الحرب إدارة سيئة ، وكرهها الناس وحالفها الفشل . وكانت خطب شارل فوكس اللامعة المعارضة وحدها هي التي أبقت على لبيب من الخيال السياسي في برلمان وستمنستر ؛ ومن ثم تزايد القلق في البلاد من نظام سمح بهذا القدر من الفساد والعجز والفشل ، وارتفعت صيحة تنادى بالتححرر السياسي للمدن الصناعية ، وأخرى تدعو إلى تقييد قدرة الملك على إفساد البرلمان . ولكن عندما استعاد الهويج أخيراً الحكم في عام ١٧٨٢ ووقعوا صلح فرساي (يناير ١٧٨٣) مع أمريكا ، معترفين باستقلال الجمهورية الأمريكية ، لم تر أوروبا في ذلك غير مجرد فقدان إنجلترا لإمبراطورتها ، ولكنها لم تدرك أن دستوراً هو الدستور الإنجليزي قد أنقذ ، والحق إنه كذلك ، فإن إخفاق سياسة الملك الأمريكية قد جر معه تحطيم آخر محاولة فعالة للحكم الشخصي وقعت في بريطانيا .

بل إن أمراً آخر أعظم من ذلك مر دون أن يسترعى الاهتمام ؛ فإن ذلك البلد المهزوم - كان يعدو بسرعة بتأثير سلسلة من التغييرات الاقتصادية التي لم يسبق لها مثيل من قبل ليُصبح مصنع العالم والمركز الرئيسي لأمواله .

كتب يمكن الرجوع إليها

- W.E.H. Lecky : History of England in the Eighteenth Century. 8 Vols. (1878-1890).
- James Truslow Adams : The Founding of New England (1921).
- G.B. Hertz : The Old Colonial System (1905).
- G.L. Beer : Commercial Policy of England towards the American Colonies (1893).
- J.L. Hammond : Charles James Fox (1903).
- Sir George Trevelyan : The American Revolution (1905) .
- S.E. Morison : The Oxford History of the United States, (1783-1917), 2 vols. (1927).
- Cambridge Modern History, Vol. VII.

الفصل التاسع والعشرون

إنجلترا مصنع العالم

إرساء أسس مكانة إنجلترا في عالم التجارة - بنك إنجلترا والقرض الوطنى - نتائج حصر وراثته العرش في البروتستانت ونمو الصناعة - الخشب والفحم المحمولان عبر البحار - إنجلترا تصبح مصنع العالم - سخاء الطبيعة - إهمال الحكومة - الروح البيوريتانية - المخترعون - تحسن وسائل المواصلات - عهد الرأسمالية الجديد - الجانب الوقائى - نكبات الحروب الفرنسية . إهمال الشئون الداخلية . آدم سميث Adam Smith وكارل ماركس Karl Marx .

كان تأسيس بنك إنجلترا (١٦٩٧) والقرض الوطنى فيها من النتائج التى تمخضت عنها حروب إنجلترا ضد لويس الرابع عشر ، وكانت بدعاً ثار حولها جدل عنيف فى ذلك الوقت ؛ إلا أن آثارها العمرانية كانت من القوة بحيث إنه بدونها كان يتعذر على تلك الجزيرة الفقيرة نسبياً فى الزراعة ، على الرغم من برىق مخترعاتها الميكانيكية وغناها فى الموارد المعدنية ، أن تغدو مصنع أوروبا والسوق الرئيسية للقروض فى العالم . وقد وضع أساس سليم لنظام الائتمان المصرفى فى عهد وليم الثالث وبفضل هذا النظام أمكن استغلال النتائج الاقتصادية للقاطرة البخارية ، ودولاب الغزل إلى أقصى درجة . ولو كانت العمليات المالية فى إنجلترا على مثل ما كانت عليه فى فرنسا من القصور ، لما أمكن على الإطلاق تحقيق ذلك التقدم . وإن الآلات البخارية التى عرفت فى إنجلترا أيام الثورة الصناعية ، وهى الآلات التى جعلت إنجلترا من الثراء والقوة بحيث استطاعت أن تصمد لإرهاق الحروب النابليونية ، إنما كانت تدار « بزيت » المال ، وفى مركز الدائرة من النظام المالى الإنجليزى يقوم المصرف (البنك) .

كانت المصارف وكان المصرفيون من الأمور المألوفة فى أوروبا عرفت منذ زمن بعيد . فاستبدال العملة وتوفير النقود واقتراض المال كلها عمليات قديمة قدم أسواق بابل ومصر . عرفت أوروبا من قديم صرافى اليونان والرومان والمرابين اليهود الذين ظهروا بعد غارات المتبربرين ، ثم عرفت بنك جنوة الذى قام بتمويل الحروب

الصليبية ، والمبارد الذين سمي باسمهم شارع مشهور في إنجلترا ، وآل مديتشي في فلورنسا الذين زادوا في دخل البابوية وآل فوجرز Fuggers من أوجزبورج الذين دعموا بالمال إمبراطورية شارل الخامس ، وصياغ لندن الذين كانوا يدخرون أموال تجارتها ، وقدموا القروض لشارل الثاني . وكل هذه الوكالات كانت تؤدي بدرجات متفاوتة بعض وظائف البنك الحديث ، فسهلت عمليات التجارة وشجعت على تكديس الثروة . على أن العمليات التجارية والمالية لم تبدأ تتخذ طابعها الحديث إلا منذ تأسيس بنك أمستردام في ١٦٠٩ . في تلك المدينة المزدهرة الآهلة بالسكان كانت الأسهم والسندات تشتري وتباع ، وتقوم مضاربات على الصعود وأخرى على النزول ، وتبادل العملات ، وتعقد القروض للحكومات ؛ وفيها كان مقدار متزايد من التجارة يمر في عملية أعانت على تداوله بطريقة ملائمة وسريعة . وما لبث هذا المثال أن أثر في الشعب الإنجليزي الذي دخل مع الهولنديين في أوثق العلاقات الاقتصادية . إذ شاهدت لندن أمامها ذلك المنظر العجيب منظر بلد صغير جار لها وقد اصطنع وسائل لتمويل أساطيل وجيوش ومشروعات تجارية عظيمة لا تتناسب ومساحتها الصغيرة وعدد سكانه القليل . وقد أدرك سيروليم تيمبل Sir William Temple وهو من أحكم ساسة عهد شارل الثاني ، القوة التي استمدتها هولندا من إنشاء قرض وطني وبنك وطني ، وود لو حذت إنجلترا حذو هولندا . فلهذا النظام مزايا قيمة لا جدال فيها . إذ كانت تقدم للمواطن العادي مجالا آمناً لتشغيل مدخراته ، وبذلك حفزت الأفراد على الاقتصاد . كما مكنت شعوباً من الحصول على الأموال بسهولة ، وبالتالي مكنتها من تحمل أعباء مشروعات واسعة ، كما أمدت التجارة برأس مال ساهم فيه أفراد ليسوا تجاراً ؛ وبذلك أحلت نظاماً مالياً قائماً على الانتظام والترتيب محل نظام قائم على الهوى والتقلب . ولقد ظلت الحكومات الأوروبية في حالة خلل مستمر حتى اصطناع نظام البنوك وعقد القروض طويلة الأمد للدول . وقد قدمت إليزابيث وهي حقاً أكثر الملكات شحاً بليلها مثلاً نادراً وفريداً في المقدرة على تحمل الأعباء المالية . على أن الهولنديين على ما عرفوا به من التوسع في الإنفاق استطاعوا خلال القرن السابع عشر بأكمله أن ينهضوا بكافة أعبائهم المالية ، وذلك لأنهم اصطنعوا وسيلة سديدة لتمويل نفقات الدولة .

وقد عزز مثال الهولنديين ما كان من ضغط عملة مختلة ونفقات حرب باهظة . وقد نفذ شارل مونتاجو Charles Montagu (إيرل هاليفاكس Earl Halifax) في عام ١٦٩٤ فكرة بنك الدولة التي ألح بها على الحكومة وليم باترسون William Patterson وهو أسكتلندي حاذق واسع الخيال جمع ثروة في لندن . فإذا ما احتاجت الحكومة إلى قرض لتمويل الحرب ، تتكون هيئة باسم محافظ وشركة بنك إنجلترا لإصدار ذلك القرض ، وتضمن فائدة قدرها ٨ ٪ بكفالة الضرائب . ووافق البرلمان على مشروع الهويج لإنشاء بنك إنجلترا على الرغم من المعارضة الشديدة . على أن شكرك رجال السياسة التي شاركهم فيها مدينة لندن كانت من التفاهة بحيث إنه اكتسب في مبالغ القرض كله وهو ١,٢٠٠,٠٠٠ جنيه خلال عشرة أيام من تاريخ افتتاحه . ولولا ذلك القرض لما استطاعت البحرية الإنجليزية أن تخرج إلى عرض البحر .

وقد تصور أعيان الريف من حزب التوري أن النظام المالي الجديد الذي وضعه حزب الهويج ليس إلا خطة شنيعة قصد بها الإضرار بمصالح أصحاب الأراضي ، وأنها بالتأكيد ستجلب الخراب على البلاد . ولكن البنك كان أقوى من خصومه . فبقى قائماً على الرغم من مهاجمة الصياغ ومنافسة بنك للأراضي أقيم خصيصاً للقضاء عليه . وحصل على حق إصدار العملة الورقية (في ١٦٩٧) ثم منح احتكار ذلك حتى عام ١٨١٠ . ومن أقوى الأسباب التي وطدت حصر وراثه العرش الإنجليزي في البروتستانت الاعتقاد العام بأن اليعاقبة (أنصار أسرة استيوارت) لو استعادوا العرش سينبذون القرض الوطني الذي مكن مولرا من إحراز انتصاراته . وقد خطط لإنجلترا خطواتها الأولى في الطريق إلى الثورة الصناعية التي نشرت نظام المصانع في أنحاء العالم وبذلك ضاعفت من ثرواته وسكانه ، عندما أقيم نظام الائتمان فيها على أسس عصرية .

إن موسيقى الغابات المعمورة بالجن في ألمانيا لتعيد إلى أذهاننا عهداً كانت فيه الحضارة المادية لدول شمال أوروبا ووسطها تكاد تعتمد كل الاعتماد على الغابات . سكن الناس في أكثر جهات العالم خلال أكثر ن ألنى عام في بيوت أكثرها من الخشب ، وجابوا البحار في مراكب خشبية ، وطلبوا الدفء لأنفسهم على نيران من الخشب ، كما استخرجوا من الغابات المواد التي صنعوا منها الأدوات العادية

للحياة المنزلية ، وكذلك أدوات الزراعة والصناعة . واستمرت المدن الكبرى في شمال أوروبا وقد صنعت أكثر منازلها من الخشب وقتاً طويلاً حتى بعد أن استخدم الإيطاليون الحجارة والآجر والرخام ، وبعد أن اكتشف أهالي « كاكسين » صناعة الطوب التي عرفت في روما القديمة معرفة تامة . وكانت لندن التي دمرتها النيران في عهد شارل الثاني مصنوعة من الخشب ، وكذلك كانت موسكو عندما أحرقها أهلها بأيديهم فاستحالت رماداً أمام ناظري نابليون . وبلغ من إصرار التقاليد الريفية على البقاء أن أول آلة بخارية وضعت في عربة من الخشب كما استخدم الثور في إدارة أول نول .

وكانت مشكلة المحافظة على خشب الغابات موضع الاهتمام من وقت لآخر منذ القرن الخامس عشر ؛ ذلك لأن الأشجار كانت تقطع بكثرة غير عادية للوفاء ببعض الحاجات الاستثنائية مثل تعدين الفضة أو صناعة الخزف والزجاج . على أن الخشب بالنسبة لدول غرب أوروبا البحرية ، عندما نمت في القرن السابع عشر ، لم يعد مجرد وسيلة من وسائل الراحة المحلية ، وإنما غداً أمراً أساسياً لا غنى عنه لقوة الدولة . وبعد قطع مليون شجرة من أشجار البلوط لبناء أسطول الكومنولث ، تساءل « جون إلفين » John Evelyn ، أرق الإنسانين ، في كتابه « سيلفا » Sylva ، وهو من أمتع الكتب ، عن كيفية المبادرة بالمحافظة على مستقبل إنجلترا البحرية باصطناع الطرائق العلمية لإنماء الغابات . ولأنه لافتراض يدعو إلى التأمل أن أسطول نلسن كان مصنوعاً من خشب الفضل فيه لهذا السيد الربيعي الظريف من « سري » Surrey . على أن إنجلترا في أمر حيوي مثل هذا لم تقنع بالاعتماد على مواردها المحلية ، فلهجت إلى غابات مساشوزتس المبكر تعوض بها الغابات البائدة في وندسور Windsor ، وفي « هتفيلد » Hatfield ، وفي « سلوود » Selwood . وهكذا دُعي العالم الجديد في هذا الشأن ، كما دُعي في شئون أخرى ، ليمد العالم القديم بما قصر عنه .

وكان ثمة حينذاك مصدراً آخر من مصادر الوقود عرفته أوروبا منذ العصور الوسطى ، وقد أصبح بيت القصيد في الأغراض التجارية : ففي القرن السابع عشر شاع في لندن استخدام الفحم الذي كان يجلب من نيوكاسل . ولأنه لأمر بالغ الأهمية لهذا العهد الجديد من التاريخ الأوروبي الذي آذن فجره ، أن إنجلترا — وكانت إذ ذاك أكثر الشعوب البحرية والتجارية تقدماً — قد أعادت بناء عاصمتها بالحجارة

والآجر ، وأسست فيها بنكاً للدولة للإصدار والإيداع . وتوسعت في استخدام الفحم ، وبذلك أعلنت في أوسع نطاق عن مصدر القوة الذي سيغير عما قبله التكوين الاقتصادي للعالم .

وقد سبقت إنجلترا بما يربو على نصف قرن سائر بلاد أوربا باتخاذها طابع الدولة الحديثة ذات المستوى العالى في الصناعة . لم تعد إنجلترا أرض الفلاحين الزراع ولا موطن الصناعات المنزلية الصغيرة ، ولم تعد بلداً تبلغ طرقه من السوء أن الرحلة من « يورك » York إلى لندن كانت تستغرق أسبوعاً ولو كان ذلك على ظهور الجياد ، وهى إذ ذاك وسيلة النقل الوحيدة المأمونة . كما أخذ يزول بصورة متزايدة نظام الفلاحة المسرف الذى يرجع إلى العصور الوسطى . وكان يقوم على تقسيم الأرض الزراعية في الحقول الواسعة إلى ملكيات متناثرة ، ويحل محله نظام جديد للفلاحة يقوم على الملكيات الزراعية الكبيرة ذات الأسيجة من حولها يملكها ملاك يعملون على تحسين زراعتهم ويصطنعون دورة علمية للمحاصيل عن طريق التجديد في استخدام زراعة النباتات ذات الجذور والحشائش . وقد أدى ذلك إلى زيادة المواد الغذائية ، وبالتالي زيادة عدد السكان . وقد غيرت القوة المائية أولاً ، ثم قوة البخار ثانياً ، من ظروف الحياة الاقتصادية . ووجدت صناعة الحديد التى واجهها خطر محقق في عهد الملكة آن Anne من جراء نفاذ الوقود ، وجدت في مقادير الفحم الوفيرة في وسط إنجلترا وشمالها قوة دافعة لم تتوقعها للتوسع السريع . وحل الصلب محل الخشب ، وعمال المناجم محل وقادى فحم الخشب . وتلا عهد الأسواق الدورية والبيعة المتجولين عهد آخر تمت فيه تجارة التجزئة في دكاكين (محال) في القرى والمدن في كافة أنحاء البلاد . وفي مدى نصف قرن (١٧٦٠ إلى ١٨٢١) ازداد عدد سكان إنجلترا من ستة ملايين وثلاثة أرباع المليون إلى اثني عشر مليوناً . لم يشهد العالم من قبل مثلاً لهذا المشهد الذى مثلته إنجلترا بعد أربعة أجيال من الاختراع والدأب مشهد وسائل المواصلات وقد أصبحت سريعة بما يفوق أكثر الأحلام بعداً عن الحقيقة ، ومشهد المصانع وقد ازدحمت بالآلات البارعة الموفورة للجهد الإنسانى ، ولوثة دخانها الهواء الطلق ، ومشهد الصناعات وقد جلبت مواردها الأولية من أحد نصفي الكرة الأرضية ، بينما بعثت بضائعها المصنوعة إلى النصف

الآخر ، ومشهد المدن الضخمة البشة وقد بنيت على عجل ، ومشهد سكان أصبح
زين جرس المصنع يتحكم فيهم منذ طفولتهم المبكرة ، كما ألزموا باتباع نظام
عمل كثيب مضمّن .

وترجع بعض العوامل التي جعلت من بريطانيا رائدة في الرأسمالية الصناعية إلى
سخاء الطبيعة ؛ فإن مناخها رطب وهو يلائم الصناعات القطنية ؛ كما كانت
القوى المائية متوافرة في المناطق الشمالية والشمالية الغربية من إنجلترا ؛ وأهم من هذه
العوامل جميعها وفرة الفحم والحديد وتقارب مناطقيهما ، وسهولة نقلهما باستخدام
الطرق المائية . كما كانت حقول الفحم في بريطانيا أعظم مما اكتشف منها في فرنسا
وألمانيا ، وأقرب إلى الموانئ الهامة . وهكذا على أساس الحديد والفحم والمنسوجات ،
شيدت بريطانيا أسلوباً من الحضارة لم يلبث أن احتذى في سائر أنحاء العالم .

ولإذا كانت هذه الفرص الطبيعية قد استغلت تماماً فإن ذلك لم يكن راجعاً
إلى مستوى عال من الثقافة العامة وإنما إلى وجود الجو الملائم للاختراع في الصناعة
على وجه الخصوص ، والمبادرة باستغلال نتائجه . كانت الأرستقراطية التي في يدها
مقاليد الحكم في إنجلترا تهتم بشئون التجارة بخلاف طبقة النبلاء في فرنسا . فلم يكن
لوردات الهويج ، في رغبتهم في المال لتوفير رفاهية العيش يحتقرون ثروة تأنيهم من
مصنع أو منجم أو استثمار المال في الهند . هذا إلى أن هؤلاء اللوردات وقد نجحوا في
تقويض سلطان الملك ، لم يكونوا على استعداد لمشاهدة حكومة أوقراطية تبعث من
جديد في صورة أخرى . قد يؤخذ على البرلمان الإنجليزي في القرن الثامن عشر أنه لم
يعمل إلا القليل ، والحق أن من الصعب مهاجمته لإنجازه الشيء الكثير . ومع ذلك
فإن أعضاء البرلمان لم يضعوا أيّاً من العراقيل التي يمكن عدها خطيرة في طريق
شعب عرف بالاعتماد على نفسه ، وحبه للمال .

في مثل هذا الجو من الحرية النسبية . ولعله من الملاحظ أن بريطانيا قد أصبحت
عقب اتحادها مع أسكتلندا أوسع منطقة للتجارة الحرة في أوروبا — استرد خلفاء عصر
البيوريتان مكانتهم . فعندما أقصى المخالفون للعقائد الرسمية Nonconformists عن
الاهتمام الفعلي بالأمور السياسية حتى عام ١٨٢٨ ، حولوا نشاطهم وكدهم إلى السعي
في طلب الثورة — فاعتبروا العمل شيئاً مقدساً ، واللهو خطيئة ، وجميع المال دليلاً
أصول التاريخ الأوروبي

على قبول الإله لصلواتهم . وشاركوا بعزم قوى فى كل نوع على وجه التقريب من المشاريع الصناعية والتجارية وإن كان الحديد قد اجتذبهم بوجه خاص ، وبذلك ساهموا بنصيب وافز فى صنع إنجلترا الجديدة ، وهى وإن كانت قد أصبحت أقل هدوءاً وجمالاً فقد غدت أكثر ثراءً وأوسع سلطاناً عما كانت عليه من قبل .

ومع ذلك فإنه لم يكن من الممكن إحداث هذه التغييرات بدون الاختراعات . فإن حفنة صغيرة من الأسكتلنديين والإنجليز الجديرين بالاعتبار ، أقل عدداً مما تحتاج إليه مباراة لكرة القدم نجحت فى أن تغير ببراعتها حياة البلاد الاقتصادية . وما لاشك فيه أنهم قد استمدوا التأييد والإلهام من جو العصر الذى عاشوا فيه . فقد كان العلم ينشر سلطانه منذ أن بشر فرانسيس بيكون Francis Bacon بقيمة الطريقة الاستقرائية ، وكان من رجال العلم بعض المخترعين وخاصة جيمس وات James Watt (١٧٣٦ - ١٨١٩) الذى كان أول من قرر الأهمية الحاسمة للقاطرة البخارية فى مجال الصناعة . ولكن ربما كان أهم من التدريب العلمى فعلاً الفكرة التى عاوت الجمعية الملكية على نشرها ومضمونها أن المعرفة شئ ينمو ويتوسع وأن فى وسع الإنسان - عن طريق الملاحظة والتجريب - الكشف عن حقائق جديدة . وهكذا ما إن ثار فى الإنجليز روح التطلع والبحث حتى أصبح لا مفر من أن يوجه نحو أهم أمر كان يشغل بال الشعب الإنجليزى فى ذلك الوقت . ولم يكن هذا الأمر - كما كان فى عهد البيوريتان - أمر عقيدة أو دين ، ولكنه السعى فى طلب المال عن طريق الصناعة والتجارة .

كان بعض المخترعين العظام عمالاً فقراء لم ينالوا حظاً من ثقافة أو تعلم ولكن هدمتهم فى معالجة أجهزة الصناعات التى يعملون فيها مهارة ميكانيكية شمت إلى حد العبقرية . ومن هؤلاء كان « كى بيورى » Kay of Bury . الذى أدى اختراعه للمكوك فى ١٧٣٣ إلى مضاعفة العمل الذى كان فى استطاعة النسيج لإنجازه ، بالإضافة إلى تجويد صنفه . وكذلك « جيمس هارجريفز » James Hargreaves الذى ضاعف دولاب الغزل الذى اخترعه فى ١٧٥٤ القوة الإنتاجية للنسيج إلى ثمانية أمثالها وأكثر ، ومن هؤلاء أيضاً كان « ريتشارد آر كرايت » من بريستون Richard Arkwright of Preston (١٧٩٢ - ١٧٣٢) مخترع إطار آلة الغزل ، ومؤسس صناعة المنسوجات

القطنية في إنجلترا ، ومنشئ نظام المصانع .

وان تجد كثيرين من الإنجليز فاقوا في أثرهم الحضارى العميق ذلك اللانكستري المحتلى حيوية ، الذى عمل فى شبابه صبيّاً لحلاق ، ثم صانعاً للشعر المستعار ثم قام بسلسلة من الاختراعات لندف القطن وغزله ، مما جعل الإنتاج على نطاق واسع أمراً ممكناً ؛ ثم طبق فى المصانع التى أنشأها ليستغل اختراعه نظاماً يقوم على الإنتاج الجمعى المقنن ، وهو النظام الذى يميز عهد الرأسمالية .

ولما كانت المصانع الأولى لصناعة المنسوجات تعتمد على المياه لإدارة قوتها المحركة ، فقد أقيمت على مقربة من مساقط المياه ، وبصفة عامة على أرض سبخة موحشة ، بعيدة عن المراكز الآهلة بالسكان . ولا يزال النظر يقع فى مثل هذه البقاع على هياكل بالية لأبنية هزيلة مرتفعة المداخل ، وقد كانت يوماً ما مسرحاً للنشاط والحركة ، ولكنها هجرت منذ أمد بعيد . فإن الاستعاضة بالبخار عن الماء فى القوة المحركة لمصانع القطن قد جعلت من الأريخ تركيز المصانع فى المدن . ولما أصبح فى الإمكان عندئذ توليد القوة فى أى مكان مناسب ، لم يعد من الضرورى نقل العمال إلى المناطق المائية النائية . وحل مصنع القرية محل صناعات المنزل الريفى الصغير ، وأصبح كلاهما فى عداد الآثار القديمة ، إذ أن استخدام البخار فى إدارة المصانع قد أدى مباشرة إلى قيام مصنع المدينة .

ولم يكشف «جيمس وات» James Watt المهندس من «جرينوك» Greenock استخدام البخار كقوة محركة ، كما أنه لم يكن منشئ القاطرة البخارية . ولكن أثناء تأمله فى عيوب قاطرة بلغت من العمر ثمانية وخمسين عاماً اهتدى هذا العبقرى الرقيق الغضوب الحزين إلى سرّ جهاز تكثيف الهواء المنفصل (١٧٦٩) ، ذلك الجهاز الذى مكن قوة البخار من إحداث انقلاب فى ميدان الصناعة . كانت مضخة «نيوكومن» Newcomen تستعمل فى نزع الماء من المناجم ، ولكنها كانت عديمة الفائدة فى المستويات العميقة ، كما أنها فى جميع المستويات كانت قاصرة فى قوتها ، غير مضبوطة فى عملها بسبب فقدان الحرارة وأسباب أخرى . وقد عالج « وات » Watt هذه العيوب باختراعه المكثف المنفصل . وهكذا قدمت فكرة نيرة واحدة للإنسانية ، أداة السيطرة على دنيا المناجم ، مع ما يتبع مثل هذا الفتح

من توفير مزيد من القوة المحركة والآلات والإضاءة والدفع ومستوى أعلى من وسائل الراحة لعدد كبير من الناس. ثم أدخلت الآلة البخارية في مصانع القطن بفضل الاختراع التالى الخاص بالحركة الدائرية ، تقليداً لحركة العجلة المائية . وحدث هذا فى عام ١٧٨١ وهو نفس العام الذى سلم فيه البريطانيون فى « يوركتون » Yorktown . ولم يلاحظ أحد إذ ذاك أن مخترعاً خجولاً صنع روابط جديدة بين الولايات المتحدة وبريطانيا أكثر نفعاً من روابط الاحتكار الاستعماري ، ففي القرن التالى انطلق القطن الأمريكى المنسوج فى مصانع « لنكشير » Lancashire محبوب أنحاء العالم .

على أن هذه الأفكار الميكانيكية لم تكن لتؤتى ثمارها فعلاً لولا مشاركة وثيقة تقوم بين المخترع أحد كبار رجال الأعمال ممن يؤمنون بالبخار ولا تعوقه خسارة مادية أو مخاوف . فلولا مساعدة « ماثيو بولتون » Mathew Boulton صاحب مصنع البضائع الحديدية فى برمنجهام لكان محتملاً أن تبقى اختراعات « وات » مهملة لا يستعملها أحد . دعا « بولتون » « وات » لمساعدته فى ١٧٧٥ ، وركز اهتمامه فى صنع المحركات البخارية وبيعها ، فجمع رأس المال وجمع العمال وأقام المصانع ثم أقنع الجمهور فى النهاية . وبفضل همة بولتون وحماسه ومعين نشاطه الذى لا ينضب ، وكذلك بفضل المخترعات الميكانيكية التى اخترعها صديقه الرقيق الشعور ، تم فى عشر سنوات انقلاب ربما استغرق فى ظروف أخرى قرناً من الزمان . وقد أخرجت مصانع « سوهو » Soho أول آلة بخارية فى عام ١٧٧٦ . وبعد أربع سنوات أرسلت أربعون آلة إلى مناجم كورنويل . ولم يحل عام ١٧٨٩ حتى أصبح للبخار السيطرة فى معظم الصناعات الرئيسية فى إنجلترا .

وكانت وسائل المواصلات فى النصف الأول من القرن الثامن عشر عائقاً كبيراً فى سبيل النمو الصناعى فى بريطانيا . فبينما كانت فرنسا تملك من الطرق والترع ما كان موضع إعجاب كافة الرحالة ، كانت الطرق الإنجليزية التى كان يشرف عليها طائفة من موظفى الأبروشية لا يتقاضون أجراً فى حالة مخزية ؛ أما القنوات فلم يكن لها وجود . ولم يكن فى الإمكان أن تحظى الصناعة بتوسع كبير طالما بقى الحال على هذا النحو ، وطالما بقى كثير من الطرق غير صالح للسفر إلا فى أشهر الصيف وطرق أخرى غير صالحة لمرور عربات النقل وعجلات السفر إذ كانت

لا تسمح إلا بمرور حصان نقل واحد . ولكن الشعب في النهاية بدأ في منتصف القرن يلحظ ذلك النقص الذي تغاضى عنه دهرًا طويلا . فست قوانين بإنشاء مداخل للطرق تدفع عندها رسوم معينة ، استخدمت في إجراء تحسينات قيمة وإن لم تكن منتظمة . وقام وليم « برندلي » William Brindley الأمل النابغة بهندسة النفق المائي بين ليثربول ومانشستر، ويفضل الجهود المتدفقة التي قام بها ثلاثة من المهندسين العظام : « متكالف » Metcalfe و « تلفورد » Telford و « مكدام » Macadam أزيلت الحوائط التي تراكت منذ أمد بعيد . وزودت البلاد بنظام من الطرق والجسور والقنوات لا يقل عن أحسن نظام في أوروبا . ودخل عهد الخيل المحملة بالبضائع في ذمة التاريخ ، وبدأ عهد عجلات السفر القصير الأمد . فكتب « جوزيف آستون » في تاريخه عن منشستر الذي نشره ١٨١٦ : « في عام ١٧٧٠ لم يكن هناك سوى عربة واحدة فقط للمسافرين إلى لندن وأخرى إلى ليثربول . وكانت هذه تبدأ من « آستون » Aston إلى منشستر ، وكانتا تقومون مرتين فقط في الأسبوع ، أما الآن فيوجد سبعون عربة مختلفة تبدأ رحلتها من هنا ، ومنها أربعة وخمسون عربة تسافر يوميا ، وستة عشرة أخرى ثلاث مرات أسبوعيا ، كل إلى مقاصدها المختلفة . وفي عام ١٧٥٤ أعلن عن العجلة « الطائرة » فكانت موضعاً للفخر ؛ إذ قيل إنه مهما يبدو ذلك بعيداً عن التصديق فإن هذه العربة باستبعاد الحوادث الطارئة ستصل فعلا إلى لندن بعد أربعة أيام ونصف من مبارحتها منشستر ، والآن تقطع عربات البريد دائما هذه المسافة في ثلاثين ساعة ، وفي مناسبات كثيرة عندما كان بونابرت يترنح نحو النهاية . وعندما وصلت أنباء المعركة النهائية في « ووترلو » وصلت عربات معينة وهي The Traveller ، و Telegraph, the Defiance ، في ثمان عشرة ساعة . هذا العهد الذهبي للأسفار في إنجلترا — وإن كان عهداً قصيراً — خلده « شارل ديكنز » في صفحات كتابه « بكويك » Pickwick عندما كان الحصان في عنقوان مجده . وعندما كان المسافر يجد متسعاً من الوقت ليمتع نفسه بمباهج الريف وخواطر الطريق . ثم جاء اختراع ستيفنسن Stephenson للقطار (في عام ١٨٢٩) فوضع حداً لذلك الفصل من تاريخ إنجلترا ، وبدأ عهد أكثر حركة وأكثر ثراء وأكثر إزعاجاً للجنس البشري .

وما وافت نهاية الحروب النابليونية (١٨١٥) حتى أصبح طابع المجتمع الرأسمالى، كما شاع فى ذلك الوقت، أمراً واضحاً فى بريطانيا. على أن الرأسمالية قد وجدت فى صور مختلفة منذ فجر التاريخ وتميزت الرأسمالية الجديدة عما كانت عليه فى العصور السابقة بأنها لم تكن زراعية أو تجارية على وجه الخصوص، بل أصبحت رأسمالية صناعية إلى حد كبير. وقد ترتب عليها الفصل بين رأس المال والعمل فى جانب كبير من النشاط الاقتصادى حيث قام الاتصال عادة بين رأس المال والعمل. فلم يكن للصانع فى المصانع الجديدة، التى كان دخالها يظلم الجور، شئ غير عمله يقدمه ليقاضى عليه أجراً. وهكذا بينما كانت الطبقة العاملة تبيع العمل، كانت طبقة أصحاب العمل تشتريه. وحل محل العلاقات القديمة التى قامت على العرف وأكسبتها العاطفة الإنسانية حلاوة، علاقة المال بين العامل وصاحب العمل.

لم تشعر الأمة بالشرور التى نجمت عن هذا التصنيع السريع الذى لا روح فيه حتى الأربعينات من القرن التاسع عشر. كانت المشاكل التى أثارها جديدة ومن نوع لم يكن البرلمان الإنجليزى الذى يسيطر عليه أعيان الريف الأغنياء مهياً لتقديرها. وعجز عن اجتذاب اهتمام أعضاء البرلمان أو إثارة عطفهم ما كان يجرى فى «لنكشير» Lancashire «وبلاك كينرى» Black Country من عرق النساء وكدح صغار الأطفال، والمساكن المزدحمة وإهمال جميع وسائل الراحة، والتفاوت بين الأجور والأرباح، وتوقع البطالة حتى إن «بيرك» Burke نفسه الذى وسع خياله الملهب قضايا الهند وأمريكا، والدلالة الكبرى للثورة الفرنسية، أغمض عينيه عن رؤية المشاكل الداخلية الملحة التى نجمت عن الثورة الصناعية. ولما كان القانون يحرم تكوين اتحادات العمال، فقد عجزوا عن تنظيم أنفسهم، فلم يسمع لهم حس.

ومع أن الحرب الطويلة ضد فرنسا لم يكن لها أثر فى إيقاف التوسع الصناعى والتجارى فى إنجلترا فإنها من كافة الاعتبارات الأخرى كانت بلاء صرفاً على بريطانيا والعالم. ذلك لأنه بسبب الحرب أهملت دراسة مشاكل المجتمع الصناعى الجديد التى كان لها من الأهمية والحدة ما يكفى لتكرس لها حكومة عاملة وعاقلة كل قواها. وهو درس كان من الممكن أن يكون مجدياً على أى حال. فبينما كانت

الحكومة الإنجليزية تناضل للمحافظة على كيائها ضد فرنسا في عهد الثورة و نابليون ، وقد أصاب الطبقة الحاكمة فيها الدعر من خطر الروح الثورية في إنجلترا ، كان من العيب أن نتوقع أن ينظر بعين العطف إلى حاجات تلك الطائفة الجديدة من الناس ، المشتغلين بالصناعة ، وهم لا يعرفهم أحد ويحسون حياة نصف همجية ؛ وكان عددهم يزداد بسرعة في الظروف الغريبة التي تقوم فيها المصانع في الجزء الشمالى من الجزيرة البريطانية . بل إن « وليم پت » نفسه ، وقد أظهر في لحظة ما ميضاً حقيقياً من الاهتمام والإدراك ، تراجع عن واجب التخفيف من شقاء تلك الفئة الكادحة من السكان التي تشقى لتكسب رزقها . وإن العقلية التي عضدت بقاء تجارة الرقيق حتى عام ١٨٠٧ كانت أحد العناصر التي شككت الجو العقلى الذى كان يسود في تلك الأيام . كما كان الخوف من الثورة عنصراً آخر ، وكلا العنصرين لم يحيدا معالجة المشكلات الاجتماعية التي ترتبت على الثورة الصناعية معالجة حكيمة .

وإن آدم سميث Adam Smith مرحباً في كتابه «ثروة الأمم» بيزوغ فجر العصر الجديد-عصر الصناعة (١٧٧٦) - يهلل لازدياد الثروة الذى أصبح أمراً ممكناً في ظل نظام يقوم على حرية التجارة وتعميم الآلات ، وتقسيم العمل تقسيماً دقيقاً ؛ وفي هذا البحث الفريد الذى اعتبر لإنجيلا يبشر بمبدأ التجارة الحرة ؛ فطان آدم سميث ، هذا الأستاذ الحكيم من أبناء جلاسجو ، إلى القوى الاقتصادية الهائلة الكامنة في الشعب البريطانى التي يستطيع نظام قائم على الحرية أن يطاقها من عقالها . وقد أيدت الحوادث في وقتها هذه الثقة الرزينة التي آمن بها ذلك الاقتصادى ، إذ آتت التجارة الحرة ثمارها . فالتصنيع أصبح مصدراً لرفاهية مادية متزايدة ؛ وكيفما كانت الاختبارات التي تقاس بها الثروة القومية فإن نموها طوال القرن التاسع عشر سار دون عائق . على أنه بعد نشر كتاب «ثروة الأمم» بإحدى وتسعين سنة ، عندما بلغ النظام الرأسمالى في بريطانيا غاية نضجه ، ومضى ينتشر بسرعة في كافة أنحاء أوربا ، نهض يهودى ألماني^(١) يقيم في لندن هو كارل ماركس Karl Marx وسخر ذكائه الناقد لدرس نتائج ذلك النظام الرأسمالى . فبينما لم ير فيه سميث إلا ضوء الشمس ، لم ير «ماركس» إلا ظلالا عكسها على مسرح الشر : ممارسة الفرد لحرية

(١) كانت أسرة كارل ماركس (١٨١٨ - ١٨٨٣) أسرة يهودية اعتنقت المسيحية .

دون عائق، وتقسيما للعمل بلغ من حدته أن عوق نمو الذكاء والحياة الفارغة الحالية من المتعة التي يحياها أرباب الحرف . ولم ير إلا هوة تزداد اتساعاً في كل يوم بين الثروة والفقير ، وفقداناً للشعور بالاستقرار والبقاء الذي كان يميز الأنواع القديمة من المجتمعات ، واستغلال أصحاب الأعمال للطبقة العاملة دون رحمة . وهذه صورة بالغ في رسمها ماركس ، كما أنها لم تكن مطابقة للواقع من بعض الوجوه الهامة . ولكن الاهتمام اتجه إلى معالجة العيوب الخطيرة التي لا شك فيها ، وهي وإن لم تكن تبرر الثورة كانت في حاجة ماسة إلى الإصلاح :

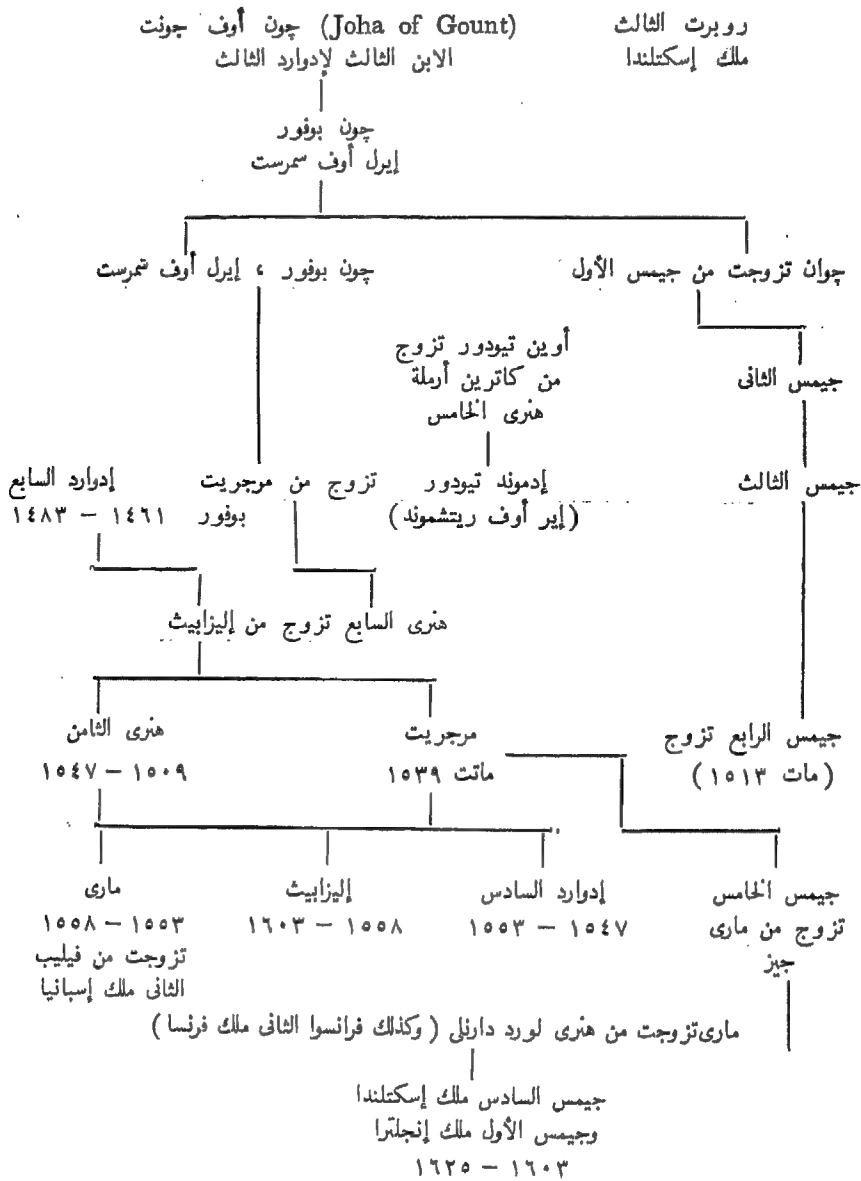
كتب يمكن الرجوع إليها

- P. Mantoux : La Révolution industrielle au XVIIIe siècle. tr. M. Verson. (1928) (Excellent bibliography).
- J. Aston : A Picture of Manchester, (1804-1826)
- Edward Baines : History of the Cotton Manufacture in Great Britain. (1835).
- R.N. Boyd : Coal Pits and Firemen : A short History of the Coal Trade & The Legislation affecting it. (1892).
- R.E. Protherth : The Pioneers & Progress of English Farming. (1888).
- R.H. Thurston : A Century's Progress of the Steam Engine. (1901).
- S. Smiles : The Lives of the Engineers. 5 Vols. (1874).
- C. Beard : The Industrial Revolution. (1901).
- J.L. & B. Hammond : The Town Labourer. (1917).
- J.L. & B. Hammond : The Skilled Labourer. (1919).
- J.A. Hobson : The Evolution of Modern Capitalism. (1894).
- A Toynbee: Lectures on the Industrial Revolution of the Eighteenth the Century in England. Ed. Lord Milner. (1908).

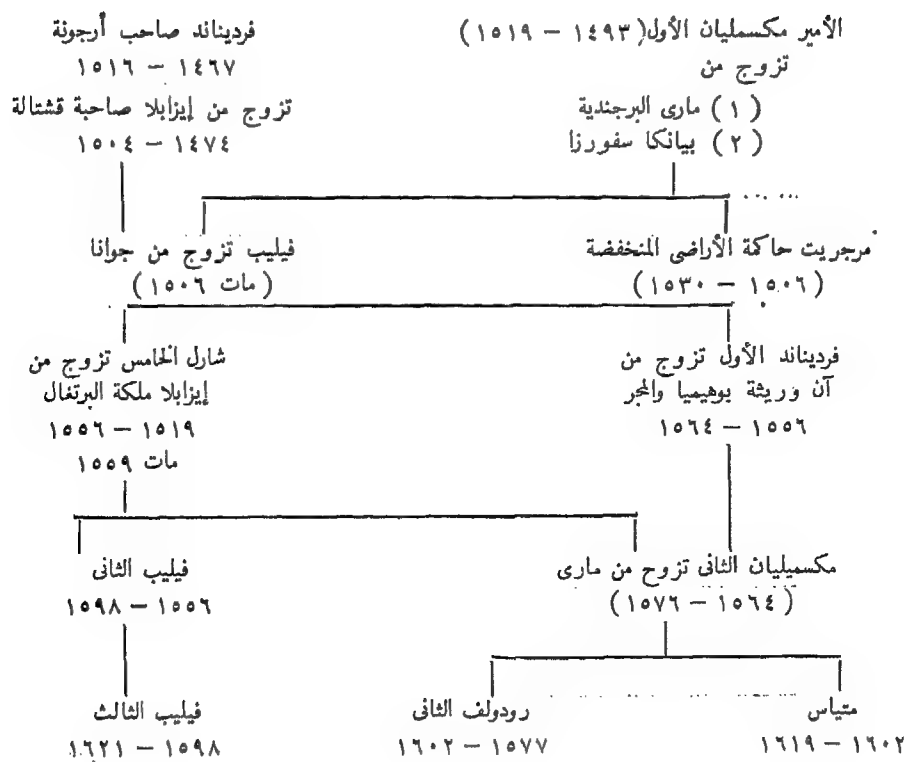
جداول ترتيب تسلسل الأسر المالكة

- ١ - أسرة التيودور واستيوارت : التيودور وتولية أسرة استيوارت .
- ٢ - إمبراطورية شارل الخامس :
- ٣ - آخر ملوك الفالوا وتولية هنرى ثااار العرش .
- ٤ - المطالبون بالعرش الإسبانى .
- ٥ - أسرة استيوارت وتولية أسرة هانوفر العرش :
- ٦ - أسرة رومانوف :
- ٧ - أسرة هوهنزولرن :

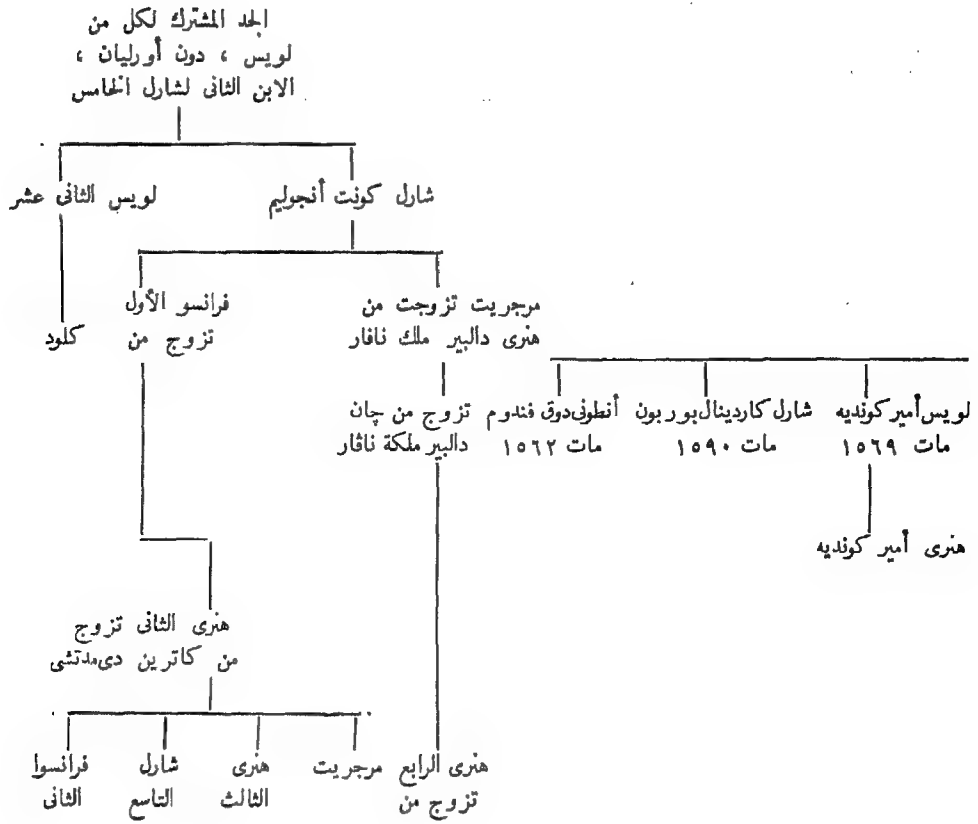
١ - أسرتا التيودور واستيوارت : التيودور وتولية أسرة استيوارت العرش



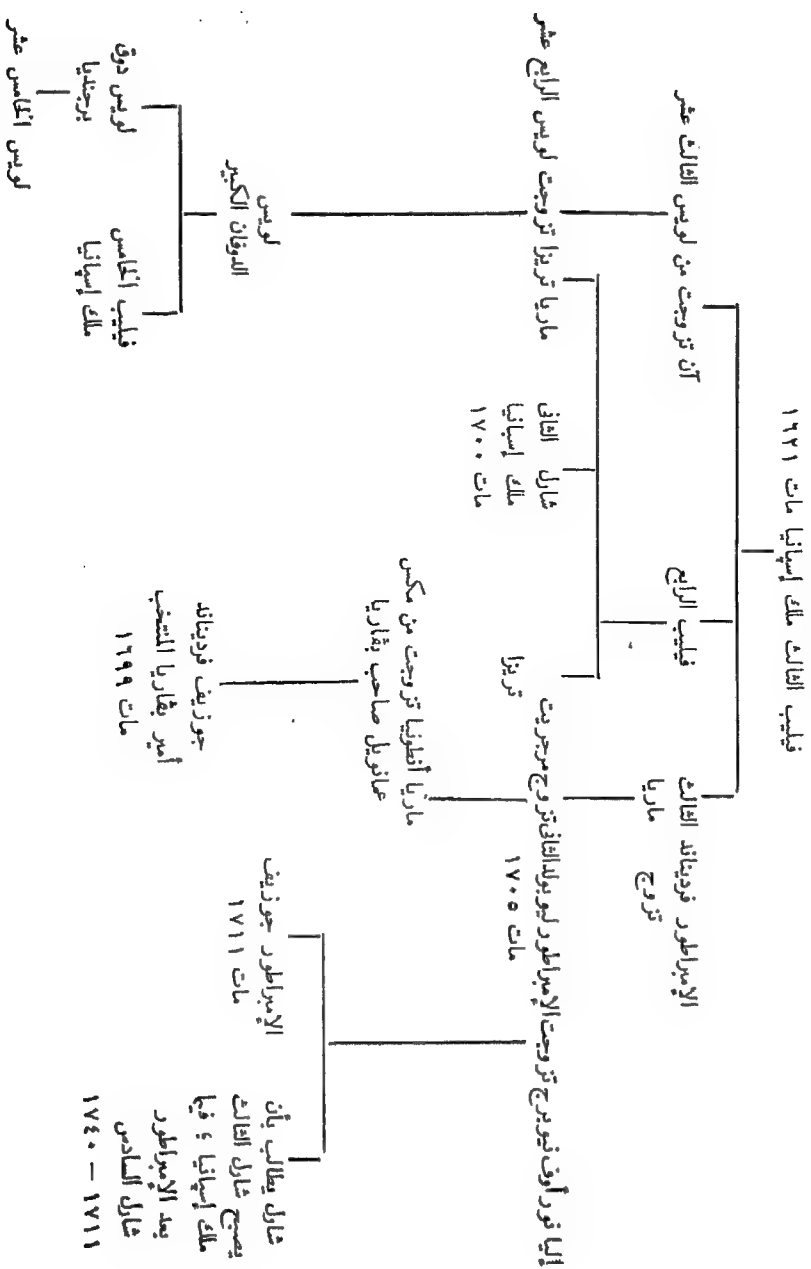
٢ - إمبراطورية شارل الخامس



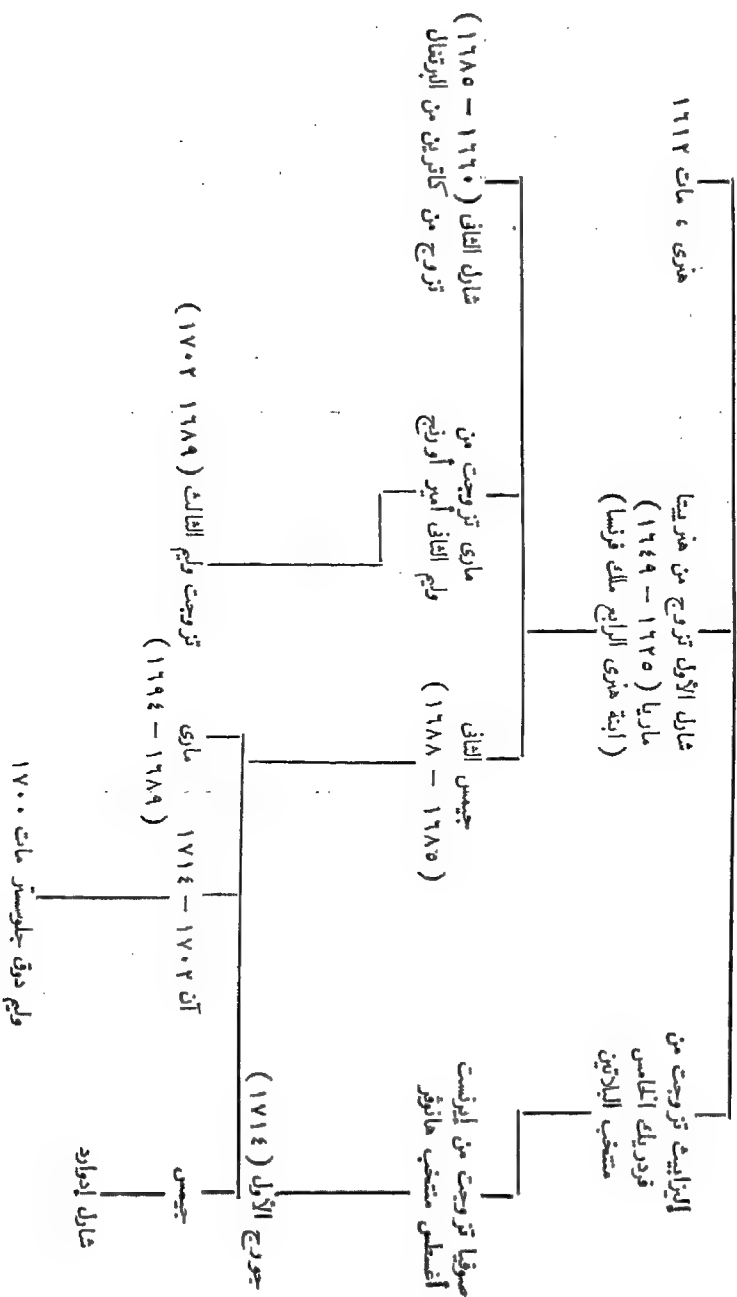
٣- آخر ملوك أسرة الفالوا وتولية هنري نافار العرش



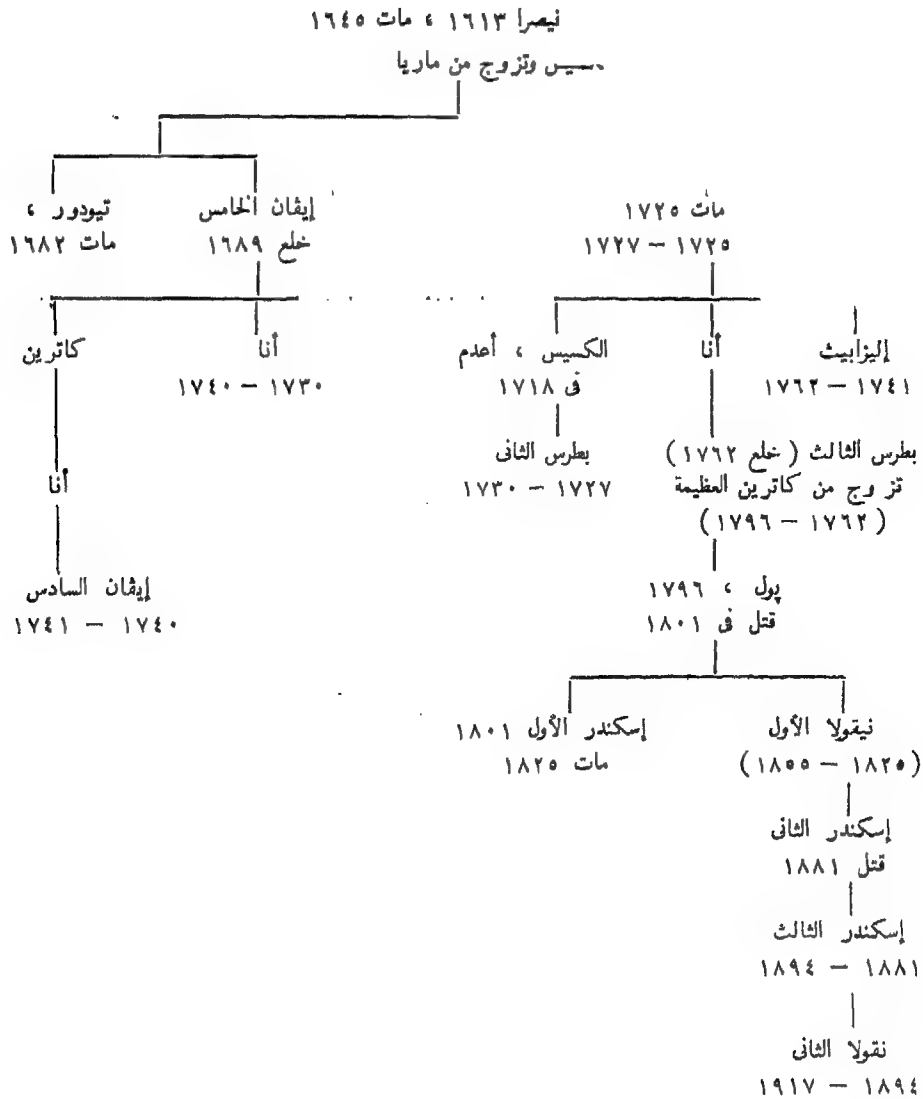
٤ - المطالبون بالعرش الإسباني



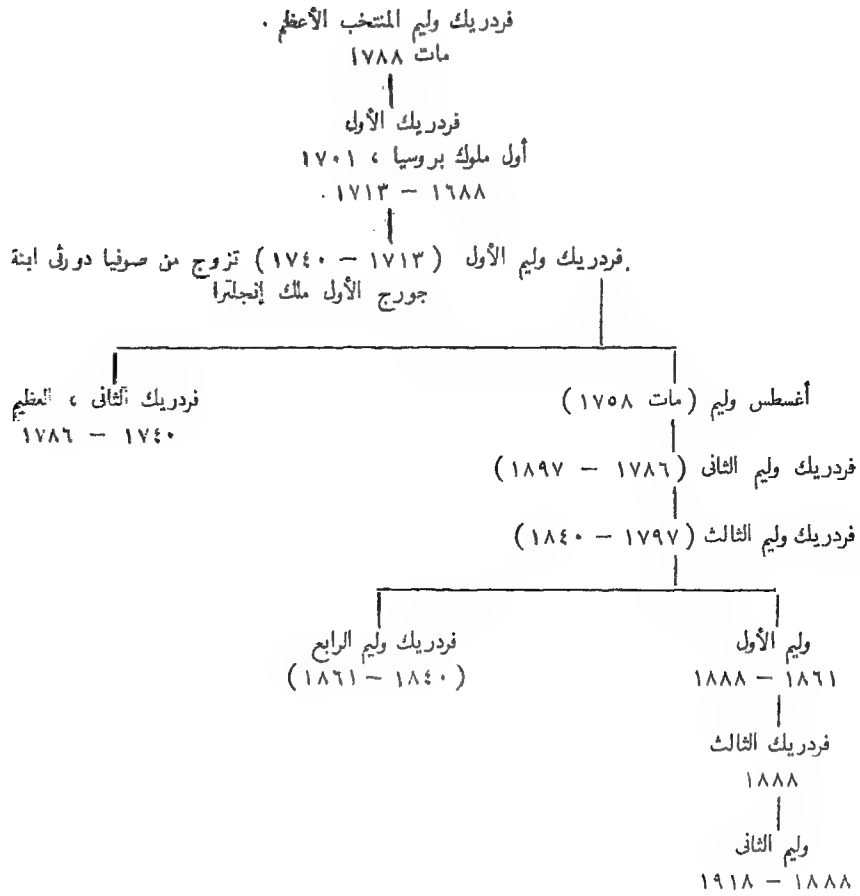
٥- أسرة استيوارت وتولية أسرة هانوفر العرش
جيمس الأول تزوج من آن من الدانمارك
(١٦٠٣ - ١٦٢٥)



٦ - أسرة رومانوف



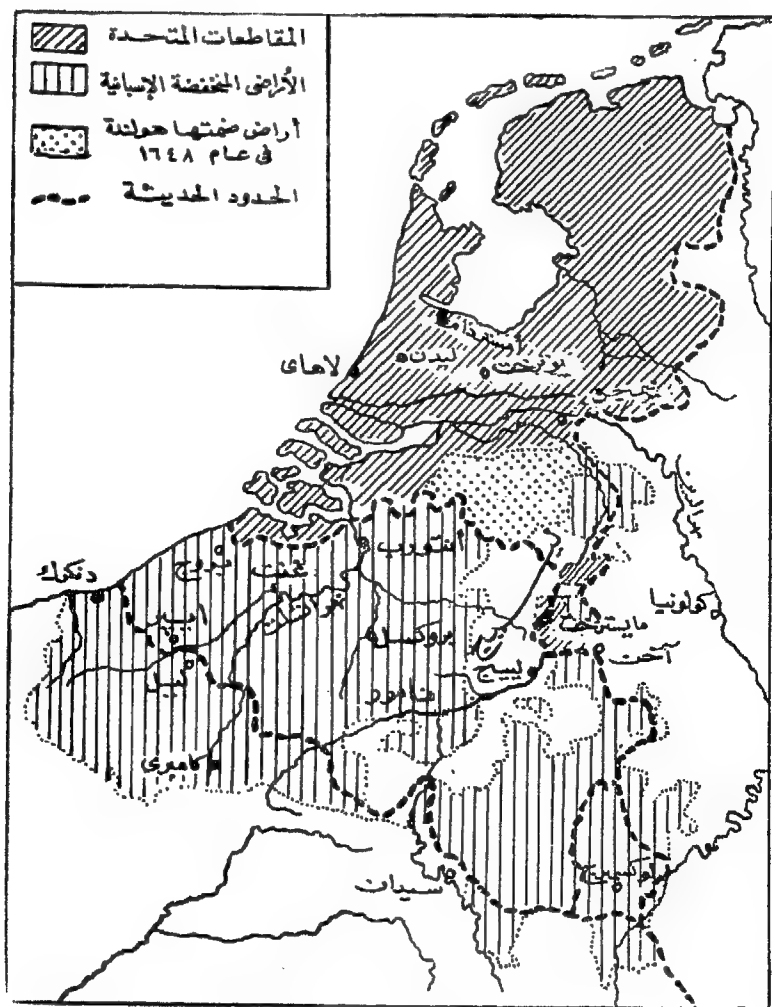
٧- أسرة هوهنزرن



الخرائط

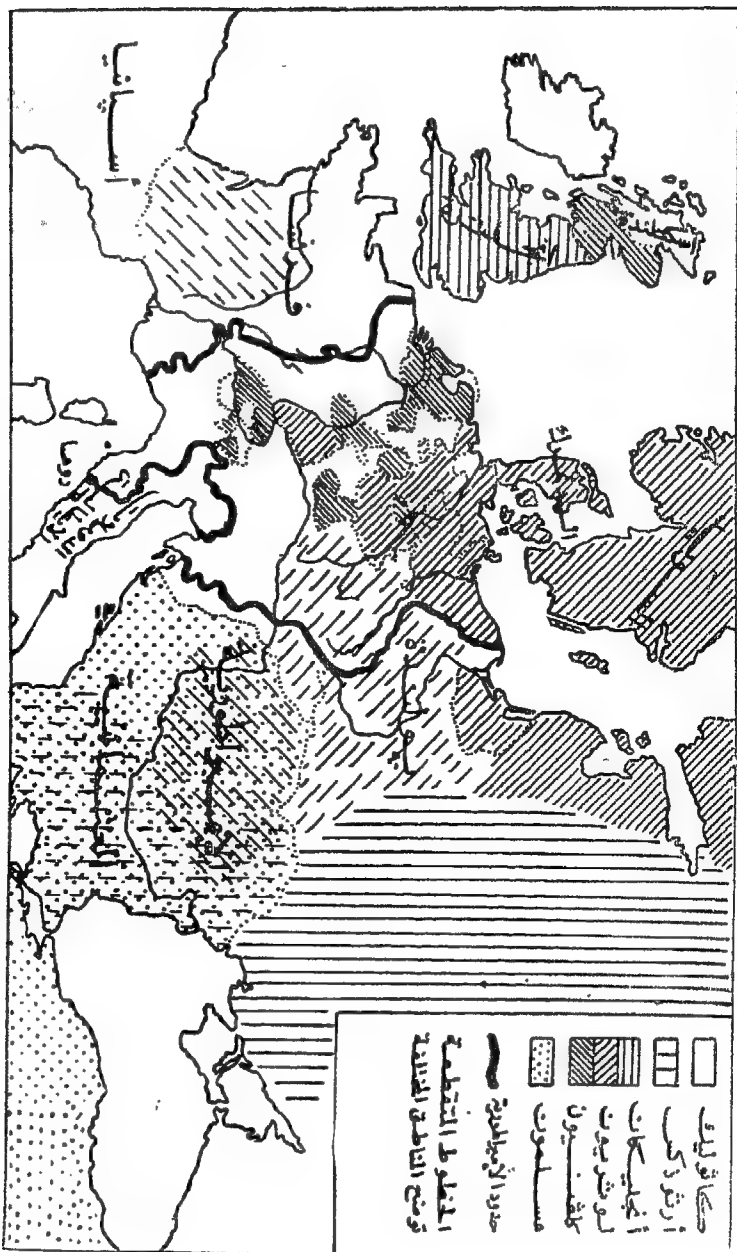


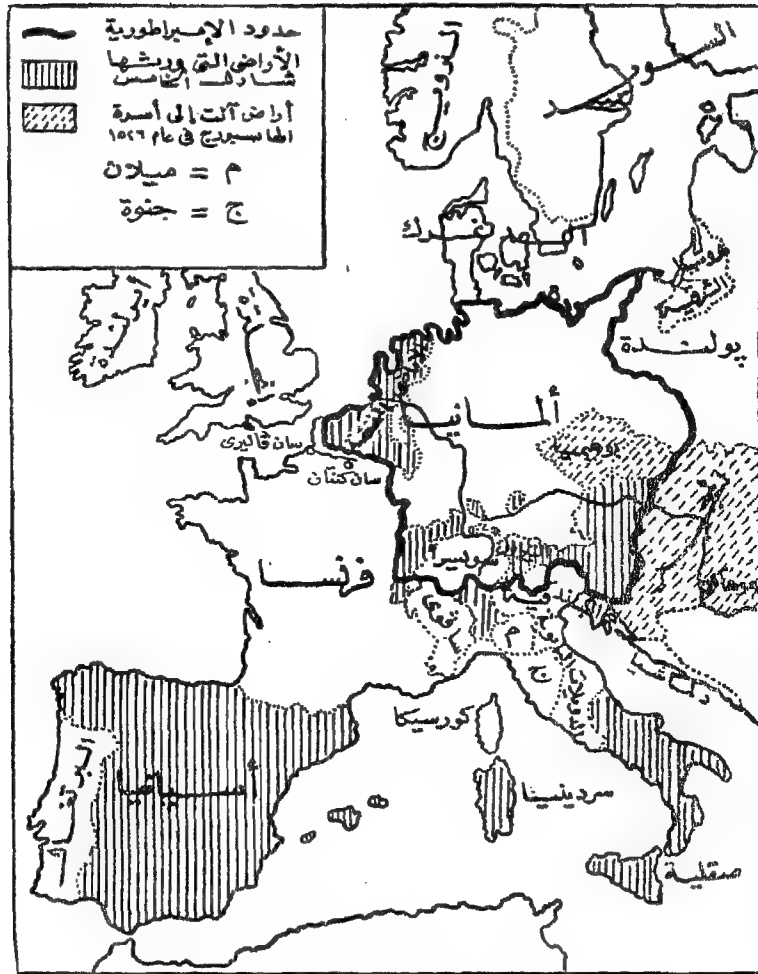
فرنسا أثناء الحروب الدينية



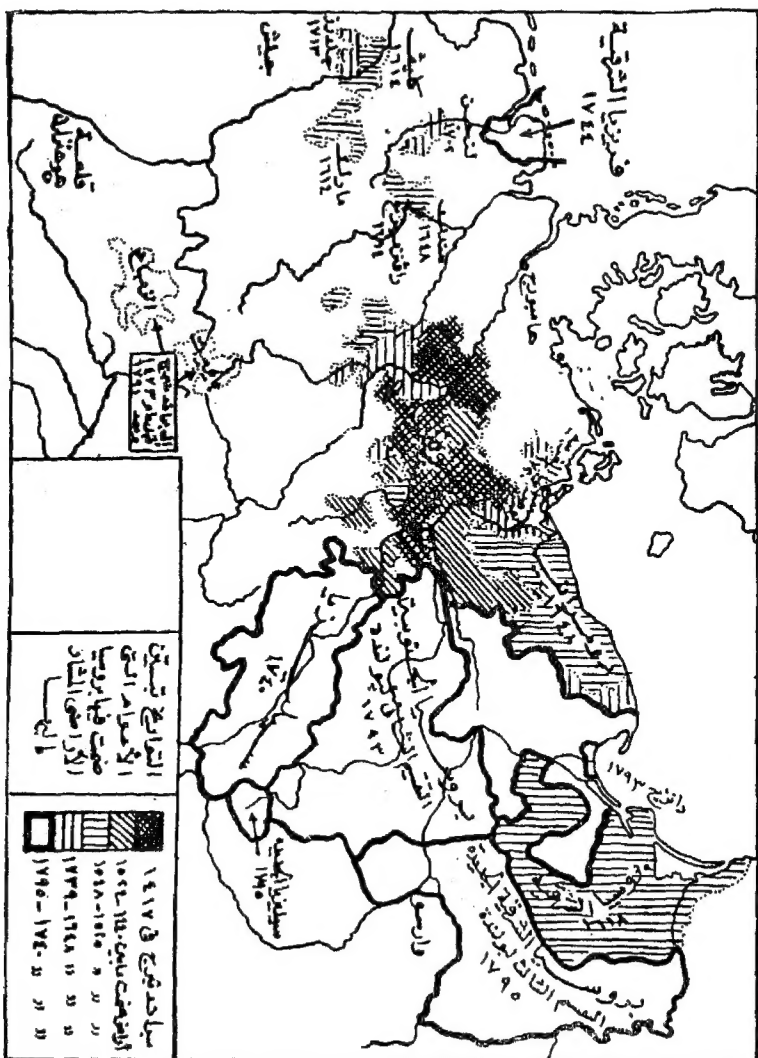
ثورة الأراضي المنخفضة

توزيع الكاثوليك والبروتستانت في أوروبا في عام ١٦١٠



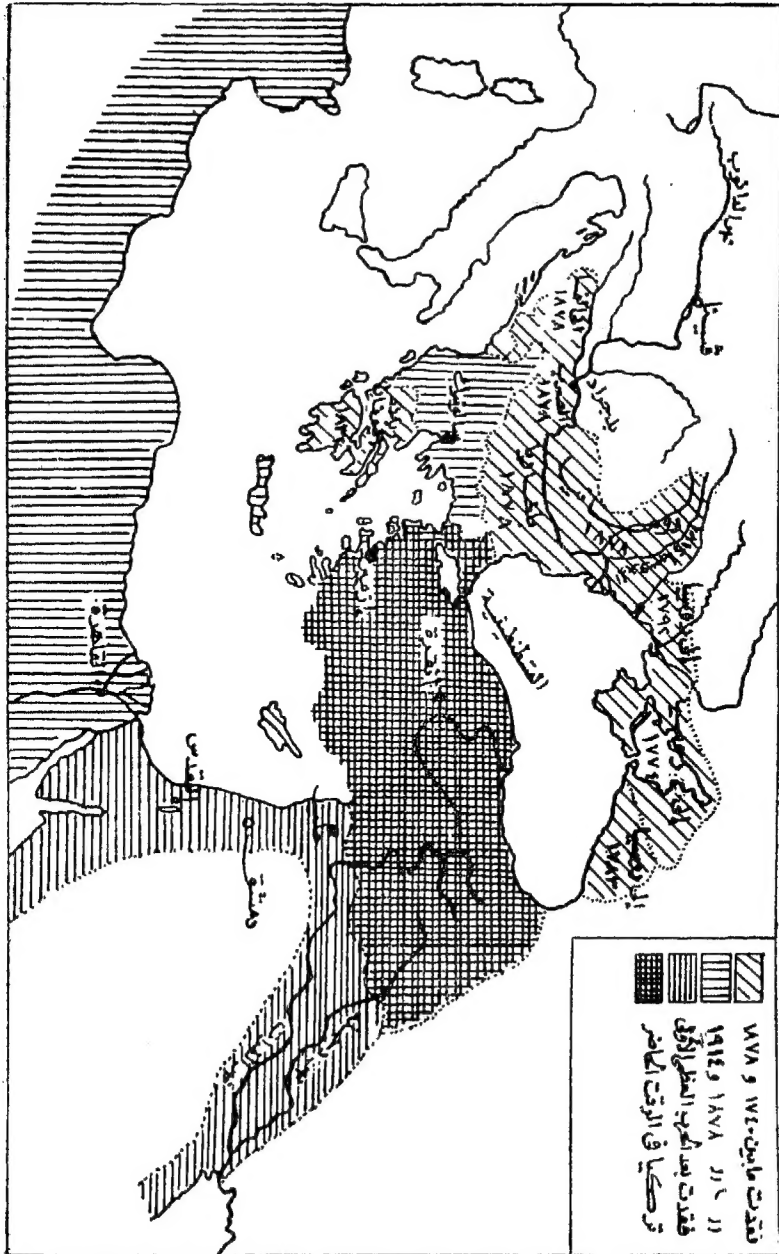


إمبراطورية شارل الخامس في عام ١٨٠٥



التاريخ وفترة براند نبيج جبر وسيا

ضعف الإمبراطورية العثمانية



مطابع دار المعارف بمصر

١٩٧٠

أصول التاريخ الأوربي الحديث

يتناول هذا الكتاب بالعرض والتحليل تاريخ أوروبا منذ عصر النهضة حتى الثورة الفرنسية ، فهو يعرض لفترة تمت فيها المقومات المادية والمعنوية التي أخرجت أوروبا إلى حيز القوة ودفعت بها دفعا إلى خارج حدودها : في الأمريكتين وفي آسيا وإفريقيا وأستراليا . وهو ليس سردا لتاريخ حضارى صرف ، أو عرضا تاريخيا جافا ، وإنما هو مزاج لذلك كله في إطار جميل من البيان الناصع .

وينشر هذا الكتاب تم مجموعة كتب تاريخ أوروبا لهربرت فيشر بعد ترجمتها إلى اللغة العربية .

١١٠

Bibliotheca Alexandrina



0244138